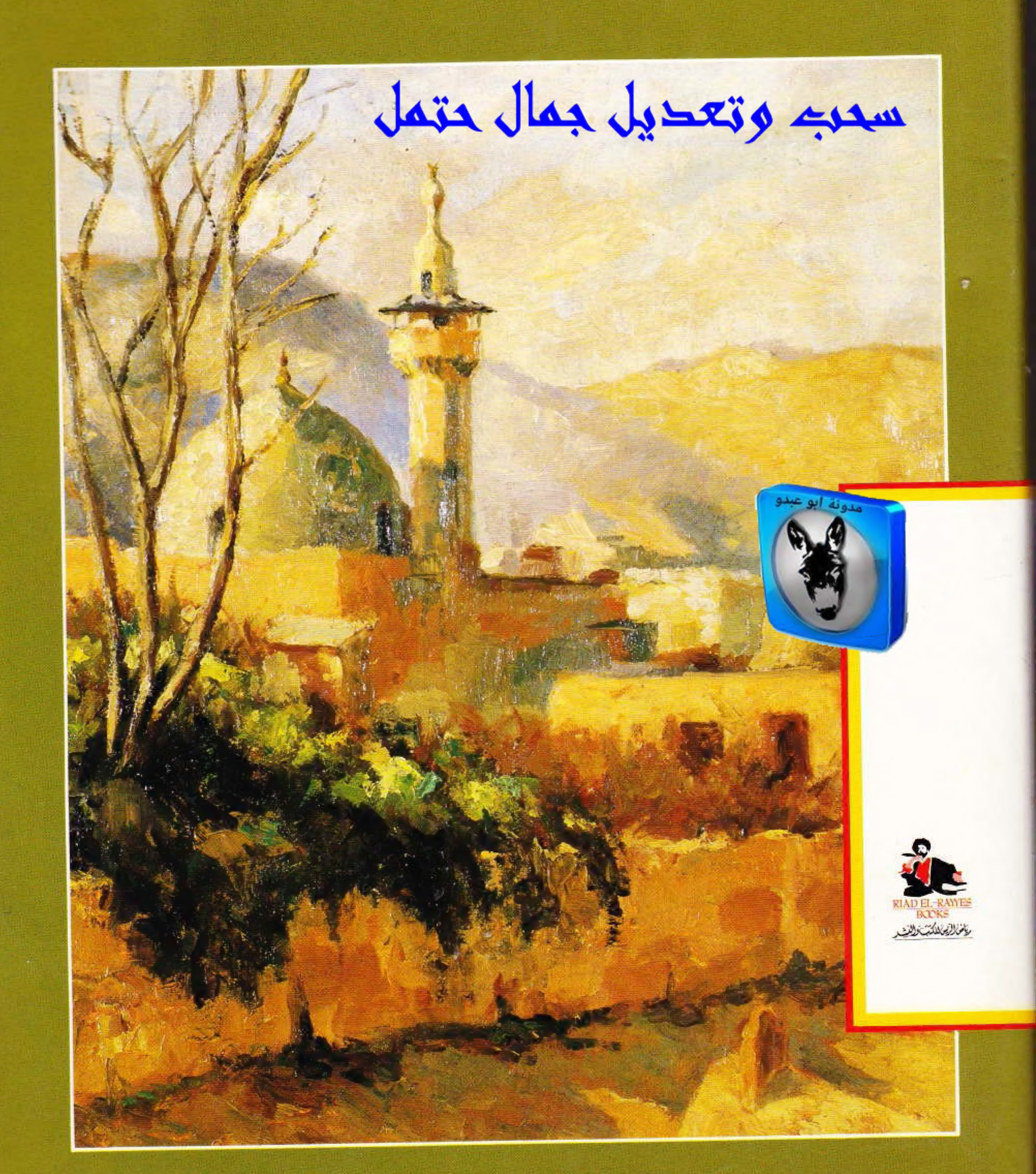
عَبد العزيز العظمة

مرآة الشام

تاريخ دمشق وأهلها



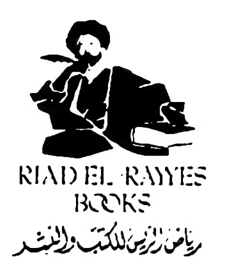
الغلاف: لوحة للفنان محمود حمّاد - دمشق باب
الصغير ١٩٤٧.

عَبد العـزيز العظمـة

مرآة الشـام

تـاريخ دمشق وأهلهـا

تحقيق: نجدَة فتحي صَفوَة



RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
4; Sloane Street, London SW1X9LA

Mirror of Syria

by

ABDUL AZIZ AZMEH

First Published in Great Britain in 1987

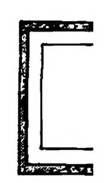
4 Sloane Street, London SW1X 9LA

British Library Cataloguing in Publication Data

Azmeh, Abdul Aziz
Mirror of Syria.
1. Syria——History
I. Title
956.91 DS95
ISBN 1 - 869844 - 77 - 7

Photosetting by: Riad El-Rayyes Books Ltd., London
Printed & Bound in Great Britain By: Biddles Ltd., Guildford & King's Lynn

محتويات الكتاب



توطئة

صورة لدمشق الحية

صدّر مؤلف هذا الكتـاب ـ وهو الجدّ الأكبر لكاتب هذه السطور ـ مخطوطة مؤلفه برسالة قصيرة لأولاده، هذا نصّها:

«هذا محصول ست سنوات من سني الشيخوخة حاولت بواسطته التغلب على كابوس الهموم الذي داهمني بسبب فراقكم. وحينما شرعت به كان بسيطاً اقصد منه التسلية فقط. فلما تعمقت في البحث أضفت إليه بعض تعليقات اقتضتها خدمة الحقائق.

وقد إتبعت في كل ما كتبته صوت الضمير وحريّة الراي والنظر. فلا ابيح حذف أو تعديل اي بحث أو فقرة منه ولو خالف في السياسة مذهبكم وشذّ عن عقيدتكم. فامّا أن تقبلوه على علاته ولكم الخيار بطبعه او نشره، وإما ان تهملوه فيبقى مكتوماً بيني وبينكم. والسلام».

والكتاب عرض لدمشق الشام في مرآة التاريخ، كتبه مؤلفه في عهد الانتداب الفرنسي* الذي لم يكتف بقتل أخيه الشهيد يوسف العظمة في يوم ميسلون، بل حكم على ولده نبيه بالإعدام، وسجن ثم نفي ولده الثالث عادل. الكتاب إذن نتاج شيخوخة اتّسمت بغياب ولديه في المنفى السياسي حتى الاستقلال (عدا رجوع قصير إبّان المعاهدة السورية ـ الفرنسية لعام ١٩٣٨)، كما إتّسمت بإنهيار و إضمحلال العالم الذي تربّى وعمل فيه عزيـز العظمة، عالم الدولة العثمانية في مرحلتها الأخيرة، بنظامها السياسي، وعقلانيتها التنظيمية، و«رابطتها العمومية» التي كانت ذات أهمية كبرى للمؤلف الذي رأى فيها الهدف الأساسي للثورة العربية والتشجيع الأوروبي لها.

من هنا نهى المؤلف أولاده عن «حذف أو تعديل أي بحث أو فقرة منه ولو خالف في السياسة مذهبكم وشذّ عن عقيدتكم»، عقيدة القومية العربية بشكلها المبكر المعادي للسلطنة العثمانية التي أدت الى قيام الدولة العربية في سورية والتي شارك فيها يوسف ونبيه وعادل العظمة. ولما كان إنتفاء السبب يؤدي إلى إنتفاء المسبب، فإننا نسمح لأنفسنا الآن بنشر هذا الكتاب ناقصاً دون الاخلال بوصية المؤلف. ذلك أننا قد نختلف معه في بعض الراي، وهذا شأن طبيعي، الا أننا لم نحذف ولم نعدّل من الكتاب الّا ما سنشير إليه في الفقرات القادمة، دون أن تحتوي هذه الأجزاء على شؤون كانت معرضاً للخلاف السياسي أو العقائدي بين المؤلف وولديه. بل إننا تعمدنا إنصافاً للمؤلف و إبرازاً لحقائق التاريخ ان ننشر نقاش المؤلف للثورة العربية الكبرى وآراءه في سليلي شرفاء مكّة.

مؤلف الكتاب عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن العظمة. ولد في دار عائلته في الشاغور بدمشق يوم الأربعاء ١٥ كانون الثاني عام ١٨٥٦، وتعلّم في كتّاب الشيخ يوسف الداراني حيث ختم القرآن. ثم إنتقل الى مدرسة الشيخ عبد اللطيف الصوفي بالقرب من حمّام القاضي، وبعدها الى مدرسة عبد الصمد أفندي الطاغستاني في جامع يلبغا، وأخيراً الى المدرسة الرشدية الملكية في قبّة الملك الظاهر.

إنتقل عزيز العظمة إذن في مراتب النظام التربوي الذي نتج عن التنظيمات العثمانية ـ وهي أهم حركة تحضيرية وتمدينية في تاريخنا العربي في القرن التاسع عشر ـ حتى دخل سلك موظفي الدولة في

سن الرابعة عشرة. ودام يترقى في سلم الوظائف العسكرية - المدنية حتى رئاسة كتّاب دائرة أركان الحرب سنة ١٨٩٢. وفي غضون ذلك، وبالاضافة الى وظيفته، عهد إليه بالاشتراك في تحرير جريدة «سورية» الرسمية لمدة خمسة عشر عاماً. وبعد ذلك عيّن مؤلف هذا الكتاب مديراً للشعبة الأولى في إدارة الجيش العثماني السابع في اليمن. فاقام في مدينة صنعاء لمدة أربعة أعوام، عيّن بعدها متصرفاً للواء الحديدة في اليمن(*)، فمتصرفاً للواء العمارة والمنتفق في ولاية البصرة، فمتصرفاً للواء نابلس، وأخيراً متصرفاً للواء طرابلس الشام حيث طلب إحالته على المعاش بعد خدمة للدولة العثمانية استمرّت خمسة وثلاثين عاماً. وعند إندلاع الحرب العالمية الأولى بعد مضي أكثر من خمس سنوات على تقاعده، كلّف المؤلف برئاسة «جمعية المدافعة الملّية» التي انيط بها تجهيز المستشفيات وإعانة الجنود العثمانيين بأساليب شتّى. وكان ممن أعطي لمعاونته في هذه الجمعية عبد الرحمن اليوسف وعوني القضماني عضو مجلس المبعوثان.

بعد إنتهاء الحرب عاد المؤلف الى داره في المزّة والمشرف على وادي النيربين، حيث إعتكف وانكبّ على المطالعة والكتابة. ثم انتقل في أواخر عمره الى منزل في محلة الحبوبي بدمشق، حيث وافته المنية في عام ١٩٤٣.

المؤلف إذن رجل مخضرم عاش في إحدى المراحل المفصليّة في تاريخنا الحديث. ومن هنا تبرز أهمية هذا الكتاب. إحتوى الكتاب في الأصل على ثلاثة أجزاء(*) يبحث أولها في طوبوغرافيا وأثنوغرافيا مدينة دمشق، القسم الأكبر في الصفحات الآتية. أما الجزءان الثاني والثالث فهما يبحثان في تاريخ بلاد الشام، ومركز دائرتها دمشق، منذ أقدم العصور. يستعرض المؤلف في هذين الجزئين العهود التي مرت على الشام في ظل الأمويين والعباسيين والسلاجقة والزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، بالايجاز حيناً وببعض التفاصيل في أحيان أخرى. وليس في هذين الجزئين ما لا يمكن أن يجده القارىء في تواريخ أخرى لدمشق ولبلاد الشام، ولذلك سمحنا لأنفسنا أن نحذف هذين الجزئين عدا الأقسام الأخيرة من الجزء الثالث. تلك الأقسام التي تعالج نهايات الدولة العثمانية وبدايات الاستعمار الفرنسي.

يصف المؤلف طوبوغرافيا مدينة دمشق، ومناخها، واقتصادياتها، وعاداتها، وتقاليدها، كما كانت عليه قبل التحولات، وصفاً متقصياً دقيقاً. ويعلق عزيز العظمة على التحولات التي رآها مقبلة من منظور رجل عثماني شهد إنهيار عالمه من حوله، ورأى في الأخلاق والتربية ما يؤدي الى استتباب النظام السويّ للأشياء، وفي إنحلال الأخلاق والعادات الاجتماعية منفذ الاستعمار الغربي والانهيار. ولذلك فإن المؤلف يعلق على الأحداث التاريخية والسياسية وعلى التحولات الاجتماعية التي عاينها، تعليقات أخلاقية توخّى منها الاصلاح. وفي هذه التعليقات آراء وعظات قد يعتبر بها من شاء الاعتبار، وقد يستفيد منها من شاء الاطلالة على نوعيّة من الرأي العام كانت ذات أهمية بالغة، وما زالت ذات أثر في مجتمعاتنا، ولو لم يبق لها نفس البروز والعمومية السابقة.

من أهم هذه الآراء التشديد على وحدة الشرقيين في مواجهة الاستعمار الأوروبي، وهذا الرأي أدى بالمؤلف الى الهجوم على الثورة العربية التي شارك ولداه في بعض مراحلها، وأدى به الى التشديد على العروة الاسلامية التي ربطت بين العرب والأتراك. بيد أن اسلام عزيز العظمة كان اسلاماً شديد

(*) دوّن عزيز العظمة ملاحظات غنية حول اليمن في دفتر له باللغة التركية مودع في دار الكتب بصنعاء. وكانت هذه الملاحظات موضوعاً للدراسة التالية:

J. Mandavill, Memduh Pasha and Aziz Bey: Ottoman Expertience
in the Yemen, in Contemporary Yemen.
Politics and Historical Background, London, Croom Helm, 1984

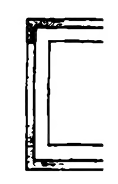
(*) الأصل مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

الانفتاح والاستنارة، بعيداً أشدّ البعد عن التشنج العصابي الذي يسم بعض دعاته اليوم. كان اسلام مؤلف هذا الكتاب عقيدة خاصة وعلامة على أسس أخلاقية عامة، وذلك بشكل يتوافق مع إسلام الدولة العثمانية في عهد التنظيمات الكبرى. ولذا فقد كان إسلاماً سمحاً منفتحاً واقعياً. فلم يجد عزيز العظمة اي حرج مثلاً في التاكيد على أنه في ظل التحولات القانونية لعهد التنظيمات، أصبحت وظيفة الافتاء أمراً عفا عليه الزمن. كما أن إسلام عزيز العظمة وعثمانيته توافقتا مع إعتزاز عروبي لا يجعل من العروبة عقيدة عصابية، ولا عنواناً لإحتقار الغير، ولا مدعاة للنرجسية المرضيّة.

ليس من المستغرب أن تتماشى هذه الآراء مع نزعة محافظة إجتماعياً، خصوصاً فيما يتعلق بالحجاب والسفور والاخذ ببعض العادات الاجتماعية الأوروبية. ليس هذا غريباً لانه ينمّ عن ثقة بالنفس من قبل فئة إجتماعية إستندت في ثقتها هذه على نظام إجتماعي محافظ وعلى إستمرار هذا النظام. وقد كان المؤلف شاهداً على التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي رأتها دمشق في القسم الأول من هذا القرن. وقد ترك لنا سجلاً دقيقاً للأثر الاقتصادي المباشر للاستعمار الفرنسي على مدينة دمشق وعلى بلاد الشام بشكل عام، فضلاً عن سجله للتغيّرات الاجتماعية وغيرها.

واليوم، وبعدما يزيد على نصف قرن من تدوين هذه المرآة للشام، نقوم بإحياء ذكرى المؤرخ الراحل وذكرى دمشق التي مضت، بنشر هذا الكتاب بما فيه من صورة حيّة لدمشق ولأهلها كما كانت قبل ان نألفها.

الدكتور عزيز العظمة



مقدمة المحقق

في أهمية هذا الكتاب

لم اتـردد كثيرا حين تفضلت (شركة رياض الريس للكتب والنشر) فعهدت اليّ بتحقيق كتاب (مرآة الشام) لعبد العزيز العظمه، واعداده للنشر. إن قراءة سريعة لمسودة الكتاب كانت كافية للدلالة على اهميته، وفائدته، وجدارته بالنشر. وقد كانت قراءته ممتعة. ولذلك توقعت ان يكون العمل في تحقيقه ممتعا أيضا.

وتعود اهمية الكتاب بالدرجة الأولى الى سببين رئيسيين:

أولهما، تسجيله في القسم الأول كثيرا من المعلومات والتفاصيل الدقيقة عن الحياة الاجتماعية في دمشق في الجيل الماضي، مما لم يسبق تدوينه ـ فيما أعلم ـ بهذا القدر من الإحاطة والشمول في أي كتاب آخر. وهي معلومات وتفاصيل لا شك في أنها كانت معروفة للكثيرين في زمانها، ولكن لم يعن أحد غير مؤلف هذا الكتـاب بجمعهـا وتـدوينها، حتى أصبحت مهددة بالضياع بسبب زوال الأغلبية الساحقة من معاصريها تدريجيا. ولو شاء باحث في تاريخ سورية السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي الحصول عليها اليوم من مصادر أخرى، لاقتضى ذلك الرجوع الى كثير من الصحف القديمة، والمصادر المتفرقة الأخـرى، أو الاستفسار من القلة التي تتذكر بعض جوانبها، أو انتقلت اليهم من آبائهم أو أمهاتهم أشتات منها. ولعلها، بعد ذلك كله، تبقى ناقصة الى حدّ كبير.

أما السبب الثاني، فهو أن الكتاب يحتوي في قسمه الثاني على آراء ومواقف من قضايا مهمة تتعلق بتاريخنا القريب، قلما أعرب عنها كاتب أو مؤرخ عربي بهذه الصراحة. وهي آراء ومواقف قد نتفق فيها مع المؤلف، وقد نختلف، ولكنها تبقى جديرة بالتسجيل، لكي تطّلع الأجيال القادمة على شتى وجهات النظر بشأنها، وتكون للمؤرخين مادة جديدة، يناقشونها ويقيّمونها.

إن القضيـة المثيرة للخلاف في هذا الكتاب، هي آراء مؤلفه في علاقة العرب بالدولة العثمانية، وفي الثـورة العـربيـة التي قام بهـا الشريف حسين، امير مكة، خلال الحرب العالمية الأولى، بالاتفاق مع بريطانيا، وهدف بها الى الانفصال عن الدولة العثمانية، واقامة دولة عربية مستقلة.

وهنالك باللغة العربية كتب عديدة عن الثورة العربية، والفترة التاريخية التي حدثت فيها، وهي مؤيـدة لأهـدافها، تشرح مبادئها وأحداثها بكثير من العطف والتأييد. ولعل أهمها، من حيث قيمتها العلمية والموضوعية ـ «يقظة العرب» لجورج انطونيوس ـ الذي صدر بالانكليزية ثم ترجم الى العربية مرتين ـ و «الحركة العربية» لسليمان موسى، و «الثورة العربية الكبرى» لأمين سعيد و «نشأة الحركة العربية الحديثة» لمحمد عزة دروزة، وكتب معدودة أخرى.

ولكن «الثورة العربيــة» كان لها أيضا خصومها أو معارضوها من العرب، مثلما كان لها انصارها

المتحمسون لها. ومن أبرز من عارضها من الشخصيات الوطنية، او لم يوافق عليها، الأمير شكيب أرسلان، والشيخ محمد رشيد رضا، اللذين سجلا آراءهما في تلك الثورة في مقالاتهما التي نشراها خلالها أو في أعقابها. ومع ذلك لم يصدر باللغة العربية حتى الآن كتاب واف يعوض وجهة النظر المعارضة للثورة، ويناقشها مناقشة منطقية هادئة، بل لا نكاد نجد لوجهة النظر هذه من صدى في الكتب العربية بصورة عامة، (ربما باستثناء كتاب الدكتور أنيس صايغ: «الهاشميون والثورة العربية»).

ولا شك أن كثيرا من المعلومات التي تحتويها كتب التاريخ الصادرة في البلاد العربية، وفي اقطار أخرى، ذات أنظمة حكم معينة، تتحكم فيها الاعتبارات السياسية الآنية، وخاصة في الكتب المدرسية. ولذلك فإن تلك المعلومات تكون على الدوام معرضة للتعديل، وقابلة لمناقشات جديدة عند تغيّر الظروف، أو ابتعاد الأحداث بمدة كافية، بحيث يمكن اعادة تقييمها بمزيد من الموضوعية والتجرّد. وذلك أحد الأسباب التي تجعل التاريخ علما حيا متجددا، وليس جامدا، يجب أن تعاد كتابته ثم تعاد.

ولما كانت أحداث «الثورة العربية» قد ابتعدت الآن بدرجة زال معها الحرج السابق في مناقشتها من كل جوانبها، فقد أصبح نشر هذا الكتاب وأمثاله ممكنا، كما أن نشره قد يكون حافزا على اعادة النظر في تلك الأحداث، والتوصل الى بعض الأحكام والاستنتاجات الجديدة.

وهذا ما يجعل الكتاب مثيرا للاهتمام، سواء إتفقنا مع ما جاء فيه أم اختلفنا.

ويعرض مؤلف الكتاب أيضاً آراء جريئة، وحقائق لم يكن معظمها معروفاً إلا للقلة أو الخاصة، عن بعض الشخصيات التي مجّدها المؤرخون ـ من عرب وأجانب ـ أو اسبغوا عليها من الثناء فوق ما تستحقه، أو ألصقوا بها تهماً خطيرة، قد تكون صحيحة، وقد لا تكون، حتى إرتسمت في أذهان الناس عنهم صور تختلف عن حقيقتهم بعض الاختلاف أو كل الاختلاف. ومن تلك الشخصيات ـ مثلا ـ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي إقترن اسمه على الدوام بالظلم والاستبداد والارهاب. وهي الصورة التي صوّره بها الاتحاديون الذين خلعوه، ومن بعدهم الكماليون الذين قضوا على العهد العثماني نهائياً، حتى أصبح اسمه لا يذكر في تركية الّا همساً، وبعد أن يتلفت المتحدث يمنة ويسرة قبل أن يلفظه، مخافة أن يسمعه سامع فيشي به. بل أن كثيرين من الأتراك غيّروا أسماءهم أو اسماء أبنائهم من «عبد الحميد» الى «حامد»، أو «حمدي» مخافة أن يتهموا بالانتماء الى العهد الحميدي أو العطف عليه. ولكن لم يمض على الاطاحة بعبد الحميد جيل واحد زالت خلاله الاعتبارات السياسية الآنية، إلا وقامت في تركية نفسها، وكذلك في دوائر علمية أخرى خارجها، حركة قوية لاعادة إعتبار ذلك السلطان الذي كان رمزاً للظلم والطغيان، فصدر عنه الكتاب تلو الكتاب، وعاد الكتّاب الى اظهار الجوانب الايجابية في شخصيته، وتصويره حاكماً مصلحاً، ورجلا متديناً ورعا، صحيح الاسلام، يعمل لصالح المسلمين، ويأبى ـ مثلاً ـ قبول القروض الأجنبية حرصاً على استقلال بلاده، ويرفض التخلي عن شبر واحد من أرض فلسطين للصهاينة، تجاه أقوى المغريات التي كان حكمه بأمسّ الحاجة الى قبولها، قائلاً إن البلاد ليست ملك يمينه، وإنما هي ملك «لشعبها».

ومن تلك الشخصيات التي يعرب المؤلف عن آراء جديدة وجريئة فيها هي شخصية إبراهيم باشا، وخاصة في حملته على سورية، وجمال باشا، الملقب بالسفاح، وعدد من الشخصيات السياسية العربية منهم علي رضا باشا الركابي، والعلامة محمد كرد علي الذي يناقش كتابه المشهور (خطط الشام) مناقشة

لا هوادة فيها، مفنداً كثيراً من محتوياته بأدلة بعضها قاطع، وبعضها جدير بكثير من التأمل والاعتبار.

ويتألف الكتاب في نصه الأصلي من ثلاثة اقسام تكاد تكون منفصلة ومتميزة بعضها عن بعض بصورة واضحة. فالقسم الأول عرض شامل في «طوبوغرافيا» و«اثنوغرافيا» مدينة دمشق. ودراسة انثروبولوجية وإجتماعية لها: أرضها وطبيعتها وسكانها، وطرقها وتقسيماتها البلدية، وحاراتها وشوارعها وأزقتها، وأسواقها ودورها، وعادات أهلها في مسكنهم وملبسهم ومأكلهم وأخلاقهم ومدارسهم، والنظام التعليمي فيها وتطوره. وموارد العيش فيها وتجارتها وصناعتها ووارداتها ونباتاتها ودوابها. ويحتوي هذا القسم على معلومات تفصيلية دقيقة قلما توجد مجتمعة في مكان آخر.

أما القسم الثاني، فقد جمع فيه المؤلف ـ على قوله ـ «خلاصة ما عثر عليه من اخبار العرب»، فعرض تاريخ الأمة العربية منذ عهد سام بن نوح وتحدث عن الآراميين والعبرانيين والآشوريين، والبابليين، والمصريين، والفرس. واليونان، والسلوقيين، والرومانيين، والغساسنة، وروما الشرقية، حتى إنبلاج صبح الاسلام واستنارة العالم به، والغزوات المباركة، والخلفاء الراشدين، والأمويين، وفتح الأندلس، والخلافة العباسية والحكومات التي إنشقت عنها، ثم الطولونيين، والاخشيديين، وبني حمدان، والفاطميين، والسلاجقة، والحملات الصليبية، وعهد نور الدين الزنكي، وصلاح الدين الأيوبي، ودولة المماليك في مصر والشام، ثم غزو التتار، وتيمور لنك، والخلاف بين مصر والقسطنطينية، وسلاطين آل عثمان، والولاة العثمانيين في بلاد الشام، ثم بني العظم وظاهر العمر.

وكان هذا القسم يؤلف في حجمه ثلث مجموع صفحات الكتاب بالضبط. ولكنه، على أهميته، والجهد الذي بذل في جمعه وتلخيصه، عبارة عن مختصر لما جاء في كتب التاريخ الاخرى عن هذه الحقب المتتالية. وهي مادة يمكن مراجعتها في أي كتاب، وبمزيد من التفصيل. ولذلك ارتؤي حذفه.

وأما القسم الثالث من الكتاب فهو يتناول تاريخ بلاد الشام إبتداء من عهد التدخل الأجنبي والتنظيمات العثمانية، ويبدأ من حملة نابوليون على مصر والشام. ويعرض أحوال سورية في عهد السلطان محمود، وأحمد باشا الجزار وسائر الولاة العثمانيين حتى عهد «جمعية الاتحاد والترقي»، وانهيار السلطة العثمانية، والحرب العالمية الاولى، وتقسيم أحداثها وأهدافها ونتائجها بصراحة تامة. ثم يتناول الحكومة العربية في الشام في عهد فيصل، وأخيراً موقعة ميسلون (التي كان قائدها اخوه يوسف العظمة، وسقط فيها شهيداً) والاحتلال الفرنسي، وعهد الانتداب، والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها سورية في هذه العهود. وقد ناقش المؤلف في هذا القسم أيضاً صكّ الانتداب مادة مادة، وكيفية تطبيقه عملياً، وما وقع على الشعب السوري من ظلم فادح، وما اتخذ من اجراءات تتعلق بمصيره ومستقبله خلافاً لرغبات أهله، ودون استشارتهم، وكذلك أعمال وتصرفات سلطات الانتداب في سورية ولبنان.

وفي هذا القسم أضفى المؤلف على ما سرده من أحداث تاريخية، آراءه وتحليلاته وشخصيته. وشخصية المؤلف تظهر في الكتاب، وخاصة في هذا القسم منه، جلية واضحة المعالم دقيقة الخطوط، ويكاد القارىء يشعر، كلما مضى في القراءة، إنه يزداد معرفة بالمؤلف، حتى إذا فرغ منه أصبح وكأنه يعرفه كما يعرف المرء شخصاً عاشره مدة طويلة. ويظهر من محتويات الكتاب أن مؤلفه عبد العزيز العظمة كان رجلاً على جانب كبير من الثقافة التاريخية، مؤمناً بقوميته العربية، ومتمسكاً بالقيم الاسلامية التي يرى فيها الحل الوحيد لجميع مشكلات بلاده وأمته. وكان بوصفه موظفاً قضى سنوات عمله في خدمة الدولة العثمانية، من الشام الى العراق الى اليمن، حريصاً على الوحدة الاسلامية التي كان

يجدها متمثلة في الخلافة العثمانية، ولذلك فإن تفكك تلك الخلافة وسقوطها، وثورة العرب عليها في رأيه لم تحقق لهم فائدة تذكر، بل كانت سبباً في المشاكل والنكبات التي توالت عليهم وشتتتهم الى دول صغيرة متناحرة، بعد أن كانوا جزءاً من كيان اسلامي موحد، يؤلف قوة دولية كبرى.

وإلى جانب ذلك فهو يبدو رجلاً يتمسك بالقيم الاخلاقية في السياسة وفي الحياة الخاصة على السواء، ويكره النفاق، ويحتقر التقلب السياسي، والانتهازية، ويحاول تعرية من حاولوا اللجوء الى أساليبها تحقيقاً لمآربهم، أو حفاظاً على مناصبهم.

ويدافع المؤلف عن أفكاره هذه بكل حماسة وقوة، ويورد عليها ما لديه من ادلة كلما عنّت مناسبة، وهو بذلك يمثل الجيل الذي نشأ في كنف الدولة العثمانية، وآمن بسياستها، وإن لم تخف عنه مساوئها ونواقصها. فلما شهد ما آلت اليه حالة بلاده بعد تفكك ذلك الكيان، وإقتسامها من قبل الدول الاستعمارية الغربية، إزداد لها تأييداً، وإليها حنيناً. وقد شرع المؤلف في كتابة هذا الكتاب وهو في الرابعة والسبعين من عمره، وفرغ منه وقد بلغ الثمانين، إذ يذكر انه شرع في كتابه في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٤٨هـ (وهو حريص على الدوام، وبقدر الامكان، على ذكر الاحداث بتواريخها الهجرية دون الميلادية، وان كان يدوّن في بعض الأحيان كليهما معاً) ويوافق ذلك التاريخ يوم ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٠، ولما كانت ولادة المؤلف في سنة ١٨٥٦ ـ على ما ذكر الدكتور عزيز العظمة في توطئته القيمة ـ فيمكننا أن نستنتج انه كان في الرابعة والسبعين أو نحوها. أما فراغه منه فلم يذكر تاريخه، ولكن ذكر في وصيته المثبتة في صدر الكتاب أن وضعه استغرق ست سنوات، وبذلك يكون فراغه منه في أواخر سنة ١٩٣٦ أو اوائل سنة ١٩٣٧، وذلك قبل نشوب الحرب العالمية الثانية بسنوات قلائل، حينما كانت سورية ما تزال تحت الانتداب الفرنسي.

وفي الكتاب هوامش واستطرادات أخرى من هذا القبيل. ومع ذلك فقد اثبتناها جميعاً، كما وردت في المسودة، لأنها على الرغم من خروجها عن موضوع الكتاب في بعض الحالات، تضفي عليه سمة من التشويق والتنويع، كما أن المؤلف ـ بطبيعة الحال ـ لم يكن كاتباً محترفاً. ولا مؤرخاً اكاديمياً، وهو لم يدّع ذلك لنفسه، وإنما كان يكتب على سجيته، ويسترسل في تدوين خواطره كما تسنح له.

وقد أضاف محقق الكتاب عليه هوامش قليلة، وجد أن الضرورة تقتضيها، ومعظمها يتضمن تعريفاً بأشخاص وردت اسماؤهم في النص. وقد ذيلت هذه الهوامش بالحرفين الأولين من إسم المحقق، تمييزاً لها عن هوامش المؤلف.

ان النسخة الاصلية من الكتاب محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق. أما النسخة التي قمنا بتحقيقها ـ ولقينا منها نصباً ـ فهي منقولة عنها، ولكنها ـ على الرغم من انها منسوخة بالآلة الكاتبة ـ رديئة الكتابة الى حد بعيد، مثقلة بالاخطاء، التي إزدحمت بها معظم صفحاته. مما جعل التوصل الى حقيقة ما أراده المؤلف وما كتبه على جانب كبير من الصعوبة في بعض الأحيان. وهنالك آيات من القرآن الكريم إستشهد بها المؤلف في غير مكان، فوردت مغلوطة بسبب هذه الطريقة فيما نعتقد، كما أن كثيراً من الأسماء الأجنبية والتركية، وحتى العربية، وردت مغلوطة أو مشوهة، فتوصلنا الى أصلها من القرائن المختلفة، أو من مراجعة المصادر المتوافرة.

وكانت في المسودة أيضا أخطاء نحوية ولغوية كثيرة. وذلك لا يستغرب من رجل نشأ في العهد العثماني، وتلقى دراسته في ذلك العهد، وكان طيلة حياته العملية يصرّف أعماله ويكتب تقاريره ومراسلاته باللغة التركية. ولذلك اضطررنا الى تقويم كثير من عبارات الكتابة بما ينسجم وأساليب

الكتابة العربية، دون المساس بالمعنى. ومع ذلك، فان لغة الكتاب، بصورة عامة، لا يمكن أن توصف بالركاكة أو العجمة. وعلى الرغم من حرصنا الزائد على التقيد بأصل الكتاب لم نر بدّاً من تصحيح الأخطاء النحوية الصارخة، وتنقية بعض الشوائب التي تخل بالكتاب، وقد كانت المسودة التي بين ايدينا خالية من علامات الترقيم خلواً تاماً، وبصورة مربكة للقارىء، مفسدة للمبنى ومخلّة بالمعنى، لذلك أدخلنا على النص تلك العلامات حيثما كانت ضرورية.

وقد عولنا على اعداد فهرست شامل للكتاب استكمالاً للفائدة، ولا نظن أن أي كتاب يصدر في هذا العصر يكون كاملاً ومفيداً بدون فهرست للأعلام.

نجدة فتحي صفوة

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل من الأولين للآخرين عبرة وذكرى، والصلوة والسلام على خير خلق الله طرّا.

اما بعد، فإنّي بينما كنت اعيد النظر في كتابي المسمّى «تحديث النعمة في تاريخ بني العظمة»[*] اذ عنّ لي ان أشرح ما جاء فيه من الاعلام. ولما استخرت الله وشرعت بالعمل اعترضني إسم دمشق كالطود الشامخ، وعبثاً حاولت التخلص منه باختصار. فإن تنوّع المواد وكثرتها، و إرتباط بعضها ببعض، وتبدّل العادات التي كاد يقضي عليها الزمن ويلقيها في زوايا النسيان، ثم تطور الاخلاق والآداب الاجتماعية وتفاقم الخطوب السياسية، اضطرني الى إطالة الشرح و إيداعه هذه الأوراق عسى أن يجد فيها من يراها، مما لذ وراق.

وأني ـ والله اعلم بالسرائر، بين يأس وأمل، وصحة وعلل، لا خليل يواسيني، ولا أنيس يناجيني، فاتخذت هذا الكتاب نعم الوسيلة للسلوى، اذ هي ولا ريب خير من الشكوى. فجاء على قدر إستطاعتي لا على قدر رغبتي، وليس في الامكان أبدع مما كان.

وها هو ذا على علّاته يعرض على نظرك أيها القارىء الكريم ويؤمل غضّ الطرف عمّا حواه من الهفوات والزلات. و إنما الأعمال بالنيات.

وكان الشروع به في سفح قاسيون في ١٥ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٤٨[**]

ع

(*) مخطوط في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق.

(**) يوافق ١٤ نيسان (ابريل) ١٩٣٠ ميلادية. (ن.ص)

القسم الأول

المدينة

١

دمشق

دمشق[١] وتسمّى ايضاً الشام[٢] وجلّق[٣] وجيرون[٤] والفيحاء[٥]، مدينة من اقدم مدن العالم، في الدرجة (٢٦) والدقيقة (٣٠) من الطول الشرقي، والدرجة (٣٣) والدقيقة (٢٠) من العرض الشمالي. تعلو عن سطح البحر (٢٥٠٠) قدماً انكليزياً، أو ٨٠٠ متراً.

وهي مبنية على فضاء مستو من الأرض في وسط الغوطة[٦] الغنّاء بين الحدائق والجنان النضرة المحيطة بها من جهاتها الأربع، يشرف عليها جبل قاسيون[٧] البديع، فالقادم اليها من غير طريق هذا الجبل تحول دونه كثافة أشجارها فلا يراها الاّ عند بلوغها.

يحيطها من الربوة غرباً الى بوابة الله، فالعسالي جنوباً، ومنه الى مقابر الموسويين والمسيحيين الصوفانية شرقاً، فحيّ الأكراد شمالاً، ثم المهاجرين فالربوة غرباً ٢٥ ميلا تقريباً[٨].

الشعب

قدم العرب الى «برّ الشام» في الألف الرابع قبل المسيح ولبثوا فيه الى يومنا هذا.

وفي مختلف الأزمان توافدت عليهم جماعات وشراذم من العبرانيين والأشوريين والبابليين والحثيين والمصريين والفرس واليونان والرومان والغال والأرمن والترك والكرد والشراكسة والتتار والافرنج وغيرهم من العناصر السامية والآريّة والقفقاسية المنتمية الى سام ويافث وحام أولاد نوح عليه السلام. فكان منها من باد، ومن عاد الى بلاده، والبقية اندمجت في العنصر العربي وإستعربت معه وأصبح الكل شعباً عربياً واحداً يفاخر بالعروبة ولا ينتمي الى سواها.

وأفراد هذا الشعب رجالا ونساء متوسطو القامات، صحاح البنية، مختلفو بين البياض والسمرة، معتدلو الأمزجة، مفطورون على عبادة المولى سبحانه كل بحسب الطريقة التي شبّ عليها وألفها، وطبوعون على البشر والأنس والذكاء، ذوو عزم وإقدام في أمر تحصيل المعاش، يجيدون انتقاء أفضل الطرق للوصول إليه والحصول عليه، بعيدون عن الكسل والغش والخداع، ميالون بحسب طبيعة اقليمهم الى اللهو والطرب والحظوظ النفسانية، كرام أباة للضيم، لا ينامون على الأسى، ولا يحجمون عن بذل كل ما عزّ وهان في سبيل الذود عن حياض الوطن وحفظ كيانه.. الى غير ذلك من الأخلاق الكريمة والشيم النبيلة المتأصلة في نفوسهم الكبيرة.

النفوس

يسكن مدينة دمشق في الوقت الحاضر ٢٥٠ الف نسمة في عشرين ألف دار، تسعة أعشارهم عرب، والباقون أغراب بين شراكسة وارمن وافرنج وغيرهم ممن جاء في الزمن الاخير ولم يتسنّ له الامتزاج بأهلها بعد.

وهذا سجل الحكومة الرسمي لتحرير نفوسها باعتبار المذاهب عام ١٣١٤ مالية.

المذاهب	الاناث	الذكور	المجموع
مسلمون	٩٤٩٠٢	٨٣٨٠٣	١٧٨٧٠٥
روم اورثوذكس	٣٠٢١	٣١٥٣	٦١٧٤
روم كاثوليك	٢٦٣٥	٢٥٠٥	٥١٤٠
ارمن قدماء (اورثوذكس)	١٦٤	١٩٦	٣٦٠
ارمن كاثوليك	١٠٢	٩٠	١٩٢
سريان قدماء (اورثوذكس أو يعاقبة)	٤٠	٥٧	٩٧
سريان كاثوليك	٢٦٩	٢٤٦	٥١٥
الكلدان	٢٤	٢٤	٤٨
لاتين	٥٦	٣٩	٩٥
مارونيون	١٧١	١٠٣	٢٧٤
انجيليون (بروتستانت)	٥٨	٧٥	١٣٣
موسويّون	٤٥٨٦	٤٩٣٢	٩٥١٨
	١٠٦٠٢٨	٩٥٢٢٣	٢٠١٢٥١

ذاك هو ضبط النفوس الرسمي نقلناه بأرقامه، على أنه بعهد ذلك التسجيل هاجر الى دمشق في السنوات الأخيرة زهاء عشرة آلاف أرمني، خلا أنه يسكنها من الأغراب والسوريين غير الدمشقيين الذين لم يدخلوا في هذا الاحصاء ما يعادل ربع الأهلين أو أكثر، وأن أهل دمشق إعتادوا كتم نفوسهم فوقائع النفوس لا يخبر عنها في أوقاتها، ولا يسجل المولود على الأكثر الا بعد مضي بضع سنوات من تولده، أو حينما يضطر لابراز ورقة التسجيل لدى إحدى دوائر الحكومة أو مدارسها. وكذلك النساء، حتى وبعض الرجال أيضا، ما زالوا غير مسجلين. فلهذه الأسباب لا يمكن أن تكون هذه الكتلة الكثيفة القاطنة في هذه المدينة الوسيعة أقل من ٢٥٠ الف نسمة على أقل تقدير.

وأخيراً صدق تخميننا واعلنت مديرية نفوس سورية انها سجلت في مدينة دمشق وحدها حتى آخر شهر أيار سنة ١٩٣٤ ميلادية (٢٣٨٠٦٤) نفساً، وأفادت عن مقدار النفوس المسجلة في لواء دمشق أيضاً فآثرنا اثباتها، وهي كما ترى:ـ

	النفوس
مدينة دمشق	٢٣٨٠٦١
القرى المربوطة بالمدينة مباشرة والمؤلفة من نواحي المزة ودمر وداريا والك	٥٨٣٩٣
قضاء دوما	٤٣٣١٨
قضاء جيرود	٢٧٦٣١
قضاء النبك	٣٣٦٥٣
قضاء الزبداني	١٧٥٩٥

النفوس	
٢٥٤٦٦	قضاء وادي العجم (قطنا)
٢٦١٨٦	قضاء القنيطرة
٤٧٠٣٠٣	**مجموع لواء دمشق.**

أما نفوس سوريا كلها المسجلة الى سنة ١٩٣٤ فهي هكذا :ـ

٦٦٣٠٥٥	ولاية حلب
٤٧٠٦٠٦	لواء دمشق
١١٦٠٥٤	لواء حماه
١٦٤٠٩١	لواء حمص
٩٣١٤٧	لواء حوران
١٠٥٤١٣	لواء الفرات (دير الزور)
٢١٣٦١	لواء الجزيرة
٢٠٠٨٨٧	لواء اسكندرون
١٨٣٤٦١٤	
٦٣٤٥٥	المسجلون في سنة ١٩٣٤
١٨٩٨٠٦٩	**المجموع**

آخر احصاء الى نهاية سنة ١٩٣٩

النفوس	
٥٤١٦٣٨	محافظة دمشق
١٩٦٨٧٦	محافظة حمص
١٤٢٤٧٤	محافظة حماة
١١٠٦٠٥	محافظة حوران
٧٦٩٦٤٧	محافظة حلب
٢٢١٣٧٧	محافظة دير الزور
١٠٦٣٥٢	محافظة الجزيرة
٧٢٧٣٧	محافظة جبل الدروز
٣٨٠٨٣٢	محافظة اللاذقية
٢٥٤٢٥٣٨	**المجموع**

وهذا مقدار نفوس الدولة السورية باعتبار المذاهب. ١٩٣٤

النفوس	المسلمون	
١٣٠٤٩٣٣ ١٠٩٧٤ ١٤٧٠٢ ٦٩٣٨٩ ١٤٧٢٢	سنية شيعة اسماعيلية نصيرية دروز	
١٬٤١٤٧٢٠	**المجموع**	
	المسيحيون	
٨٩٩١٨ ٦٥٥٦٧ ٣٦٥٨١	**الطائفة الاورثوذكسية** روم أرمن سريان	
١٩٢٠٦٦	**المجموع**	
	الطائفة الكاثوليكية	
٣٣٣٨٩ ١٢٢١١ ١٢٤٢١ ٣٠٤٩ ٤٨٣٩ ٣٩٢٩	روم سريان أرمن كلدان موارنة لاتين	
٦٩٨٣٨	**المجموع**	
٧٥٠٦	**الانجيليون (بروتستانت)**	
٢٦٩٤١٠		
٢١٧٣٠	موسويّون	

١٧٠٤٨٦٠ ١٩٣٥٠٩	المسجلون سنة ١٩٣٤	من مختلف المذاهب
١٨٩٩٣٦٩		

العقار ـ الابنية

يوجد في مدينة دمشق من العقارات المختلفة الأنواع بحسب احصاء الحكومة الرسمي عام ١٩٢٠ ما نذكره فيما يلي:ـ

العدد	النوع	ايضاحات
٨	دور الحكومة	
٢٣٤	جوامع ومساجد	
١٥	تكية	
٥٦	مدرسة دينية	
٥٣	زاوية وتربة	
٥	كنائس	
٣٨	معابد	
٢	مدرستا الطب والحقوق	
١٩١٩٧	دار	
٩٧٥٠	دكان (حانوت)	
٨٩	مقهى	
٤٢	فندق	
١٣٥	خان	
٥١	حمام	
١٦٤	فرن	
٨	معاصر	
٣٥	طاحون (رحى)	طواحين دمشق تدار بالماء وتستعين بالبخار عند قلة المياه. واكبرها واشهرها طاحون الشافية وكيوان والزيتون والشقرا والمرجة والسجن على نهر بانياس والزاوية والدرويشية وباب توما على نهر عقربا وسعيد باشا والشركة والقلعة والحلوانية والجوزة والصلا والاحدى عشرية على نهر بردى وطاحون الشأن على نهر تورا.
٦٢	حاصل (مستودع اخشاب)	
١٢٩	مغزل	
٢	معمل جليد	
١	معمل كهرباء	
١٤٥	أهراء (مستودعات حبوب)	

العدد	النوع	ايضاحات
١٠٦	بابكة (حانوت حبوب)	
٤٦	مخزن	
٢	خان اميري	
٧٨٣	اصطبل	
٤	مستشفى	
٤٢	ثكنة ومخفر	
٦٢٧	سبيل (مورد ماء)	
٣٨	مرآب (كاراج)	
٣١٨٦٨		

وهذا عدا الاماكن التي أنشئت بعد تلك السنة

اللغة

العربية هي اللغة العامة التي يتكلم ويكتب ويعبر بها جميع السوريين على اختلاف مذاهبهم، وقد تستعمل اللغة التركية من قبل بقايا الأتراك ولفيف المهاجرين الأرمن، تليها اللغة الافرنسية لغة الدولة المنتدبة ورهطها، واللغات الانكليزية والايطالية والعبرانية تدرس في مدارس أهلها ولا تتعداها، واللغة الكردية يتخاطب بها الأكراد سكان شرقي قاسيون وهم يقرأون ويكتبون بالعربية والشراكسة ليست لهم لغة مكتوبة.

كانت اللغة العربية كسائر لغات العالم ذات لهجات خاصة تظهر عند النطق بحسب اصطلاح القبائل المنتمية اليها. وأفصحها لغة قريش التي نزل بها القرآن الكريم، فعمت سائر القبائل ثم دخلت مع الفاتحين الى جميع البلاد التي اجتاحها الغزاة في مشارق الارض ومغاربها واستعربت أهلها، المسلم منهم وغير المسلم فتعلمها خواصهم، وتلقنها عوامهم، وألفها جميعهم، فضبطوا قواعدها ودوّنوا معاجمها وراح الأقربون الذين تجمعهم صلة النسب وشراكة الوطن بالعرب لا يتكلمون ولا يتناجون الا بها وحدها. أما الأباعد فإنهم ادخلوا مفرداتها في لغاتهم الأصلية ثم رأوا من البلاغة ادغام الكلمات العربية في الظروف والآلات الأعجمية فأصبحت لغاتهم، وعلى الأخص اللغتان الفارسية والتركية، تؤلف على الأكثر من مصادر عربية بحتة تتبع التصريف الأعجمي فقط، وهكذا رسخت العربية في السنتهم وازدانت بها أسفارهم وأشعارهم.

ولما كان الاسلام قد آخى بين الأبيض والأسود، وكانت اللغة العربية هي الواسطة الوحيدة للتعارف بين المسلمين كافة، وكان الصيني أو الهندي مثلا يتعارف ويتخاطب مع أخيه النوبي او البربري بلغة القرآن دون سواها.

ودام هذا الحال الى آخر ايام الخلافة الاسلامية ولما قضى الكماليون على الخلافة وأعلنوا أن حكومتهم لا دينية، انحلت تلك الرابطة وراجت دعاية القوميات وأخذ كل من الأقوام الاسلامية غير العربية تهمل الأسماء والكلمات العربية وتكتفي بلغتها الخاصة، حتى أمسى المسلمون أغراباً بعضهم عن بعض، فأخذت تنفصم عراهم وتنحل قواهم وتبتلعهم الأغيار وهم في عقر دارهم.

المناخ

الشـام معتدلة الهواء جيدة المناخ تتسرب فضلات مياهها الى خارج البلدة بجداول خاصة ولا تترك أثراً للتعفنات في الدور وسائر اماكن السكنى قط. وفصول السنة الأربعة تأتيها في أوقاتها ولا تحيد عنها.

الفصول الأربعة ـ تتولد من دورة الشمس على محورها في منطقة البروج الاثنى عشرة دورة سنوية مطردة تقطعها في ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٩ دقيقة وهذه هي السنة الشمسية التي نقتصر على تعريفها بما يلي:ـ

الفصل	المدة دقيقة ساعة يوم	البروج	الاوقات
الربيع	٥٠ ٢٠ ٩٢	الحمل الثور الجوزاء	من ٨ او ٩ آذار الى ٨ حزيران
الصيف	٨ ١٤ ٩٣	السرطان الأسد السنبلة	من ٩ حزيران الى ٩ او ١٠ ايلول
الخريف	٣٨ ١٧ ٨٩	الميزان العقرب القوس	من ١٠ او ١١ ايلول الى ٨ او ٩ كانون الاول
الشتاء	١٣ ١ ٨٩	الجدي الدلو الحوت	من ٨ او ٩ كانون الاول الى ٨ او ٩ آذار.
	١٠٩ ٥٢ ٣٦٣		
	٦٠ ٤٧ ٢	التحويل	
	٤٩ ٥ ٣٦٥		

كل فصل من هذه الفصول يعتبرونه في الشام قسمين تحت إسم الأربعين والخمسين حيث تزداد الحرارة أو تنقص بحسب الفصل والوقت وقد يقسمون خمسين الشتاء أيضاً الى أربعة أقسام يدعونها السعود وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الخبايا، ويعتبرون كل قسم منها ١٢ يوم ونصف، وهي أسماء نجوم تطلع في ذلك الفصل في أثر بعضها. بحيث يشعر الانسان عند انقضاء كل فصل أو قسم من الفصل بتبدل في الطقس لم يكن موجوداً. وفي أغلب السنين لا يهطل عليها الثلج، واذا هطل لا يلبث كثيراً. ومعدل حرارتها في الصيف (٣٠) وفي الشتاء (١٠) في ميزان سنتغراد. وأحياناً تصعد الحرارة في الصيف الى الدرجة (٣٥) وتهبط في الشتاء الى (٠) في بضع ساعات من السنة فقط ثم تعود الى سابق حالها. وقد شبه البعض الاقليم السوري بمجموعة الفصول لاختلاف أوضاع أرضه الطبيعية بين انخفاض وارتفاع واستواء وانحدار في السواحل والجبال والسهول والسفوح والأودية والهضبات حيث تجد آثار كل فصل من فصول السنة ملموسة في مختلف انحاء هذا الاقليم في آن واحد. خذ مثلاً شهري شباط وآذار، فإنك ترى فيهما الصيف قد حل في بيسان، والشتاء ما زال في حرمون ولبنان والساحل خريفاً بحتاً، ودمشق ربيعا نضراً، وهذه الفوارق النسبية على حالها في سائر الشهور أيضاً.

أما الرياح فهي دورية متحولة تبتدىء في أول فصل الربيع وتنتهي بعواصف الحسوم في آخر الشتاء من كل سنة. وتكون على الأكثر شمالية منذ منتصف تشرين الثاني الى اول اربعين الشتاء ويعقبها السكون النسبي طيلة أيام الاربعين، ثم تعود فتثور في أيام الخمسين وتمتد الى اول فصل الربيع وتسكن في أكثر أوقات شهر أيار ويدوم السكون الى اول فصل الصيف حيث تهب الرياح البوارح الغربية فتسيّر السفن في الساحل وتسهّل الحصاد في الداخل وأحياناً تتخللها رياح جنوبية شرقية (من نوع السموم) فيشتد القيظ وتعترضها الرياح الغربية الرطبة التي تهب من عصارى كل يوم الى عشائه، فتلطف الهواء وتخفف وطأة الحر وتدوم هذه الرياح الغربية مع سكون قليل طيلة أيام الصيف وفي اوائل فصل الخريف، وفي بعض أيام الصيف يتولد الضباب من

تبخرات الأرض على أذيال الجبال في صباح كل يوم ولا يلبث أن يزول عند بزوغ الشمس فيعود الى السماء رونقها وصفاؤها، وفي فصل الخريف يسقط قطر الندى في الليل فينعش الزروع الشتوية.

وفيما يلي جدول يبين الأنواء وتحولات الطقس في أيام السنة كلها، وقد اعتمدنا فيه على الحساب الشمسي الشرقي دون الغربي:ـ

اليوم الشهر	فصل الربيع الأنواء والمواسم	اليوم الشهر	فصل الصيف الأنواء والمواسم
٩ آذار	أول فصل الربيع	٨ حزيران	الانقلاب الصيفي
١٨ آذار	اخضرار الاشجار	٩ حزيران	اول فصل الصيف
٢٣ آذار	نوح البلابل	٢٠ حزيران	الريح الجنوبية (السموم)
٩ نيسان	اول ايام الثور وهي عقارب نيسان	٥ تموز	اشتداد الحر
٢٠ نيسان	نوء تقصيف الاغصان	٩ تموز	أول أيام الباحور منتهى القيظ
٢٣ نيسان	عيد الخضر	١٥ تموز	نوء احمرار الخوخ
٢٧ نيسان	آخر أيام المطر	٢١ تموز	تناقص الحرارة
٣ ايار	تحطيم الأغصان	٢٩ تموز	نوء الغراب
٨ ايار	نوء الهوام	١٥ آب	عيد الجوز
١١ ايار	تناقص المياه	١٧ آب	فتور الحر
١٦ ايار	إجتماع الطيور		
١٨ ايار	اول الرياح البوارح		

اليوم ـ الشهر	فصل الخريف الأنواء والمواسم	اليوم ـ الشهر	فصل الشتاء الانواء والمواسم
١٠ ايلول	اول فصل الخريف	٢ كانون الأول	عاصفة الشتاء الكبرى
١٤ ايلول	عيد الصليب	٥ كانون الأول	الليالي السود وهي اطول ليالي السنة
١٨ ايلول	نوء عودة الطيور	٩ كانون الاول	اول فصل الشتاء
٢٦ ايلول	أول سقوط الاوراق	١٤ كانون الأول	تناقص الليل
٥ تشرين الأول	أول أيام المطر	٢٨ كانون الأول	اشتداد البرد
١٣ تشرين الأول	أول العواصف	٣ كانون الثاني	دورة الرياح
١٥ تشرين الاول	نوء الاسماك	١٤ كانون الثاني	منتهى شدة البرد
٢٥ تشرين الأول	أول القاسم	٢٤ كانون الثاني	نوء (؟) ص ٣٠
٢٧ تشرين الأول	أول الرياح الجنوبية	٧ شباط	الجمرة الأولى في التراب
(٢٩ تشرين الأول	ظهور قطر الندى	٩ شباط	نوء الجمرة
٢ تشرين الثاني	نوء سقوط الأوراق	١٤ شباط	الجمرة الثانية في الماء
٢٢ تشرين الثاني	أول البرد	١٩ شباط	إنكسار البرد
٢٦ تشرين الثاني	أول الرياح الشمالية	٢٠ شباط	الجمرة الثالثة في الهواء
		٢٦ شباط	عواصف الحسوم ٧ ايام

السعود

سعد الذابح يعتبرونه اشد أيام الشتاء برداً وسعد بلع تتسرب فيه الحرارة الى بطن الأرض فتمتص المياه التي تتساقط عليها بكثرة، وسعد الخبايا يظهر فيه ما سكن واختبأ بالشتاء من الحشرات في الأوكار.

وفي الحجاز يسمون الأشهر الشمسية بأسماء البروج ويعتبرون بدءها من انتقال الشمس الى كل برج منها، وفي بلاد الروم يقسمون العام شطرين يدعونهما الخضر والقاسم، ويفرقون بهما بين الحر والقر فالخضر يبتدىء من ٢٢ نيسان وينتهي في ٢٤ تشرين الأول وتعد أيامه حارة والقاسم أوله ٢٥ تشرين الأول وآخره ٢٢ نيسان وهو موسم البرد في عرفهم. وفي سورية اذا حذفنا شهراً واحداً من أشهر الخضر واضفناه الى شهور القاسم، نفرق بين أيام الصحو والمطر العام بطوله بحيث تعد أشهر الخضر خمسة (أيار حزيران تموز آب وأيلول) وهي للصحو دوماً وشهور القاسم سبعة وهي (تشرين الأول تشرين الثاني كانون الأول كانون الثاني شباط آذار ونيسان) تتخللها الأمطار من حين الى آخر.

المياه

ماء دمشق عذب فرات سائغ شربه، وليس فيه كما في غيره أثر للجراثيم التي تولد البثور قط. وهو قسمان قسم الأنهر الجارية وقسم الينابيع والآبار. فالأنهر أصلها (بردى) الذي دعاه الاراميون (ابانا أو أمانا)، وأسماه اليونان (خريسوراس) أي مجرى الذهب، و(بارادوس) أي الفردوس، وهذا الاسم الأخير أخذه العرب وقالوا بَرَدَى (بفتح احرفه كلها)، وهو ينبع بالقرب من قرية الزبداني[٩] بين سلسلتي حرمون والقلمون في غرب المدينة على بعد ٦٠ كيلومتر منها وينحدر شرقاً فيمر من قرية الفيجة حيث يمتزج بمائها الزلال الذي يضاهيه بالكمية ثم تضاف اليه في الطريق مياه ينابيع كثيرة الطفها وأعذبها العين الخضراء القريبة من قرية بسيمة، وبعدها يتجاوز النهر قرية الهامة ويأخذ بالانقسام فتتفرع منه سبعة جداول أو أنهر تسمى (يزيد، ثورا، الداراني، قناة المزة، القنوات، بانياس، وعقربة) وكلها تجري في مستويات مختلفة على ترتيب هندسي قويم، فتسقى الأرض المرتفعة والمنخفضة على السواء بدون ما كلفة لعمل ميكانيكي ما، وهذه الأنهر يدخل أكثرها المدينة وينساب في أنحائها وأحيائها كالشرايين في الجسم فتتفرع منه فروع صغيرة تجري تحت الأرض بانابيب (قساطل) فخارية أو حديدية، وعندما تبلغ الأحياء تظهر في المقاسم (الطوالع) الكبيرة والصغيرة بنسبة إتساع الحي المخصصة له، ومن الطالع تجري الى البحران (الاحواض أو البرك) الموجودة في كل مكان من أماكن المدينة كالدور والمعابد والحمامات والخانات والمعامل والمصانع والسبل وسواها بحيث لا تجد في المدينة كلها مكاناً خالياً من الماء الجاري ليلاً ونهاراً وبدون انقطاع (وبدون عداد).

والمياه التي تفيض عن الدور وغيرها تجري مستورة في القنوات العامة (السياقات) وتصب في أنهر خاصة كنهر قليط الذي هو في الأصل نهر بانياس، فلما يدخل القلعة ويقلط اقذارها يغدو غير صالح للشرب والاستعمال، ثم تصب عليه فضلات مياه الاحياء الواقعة في جنوب القلعة فيسمى (قليطا). ومن هذا القبيل القنى المسماة نهر الذهب والنهر الأبيض في الميدان وغيره. وباقي الانهر تجري منحدرة الى جهة الشرق والقبلة فتسقي حدائق المدينة بأجمعها وتروي قرى الغوطة وبعض قرى المرج ووادي العجم المتصلة بالمدينة وما زاد عن ذلك يصب في بحيرة المرج المسماة (بحيرة العتيبة).

دام هذا النظام الوفاً من السنين دون أن يعتريه خلل ولم تشب المياه شائبة، إلى أن تكاثر السكان وقلّ الاعتناء بواجب الوجدان فتلوثت الأنهر بمختلف الأسباب وظهرت جراثيم الأمراض في تراكيبها فاضطرت الحكومة أيام الوالي ناظم باشا رحمه الله أن تجرّ قسطلا حديدياً من عين الفيجة الى المدينة مباشرة، وأسالت منه الماء دون ان يمتزج بغيره من مياه الأنهر وجعلت له خزاناً عاماً في الصالحية حيث يقسم منه على أحياء المدينة تحت ضغط الهواء للاستسقاء فقط، ولبثت البحرات القديمة على حالها لسقي الدواب والغسيل والرش

والتنظيف والبناء وقضاء سائر الحاجات.

وأخيراً قامت لجنة وطنية وتوسلت بمدّ قسطل ثان من الفيجة الى البلدة بحيث يوزع ماؤه على الدور والمنازل أيضاً، فاشترك في هذا الماء أكثر أصحاب الدور والأماكن كل بحسب حاجته لقاء دراهم عيّنتها اللجنة بنسبة نفقات العمل وحده وبدون أن يكون لأحد من مديريه ربح ما (خلا الرواتب الفاحشة التي خصصت أخيراً ودعت للاعتراض العام).

أما الينابيع الموجودة في المدينة فكلها في جهة الشمال على ذيل جبل قاسيون، وأهمها واشهرها «عين القصارين» في المرجة، و«عين النعنع» في فناء تكية السلطان سليم، و«عين الكرش» في سوق ساروجة، و«عين الباشا» في باب الاغا، و«عين علي» في المحايرية، وعين «الوراقة» و«الضياعي» في باب السلام، و«عين الزينبية» في أرض العناية (القصاع).

والآبار توجد في بعض الدور والأماكن القصية، وتستعمل عند الضرورة وأيام انقطاع الأنهر حيث جرت العادة في ربيع كل عام أن تقطع مياه الأنهر على وجه المناوبة في أيام معينة لا تتجاوز الأسبوع، وتحوّل مياهها الى نهر بردى الذي هو الأصل لجميع الأنهر، ويجرف ما رسب وتراكم في مجاريها من الأوحال والأوساخ تسهيلاً لجريان نصيبها من الماء بتمامه.

يقال إن في نهر بردى سريرة لدفع مرض الجذام، فهو لا يصيب أهل دمشق ويكسر عاديته عن الغريب المصاب به، فاذا قدمها توقف داؤه في الدرجة التي بلغها ولم يتعدها. وفي جوار مسجد الصحابي الجليل (أبيّ بن كعب الخزميّ) خارج الباب الشرقي محل أوقفه الخليفة الوليد بن عبد الملك لاقامة المجذومين (ويقال لهم «الأعاطلة») وكل من فيه أغراب.

الطرق

تبعد دمشق عن ثغر بيروت الذي هو مرفؤها الطبيعي ١١٢ كيلومترا، وهي مرتبطة به بطريقين: الأولى الطريق المعبدة القديمة التي كانت تقطعها عجلات الركاب المسماة (ديليجانس) باثنتي عشرة ساعة، واليوم أصبحت تسير عليه السيارات بين البلدين بثلاث ساعات أو ساعتين فقط.

تبدأ طريق العجلات هذه في دمشق من مدخل شارع سليمان شفيق باشا[١٠]، وفي الجدول الآتي أسماء منازلها وبعدها عن دمشق.

طريق العجلات:

العدد	المسافة ك.م	المحطات
١	٠	دمشق مدخل شارع سليمان شفيق باشا
٢	٧	دمر
٣	١٠	الهامة
٤	١٩	الديماس
٥	٢٦	ميسلون
٦	٣٧	وادي القرن
٧	٤٢	الجديدة
٨	٤٧	وادي الحرير

العدد	المسافة ك.م	المحطات
٩	٥١	المرضع
١٠	٥٨	خان الذهب
١١	٦٦	شتورة
١٢	٦٩	المريجات
١٣	٧٥	خان مراد
١٤	٨٥	عين صوفر
١٥	٩٢	خان أبي دخان
١٦	٩٥	الشيخ محمود
١٧	٩٧	عاريا
١٨	١٠٢	الجمهور
١٩	١٠٧	الحازمية
٢٠	١١٢	بيروت
	١١٢	

سكة حديد بيروت

الطريق الثانية بين دمشق وبيروت هي السكّة الحديدية الضيقة التي تعرج على الأودية والقرى فتبلغ معها تلك المسافة ١٤٧ كيلومتر تقطعها الرتل في تسع ساعات وهذه أسماء مواقفها وبعدها عن دمشق باعتبار الكيلومترات.

العدد	المسافة ك.م	الموقف
١	٠	دمشق ـ الميدان
٢	٣	دمشق ـ البرامكة
٣	١٠	دمر
٤	١٣	الهامة
٥	١٧	الجديدة
٦	١٩	عين الفيجة
٧	٢٨	دير قانون
٨	٣٢	سوق وادي بردى
٩	٣٧	التكية
١٠	٤٩	الزبداني
١١	٥٩	سرغايا
١٢	٦٩	يحفوف

العدد	المسافة ك.م	الموقف
١٣	٨١	رياق
١٤	٩١	المعلقة
١٥	٩٥	سعد نايل
١٦	١٠٠	جديتا
١٧	١٠٣	المريجات
١٨	١١٦	صوفر
١٩	١٢٠	بحمدون
٢٠	١٢٦	عاليه
٢١	١٣٠	عاريا
٢٢	١٣٥	الجمهور
٢٣	١٣٨	بعبدا
٢٤	١٤٠	الحدث
٢٥	١٤٧	بيروت
	١٤٧	

من محطة رياق يتفرع خط حلب وهذه أسماء مواقفه وبعدها عن رياق.

العدد	المسافة ك.م	الموقف
١	٠	رياق
٢	٢٧	بعلبك
٣	٥٧	اللبوة
٤	٧٢	رأس بعلبك
٥	١٠٣	القصير
٦	١١٧	القطيفة
٧	١٣١	حمص
٨	١٤٧	تلبيسة
٩	١٧٧	كفر بيهم
١٠	١٨٩	حماة
١١	٢٠٣	القمحانية
١٢	٢١٧	الكوكب
١٣	٢٤٧	أم الرجيم
١٤	٢٧٤	ابى الظهور
١٥	٢٨٢	تل الجن
١٦	٣٠٣	الحميدية

العدد	المسافة ك م	الموقف
١٧	١١٨	الوضيحي
١٨	٣٣٢	حلب
	٣٣٢	

والمسافة بين الشام وحلب على هذين الخطين يبلغ مجموعها ٤١٣ كيلومترا كانت تقطعها الارتال بثماني عشرة ساعة ثم رتبت قطارات سريعة اخذت تقطعها باثنتي عشرة ساعة فقط.

ولو لم ينظر في انشاء هذا الخط الى مصالح خاصة كإمراره في بعلبك بلدة صاحب الامتياز، وجعله يعرج على ريـاق التي هي في منتصف طريق بيروت، لكانت هذه المسافة تنقص عن ٤٠٠ كيلومتر ولكانت دمشق لبثت متمتعة بفوائد كونها مركز المناقلات العام بين الساحل والداخل المربوط بسكة الحديد الاستانة ـ بغداد.

الضواحي

القرى المحيطة بدمشق من جهاتها الأربع تتألف من ست نواح تضمّ (٢٢٠) قرية ومزرعة. وكانت الحكومة العثمانية تعتبرها كأربع نواح رئيسية، وهي: (١) وادي بردى في الغرب (٢) وادي العجم مع اقليم البلاّن في الغرب الجنوبي (٣) المرج مع الغوطة في الشرق (٤) جبال القلمون في الشمال. كانت هذه القرى ترجع في ادارة مصالحها الى حكومة المدينة مباشرة، واليك اسماؤها:

(١) **وادي بردى**: دمر، الهامة، قدسيا، الديماس، جديدة الوادي، الأشرفية، بسيمة، دير مقرن، كفر الزيت، برهلية، دير قانون، الحسينية، كفر العواميد، سوق وادي بردى[١١]، البترونة، الزبداني، مضايا، بقين، بلودان، عطيب، سرغايا، عين حور، يحفوف، الهريرة، افرة.

(٢) **وادي العجم**: المزة، كفر سوسة، القدم، يلدا، سبينية الصغرى، سبينية الكبرى، بلاس، صحنايا، الأشرفية، عرطوز، جونة كوكب، العادلية، البويضة، حرجلة الكسوة، العباسية، الحسينية، الطيبة، الدلهمية، سعسع، قطنا، الصبورة، رأس العين، يعفور، الخيارة، المقيليبية، حوش مرانة، الدرخية، خان الشيخ، حوش الدوير، زاكية الماجدية، دير علي، زغبر، كناكر، النفورة، شورة البكجوري، دير ماكر، السبسبية، البنجاع.

(٣) **اقيم البلاّن**: قلعة جندل، كفر فوق، ميبا، بتيما، كفر حور، حينة، دربل، عين الشعرا، بيت جن، عرنة، ريمة، بقسيم، برقش، رخلة، دير العشاير، بكا، الحلوة، جباتا الزيت، طرنجة، بيت سابر، خربة السودة، المفروغة، البسيم، جرابة.

(٤) **الغوطة**: ببيلا، عقربا، جرمانا، عين ترما، جوبر، القابون، برزا، دوما، قبر الست، دير بجدل، الخيارة، المليحة، البلاط، زبدين، كفر بطنا، حرنة، زملكا، عربين، حرستا، البصل، مسرابا، الافريس، بيت سوا، جسرين، حوش الأشعري، الشفونية، امديرة، الريحان، بيت نايم، المحمدية، شعيا، حمورة، بيت سمسم، داريّا.

(٥) **المرج**: الحجيرة، تل الشعير، صهيا، جديدة، الجرش، اوتايا، الشفونية، قبسا، العبادة، حران، العواميد، جديدة الخاص، الدلبة، النشابية، صرما، برينة، المتين، الصالحية، البحارية، الغريدة، الجربة، القاسمية، البلالية، العسولة، الجديدة، العتيبية، الريحانية، الجعيدية، دير سلمان، الكفرين، فرصتا، الغزلانية، تل مسكن، سكا، حوش الدوير، الهيجانية، فولة الشبعة، المحرودية، دير العصافير، حديدة، التركمان، حرستا، القنطرة، عذرا.

(٦) **جبـل القلمـون**: النبـك، يبرود، قارة، دير عطية، جيرود، الرحيبة، العطنة، معضمية الشرق، الضمير، القطيفة، شمل، قليطة، معرة، ماش، الجبة، عسال، الورد، حوش العرب، رنكوس، صيدنايا، تلفيتا، جلوان، الدريج، معربا، حرنة التل، المعرونة، حفير الفوقا، حفير التحتا، معرة صيد، نايا بدا، عكوبر، العواني، حلا، عين التينة، معلولا، جب عادين، نجعا، رأس العين، قلدون، القسطل، الطفيل، كريسة، مواهبية، المزرعة الكبرى، الدعسة، الخربة، العجوزة.

وحيث أن هذه القرى تمتد على مسافات مختلفة يتجاوز بعضها العشر ساعات بعدا عن دمشق، وكان مجيء ذوي المصالح من أهلها الى المدينة وايابهم يصعب ويتعذر في أغلب الأوقات، رؤي جعلها أربعة أقضية متوسطة البعد تسهيلا للناس في قضاء حاجاتهم ومعاملاتهم. وتمّ ذلك بتأليف تلك الأقضية في الزبداني وقطنا (وادي العجم) ودوما والنبك، واتخذت أمهات القرى مديريات كمديرية المزّة، وداريا، ودمر، ومنين، ومعربا، وببيلا، ويبرود، ودير سلمان، والنشابية، والكسوة، وبيت جن، وهذه هي التقسيمات الادارية الباقية الى اليوم.

الحكومة

كانت دمشق عاصمة ملك أيام الآراميين والأمويين والسلاجقة ونور الدين وحاضرة إيالة في عهد الآشوريين والبابليين والفرس والمصريين واليونان والرومان والعباسيين والطولونيين والاخشيديين والفاطميين والحمدانيين والايوبيين والمماليك والعثمانيين، ثم جعلت قاعدة للمملكة السورية ونودي باستقلالها وما لبثت ان احتلها الافرنسيون وبسطوا عليها سلطانهم وهي اليوم خاضعة للانتداب الافرنسي.

وعندما تأسست الولايات العثمانية عام ١٢٨١ للهجرة[١٢] جعلت دمشق مركزاً للولاية السورية التي امتدت من تخوم مصر الى حدود حلب وتألفت من الوية: الشام والقدس والبلقاء (نابلس وشرق الاردن) وعكا وبيروت وطرابلس وحماة وحوران. كانت معرة النعمان وحمص قضائين مرتبطين بلواء حماة. واللاذقية قضاء ملحق بلواء طرابلس والكرك ناحية في لواء البلقاء. وكان لواء الشام يتألف من أقضية دوماً والنبك وقطنا والزبداني وبعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا والقنيطرة.

أما الآن فان المملكة السورية كلها تتألف من المدن الأربعة: دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وما لم يبتر من أعضائها فقط، على ان الاسكندرون تابعة لسورية على طريق اللامركزية ليس الا[١٣].

وسنزيدك ايضاحاً عند تعليقنا على مالية هذه الدولة فيما يأتي، ثم انك ترى في الصفحات التالية من هذا الكتاب بحثاً مستفيضاً عن تجزئة البلاد ومصيرها.

المالية

ميزانية الدولة السورية لسنة ١٩٣٤ ميلادية

المداخيل		النفقات	
ليرات سورية	الفصول	ليرات سورية	الفصول
٤٤٠٠٠٠٠	الضرائب التي تجبى مباشرة	١١٨٥٢٥	الادارة المركزية والمدرسين
٢٢٧٣٤٠٠	رسوم المحاكم واردات الحصر	١٩٠٨٧	المجالس
٥٧٢٠٠٠	حاصلات املاك الدولة	١٠٩١٦٩٢	الديون
٣٠٥٥٠٠	حاصلات المؤسسات الصناعية	٧٦٦٥١٩	المالية
٤١٥٣١٣	حاصلات متفرقة	٥٢٧٣٢٩	الداخلية
١٦٩٧٥٥	واردات مختلفة	١٤٣١٩٦٤	الحرس السيار، والدرك
٢٠٣٣٠٤٠	واردات استثنائية لفروض البلديات وغيرها	٤٣٦٥٣٥	الشرطة
		٣١١٨٥٧	الصحة والاسعاف العام
		٦٩٣٩٠٣	العدلية
		٤١٦٢٧٣	الدوائر الزراعية والاقتصادية
		٦١٨٤٠٦	الدوائر العقارية واملاك الدولة
		١٨٨٦٧٧٠	الاشغال العامة (النافعة)
		٢٦٢٦٧٠	البرق والبريد
		١٠٥٣٢٨٩	المعارف
		٩٠٠٠٠	نفقات احتياطية
		٣٥٣٩١٥	نفقات تسوية القروض وغيرها
١٠١٦٨٧٤٤		١٠١٦٨٧٤٤	

ملاحظة: تلك هي ميزانية الدولة السورية التي هي جزء من ولايتي سورية وحلب القديمتين ولنا عليها ملاحظة يسوقنا الواجب لابدائها، ثم أننا نقلنا في ذيل هذا البحث الملاحظات التي أبداها الغير أيضاً[١٤] بهذا الشأن إتماماً للفائدة واليك ملاحظاتنا:

كانت واردات ولاية سورية قبل الحرب تتراوح بين ٣٧ و٣٨ مليوناً من القروش، وواردات ولاية حلب ٣٤ مليون مجموعها ٧٢ مليون قرش تعادل (٧٢٠٠٠٠) ليرة عثمانية ذهباً. فاذا أسقطنا من واردات سورية ما خص الأقضيـة الثلاثة عشر التي سلخت من سورية واضيفت الى دولتي لبنان والعلويين وما اخذته منها حكومتي شرقي الاردن وجبل الدروز وهي بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا والعمرانية (جبل الكلبية) ثم السلط وعجلون والكرك والطفيلة ومعان ثم السويداء وصلخد والعاهرة وهو يقدر بـ (١٥٠،٠٠) ليرة على وجه التخمين وأخرجنا من واردات حلب وما بقي منها ضمن الجمهورية التركية وهو لوائي مرعش واورفه وقضائي عينتاب وكلس التي تقدر (١٥٠٠٠٠) ليرة أيضاً تكون مداخيل البلاد التي تألفت منها الدولة السورية الحاضرة عبارة

عن (٤٥٠٠٠٠) ليرة ذهبيـة تعـادل (٢٣٣١٠٠٠) ليرة سورية وهي ٢٢٪ أي أقل من ربع واردات الدولة السورية الآن. وزيادة الايرادات متولدة على الأكثر من غلاء الأسعار وتضعيف الضرائب القديمة واحداث ضرائب جديدة لم تكن موجودة من قبل أو كانت زهيدة فابلغوها الى درجة تنوء تحتها قدرة البلاد.

أما النفقات فقد كانت في ولاية سورية ٢٧ وفي ولاية حلب ١٥ مليونا مجموعها ٥٢ مليوناً من القروش أو (٥٢٠٠٠٠) ليرة ذهبية فاذا اسقطنا من ذلك حصة البلاد المنسلخة عن الولايتين وهي تقدر بنحو (٢٠٠٠٠٠) ليرة ذهبية يبقى ٣٢ مليوناً من القروش أو (٣٢٠٠٠٠) ليرة دينارية تعادل (١٧٦٠٠٠٠) ليرة سورية أضف اليها ثلاثة أمثالها واجعلها أربعة أمثال لقاء غلاء المعيشة حسب تعامل الزمان فيبلغ مقدارها (٧٠٤٠٠٠٠) ليرة سورية وهي ٦٩٪ أي أكثر من نصف وأقل من ثلاثة أرباع نفقات الدولة السورية الحاضرة، حالة كون سورية:

أ - كان لديها جيشان: موظف، واحتياطي (نظامية ورديف) بمعداتهما الكاملة وهي تنفق عليهما من وارداتها.

ب - كانت مكلفة باعداد الصرة السلطانية وارسالها الى الحجاز والانفاق على ركب الحج ومحافظيه وموظفيه في حالتي السفر والاقامة.

ج - كانت تؤدي حوالات مختلفة لقاء حقها من نفقات السلطة المركزية في العاصمة.

أما أسباب زيادة نفقات الدولة السورية عن نفقات ولايتي سورية وحلب التي تألفت منهما فهي:

١- ضخامة ملاك الدولة السورية وجعله واسعاً يحوي وزارات ودوائر متعددة لكل منها موظفون ذوو رواتب عظيمة تزيد عن حاجة البلاد ومقدرتها وكون هذا الملاك كميزان الحرارة يتقلب دوماً بحسب الاهواء السياسية والكيفية ولا يميل على الأكثر إلا نحو زيادة التي تخلق الوظائف خلقاً.

٢- التلاعب بقانون التقاعد وزيادة عدد المتقاعدين.

٣- فتح باب الاعتمادات السرية على مصراعيه.

٤- جعل الضباط والموظفين الافرنسيين ممتازين عن زملائهم السوريين يتقاضون من الرواتب أضعاف ما يتقاضاه هؤلاء وهم يأنفون من تعلم لغة البلاد ويضطرون الحكومة الى استخدام جيش من المترجمين لاجلهم وحدهم.

فلو جعل ملاك الدولة متناسباً مع دوائرها وحالتها المالية وحذفت منه التشكيلات الواسعة التي لا توجد الا في بعض الدول الكبرى وليس لها من محل ولا مناسبة في حكومة صغيرة كسورية (وخيط اللحاف على قدر القامة) أو أبدلت الوزارات بمديريات ذات رواتب معتدلة، أو جعلت الوزارات السبع الموجودة اليوم وزارة واحدة فقط، وعدّل قانون التقاعد وأزيلت منه الاحكام الشاذة، وجعل لا يضر بصالح الخزينة ولا يجحف بحقوق الموظفين في آن واحد، وحذفت التخصيصات المستورة التي لم تكن في مصلحة الأمة، وجعل الموظفون الافرنسيون متساوين بالحقوق مع أقرانهم السوريين، كما هم مكلفون بالوظائف والأعمال المماثلة بدون استثناء، واشترط عليهم تعلّم لغة البلاد حتماً في مدة معينة كما هو جار في مصر وفلسطين والعراق وغيرها من البلاد التي وضعت تحت السيطرة الاجنبية مثلنا، واستغني عن جيش المترجمين، لأمكن إذ ذاك حذف الاضافات التي وضعوها على الضرائب فأثقلت كاهل الأهلين، وتعادلت الايرادات مع النفقات، وزالت تلك الفوضى.

وهناك ميزانية ثانية للمصالح المشتركة بين الدويلات السورية كالمكس والبريد والبرق والمحاجر الصحية وغيرها وهي تعادل هذه الميزانية أو تقرب منها وتجيء بالواسطة من أهل البلاد وتوضع تحت تصرف المفوضية الافرنسية حيث تنفقها على الجيش الافرنسي وموظفي المفوضية وقليل مما زاد تسمح به الى الحكومات الخمس وهي: سورية ولبنان والعلويين وجبل الدروز والاسكندرون ويقسم بينهم كما تشاء المفوضية ولا يعلم بحسابها أحد.

وأخيراً سمحت المفوضية العليا ونشرت أول مرة ميزانية المصالح المشتركة لسنة ١٩٣٢ فاذا هي كما يلي:

ميزانية المصالح المشتركة لعام ١٩٣٢

ليرات سورية	الفصول	ليرات سورية	الفصول
الداخل		الخارج	
٧٧٤٢٩٨٢	الجمارك	٤٧٥٠٠٠٠	المقطوع لجيش الشرق الخاص
٥٦١٥٠	دوائر المصالح المشتركة	١٣٦٥٠٠٠	الديون العامة
٣٧٠٠٠	الأمن العام	٧٤٤٩٩٣	ادارة الجمارك
٢٨٦١٨	الشركات ذوات الامتياز	١٧١٧١١	الدوائر المالية في المفوضية
١٥٠٠٠	حصة الدولة من مداخيل	٣٢٤٥٠	الدوائر العقارية والتخطيط
٢٥٠	رسوم مختلفة	١١٢٢٦٨	الدوائر الاقتصادية ومكاتب المصالح المشتركة
٢٥٠٠٠	فوائد المبالغ المودعة في البنك	٦٨٦٦٤	مراقبة الشركات ذوات الامتياز والتفتيش العام للاشغال العمومية
		٦٥١٢٦	المفتشية العامة للبريد والبرق
		٢٤٩٨٠	المفتشية العامة للمعارف ودائرة الاثار
		١٤١٨٥٩	الأمن العام
		٧٥٤٣٩	دوائر أخرى تتعلق بالمصالح المشتركة واداراتها وتشريعها وقلم قضايا ومكاتب الدول بفرنسا
		٣٠٩٠٠	ما يدفع لحساب الدول للمأمورين الذين يشتركون بالانتداب في هذه الدولة بصفة ادارية
		٥٠٠٠٠	مصاريف غير ملحوظة
٧٩٠٥٩٩٠		٧٩٠٥٩٩٠	

بلغت وارادات الجمارك السورية سنة ١٩٣٤ (٨٦٠١٠٨٧) وفي سنة ١٩٣٥ (٧٩٩٤٩١٧) ليرة سورية.

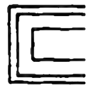
ان كل مادة من مواد هذه الميزانية تتحمل المناقشة وتتطلب التعديل والتصفية بطبيعة الحال وضرورته ثم ان المفوضية الفرنسية تقول ان هذه الميزانية قد بلغت عام ١٩٣١ (٨٥٩٥٠٥٠) وكانت في عام ١٩٣٠ (٨٦٩٠٩٥٤) ليرة سورية ثم نقصت في هذا العام الى أقل من ثمانية ملايين بسبب هبوط الاسعار والازمة الاقتصادية العالمية مما جعل المفوضية لا تتمكن من الدوام على اعطاء وفر هذه الميزانية الى الحكومات المحلية، وانه عدا تلك الايرادات المذكورة في هذه الميزانية فان الحكومة الافرنسية ترسل سنوياً الى سورية المبالغ الاتي بيانها.

فرنك	ليرات سورية	
٣٠٥١٣٣٤٦٠	١٥٢٥٦٦٧٣	اعتمادات وزارة الحربية
١٠٦٦٦٦٦٦	٥٣٣٣٣٣	اعتمادات وزارة الخارجية لدائرة المفوضية العليا
١٠٠٣٠٠٥٠	٥٠١٥٠٢	اعتمادات وزارة الخارجية لمعاهد التعليم والاسعاف
٣٢٥٨٣٠١٧١	١٦٢٩١٥٠٨	

وتقول المفوضية أيضاً ان هذه الاعتمادات التي توازي مداخيل الصادرات البالغة عام ١٩٣١ (٤١٧٨٣٣٣٢٢) فرنكاً أو (٢٠٨٩١٦٦٦) ليرة سورية سوف تحول من فرنسا الى الدول المحلية السورية لتنفق منها.

ان المبلغ المقطوع لنفقات جيش الشرق الخاصة وقدره (٤٧٥٠٠٠٠) ليرة سورية يغطي قسماً كبيراً من نفقات هذه الجيوش المجندة في الدول والتي تتألف منها القوى المحلية المنصوص عنها في صك الانتداب ولكن لا تغطيها كلها. وإن الموظفين الافرنسيين المعينين في دائرة ذات صبغة سياسية (كالمفوض السامي وأعوانه) لا يتناولون رواتبهم من ميزانية المصالح المشتركة بل من الاعتمادات الفرنسية المذكورة في ما سبق.

اما نفقات الجيش الافرنسي المرابط في البلاد التي أشارت المادة الثانية من صك الانتداب الى اشتراك الدولة السورية بها فقد بلغت الى الآن سبعة عشر ملياراً من الفرنكات وهي تزداد من عام الى عام واذا قسمت هذه المليارات علينا تبلغ قدراً ضخماً لا تستطيع البلاد اداؤه بوجه من الوجوه ولذلك قررت الدولة المنتدبة العدول عنها فأصبحنا في مأمن منها ان شاء الله تعالى.



هوامش الفصل الأول

(١) **دمشق**: (بكسر الدال وفتح الميم وسكون الشين) مخففة من اسم دشاق، مولى سام بن نوح عم الذي قاد فرقة من بني سيدة الى هذه البقعة وابتنى لهم المدينة فدعوها باسمه.

(٢) **الشام** مفخّم إسم سام بن نوح سيد دشاق. ثم أن «الشام» في اللغة العربية تطلق على الشمال ايضا، فسمّى العرب هذا الاقليم كله باسم «الشام» لوقوعه في شمال الكعبة، ثم حصروه بالحاضرة دمشق وحدها.

(٣) **جلّق** (بضم الجيم وتشديد اللام المفتوحة) إسم موضع من الشام فعرفت به كلها.

(٤) **جيرون**: (بفتح الجيم وسكون الياء وضم الراء) إسم أحد الملوك الأراميين وهو جيرون بن عاد بن عوض بن نوح الذي شيد قصراً ضخماً في شرق المدينة فدعي باسمه، ثم أطلق هذا الأسم على المدينة كلها فعرفت به حيناً من الدهر.

(٥) **الفيحاء**: الروضة الموسيقية.

(٦) **الغوطة**: غوطة دمشق رياض انيقة وجنان سحيقة متصلة بعضها ببعض ومنبسطة على ضفاف نهر بردى وفروعه السبعة، فلا يدرك الطرف طرفيها. تتخللها المياه العذبة الفياضة فتجعلها في جميع الفصول دائمة الاخضرار، كثيفة الأشجار، على مسافة ستين ميلا طولا، تبتدىء من ينبوع نهر بردى بالقرب من قرية الزبداني في غرب المدينة وتنتهي عند مصبه في بحيرة العتيبية بشرقها. وقد عدّ البعض وادي بردى الكثير الهضاب والنجاد ومرج الزنبقة القليل المياه والأشجار خارجين عن دائرة الغوطة، وحصرها في البساتين المتراصة الأطراف بين قريتي دمر ودوما على ذيل جبل قاسيون وما تحت هذا الخط من القرى والمزارع التي لا تقل مساحتها عن خمسين ميلا تقريبا.

(٧) **قاسيون**: (بكسر السين) فرع من سلسلة جبل القلمون أو الجبل الشرقي الذي يبتدىء من جنوب مدينة حمص بين قريتي حسيا وشمسين، ويمتدّ الى الجنوب والغرب، فتفصل بينه وبين جبل لبنان سهول بعلبك والبقاع ثم وادي التيم وهناك يدعى (حرمون) أو جبل الشيخ وتعلو قمّته عن سطح البحر ٩٢٨٢ قدماً انكليزياً وتغمرها الثلوج طيلة ايام السنة. ثم يعرّج على الجنوب الشرقي فيدعى جبل حيس وينتهي عند تل الفرس في ارض الجولان من حوران.

(٨) ظهر لمصلحة التخطيط (الكاداسترو) عند القياس والمساحة الفنية ان القضاء المشادة عليه مدينة دمشق وحدها يؤلف ٢٤ كيلومترا مربعاً.

(٩) **الزبداني**: بليدة قديمة كانت تدعى أيام العبرانيين (زبدا) ومعناها الأرض الخصبة.

(١٠) **شارع سليمان شفيق باشا** هو الشارع الممتد من محطة الحجاز الى جسر بردى أمام نزل فيكتوريا، وقبلا كان محطة للعجلات. وعندما تركت المحطة الى الحكومة عقيب انشاء السكة الحديد لبث خالياً خاوياً يعلوه شارع جمال باشا، وبينهما هو سحيقة ردمها سليمان شفيق باشا قائد الفيلق الثامن وجعلها شارعاً جديداً دعي بإسمه.

وبعد الاحتلال رات البلدية ان تتزلف الى الجنرال (غوابيه) قائد الحملة الافرنسية التي احتلت البلدة فدعت الشارع باسمه.

وكذلك انشىء باتصال محطة الحجاز من جهة الشرق بين شارع جمال باشا وباب ذي مخمر في القنوات شارع آخر دعي شارع خالد بن الوليد فلم يرق هذا الأسم للبلدية ودعته شارع الكولونيل (كاترو) الذي كان مديراً لاستخبارات جيش الشرق الافرنسي عقيب الاحتلال.

على ان ذينك الشارعين ما زالا يعرفان لدى الأكثرية الساحقة من الأمة باسميهما العربيين، وإسما البلدية لم يتجاوزا دفاترها.

(١١) **سوق وادي بردى** كان عاصمة الوادي أيام الآراميين ويسمى (آبل أو ابيليا).

(١٢) وتقابل سنة ١٨٦٤ ميلادية. (ن.ص).

(١٣) **اللامركزية**: استقلال إداري داخلي يبيح للقطعة التي يشملها ان تجبي ضرائبها وتنفقها على الاحتياجات المحلية مباشرة بدون سيطرة الحكومة المرتبطة بها سياسياً.

(١٤) نشرت جريدة «**الأيام**» (الأولى) مقالات متتالية بقلم اداري خبير ذي اطلاع على مفردات الميزانية السورية فاقتطفنا منها هذه الخلاصة:

١- مصلحة الكداسترو - وهي مسح الارض وتخطيطها التي اعجزت اغنى دول العالم ولم تتمكن دولة من اكمالها بواسطة اشخاص اغراب يكلفون الحكومة اموال طائلة تنوء تحتها ميزانيتها وقد مسحت جارتنا تركية بلادها بواسطة ضباط الجيش الفنيين (من صنوف اركان الحرب والاستحكام والمدفعية وغيرها) بدون ما تكلف ميزانيتها اموالاً ترهقها ونحن لدينا الكثير من هؤلاء الضباط الذين احلناهم قسراً على التقاعد وجعلناهم يتقاضون الرواتب بدون ما يكلفون بعمل ما فلو احيلت لهم هذه المصلحة وهي من جملة اختصاصهم لتوفر على الميزانية (٧٥٠٠٠) ليرة سنويا.

٢- لجان التحديد والتحرير - وهي ٢٥ لجنة يمكن تخفيفها وجعلها عشر لجان فقط فيتوفر منها (١٠٠٠٠٠) ليرة في السنة.

٣و٤- الجامعة السورية ومطبعتها الخاصة - يكلف كل تلميذ سوري ينال شهادة الطب من الجامعة السورية زهاء ٥٠٠٠ ليرة لأن ملاك الجامعة ذو سعة عظيمة تتجاوز الحد المعروف ورواتب موظفيها فادحة ايضاً لا تتناسب مع قدرة البلاد فمنها - ٣٥٠ و٢٩٠ و٢٦٠ و١٦٠ ليرة شهرياً لموظفين متعددين فلو تعدل هذا الملاك وحذف منه ما يمكن الاستغناء عنه من الموظفين او اضيفت بعض الوظائف الصغرى الى بعضها وخفضت الرواتب الى حد معتدل يتناسب مع قدر البلاد لامكن اقتصاد مبلغ جزيل منه.

ثم ان الجامعة لها مطبعة خاصة لا تقل نفقاتها وجسامتها عن مطبعة الحكومة التي تنفق (٢٥٠٠٠) ليرة بالسنة وقد الغت جارتنا لبنان مطبعتها واخذت تطبع ما يلزمها من الأوراق في المطابع الاهلية بربع النفقات التي كانت تكلفها المطبعة الرسمية فلو اقتدينا بها لوفرنا مبلغاً لا يقل عن (٥٠٠٠٠) ليرة في السنة.

(٥) دائرة الصحة والاسعاف العام - يوجد لدى هذه المصلحة جيش لجب من الاطباء والصيادلة والمفتشين والممرضين والكتاب والخدام وكثير من الاوائل والادوات ووسائط النقل وسواها مما لا يتفق مع حالتنا العامة وهناك نفقات لمستخدمين افرنسيين وغيرهم مكلفون برصد الحوادث الجوية وضبط ميزان الحرارة والرطوبة وقيد اتجاه الرياح وغير ذلك من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها بسهولة

(٦) مصلحة الري - تنفق هذه المصلحة (٦٠٠٠٠) ليرة سنوياً بدون ما نتيجة ولا فائدة ولم تتوفق منذ تأسيسها لاكمال اي اثر من الآثار التي تشبثت بها وظلت جميع اعمالها عقيمة

٧- مصلحة البندرول - تكلف هذه المصلحة (١٦٠٠٠٠) ليرة عدا (٢٥٠٠٠) ليرة اجرة طبع غصائب ثم اكرامیات وتعويضات وما شاكلها وهو اكثر من ثلث ايرادها

٨- الشرطة - كان موظفو الشرطة بأجمعها ايام الحكومة العثمانية لا يتجاوزون ١٧٨ شخصاً في ولاية سورية كلها اما اليوم فعددهم ٦٨٠ شخصاً يتقاضى اكثرهم رواتب زائدة عن الحد المعروف وذلك خلا موظفي الامن العام الافرنسيين الذين لم نستطع معرفة مقاديرهم ولا مقادير رواتبهم ثم ان الحكومة السورية كانت الغت سبعة مخافر وسحبت منها ٦٠ شرطياً وعريفاً امل الاقتصاد وما لبثت ان وزعت اكثر من ذلك على معية الوزراء والرؤساء وغيرهم ليقوموا بالخدمات الخاصة التي لا تتفق مع شرف الوظيفة ولا يوجد لها مثيل في دولة من الدول، وكذلك عينت ١٥٠ شرطياً جديداً يساعدوها على اجراء الانتخابات واخرجت مفتشين وطنيين واستخدمت ١٦ مفتشاً افرنسياً فلو الغيت هذه الزوائد لتوفر (٤٠٠٠٠) ليرة سنوياً

٩- الدرك - بلغت نفقات الدرك (١٢٦١١٣٩) ليرة وهي تقريباً خمس نفقات الدولة كلها من ذلك (٤٨٨٩٥) ليرة نفقة ١٢٧ دركياً ليقوموا بوظائف خدمة وسواس وفراشين وما شاكل ذلك، اما رواتب الضباط الافرنسيين فانها تعادل رواتب الوزراء او تزيد عليها وهناك نفقات باسم تعويضات ومفروشات واسعافات ومكلفات الى غير ذلك من الاسرافات التي يمكن الاستغناء عنها بسهولة

١٠- متصرفية دمشق او حاكميتها الادارية - في الإمكان الغاء هذه الوظيفة واضافتها الى وزارة الداخلية مباشرة.

١١- النافعة - تنفق هذه المصلحة عن سعة وبدون ما تفتيش ولا مراقبة ولها دواوين متعددة يمكن توحيدها.

١٢- مصلحة املاك الدولة - تنفق سنويا (٨٠٠٠٠) ليرة يمكن الاستغناء عنها واضافتها الى وزارة المالية

١٣- السيارات - تكلف السيارات الرسمية (١٠٣٢٣٢) ليرة عدا نفقات الدراجات ورواتب الموظفين والميكانيكيين وبدل تعويض الوزراء وموظفي النافعة مما يبلغ (٥٠٠٠٠) ليرة يمكن الاستغناء عنها كلها.

١٤- مجلس الشورى - في الإمكان الغاء هذا المجلس وتوديع اموره الطفيفة الى محكمة التمييز.

١٥- السجل - لكل دائرة سجل خاص يمكن حذفه والاكتفاء بادارة السجل العام وحده.

١٦- محاسبو الوزارات - وظائف هؤلاء المحاسبين تنحصر باحضار البوردرو (جدول الرواتب) الشهري تقريبا ويمكن توديع هذا العمل الى كاتب الميزانية في المالية فيتوفر منه الوف الليرات

١٧- وزارة الزراعة - وهي في الأصل فرع من فروع النافعة ويمكن الغاؤها وتوفير نفقاتها التي تربو على المائة الف ليرة سنوياً بدون ما فائدة ولا لزوم

١٨- الحرس السيار - وهي مصلحة مؤلفة من رجال البدو والارمن والشراكسة يرأسهم ضباط افرنسيون مرتبطون بالمفوضية الافرنسية مباشرة وهذه المصلحة تكلف (٢٦٤٥٢٠٣) ليرة سنوياً وفي ايام الدولة العثمانية كانت تقوم بوظائفها مفرزة من الجنود البغالة لا تكلف عشر هذا المبلغ. ومن جملة هذه النفقات (٢٥٠٠٠) ليرة تؤدى سنويا بواسطة السلطة الافرنسية الى رؤساء العشائر مباشرة باسم رواتب ليكونوا تحت امرها ونفوذها وحدها ويساعدوها على توطيد الامن في البادية وهذه مفردات تلك الرواتب في سنة ١٩٣٣ وقد كانت في السنة التي قبلها (٣٧٨١٨) ليرة.

٣٤١٥ ل س	نوري الشعلان الرولة.
٥١٢.٢٤ ل س	بركان بن رشيد تابع البطينات
١٩٨٢ ل س	حاجو آغا كرد هواركه
٥١٢.٣٤ ل س	برجيس بن هيذيب
١٠٢٢.٩٦ ل س	مشعل باشا الجربا
٣٤١.٦٠ ل س	شايش عبد الكريم موالي غربية
١٦٥٢.٤٤ ل س	عبد العزيز مربود فدعان فرسي
٢٦٤٤ ل س	ادهام الهادي شمر الخرسا
١٨٠٠ ل س	شعل باشا الجربا
٦٦٧ ل س	جبل سلطان باشا الفالج الجبور.
٢٠٤٩ ل س	فواز الشعلان الرولة
٥١٢.٢٤ ل س	طراد الملحم الحسنة
١٥٢٤ ل س	نواف الصالح الحديدية

٥١٢٫٢٤ ل س	علي الحسين الراشد ابو خميس
٣٤١٫٦٠ ل س	فارس العطور موالي شمالية
٣٣٠٫٥٠ ل س	مجحم بن مهيد فدعان الولد
٢٦٤٤ ل س	الشيخ عبد المحسن شمّر الزور
٢٣٨٠ ل س	طلال عبد الرحمن طي
٣٦٥ ل س	عبد العزيز كعشيش فدعان

١٩- **العدلية** - لا توجد في العدلية نسبة بين رواتب القضاة والموظفين الوطنيين والافرنسيين، فان راتب المستنطق الافرنسي يعادل راتب رئيس محكمة التمييز الوطني، وذلك عدا التخصيصات التي يتقاضاها الافرنسيون بأسماء مختلفة كأجرة الدار، ونفقات السفر، وما شاكل ذلك فيجب التساوي بين الجهتين في هذه الوظائف المماثلة، ثم انه يوجد أعضاء ملازمون يزيدون عن الحاجة ويمكن تنقيصهم والاستغناء عن الكثير منهم

٢٠- **كتاب العدل** - متعددون وتعددهم جعلهم يكتفون بالعوائد دون الرواتب وساقهم الى تحدي بعضهم بعضاً مما يضر بالمصالح العامة وبحقوق الخزينة معا، واصبح من الضروري توحيدهم وتخصيص رواتب معتدلة لهم، وجعل الرسوم والعائدات ترجع الى الخزينة وحدها.

٢١- **الافتاء ونقابة الاشراف** - الافتاء قضى عليه الزمن، وخصوصاً توجد لمفتي الشام اوقاف جمة كانت تقوم بأوده وادارة اسلافه من قبله أما النقابة فهي ليست من وظائف الحكومة بل هي وظيفة شرف لم يسبق لمن تولاها ان تناول راتباً ما في زمن من الازمان، فمن العبث الدوام على اداء الرواتب التي خصصت لهاتين الوظيفتين تحت مقاصد خاصة، وكذلك ينبغي الغاء وظيفة التدريس السيارة من ملاك الدولة، وان كان ثمة حاجة اليها فوزارة الأوقاف كفيلة بنفقتها [نهاية مقالة (الأيام) والهامش (١٤)]

(١٥) مثال خلق الوظائف بدون لزوم هو أن أمور النافعة والزراعة كانت تدار ضمن دائرة واحدة لما كانت في الدولة العثمانية وغيرها. ولما تولى الشيخ تاج الدين رئاسة الوزارة شاءت السياسة ان يدخل الوزارة عنصر جديد، وكان الوزراء الذين انتقاهم الشيخ لنفسه أو انتقوا له لا يمكن الاستغناء عن أحد منهم لأسباب خاصة، فتقرر تفريق أمور الزراعة عن النافعة وجعلها وزارة لوحدها بجميع معداتها.

(١٦) **قانون التقاعد العثماني** يقضي بحسم خمسة في المائة من رواتب الموظفين لقاء تخصيص راتب التقاعد الى الموظف الذي تنحل قواه في خدمة الدولة والى ايتامه وارامله عند وفاته. وهو بمثابة تعاقد بين طبقة الموظفين والحكومة، يكتسب به الموظف حقاً مشروعاً بالتقاعد منذ ولوجه باب الوظيفة، او تتعهد الحكومة بأداء قدر معين من راتبه اليه بقية أيام حياته والى أيتامه الى ان يستطيعون القيام بعمل ما من بعده، وكان التقاعد يحصر بفئتين اثنتين: الأولى الذين يصابون بأمراض تحول دون دوامهم على الخدمة، والثانية فئة الشيوخ الذين يقضون في خدمة الدولة مدة لا تقل عن الثلاثين سنة ثم تنحط قواهم فيختارون التقاعد من تلقاء انفسهم او تسوقهم اليه الحكومة حتماً. وهؤلاء كانت تجمع رواتب العشر سنوات الأخيرة من سني خدماتهم ويؤخذ متوسطها الشهري ويجعل نصفه راتباً تقاعدياً لمن قضى ثلاثين عاماً في الخدمة، ويزاد هذا الراتب لمن اربت خدمته على ثلاثين سنة بنسبة مطردة، وكان يوجد قانون ثان للمعزولين الذين تلغى وظائفهم او يبدلون لضرورة لم تكن منبعثة عن ضعفهم وتقصيرهم على أن تكون مدة خدمتهم تجاوزت الخمسة عشر عاماً فيخصص لهم اذ ذاك راتب يدعى راتب العزل يتقاضونه الى ان يعيّنوا في وظيفة ثانية ولقاء هذا الراتب كان يقتطع واحد في المائة من رواتب جميع الموظفين ويخصص منه لمن يستحق بقدر المعلوم، وإذا تجاوز مجموع الرواتب المخصصة للمعزولين القدر المعين في الميزانية وهو مجموع المقتطع باسم عائدات العزل من جميع الموظفين يضطر المعزولون الحديثون، الى انتظار الشواغر وعند حصولها تخصص الى الاقدم فالاقدم من المستحقين، وهكذا كانت الحكومة لا تخسر على المتقاعدين والمعزولين شيئا من مالها بل تؤدي رواتبهم من أصل ما تركوه واودعوه في خزينتها من الخمسيّات التي كانت تزيد عن مجموع الرواتب المخصصة للمتقاعدين والمعزولين وايتامهم عامة.

ولما قام الاتحاديون وقبضوا على زمام الحكومة في اواخر ايام السلطنة وكانوا سبباً لانقراضها راموا بادىء ذي بدء التخلص من قدماء الموظفين الذين لا يمالئونهم في غلوائهم فسنّوا قانوناً أباح لكل موظف قضى نصف مدة الخدمة المشروطة للتقاعد ان يتقاضى راتباً نسبياً واذا كانت مدة خدمته اقل من ذلك ينال تعويضاً نقدياً يسقط حقه في التقاعد، وراحوا يصرفون من خدمة الدولة كل من لم يكن اتحادياً مثلهم ويحيلونهم على التقاعد والتعويض سواء كانت حسمياتهم ومودعاتهم في الخزينة كافية لذلك او لم تكن وبهذه الواسطة أوقعوا الخزينة في عجز دائم بدون ان يحسبوا للعواقب حساباً شأنهم في جميع اعمالهم.

أما حكومة سورية فانها بالرغم عن ضيق ميزانيتها وعلمها بما جر عمل الاتحاديين على الدولة من المصائب لم تحجم عن السير في اثرها فأحالت ضباط الجيش السوريين بأجمعهم على المعاش ولم تستخدم احداً منهم في عمل من اعمالها بل اكتفت بالاغراب وتركت أبناء البلاد يتقاضون رواتب التقاعد بدون ان يكلفوا بعمل ما، ثم تلاعبت في قانون التقاعد ايضاً فتارة جعلت مدة الاستحقاق للتقاعد ٢٥ سنة بدلا من ثلاثين، وطوراً أباحت الاستخدام لمن نال تعويضه وقطع علاقاته مع الحكومة وانصرف عنها مختاراً. ثم استعادت بعض هؤلاء الى الخدمة وخصصت لهم رواتب او تعويضات فادحة. وأضافت الى هذه التعديلات الهامة كثيراً من الاستثناءات الخاصة بحيث يستفيد منها البعض دون الآخر بحكم قانون واحد في آن واحد ولم تراع في ذلك مصلحة الخزينة ولا قاعدة المساواة في الحقوق بين موظفيها، ومع ان معظم المتقاعدين القدماء قد وافاهم الأجل وانقطعت

رواتبهم فقد اصبحت بسائق احكام هذه القوانين والاجراءات الغريبة رواتب التقاعد التي تؤدى اليوم من خزينة الشام وحدها عشرة أمثال ما كانت عليه في بدء الاحتلال وأصبح جلّ من يتقاضى رواتب التقاعد هم من الشبان الصحيحي الأجسام والقادرين على العمل بخلاف المتقاعدين القدماء اللذين كانوا من الشيوخ والمعلولين فقط. والباعث على ذلك هو ان المنتدبين على سورية لتدريب حكومتها على أصول الادارة ما زالوا يوالون تجاربهم من حين الى آخر ولم يستقرّ قرارهم على امر بعد. وكل ما لاحت لهم تجربة جديدة يصرفون رئيس الحكومة ووزارته ويأتون برئيس ووزراء حديثي عهد بالوظائف فيقوم هؤلاء ويقلدون من سبقهم وينحـون عن الخـدمـة كل من ينتمي الى الوزارة السـابقة ويحيلونهم على المعاش ويأتون بانصارهم ويملأون بهم المقاعد ويكسبونهم حق التقاعد وهكذا يتوالى العمل ويزداد عدد المتقاعدين وتتضاعف أعباء الخزينة بسببهم.

٢ تقسيمات المدينة

الأبواب

كانت مدينة دمشق محاطة بسور ذي ثمانية أبواب وهي:

١- **باب البريد** - في غرب الجامع الأموي، كان يخرج منه البريد أيام الخلفاء، ولعل باب العصرونية الواقع الى شمال سوق باب البريد هو ذلك الباب نفسه أو أقيم عوضاً عنه في العصور الخالية، وعندما أنشئت القلعة امتد سوق باب البريد على استقامة القلعة حتى بلغ الزاوية الغربية الجنوبية منها. وأنشىء هناك باب جديد دُعي باب الخان، ثم باب النصر، ثم باب دار السعادة، وعرف بعد ذلك بباب السرايا، وهدم عام ١٢٩٥ للهجرة لأجل توسيع الطريق، وهو محل مدخل سوق الحميدية اليوم.

٢- **باب الجابية** - في الغرب الجنوبي من المدينة، جدد عام ٥٦٠ عقيب انهدامه من الزلزال.

٣- **باب الصغير** - وهو باب الشاغور في الجنوب.

٤- **الباب الشرقي** - في الشرق الجنوبي وهو ما زال على حاله منذ أيام الرومانيين، وبعد الفتح الاسلامي أنشئت عليه منارة.

٥- **باب السلام** - في شرقي المدينة، جدد عام ٦٤٤.

٦- **باب توما** - في الشمال الشرقي، جدد عام ٧٢٤.

٧- **باب الفرج** - يعرف اليوم بباب القلعة، وهو في الشمال، جُدد عام ٦٤٦.

٨- **باب الفراديس** - ويدعى باب العمارة أو باب السلسلة، جُدد عام ٦٠٩.

وقديماً كان للمدينة بابان آخران، الأول يدعى باب كيسان، أو باب بولس، وهو في الجهة الشرقية بالقرب من الباب الشرقي، وقد ردم في الأعصر الخالية. والثاني باب المنجنيق.

الأثمان

كان ربض[1] المدينة خارج سورها توجد فيه ساحات فسيحة وعمارات وقرى عديدة كساحة القمح خارج باب الجابية التي أنشأ عليها سنان باشا[2] جامعه المشهور، وعمارة الدحداح خارج باب الفراديس، وقرية العقيبة مما يلي العمارة، ثم قرية القنوات التي أنشأ فيها الأمير شادي بك مسجده المعروف بالشابكلية، ثم قرية الصالحية على سفح قاسيون وغيرها.

وعلى مرور الأيام اتسعت تلك القرى والعمارات واتصلت ببعضها وتألفت منها أحياء حديثة تزيد في مساحتها على فضاء المدينة القديمة فجعلت المدينة كلها تتألف من ثمانية أثمان هي:

١- ثمن القنوات	- في الغرب الجنوبي
٢- ثمن سوق ساروجة	- في الشمال الغربي
٣- ثمن العمارة	- في الشرق الشمالي
٤- ثمن القيمرية	- في الشرق
٥- ثمن الشاغور	- في الشرق الجنوبي
٦- ثمن الميدان التحتاني	- في الجنوب
٧- ثمن الميدان الفوقاني	- في الجنوب
٨- ثمن الصالحية	- في الشمال

وسنصف كل ثمن على حدة في الأبواب الآتية ان شاء الله.

(١) ثمن القنوات

يبتدىء «ثمن القنوات»[٣] من محطة بيروت في البرامكة التي هي جزء من مقابر الصوفية[٤] القديمة ثم محطة الحجاز، فباب ذي مخمر، فشارع جمال باشا الذي دعوه شارع النصر ثم أطلق عليه اسم شارع النصر، ثم أطلق عليه أسم شارع الحجاز، فشارع خالد بن الوليد وشارع القنوات، فتحت القناطر، فالشابكية، فالدرويشية، فباب الجابية، فالسكرية، فالسنانية، فساق الغنم، فشارع حسان، فقصر الحجاج، فالقصاصين، فالتنورية، فباب السريجة.

وفي هذا الثمن التكية المولوية (الذي أصبح مدرسة عسكرية في هذا اليوم)، وجامع درويش باشا، ومسجد المغربية والشابكلية وهما من القاعات السبع المشهورة في دمشق[٥]، ثم جامع عيسى باشا[٦]، وجامع سباي المعلق، وجامع سنان باشا، ومسجد العجمي، والصابونية، وجامع حسان، وعز الدين، والحيواطية، ومسجد زيد بن ثابت، والنيروزي، ثم جامع العداس، وزاوية الهنود، ثم اربع مدارس عصرية ابتدائية للحكومة، اثنتان منها للبنات، وهما مدرستا قبر عاتكة[٧] والمغيربية، واثنتان للبنين وهما مدرسة قبر عاتكة وباب الجابية.

وفي القنوات محطة البرامكة لسكة حديد بيروت وتمديداتها، ومحطة الحجاز التي أنشئت على الطراز العربي البديع وهي مبدأ السكة الحديدية الحجازية الآتي بيانها، ثم ثكنة الحميدية التي أنشئت لاقامة ستة عشر فوجاً (طابور) من الجنود بمعداتها ومن خلفها الاصطبلات والمستودعات ومستشفيات الخيل ودار البيطرة وما يتبعها.

ثم مقابر الصوفية المندرسة، ومقبرة ذي مخمر، والمستشفى الوطني، ومعهد الطب، ومرآب السيارات العسكرية، ثم دائرة المشيرية التي كانت قديماً مقرّ الحكام ونوّاب السلطنة، وتدعى دار السعادة.

وفي «القنوات» حمام السرايا[٨] وحمام الملكة، وحمام الحدادين، والقناطر، والسنانية، والجديد، وعز الدين، والنيروزي، وحمام الذهب، ثم معمل للنشا في السنانية، ثم خان السنانية، وخان الجبن، وخان الزالق، وخان الدغلي، وخان السلطان، وخان البيطار، وخانات متعددة للحيكة والنسيج، وحواصل (مستودعات الأخشاب) واتونات لحرق الكلس، وشيّ الآجرّ، وصنع الأحجار الرملية، وخانات متعددة لربط الدواب وايواء الفلاحين.

(٢) ثمن سوق ساروجه

سوق ساروجة[٩] مدخل المدينة من غربها على طريق العجلات والسيارات، يبتدىء من المرج الأخضر، فشارع الربوة، فشارع معهد الحقوق، فشارع الحكومة، وشارع القصر الأموي. وهذه الشوارع كلها على ضفتي بردى، ثم شارع الطاغوشية، وشارع سليمان شفيق باشا (الذي ذكرناه في باب الطرق)، وشارع البحصة الذي هو مبدأ البقعة التي كانت قديماً معروفة باسم تحت القلعة[١٠]، ثم ساحة البلدية التي أطلق عليها أسم المرجة، ثم شارع السنجقدار، وشارع رامي، وسوق علي باشا، وسوق الخيل، وسوق التبن، والسوق العتيق، وخان البطيخ، وسوق باب الاغا، وسوق خان الباشا، وسوق الهال، والزرابلية، والسروجية، والمحايرية، وسوق البحرة المدورة[١١]، ثم الجوزة الحدباء. ومن بوابة الصالحية يبتدىء الشارع السلطاني، فشارع الشيخ. المجاهد، فالعقيبة، فالمناخ. ويؤلف هذا الثمن من أحياء وأزقة البحصة، والأحمدية، والشرابي، ورامي، والسنجقدار، والنوفرة، والسمانة، وزقاق باب الآغا، والعنانبة، والعين، والبرج، والصوفية، والبقارة، والبحرة السوداء، والمعمشة، والديمجية، والست زيتونة، والشماعين، والعقيبة والداقور، وتحت المئذنة، وبين القريتين، وزقاق الكلبة، وزقاق النهر، والمناخ.

وفي هذا الثمن مدرسة الصنائع، ومدرسة نموذج البحصة، ومدرسة الجوزة الحدباء للبنين، ومدرسة النوفرة للبنات، والميتم لتعليم البنات اليتامى، ثم الجامعة العلمية.

وفيه التكيتان السليمية والسليمانية على المرج الأخضر، ثم جامع يلبغا، ومسجد فضل الله البصري، ومسجد الدغمشية، والطاغوسية، وجامع السنجقدار، وسيدي خليل، والناعورة، ومسجد الزرابلية، والسروجية، والدلبة ثم جامع (بيرسباي) المعروف بجامع الورد، وجامع ست الشام[١٢] وجامع التوبة ومسجد محمد باشا العظم، ومسجد رستم والحاجب والنحاسين، ثم مقام السيدة حفيظة. وعلى ضفة المرجة الشمالية في جهة الشرق الأعلى مستودع الذخائر الحربية (جبخانة) وثكنة صغيرة للمحافظة ثم حديقة الأمة يقابلها معهد الحقوق الذي كان مدرسة للمعلمين.

ثم نزل فيكتوريا، ونزل الشرق، والقصر الأموي، ونزل خوام وهي أعظم نزل دمشق في الوقت الحاضر، ثم دائرة الحكومة والبلدية والعدلية والبريد والبرق ودائرة الشرطة التي أنشئت لادارة الاملاك السلطانية، ثم صيدلية الاسعاف العام والمختبر الكيماوي فالنصب الذي أقيم لذكرى مد الاسلاك البرقية الى المدينة المنورة[١٣]، ثم النزل المدعو قصر الشام (داماسكوس بالاس)، فادارة حصر الدخان (الريجي)، فدار المعاينة الخاصة للنساء، فدائرة الاوقاف، ودائرة الصحة، فبناية العابد (وهي أكبر بنايات المدينة اليوم)، فمسرح الزهرة، والنزل الملوكي، ونزل الصفاء. ثم مطبعة فتى العرب، ودائرة المصالح العقارية، ودائرة قيادة الدرك، ثم حمام الناصري وحمام السروجية، والقرماني، وحمام الورد، والجوزة، والعمري، والخانجي، وحمام رامي. ثم خان البطيخ، وخان الباشا، وخان الدبس، وخان العيطة، وخان الشماع، وعدة خانات لربط الدواب، ومعامل لصنع الاحجار الرملية، وأتونات لحرق الكلس، وصنع الآجر، وحواصل للاخشاب وغيرها.

(٣) ثمن العمارة

«ثمن العمارة»[١٤] قلب المدينة ومجمع أهم بيوتها التجارية. يبتدىء من سوق الحميدية، أكبر أسواق دمشق، فسوق النسوان، فالعصرونية، فسوق الخندق، وسوق القدسي، فباب البريد، والمسكية، فسوق خان الكرك، فخان الجمرك، وسوق القيشاني، والقلبقجية، والنورية، فسوق الحرير، والقوافين، وسوق السلاح، وبين البحرتين، فالبزورية، ثم البوابجية، والمناخلية، وبين الحواصل، ومسجد الأقصاب، وشارع عاصم، وبرج الروس، والقصاع، والزينبية التي تدعى أرض العناية.

وأحياؤه أولها زقاق المحكمة، والنحلاوي، والسليمانية، وزقاق البوس، وزقاق العجة، فباب البريد، والبحرة الدفاقة، وبين الصورين، وزقاق الضيق، والسبعة طوالع، والكلاسة، والملك الظاهر، والعمري، والنقيب، والنارنجة، وزقاق أمونة، وزقاق المزابل، والعداس، والقزازين، والسكاكري، والمؤذن، والنشا.

في «ثمن العمارة» أيضا الجامع الأموي، وقلعة دمشق، وسنصفهما على حدة.

وفيه أيضا الجامع المعلق، وجامع السادات، وجامع الجوزة، ومسجد الأقصاب، ومسجد القوافين، ومسجد السيدة رقية، ومسجد العداسي. وفي شمال الجامع الأموي المدرسة الشميساطية، والمدرسة الأخنائية، والمدرسة الجقمقجية، ومدرسة الكلاسة حيث مرقد صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله)، ثم المدرسة العزيزية والمدرسة حيث مرقد الملك الظاهر بيبرس وولده، وهي المتخذة مكتبة عامة في يومنا هذا، وتجاهها المدرسة العادلية الكبرى التي جعلت متحفا للعاديات، ثم المدرسة المرادية والقلبقجية، والنورية الكبرى التي تضمّ ضريح السلطان نور الدين محمود بن زنكي، طاب ثراه، ثم المدرسة النورية الصغرى في العصرونية، والمدرسة العادلية الصغرى، ومدرسة العصرونية، ودار الحديث الأشرفية، ومدرسة النحلاوي، والريحانية والسليمانية والعبلية، ومسجد بين البحرتين، والمدرسة الأمينية، والكاملية، ومدرستان ابتدائيتان للحكومة، وهما مدرسة الملك الظاهر، والعمارة للبنين، ثم مدرستا البيمارستان والشمباشية للبنات، وأضرحة السيدة رقية، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وضرار بن الأزور وأخته خولة بنت الأزور، وشرحبيل بن حسنة (رضي الله عنهم).

ثم المحكمة الشرعية الكبرى، ومحكمتا البزورية والعونية[١٥] وباب الفراديس، وباب الفرج، ومقبرة الدحداح، والذهبية.

ثم خان أسعد باشا ذو الباب العديم النظير في هندسته وزخرفته، وخان العامود، وخان الصواف، وخان العمرانية، وخان التتن، وخان السفرجلاني، وخان الحرير، وخان الجمرك، وخان المرابط. وخان الزعفرنجية، وخان الجواد، وخان شيخ قطنا، وخان المرادية، وخان الصعب.

ثم حمام البزورية، وحمام القيشاني، وحمام السلسلة، وحمام العقيق، وحمام البوابجية، والسكاكرة، وحمام السلطان والعيلاني والعمري وحمام أمونة.

ثم قاعتان لصنع النشاء، ومصبغتان، ثم المطبعة الحديثة، والبنك السوري واللبناني، والبنك الفرنساوي السوري، وبنك روما، وبنك مصر، وسوق الأوراق النقدية، وأكبر المحلات التجارية. ثم المستشفى الافرنسي على اسم القديس لويس، والمستشفى الانكليزي، والقصاع.

الجامع الأموي

الجامع الأموي أعظم مساجد الشام، ومن أقدم معابد العالم. امتاز بكون بقعته لم تستعمل لغير العبادة في زمن من الأزمان، ولم ينشأ عليها سوى المعابد قط. شيده الآراميون هيكلاً على إسم الاله (عمون)، ثم جعله اليهود كنيساً، واتخذه اليونان معبداً، وصيّره الملك (تيودور قيصر) الروماني كنيسة على إسم القديس يوحنا المعمدان، وهو السيد يحيى عليه السلام. وعقيب الفتح الاسلامي حُول الى مسجد جامع.

جدد بناء هذا الجامع الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي عام ٨٦ للهجرة، واستخدم في انشائه إثني عشر ألف عامل ظلوا يشتغلون طيلة أيامه. وزخرفه بالفسيفساء المذهب والملون باللونين الأخضر والأصفر، وجعل سلاسله من الذهب الابريز، وأنفق عليه، على قول المؤرخين وإجماعهم، ٤٠٠ صندوق، في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار مجموعها (١١,٢٠٠,٠٠٠) دينار، وترك قبّته المسماة قبة النسر، التي هي من آثار الآراميين، ومبنية على أربع قواعد ضخام (أعلى بناية في مدينة دمشق)، وابقاها على حالها. ولما مات الوليد كانت بقايا من الزخرفة لم تنته، فأتمّها أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك.

طول الجامع من الشرق الى الغرب (٥٤٨)، ومن الشمال الى الجنوب (٣٥٠) قدماً، وقبل الاسلام كان له باب من جهة الجنوب مما يلي محل المحراب الحنفي، فردمه المسلمون واكتفوا بالجامع بأربعة ابواب كبار على جهاته الأربع ففي الغرب باب البريد وفي الشرق باب جيرون أو باب العبرانيين المدعو اليوم باب النوفرة، وكلا البابين الغربي والشرقي ذو ثلاثة أقسام، وفي الجنوب (القبلة) باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين، وفي الشمال باب الفراديس أو باب السلسلة المدعو باب العمارة. وعدا هذه الأبواب الكبار توجد للجامع أبواب صغار في جهتي الشرق والشمال تفتح على الكلاسة والنوفرة، وله ثلاث مآذن (منارات) أعظمها مئذنة عيسى في الشرق التي كانت مرصاداً للروم (ويقال إن السيد المسيح عليه السلام سوف ينزل منها في آخر الزمان) وفي الغرب المنارة الغربية التي كانت هيكلاً أيام الآراميين، توقد فيه النار للعبادة. وقد اعتكف في هذه المئذنة الامام الغزالي سنة ٤٨٨. وفي الشمال مئذنة العروس وهي من بناء الوليد.

يتألف الجامع من حرم وصحن، يفصل بينهما جدار ذو نوافذ ضخمة، أعظمها باب السنجق الذي يقابل المنبر، والى جانبه سدة المؤذنين، وعلى جدارها وفي مدخل باب البريد بقايا الفسيفساء التي كانت جدران الجامع كلها مزدانة بها. والحرم ذو سقوف خشبية مصفحة بالرصاص وقائمة على طبقتين من العمد الحجرية، وفيه أربعة محاريب تداعت الى الخراب ايام الأمير تنكز الحسامي، فجددها عام ٧٢٨، وقد تهشم على أثر الحريق الذي ظهر سنة ١٣١٣ فأقيمت مجدداً. والمحراب الأول وهو الأوسط لأهل المذهب الحنفي، وهو الى جانب المنبر الذي كان يخطب عليه الخلفاء، وتليه المقصورة التي كانت معدة للاستراحة، ابتناه الخليفة معاوية الأول (رض) عام ٤٤ للهجرة على أثر محاولة الخوارج اغتياله. والى يمين المنبر الأوسط ويساره ثلاثة محاريب أخرى للسادة الشافعية والمالكية والحنابلة. هذا وان تعددت المحاريب، ووجد لكل منها إمام خاص فإن صلاة الجمعة والعيدين يقيمها إمام واحد، وهو إمام الأحناف الاكثر نفوساً في دمشق والذي يتولى الخطبة ويصلي بالناس من جميع

المذاهب.

القبة مرقد السيد يحيى الرسول عليه السلام ثم بئر ماء قديم ومقام النبيين الجليلين هود وذو الكفل عليهما السلام. وحرم الجامع مفروش بالطنافس (سجاد) الفاخرة ويستوعب عشرة آلاف مصلّ على أقل تقدير. اما صحن الجامع فان له أروقة على جوانبه الثلاثة لوقاية المصلين من المطر والشمس. وفيه قبة الساعات للتوقيت، وكان على جدار باب السنجق بسيطة فلكية تدل على الأوقات في الليل والنهار من عمل المعلم أبي الحسن علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري الدمشقي المعروف بابن الشاطر المتوفي سنة ٧٧٧، وقد انحرفت ابرتها على مرور الأيام فرممها المرحوم الشيخ محمد الطنطاوي عام ١٢٩٣. وفي وسط الصحن بركة ماء (بحرة) أنشأها الوالي عثمان باشا الصادق عام ١١٧٥. وعلى جانبي باب السنجق أنابيب ماء عذب للشرب وللوضوء، وفي غرب الصحن قبة قائمة على ثمانية أعمدة قيل أنه كان فيها بعض أوراق تتعلق بالجامع فنقلها الأتراك قبل رحيلهم الى القسطنطينية. للجامع أربعة مشاهد كل مشهد لمسجدٍ مستقل له محرابه وحوض مائه وطنافسه. الاثنان منها في الغرب، والاثنان في الشرق فالمشهدان الغربيان يُنسبان الى الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهما) والمشهدان الشرقيان ينتمي أحدهما الى الحسين السبط حيث دفن فيه رأسه الشريف والثاني يعرف بمشهد السفرجلاني وينسب في الأصل الى الامام زين العابدين بن الحسن (رضي الله عنهم).

أصيب الجامع بالحريق ست مرات، الأولى سنة ٤٦١ في خلافة الفاطميين، والثانية سنة ٧٤٠، ثم تكرر الحريق سنة ٧٥٣، وفي ٨٠٣ أحرقه التيمور عند رحيله، وفي سنة ٨٨٤ احترق للمرة الخامسة، وفي سنة ١٣١٣ احترق للمرة السادسة، وسقطت عمده فأقامتها الأمة من مالها الخاص على شكلها وطرازها القديمين بهمّة محمد فوزي باشا العظم والوالي ناظم باشا.

القلعة[١٦]

لما حاصر العرب مدينة دمشق لم تكن لها قلعة خاصة بل كانت المدينة كلها ذات سور منيع يحيط بها من جهاتها الأربع، وكان ملوكها الأقدمون يقيمون في قصور مشيّدة على أعمدة ضخمة ضمن ذلك السور الذي ما زالت آثاره وبقايا تلك الأعمدة باقية الى هذا اليوم، والقصر الشرقيّ فيها ينسب الى جيرون الملك، وهو من أبناء عوض بن نوح كما سبق بيانه.

وبعد الفتح الاسلامي شيد الأمويون قصورهم الخضراء في جنب المسجد الجامع، والمعروف بين الناس أن دار بني العظم في زقاق المحراوي والمصبغة الخضراء الباقية وراء سوق القباقبية في المدخل الموصل الى حيّ النقاشات أنشئتا على اساس تلك القصور التي امتدت فبلغت الموقع المدعو اليوم «سوق التبن» وهناك ضريح الخليفة معاوية الأول (رضي الله عنه) المنقوش عليه بالقلم الكوفي هذه العبارة: «معاوية بن أبي سفيان خادم المؤمنين ورضيع رسول الله ورديفه». وقد دكّ العباسيون عند احتلالهم دمشق آثار الأمويين كلها ولم يدعوا سوى المسجد الجامع. هذا القبر محاط بالبنايات منذ أيامهم. كما أنهم أنشأوا في شمالي الجامع دار ملك دعوها القصر، فاحترق هذا القصر في فتنة الفاطميين عام ٤٦١ وعقب ذلك امتلك الشام السلطان تاج الدولة (تتش) ابن السلطان ارسلان السلجوقي عام ٤٧١، فابتنى هذه القلعة في غرب الجامع وسكنها مع حاشيته وشيد فيها داراً لابنه رضوان، ثم وسّع القلعة أولاد تتش وأخلافه الى ان هدمتها الزلازل في القرن السادس، فجددها السلطان نور وأنشأ فيها دارا لنفسه دعاها «دار المسرة»، وأنشأ الى جانبها حماما. وفي أيام الملك العادل الأيوبي عادت الزلازل فدكت أبراج القلعة للمرة الثانية، وكانت اثني عشر برجاً، فألزم كلا من اهل بيته الملوك والأمراء بعمارة برج من ابراجها المتهدمة، فأقاموها وأعادوها سيرتها الأولى. ثم شيد فيها ابنه المعظم دورا وقصورا عدّة، وأنشأ أخوه الملك الكامل دارا دعيت «الكاملية»، وابتنى الملك الصالح نجم الدين أيوب دركاها، وبعدها عبث بها التتار أيام هولاكو، وردمها الملك الظاهر بيبرس وجعل الزاوية الغربية منها مشترفا عاليا وابتنى قاعة لولده السعيد، ثم أنشأ في صحنها الملك الأشرف خليل بن قلاوون دورا متعددة، وشاد القبّة الزرقاء والطرمة وقاعة

الذهب، ثم أحرق القلعة التيمور في جملة ما احرق عند رحيله سنة ٨٠٣، فأقامها السلطان فرج بن برقوق بواسطة نائبه نور الحافظي عام ٨١٠.

طول القلعة من الغرب الى الشرق ٣٣٠ خطوة، وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٧٠ خطوة، وهي ذات ثلاث طبقات معقودة بالحجر الصلد الذي لا نظير له في هذه الأيام.

وكان للقلعة خندق يحيط بها ويملأ بالماء أيام الحصار، وأزيل في أواخر العصر الماضي وأحدثت محله أسواق وحوانيت.

قديما كان للقلعة أربعة أبواب، ردم منها الباب الواحد وبقيت ثلاثة أبواب: باب في الغرب بالقرب من دار السعادة ـ دائرة المشيرية ـ وبابان في الشرق، الأول في سوق الخندق بالعصرونية أنشىء على ارتفاع ركبة واحدة من الأرض ـ بحسب معرفة الفلاحين واصطلاحاتهم ـ وقد يأتون اليه ويصححون مقياس القصبة على ارتفاعه. والباب الثالث في آخر ذلك السوق وراء الطاحون الزراوية.

في أوائل العصر المنصرم كانت الدور المشادة في صحن القلعة ما زالت باقية تؤجر لمن شاء من الأهلين، فيسكنونها آمنين على أنفسهم وأموالهم من الفتن التي كانت لا تنقطع من حين الى آخر (ومؤلف هذا الكتاب أدرك اثنين ممن سكنوا تلك الدور، وهما المرحوم درويش آغا الترزي، والشيخ سليمان الخضيري، رحمهما الله). ثم بادت هذه الدور والقصور، كما أخنى الدهر على القلعة وما تحتويه من نفائس، وبعدما كانت مقرّ السلاطين والملوك أصبحت تؤوى اليوم الجواد فقط. على أن جهتها الجنوبية ما زالت معمورة تطلق منها المدافع في أيام الأعياد والمواسم، وجناحها الغربي كان مقرّا للصنائع العسكرية الى وقت قريب، وكانت في الجناح الشرقي الطرق والطاحون ومستودعات الميرة والذخيرة، ثم السجن وحدائقه ومشتملاته. وفي غرب القلعة مسجد الصحابيّ الجليل [١٧]ومقامه، وعند الاحتلال سكنها بعض الجنود الافرنسيين وأقاموا فيها مدة، ثم جلوا عنها وتركوها لأفراد الدرك المحافظين على السجن.

(٤) ثمن القيمرية

«القيمريّة»[١٨]في شرقي المدينة بين العمارة والشاغور، تؤلف من أربعة اقسام رئيسية هي القيمرية، ومئذنة الشحم، وحيّ المسيحيين، وحارة الموسويين [١٩]

فـ «القيمرية» تبتدىء من باب النوفرة، فسوق القباقبية، وسوق الصاغة، فزقاق المصبغة الخضراء، والنقاشات، والحمزاوي، وزقاق الصوف، وزقاق القازي، والنقطة التاريخية، والبدرائية، وسوق القاضي، وقناة الحطب، وقناة أبي بكر، وزقاق الشطي، والسيدة رابعة [٢٠]، فزقاق الشاويش، فزقاق المنتن، فالشيخ عبد الله، وزقاق المصبغة، فالكردي، فباب السلام، وفي هذا القسم قصر بني العظم الذي اشتراه الافرنسيون وجعلوه دارا للآثار العربية ورفعوا عليه علمهم.

و«مئذنة الشحم» لها شارعها، وشارع الخراب، وفيها زقاق التبن وسوق الصقالين، وتلة السماكة، وزقاق السلمي، والناصرى، والبحيرة، والأسعدية، وزقاق الملكة، والمليجي، والغمارات، وتحت القناطر، والقساطلية، وزقاق معاوية، والشرفاء.

و «حيّ المسيحيين» أوله طالع الفضة (أو طالع القبّة) ثم زقاق الكنيسة، وساحة الدوامنه، وأسفل التلة، ثم شارع السلطاني، والمسك، والمسبك، وحارة الزيتون، وزقاق حنانيا، والباب الشرقي، والفضية، وزقاق جعفر، والاسه، والمجدلية. ثم شارع باب توما، والصفوائية، والشيخ رسلان، والقصاع.

و «حيّ الموسويين» يمتد من أمام طالع الفضة، وفيه سوق الجمعة، وزقاق الأحمر، وزقاق الكساتيب، وتلة الحجارة، وينتهي عند باب القروانة في الشاغور.

ومن المعابد الاسلامية في القيمرية المدرسة البادرائية ـ التي كانت قديما دارا للبطريركية ـ ومدرسة فتحي، والمدرسة العتيقة (المعروفة بمدرسة القطاط) والمدرسة السعيدية، ثم جامع المادئة، وجامع الخراب، وجامع

المسك، والجامع الأحمر، وجامع السقيفة، ومقام السيدة رابعة [٢١]، ومقام سيدي أبيّ قصب الخزرجي، ومقام الشيخ صالح، ومقام الشيخ رسلان بن يعقوب الجعفري المتوفى سنة ٦٦٩، ثم مسجد خالد بن الوليد (رضي الله عنه).

ومن المعابد المسيحية الكنيسة المريمية الكبرى ـ وهي من بناء ارقاديوس قيصر الروماني ـ مقرّ البطريرك الأنطاكي لطائفة الروم الارثوذوكس، طولها سبعون ذراعا وعرضها أربعون. ثم كنيسة الماريوحنا الدمشقي للروم الاورثوذوكس أيضا، وكنيسة السيدة في حارة زيتون، وهي مقرّ بطريرك الملكيين (الكاثوليك)، ثم كنيسة مار موسى الحبش للروم الكاثوليك، وكنيسة القديس جورجيوس للسريان اليعقوبيين (الاورثوذكس)، وكنيسة القديس غريغوريوس للأرمن الكاثوليك، وكنيسة مار سركيس للأرمن القدماء، وكنيستان للطائفة الانجيلية (البروتستانت)، ودير العازرية، واليسوعية وهو قسمان: قسم للراهبات، وفيه مدرسة للبنات، وقسم للرهبان وفيه مدرسة للبنين، ودير الفرنسيسكان، ودير مار انطونيوس للموارنة.

وللموسويين كنائس متعددة أشهرها كنيس سوق الجمعة، ولهم مواسمهم.

وفي «القيمرية» الثكنة العثمانية ومدرسة التجهيز والمعلمين (التي اشتهرت باسم مكتب عنبر، وهو اسم صاحبها قبل أن تدخل في ملك الحكومة)، ومدرستان ابتدائيتان وهما مدرسة الحبال ومدرسة الكوافي، ثم مدرسة القيمرية للبنات، ومدارس متعددة لسائر الطوائف أهمها مدرستا التجهيز للروم الاورثوذوكس والكاثوليك.

وفي هذا الثمن حمام النوفرة المعروف بحمام الذهبية أيضا، وحمام أسامة وحمام القارىء وحمام الخراب، وحمام المسك، وحمام البكرى، وحمام الشيخ رسلان.

ثم خان النحاس وخانات متعددة لسكن المكارين ومعامل للنسيج والحياكة ومعمل النعسان ذي الأشغال البديعة بين خشبية ونحاسية، ثم معمل الزجاج والدباغة الفنية، وعدة دباغات قديمة، ومصبغتا القيمرية والخراب. ثم الباب الشرقي، وباب توما وباب السلام، ومقبرة الشيخ رسلان للمسلمين، ومقابر المسيحيين والموسويين.

(٥) ثمن الشاغور [٢٢]

«الشاغور» بين «القنوات» و «القيمرية» يبتدىء من باب الجابية فسوق المرادية، وسوق مدحت باشا، وسوق جقمق، والخياطين، والمنجدين، وسوق القطن، والحبالة، وسوق الصوف، والخريزاتية، والدقاقين، والباشورة، والسروجي، والقراونة. يؤلف الشاغور من أزقة البرغل والعامود، وعدر، والمبلط، والمرستان، وزقاق هو زقاق الخضيرية، والباغوشية، والصمادية، وزقاق طاحون السجن، وزقاق حمام ركاب، والشماعيين، والدقاقين، وزقاق القوّتلي، وحارة الزط، والقراونة، والمرقعي، والنحاتة، وزقاق الشيخ، وزقاق النونو، والتربة، والبستان، وتحت المئذنة، وبين التربتين، وزقاق المعصرة.

وفيه جامع شركسي، والقلعي، وهشام، ومسجد الخرزاتية، والمدرسة الأحمدية، والخياطين، والخضيرية، والباغوشية، والصمادية، والباشورة، وجامع الشماعيين، والسروجي، والمزار، وجامع الجراح، وجامع مسعود.

ثم مقبرة الباب الصغير وفيها قبور آل البيت الكريم، الامام زين العابدين[٢٣]، والسيدات خديجة، ورقية، وأم كلثوم، وأم حبيب، وزينب الكبرى، وسكينة، والصحابي الجليل بلال بن رباح الحبشي (رضي الله عنهم).

وفي هذا الثمن حمام القاضي، وحمام المرستان، وحمام الخياطين، وحمام الباشا، وحمام ستي عدرا، وحمام ركاب، وحمام الصيفي، وحمام السروجي.

ثم البيمارستان النوري الذي اتخذ مدرسة للبنات، وخان الزيت، وخان الدكة، وخان سليمان باشا المعروف بخان الحماضة، وخان الصنوبر، وخان الجوخية، وخان الدقيق، وخانات متعددة لربط الدواب وسكنى الفلاحين، ومعامل للنسيج والحياكة، وحواصل للأخشاب، وأتونات للكلس والآجرّ وصنع الحجر الرملي، ثم مصبغتان، وثلاث قاعات للنشاء، وثلاث مصابن، ومعمل للزجاج القديم الذي يؤمن حاجات البلدة من الزجاج البسيط.

(٦) ثمن الميدان التحتاني

يمتد «الميدان [٢٤]التحتاني» من السويقة، فشارع الميدان المستطيل، فخان المغاربة، فالقبيبات، فزقاق الأربعين، فزقاق الأورفه لي، فزقاق الغم، والنقشبندي، والقبّة الحمراء، وابي مائلية، والتيامنة، وباب المصلى، وزقاق القملة، والنشا، والموصلي، والتنورية، والقرش، والجوهرة، وزقاق العسكري، والمحمصي، وزقاق البصل.

وفيه مسجد التاريخ، وجامع صريب، وجامع الزاوية، وجامع القواص، والرفاعي، وجامع بشارة، وجامع منجك الكريمي، ومدرسة الخانكية، ومدرستان أميريتان للبنين والبنات.

وفيه حمام الزين، وحمام السويقة، وحمام سنقر، وحمام الناصري.

ثم كنيسة للروم الارثوذوكس باسم القديس حنانيا، وكنيستان للروم الكاثوليك، ومدرسة لكلتا الطائفتين.

وفي الميدان تباع الحبوب بأنواعها في حوانيت فسيحة تسمّى بوايك (جمع بايكه) وفيه أهراء كبيرة لخزن الحبوب وكثير من الخانات والأحواش (جمع حوش) لربط الدواب والجمال وايواء الفلاحين، ثم مصانع متعددة لأعمال مختلفة ومعامل للنسيج والحياكة وقاعات للنشاء.

(٧) ثمن الميدان الفوقاني

«الميدان الفوقاني» في منتهى المدينة من جهة القبلة، يمتدّ من سوق الجزماتية الى بوّابة الله (باب مصر) وفيه سوق الجزماتية، والقلة، وساحة عصفور، وساحة بحصيص، والراقية، وزقاق الطالع، وزقاق البرج، وزقاق الماء، وأبي جل، والمشارقة، والحارس، والجمالة، والقلاينية، والنصارى، وزقاق قيصر.

وفيه جامع الدقاق، وزاوية الشيخ سعد الدين الجابري، ومسجد العسالي، ثم الحمام الجديد، وحمام الدرب، وحمام التوتة، وحمام منجك، وحمام الرفاعي.

ثم معمل السكة الحديدية الحجازية، ومحطة سكة حديد بيروت وتمديداتها، وثكنة المتطوعة، والثكنة العزيزية.

(٨) ثمن الصالحية

«ثمن الصالحية»[٢٥]من أوسع الأثمان دائرة وأبهاها منظرا. يبتدىء من بوّابة الصالحية آخر حيّ سوق ساروجة أمام المستشفى العسكري على الطريق الحديث القديم الذي هو في شكله وطراز بنائه لا يشبه الحديث ولا القديم، جدران من تراب، وسقوف من المساطيح [٢٦]تؤلف دورا اكتظت ببعضها، فلا هندسة ولا نظام ولا هواء ولا ماء، وكل ما فيها باب ونافذتان تسخران من بانيها وتستغيثان بساكنيها، وبعد أن كانت طوابقها السفلى من ذات البناء حولوها الى حوانيت، وجعلوها على شفا جرف هار.

ان للاقتصاديات أحكاما، وللضرورات اباحات، ولكم ما دخل هذه في اعوجاج الطريق التي أنشئت حديثا، ولا أسهل من جعلها مستقيمة. ثم في اكتظاظ البنايات والأرض كانت أرخص من شروى نقير، ثم في جعل السقوف في بعضها أوطأ من قامة الانسان، فلا يستطيع رائدها الوقوف منتصبا، فجاءت وهي على هذه الحالة ظلمات بعضها فوق بعض.

ومن العجائب أن تروج هذه البنايات على ما فيها من عوج، ويهرع اليها الناس من كلّ صوب، والباعث على ذلك ضيق المدينة بالنسبة لتكاثر السكان الذين اختاروها أولا بحكم الضرورة، ثم تبعهم غيرهم بسائق التقليد، وصار الغريب لا يرغب في سواها لأن بني قومه وعشيرته فيها. وهكذا غصّت بالسكان على اختلاف اللغات والجنسيات، وليت البلدية تميل الى فحص هذه البنايات من حين لآخر كيلا ينهار جدار أو يسقط سقف على حين غرّة، فتزهق تحته الأرواح لا قدّر الله.

تمتد هذه الطريق الى الجسر الأبيض، وهي ثلاثة أقسام: الشهداء، وعرنوس، والجسر. تتألف من أزقة شرف والجارية، والعيطة، والبنفسج، والسبيل، والتكريتي، والشهداء، وبندق، والمعصراني، ودك الباب، والحلواني، وعرنوس، واوزبك، والرئيس، والحيّات، والقدّاح، والحلالات، والمؤيد.

ومن الجسر تتفرع الطريق الى أربعة فروع: الأول، وهو الأيمن، شارع الشيخ الأكبر المتصل بحيّ الأكراد، والثاني شارع المقدم الموصل الى سوق الشركسية[٢٧]، والثالث شارع ابي تقاله النافذ الى حيّ المهاجرين، والرابع، وهو الأيسر، طريق الدواسة المدعو اليوم شارع نوري باشا، أول بان فيه.

وشارع الشيخ الأكبر يبتدىء من الجسر فوق أبي جرش، فزقاق الشيخ عبد الغني، فزقاق الشعارة، والترياقي، والزياني، والحنابلة، والمسكي، والنحاس، والشياح، والحلالات، والميسات، وينتهي عند جامع سعيد باشا في آخر حيّ الأكراد.

وشارع المقدم فيه زقاق الرباط، والشراباتي، وعبد ربه، وسنبل، والنواعير.

وشارع أبي تقالة يؤدي الى سفح الجبل الذي كان أجرد خالياً من الزرع والضرع لوقوعه تحت أشعة الشمس المحرقة صيفاً وشتاء، وليس فيه ماء لترطيب حرارته[٢٨]. وكانت عليه مقبرة قديمة اندرست مع الأيام فخصصته الحكومة لسكنى مهاجري الأتراك الذين هاجروا من بلاد الروم عقب حرب (١٢٩٣ ـ ١٨٧٦)، وملّكتهم ما يحتاجون إليه من أرضه، فأقام كل منهم سكناً لعائلته. ثم أنشأ الوالي ناظم باشا لنفسه داراً في آخر الحيّ، وجرّ اليه ماء الفيجة ونور الكهرباء، وجعل حافلات الترام تروح وتغدو إليه في الليل والنهار، وأخذ الأطباء يوصون مرضاهم بسكنى الجبل لجفاف أرضه واعتدال هوائه. ولما زار الامبراطور غليوم قيصر الألمان مدينة دمشق نصب له سرادق فخم على سفح الجبل وفوق دكة (مصطبة) مطلة على الغوطة الغنّاء، فراقت له ولمن زاره تلك المناظر البديعة، واجتمعت كل هذه الدعايات واشرقت في نفوس القوم، فأسرعوا لشراء حصص أولئك المهاجرين الذين أخذوا بالرحيل عائدين الى بلادهم. وكانت قيم تلك الحصص تختلف بحسب اختلاف الوقت وحالته الاقتصادية، فقد بيعت القصبة أولا بدينار واحد ثم تصاعدت تدريجيا حتى بلغت الأربعين ديناراً في الشارع الأول. اما الآن، فقد تنازلت تلك الأسعار تنازلاً عظيماً بسبب الأزمة الاقتصادية العامة.

يتألف سفح الجبل من سبعة شوارع مبنية على السطح المائل، الواحد فوق الآخر، ويسمى الشارع الأول شارع ناظم باشا أو شارع الترام، والثاني شارع جبار آغا، والثالث شارع الشمعة، والرابع شارع الشيخ ظبيان، والخامس شارع المكتوبجي، ثم شارعان آخران، وكلها تمتد من الشرق الى الغرب، وتنتهي اليوم عند قهوة أكليل بك.

وهذه الشوارع تتخللها أزقة مسماة غالباً باسم من بنى فيها أول بناية كزقاق المهندسين، وزقاق الباشكاتب، وزقاق الأفرم، وزقاق الخاتون الراغبية، والشمسية، والدرج، والمصطبة، والفرن، والوادي، وغيرها.

وفي ذلك الحيّ ثلاثة جوامع الأول جامع الشمسية الذي شاده السلطان عبد الحميد خان الثاني، وجامع نافذ بك، ثم جامع الأفرم القديم، وفيه مدرسة ابتدائية للبنات وأخرى للبنين، ومدارس اهلية متعددة، ومعمل لنسج الحرير للخواجة ابراهيم المزنر.

ومن المهاجرين الى جهة الشرق يمتد شارع السكة ثم شارع المدارس (الدوارسي) ثم سوق الشركسية الذي يتصل بسوق أبي جرش المار ذكره. وهذه الشوارع تؤلف من أزقة الفواخير، والخيزران، والأولياء، والسقا، والماوردي، والمختار، وبئر التوتة، وزقاق المحكمة، وعردوك، والرباط، والمعاصر، والشيخ قاسم، والشيخ قيمر، وزقاق جبران، وزقاق الأسد.

والجوامع الباقية في الصالحية هي جامع الماردانية على الجسر الأبيض، وجامع الدلامية، والركينة، والجامع الجديد، وجامع أبي تقالة، وجامع الفاخورة، والاتابكية، والجامع الصغير، وجامع.....(*)، وهذا الجامع ضمنه بيمارستان (مستشفى) قديم لمؤسسة الأمير......(**) كان في حالة خراب فأصلح اخيراً، ثم جامع الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وجامع التكريتي، وجامع الحنابلة[٢٩]، وجامع الشيخ عبد الغني، والعرية،

(*) و (**) ـ فراغ متروك في الأصل.

والعاجية، وأبي النور، وشمدين آغا، وجامع جسر النحاس، والقبارة، والزينية، ثم جامع سعيد باشا.

ومن الجسر الى بوابة الصالحية مدخل سوق ساروجة يوجد، عدا جامع الجسر، جامع دك الباب، وجامع الشنواني، وجامع الشعلان، ثم جامع الشهداء القديم.

وعلى الطريق «نزل بغداد»، والمستشفى العسكري، ومخفرة، والحقل الزراعي، ومحل (سينما جناق قلعة الذي اتخذ مجلساً للنواب) ودائرة النافعة، ودار المعلمات، ومدرسة عرنوس للبنين، ومدرسة الشهداء للبنات. وفي الصالحية أربع مدارس حكومية أخرى، وهي مدرستا «الجديد» و«الصالحية للبنات»، والعفيف، والأكراد للبنين. ومن الزيارات والمقامات المباركة مقام نبي الله ذو الكفل (عليه السلام)، ومقام رجال الكهف، ومقام الشيخ الأكبر، والشيخ عبد الغني النابلسي، ورجال الأربعين، ومقام الشيخ خالد النقشبندي، ثم قبور حرملة بن وائل، وجابر بن مسعود من شهداء الفتح الاسلامي.

ولغير المسلمين كنيسة للسريان الكاثوليك في زقاق الفواخير، وكنيسة لاخوان المحبة (فرير) باسم القديس انطونيوس في زقاق الجارية (أو شارع البرلمان)، ودير للفرنسيسكان يحوي مدرسة للبنات باسم القديسة جاندارك، ثم كنيسة الطليان ومدرستهم ومستشفاهم في زقاق الرئيس على الشارع.

وفيه أيضا مدرسة الترجمة، ودار البريد الافرنسي، ودور البعثة الافرنسية، وخزينة الجيش الافرنسي، ودائرة الميرة الافرنسية، ودائرة الدرك الافرنسي، والمدرسة العلمانية الافرنسية للبنين والبنات، والمدرسة الاميركية للبنات. ثم دور قناصل عدة. وفي الصالحية حمام الجسر، وحمام العفيف، وحمام المقدم، وحمام الحاجب، وكلها في الأحياء القديمة. أما الأحياء الحديثة فليس فيها حمام عام لأن أغلب دورها لها حمامات خاصة تغني عن الحمامات العامة كما أسلفنا.

المدارس الدوارس

كانت في دمشق قديماً من آثار أهل البر والتقوى مدارس عدة ذات أوقاف واسعة، يقصدها الطلاب من كل صوب فيتعلمون من الأساتذة المنقطعين فيها أنواع العلوم والفنون التي يرغبون فيها، العيش والزاد مجاناً لوجه الله تعالى.

ويروى أنه كان في الصالحية وحدها ثلاثمائة وستون مدرسة مفتحة الأبواب لكل قاصد، فاذا أمّها الطالب الغريب وبات كل ليلة في مدرسته يقضي عاماً كاملاً دون أن يحتاج لنفقة ما ويتعلم العلم الذي يريده.

وآثار معظم المدارس ما زالت قائمة الى وقتنا هذا، وفي الربوة بستان يعرف ببستان المادنة، وقد أدركنا منارته التي كانت قائمة الى وقت قريب والبستان لا تكون له منارة كما لا يخفى، وانما ويا للاسف افراط التصلب من بعض الفقهاء جعل الآثار المدرسية الخالدة كالمآذن والمحاريب وما شاكلها والتواريخ المنقوشة على تلك الأحجار الضخمة والموجودة في نفس البناء وعلى الأبواب والجدران التي يستحيل تقليدها اليوم لعدم وجود الأحجار على الأقل، كل هذه الآثار تعدّ غير كافية لاثبات حقيقة المحل ما دام لا يشهد بذلك شاهدان أمام قاضي الوقت وهيهات ذلك. وهذا الاجتهاد المعول به الى الآن أدى الى أن اصبح القسم الأعظم من تلك المدارس دوراً للسكن والقسم الآخر استحال الى حدائق وبساتين تفلح وتغرس بوجه التملك رغم وجود تلك الآثار الخالدة قائمة تسخر ممن كان سبباً في تبديل معالمها وتغيير مراسمها. وقد جعل البعض احدى تلك المدارس بستاناً فلم يأبه له أحد، حتى أن قباب المقابر جعلها بعضهم مربطاً للدواب، وان الكتابات المنقوشة على الأبواب لم تكن كافية لخجل المعتدي او المثابر على الاعتداء قط. أما ادارة الأوقاف فانها غاطة في سبات عميق يمنعها من رؤية ما هو جار أمامها. وقيل انه توجد في خزانة الأوقاف اسماء وظائف لأناس يدّعون التدريس التي لم يبق لها وجود، أو هي موجودة ولم يرها صاحب الوظيفة ولا مرة واحدة في السنة، ويقبضون رواتبها بدون ان يقوموا بعمل ما، ويستحلّون ذلك بدعوى ان للعلماء حقاً في بيت المال. وهذا التعليل لغو في حد ذاته لأن خزانة الأوقاف غير بيت المال، وريع الوقف مشروط لوظائف عيّنها الواقفون رحمهم الله. وقد أجمعت الأئمة على أن نص الواقف كنص الشارع، فلا يجوز

تأويله بأي صورة كانت، واذا صرف ريع الوقف لغير الجهة المخصص لها، أو لشخص مكلف بوظيفة ولم يؤدها، يكون صارفه خائناً يوجب الشرع عزله وتعذيره. وعلى الرغم من كل ما ذكرناه يجدر بنا أن نتساءل أين هو ذلك العالم الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فيستحق قسطه من بيت المال في هذا الزمن الذي أصبح فيه الاحتياج الى العلماء العاملين أكثر منه في الأزمان الغابرة، حيث اختلط الحابل بالنابل، وأمسى القابض على دينه كالقابض على الجمر، أجارنا الله من سوء العاقبة.

المدارس العامرة

في دمشق من تلك المدارس العديدة التي توزع العيش والحساء على الفقراء والمساكين مجاناً سوى مدرستان المدرسة السليمية (التكية التي بناها السلطان سليم العثماني على المرج الأخضر) والمدرسة السليمانية الواقعة أمام جامع الشيخ الأكبر، وهي من أوقاف السلطان سليمان ابن السلطان سليم المشار اليه وقد تم بناؤها عام ٩٦٢.

ملحق

في المذاهب الاسلامية

قال النبي عليه السلام (ستفرق امتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة)، وفي صدر الاسلام ظهرت خمس فرق تفرعت عن كل منها فروع متعددة وهذه الفرق الخمس الاصلية.

١ـ اهل السنة.
٢ـ المعتزلة.
٣ـ الشيعة.
٤ـ المرجئة.
٥ـ الخوارج.

واليك وصف كل من هذه الفرق على حدة:

ا. السنيون

لأهل السنة والجماعة من المسلمين أربعة مذاهب تختلف في الفروع لاصول استنبطوها من الكتاب والسنة والاجماع والقياس واليك اسماؤها.

العدد	المذهب	الامام	مولد الامام البلدة العام	وفاة الامام البلدة العام
١	الحنفي	ابي حنيفة النعمان ابن ثابت اليمني بالولادة	الكوفة ٨٠	بغداد ١٥٠
٢	المالكي	ابي عبد الله مالك بن انس بن مالك الأصبحي	المدينة ٩٢	المدينة ١٧٦
٣	الشافعي	ابي عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي	غزة ١٠٥	مصر ١٧٩
٤	الحنبلي	ابي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل	بغداد ١٦٤	بغداد ٢٤١

ومن أهل السنة **الأشاعرة** أو الأشعرية أو المتكلمة، وهم سنّيون لهم طريقة خاصة تنسب الى أبي الحسن علي بن موسى الاشعري المتوفي سنة ٣٥٤ وهو الذي استعمل المنطق والجدل في مناظرة أهل البدع ووضع علم الكلام الذي هو عبارة عن الفلسفة الاسلامية فقط. ومن السنيين أيضا **الظاهرية** الذين يقولون بظاهر القرآن والسنة دون القياس العقلي، وهذا مذهب الامام أبي سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المتوفي سنة ٢٧٠.

٢. المعتزلة

هم أهل طريقة وضعها أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال المتوفي سنة ١٨١ الذي اعتزل درس الحسن البصري فسمي المعتزل، ثم تبعه أبو الهذيل حمدان العلاف المتوفى سنة ٢٣٥ فانتسب لكل منهما.

التوحيد والعدل فالتوحيد بقولهم ان الله حي بذاته عالم بذاته مريد بذاته قادر بذاته ولم يقولوا كالأشاعرة حيّ بحياة عالم بعلم مريد بارادة قادر بقدرة لأن الصفة غير الموصوف. وأما العدل فلقولهم إن العبد انما يثاب ويعاقب على طاعته ومعصيته، وذهبوا الى ان العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه لان الله تنزه عن يضاف اليه خلق الشر ولذلك ينبغي ان يكون هناك قدر سابق، وقد دعاهم الناس (القدرية) فأولوا الحديث النبوي القائل (القدرية مجوس هذه الأمة) وقالوا إن معناه القائلون بسبق القدر، وخلاصة أقوالهم تتلخص في الحوار الآتي الذي دار بين معتزليّ وسني:

قال المعتزلي ـ الحمد، لله الذي تنزه عن الفحشاء.

السني ـ الحمد لله الذي لا يقع في ملكه الا ما يشاء.

المعتزلي ـ أيأمر ربك بالمعصية؟

السني ـ ايعصى ربك قسراً؟

٣. الشيعة

هم الذين شايعوا علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وقالوا بامامته وخلافته فسمّوا الشيعة. ثم لرفضهم رأي الصحابة في البيعة الى أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) قيل لهم الرافضة. وقد اتسعت فيهم دائرة الاجتهاد فأولدت فرقاً متعددة منها المعتدلون القائلون بالتفضيل فقط وفيها المغالون الذين يتعدون بحث الخلافة ويتجاوزونه الى النبوة والألوهية. وقد انقسموا الى أربع فرق اصلية وهي:

الفرقة الاولى ـ **الكيسانية**. الفرقة الثانية ـ **الزيدية**. الفرقة الثالثة ـ **الامامية**. الفرقة الرابعة ـ **الغلاة**.

فالفرقة الأولى وهي **الكيسانية** تالفت من أصحاب كيسان، مولى محمد بن الحنيفة، أخي الحسن والحسين لأبيهما علي (رضي الله عنه) يقولون بامامته دون أخوته، وان الامامة انتقلت منه الى ابنه أبي هاشم، فسميت شيعتهم الهاشمية والخلفاء العباسيين كانوا منهم.

ومن الكيسانية (المختارية) أصحاب المختار بن أبي عبيد القائل إن علياً في جبل رضوى، وهو حيّ لم يمت، وانه سوف يعود ويملأ العالم عدلاً بعد ان ملء جوراً وهذا ركن من أركان التشيع.

الفرقة الثانية ـ **الزيدية** اتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب المتوفى عام ١٣٢، ساقوا الأمامة في أولاد فاطمة دون غيرها، وهم أربع طوائف:

الطائفة الاولى ـ **الجارورية** ـ اصحاب ابي الجاور زياد بن منذر البدري، زعموا ان النبي نصّ على إمامة علي بالوصف لا بالتسمية.

الطائفة الثانية ـ **السليمانية او الجريرية** ـ وهم جماعة سليمان بن جرير القائل ان الامامة شورى بين الخلق، وأثبت إمامة أبي بكر وعمر، وقال إن الناس أخطأوا في ترك الأفضل، وهو علي.

الطائفة الثالثة ـ هي **الصالحية او الأبترية** ـ أصحاب الحسن بن كثير الأبتر المتوفى سنة ١٦٨ وهم يفضلون علياً، ويعترفون بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر، ويتوقفون بأمر عثمان.

الطائفة الرابعة ـ وهي **اليعقوبية** أتباع يعقوب، وهم كالصالحية يقولون بامامة الشيخين مع تفضيل علي أيضا.

الفرقة الثالثة ـ **الامامية** القائلون بامامة علي وأولاده من بعده، ويشترطون معرفة الامام لصحة الايمان، وقد اتفقوا في سوق الامامة الى محمد الباقر، ووقفت جماعة منهم عنده وقالوا برجعته فسموا (الباقرية). وقال جماعة بإمامة جعفر الصادق فقيل لهم (الجعفرية)، واختلفوا من بعدهما فمنهم (الناوسية) أصحاب رجل يدعى ناوس قالوا إن الصادق حيّ ولن يموت حتى يظهر فيظهر أمره. ثم (الأفطحية) القائلون بانتقال الامامة من جعفر الصادق الى ابنه عبد الله الافطح لانه أكبر أولاده، ثم (الشميطية والعمادية) القائلون بامامة محمد بن جعفر الصادق، ثم (الموسوية أو المفضلية) الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق فتبعهم سائر المتشيعين وأجمعوا على إمامته، ولما مات اختلفوا في أمره فمنهم من توقف وقال إنه لم يمت، فسموا (الواقفية)، ومنهم من قطع بموته فقيل لهم (القطعيّة)، والذين قطعوا بموت الكاظم ساقوا الامامة من بعده في اولاده الى أن بلغوا الثاني عشر فقالوا انه خاتم الأئمة وانه هو الامام المنتظر خروجه في آخر الزمان، فسموا الاثني عشرية، وهذه أسماء أئمتهم ونعوتهم:

العدد	الاسماء	المولد		الوفاة	
		البلدة	العام	البلدة	العام
١	عليّ المرتضى بن ابي طالب بن عبد المطلب	مكة	٢٣ ق هـ	النجف	٤٠ هـ
٢	الحسن المجتبى بن علي المرتضى	المدينة	٣	المدينة	٥٠
٣	الحسين الشهيد بن علي المرتضى	المدينة	٤	كربلاء	٦١
٤	زين العابدين بن علي السجاد بن الحسن المجتبى	المدينة	٣٨	المدينة	٩١
٥	محمد الباقر سيد علي زين العابدين	المدينة	٥٧	المدينة	١١٤
٦	جعفر الصادق بن محمد الباقر	المدينة	٨٠	المدينة	١٤٨
٧	موسى الكاظم بن جعفر الصادق	المدينة	١٢٨	بغداد	١٨٣
٨	علي الرضى بن موسى الكاظم	المدينة	١٤٨	طوس	٢٠٣
٩	محمد التقي او الجواد بن علي الرضى	المدينة	١٩٥	بغداد	٢٢٠
١٠	علي التقي او الهادي بن محمد التقي	المدينة	٢١٤	قم	٢٥٤
١١	الحسن العسكري أو الزكي أو الخالص بن علي التقي	سامراء	٢٣٤	سامرة	٢٦٠
١٢	محمد المهدي أو القائم أو المنتظر بن الحسن العسكري دخل سرداباً في سامراء ولم يخرج منه فانتظروه	سامراء	٢٥٦	سامرا	٢٧٠

الفرقة الرابعة ـ **الغلاة** هم الذين غالوا في ائمتهم فأخرجوهم عن حدود الخلافة، وأوصلوهم الى درجة الالوهية وقد ابتدعوا بدعاً أربع هي: التشبيه. والحلول. والرجعة. والتناسخ. فمنهم:

السبائية ـ أصحاب عبد الله بن سباء الذي كان يهودياً فادعى الاسلام، وقال لعلي انه الاله، كما كان يقول ذلك في اليهودية ليوشع بن نون. وزعمت جماعته ان علياً لم يقتل وان فيه جزءا من الالوهية وهو الذي يجيء في السحاب فالرعد صوته والبرق.

العليانية ـ أصحاب عليان بن زراع السدوس الذي كان يفضل عليا على محمد، ويزعم ان عليّا بعث محمداً خدعاً لنفسه.

الميمية والعينية ـ قالوا بألوهية محمد وعلي معاً ومنهم من قال بألوهية الخمسة أصحاب العبا او الكسا، وهم: محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين، وادّعوا أن خمستهم واحد.

المغيرية ـ أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي الذي قال بالتشبيه الفاحش، وادعى النبوّة لنفسه فأحرق عام ١٧٩.

العبدلية ـ أتباع عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب الذي قال بتناسخ الأرواح وان روح الاله تناسخت حتى وصلت اليه وبذلك ادعى الالوهية والنبوة معاً فعبده أصحابه، ولما هلك ادّعى بعض أتباعه انه لم يمت وأنه سوف يعود. وقال بعضهم ان روحه تحولت الى اسحاق بن زيد بن الحارث الانصاري، وهؤلاء يسمون (الحارثية) وهم يبيحون المحرمات وينكرون التكاليف.

البيانيّة ـ جماعة بيان بن سمعان الهندي، (والبسلمية) أصحاب أبي سلمى وهم يزعمون ان روح الاله حلّت في الانبياء، ثم في علي، ثم في محمد بن الحنيفة، ثم في ابنه أبي هاشم، ثم في علي بن عبد الله بن عباس. ويقولون ايضاً إن أبا مسلم الخرساني له حظ وافر من الامامة وان روح الاله حلت فيه. وقال بعضهم في تناسخ الأرواح وكان المقنع الذي ادعى الالوهية وقتل على هذا المذهب.

المبيضة ـ يقولون بجحد الفرائض وان الدين هو معرفة الامام فقط.

المنصورية ـ أصحاب أبي منصور العجلي الذي ادعى ان الالوهية انتقلت اليه بعد محمد الباقر وانه عرّج الى السماء.

الخطابية ـ أصحاب ابي الخطاب محمد بن ابي زينب الاسدي الذي زعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة فقتل.

اليزيغية ـ القائلون إن الامام يزيغ لانه غير معصوم.

الكيالية ـ اتباع أحمد بن الكيال الذي ادعى الامامة لنفسه.

العجلية ـ تنتمي الى عمرو بن بيان العجلي القائل بعبادة جعفر الصادق.

الهشامية ـ أصحاب الهشامين هشام بن الحكم صاحب مقال التشبيه المتوفي سنة ١٩٠ وهشام بن سالم الجواليقي الذي نسج على منواله وأجاز المعصية للانبياء مع القول بعصمة الائمة وادعى الالوهية لعلي، وهناك طائفة ثالثة تدعي الهشامية ايضاً، وهم اتباع هشام بن عمرو القوسي الذي كان يبالغ في القول بالقدر.

الزرارية ـ أتباع زراره بن أعين الذي زعم أن الله لم يكن عالماً في البدء ولا قادراً وانما اكتسب ذلك لنفسه مع الزمن.

الاسحاقية ـ يقولون باشتراك علي في النبوة.

النعمانية أو الشيطانية ـ أصحاب محمد بن النعمان المدعو شيطان الطاق الذي قال ان الله لا يعلم الشيء حتى يكون.

النصيرية ـ يميلون الى تقرير الجزء الالهي في عليّ.

الاسماعيلية ـ يثبتون الامامة لاسماعيل بن جعفر الصادق ويقولون بالتناسخ.

الجناحية ـ أصحاب ذي الجناحين محمد بن عبد الله بن معاوية الذي زعم أنه إله وأن روح الله دارت في الانبياء الى أن انتقلت اليه، وكان يستحل الخمر وينكر البعث.

المفوضية ـ يقولون ان الله فوض الى محمد خلق العالم وتدبيره.

الكربية ـ أصحاب ابي كرب، القائلين إن ابن الحنيفة لم يمت وانه هو الامام المنتظر.

الكاملية ـ اتباع أبي كامل الذي كفر الصحابة بتركهم علي وكفّر علياً بتركه قتالهم.

الفدائية أو المخطئة ـ يزعمون ان جبرائيل أرسل الى علي فاخطأ وجاء الى محمد.

الذمية ـ الذين يذمون النبي، ويدّعون أن الله بعث علياً نبياً، وبعث محمداً ليظهر أمر علي، فادعى محمد النبوة لنفسه، وأرضى علياً بتزويجه بنته.

الحائطية - اتباع احمد بن حائط القائل بالتناسخ.
المانوسية - اصحاب احمد بن مانوس الذي قال بالتناسخ ايضا.

٤. المرجئة

من الرجاء بمعنى التاخير. سُمّوا بذلك لقولهم بارجاء الاعمال وان كانت من الكبائر فلا يرتبون عليها ثواباً ولا عقاباً، الى يوم القيامة، ويعتقدون أن المؤمن يستحق الجنة بالايمان دون بقية الطاعات، والكافر يستحق العقاب بالكفر دون سائر المعاصي، حيث لا تعزّ مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة. ويقولون بتأخير علي عن الدرجة الأولى الى الدرجة الرابعة وهم جماعات متعددة اليك اسماؤها:

الوعيدية - يقولون بتكفير صاحب الكبيرة وتخليده في النار.

النظامية - أتباع ابراهيم بن سيار بن هاني النظامي الذي قال فاعل العدل لا يوصف بالمقدرة على الظلم.

البشرية - جماعة بشر بن المعتمر القائل بتولد الأعمال عن فعل الغير.

المعمرية - أصحاب معمر بن عباد السلمي الذي يقول إن الله لم يخلق شيئاً غير الاجسام اما الاعراض فانها من اختراعات الاجسام.

المزدارية - اتباع أبي موسى عيسى بن جبيح المزدار المدعو راهب المعتزلة، وهو يقول ان الله يقدر ان يكذب.

التمامية - اصحاب تمامة بن سندس النميري القائل إن الافعال المتولدة لا فاعل لها وان الانسان لا عمل له الا الارادة.

الجاحظية - أتباع محمد بن بحر الجاحظ القائل ليس للعباد كسب سوى الارادة.

الخياطية - اصحاب أبي الحسين بن عمرو الخياط الذي غالى في إثبات المعدوم شيئا وقال الشيء هو ما يعلم ويخبر عنه.

الجبائية او البهشمية - اتباع أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه ابي هاشم القائلين بارادات حادثة لا في عمل.

اليونسية - أصحاب يونس السمري القائل ان ما سوى معرفة الله ليس من الايمان وان المؤمن انما يدخل الجنة بإخلاصه لا بعمله.

العبيدية - أتباع عبيد المكبت القائل إن علم الله غير صفاته، وان ما دون الشرك مغفور لا محال.

الغسانية - أصحاب غسان الكوفي القائل ان الايمان هو معرفة الله ورسوله والاقرار بما أنزل الله في الجملة دون التفصيل.

الثوبانية - أتباع أبي ثوبان القائل إن ما جاز في العقل تركه ليس من الايمان.

التوثنية - أتباع بن معاذ التوثني القائل ان الايمان هو ما عصم من الكفر.

الصالحية - اصحاب صالح بن عمرو الصالحي الذي جمع بين القدر والارجاء.

الجبرية - الجبر هو نفي الفعل عن العبد واضافته الى الله سبحانه، وهي فرقة منها من لا يثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل اصلاً ومنهم من يثبت له قدرة غير مؤثرة.

الجهمية - جماعة الجهمي بن صفوان القائل لا يجوز ان يوصف الباري تعالى بصفة يوصف بها خلقه.

النجارية - أصحاب الحسين بن محمد النجار هم ثلاث فرق (المدعوثية والزعفرانية والمستدركة) قالوا مع المعتزلة ببقاء الصفات ووافقوا الصفاتية بخلق الأعمال.

الضرارية - جماعة ضرار بن عمرو أثبتوا لله تعالى ماهية لا يعلمها الا هو.

الصفاتية - يثبتون لله تعالى صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة الخ وقد بلغوا في ذلك حتى التشبيه بصفات المحدثات فمنهم: (المشبهة والكرامية) أتباع ابي عبد الله بن محمد بن كرام الذي كان يثبت الصفات [illegible] التجسيم فيقول ان الله جسدا ويدا وأعضاء وهم اثني عشر طائفة يرجعون الى ستة أصول هي

٥ ـ الخوارج

عندما طال النزاع بين علي ومعاوية (رضي الله عنهما) مال القوم الى التحكيم الذي أسفر عن خلع علي وتثبيت معاوية. فانكر علي هذه النتيجة وثابر على القتال، فخرجت طائفة من جماعته على الاثنين فسموا الخوارج، وقيل لهم أيضا (الشراة) لقولهم إننا شرينا أنفسنا في طاعة الله أي بعناها بالجنة حين خروجنا على الأئمة الجائرة. وأساس مذهبهم انكار الخلافة فيقولون إن الحكم يستمد من القرآن فلا حاجة ثمة الى خليفة. وهم فرق متعددة تجتمع على القول بالتبري من عثمان وعلي، وتكفير أصحاب الكبائر، وهذه أسماء فرقهم وبعض أقوالهم:

المحكمة ـ هم الذين خرجوا على علي واجتمعوا في مرورا من ارض الكوفة فقاتلهم علي وشردهم.

الازارقة ـ جماعة ابي راشد نافع بن الازرق من بني حنيفة المتوفى عام ٩٥ خرجوا في البصرة وقالوا بتكفير علي وغيره من الصحابة ثم بتكفير كل من يقعد عن القتال مع الامام ولو قاتل أهل دينه. وهم يبيحون قتل أطفال المخالفين ونساءهم ويرفضون التقيّة.

النجدات ـ أصحاب ابي نجدة بن عامر الحنفي الذي استحل دماء أهل العهد والدامة واستباح أموالهم، واجمعت أتباعه على أن لا حاجة للناس الى إمام، ومن النجدات فرع يدعى (العاذرية) وافقوا النجدات في الفروع فقيل لهم معذورون بجهالتهم.

البيهسية ـ أصحاب أبي بيهس الهيصم بن جابر وهو من الاباحثة الآتي ذكرهم يقولون لا حرام الا ما وقع عليه النص ويدعون ان سورة يوسف ليست من القرآن، ومنهم فرقة يقال لها (العونية) اتفقت على القول بان الامام اذا كفر كفرت الامة بأجمعها، الغائب منهم والحاضر.

العجاردة ـ أصحاب عبد الكريم بن عجرد القائل بوجوب البراءة من الطفل حتى يدعى الى الاسلام.

الصلطية ـ اتباع عثمان بن ابي الصلت، قالوا بتولي الرجل إذا اسلم والتبري من أطفاله حتى يدركوا.

الحمزية ـ جماعة حمزة بن ادرك قالوا بالقدر وبجواز وجود امامين في عصر واحد.

الخلفيّة ـ أصحاب خلف المنادي خالفوا الحمزيّة بالقول بالقدر.

الشعيبية ـ أتباع شعيب بن محمد أظهروا القول بالقدر.

الميمونية ـ جماعة ميمون بن خالد قالوا بان الله يريد الخير دون الشر، وفي رواية انهم يرون نكاح بنات البنات وبنات أولاد الاخوة والاخوات.

الأطرافية ـ من القائلين بالقدر ايضا.

الثعالبة ـ أتباع ثعلب بن عامر يرون الولاية على الصغير الى أن يظهر عليه انكار الحق فيتبرأون منه.

الشيبانية ـ أصحاب شيبان بن ابي سلمى الذي قال بالجبر ونفى القدرة الحادثة.

المكرمة ـ جماعة مكرم بن عبد الله العجلي القائل بأنّ تارك الصلوة كافر.

الاباضية ـ ينتمون الى عبد الله بن اباض الحري، من برابرة طرابلس الغرب، القائل بان المسلمين كلهم بحكم المنافقين. وكان رتب دعاته على خمس درجات، ودعاهم حملة العلم وأقام دعوته في شرقي افريقيا ثم نشرها على سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي، فاستقرت في زنجبار وعمان والبحرين، وما زال أهل تلك البقاع على هذا المذهب، وهم يرجعون الى الكتاب السنة، ولا يعملون بالاجماع والقياس، ويقولون بخلق القرآن كالمعتزلة ويعترفون بامامة الشيخين ابي بكر وعمر ويرفضون عثمان وعلياً لمخالفتهما نهج الشيخين، ويقولون بوجوب بيعة الامام اذا توفرت فيه القوة والعلم، وأن القرشية ليست شرطاً في الخلافة بل يكفي أن يكون الخليفة متصفاً بالفضيلة والتقوى، وأن الله يغفر الصغائر دون الكبائر الا بالتوبة، وان مرتكب الكبيرة كافر بالنعمة لا كافر بالله. ومن هذه الفرقة جماعة عرفوا باسماء مختلفة منها: الحفصية أصحاب حفص بن ابي المقدام يرون أن من عرف الله وكفر بما سواه فهو كافر لكنه بريء من الشرك.

الحارثية ـ أصحاب الحرث الأباضيّ القائل بالقدر وبالاستطاعة قبل الفعل.

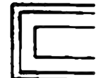
اليزيدية ـ أصحاب يزيد بن نيسة القائل بتولي المحكمة والتبري مما بعدهم الا الاباطنة (وتحت هذا الأسم.

توجد فرقة في جبال الاكراد تعبد الشيطان.

الصفرية ـ أصحاب زياد بن الاصفر قالوا بجواز التقية، وان التكفير يقع فيما ليس فيه حدّ كترك الصلوة مثلا. اما ما كان من الكبائر كالزنا مثلا فيكفي فيه الحد دون التكفير.

انتهى بحث المذاهب والفرق الاسلامية الذي استخلصناه من كتابي «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم، وكتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

وأغلب هذه الفرق المذكورة اعلاه قد تلاشت مع الزمان وانقرضت، ومن بقي منها استحال واندمج في الدرزية والنصيرية والاسماعيلية والبكتاشية والبابية واليزيدية.



هوامش الفصل الثاني

(١) **الربض**: ما قام حول المدينة من بيوت ومساكن (ن.ص)

(٢) **سنان باشا**: تولى الصدرة العظمى (رئاسة الوزراء) في الدولة العثمانية خمس مرات، وهو من أصل الباني. كان والياً في حلب ومصر وحارب المجر وفتح اليمن واضافها الى رقعة الدولة العثمانية فلقب بفاتح اليمن. اما لقبه الآخر «قوجه» ـ ومعناها: الكبير ـ فقد أضيف الى اسمه ايضاً لأنه عاش حتى التسعين من العمر. كان والياً للشام في سنة ١٥٨٦. طغت على أعماله وخدماته للدولة صفاته السيئة الأخرى من فساد وغرور وظلم. (ن.ص.)

(٣) **القنوات**: جمع قناة وهي مجرى الماء المخصص لسقي المدينة منذ انشائها، ولما كان مستواه اوطأ من بعض الأحياء، فلا يبلغها كلها، شاد له الرومانيون تلك القناطر الضخمة، وأجروه فوقها لكي يعمّ جميع الأحياء من باب الجابية الى الباب الشرقي. قد تفرعت منه عدة فروع، فاشتهر بصيغة الجمع

(٤) **مقابر الصوفية**: كانت هذه المقابر غربي قلعة دمشق بين نهري بانياس والقنوات، وهي تمتد من القلعة الى حدود قرية المزة عند تقارب النهرين في ارض الشقراء. وعلى مرور الأيام تخللتها بنايات واقيمت عليها أحياء مختلفة كقرية القنوات، ودار السعادة، وحكر السماق (الذي شاد فيه الأمير «تنكز» جامعة الباقي الى هذا اليوم، وهو الأمير سيف الدين تنكز الحسامي الناصري المتوفى عام ٧٤٠)، ثم جامع ابنه الامير سيدي خليل (الذي ولي امارة دمشق عقيب رحيل التيمور عنها سنة ٨٠٣، ثم ادركه الأجل فدفن في هذه المقبرة تجاه باب القلعة الغربي. وفي غضون امارته شاد جامعه الذي دام الى زماننا، وفي هذه السنة ـ ١٣٥٢ للهجرة ـ هدمته مديرية الأوقاف، وانشأت محله دائرة لنفسها، وكانت غرست أمام قبره شجرة من السرو عاشت خمسة عصور، وازيلت قبل بضع سنوات حينما توسع طريق السنجقدار)، ثم قصر الملك الظاهر المعروف بالأبلق، وقصر منجك باشا (وهو محمد باشا بن منجك بن ابي بكر بن الأمير منجك الكبير اليوسفي نائب الشام المتوفى عام ١٠٣٢)، ثم زاوية المولوية وغيرها. واتصلت بنايات المدينة بقرية المزّة التي اتسعت اتساعاً عظيماً بحيث أن قبر الشيخ عبد الرحمن (وهو ابو القاسم عبد الرحمن بن غانم الكناني العسقلاني المعروف بالمسجف المتوفى سنة ٦٣٥) الذي هو اليوم في منتصف الطريق بين قريتي المزة وكفر سوسة كان في متوسط بليدة المزة. وكان حي الربوة معمراً وغاصاً بالسكان. وهو همزة الوصل بين المزة والصالحية، ثم أحدثت بين البنايات حدائق كثيرة وانحصرت المقبرة بعد عصور بين القصر الأبلق (الثكنة الحميدية اليوم) وقصر الأعجام (المستشفى الوطني). واطلق على هذه المقبرة أسم البرامكة بسبب ما يروى من انه دفن فيها من كان في الشام من آل برمك أيام الرشيد العباسي. ولبثت بعض قبور الأكابر مبعثرة هنا وهناك كقبر المؤرخ ابن عساكر (وهو الحفظ الكبير ابو القاسم فخر الدين حسين بن هبة الله بن عساكر الذي توفي سنة ٥٧١ ودفن على الطريق في شمال بستان الأعجام ـ الذي كان جزءا من المقبرة ـ وقد دام قبره الى ان انشىء المستشفى الوطني فادمج فيه سنة ١٣١٢). ثم ضريح الامام ابن تيمية (وهو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن الحراني الحنبلي المتوفى عام ٧٢٨)، والعلامة بن الصلاح الحنبلي المتوفى سنة ٨٤٣، ثم قبر الشيخ قطب الدين الخضيري (وهو محمد بن محمد بن عبد الله بن خضير الشافعي المصري المتوفى سنة ٨٩٤) وهذا القبر باق الى يومنا هذا وراء مستودع الكهرباء على مفرق كفر سوسة. ولبثت «البرامكة» مقبرة الى وقت قريب. فلما احتلها الافرنسيون جعلوها مستودعاً للدبابات ومركزاً للتلغراف اللاسلكي، وشيدت عليها المدرسة الطبية، فاندثرت القبور ولم يبق لها من أثر.

(٥) **القاعات السبع**: في الشام سبعة مساجد مشيدة على طراز القاعات، لها برك واحواض وجلسة ونفقة، وتعرف بالقاعات السبع، وهي: المغيربية، والشابكلية في القنوات، والنيروزي في باب السريجة، والخانقية في الميدان، والجقمقجية في العمارة، والدغمشية في سوق الخيل، والخضيرية في الشاغور، وأجملها شكلا وبناء هي الجقمقجية.

(٦) **جامع عيسى باشا**: كان في باب السراي باتصال دائرة المشيرية الباقية الى اليوم وأزيل حينما انشىء شارع جمال باشا. وفي أيام حكومة صبحي بك بركات حاولت دائرة الأوقاف تجديده وصيانة اساسه فلم يرق ذلك للحكومة، بايعاز من السلطة الافرنسية، فاوقفت البناء وأنشأت محله مقهى. ثم استحال المقهى الى بنك افرنسي تحرسه جنود السنغال ببنادقها ورشاشاتها من الأهلين الذين يروم ان يعاملهم ويربح منهم.

(٧) **عاتكة بنت يزيد** بن معاوية وزوجة الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد اشتهرت بأنها كانت ترفع خمارها امام اثني عشر خليفة وكلهم محرم لها. وكان لها قصر خارج باب الجابية وفيه مات زوجها عبد الملك.

(٨) **حمامات دمشق** واسعة البناء عالية الجدران ساطعة النور غزيرة المياه مفروشة بالمرمر وغيره من الاحجار البديعة القيّمة، وهي تفضل حمامات بلاد الشرق كلها، على ان هذه الحمامات البديعة التي هي زينة المدينة والمساعدة على حفظ الصحة وقضاء الفروض الدينية قد طرأت عليها عوامل الاهمال وكادت تندرس وتتلاشى من يوم الى يوم لرغبة الناس عنها لأسباب عديدة من جملتها انشاء حمامات خاصة في الدور الحديثة وغير ذلك مما جعل الحمام الذي يحتاج الى ترميم او تعطلت مجاريه يهمله

أصحابه، لأن أجرته أصبحت لا تقوم بنفقاته، وهكذا تعطل الى اليوم زهاء عشرين حماما من أصل ستين حماماً كانت موجودة ومعمورة في دمشق في أوائل هذا القرن.

(٩) **ساروجه** ـ كما تلفظها العامة ـ والأصل: صاروجه بمعنى «شقيّر»، تنسب الى الأمير صاروج المظفري المتوفى عام ٧٤٣، وكان قبره تحت قبة في وسط الشارع أمام حارة المفتي فأزيل لتوسيع الطريق.

(١٠) **تحت القلعة** في العصور الوسطى كان يقال للبقعة الواقعة في شمال قلعة دمشق (تحت القلعة) وموقعها بين القنطرتين أي بين المرجة والعمارة. وكانت تشمل اذ ذاك دار البطيخ وسوق الخيل وسوق التبن ومقابر العونية، وتطل عليها الأحياء والدور والقصور، وفي يومنا هذا تتالف منها شوارع البحصة، والمرجة، والسنجقدار، والناصري، وسوق علي باشا، وسوق الخيل، وسوق العتيق، وسوق التبن، وخان البطيخ، وباب الاغا، والبحرة المدورة، وخان الباشا، والزرابلية، والسروجية، والمحايرية، والأبارين، والنحاسين، والبوابجية، والمناخلية، وبين الحواصل.

قال أبو البقاء البدري في كتابه المسمى «نزهة الانام في محاسن الشام» ان تحت القلعة مرتع القريب ومنهم الغريب، وهي ساحة سماوية تحف بها الدور وتعلوها القصور، وقد احتوت على كل ما يروق الانسان وتشتهيه الشفة واللسان. وفيها دار البطيخ، حيث تباع جميع الفواكه، وهناك العين الشهيرة ببرودة مائها (عين عليّ) وعذوبته وخفته. وفيها سوق القماش، منه ما يباع بالذراع، ومنه ما يباع مخاطاً، وجابت منها للرجال، وجابت للنساء، ثم سوق الفراء والعبي، وسوق السقاطين والنحاسين والسكاكينية والقربية، وسوق الخيل وسوق الغنم، وسوق القشاشين، والمحايرية، والمنجدين، والخياطين، والنقلية (باعة النقول)، ثم دار الخضر، وسوق المناخلية، والزجاجين، والوظائفية (الموظفون) ويتخلله ارباب الحلقات واللفلفات والمضحكون واصحاب الالاعيب والحكواتية والمسايرون، والناس في المساء يكونون أكثر اجتماعا في هذا المكان، ويسمرون فيه الى ما بعد منتصف الليل.

(١١) **البحرة المدوّرة**. كانت هنالك ـ ايام لم تكن فيها عجلات ولا سيارات تجدّ في وسط الطرق الأربعة (المصلبة) بين سوق التبن وسوق الباشا والزرابلية والسوق العتيق ـ بحرة مستديرة الشكل، تعرف بالبحرة المدورة، يستقي منها الواردون ويسقون دوابهم، ثم ازيلت لتوسيع الطريق.

(١٢) **جامع ست الشام**: أنشأته «ست الشام» شفيقة بنت نجم الدين أيوب، أخت السلطان صلاح الدين.

(١٣) خرّبت تلك الأسلاك خلال الثورة العربية ولم يبق منها أثر.

(١٤) **العمارة**: (بكسر العين) ما شيّد من البناء، وبفتحها: القبيلة العظمى.

(١٥) **المحاكم الشرعية**: كانت في الشام سبع محاكم شرعية للفصل في أمور الناس وقضاء حاجاتهم. الأولى وهي الكبرى الباقية الى اليوم في مدخل زقاق النحلاوي بين سوق الخياطين والنورية. والثانية محكمة القسام في غرفة خاصة من المحكمة الكبرى. والثالثة في آخر سوق البزورية من الشمال، والرابعة المحكمة العونية تجاه حارة المزابل في العمارة، والخامسة في السنانية وراء جامع سنان باشا، والسادسة في باب المصلى على شارع الميدان، والسابعة في وسق الشراكسة بالصالحية.

(١٦) عرّف علماء اللغة القصر بدار الملك، والقلعة بالحصن المنيع، ولما جعلت القصور منيعة اطلق عليها الناس اسم القلعة ايضاً.

(١٧) **ابو الدرداء** قاضي دمشق، وهو عامر أو عويمر بن قيس بن اميّة الخزرجي الأنصاري المتوفى سنة ٣٢ هجرية.

(١٨) **القيمر** طائفة من الأكراد جاءت فرقة منهم الى الشام ايام صلاح الدين الأيوبي وخدمت في جيشه، ومنها الأمير ناصر الدين الحسين بن علي القيمري المتوفى سنة ٦٦٥، واليه ينسب هذا الحيّ لأنه أول من بنى فيه.

(١٩) كانت التسمية الرسمية لليهود في الدولة العثمانية (ولا تزال في تركية اليوم) هي: «الموسويون». (ن.ص.)

(٢٠) وهي ام الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية مولاة ال عتيك البصرية المتوفاة سنة ١٣٥.

(٢١) هنالك سيدتان صالحتان باسم «رابعة بنت اسماعيل». الأولى **رابعة بنت اسماعيل العدوية**، أم الخير، مولاة آل عتيك البصرية. وعلى الرغم من أن معظم المؤرخين ذكروا انها توفيت في القدس سنة ١٣٥هـ. فالأرجح انها توفيت في البصرة سنة ١٨٥هـ. أما الثانية، فهي **رابعة بنت اسماعيل السورية** (ويكتب بعض المؤرخين اسمها «رائعة» ـ ومنهم اليافي في «روض الريحان» ص ١٤٠، وابن الجوزى في «صفوة الصفوة» ص ١٤٢) وكانت سيدة متزوجة، عاشت وماتت في سورية سنة ١٣٥هـ. قبل سميّتها الشهيرة بنحو خمسين عاماً، وقد اشتبه الاسمان على المؤرخين. ولعل «مقام السيدة رابعة»، الذي يشير اليه المؤلف يعود الى السيدة الثانية. أنظر: Margaret Smith, **Rabi'a The Mystic & Her Fellow-Saints in Islam,** (Cambridge University Press) Cambridge, 1928, pp 45 & 140.
(ن.ص.)

(٢٢) **الشاغور**: من الشغور، وهو خلوّ البلد من حافظ يمنعه، والظاهر انه كان قديما خاليا من السكان، فأطلق عليه هذا الاسم.

(٢٣) وقيل انه مدفون في المدينة المنورة.

(٢٤) **الميدان** لغة هو المكان المعدّ لسباق الخيل، وفي دمشق أطلق على الساحات الغربية والجنوبية الواقعة خارج السور وقيل للأولى الميدان الأخضر أو الأزرق، وقد بقيت اليوم منها قطعة الموجه الكائنة على جانبي طريق العجلات بين صدر الباز والتكية

السليمية. والثانية ميدان الحمى وهو الذي تألف من ثمني الميدان التحتاني والميدان الفوقاني في جنوب المدينة وكان الناس فيما مضى يتسابقون على الجياد في هذين الميدانين. قال الشاعر المغربي القديم من زجل:

هذه الشقراء والأخضر والميدا   ن اركبـــوا وانـــزلـــوا

وميدا وميدان الحصى كان الى زمن قريب فسيح الأرجاء كثير الأنحاء ثم غمرته البنايات مع الأيام.

(٢٥) **الصالحية** حيّ قديم على سفح قاسيون عرف بهذا الاسم منذ أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث ابتنى فيه قصراً، وكان قبلا يعرف بسفح قاسيون فقط.

(٢٦) **المساطيح** جمع مسطيحة بمعنى الأعواد، وهي القنطرة مولدتان ومعروفتان منذ القديم، ومهما يكن من أمرهما فليس فيهما شيء من سوء الأدب كالمادة التي جعلها ابن منير الطرابلسي (المتوفى عام ٤١٨) موضوعا لقصيدته الرائية الشهيرة في مدح الشريف الرضيّ (وهو محمد بن الحسين بن موسى العلوي المتوفى سنة ٤١٦)، سامحهما الله.

(٢٧) **شارع الشركسية**، شاده الأمير ابو المنصور فخر الدين جهاركس ابن عبد الله الناصري الصلاحي من أمراء الدولة الصلاحية المتوفى بدمشق سنة ٦٥٨. وجهاركس معناها «اربعة رجال»، دعي بذلك لقوّته وبسالته، والأصل شركسيّ، وهو اسم القبيلة التي انجبته.

(٢٨) من غرائب الصدف ان بهاء الدين بك مكتوبجي الولاية السورية أيام الوالي حمدي باشا عام ١٣٠٠ لاحظ الاستفادة من هذا السفح الذي كان مهملا لا يملكه احد فاشتراه من الحكومة لنفسه بخمسين ريالا مجيديا، أي نحو عشرة دنانير فقط. وهي قيمة الجبل بحسب أسعار الأرض والأملاك في ذلك الوقت، واخذ به سند تمليك (طابو) بحدوده من قرب دار سعد الدين باشا الى قبة السيار، وهي مسافة خمسة كيلومترات تقريباً، وبعد مدة توفي الوالي واضطر بهاء بك للعودة الى العاصمة، وكان له صحبة مع أولاد المرحوم مؤيد باشا العظم، فعرضه عليهم بمائة دينار ليستعين بها على نفقة السفر وكان تكليفه للمرحومين عبد الله بك وشفيق بك اللذين استجابا لطلبه خجلا منه، وعرضا ثلث الصفقة على أخيهما المرحوم عبد القادر بك، فتركاها لأن الجبل قاحل لا يصلح للزرع، فاقاما مقامه الشيخ عبد الرحمن المراكشي، فقدما منها الى الحكومة ما يكفي المهاجرين ليبتدأوا بعمارة الجبل وسكناه، واحتفاظاً بالباقي، فباعا منه ما شاء الله. وما زال بعضه في أيدي ورثتهما الى الآن.

(٢٩) **جامع الحنابلة** انشأته على سفح قاسيون ربيعة خاتون بنت أيوب اخت السلطان صلاح الدين المتوفاة سنة ٦٤٣.

٣ في الأسواق والدور

البوابات والأسواق

قلنا آنفاً إن لمدينة دمشق ثمانية أبواب رئيسية، وعدا ذلك كان يوجد لكل حي وسوق وزقاق باب خاص يدعى بوابة، وهو باب جسيم ذو مصراعين، أو باب كبير في وسطه باب صغير، وهذا يُدعى (باب خوخة)، ولم يزل الكثير من هذه الأبواب والبوابات الى يومنا هذا.

كل هذه الأبواب والبوابات كانت تغلق بعد العشاء الأخير من كل مساء. ويجلس أمامها الحراس. كما ان من الحراس من يقوم في نقاط متقاربة من الأسواق يتناوب المناظرة عليهم مشائخ الحراس ورجال الشرطة، بحيث إذا مرَّ أحد من أهل الحي مضى في سبيله لا يعترضه معترض، واذا كان المار غريباً أو مجهولاً يصفر الحراس لبعضهم ويرشقونه بأنظارهم الى أن يدخل في منطقة ثانية. واذا كان المارّ من ذوي الشبهات يقبضون عليه ويسلمونه الى الشرطة. وهكذا يدوم الحال الى الصباح، ومن حراس الأسواق من يقوم فوق السطوح ويحرسها طيلة الليل.

كانت أسواق المدينة أضيق مما هي عليه اليوم لوجود دكة (مصطبة) امام كل دكان (حانوت) ثم أزيلت الدكات فاتسعت الأسواق وكلها مسقوفة لاتقاء الغبار والأمطار في الصيف والشتاء، وكانت سقوفها خشبية مغلّفة بالطين، فجعل اكثرها من صفائح حديدية خشية الحريق. يقول الدكتور (فان ديك) الاميركي في كتابه المسمى «المرآة الوضية في الكرة الارضية» إن أسواق دمشق من افضل أسواق الشرق كلها، وفي الحقيقة إننا رأينا في مدينة الشهباء سوقاً غاية في الضيق وهي سوق الحمّالين، يكاد أصحابها يلمسون بعضهم بعضاً خلال الشراء والبيع، وشاهدنا في غيرها أسواقاً معوجة مكتظة كلها تحتاج الى إصلاح وتنظيم، فعساها تُصلح فتزداد انتظاماً ورواجاً بعون الله تعالى.

الدور

دور دمشق تمتاز بصحنها الفسيح ومائها الجاري ليلاً ونهاراً بدون انقطاع، ثم بقاعتها وايوانهااللذين نصفهما على حدة، وكانت الدور تنشأ على نسق شرقي واحد قد يضيق أو يتسع حسب القدرة والحاجة، وكانت أكثر الدور الكبيرة تولّف من مضافة براني، أو سلاملك، وجواني (وهو دائرة الحريم)، وفي بعضها تكون دائرة المطبخ على حدة، وكل من هذه الدوائر منفصل عن الآخر بجميع معداته، بحيث اذا دخلت الدار تجد دهليزاً قد يقوم مقام صحن البراني، وهو يؤدي بك الى ثلاثة أبواب، الأول باب الجّواني، والثاني باب المضافة، والثالث دائرة المطبخ.

تفرش أرض الدار البرانّية والجوانية وسائر عتبات الغرف وأرض المطبخ ايضا بالحجر المزّي[1] والأسود[2] أو الرخام الملون،[3] أو بالعدسة السوداء أو الحمراء المسماة قصعة وفي هذه الأيام استعاضوا عن كل ذلك بالأحجار الرملية الاصطناعية أو بمد الترابة المحمصة (شيمنتو أو اسمنت) على طراز العدسة، وقد يصبغون التراية بالحفرة أو النيلة، يموهونها بالتقطع، فتغدو كالاحجار الاصطناعية شكلاً ومتانة.

ولا بد في كل صحن من بحره (بركة ـ حوض) تقام في وسطه أو في زاوية من زواياه، وقد تكون مستطيلة الشكل أو مستديرة أو مربعة او مسدسة، أو على شكل نجمة ذات أضلاع متعددة، وقد يزداد عدد البحيرات في الدار الواحد على قدر اللزوم وحسب الذوق والاستطاعة. وجدران البحيرات تغلف من خارجها بالأحجار البلدية او الرخامية، والماء يصب فيها من كاس حجري يكون في وسطها أو من مناهل حجرية أو نحاسية تجعل على أطرافها وتدعى سباعاً لأنها في الأصل كانت تصنع على أشكال السباع الربضة، وهي متصلة بالقساطل الممدودة تحت

الأرض المؤدية الى القسم (الطالع) الذي يقسم الماء على الدور بنسبة استحقاقها، وكانت هذه القساطل تصنع من الصلصال (الفخار) وتدوم أحقاباً عدة، أما الآن فقد استعاضوا عنها بالاسطوانات الحديدية التي تستجلب من خارج البلاد[٤] وعندما تمتلىء البحيرة يفيض ماؤها في مجرى ثان ويجري اما الى بحرة اخرى أو الى بيوت الخلاء حيث يختلط بالماء الفائض من المطبخ، ويسيل مستوراً الى المجرى العام المسمى (السياق) ويوجد للبحيرة بالوع كبير يدعى الهارب يسد مدة امتلاء البحيرة بوتد (خازوق) محكم يفتح حينما يرام غسل البحيرة وتنظيفها من الأوحال التي ترسب وتتراكم في قعرها أيام الشتاء وركود الماء، فتجري من الهارب مع الأوحال الى السياق، وكذلك توجد بلاليع (جمع بالوعة) متعددة في مجرى صغير حول البحيرة تغوص فيها مياه الشطف (التنظيف بالماء) والأتربة التي تجمع من الدار، وتصبّ كلها على ذلك السياق الذي يولف في كل حي جدولاً عندما يجري تحت الأرض الى القنى العامة ويسقي بعض البساتين كما ذكرنا في باب المياه.

قد اعتاد أهل دمشق إهمال زينة الدور من خارجها، والاكتفاء بتزيينها وزخرفتها من داخلها فقط، وكانوا ينظرون في بناء الدور الى ثلاثة مقاصد في آن واحد وهي المحافظة على الدين والصحة، وطبيعة الاقليم معاً، فالمنافذ التي لا بد منها لنفوذ النور ودخول الشمس وتجديد الهواء كانت لا تجعل على خارج الدور كالطرق بل تفتح على صحن الدار والايوان والمشار الواسعة فقط بحيث يظل كل ما في الدار ضمن جدرانها ولا يتعداها بعيداً عن أنظار الغريب والقريب على السواء. وكانت صحن الدار معرّضة للشمس الساطعة من الصباح حتى المساء يتخللها الهواء النقي، وتساعدها غزارة المياه الجارية وانطباع الأهلين على الطهارة والنظافة واعتيادهم على الكنس والشطف والرش مراراً متعددة في كل يوم، بحيث يكون صحن الدار في جميع الأوقات تام النظافة سالماً من كل شائبة، فلا تهبط اليها الجراثيم قط.

وفي أطراف البحيرة على بعد متناسق تُجعل الأحواض وتغرس فيها الاشجار التي لا يتبدل ورقها ولا يتساقط لا في الصيف ولا في الشتاء، بل تظل خضراء نضرة طيلة العام كالليمون الحلو والحامض والنارنج والكباد والبرتقال ويوسف افندي (ماندالينا) وما يتبعها من الفصيلة نفسها. وعلى جوانب الأشجار تغرس في احواض متنقلة أنواع الزهور والرياحين ذات الأشكال البديعة والروائح الزكية وهكذا يكون صحن الدار كروضة غنّاء تغني عن الحدائق الخارجية وتفضلها.

وكانت جدران البناء تُجعل سميكة (ثخينة)، ومنافذها متوسطة الأبعاد والارتفاع فلا تنفذ منها حرارة الشمس ولا برودة الشتاء الى الغرف الا بمقدار معتدل، وكانت الغرف (الطرزات) تغلّف بالدفوف، ويجعل من تحتها منافذ صغيرة لنفوذ الهواء، وتمد من فوق الدفوف الحُصُر والبسط والمقاعد، فتصلح معها للاقامة والمنامة في جميع الفصول بكل أمن وراحة كما كان يفعل الآباء والجدود الذين كانوا ولا ريب أقوى منا بُنية وأكمل صحة.

وكان أهل الدار وضيوفهم يجلسون أيام الحر الذي يعادل ضعف أيام القرّ في القاعات نهاراً وعلى الايوان أو التخوت التي تنصب في صحن الدار ليلاً مكتفين بها عن المصايف التي مهما بولغ في إتقانها فانها لا تخلو من عناء ولا يمكن أن تجمع أسباب الراحة كالدور الخاصة، الا اذا كان ثمة مقاصد أخرى، وعند تقارب الشتاء تُحوَّل الاقامة الى الغرف على النحو الذي سنصفه في باب السهرة إنشاء الله.

الايوان[٥]

الايوان يكون أمام البحيرة، وهو ينشأ عادة على الجهة القبلية من صحن الدار كيلا تدخله الشمس بأشعتها المحرقة، ومجلسه يرتفع قليلاً عن الصحن بدكةٍ تدعى (طرزا) يفصل بينهما السماط[٦] ثم الشعيرة، وهي وجه الدكة المؤلف منها الايوان الذي يمتاز عن بقية الغرف بكون فرجته واسعة ومكشوفة، وسقفه أعلى من سائر سقوف الغرف وقوسه[٧] مرتفعاً ومزداناً بالأحجار المنمقة، وأكثرها من الحجر الأصفر الذي فُقد الآن وانقطع عرقه. وهذه الأحجار قد تكون منقوشة نقشاً فاتناً لطيفاً على أشكال الابنية والطيور والأزهار، او محفورة على أشكال هندسية ومملوءة بالجص الملون، وهذه النقوش أيضاً طرأ عليها التطور والانحطاط كما طرأ على غيرها من

الصناعات الوطنية فجعلت مدّة من الجص وحده، ثم أهمل النقش بتاتا واكتُفي بطلاء الأحجار بدهان زيتي بسيط، ثم أزيلت الدكّات وجعلت أرض الايوان على مستوى الصحن، وكانت تغرس بالرخام المزهر، فأصبحت من الحجر الاصطناعي دون سواه.

القاعة[٨]

تكون على جانبي الايوان غرفتان إحداهما قاعة، والثانية مربعاً[٩] والقاعة تولف من عتبة ذات بحيرة ومصب وشعيرة وقوس ثم دكة (طرز) لها كتبيّة وخرستان ويوك ورفوف وقمرية وشباك، وهذه يقال لها الفوارغ وقد تتعدد فيكون من كل منها أكثر من واحدة، والقاعة تختلف عن المربع باتساع عتبتها ودكتها، البحيرة المقامة في وسط عتبتها، وفي بعض القاعات يسيل الماء من المصب الذي جعل في الأصل لانصباب الماء منه ثم أصبح منضده ثابتـة في جدار العتبة، وكان المصب يزدان بالحجر الكاشاني من مصنوعات مدينة دمشق[١٠] وعندما فقدت صنعته بفقد أهلها استعاضوا عنه بالرخام الأبيض والأسود والأحمر والأخضر. أما الشعيرة والقوس فانهما مما شاكل الايوان وأكثر زخرفة منه، والكتبية شق في الجدار ذي رفوف خصصت في الأصل لوضع الكتب كما يستدل من إسمها، ثم جُعلت لوضع اوائل الزينة[١١]، والخرستان خزانة صغيرة ضمن الجدار يوضع بها ما يلزم حفظه وتخبئته من مخلفات الأوائل والحوائج، ويختلف الخرستان عن الكتبية بباب ذي المصراعين فقط، واليوك خزانة اكبر من الخرستان، قد توضع فيه الفرش واللحف والوسائد وغيرها، وهو اما ذي باب بمصراعين أو مكشوف بدون باب تسدل عليه ستارة من جنس الأثاث، والرفوف تكون في أعلى الطرز، وقد تتعداه الى العتبة، وكانوا يصفون على الرفوف الأواني الصينية الزائدة للزينة والفخفخة، ويملأونها رملا كيلا تتدحرج وتسقط، والقماري (جمع قمرية) منافذ علوية تجعل في أعلى الجدار قريبة من السقف لنفوذ النور فقط، وتؤلف من قطع زجاجية ملوّنة أو من قطع مادة شفافة ترصّ ببعضها بالجص على أشكال منتظمة[١٢] ويحيط بالطرز غلاف خشبي يدعى (حلقة) كان يصنع من خشب السرو أو الصنوبر ذي الرائحة الذكية، ويطلى بدهان هندي يزدان بصور الأزهار والأماكن دون غيرها، ويملأ بماء الذهب واللازورد،، وفوق الكتابي والشبابيك (المنافذ) وستائر الفوارغ والأبواب تنقش ببعض آيات من القرآن الكريم أو بضعة أبيات من قصيدة موضوعها استغاثة أو مدح صاحب الدار، والسقف يؤلف من أعواد الحور وفوقها ألواح الخشب الرقيقة المسماة (طبقا)، تتخللها أقلام صغيرة تدعى ريش (جمع ريشة) وكلها تطلى بالدهان الهندي الذي لا يعرف البلى مهما تقادم عهده. والشبابيك تفتح على صحن الدار والايوان كما قدّمنا، وقد يكون للشبابيك أبواب خشبية ذات مصراعين، وهي وباب القاعة تصنع من قطع خشبية رقيقة ترص ببعضها على أشكال هندسية لطيفة، وتزخرف ايضاً بذلك الدهان الثابت. ولقبة القاعة سقف على حدة يدعونه (رقبة) يرتفع عن سقف الطرز نحو ثلاثة أذرع على أطرافه الأربعة تجعل منافذ صغيرة لنفوذ النور وتجديد الهواء. وأبواب القاعات والمربعات ومنافذها لا يتجاوز ارتفاعها الأربعة أذرع أو ما يقرب من ذلك. وطرزة القاعة قد يكون واحداً وقد يثنى فيكون الواحد اكبر من الثاني وقد تكون ثلاث طرزات الاوسط منها صغير وهو يقابل الباب وكل طرز له قوسه، وشعيرته، ومجلسه على حدة.

هذه هي أشكال القاعات القديمة التي دام انشاؤها الى اوائل القرن الماضي ولم يزل أكثرها باقياً الى هذا اليوم يخاله الرائي انشىء في عهد قريب لاتقان صنعته ومتانة بنائه وجودة طلائه.

ثم تدنت الصنـائع عندما ضعفت العلوم والفنون وقل الاعتناء بغرس الاشجار والسرو لطول أمد نموّها، فاستعيض عن تلك القاعات التي يستحيل تقليدها اليوم، لعدم وجود خشب السرو على الأقل، بقاعات ذات حلقات بسيطة مصنوعة من خشب الحور، وزخرفته بقطع صغيرة من المرايا على الطراز الفارسي، ومدهونة بدهان بسيط ثم أهمل الدهان بالمرة واكتفى بالخشب على لونه الطبيعي، وهذا أيضاً أبطل وأهمل، وغلب التفرنج على الأذواق، فاستبدلت تلك القاعات بصالات واسعة عالية الجدران، كبيرة النوافذ، كثير منها جميلة الشكل لكنها لا تقي من أشعة الشمس المحرقة في الصيف، ولا تعرف الدفء بالشتاء. وهذه الصالات وسائر الغرف كانت

أرضها تغرس بالرخام أو الحجر السمّاقي (المزّي) ثم اهمل هذا وذاك واستعيض عنه بالاحجار المرملية الاصطناعية المرغوبة اليوم لرخصها.

كانت القاعات تنشأ عادة في الجهة القبلية من الدار، واذا تعددت تجعل في جهة الشمال أيضاً، ويندر وجود الايوان والقاعة في الجهتين الغربية والشرقية هرباً من أشعة الشمس المضنية.

سائر مشتملات الدار

المطبخ، أو دائرة المطبخ، تكون في زاوية من الدار تؤلف من صحن ودكة صغيرة لجلوس الطهاة وقت الاستراحة، ثم من بحيرة وموقد (كانون) ورفوف متعددة، وبيت خلاء، ومن فوقها أو الى جانبها غرفة أو قصر لرقود الخادمات، وهي بأجمعها منفردة عن دائرة الحريم بالمرة.

والى جانب المطبخ يكون بيت المؤونة المعدّ لحفظ مؤنة البيت مما يتعلق بالطعام والوقود وغيرها، وهي إما على مستوى المطبخ وإما في عقد (قبو) ينزل اليه ببضع درجات ويدخله النور من نافذة صغيرة تبنى تحت غرف الدار.

وفي بعض الدور يكون في غرفة أو اكثر من غرفة باب في العتبة يفتح الى فسحة هي الخزانة، توضع فيها الأوائل الزائدة وصناديق الثياب، وربما مونة الترويقة، كالجبن والزيتون والمربّيات (المعقود) ونحو ذلك وقد يكون لها سلم يصعد اليه الى قصر المنامة[١٣]. وفي جهة خالية من صحن الدار ينشأ الدرج او الأدراج، وهي السلالم الحجرية الموصلة الى المشرفة (الشرفة) ذات السطوح المستوية المغلفة بالطين[١٤] أو بالزريقة[١٥] والمحاطة بالطبلات[١٦] تحديداً لها، ومنعاً للتجاوز والنظارة من الجيرة أو عليهم، ويكون في جهة من الشرفة قصر أو قصور متعددة، وهي الغرف العلوية يفصل بينها الديوانخان وهي مصغّر الايوان، في الطابق السفلي وهذه القصور والديوانخانات تبنى من الخشب واللبن، وتغلف جدرانها بالحلقات ذات الطلاء الفاخر على نحو حلقات القاعات، وقد يكون لها عتبات حجرية، ومصبات ويوك وخرستان وكتابي ورفوف أيضاً.

وبيت الخلاء اما أن يكون تحت الأدراج، أو في جهة أخرى من صحن الدار ومنعطفاته، بحيث يجري اليها الماء دوماً من فائض البحيرات ومنها يسيل الى السياق العام، ولا يترك اثراً ولا رائحة من التعفنات قط، أما في الدور الحديثة فان المستراحات يصبّ ماؤها في بئر لا بد له من التعزيل والتطهير بين آونة وأخرى، وهو لا يخلو من الروائح الكريهة دائم الأوقات.

تلك هي أشكال الدور القديمة، وصفناها كما دامت عليه الى أوائل هذا القرن تقريبا، ثم طرأت عليها تطورات وتحولات جمة، لدواعٍ أهمها تزايد النفوس والميل الى التجديد والتقليد، مع ضيق ذات اليد القاضية بالاقتصار والتوفير، فاصبحت الدار الواحدة القديمة اربعا او خمس دور مستقلة عن بعضها، حتى أن الغرفة الواحدة في بعض الدور جعلوها غرفتين أو ثلاث غرف، وأحدثوا في صحون الدار الرحبة عدة بنايات تخالف طراز البناية القائمة، وتشوه محاسنها، وتحول دون تأمين أسباب الصحة والراحة بين جدرانها، وهكذا فقدت بعض الدور رونقها وزالت المحاسن التي كانت تحويها من سعة واتقان وتناسق وابداع وغير ذلك من العوامل التي أدت الى هجران الأحياء القديمة ، والانتقال الى الأحياء الحديثة التي شيّدت مجددا في أرباض دمشق.

على ان هذه الأحياء الحديثة جُعلت في الأصل للغرباء الذين يؤمون المدينة ويقطنونها لمدة موقتة، فروعي الاقتصاد في أرضها وحاجياتها وكلفتها، وحاولوا في بنائها تقليد الطراز الغربي دون ان يفصلوها عن بعضها، وعادوا الى الترقيع فحرموها من تجدد الهواء ودخول الشمس وجريان الماء وسائر المنافع الشرعية.

ومع الأيام أخذت بنايات المدينة القديمة تتداعى الى الخراب بسبب إهمالها، وأغلب البنايات الحديثة ـ خلا بعض الدور الكبيرة الباقية بين القديم والحديث ـ لم تستجمع الشروط الصحية كما قدمنا، فدام التذمر على حاله، مما دعا دائرة البلدية الى الانتباه والاهتمام بهذا الأمر الحيوي وعدم الترخيص بالبناء ما لم يكن مؤتلفا مع الأصول الفنية، فعساها توفق لتنفيذ هذا القرار انشاء الله تعالى.



هوامش الفصل الثالث

(١) **الحجر المزّي** يجلب من قرية «المزة»، وهو سّماقي اللون، ذو عروق طبيعية بديعة. وقد كاد ينقطع عرقه. فارتفعت اسعاره. وقلّت الرغبة فيه.

(٢) **الحجر الاسود** حجر بركاني يجلب من جبل «حرجلة»، قبليّ دمشق.

(٣) **الرخام** يؤتى به من مرمرة وايطالية، وأفخره الأصفر والأخضر ثم الأحمر.

(٤) من جملة المصائب التي اصابت الشرق عامة استبدال الصنائع الوطنية بالافرنجية التي تجلب من خارج البلاد، وتستنزف معظم ثروتنا وتجعل الصنائع الوطنية تبيد وتنقرض شيئا فشيئا، مما يؤدي الى فقدان الثروة وزيادة الأيدي العاطلة وحصول الازمات الخانقة التي تشاهد منذ سنوات، فهلا نثوب الى رشدنا ونعود الى استعمال صنائعنا ونسعى جهدنا لاصلاحها وتنظيمها ان كانت ثمّ حاجة الى الاصلاح، فنوفر على انفسنا تلك الأموال الطائلة التي تتسرب من جيوبنا وتجعلها افرغ من فؤاد أم موسى دائما.

(٥) **«الايوان»** لغة هو البيت الذي لم تسدّ فرجته.

(٦) **«السماط»**: يستدل من أسم السماط ان القدماء كانوا يضعون خوانهم في هذا المحل.

(٧) **«القوس»**: هو العقد الذي يفصل بين الصحن والدكّة.

(٨) **«القاعة»**: لغة هي صحن الدار. وفي الشام اطلق على أكبر غرفة ذات بحرة منها

(٩) **«المربع»**: اسم عام لجميع غرف الدار السفليّة.

(١٠) **الكاشاني**: أجمل نموذج من الحجر الكاشاني الدمشقي هو اليوم في جامع درويش باشا.

(١١) كان ذلك عندما انحطّت العلوم واستيعض عنها بالزخارف.

(١٢) أبهى شكل من القمارى هو فوق المحراب الحنفي في الجامع الأموي.

(١٣) ربما كان شكل البناء الغربي المدعو (آبرتمان) مأخوذا من الشكل الشرقي القديم.

(١٤) **طينة الأساطيح** تصنع من تراب أحمر لزج يستخرج في قريتي «عين ترما» و«المزة» ويمزج بالتبن فقط، وهي لا تدوم اكثر من سنتين أو ثلاث سنوات حيث تجرفها الأمطار شيئا فشيئا وتجعلها تحتاج الى التبديل والتجديد في السمنة الرابعة على الأكثر. والحكمة في اختيار الدمشقيين لها منذ العصور القديمة هي سرعة عملها وقلة نفقتها على الموسر والمعسر معا.

(١٥) **الزرّيقة** تصنع من كلس و(رماد الفحم) وقشر العنب، وكانوا يمزجونها بقليل من زيت الزيتون فتلبث سنين لا يعتريها البلى.

(١٦) **الطبلات**: جمع «طبلة»، وهي الجدران الخفيفة المؤلفة من أعواد وتراب فقط.

٤ في العادات

الأثاث والرياش

كانت لغرف الدار دكات وعتبات كما قدّمنا، فالدكات تغشاها دفوف خشبية تفرش أولاً بالحصير، وفوق الحصير تمدّ الطنافس والبسط، وعلى أطرافها توضع المقاعد الطواطي (جمع طوطاية) أو الدواوين (جمع ديوان) ومساندها (مخدات) وكانت غلافات المساند تتخذ من النسيج الموشي المعروف باسم دامسكو (أي الدمشقي) وهو نسيج مخملي منقوش نقشا فاتنا لطيفا ومن مصنوعات دمشق، وهذه الصنعة أيضا فقدتها مدينتنا واستعاضت عنها بالنسيج المدعو دوشَمَة (ومعناها الممدود) وهو من جنس العبي ومن مصنوعات بلادنا، ومنها ما هو صوفي ومنها الحريري ومنها ما يصنع من غزل القطن وكلها كانت تدوم سنين عديدة دون ان يعتورها البلى ولا يتغير لونها بتاتا، وهذه كلها أهملت وأبطلت وقامت مقامها الديما القطنية او الحريرية من مصنوعات البلاد ايضا، واخذت الديما تستعمل للمقاعد الافرنجية فراجت سوقها مدة من الزمن ثم أهملت وأصبحت الرغبة العامة للبضائع والصنائع الافرنجية دون سواها.

وقد أزيلت الدكات من الغرف، وتبعتها الطواطي التي كانت تصلح عند الضرورة للرقاد أيضاً، وجعلت أرض الغرف واطئة على مستوى صحن الدار، مفروشة على الأكثر بالحجر الاصطناعي، وتقام عليها المقاعد الافرنجية (الكنبيات) ولم يبق للأشكال الشرقية من أثر الا في النفوس.

والمرايا كانت توضع في المصبات أو تعلق على الجدران، وأكبرها حجماً لا يتجاوز المتر طولاً لانها كانت تأتي على ظهور الدواب التي هي الواسطة الوحيدة للمناقلات فيما سبق، والآن استعيض عن المرايا البسيطة بما يسمونه (جاردينير) وهو مرآة كبيرة ذات إطار خشبي لها رفوف وصندوقة توضع بين المقاعد، وتصف عليها الزهريات وأحواضها وسائر وسائل الزينة.

والثياب كانت تحفظ في صناديق ذات قوائم مرتفعة توضع على الأكثر في عتبات القاعات والمربعات، وكانت هذه الصناديق تصنع من خشب السرو والصنوبر المانع للارضة (العت) والسوس برائحته الزكية التي لا تزول مهما تقادم عهدها، ثم جُعلت من خشب الجوز المزخرف بالأصداف أو المنقوش نقشا فاتنا لطيفاً، ثم أهملت الصناديق لأنها لا تساعد على وضع الثياب الافرنجية وحفظ طياتها، واحدثت الخزائن المتحركة ذات المرايا الكبيرة، وعند ظهورها اصطنعت من خشب الجوز المزين بالاصداف او المحفور حفرا منتظماً، ثم اهملت الاخشاب البلدية كلها واستعيض عنها بالخشب البسيط المدعو (شوحاً) وهو يستجلب من خارج البلاد، وأخذوا يُلبسونه قشر «ترقيقة» من خشب الجوز أو يطلونه بطلاء يشبه لون الخشب الجوزي، ويزينونه بقطع من القصدير الملون ليس غير! وهذه البضاعة هي المرغوبة اليوم اكثر من الأشغال المصدفة أو المحفورة، وغدت قيمتها تفوق قيمة تلك البضاعة المنمقة، وما ذلك الا لأنها موضة[1]، والموضة تخرّ لها الجبابر ساجدين.

الاضاءة

الاستضاءة في الليل كانت منحصرة بالزيت والشمع فقط، فالسراج الفخار من مصنوعات البلاد تملأ زيتا من محصولها، وتوضع فيه فتيلة من قطنها، ويشعل بعود كبريت من الغزل الذي كان يصنع عندنا. وكان هذا السراج هو المصباح الوحيد لجميع طبقات الناس تقريبا، وفي الدور الكبيرة كانت توقد الشموع التي تصنع من الشموع في الدور وتجعل حزما تعلق في الاماكن الرطبة، وكلما انقضت شمعة تقطع من الحزمة وتوضع في الشمعدان المصنوع من النحاس الاصفر فوق سفرة من الجلد الأحمر مزخرفة بمسامير صفراء وعلى الشمعدان مقراض لقرض الفتيلة كلما استطالت.

وقد استعملت المضخة (الطلومية) مدة، وهي من القصدير (التنك)، عليها سراج من جنسها يصعد اليه الزيت من الخزان الصغير الموجود في أسفلها، بواسطة ضغط الهواء فينشر في المكان ضوءاً معتدلاً هو احفظ للأبصار من أضواء الكاز ونور الكهرباء الشديد التي ساقنا اليه حب التقليد والاعتياد، وهي ذات أخطار ملموسة، وكلفتها تذهب منا الى البلاد التي ترسلها أو ترسل اوائلها الى بلادنا، أما تلك الأنوار القديمة فقد كانت نفقتها منّا والينا.

واليك قيمة المواد الكهربائية التي استوردتها سورية في خمس سنوات، وذلك عدا قيمة النور التي تستوفيها الشركة مباشرة.

القيمة ليرة سورية	السنة
٧١٩٧٢١	١٩٣١
٤٧٧٢٠٢	١٩٣٢
٥٨٢٨٣١	١٩٣٣
٣٥٨٤٢٩	١٩٣٤
٦٢٣٩٢٤	١٩٣٥
٢٧٦٢١١١	

وفي الزمن الماضي لم تكن توجد بلديات تنير الشوارع، وكانت الأضواء في الأسواق عبارة عن قناديل الحراس الضئيلة النور، فكان الرجل اذا خرج في الليل من داره يحمل فناراً صغيراً من الورق قيمته عشر بارات أي ربع قرش، وفيه شمعة صغيرة بخمس بارات يوقدها ويستضيء بها في الطريق خشية الوقوع في حفرة أو أن يدوس حيواناً، والرؤساء كانوا يستعملون الفنارات الكبيرة المصنوعة من المشمع وغلافاتها من النحاس، يحملها الخدم ويمشون بها أمامهم، وهي من مصنوعات البلاد أيضاً.

الاصطلاء

كانت الواسطة الوحيدة للاصطلاء (التدفئة) في فصل الشتاء هي الموقد (المنقل أو الكانون) الترابي أو الحديدي أو النحاسي الذي يملأ فحماً نباتياً ويوقد في الخلاء ويترك الى أن يتطاير منه الغاز ثم يؤتى به الى الغرفة فيدفئها دفئاً معتدلاً. وفي القرى كانت الموقدة التي تنشأ في نفس الجدران وتجعل لها منافذ (مداخن) الى الفضاء، يوقد فيها ما التفّ وتدلّى من أغصان الأشجار والكرمة، ويصطفّ حول الموقد أهل الدار فتدفئهم تماما كما هي العادة عند الغربيين بالالتفاف حول «الصوبة»، والفرق بينهما في إسم الموقد و«الصوبة» فقط.

أما اليوم فما زالت مواقد القرويين على حالها ولكن مناقل الحطب استبدلت بالمواقد (الصوبات) الحديدية أو الفخارية التي تستجلب من خارج البلاد ويوقد فيها الحطب أو الفحم الحجري وكادت تعمّ جميع الطبقات، وقد توجد مواقد كهربائية تستعمل بسوق قوة الكهرباء اليها، وهي والصوبات تدفىء أكثر من المنقل، ولكن قلما تحافظ على اعتدالها فتزداد حرارتها وينشأ عنها صداع في الرؤوس ونقص في الجيوب. وهناك واسطة رابعة للتدفئة وهي الدفء البخاري المدعو (كالوريفير) وهو عبارة عن وضع مرجل كبير في نقطة متوسطة تحت البناء المطلوب تدفئة، وتمدّ من المرجل انابيب حديدية الى جميع الغرف والقاعات ثم يملأ المرجل ماءً وتوقد تحته النار فيغلي الماء ويتصاعد بخاره في الأنابيب الى الغرف فينشر فيها الحرارة الكافية، وقد استعملت هذه الواسطة في

دور الحكومة وفي بعض المؤسسات الاجنبية عندنا والاغلب أنها لا تتعداها لعدم مساعدة أشكال المباني العامة على هذه العملية وكلفة «الكالوريفير» الزائدة اضعافاً مضاعفة عن غيرها من الوسائط المستعملة الآن.

الوقود

كانت أحطاب الأشجار وأغصانها المتحطمة تؤمن حاجات البلدة من الوقود على اختلاف أنواعه، تساعدها أغصان العنب وجذوع الغار والشيح التي تنحصر وقود المخابز (الافران) بها وحدها، وكان يوجد في بعلبك وعجلون وجبل الشيخ وغيره احراجاً واسعة تحوي الكثير من شجر البلوط والسنديان فيقطع منها في كل عام قدر معيّن ويحرق ويجعل فحماً تستعمله البلاد في الاصطلاء ويساعدها على الطهي (الطبخ) أيضا، وهذا القدر الذي يقطع من الاحراج كان لا يأتي على الشجرة كلها بل يتناول بعض أغصانها فقط ويبقى الجذع قائما لا تلبث أن تنمو أغصانه وتعود الى سابق حالها، بيد ان عوامل ثلاثة منشؤها الجهل والطمع ليس غير كانت من الأسباب التي أدت الى تناقص الوقود ـ العامل الأول إهمال البعض من أصحاب البساتين غرس الأخلاف التي تقوم مقام الأشجار المقطوعة، وعدم إنشاء بساتين تعوّض البساتين التي اندرست وتحوّلت الى شوارع ودور. والعامل الثاني قيام فلاحي بعض القرى الذين يدّعون حق التملك لتلك الأحراج واتيانهم على الأشجار بكاملها، والثالث انقسام البلاد السياسي الذي جعل كل حرج تابعاً لحكومة تدّعي الاستقلال عن جارتها[٢] مما أدى الى ارتفاع أسعار الحطب والفحم وتضاعفها زهاء عشرة أمثال ما كانت عليه في السابق.

ثم أن بعض أرباب الصناعات اخذوا يستخدمون النار في معاملهم واضطروا لاستجلاب الوقود الذي يقوم بحاجاتهم من خارج البلاد فاستوردوا أولا الفحم الحجري واستعملوه في المراجل ومواقد التدفئة، ولكنهم لم يتمكنوا من الدوام عليه لغلاء أسعاره وانتشار الروائح الكريهة المنبعثة من تصاعد غازاته بدون انقطاع!

وكان زيت البترول (الكاز) قد دخل البلاد واستعمل في الضوء فقط فاتجهت الأفكار الى استخدامه في الوقود والاصطلاء أيضاً، ثم جاءونا بالمواقد (البوابير) المعدنية للطبخ والمشهورة باسم مخترعها (بريموس) فاعتاد عليها الناس وعمَّ استعمالها جميع البيوت من كل الطبقات.

وعندما ظهر معدن البترول في العراق وتقررت إسالته من الأرض السورية الى مرافىء البحر المتوسط، عقدت الآمال على استحصال جزء منه يقوم بحاجات البلاد بأسعار معقولة تغنيها عن استجلابه من اميركا وبلاد الروس وتوفّر عليها فرق أسعاره، وكان في إمكان الحكومة السورية التي روجعت في إمرار أنابيب البترول من بلادها ان تشترط اعطاءها قسماً من هذا السائل تعادل قيمة الارض التي يمرّ منها، وكلفة حراستها وما قد ينجم عن ذلك من بذل الدماء في سبيل المحافظة عليها. غير ان الحكومة أهملت كل ذلك وقبلت بمرور «الكاز» من أرضها دون ان يكون للبلاد ادنى نصيب منه!

وبقينا نستورد الكاز الذي نحتاج إليه من البلاد الأجنبية بأسعار تابعة لرأي عملائه الذين يتلاعبون في هذه الأسعار ويجعلونها تجرف القسم المهم من ثروة البلاد، دون ان يكون هناك من يردعهم ويرقب أعمالهم.

الثياب والزينة

كان الرجال من جميع الطوائف، وما زال بعضهم الى اليوم، يرتدون القمباز[٣] مع الدامر والفرملية[٤] ومن فوقها العباءة (العباة)[٥] والمضربية[٦] والجبة[٧] او الفروة[٨] ويتمنطقون بالشال[٩] او الأكمار[١٠] ويعتمون بالعمائم الاغاباني[١١] او بالشال والبوشيات[١٢] والعلماء ورؤساء الأديان لهم أزياؤهم الخاصة التي لا يجسر أحد من العامة على استعمالها. فلعلماء المسلمين وتلامذتهم العمائم البيضاء فوق الجبة او اللاطة أو الجدرية[١٣] وللاكليريوس المسيحي القلنسوة والجبة السوداء ولحاخامية اليهود العمامة الرمادية والجبة فقط.

والنساء كن يرتدين الثوب البسيط والسروال الطويل من جنس الثوب، ويجعلن السروال أطول من الساق

بنحو نصف ذراع يثنين الزيادة الى تحت الركبة، ويعقدنها هناك بالقيطان، ويستعملن فوق الثوب المضربية او الفروة ويتزيَّن بتكة حريرية أو بشال خفيف.

وفي الشتاء فقط يستعمل بعض الرجال والنساء الجوارب (كلسات) البلدية التي تصنع في الدور من القطن أو الصوف. وكانت الجوارب الكردية التي تصنع في الصالحية بدمشق على نسق الجوارب العجمية، رائجة بين الجميع. وفي الصيف كانت الأكثرية الساحقة من رجال ونساء لا تستعمل الجوارب بتاتا، وكلا الجنسين يستعمل القبقاب في الدار، والمست والبابوج في الزقاق، وأغلب الرجال يحتذون الخف (الصرماية) والنعل فقط. كل هذه الحوائج ومواردها الابتدائية واوائلها وخيوطها وازرارها كانت تصنع وتستحضر في البلاد الشرقية، ويصدّر الكثير منها الى البلاد الدانية والقاصية، فيستعملها الناس على اختلاف طبقاتهم، وقد اتصل بعضها بالملوك والامراء الشرقيين والغربيين فاستعملوها واعجبوا بدقة نسجها واتقان صنعها.

ولما افتتحت أبواب بلادنا لتجارة الغرب راجت بيننا الدعايات لصنائعه المزخرفة، فاستعضنا بها عن صنائعنا، وأخذ البعض يقلع عمّا اعتاده من الثياب والأزياء الشرقية، وأهمل الرجال لبس القنباز، وأخذ بعضهم يقلد أهل الساحل بلبس السروال العريض مع المنتان والصدرية والدامر. وجعلت النساء أثوابهن ثلاثة انواع من المنسوجات الغربية ـ الأول من الحرير أو القصب، وهو للأعراس والأفراح، والثاني من الصوف الذي دعوه بارنوس (مخفف من بورنوس المغربي) وهو لأيام الزيارات والنزهات. والثالث من النسيج القطني الذي عرف باسم اليمني، أو السنقور، وهو للبيت في كل الأوقات.

وعلى الرغم من أن ملابس النساء وزينتهن تتبع الأزياء العامة في كل عصر فقد استطعنا أن نحافظ على شيء من شرقيتنا حينا من الزمن، اذ كانت النسوة يثابرن على ارتداء أثوابهن الى ان تتمزق، ولا غضاضة عليهن في ذلك[١٤].

وكنّ يفاخرن بطول الشعر وتعدد الذوائب التي يسدلنها من تحت قماطة الرأس، والعجايز استعملن الطربوش الأحمر مدة، وكنّ يتعممن من فوقه بمنديل صغير، والصبايا (الشابات) يقمطن الأجبني (بضمّ الهمزة وفتح الباء بعد الجيم الساكنة) الذي هو عبارة عن قماطة مؤلفة من منديل رقيق أو من قطعة من البرنجك أو الكاز[١٥]، ويجعلن على أطرافه سجفاً (خروج) حريرية، ويشكلن من فوقها حمالات الورد والرياحين الغضة ذات الأرج الزكيّ، تتخللها قطع من الماس وغيره من الأحجار الكريمة على أشكال لطيفة. وفي الأعراس والأفراح يعلقن الوشاح (القلادة أو الشكل) وهو سلسلة مؤلفة من دنانير ذهبية قديمة أو حديثة يدلينها من العنق الى تحت الابط، ويتزنرن بالزنانير الفضية المسماة (سمبا) والموهة بالذهب والمرصع بعضها بالأحجار الثمينة، ويضعن في أجيادهن العقود (بخانق) من الدر اليتيم، ويسوّرن معاصمهن بأساور من فضة أو من ذهب ابريز، ويكتحلن بالكحل الأسود، ويتطيبن بعطور الورد والياسمين وما شاكلها من أنواع الطيب الذي كان يستقطر في بلادنا[١٦]. وكانت السيدة تنقش يديها ورجليها بنقوش لطيفة ترسمها النقاشة بالشمع العسلي المذاب، وتضع عليه الحناء فتصير حمراء اللون، وان شاءت صبغتها بحناء سوداء، فتغدو نقشا لطيفا تتزين به الحسناء وتستغني عن الجوارب (الكلسات) كلها.

على أنه كلما ازداد اختلاطنا بأهل الغرب ازداد فينا حب التقليد والمجاراة لهم في الاسراف دون الاقتصاد، فأخذت نساؤنا تهمل الأزياء الشرقية برمّتها، وشرع رجالنا يرتدون البنطالون والبيجاما وما شاكلها من الثياب الافرنجية، واعتاضوا عن الجبة بالمعطف (البالطو الافرنجي) وعن العمامة بالطربوش، ثم شرعوا يحاولون لبس القبعة (البرنيطة) أيضا. وأهملوا الأحذية والجوارب الوطنية، واختاروا «البوط» الافرنجي، والكلسات الافرنجية وما شاكلها.

اما الجنس اللطيف فانه رأى في استعمال الحلي الذهبية والأحجار الكريمة شيئا من السذاجة، والأصح أنه أدرك أن موارده لم تعد تكفي للمجاراة في اقتناء المجوهرات أيضا، فاضطره الزمن الى الرجوع الى الحلي المزيفة والأحجار الاصطناعية، وأفنى ما اقتناه أو ورثه عن الآباء والأمهات من كل ذي قيمة، وبذله في سبيل (الموضة) التي تتحول من يوم الى يوم، وتجرف كل ما تلقاه من مال وسواه، وتقضي على السيدة بأن تقتني أثوابا متعددة

الأشكال، بجواربها وأحذيتها ومناديلها، وأن تجمع لديها مجموعة من العطور والدهون والسوائل المتنوعة بحيث يكون لكل زيارة تؤديها أو تقبلها في دارها ثوب وعطر وحذاء خاص لا يتعداه الى غيرها، وان تجعل ثيابها لا تبلغ الركبة طولا، ولا يقام لها وزن من البذخ والاسراف، وان تؤدي أجرة خياطة كل ثوب منها بضعة دنانير ذهبية تقرب أحياناً قيمة الثوب أو تزيد عليها، وهذا الثوب اذا ارتدته الحسناء في سهرة ما، قد لا يدوم الى الصباح، بل يتمزق ويتبعثر من أقل لمسة.

وما زلنا منهمكين في هذا العمل، مندفعين الى بذل ثروتنا في سبيل هذه الفخفخة دون سواها، دائبين على تعدّي مداخيلنا الى بيع أملاكنا، فما عسى ان تكون عواقبنا؟(*)

سؤال

للنساء عادات خاصة لا ينبغي للرجال أن يتدخلوا بأمرها ما لم تمسّهم.

ونحن مع علمنا بهذا، واحترامنا للجنس اللطيف نروم ان نتطفل عليهنّ بهذا السؤال الذي طالما شغل بالنا، ولا نخالهنّ الا مجيبات عنه، وهو:

ما هو الجمال؟

تكرّمي يا سيدتي وقولي هل هو تلك الخلقة البديعة ذات التناسب الجذاب؟

وذلك اللون الطبيعي الزاهي الذي يفتن الألباب؟ أم هو تلك الأدهان والسوائل الغربية التي، فضلا عن اضرارها بالصحة، تجعل الوجه أدنى من الصورة المعلقة في الحائط؟

نعم، ان اللواتي في وجوههن كلف أو عاهات يردن سترها يعذرن في استعمال المساحيق والمعاجين التي تخفيها.

أما اذا لم يكن في سيماهن اللطيفة سوى المحاسن التي لا تبارى، فما الداعي لسترها واخفائها عن أعين الناظرين الذين لو رأوها على حالها لسبّحوا لله أكثر مما يفعلون اليوم.

ورحم الله القائل:

ان المليحة من كانت محاسنها   من صبغة الله لا من صبغة البشر

ان هذا ذوق، ولا مناقشة في الأذواق: أليس كذلك؟

التستّر

كانت النساء عند خروجهن من دورهن يتأزرن بمآزر بيضاء تسدل الى وجه القدم، وكنّ يسترن وجوههن ببراقع (مناديل) ملونة لا يرى من ورائها الناظر شيئا. تعلوهنّ الحشمة والوقار، ولا يجرؤ أحد على الدنوّ منهن ولو كان من ذوي القربى، لأن تكلم الرجل مع المرأة في الأسواق كان يعدّ من المعايب.

وكان الازار يؤلف من قطعة واحدة من النسيج القطني ويباع بريال مجيدي واحد، تقصه السيدة نفسها من وسطه طولا، وتجعله قطعتين تخيطهما ببعضهما عرضا، فيغدو إزاراً لستر المرأة. ثم بطل الازار الأبيض، وأخذت النسوة يتأزرن بالملاية الصفراء المصنوعة من القطن والحرير كالتي تستعملها نساء المزة اليوم، والبعض منهن استعمل الملاية الحريرية الملوّنة والمقلمة، وكلها من مصنوعات بلادنا، ثم ابطلت الملاية الشامية واستعيض عنها بالملاية البغدادية والمصرية، وبعد ذلك أهملت الملاية بتاتا، وراجت سوق الحبر الأسود الذي هو من مصنوعات الغرب. وكانت الحبرة في بادىء ظهورها تجعل طويلة تصلح للتستّر، وما لبثت ان قصرت وضاقت مع الأيام حتى

(*) حاشية المؤلف ارمل منذ أكثر من عشرين عاما. فلا محلّ لحمل ما كتبه على احواله الخاصة. بل هي نصائح عامة صادرة عن حسن نية. وغيرة وطنية. يقصد منها الايقاظ والتنبيه ليس الا

أصبحت اليوم أقصر من آمالنا، وفي طبيعة آلامنا، لا تتجاوز الركبة طولا ولم يعد في الامكان التستر معها لضيقها، فالعنق والثديان والمعصمان والساقات بارزة من خلالها، معروضة لكل راء، لا يمنعها حياء ولا نخوة الرجل.

السفور والحجاب

ازدادت النسوة في التبرج حتى خلع بعضهن الحبرة واستعاض عنها بالمعطف (بالطوسكاب) المختلف الألوان، ووضعن فوقه على رؤوسهن قطعة من النسيج الرقيق يسدلنها على وجوههن مقام البرقع، ووجودها وعدمه سواء، ثم أخذ البعض يتدرج حتى خلع الحبرة بالمرة، وبرزن الى الأسواق سافرات بملابس الزينة وعلى رؤوسهن خمر رقيقة من الحرير يحاولن ان يسترن بها شعورهن ـ دون الغرة والجبين ـ وهيهات ذلك.

والباعث على هذا أولا دعاية سرت الينا من مصر والروم بدعوى ان التستر غير مشروع، وأن منشأه عادة انتقلت الينا من الأعاجم فاعتصم بها الرجال وأكرهوا النساء على استعمالها ظلما وجوراً، ثانيا: انحطاط الاخلاق وتطور الآداب بصورة لم نكن نؤملها ولا من الأغيار فضلا عن انفسنا، نحن المأمورون بالحجاب واخفاء الزينة وعدم التبرج، فقد قال الله تعالى: «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ». وقال أيضا: «واذا سألتموهنَّ فسئلوهنَّ من وراء حجاب». وقال أيضا: «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنَّ ويحفظن فروجهنَّ ولا يبدين زينتهنَّ الا ما ظهر منها. وليضربن بخمرهنَّ على جيوبهنَّ ولا يبدين زينتهنّ الا لبعولتهنَّ أو آبائهنّ». وقال أيضا: «وقرن في بيوتكنَّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى»، الى غير ذلك من الأوامر الالهية المتحتم على المسلم اتباعها.

وقد أصبحنا والعياذ بالله نرى كل قديم منبوذاً ولو كان نافعاً، وكل حديث مرغوباً ولو كان ضاراً بلا تروّ ولا تمييز ولا منطق ولا محاكمة، ولا حول ولا قوة الا بالله. وفي الأيام الأخيرة قام بعض الرجال وأخذوا يحثّون المرأة ويحرّضونها على خلع الحجاب والتمتع بنعمة السفور التي يعدّونها من لوازم التمدن، ونهض غيرهم وأبرق وأرعد، ونادى بالويل والثبور داعيا الى اعادة الحجاب الى ما كان عليه، وما زالت حرب الأقلام قائمة بين الفريقين.

ومن دواعي الأسف ان رؤساء حكومتنا هم من القسم الأول الذين يهيئون للمرأة أسباب السفور خلافا لما كان يتصوره ويتأمله الناس ويتوهمونه من تمسكهم بأهداب الدين وتصلبهم فيه.

ونحن من القائلين بالحجاب، وما زال ـ والحمد لله ـ السواد الأعظم من الأمة على هذا الرأي. وأخيرا نهض الشيخ هاشم الخطيب وأخذ يعظ الناس ويحث النسوة على التستر المشروع ويحبب اليهن الأزار الأبيض الذي كنّ يستعملنه فيما سبق، ويشبههن بطيور الجنة، وقد أقبلت عليه الكثيرات، وشرعن يتأزرن بالمآزر البيضاء ويضعن على وجوههن الخمر (المناديل) ورعا وتقوى. ونحن مع انتقادنا مداخلة الشيخ هاشم في أمور السياسة، وتزلفه لذوي الرياسة، مما يضيع عليه أعماله الصالحة نحبذ له العمل المبني على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونرجو أن يتقدم في وعظه وينجح مسعاه هذا، ويتبعه كثير من العلماء العاملين فيتوصلون الى نبذ تلك البدعة السيئة واعادة الحجاب الى ما كان عليه، وما ذلك على هممهم بعزيز.

التساوي

هناك دعاية جديدة قائمة على أساس مساواة المرأة مع الرجل في حقوقه وأعماله، وقد وجدت بذور هذه الدعاية أرضاً خصبة لدى المسترجلات من النساء والمدعين الدفاع عنهن من الرجال، فنمت وذاع صيتها في كثير من الأصقاع.

إن الله خلق الزوجين الذكر والانثى، وجعلهما عماد الكون، وشاد نظامه على أساس تقسيم الأعمال بينهما.

فالرجل يسعى والمرأة تلد وكل بحسب فطرته وضمن دائرته التي خلق لها، واذا انحرف احدهما عن واجبه أخلّ بنظام الكون وداخله الفساد. ولا ريب ان النساء يملكن من جميل الخصال وحدة الذكاء ما يجعل جنسهن اللطيف موضــع احترام الرجال وعطفهم، وقد ظهرت عبقرية النساء ونبوغهن في كثير من المواطن في مختلف الاعصار والأمصار، مما جعل الرجال يقدرونهن ولا يجحدونهن، ثم أن الشرائع السماوية جعلت للمرأة حقوقاً على الرجال لها ان تتمتع بها وتؤمن من راحتها وحريتها بواسطتها.

على أننا إذا تركنا هذا جانباً، ونظرنا الى خلقة الرجل والمرأة، نرى ان الطبيعة فصلت بينهما، فالحمل والولادة والارضاع من ميزات النساء، كما ان معاناة المشاق في معترك الحياة يقوم بها الرجال وحدهم.

ولعل قائلا يقول إن من النساء من تتجلد وتدخل في هذا المعترك وتحاول القيام بجميع الأعمال ولو كانت شاقة، كما فعلت بعضهنّ في الازمنة الغابرة، فليسمح لنا عندئذٍ بالجواب على هذين السؤالين البسيطين وهما:

١ ـ هل تستطيع المراة القيام بمشاق الأعمال أيام حملها ووضعها؟

٢ ـ هل يمكن الاستغناء عن الحمل والولادة اللذين يتوقف عليهما دوام هذا الكون.

فاذا كان الجواب بالنفي كيف تدّعي المرأة مساواة الرجل حالة كونها مضطرة خلقةً الى التخلي عن الأعمال ولو مدة من الزمن قد تكون حياة الوطن ومماته متوقفة عليها؟

فماذا تفعل المرأة اذ ذاك. هل ترضخ للرجل وتعترف بأفضليته، ولو في غضون هذه المدة مهما كانت قصيرة؟ أم تلبث مصّرة على دعواها وتؤجل الحرب مثلا الى ان ينقضي نفاسها وتتمكن من القيام بالواجبات التي أخذتها على عاتقها؟

هذا سؤال بسيط أتينا به على سبيل المداعبة ومن يدخل في هذا المضمار يجد من الأدلة والبراهن ما يعمي البصر.

المرأة في دارها

المرأة في دارها إما أن تكون وحيدة، والشرع يقضي بإقامة مؤنسة عندها، وإما أن يكنّ متعددات بين حماة وكنــة وبنـات وأخوات، وهنّ عموماً ينهضن باكراً من النوم، ويقدمْنَ الترويقة (الفطور) وغبّ قضائها يذهب صاحب الدار الى عمله، والأولاد الى مدارسهم، وتبقى النسوة في الدار فيتعهدن الرياحين بعنايتهن، ثم يقمن الى الكنس والشطف، فالكنس هو جمع ما تساقط على الأرض من الأوساخ والغبار في داخل الغرف وخارجها، ثم مسح أوائلها، والشطف هو غسل صحن الدار وعتبات القاعات والمربعات بالماء وتنظيفها، يجرين ذلك بانفسهن أو يناظرون عليه اذا كان لديهن خادمات. وقد يعزّلن الدار كلها من السقوف الى الأرض بين آونة وأخرى بحسب اللزوم والحاجة. والتعزيل هو رفع المقاعد والطنافس وسائر الأثاث والرياش ونفضها وتنظيفها مما قد يكون علق بها من الغبار والعنكبوت، ثم غسل الأوائل ومسحها واعادتها الى أماكنها، وتنظيف النوافذ والجدران كلها.

وفي الوقت ذاته ينظرون في إعداد الطعام الذي يكنّ قررنه مع ذويهن من الصباح ويخرجن معداته من بيت المؤنة التي تحتوي عادة على كل ما يلزم الدار من المواد الابتدائية للطعام كالطحين والأرز والسكر والدبس والملح والفلفل والجبن والزيتون والمخللات والمربيات والخضار المجففة والفحم والحطب وما شاكل ذلك، وما يأتيهن من السوق من اللحم والخضار الغضة. فيطبخن الطعام المقرر ويهيئنه، ويكنّ قد عجنّ العجين منذ الليل، وعند اختماره يرسلنه الى الفرن، فيعاد اليهن خبزا ناضجاً. وفي غضون قضاء هذه الواجبات كلها يجدن وقتاً للتمشيط والزينة أيضا.

وعندما يأتي صاحب الدار وأولاده وقت الظهيرة يجدون طعامهم جاهزاً، فيأكلون ثم يعودون الى أعمالهم، وربما أرسل الطعام الى أماكن عملهم.

وبعد انتهاء الغداء تأخذ السيدات بالخياطة والتطريز واستقبال الضيوف اللواتي يأتين زائرات، أو يذهبن الى الحمام او الى بيت أهلهن وخديناتهن، ويعدن قبل الغروب هاشّات باشّات، فيحضّرن طعام العشاء، وينتظرن

رجالهن الى ان يأتوا، فيجلسون معا على مائدة واحدة يداعب أحدهم الآخر.

وقد اخترع النساء «الأسابيع» في الأفراح والمآتم وفي غيرها من المواسم الآتي ذكرها، فيقضينها، ويشتغلن باعداد معدّاتها طيلة العام تقريبا، ويملأن بها الفراغ من أوقاتهن ولا يبقين بدون عمل البتة.

الرقيق

تسلّط أولاد آدم بعضهم على بعض منذ الخليقة، وأخذ القوي منهم يستعبد الضعيف حيثما وجده، فتولّد من ذلك الاسترقاق الذي عمّ الشرق والغرب معاً.

كانت الشعوب القديمة كالمصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والرومان والعرب وغيرهم يتخذون الرقيق ويستخدمونه في الأعمال الشاقة كحرث الأرض وجرّ الأثقال والقيام بالحروب وما شاكل ذلك. وقد أقرّت الديانتان الموسوية والعيسوية الاسترقاق وجعلته مشروعاً.

ولما جاء الاسلام منع ما كان عليه الناس من استرقاق القوي للضعيف الا استرقاق الأسرى والسبايا في الحروب وندب الى عتقهم والمبادلة بهم بأسرى المسلمين او بالمكانية (وهي ان يشتري الأسير نفسه من سيده بمال يتعهد بأدائه دفعة أو تقسيطاً) وأمر بعدم التمثيل والتعذيب وجعله موجباً للعتق.

دام الرق معروفاً في أوروبا، وخصوصاً في البلاد الافرنسية، الى القرون الأخيرة حيث كان يأتيها الكثير من أسرى الجرمان والصقالية وغيرهم من سكان الشمال فيستعبدونهم كما يستعبدون أسرى المسلمين، على ان الرقيق في الاسلام عندما ينال العتق يتساوى في الحقوق مع سائر أحرار المسلمين بخلاف ما كان عليه الأوروبيون من جعل الأسرى والعبيد المحررين أحطّ طبقة من النبلاء حيث تبقى بينهم فوارق كثيرة.

وفي القرون الماضية تكاثرت العبيد والجواري في بلاد الشرق، فساعدوا على تزايد العمران واتساع نطاق الزراعة، وبفضل التساهل الاسلامي كثيراً ما أصبح العبد رب الدار وتوصلت العبيد الى ارتقاء منصة الملك في مختلف البلاد الاسلامية، والاماء كثيراً ما تزوجن وأصبحن ربات بيوت نلن فيها الحرية والسعادة.

هذا من جهة الرقيق الأسود، أما الرقيق الأبيض فقد كان له حظ أوفر من ذلك. حيث ان قصور الملوك كانت تغص بالجواري الكرجيات (القفقاسيات) اللواتي أحرز فيها المقام الارفع والمماليك اتصلوا بالملك وأسسوا دولا مستقلة دامت عصوراً طوالا.

في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) حررت الولايات المتحدة الاميركية رقيقها (وهم سكان البلاد الأصليون الذين استرقّهم الأوروبيون عند استيلائهم على القارّة واستعبدوهم) بالاضافة الى العبيد الزنوج الذين استقدموهم من القارة الأفريقية حتى بلغ عددهم بضعة ملايين. وفي منتصف القرن التاسع عشر قامت الحكومة الانكليزية واتفقت مع سائر الدول الأوروبية ونادت بحرية الشعوب وحظرت بيع الرقيق من كل جنس، ومنعته منعا باتا، خدمة للانسانية على ما تقول، حالما كون الأيام أثبتت أن عملها هذا لم يكن خالصاً لمصلحة البشر عامة وجنوحاً للمساواة بينهم، لأن اميركا ما زالت تفضل الجنس الأبيض الاوروبي على الجنس الأحمر الاميركي (حتى بعد تحريره)، وتعامل الوطنيين الحمر أهل البلاد الأصليين بالاستعباد السياسي المباح الى اليوم عند جميع الافرنج لكل من سواهم من سائر الشعوب. كما أن انكلترا وفرنسا وغيرهما من الدول الاوروبية ما فتئت تنظر الى الهنود والزنوج حتى وللعرب وسائر الأقوام الشرقية التي أوقعها نكد الطالع تحت حكمها وسيطرتها نظرة الشذوذ ولا تعاملهم بالمساواة مع أبنائها إلا فيما ندر.

وهذه الدول ما برحت تستخدم شبان الزنوج والهنود والمغاربة وغيرهم من أهل مستعمراتها في الأعمال الشاقة، وتجندهم تجنيداً اجبارياً لا لحفظ أوطانهم بل لتسوقهم الى حروب في غير بلادهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل (كما فعلت في الحرب العالمية)، فيحصدون حصداً في سبيلها وتحت رايتها وهم أحرار كما يقولون وسبحان الله عما يصفون.

قرى الضيف

قرى الضيف غريزة في البشر نشأت معه منذ خلقته. وقد عُرف العرب بجودهم ووفرة سخائهم وتضحية ما يملكون في سبيل أضيافهم، وكُتب السير طافحة بوصف تلك الخصال الكريمة.
توارث أهل الشام هذه الخصائل كابراً عن كابر، فاذا طرقهم ضيف لا بد من ان يكرموه ولو بلفافة (سيكارة) من التبغ مع فنجان من القهوة أو الشاي، أو بنوع من أنواع المشروبات الحلوة، أو بشراب عرق السوس[١٩] على الأقل، ومع القهوة يقدم شيء من الحلويات أو الفواكه أو النقول التي تكون موجودة في الدار أو تستجلب خصيصاً من السوق، واذا كان الوقت ضحى أو مساءً يكرم الضيف بما حضر من الطعام، وخير الطعام ما حضر.
دامت هذه العادة الى يومنا هذا مع شيء من التعديل فعسانا نتمكن من المثابرة عليها من الان فصاعداً أيضاً، ولا يضطرنا الزمان الى تركها واهمالها بسبب من الأسباب أهمها الافلاس العام المعرضين اليه من يوم الى آخر.

السهرة

السهرة من لوازم الحياة، اذ لا بد للانسان في الليالي وخصوصاً في ليالي الشتاء الطويلة من وسيلة لتخفيف أعباء المشاق التي يكابدها في النهار ولذلك ساقته الطبيعة الى السهر والسمر بحيث يجتمع لفيف من الاخوان والخلان ويقضون لياليهم بمحادثات ومداعبات وغناء يزيل العناء.
اعتاد اهل الشام أن يسهر رجالهم في فصل الشتاء باحدى الغرف القريبة من باب الدار ليسهل على الضيوف ارتيادها بدون إزعاج أهل البيت، والأغلب أن تكون هذه الغرفة هي المضافة (البراني أو السلاملك) المنفصلة عن صحن الدار والمستقلة بجميع حاجاتها. والنساء يقضين سهراتهن في إحدى الغرف الداخلية البعيدة عن الزقاق كي لا يسمع ضجيجهن من الخارج.
جعل الرجال السهرة ثلاثة انواع: الأولى يسهرون في ليالٍ متقطعة غير معينة عند أي من قصدوه ووجدوه من أصدقائهم أو أقاربهم. والثانية يفتح احدهم غرفة في دار ويخصصها للسهرة دائم الأوقات، فيفد عليه أهل الحي في كل ليلة بدون انقطاع. والثالثة يجعلون السهرة دورا يتناوبونه كل أسبوع في دار واحد منهم وهذا ما نصفه فيما يلي: اتفقوا على أن يكون الدور سبعة ليال على الأقل الست منها تقضى بسمر والعاب بسيطة وليلة الختام تمتاز باستجماع أسباب الطرب حيث يجلبون إليها المغنين بآلاتهم الموسيقية وهي الدف (الرق) والنقارات والعود والقانون والكمان، فينشدون الأغاني والأهازيج على الأنغام الشرقية البحتة حيث لم يكن لنا فيما سبق اختلاط بأهل الغرب، ولم ترق لنا أنغامهم، وفي خلال استراحة المغنين يتساجل الحاضرون بالأشعار والأمثال على الطريقة المعروفة بمذاكرة الأنفاس وهي أن يقول أحدهم بيتاً من الشعر، فيجيبه الآخر ببيت يبدأ بحرف قافية البيت الأول دونما نظر الى المناسبة المعنوية ما لم تأت عفواً، وذلك تسهيلاً لاشتراك الأميّ مع المتعلم في هذه المذاكرة الأدبية اللطيفة التي تفتح الأذهان ولا تحتاج في بدايتها الا لحفظ بعض الأبيات وايرادها عند اللزوم.
ثم يلعبون لعبة الصينية، وهي أن يأتي أحدهم بصينية عليها ظروف مقلوبة ومصفوفة صفاً متشابهاً، ويكون قد وضع تحت أحد الظروف خاتماً أو قطعة من الدراهم، ويعرض الصينية على الحاضرين واحداً واحداً، فمن ساقته الصدفة للاهتداء الى الخاتم أو القطعة المخبأة نجا ولبث جالساً في مكانه، ومن ضلّ يقوم ويدير الصينية بنفسه بين ضجيج القوم وابتساماتهم.
وقد يلعبون لعبة المقرعة، أو يقرأون بعض السير، ثم يعودون الى استماع الأغاني، وفي الختام يدعوهم صاحب الدار الى مائدة عليها بعض الحلويات فيأكلون منها ما راق لهم، ثم يشربون القهوة وينفرطون، وهذه الليلة تدعى (ليلة الطقة).

كلمة: ربما عدَّ شبان زماننا تلك السهرات البسيطة ممزوجة بشيء من السذاجة والتغفيل، بخلاف سهرات هذه الأيام الموافقة لروح التمدن والذوق على ما يزعمون. ولقاء ذلك نكتفي بالقول إن السلف الصالح كان يقضي سهره وسمره محافظاً على دينه وصحته وماله، معاً، وكانت نفقاته زهيدة لا توازي معشار نفقات هذه الأيام، وكان الاقتصاد رائدهم في جميع أعمالهم، والتبذير شيناً لكل طبقاتهم.

الملاهي

أهل الشام ميالون الى اللهو والطرب بحسب طبيعة إقليمهم ووجودهم دوما بين الجنان والرياض الغناء التي تفتن المرء وتستهويه ولو كان زاهدا.

وهم ذوو قناعة، يكتفون بما قسم الله لهم من الأرزاق، فاذا نال أحدهم في يومه ما يقوم بأود عياله يحمد الله، ويغلق حانوته ويقصد أولا بيت الله، فيؤدي ما فرض عليه من العبادة، ثم يذهب الى أحد المقاهي التي تجري من تحتها الأنهار، والتي كان يؤمها الناس من رفيع ووضيع، واكثرها قريب من دورهم تغنيهم عن الحدائق البعيدة، ويقضي فيها بقية نهاره بين أصدقائه وخلانه، فيشربون القهوة، ويدخنون النرجيلة، ويلعبون النرد (الطاولة) أو الشطرنج أو المنقلة، ثم يعودون فوراً الى دورهم.

والمقاهي ذات الأنهار والأشجار التي كانت تغصّ بالزبائن في الليل والنهار، هي: مقهى باب السلام، والمناخلية، والدلبة، والجنينة أضف اليها مقاهي الصفوانية، والاحدى عشرية، وباب توما، وغيرها، وفي الشتاء كان يوجد لهذه المقاهي قاعات داخلية محفوظة الأبواب والنوافذ، يؤمن فيها الدفء، فيقصدها المتوسطون ويقضون فيها سهراتهم. وعدا هذه المقاهي ذات الأنهر، كانت مقاهي العمارة، والعصرونية، والدروشية، وباب الجابية، تفتح ليلاً ونهاراً، من الصباح الى الصباح، ويأتيها الزبائن من كل حي، وقد توجد في أكثرها، وخصوصاً في ليالي رمضان والشتاء، أجواق المطربين، ورواة القصص (الحكواتية) الذين يقصّون على الحاضرين أخبار عنتر أو الظاهر وما شاكلهما من الروايات الحماسية لميل الناس الى سماعها بلذة واعجاب تقديراً للشجاعة، وتحمساً لها، ثم ممثلو الخيال (قره كوز) الذي كان تمثيلاً أدبيا ينتقد العادات والأفعال الشاذة والمخالفة للذوق. وغير ذلك من الملاهي الأدبية التي تسلّي الناس وتكفيهم مؤنة السهرة في الدور[٢٠].

في أواخر القرن المنصرم نهض السيد أحمد أبو خليل أفندي القباني الدمشقي، وكان من النوابغ في الأدب، والمتخصصين في فن الموسيقى، فأجاد تمثيل الروايات الأدبية، وخفّ إليه الناس على اختلاف طبقاتهم وأخذوا يقضون لياليهم في مسرحه، فيشاهدون التمثيل الأدبي، ويستمعون للأغاني الفنية، ويعجبون بالنكات التهذيبية، ويتمتعون بالانتقادات الأخلاقية، ويتدرجون على الألفاظ الفصحى، وما عتم أن اصطدم بعارضة حالت دون دوامه على هذه المهنة في بلدته، فرحل الى مصر حيث رنت حصاته هناك، وشهد له أهل الكنانة بالبراعة والاتقان، رحمه الله.

أما في هذا الزمن، فان بعض الشبان والكهول اعتادوا قتل الوقت في دور الميسر والحانات والمراقص والسينما التي تحوى كل مفسد للاخلاق، مميت للفضائل، فاضاعوا بذلك دينهم ودنياهم، واضّروا بصحتهم وصحة ذويهم، حيث تفشت العلل الخبيثة فيما بينهم، فهل لنا بمن يستن قانونا صارماً يقضي على هذه المؤثرات، ويحفظ النسل من العواقب السيئة التي تنتظره.

السيران والسماط

عندما يذهب الشتاء ببرده، ويرد الربيع بورده، وتضحك الأرض من بكاء السماء، وتنشر عبيرها في الأرجاء، وترتدي الأشجار حللها السندسية، وتظلل البسيطة الزبرجدية، يأتي موسم السيران والسماط، وهما لكلا الجنسين واسطة عقد السرور والنشاط.

في اليوم الأول من فصل الربيع الذي يدعوه الفرس (نوروز)، ومعناه اليوم الجديد، اعتاد الناس على الخروج قبل طلوع الشمس الى الحدائق والجنان، حيث يجلسون على ضفاف الأنهر تحت ظلال الأشجار المفتحة الأزهار، ذات الالوان البديعة والروائح الزكية، ويقضون ساعة حظ وانشراح، يستنشقون في خلالها الهواء العليل النقي، ويشربون اللبن الصافي، ثم يعودون نشيطين الى معاطاة أعمالهم. وبعد ذلك اليوم وكلما سنحت لأحدهم فرصة يجمع لفيفاً من اصدقائه، ويذهب بهم الى شمّ الهواء على ضفاف الأنهر، أو في زاوية أحد البساتين (حيث لم تكن توجد مقاه خارج البلدة) فيقضون سحابة نهارهم بسرور وهناء، وهذا معدود من النزهات البسيطة. أما السيران فانهم يعدون عدته، ويعينون وقته ومحله من قبل، واما أن يجمعوا نفقته من بعضهم، ويعهدون بصرفها الى أحدهم، واما ان يتعهد كل منهم بسيران خاص يقيمه لحسابه، فيسيرون في الوقت المعين الى البستان المسمى، ويأخذون معهم جوقة طرب ويستحضرون أوائل الغداء والعشاء فيطبخها الطاهي الخاص أو من يعلم أصول الطبخ منهم، في زاوية من البستان، وغالبا ما يكون الطعام بحسب الموسم من الأرز بالفول والعصافيري أو يوصون عليه «البغجاتي» فيرسله اليهم خالصاً في الوقت المطلوب، ويكون على الأكثر صفيحة أو خروفا محشياً مع التمور، فيأكلون ويشربون هنيئا مريئا، والشبان منهم ينفردون عن الكهول ويلعبون ألعاباً تتناسب مع سنهم، وهكذا يدوم الحال الى أن تنقضي سحابة النهار، فيعودون بعراضة وضجيج الى أن يبلغوا باب البلدة، حيث ينصرف كل منهم الى داره، وقد يعاودون هذه السيارين أكثر من مرة في فصل الربيع وعلى الخريف.

أما السماط فهو للنساء دون الرجال حيث تقوم إحدى القينات وتطوف على الدور وتدعو السيدات الى حديقة مستورة تسميها لهن، كجنينة الضباعي، وجنينة باب السلام، أو جنينة المزابل، وجنينة خان زادة، او غيرها، وتأخذ القينة من كل سيدة دراهم بحسب مقدرتها وجودها، وفي صباح اليوم المعين تفد المدعوات على الحديقة المسماة، فيستمعن الغناء ويتفرجن على الرقص أو يشاركن فيه، ويتارجحن، ويتداعبن، ويلعبن العاباً خاصة، ويأكلن ما حملنه معهن أو ما استجلبنه مع ذويهن او ما اعد لهن في الحديقة من الزاد والنقول والمرطبات، وقبيل الغروب تعود كل منهن الى دارها وقلبها طافح بالبشر والسرور والاكتفاء، وتعاد هذه السماطات كلما سنحت الفرصة.

ولم تزل «السيارين» باقية مع شيء من التعديل، وانما السماطات أهملت، واخذت النسوة يذهبن زرافات ووحدانا الى أي حديقة راقت لهن، لا يبالين فيما إذا وجدت فيها جمعيات رجالية، والبعض منهن اخذن يجلسن في المقاهي والحدائق العامة في الربوة ودمر وشارع بغداد والمهاجرين وغيرها أمام الرجال، ولا ندري الى أين تصل بهن هذه الحالة.

الخطبة والعقد

خلق الله العالم وجعل عماده التناسل، وكفل الزوجان بعضهما ثم لتربية اولادهما واعدادهم لمكافحة أسباب المعاش الى أن يبلغوا أشدهم حيث تبتدىء وظائفهم، وهكذا يدور الدور ويتماثل العمل الى ما شاء الله.

اعتاد المسلمون من اهل الشام على أنه عندما يشب في الدار شاب ويميل الى الزواج يتفق ابواه على تزويجه فتخرج امه ونسيباتها الى الخطبة والتفتيش عن فتاة توافقه في حياته. فتلج دور البنات اللاتي تعرفهن أو تسمع عنهن من ذوات الصيت الحسن والاخلاق المرضية وبعدما تمعن النظر فيهن، وفي طراز حياتهن واشغالهن، تختار الفتاة التي تراها أجمل خلقة، وأكمل أدباً ومعرفة من سواها، فتعود وتصفها الى ابنها، فاذا راقت له تخبر زوجها بالأمر، فيذهب هذا مع بعض أقاربه الى أبي الفتاة ويخطبها منه، وقد اصطلحوا على ان يطلب أبو البنت مهلة للاستخارة، ومعناها الفحص عن احوال الخطيب واخلاقه، فاذا وجدها حسنة، اتفقوا على المهر، وقرروا العقد الذي يكون عادة في دار أبي الفتاة المخطوبة. ويدعى الأهل والخلان من قبل الفريقين الى حفلة العقد، ويوكل كل من الخطيبين أحد الاقربين من الأهل والمحارم، ويرسله مع شاهديه الى دار الحفلة، وعند تكامل

الجمع يعقد شيخ المحلة أو أحد الأساتذة الحاضرين العقد الشرعي، ويدعو للخطيبين بالرفاه والبنين. ثم تقدم المرطبات والحلويات ويهنىء الناس ذوي العروسين وينصرفون.

والمهر قسمان مقدّم ومؤجّل. فالمقدم يدفع عاجلاً، والمؤجل يبقى في ذمة الزوج الى حين الاقتضاء، كوفاة أو فراق الخ.

هذا ما اعتـاده المسلمـون وحافظوا عليه الى الآن، شرحناه باختصار، أما بعض شبان هذا الزمن الذين يحاولون اتباع العادات الافرنجية، ويبذلون في سبيلها كل مرتخص وغال، فان البحث عنهم يضيق دونه هذا المختصر فاكتفينا بالتلميح دون التصريح، راجين للجميع الهداية الى سواء السبيل.

الجهاز

عندما يستحضر الزوج المهر المعين، يرسله الى حميه أبي زوجته، أو وليها، ويعين له يوم العرس، فيأخذ أهل العروس باستحضار الجهاز. والقديم منه كان يؤلف من سجادة وثلاثة مقاعد (طواطي) بمساندها، وهي تملأ عادة بالقطن أو الصوف، ويكون وزنها وغلافاتها تابعاً لمقدار المهر ومكانة العروسين بين الناس، ثم من فرش ولحف ومخدات أو صندوق ومرآة وصدر من نحاس (وهو صينية كبيرة تستعمل في الولائم)، و«اسكملة»، ثم صينيتين صغيرتين من المعدن أو الفضة لوضع فناجين القهوة وأقداح المرطبات، ثم من بعض قطع من الأواني الفضية للزينة، ومن مصباح وثياب وحلي، الى غير ذلك مما يعدونه من اللوازم التي لا بد منها.

وكان هذا الجهاز يتخذ باكثريته من المصنوعات والمنتوجات الوطنية[٢١] ومن مصنوعات سائر البلاد الشرقية، بحيث تبقى قيمته في بلادنا ولا تتعداها الى غيرها.

أما الجهاز الحديث فهو يؤلف اليوم من طقم أو طقمين من المقاعد الافرنجية (الكنبات)، وسجادات متعددة، وخزانة متحركة ذات مرايا للثياب، وأخرى بلورية للملابس البياض، وجاردينير (الذي وصفناه في باب الرياش)، ومغسلة ذات مرآة مع طقم التمشيط (تواليت)، وطقم السرير الذي يعده العريس ويهيؤه من قبل، ثم من فرش ولحف ووسائد متعددة، وحلي وأوان صينية وفضية ومعدنية، وما يدعونه طقاطيق (وهي التي لا يقوم لها وزن من البذخ والاسراف)، وملابس متنوعة وغير ذلك من الكماليات التي يكون معظمها من المصنوعات الأجنبية[٢٢]، وقيمتها تذهب منا الى بلادهم. وقد تزيد أعداد هذه الأوائل أو تنقص بحسب الذوق والاستطاعة، ولما يتكامل الجهاز، ويكون ذلك عادة قبل العرس بثلاثة أيام، يرسلونه الى دار العريس محمولا على ظهور الحمالين يرافقهم النـاس من شيوخ العائلة او المحلة، ويمشون امام الجهاز فيدعون مشاة، والقصد من ذلك إشهار الجهاز، وإعلام الناس بأمره، وقد وجد من يسجل الجهاز عند شيخ الحارة، لما قد يحدث في هذا السبيل من الأقاويل والمدعيات الغريبة بحسب الاخلاق والطبائع المختلفة. وحينما يصل الجهاز الى دار العريس يقدمون للمشاة والحمالين المرطبات والقهوة.

غرفة العريس

كانوا يعدون للعريس غرفة واحدة في الدار لوضع جهازه واقامته، فتمد السجادة فوق الحصير الذي يكون استحضر من قبل، وعلى أطراف السجادة تفرش الطواطي ومساندها، وتوضع الفرش في اليوك الذي يغلق بابه أو تسدل ستارته، وهذه الستارة كان يؤتى بها مع الجهاز، وقد تكون حريرية ومزينة بقطع من الفضة، ويجعل الصندوق في القرنة وفيه الثياب وجميع حوائج الزوجين، وتنصب المرآة في المصب، وأمامها المصابيح، أو تعلق في الجـدار، وتجعـل «الاسكملة» تحت الصندوق، ومن ورائها الصدر مع صينية صغيرة أمامه، وفي الشباك «اسكملة» ثانية عليها كؤوس المرطبات وفناجين القهوة.

يقضي العروسان أوقاتهما في هذه الغرفة، فينهضان من النوم، وبعد ان يجمع الفراش ويوضع في اليوك،

يتمشطان أمام المرآة، ثم يتروقان (يتناولان الفطور)، ويستقبلان الزوار، ويأكلان الطعام ويقومان بالخياطة والتطريز والكتابة وغيرها من الوظائف البيتية كلها، ويقضيان السهرة، ثم يرقدان في هذه الغرفة وحدها التي تقوم مقام خمس غرف، وأكثر من غرف زماننا، كما نقص عليك فيما يلي:

يتطلب العريس اليوم خمس غرف على الأقل، الأولى للضيوف، وهي التي يضع فيها معظم جهازه، والثانية للجلوس والعمل، والثالثة لغسل الوجه والتمشيط، والرابعة للطعام، والخامسة للنوم، وقد تكون غرفة سادسة للألعاب الرياضية.

وقبلا كان الزوجان اذا شاءا بعد انقضاء حين من الزمن يمكنهما بيع الجهاز أو استبداله بغيره، فالقطن والفضة والحلي محفوظة بأثمانها، والوجوه والسجادة تستبدلان بغيرهما، وبالاجمال لا ينقص من قيمة الجهاز الا القليل بنسبة كثرة استعماله أو قلته. أما اليوم فان الحاجة التي تشترى من السوق اذا رام مشتريها استبدالها، وسلمها الى الدلال، وعرضها على البيع قبل ان ينقلها الى داره ويستعملها، ربما لا تأتي بنصف قيمتها تقريبا، هذا اذا لبثت سالمة من العطب المعرضة له اليه من أقل لمسة.

العرس

في اليوم الذي يعين للعرس، تعد المعدات في دار العريس، وتفرش أرض الدار بالمقاعد المتحركة والسرر الخشبية، وتفتح أبواب جميع الغرف، واذا كان الوقت شتاء يسقف صحن الدار بستائر من نسيج تخاط ببعضها وتدعى القواني، وتهيأ الأطعمة في الدار أو يوصى عليها من السوق، وتكون أم العريس وأم العروس أو من تقومان مقامهما سبقتا ودعيتا نسيباتهن وخديناتهن قبل بضعة أيام ليهيئن انفسهن لحفلة العرس، فيفدن على الدار منذ غروب الشمس، ويأخذن لأنفسهن مقاعد لا يتعداها غيرهن، والقريبات من العروس وأم العريس وأهله يتجمعن ويستقبلن الوافدات، ثم ينتخبن من بينهن وفداً لجلب العروس من دارها، وهو يؤلف عادة من بضع نسوة متزوجات (حبالات ولادات) وذوات حظ أبيض تفاؤلا للعروس ان تكون مثلهن. وعند وصول هذا الوفد الى دار العريس واكرامه من قبل أهلها بما استحضر من الحلويات والمرطبات، ينتظرن جميعاً إتمام لوازم العروس، وخصوصا وصول ثوب العرس الذي لا ترسله الخياطة الشاطرة عمداً الا وقت الغروب أو بعده، كي لا يكون هنالك متسع من الوقت لانتقاده. ثم يمتطي الوفد السيارات أو العجلات التي يكون أعدها العريس وأرسلها، ويصطحب معه العروس ويأتي بها الى دار العرس (وقديما كنّ لا يبالين بالمجيء بها ماشيات ولا غضاضة عليهن في ذلك لكونه عادة عامة مألوفة عند جميع الطبقات، أما اليوم لا بد من ركوبهن ولو كانت المسافة بين الدارين لا تتجاوز المائة متر تقريبا)، والداعي لذلك ان العروس كانت تأتي متأزرة متحجبة أسوة ببقية النسوة اللاتي يرافقنها ويحطن بها، أما الآن فالموضة جعلتها تنزوي في زاوية العربة التي تسير بسرعة ولا أحد يستطيع النظر اليها على زعمهن.

وعندما تبلغ العروس باب الدار تستقبلها الخليلات بالزغاريد والاهازيج، وبعد ان تستريح قليلا وتصلح شأنها وتضع حليها، تذهب مع لفيف المدعوات ورفيقاتها ونسيباتها الى بيوت الموائد، فيأكلن عشاءهن، ثم يأتين بالعروس ويفتلنها حول البحرة، وينشدن لها الزغاريد الخاصة بالتفتيلة، ثم يجلسنها على مقعد مرتفع من الايوان ليراها الجميع من كبير وصغير، وهناك تجليها الغانيات بغناء خاص، ويرقصن أمامها الى ان يأتي العريس فتنهض على استحياء وتستقبله وهو يأخذ بيدها ويذهبان معاً الى الغرفة المعدة لهما ويذهب معهما ابو العريس أو أخوه الأكبر الذي يفتح له مجمع النقول ويهنئه، فيقبل العروسان يده ثم ينصرف.

تقضي النسوة المجتمعات تلك الليلة بأنس وطرب، فيتغنين ويرقصن ويتسامرن ويتداعبن الى الفجر، ثم يذهبن الى دورهنَّ عند الشروق. وفي غضون السهرة يتنقلن بنقول يكنّ جلبنه معهن، أو أرسل اليهن، ولا بد من عودتهن في غضون الأسبوع الذي تدوم فيه الأفراح للتبريك والتفرج.

وليلة العرس تجلب للعروس ماشطة تكون غالباً دايتها التي أولدتها، وهي تقوم بوظائف خاصة كالتمشيط

وخلافه.
أما اليوم فقد أخذ بعض الشبان يجعلون أعراسهم بالنهار فقط، ثم يصطحبون عروسهم ويذهبون بها الى بلدة أو قرية قصيّة، حيث يقضيان شهر العسل ويستريحان من عناء الماضي، ويهيئان نفسيهما لحياة جديدة تكون مقرونة بالهناء والسعادة اذا اتحدت القلوب وساد الوفاق والوئام.

التلبيسة

هي حفلة العرس النسائية، أما مهرجان الرجال فانه يكون في دار التلبيسة، حيث قضت العادة بأن يرتدي العريس ثياب عرسه في دار أحد أقربائه أو أصدقاء أبيه. ويدعى الى التلبيسة الأهل والأصدقاء، ويجلب اليها المغنون، فيتغنون ويتسامرون الى أن يرتدي العريس ثيابه في غرفة خاصة بين اقرانه الشبان الذين كلما ارتدى العريس قطعة منها يهزجون له بأهازيج موضوعها المداعبة، ثم يأتي العريس الى قاعة الجلوس، فيتقدم ويلثم أيدي أبيه والشيوخ الحاضرين، ويجلس بينهم متأدباً، وينتظرون جميعاً الخبر عن وصول العروس الى دار العرس، وحينئذ يحيط بالعريس إثنان أو أكثر من شيوخ العائلة والحيّ، ومن حولهم لفيف الرجال والشبان، وتحمل أمامه المصابيح والمشاعل، ويلعب الشبان بالسيف والترس[٢٣] وبالعصا[٢٤] احتفاء به. وهذا الاحتفال يسمونه (عراضة) وقد يأتون اليها باصحاب المرافع الذين يضربون بطبولهم وينفخون بمزاميرهم أنغاماً مهيجة تحميسا للاعبين، وحثا لهم على الهجوم والدفاع.
ان العريس قد يصاب خلال الطريق بوخزات وقرصات يقوم بها رفاقه الشبان، فيتحملها ولا يبدي حراكاً، خجلاً وتأدباً، ولا يبلغ الدار إلا وهو على آخر رمق من ألما.

الهدايا والنقوط

من العادات المرعية أنه عدا المهر المعين في العقد، يتبادل العروسان خاتم الخطبة، ثم يرسل العريس الى عروسه عقيب العقد بعض الهدايا من نقود او حلي أو ثياب، وهذه تدعى بعرف أهل الشام (لفافة الكتاب)، وتعاد هذه الهدايا في الأعياد والمواسم، فيما اذا طال مكث العروس في دار أهلها، وقبل الزفاف بأيام قليلة يرسل العريس هدية أثمن من الهدايا السابقة تحت اسم (التعيينة). وليلة العرس يقدم هدية أخرى باسم (كشف النقاب)، وعند الصباح ينقد عروسه قدراً من الدنانير، أو يقلدها بعض الحلي باسم (الصبحة). وفي اليوم السابع من أيام العرس تولم الولائم، ويدعى اليها الرجال والنساء من أهل العروسين، فينقطون العروس بأشياء قيمة.
ان هذه العادات طالما ان احترمها أهل العروسين، وقد وجد من يبيع أملاكه أو حوائجه ليقوم بما يعده واجبا تجاه كرامة الأهل والاقارب، وخشية من ان ينسب اليه الشح والتقصير. واذا أضفنا إلى ذلك البذخ والتبذير اللذين ذكرناهما خلال التعليق على بحث الجهاز، نرى ان كل ذلك غير مشروع ولا يجيزه العقل والمنطق، وكان، وما زال، العقبة الكأداء التي تحول دون تكاثر الزواج، وتؤدى الى قلة النسل، حيث يتباعد الكثير من الشبان عن تحمل مثل هذه الأعباء التي قد تكون فوق طاقتهم.
وأخيراً لمع لنا بارق الأمل حيث اخذ القوم يحاولون التخلص من هذه العادات الضارة ويشترطون في العقد أداء المهر المعيّن دون سواه، فعساهم يتوفقون الى نبذها بالمرة بعون الله تعالى.
أما اذا رأى بعضهم غضاضة في ترك هذه العادات، ومساً بكرامته فيجدر به بدلا من أن يبذر أمواله ويبعثرها في سبيل ما هو ليس من الحاجات في شيء، ولا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يتناسب غالباً مع حالة الزوجين المالية التي لا تخفى على أحد، فليجعلها على الأقل هدية نقدية يتكون من مجموعها رأس مال للعروسين، فينمّيانه، ويستثمرانه، ثم يتركانه الى أولادهما بعد العمر الطويل.

زواج المسيحيين

كان مسيحيو الشام يحجبون نساءهم عن أعين الرجال، ويجرون في زواجهم وأعراسهم على نهج المسلمين، ثم طرأ عليهم التغير مع الأيام، وخصوصاً بعد ان أخذ بعضهم (على قول صاحب الروضة)[٢٥] يسيء استعمال هذه العادة ويزوج البنت الشنعاء على حساب أختها الحسناء، وغير ذلك من الأضرار التي تلحق بالزوج وتشقيه طول حياته لعدم جواز الطلاق عندهم، مما ينقذهم من المرأة التي لا تكون كفوءا لزوجها، ولذلك أطلقوا الحرية لشبانهم وأباحوا لهم انتقاء الفتيات اللواتي ترقن لهم، وجعلهن مختارات بقبول الخطبة أو رفضها.

وعندما يتم التراضي بين الخطيبين، يعطي الخطيب خطيبته خاتم الخطبة، ويشفعها ببعض الحلي، ويسجل الخطبة في الكنيسة حيث يلقي الكاهن على الخطيبين بعض النصائح المتضمنة واجبات كل منهما نحو الآخر.

وكانوا فيما مضى يجعلون العرس سبعة أيام، وكل من يُدعى اليه يأتي بهدية تختلف باختلاف القدرة والاستطاعة، وهذه الهدية يسمونها (حمولة)، ويجعلونها إعانة للزوجين على نفقة العرس، ثم أبطلوا هذه العادة وجعلوا العرس ثلاثة أيام، ثم يوماً وليلة، ثم اختصروه على ليلة واحدة.

تكون الأعراس في أيام الآحاد دون غيرها، فيدعون اليها الأهل والخلان نساء ورجالاً ويستجلبون اليها آلات الطرب. وعند الغروب يذهب لفيف منهم الى دار العروس للمجيء بها، ولما يبلغون الباب يجدونه مغلقاً وأهل الدار سكوت إشارة الى أنهم يضنون لفراق عزيزتهم فيطرق الوافدون الباب طرقاً متوالياً الى أن يفتح لهم البواب، فيتقدم الاشبين (وهو وكيل الزوج) وينقده بعض الدراهم، ثم تدخل الجماعة، فتكرم وفادتهم، ويمكثون في دار العروس زهاء الساعة يقضونها بشرب الراح والانشراح، ثم يوزع الاشبين الشموع على الحاضرين الذين يلتفون حول العروس ويذهبون بها الى دار العريس وهم ينشدون الأناشيد، ويرتلونها باشجى الأنغام، وعندما يدخلون دار العرس تجلس النساء في غرفة على حدة حيث يقيم القس صلاة الاكليل، ثم يحيط النساء بالعروس إحاطة الهالة بالقمر، ويجلينها بالرقص والغناء والشموع بأيديهن، وبعد الجلوة يذهبن بها الى غرفة الطعام، فيتناولن عشاءهن، ثم يأخذن العروس الى الغرفة المعدة للعروسين، وهناك يأتينها بالعريس، وتنصرف كل منهن الى دارها، ولا يبقى في دار العرس سوى أم العروس والأشد قرابة لها من النساء فقط.

وفي صباح اليوم الذي يلي العرس، يقدم العريس لعروسه هدية بحسب مقدرته، وفي أول يوم عطلة يأتي بعد يوم العرس يجتمع الرجال من أهل العروس ويأتون الى دار العريس لزيارة عروسهم وتهنئتها، ويقضون لديها ساعة حظ وطرب. وفي مساء أول يوم عطلة تلي هذه الزيارة يذهب العريس بعروسه ونسيباته الى دار حمويه، ويعيد لهما الزيارة حيث تعد معدات القرى فيأكلون ويشربون ثم ينصرفون.

هذه هي عادات الزواج القديمة، والآن تعدّلت بعض التعديل، حيث جرى بعضهم على منهاج الغرب وأخذ يقدم للعروس عطية باسم البائنة (دوته)، وهي تسلمها الى زوجها فيجعلها راس مال لتجارته وتوسيع معيشته، وبعضهم شرع يذهب بعروسه الى خارج البلدة لقضاء شهر العسل براحة وسرور.

زواج الموسويين

للموسويين الحرية التامة في إنتقاء زوجاتهم، فالشاب الذي يروم خطبة فتاة يسأل أهلها أولا عن مقدار البائنة التي يمكنهم أن يهدوها لها، فاذا راقته ثابر على خطبته والا تركها وراح يفتش على غيرها، وهكذا يثبتون في كل وقت أنهم رجال مال قبل كل شيء.

وعندما يقر قرار الشاب على فتاة ويحصل التراضي بينهما يلبسها خاتم الخطبة فتكون زوجته المختارة.

وأعراس اليهود ممزوجة بعادات المسلمين والمسيحيين التي وصفناها فيما سبق.

الحمل والولادة

عندما تبلغ الحامل الشهر الثاني من حملها يظهر معها الوحام، وهو قلة القابلية للطعام، فيأتونها بالمقبلات

والحوامض لجلب اشتهائها، ومنذ الشهر السابع يأخذون باعداد سرير الطفل القادم وكسوته، ويستحضرون الكراوية المعتاد اسقاؤها الى النفساء وضيوفها، وهي مؤلفة من عقاقير منبهة يغلونها مع السكر ويذرون فيها بعض الأثمار المجففة كالفتسق واللوز والبندق والجوز وجوز الهند وغيره. وفي أوائل الشهر التاسع يجلبون كرسي الولادة من دار الداية التي كانت ماشطة العروس في عرسها. ولما يجيء المخاض تحضر الداية وتأتي قبلها أم الحامل ونسيباتها، فيقضين ليلتهن حولها الى أن تضع، فينقلنها الى الفراش حيث تلبث فيه مع ولدها اربعين يوما.

وفي خلال الأسبوع الذي يلي الولادة تأتي الفتيات وتتبعهن الخليلات لتهنئة النفساء بخلاصها، والدعاء للمولود بطول العمر، فتقدم اليهن كؤوس الكراوية، والسيدة التي لا تحضر لعذر ما ترسل الكراوية الى دارها.

وفي ثاني يوم الأسبوع يأخذن النفساء الى الحمام الذي يدعينه (حمام الفسخ)، ويطلين جسمها بعقاقير حارة أملا بأن تستعيض ما فقدته من القوى، ويغسلنها من أوساخ الولادة، ثم يعاد الحمام يوم الأربعين حيث تكون شفيت تماما. وقد ينذرون النذور للحامل خلال حملها ويدعين بخلاصها بالعافية، وابلائها ولداً ذكراً. وأهم هذه النذور المولد والسماط.

وعندما تبدو أسنان الطفل يطبخن (السليقة)، وهي قمح مسلوق وممزوج بالسكر والجوز وحبّ الرمان والفستق، ويوزعنها على الأهل والجيرة.

تلك هي عادات الولادة وآدابها التي حافظنا عليها منذ القدم، وما زال السواد الأعظم من الامة يتمشى على هذه الطريق ولا يحيد عنها. على ان التمدن الحديث جعل بعض شباننا وشاباتنا يأنفون من تلك العادات الساذجة، ويأخذون الحامل التي يجيء مخاضها الى أحد المستشفيات، ويولدونها هناك بواسطة أستاذ فني للولادة، أو تحت نظره بدون عناء تقريبا.

فمن من الفريقين أحق بالاتباع يا ترى؟

الختان

الختان سنّة عند المسلمين، وليس له وقت معين، فالطفل الذكر يحتفلون باختتانه في حفلة قد يجلبون اليها المغنين والمغنيات (كل لجنسه) فيقوم هؤلاء بالضجيج ساعة الختان كي لا تسمع أم الطفل صياحه وبكاءه من ألم العملية التي كان يجريها المزين او الطبيب. ويلبث المختتن سبعة أيام ملازما الفراش، وكثيرا ما يلتئم جرحه قبل انقضاء الأسبوع.

وفي غضون هذه الأيام تأتي الزائرات مهنئات ويقدم بعضهن وخصوصاً الاقربون من الرجال بعض الهدايا للمختتن وأمه، وتقام في هذه الأيام أيضا الولائم، ويدوم الأنس والطرب طيلة الاسبوع.

والآن أخذوا يستعملون «البنج الموضعي» للمختتن، ويغسلون جراحه بمضادات التعفن، فلا يشعر بشيء من ألم العملية ولا يسيل منه الدم، ويلتئم جرحه في يومين أو أقل من ذلك.

واليهود يختنون أطفالهم في الأسبوع الأول من ولادتهم، والنصارى لا ختان عندهم.

الكتّاب والمدرسة

متى بلغ الطفل السابعة من عمره يرسلونه الى الكتّاب (وهو المدرسة الابتدائية سابقاً)، فيأخذ يتعلم القراءة، ويتدرج على الخط والكتابة مبتدئا من القرآن الكريم تيمناً وتبركاً وتعليماً لتلك الآيات البيّنات التي ترسخ في الذهن من الصغر وتكون كالنقش في الحجر.

وعندما يختم الطفل قراءة القرآن يحتفلون بختمته، ويولون له الولائم، فيأتي من الكتّاب مرتديا ثياب الزينة وامامه المصحف الشريف فوق كرسي خاص يحمله طفل من رفاق الخاتم، ويلتف حوله باقي الأطفال ينشدون

النشائد المتضمنة الحث على التعلم والدعاء للطفل الخاتم وأهله بالنجاح. ولدى وصول هذا الموكب الى دار الخاتم تستقبله النسوة بالزغاريد، ويوزعن على المعلم والتلاميذ ما أعددنه لهم من الهدايا والحلوى أو الدراهم عقيب فتلة يفتلونها حول البحرة، ويقضي أهل الدار يومهم بسرور.

المواسم

اصطلح القوم على السير مع العادات في مواسم مختلفة من السنة واصطناع الحلوى الخاصة بكل موسم لوحده كما نذكره فيما يلي:

رأس السنة ـ في يوم الأول من شهر المحرم وهو رأس السنة الهجرية يوسّع الناس على أهلهم وذويهم بالمآكل والملابس، ويتبادلون التهاني بالعام الجديد دون ان يعطلوا أعمالهم.

عاشوراء ـ في يوم العاشر من شهر المحرم يطبخ الحبوب في معظم الدور، وهو مزيج من القمح والفول والحمص واللوبية الجافة تسلق حتى تنضج، ويضاف اليها السكر مع الحليب أو الدبس، وتجعل في أطباق يذرّ عليها مبثور الفستق واللوز والبندق وجوز الهند، وتؤكل في البيوت، وتهدى الى الأهل والأقارب سنة نبي الله نوح عليه السلام الذي طبخ لأصحابه حين خروجه من السفينة ما بقي لديه من الحبوب في إناء واحد.

وفي ذلك اليوم يقيم إخواننا الشيعيون المآتم بمناسبة ذكرى شهادة الامام الحسين عليه السلام، فيسيرون رجالاً ونساء الى قرية الراوية التي تدعى اليوم (قبر الست) شرقي دمشق، وعلى بعد نصف ساعة منها، حيث مرقد السيدة زينب بنت الامام زين العابدين رضي الله عنهما، وهناك يندبون آل البيت الكريم ويذرفون الدموع ويلطمون أضلاعهم حزناً وأسى، ويتلون في خلال ذلك بعض المراثي التي لا تخلو من المبالغة والتعرض لمن خالفهم في مذهبهم. نحن من الذين يحترمون العقائد ولا يجادلون أحداً في مذهبه، فقد قال الله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) وإنما نرجو إخواننا أن يسمحوا لنا بايراد ملاحظة لم نر بدأ من إبدائها بأمل جمع الشمل بين أبناء الدين الواحد، وسد باب التفرقة التي تحدثها وتوسعها هذه الاجتماعات والمهاجاة وتجددها في كل عام:

إن شهادة الحسين عليه السلام نكبة عظيمة أصيب بها الاسلام، وما من مسلم يؤمن بالله ورسوله الا وقلبه يتفطّر من ذكرى هذه الحادثة المؤلمة. على أنه مضى على هذه الحادثة ثلاثة عشر قرنا حدثت في خلالها حوادث متعددة تماثلها في الأهمية، وقتل (ويا للاسف الحميم) من آل البيت الكريم أيام العباسيين واخلافهم ما لا يحصى عداً، وتلك الحرب الضروس لم تكن الا حربا سياسية منشؤها الاجتهاد المجرد، لتسلط فريق على الآخر، فما الفائدة من تجديد ذكراها في كل عام.

لقد كرت السنون والأعوام، واصبحنا في حاجة شديدة الى الاتحاد والتعاضد تجاه تيار الاغيار، أفلا يمكن الاكتفاء بتلاوة آي الذكر الحكيم واهدائه الى تلك الأرواح الطاهرة دونما ضجيج ولا مهاجاة، مما يوسع شقة الاختلافات.

والله الهادي الى سبيل الرشاد.

المولد ـ في الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع الأول التي أشرق فيها الوجود بمولد النبي العربي الكريم (صلى الله عليه وسلم) تقرأ قصة المولد الشريف في الجوامع وفي بعض الدور، وعند ختامها توزع الحلوى على الحاضرين.

وهي بدعة حسنة ابتدعها السلطان محمد خوارزم شاه عام ٦٠٤، وجعلها للتبرك والتوسل الى المولى سبحانه بقضاء الحاجات، ومن خوارزم انتشرت في جميع البلاد الاسلامية، فاعتادها الناس وراحوا يكررونها في كل عام.

واذا انتابت المرء نائبة، أو أصيب بمرض عضال ينذرون له النذور، وأهمها قراءة المولد، فاذا ما تم قصدهم يحتفلون بتلاوته في محضر عام يولمون فيه الولائم ويعلنون سرورهم.

ليلة الرغائب ـ في ليلة أول جمعة من شهر رجب الحرام، وهي ليلة الرغائب التي حملت فيها السيدة آمنة بنت وهب بن عبد الله بن عبد المطلب بالنبي العربي العظيم عليه أفضل الصلوة واتم التسليم، يخضب النساء أيديهن وأرجلهن، ويخضبن أولادهن أيضا (عادة قديمة ما زلن يتبعنها الى الآن)[٣٦].

المعراج ـ في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب الحرام، التي أسرى فيها النبي عليه السلام من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، تتلى في الجوامع وفي بعض الدور قصة المعراج الشريف فيستمعها الناس خاشعين.

وفي النهار يصنعون «العقيدة»، وهو من السكر أو الدبس المغلي والملون بالوان مختلفة على شكل أساور، ولا تبقى دار الا ويدخله العقيد في تلك الليلة التي يدعونها ليلة الله.

ليلة التجلي ـ في ليلة النصف من شهر شعبان، التي هي ليلة التجلي الأعظم، اعتاد القوم على تلاوة دعاء خاص لهذه الليلة.

وفي النهار يصنعون الغريبة، وهي أقراص من الحلوى المصنوعة من السميد والسمن والسكر والمحشوة قشطة أو بدون حشوة.

رمضان ـ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن فرض الله صيامه على كل مسلم ومسلمة، وقد اعتاد المنعمون ان يوسعوا في مآكلهم ويطعمون منها الفقراء صدقة وتقوى، ويعطون المسحر عشاءه، حيث يطوف كل ليلة على الدور والحارات ويضرب بطبلته ليستفيق الناس الى السحور.

وفي آخر يوم من أيام شهر رمضان الى صباح يوم العيد توزع صدقة الفطر على الفقراء والمساكين لتكون عوناً لهم على نفقة العيد.

الأعياد ـ للمسلمين عيدان: عيد الفطر، وعيد النحر. فعيد الفطر يكون عقيب انقضاء شهر الصوم، في اليوم الأول من شهر شوال، ويدوم ثلاثة أيام. وعيد النحر يبدأ من اليوم العاشر من شهر ذي الحجة الحرام الذي يلي وقفة الحجاج في عرفات وهو أربعة أيام.

وفي كلا العيدين اعتاد أهل الشام على صنع المعمول (من السميد والسمن والسكر وحشوه فستقا او لوزا مقشورا) ولا بد منه في كل دار تقريباً لما يبعثه من سرور في نفوس الأطفال. وفي عيد النحر تقدم القرابين الى الله سبحانه، وتوزع لحومها على الفقراء والمساكين، وهي واجبة على كل من ملك النصاب من المسلمين والمسلمات، اقتداء بأبي الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام.

ثم انه في هذه الأيام ساقنا اختلاطنا بالافرنج الى اقتباس بعض عاداتهم[٢٧]، وأصبح شباننا ورجال حكومتنا يعطلون أعمالهم في رأس السنة الميلادية، وفي الرابع عشر من شهر تموز وهو عيد الجمهورية الافرنسية، وفي العاشر من شهر أيار وهو يوم القديسة جان دارك الافرنسية، التي أحرقها الانكليز بالنار، ثم في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني، وهو يوم انتهاء الحرب العالمية وامضاء الهدنة بين المتحاربين كلهم[٢٨]. عدا أعياد الافرنج هذه فقد اخترعوا لانفسهم يومين آخرين: الأول في الثامن من شهر آذار، وهو يوم اعلان استقلال سورية أيام الأمير فيصل، والثاني في السادس من شهر أيار، وهو يوم الشبان الذين قضى عليهم جمال باشا شنقاً كما سنذكره في بابه انشاء الله.

الزكاة

فرض الله الزكاة على كل من يملك النصاب من المسلمين والمسلمات. والنصاب قدروه بمائتي درهم من الفضة، أو عشرين ديناراً من الذهب، يؤدي مالكها ٢،٥٪، أو واحد من أربعين من أصل مجموعها صدقة عنها، فيجتمع من ذلك مبلغ لا يستهان به يدرّ على الفقراء والمعوزين الخير والبركة طيلة العام، ويقيهم ذل السؤال وازعاج الناس.

أعياد المسيحيين

أعياد المسيحيين قسمان: قسم قديم، وقسم اتخذوه في أزمان مختلفة لقديسين متعددين. وهنا نذكر الاعياد القديمة وهي:

عيد ختان السيد المسيح عليه السلام في واحد كانون الثاني. عيد الغطاس في ستة كانون الثاني. دخول المسيح الى الهيكل في واحد شباط. الصوم الكبير يبتدىء من يوم الاثنين الذي يأتي بعد السادس والعشرين من اي شهر عربي يحل فيه شهر شباط[٢٩] وهو اربعون يوماً.

عيد بشارة العذراء ٢٥ آذار. أحد الشعانين قبل عيد الفصح باسبوع. عيد الفصح في اول احد يلي البدر عند انتهاء الصوم. عيد الصعود بعد الفصح باربعين يوماً. عيد العنصرة بعد الصعود بعشرة أيام. عيد الثالوث بعد العنصرة بسبعة أيام. خميس الجسد في الخميس الذي يلي الثالوث. عبد التجلي في ٦ آب. عيد انتقال العذراء في ٢٥ آب. عيد مولد العذراء في واحد أيلول. عيد الصليب في ١٤ أيلول. عيد تقدمة العذراء الى الهيكل في ٢١ تشرين الثاني. عيد ميلاد السيد المسيح في ٢٥ كانون الاول.

أعياد الموسويين

أعياد اليهود المشهورة هي عيد رأس السنة العبرية الشرى (تشرين الأول). عيد الغفران ٢٠ تشرين الأول. عيد المظلة ٢٥ تشرين الاول. عيد الطور ١٥ آذار. عيد الفطير أو الفصح ١٥ نيسان. عيد العنصرة ٦ سيوان (حزيران). عيد انجاب الأسود في ٦ آب.

الحياة

قال نبينا عليه السلام: عش ما شئت فانك ميت، واصحب من شئت فانك مفارقه، واعمل ما شئت فانك ملاقيه.

فالموت لا بد منه لكل حي، أي أن الحياة مصيرها الى الفناء حتما، وبين هذا وذاك ترى الانسان غائصاً في عجلة الغفلة، تائهاً في فيافي هذه الرحلة يفعل ما يدري به أو لا يدري، وبينما هو يحاول ان يزحزح الجبال بقوته، لا يستطيع مقاومة بعوضة تدمي مقلته.

حكي عن الخليفة الواثق بالله العباسي انه ليلة وفاته وضعوه في حجرة وأقاموا عليها الحراس وعند الصباح فتحوا الباب فرأوا ان الجرذ قد سطا عليه وأكل عينه، فصاح حاجبه قائلا (يا الله. إن هذه العين كانت بالأمس تسعد او تشقي بنظرة واحدة، فأصبحت بين عشية وضحاها لا تقاوم جرذاً فيأكلها ويبيدها.)

ولذلك فان كان المعري اخطأ باعتباره الأولاد جناية، فالحقيقة ان الحياة كلها في بؤسها ونعيمها، وغمها وسرورها، وهم وخيال لا يلبث أن ينجلي عن نتيجة واحدة هي الفناء. والعاقل من يسعى جهده لعمل الخير دون ان ينتظر من أحد جزاء ولا شكورا وكفى بربك عليك حسيبا. ورحم الله القائل:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكيا	والناس حولك يضحكون سرورا
فاجهد لنفسك ان تكون إذا بكوا	فـي يــوم حتفك ضـاحكـا مسرورا

المآتم

ذكرنا فيما تقدم ما اعتاده الناس من الاحتفاء بالولادة والخطبة والعقد والزفاف وغير ذلك مما يعدونه من لوازم الحياة ودواعي السرور، وها نحن نشفعها بوصف المآتم وايصال الميت الى مضجعه الأخير حيث يلقى وجه ربه الرحيم.

للمآتم عادات غريبة متسلسلة من أيام الجاهلية لم يمحها كرّ الأيام. فانه منذ الوفاة تصيح النسوة بالبكاء والعويل مرددات لفظة (ولي) اشارة الى ما انتابهن من الويل والنكبة بفراق عزيزهن، ثم تفد عليهن النساء من

الأهل والأقارب باكيات نادبات أيضا، وفي خلال الغسل يصمتن قليلاً، ثم يعدن الكرة عند خروج الجنازة من الدار، ثم يرتدين السواد ويدخلن في دور الحداد[٣٠] ونساء الاكراد يتوسعن في المناحة ويرششن صحن الدار بدقيق الفحم ويطلين وجوههن ووجوه خادماتهن به ثم يتقلدن السيوف ويهززنها ذاكرات أوصاف الفقيد ونادبات له (مما يعددنه واجباً تجاه كرامة الراحل).

وقد حث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) على ارسال الطعام الى دار الميت يوم الوفاة لان أهله يكونوا في شغل شاغل عن تدارك الطعام لأنفسهم، فتأتيهم الموائد من لدن الاهل والاقارب ثلاثة أيام متوالية، وكل من يروم إرسال مائدة يخبر بها ذوي الميت قبل يوم لئلا يكون غيره سبقه وأخذ منهم وعداً بقبول مائدته قبله.

ومنذ الوفاة يجلب الحفّاظ الى الدار، فيأخذون بتلاوة آي القرآن الكريم فوق رأس الميت الى أن يسار به الى المقبرة، حيث يقوم هناك أيضا حفّاظ آخرون ثلاثة أيام بلياليها، ويأتي غيرهم الى الدار ويختمون كل يوم من أيام المأتم الثلاثة ختمة بدورهم ويهبون ثوابها الى روح الميت ويسألون الله له عفواً ومغفرة. وفي كل ليلة من ليالي الأيام الثلاثة التي تبدأ من يوم الوفاة يوزع الطعام على الفقراء والمساكين الذين يأتون الى باب الدار بهذا القصد. وفي أول خميس يلي يوم الموت إما أن تكون الختمة في الدار كالتي سبقتها وإما أن تكون تهليلة على النمط الذي نشرحه فيما يلي.

الجنازة

عندما تفيض روح الميت تعلن الوفاة بين الناس، وأكثرها يشار اليه من المآذن ويخبر بها الأهل والأصدقاء شفاها او تحريراً.

ثم يشرع بالغسل والتجهيز الشرعيين، وبعد التكفين يوضع الميت في نعش خشبي، وتسبل عليه قطعة من الشال، واذا كان ذكراً توضع عمامته أو طربوشه عند محل الراس، واذا كان من ذوي الأنساب أو من رجال العلم ومشايخ الطرق يوضع طيلسان أخضر على رأس النعش محل العمامة أو الطربوش. وان كانت امرأة توضع ستائر منمقة مكان الرأس، وربما أضيف اليها شيء من الزهور. ويكون لفيف من الرجال الاقربين والمحبين قد تجمعوا في دار مجاورة لمواساة أهل الميت، فلما تخرج الجنازة من الدار محمولة على رؤوس الحاملين يتبعونها ويحف بها رجال الطرق وهم يذكرون الحي الباقي ويضرعون إليه سبحانه بالرحمة والمغفرة. ويسير المؤذنون أمام النعش يتناوبون الآذان والاذكار بانغام محزنة، وهكذا تصل الجنازة الى المصلى أو إلى المسجد المقصود، فتقام عليها الصلاة الشرعية، ثم يسار بها الى المقبرة التي تكون أعدت من قبل، فيوارون الميت ترابه، وعند الدفن يقيم المؤذنون الآذان طرداً للشياطين عن القبر (على قول الشمسي الميداني)[٣١]، ثم يلقنه الشهادتين أحد العلماء الحاضرين، وبعد التلقين يقف ذوو الميت على مقربة من القبر ويتقبلون التعازي من الجمهور الذي رافق الجنازة وشيعها الى المقبرة، وفي غضون ذلك يصيح احد المؤذنين مخبراً بأن الصباحية تكون في الجامع الفلاني.

الصباحية

الصباحية عبارة عن اجتماع القوم، وجلهم من أهل الميت وذوي قرباه في أحد المساجد القريبة من داره عقيب صلاة الصبح، حيث يوزع علهم خَدَمة الجامع أجزاء القرآن الكريم، فيتلو كلّ منهم ما تيسر له منها، ويتلو أيضا الحفظة الحسنو الأصوات الذين يستحضرون من قبل ختمة على حدة، ويهدون جميعاً ثواب ما قراوه الى روح الميت. ثم يقوم ابنه أو أحد الأقربين منه، ويقف قريباً من باب المسجد ويتقبل التعزية من الحاضرين الذين يأخذون بعدها بالانصراف. تدوم الصباحية ثلاثة أيام متوالية، أولها صباح اليوم الذي يلي يوم خروج الجنازة، وكانت تقام صباحاً حسب تسميتها. وفي شهر رمضان فقط تجعل ليلاً عقب صلاة التراويح لتعذّر القيام باكراً في حالة الصوم، ثم اهملت في الصباح بتاتاً، وامست لا تقام الا في المساء في جميع الأشهر، وما زال اسمها الصباحية.

وعدا صباحية الجامع تقام صباحية ثانية لنفس الميت فوق قبره، وتحت الخيمة التي تنصب لأجلها، حيث يقوم الحفاظ ثلاثة أيام بلياليها فوق القبر كما قدّمنا، ويذهب اليها ذوو الميت عقب انقضاء صباحية الجامع، ويتبعهم من شاء من الوافدين.

العصرية

العصرية للنساء دون الرجال، فانه منذ اليوم الذي يلي خروج الجنازة يتجمع لفيف من النساء من أهل الميت، ويجلسن في ناحية من غرفة متسعة من الدار، وتجلس معهن نسيباتهن، وكلهن صامتات ساكنات، لا ينبسن ببنت شفة، فتفد عليهن وفود النسوة معزّيات، ولكن سكوتاً ايضا، فتجلس الوافدات بضع دقائق ريثما تقرأن الفاتحة همساً، ثم ينصرفن بدون سلام ولا كلام. وعلى باب الغرفة التي تقام فيها العصرية تقف بعض الشابات من قريبات الميت وتدعين من يلزم من الوافدات الى طعام الغداء.

تدوم العصرية على هذا النمط ثلاثة أيام متتالية، ثم تعاد في أول خميس يأتي بعد هذه الأيام.

وكانت العصرية فيما مضى تقام وقت العصر حسب تسميتها، ثم جُعلت بين الصلاتين ثم هبطت الى قبل الظهر، وهي اليوم لا تتجاوز اذانه (اذان الظهر).

التهليلة

في الليلة الثالثة من يوم الوفاة، وفي ليلة أول خميس يأتي بعدها، ثم في الليلة الأربعين من يوم خروج الجنازة، وفي الليلة التي تقابل ليلة الوفاة في آخر العام، تقام من قبل البعض تهليلة في دار الميت أو في دار أحد مشايخ الطرق، يتلى فيها آي القرآن الكريم، وأحزاب واوراد الطريقة المنسوب اليها الميت أو الشيخ، ثم تقام حلقة الذكر والتهليل تنشد في غضونها الاناشيد المأثورة وتقدم الأدعية الخالصة.

وفي التهليلة يطبخون القوامة يطعمونها للحاضرين والوافدين، ويوزعون منها على الفقراء والمساكين الذين يهرعون خصيصاً الى دار التهليلة لأجلها، ثم يرسلون منها أطباقاً الى دور الأهل والأقارب.

وعدا هذه التهليلة وما سبقها من ختمات واجتماعات، تقام في كل من ليالي المواسم الدينية التي سبق ذكرها ختمة خاصة لروح الميت في الدار وتحت خيمة تنصب فوق القبر. وقد يثابر البعض على قراءة الختمات في أربعين ليلة تلي ليلة الوفاة، ثم في ليالي شهر رمضان وفي أول عشر من ذي الحجة والمحرم أيضا، وتوزع عقبها الأطعمة والصدقات على الفقراء. والبعض يقتصر هذه الختمات بعشر من القرآن الكريم يتلوه في الليالي المذكورة شيخ يعين لهذه الغاية.

والقصد من كل ذلك العثور على نفس طاهر يضرع الى الله سبحانه وتعالى بنية خالصة وخشوع تام، ويطلب العفو والمغفرة والرحمة للراحل فقد قال جلّ وعلا (ادعوني استجب لكم وأنا الغفور الرحيم).

القبور

جاء في الحديث الشريف ان خير القبور الدوارس، على أن تطور الأخلاق مع الأيام جعل المسلمين يقتبسون بعض عادات من جاورهم من الأمم، ويسعون جهدهم لتزيين القبور إظهاراً لكرامة الراحل، فيشيّدون على القبور صروحاً من المرمر وغيره من الأحجار القيمة، ويضعون عليها في أيام المواسم باقات الزهور والرياحين، ويزرعون في مطعمة القبر (وهي حفرة صغيرة تجعل عند محل الرأس) نباتاً أخضر يطول أمده دون ان يجف، والأغلب أنه يكون من النوع المدعو (مكنسة) لأجل امتصاص الغازات التي لا بد من انبعاثها عن القبر مدة من الزمن.

وقد تكلفهم هذه الأعمال، وما يتبعها من نصب الخيام وخدمة الحفار للمحافظة على القبر واوائله، مبالغ طائلة

لو بذلت الى المحتاجين والمعوزين لقامت بأود الكثير منهم ولكانت أجزل قبولا وأعظم ثواباً.

خميس الأموات

خميس الأموات هو خميس الأسرار عند المسيحيين، يكون قبل عيد الفصح الشرقي بثلاثة أيام تنصب فيه الخيام في مقابر المسلمين، ويؤتى اليها بالحفظة الذين يتلون آي القرآن الكريم ويهدون ثوابه الى أرواح الموتى.

والحكمة في جعل هذا اليوم من مواسم المسلمين هي انه لما استرد المرحوم السلطان صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس من الصليبيين، وأجلاهم عنه، وكانوا قبلاً حين استيلائهم عليه قد فتكوا بسكانه المسلمين ومن نجا منهم من القتل شردوه تحت كل كوكب، ولم يبقوا إلا على البعض من نصارى البلاد القلائل الذين شملهم السلطان بعطفه، وأبقى لهم كنائسهم وأديرتهم اقتداء بالخليفة الفاروق (رضي الله عنه) وكادت بلاد القدس (فلسطين) تخلو من السكان فاستقدم رحمه الله المسلمين من مختلف الأقطار وأقطعهم الأرض التي كادت تكون خالية خاوية كي يعمّروها ويسكنوها، وفي خلال ذلك اخذت قوافل الزوار من المسيحيين تفد على بيت المقدس من مختلف الجهات، وخصوصاً من بلاد الغرب والشمال بقصد الحج والزيارة، وكان السلطان تعهد بالمحافظة على هؤلاء الزوار وأموالهم لقاء تعهد ملوكهم بأن يجعلوهم لا يحملون سلاحاً، ويلتزمون السكون في حلهم وترحالهم.

وبالرغم عن ذلك خشي رحمه الله من أن يتجمع هؤلاء الأغراب، وتحدثهم أنفسهم بالوثوب على المسلمين على حين غرة ومحاولة استرداد القدس مرة أخرى فرأى من الحذر ان يتخذ بعض الاحتياطات لمنع أي طارىء يمكن حدوثه فجأة واستنّ سنّة حسنة ما زالت مرعية في جميع الأنحاء الشامية الى يومنا هذا، وهي أن جعل لكل طريقة من الطرق الصوفية[٣٢] يوماً مخصوصاً يصادف احد أيام الأسبوع الذي ياتي قبل عيد الفصح عند المسيحيين، فيجتمع فيه المسلمون المنتسبون الى تلك الطرق، ويسيرون مع مشايخهم وتوابعهم بسياراتهم واعلامهم الى مكان معين من تلك البقعة المقدسة كزاوية أو رباط أو مقام زيارة، ويقيمون هناك أورادهم وأفكارهم مؤلفين مع العوام الذين يلتحقون بهم كتلة اسلامية لا يستهان بها تقابل عند الايجاب المجموعة المسيحية ولا تدعهم يحلمون بشيء مريب، ومن هذه الأيام خميس الأسرار الذي تقام فيه هذه الحفلات في كل بلدة من بلاد سورية وفي بعض قراها، وقد دعوه خميس الأموات وجعلوه لزيارة الموتى عامة والتصدق عن أرواحهم.

الحداد

النساء اللواتي يفقدن عزيزهن يرتدين ثياب الحزن السوداء العام بطوله، ويمتنعن في خلاله عن الاشتراك بالأفراح والملاهي، وحتى عن دخول الحمام أيضاً، والبعض منهن يغالي ويمتنع عن أكل الطعام الذي كان الفقيد يميل إليه ويستلذه، إلى غير ذلك من العادات المتبعة.

وعند انصرام العام يقترح عليهن الأهل والأقارب ترك الحداد وخلع السواد، وقد يعددن لذلك وليمة تكون غالباً في إحدى الحدائق فيجعلونها مبدءاً لفك الحزن والدخول في دور السلوى.

الولائم

الولائم في الأفراح والمآتم وفي غيرها من الأوقات والمواسم تكون بتقديم الطعام الى الضيوف عقب جلسة قد تستجمع أسباب اللهو والطرب، أو تكون عقيب قضاء بعض الواجبات الدينية أو المدنية.

كان الأوائل (كأهل القرى في زماننا) يأكلون طعامهم جلوساً على الثرى حيث يجعلون خوانهم[٣٣] في الخلاء ويأتون إليه بالحاق[٣٤] ويضعونها الى جانب بعضهم فيلتفّ حولها الناس ويلتهمون طعامهم بايديهم بدون واسطة مغرفة أو ملعقة. أما أهل الحضر من الأواخر فانهم اعتادوا مد الموائد على السماط[٣٥] وجعلها مثناة،

الواحدة للمآكل الملحة والثانية للحلوى فتقام المائدة وهي مستديرة الشكل على «اسكملة» ذات قوائم أربع، ويوضع عليها الصدر النحاس، وتصفّ من حولها الكراسي والبشاكير لأثني عشر شخصاً فقط، إذا زاد عدد المدعوين تقام مائدة ثانية وثالثة وهلم جرا، ثم يؤتى بالطعام بصحائف (أطباق أو صحون) من الخزف الصيني أو المالقي[٢٦] والبعض يستعمل الأواني النحاسية، والقرويون يتناولون طعامهم بالفخار[٢٧] وتُصفّ الصحون مزدوجة حول المائدة، ويجعل في كل صحيفتين متقابلتين نوع واحد من الطعام خلا الصحيفة التي توضع في الوسط فهي منفردة وتكون غالباً للأرز أو الثريد أو الخروف المحشي، وتوضع صحون المقبلات (السلطة) حول الصحن الأوسط، والملاعق تصفّ بين الصحون، أما الشوكات (الفرتيكات) والسكاكين فلم يكن لنا معرفة بها ولا اعتياد عليها، والماء يقدمه الخدام عند الطلب، والقهوة يؤتى بها بعد الطعام الى غرفة الجلوس.

هذه هي الموائد الشرقية التي درجنا عليها والفناها، وقد حولوها مدة الى الطراز التركي، وهي لا يفرق تقريبا عن الشكل العربي الا بتقديم الأطعمة واحداً بعد واحد، فيضعون الطبق الأول في وسط المائدة المستديرة، وبعد أن يتناول الحاضرون منه ما شاءوا يرفعونه ويأتون بالطبق الثاني ثم الثالث الى النهاية.

الطعام

بمناسبة الولائم رأينا أن نأتي على ذكر المآكل الشامية التي يندر طبخها في غير الشام، وهي:

الكبة - بالصينية، وبالسيخ، ومشوية، ومقلية، وحميص، واورفليّة، ولبنية، ومشمشية، وقمحية، وكشكية، وفاختية، ومخلوطة.

اللحوم - بالخل، وبالرمان، وبالحصرم، وبالليمون، ومعسلة، وشاكرية، وداود باشا، ومدللة.

الخضار - ملوخية، عكوب، كماة مكدوس، شيخ المحشي، مكمور ويكيه، خبيزة بالزيت، منزلة بندورة، منزلة اسود مع المحشي.

المحاشي - بسماشكات، قبوات، مقانق، كوسا باللبن، وبالحامض.

الثريد - فتة باللحم، والخل، وبالمكدوس، وبالمكمور، وتسقية بالحمص.

المفلفلات - أرز بالفول، شلباطو مقلوبة، يهودي مسافر، برغل بفول، برغل بحمص، ابو شلهوب، مجدّرة، مغربية، رز دمين، رز بتطبيقة.

المقبلات - مسبحة فول، وحمص مكدوس بزيت بالباذنجان أو بالليمون، زيتون أخضر، وأنواع المخللات.

الحلويات - نمورة، نهش عصافيري، مطبقات، بصمة، كل واشكر، معمول، غريبة، مكفن، زنكل، سنبوسك، كرابيج، برازق، جرادق، عش البلبل[٣٨]، تويتات، خبيصة.

الحليب - كشك الفقراء، **هيطلية**، محلاية، مرقد، مبطنة حبوب.

هذه هي اشكال الأطعمة الشامية التي الفناها ثم أخذنا مع الأسف نهملها شيئاً فشيئاً، ونستعيض عنها بالأطعمة الافرنجية مما لم نحسن لفظ اسمائها بعد، وغدا كل شيء عندنا افرنجياً ونسينا أننا شرقيون ومهما قلدنا الغربيين واختلطنا بهم وسبّحنا بحمدهم وقدسناهم، لا يفتأون ينظرون الينا بازورار، ويعدوننا احط منهم، ولا يقيمون لنا وزناً (ربنا هيء لنا من أمرنا رشداً).



هوامش الفصل الرابع

(١) «الموضة» كلمة افرنجية معنا الزيّ او العادة، وهي في عرف الافرنج لا بد لها من التبديل والتجديد من حين لآخر.
(٢) وتعادل استيفاء رسوم كمركية ودخولية على ما يصدر منها واليها.
(٣) القنباز: الثوب الطويل.
(٤) الدامر: رداء قصير ذي أكمام، يقرب من الجاكيت في زماننا ولكنه بدون قبة مقلوبة ولا جيوب. وهو اصغر من القرملية التي تخاط على شكله وتجعل واسعة ذات جيوب من داخلها فقط.
(٥) العباءة: نسيج وطني يصنع من الحرير أو الصوف او القطن ويخيط على طوله بدون قص الأكمام، ويجعل مفتوحاً. وفي كلا طرفيه فتحة صغيرة تقوم مقام الأكمام. وما زال اهل البادية يستعملونها عامة، كما يستعملها بعض الحضريين ايضاً.
(٦) المضربية: رداء شتوي توضع بين دفتيه (وجهه وبطانته) طبقة من القطن وتخاط معها فتصبح كافية لردّ البرد. أما المضربية الشامية التي تلبس على الأكثر في موسم الصيف فهي تخاط خياطة موزونة، وتجعل فواصلها فارغة، ثم تحشى بغزل القطن.
(٧) الجُبة: المعطف الطويل الذي أصبح خاصاً برجال الدين فقط.
(٨) الفروة: رداء شتوي يجعل وجهه من احد انواع النسيج وباطنه من الجلود المختلفة الأصناف والاصقاع. فتكون إما جلود الغنم البسيطة او تتألف من قطع صغيرة منتخبة من جلود الحيوانات غير الأليفة التي تعيش في المناطق الشمالية الشديدة البرودة كالسمّور والأطا، وأمثالها، اذ يصطادها الصيادون ويجعلونها أصنافاً ويتاجرون بها.
(٩) الشال: نسيج من خيوط الصوف او الحرير كانت بلاد فارس (ايران) قد اختصت بصنعه، وهو ينقش نقشاً دقيقاً كما يندر تقليده، ثم تعمم صنعه في سائر البلاد، الشرقية والغربية ايضا.
(١٠) الكمر: حزام من غزل القطن أو الصوف أو الحرير يجعل في وسطه جيب لوضع الدراهم.
(١١) الاغاباني: نسيج من حرير ابيض يزدان بنقوش من حرير أصفر وتجعل منه العمائم وقد يستعمل للثياب ايضاً.
(١٢) البوشيّات: مخففة من كلمة (بوشيده) الفارسية، وهي الستارة تنسج من الحرير والقصب وتجعل لها سجق من جنبها، وفي الزمن السابق امتاز مواطنونا باستعمالها في عمائمهم.
(١٣) اللاطة والجدرية هما من نوع الجبة، ومن شكلها تقريباً.
(١٤) لقد شاهد المؤلف ذلك بنفسه، فانه ادرك المرحومة والدته تلبس ثوباً حريرياً تدعوه قنبازاً استانبولياً وهو طويل الذيل، تزيد اذياله على طول القامة بنحو نصف ذراع فترفع هذه الزيادة الى خصرها وتربطها بزنار حريري تكة طرابلسية وتستعمل هذا الثوب في اكثر ايامها، وقد سألها مرة عن الوقت الذي خاطته فيه فقالت: هذا قنباز عرس. وكان المؤلف في ذلك الوقت في السابعة من عمره على الأقل.
(١٥) البرنجك: (بضم الباء والراء وسكون النون وضم الجيم) مخفف كلمة «اورومجك» اي العنكبوت باللغة التركية. وهي نسيج حريري دعي بذلك لأنه اوهى من بيت العنكبوت، اما الكاز فهو نسيج من نوعه ولكنه غير حريري.
(١٦) «الطيبي» و«العطري» و«المسكي» و«الوردي» وكثير غيرها كنى اسر قديمة في الشام كانت مهنتها صنع العطور التي تبنتها وعرفت بها، ولما قضى الزمن على صناعاتنا حولت انظارها نحو سائر موارد العيش، وبقيت تعرف بكناها القديمة الى الآن.
(١٧) كنت (المؤلف) عام ١٣٢٩ هـ. (وتقابل ١٩١١م ـ ن.ص.) عائداً من باريس الى الأستانة على قطار السكة الحديدية، وقد رافقني من باريز السيد بشير الفرتي صاحب جريدة (التقدم) التونسية، ولما بلغنا مدينة (برن) عاصمة سويسرة رأيت في محطتها منظراً اغرورقت عيناي منه بالدموع، وهو شاب وفتاة متخاصرين يتنزها على طول المحطة، والذي استغربته منهما كون الفتاة مرتدية معطفاً طويلاً أسدلته على وجه القدم، وفي يديها القفاز، وعلى راسها قناع ابيض مكوي يستر شعرها بتمامه، وعلى وجهها ايضا برقع مثقوب من محل العينين وقد أسدلته الى تحت العنق، وهي تمشي مع صاحبها مرحة ولا يرى من جسمها ولا من ثيابها قيد انملة. ولما سألني رفيقي عن سبب بكائي اريته ذلك المنظر وقلت له: تأمل هذه الفتن وتمعّن في ملابسها، وغداً حين تبلغ ديار الاسلام قسها بنسائنا المخدرات، ثم افصح لي عن رايك، وعندئذ ستعلم ما الذي اشجاني.
(١٨) كافور الاخشيدي في مصر، ولؤلؤ الخادم في حلب، وابو صالح مولى الأيوبيين في زبيد (اليمن) وغيرهم من العبيد الزنوج الذين ارتقوا ارائك الملك ورتعوا في بحبوحتها أمداً مديداً.
(١٩) عرق السوس جذور ذات طعم سكّري تستخرج من بين الرمال في البادية لها خاصية تلطيف الحرارة ايام القيظ، وتسكين السعال وقت الشتاء، وتسهيل الادرار في كل وقت، وقد يسحقونها ويمزجونها بالعقاقير الطبية المرّة اصلاحاً لطعمها فحازت بذلك مركزاً في عالم التجارة، واخذت تشحن بالقناطير الى اوروبا واميركا، وفي فصل الصيف بالشام يصبون على مسحوقها الماء صبّاً متوالياً حتى اذا ما غلب طعم عرق السوس عليه يمزجونه بقليل من الثلج، فيغدو شراباً لذيذاً يستعمله الموسر والمعسر على السواء، وقد يستخرجون عسل عرق السوس ويسمونه (رب السوس) ويجعلونه اقراصاً، وهذه الأقراص اما ان

يحلونهـا بالماء مع الثلج ويشربونها لتسكين الحرارة في موسم الصيف. واما يستعملونها شرباً بدون ثلج او مضغا اتقاء النزلات الصدرية في كل موسم.

(٢٠) زالت هذه المقاهي كلها واستحالت الى طرق وحوانيت ومخازن وغير ذلك.

(٢١) كان الأوائل يجعلون قوالب الفرش واللحف والطواطي من الخام البلدي الذي ينسج في الصالحية والمزّة وغيرهما من القرى. ووجوه اللحف ايضاً كانت تجعل من النسيج ذاته وتنقش او تطبع في مطابع بلدية على قوالب خشبية تحفر على اشكال مختلفة.

(٢٢) كنت (المؤلف) في مدينة العمارة بالعراق، فرايت في سوقها مرايا كبيرة مما نسميه البدن في الشام وهي تعلو عن قامة الانسان مهما كان طويلاً، وسررا من خشب الأبنوس الهندي المحفور حفراً ناتئاً دقيقاً. واخبرني صاحبها انه يستحضرها من الهند خصيصاً لأجل زوجات شيوخ القبائل الذين ما زالوا يقيمون تحت مضارب الشعر او في الرصائف (العرائش جمع عريش) ويبيح لهم مجتهدوهم (وكلهم من الشيعة) التزوج بقدر الاستطاعة مهما بلغ عدد الزوجات. وقد وجد بينهم من عقد ودخل على مائة امراة وجمعهن كزوجات في حظيرة واحدة. وفي ذلك الحين كان الشيخ (غضبان البنية) شيخ قبيلة بني لام في ابان شبابه وله اربعون امراة وكلهن زوجاته وتحت عصمته. وهو ما زال حيّا يرزق الى يومنا هذا، وكلما تزوج بامراة يجعل صداقها مرآة وسريراً أسوة بزميلاتها المتزوجات قبلها. وقد سالت محدثي عن محل وضع واستعمال هذه المرايا تحت مضارب الشعر وهي لا تساعد على انتصابها قائمة فقال ان القصد شراؤها واقتناؤها ليس غير سواء استعملت أو لم تستعمل كي لا تكون العروس الجديدة اقل مكانة ممن سبقتها.

اما في الشام فاننا طالما راينا بعض الجهازات توضع في غرفة صغيرة لا تستوعبها مصفوفة، فتجعل فوق بعضها بحيث لا يتمكن أحد من الدنو منها واستعمالها. ثم ان ما يسمونه الطناطيق وهي تستنزف قدراً غير يسير من المال توضع في ذات الغرفة ولا احد يمسها واذا بقيت سالمة من العطب حينا من الزمن يكمد لونها من العام الأول وتنقضي (موضتها)، وتنقلب الفخفخة المقصودة منها الى قهقهة تمس بكرامة صاحبها. وهي في الأصل من الزوائد التي لا تستعمل ولا تتناسب مع حالة الزوجين الاجتماعية والاقتصادية ولم يكن شراؤها الا بحكم التقليد الأعمى ليس الا.

وهكذا فان الجهازات في بلاد الشرق كلها يقصد منها على الأكثر المباراة والتقليد لا الاستعمال والاستفادة، وقد وجد من يستدين ويتحمل الربا الفاحش ثم يضطر لبيع املاكه وتضحية راس ماله في سبيل الجهاز. وهذا من المصائب التي نسأل الله ان يلهمنا الرشد لتخفيف وطاتها.

(٢٣) لعبة حربية تعلم اللاعبين الذبّ عن انفسهم.

(٢٤) لعبة العصيّ هي ان يأخذ اللاعبون عصا غليظة طول كل منها زهاء مترين فينقلونها على أصابعهم ثم يتبارزون في وقت واحد مع رجل او رجلين من اللاعبين الذين يثبون على بعضهم فيدافع المعرض للهجوم عن نفسه دفاعاً مجيداً.

ان لعبة السيف والعصي يتبعها امتطاء الخيول ورمي السهام (الجريد) من الالعاب القديمة التي تتسلل الى الزمن الذي كانت فيه السيوف والنبال والعصي هي المعول عليها في الحروب فيتمرن عليها الشبان منذ نعومة اظفارهم وقد لبثت هذه العادة أمدا طويلا حيث كانت الى زمن غير بعيد توجد في مدينة دمشق أماكن خاصة لتعليم العاب السيف والترس والعصي بواسطة معلمين متمرنين، وقديماً كان الأمراء والحكام والرؤساء والاجناد وغيرهم من مختلف طبقات الأمة يخرجون بأوقات مختلفة الى الميادين ويتسابقون بامتطاء صهوات الخيول وضرب السيوف ورمي النبال ويفاخرون بذلك اقرانهم

(٢٥) نعمان بن عبده القساطلي (المتوفى عام ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م) مؤلف «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء».

(٢٦) في صنعاء اليمن يعيّدون في أول يوم جمعة من شهر رجب في كل عام عيداً عاماً يشمل الرجال والنساء والأطفال. حيث يصادف اليوم الذي لبّوا فيه دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) وآمنوا برسالته. فليت سائر الأقطار الاسلامية تقتدي بهم اعلاء لشأن هذا الدين الحنيف. والله الموفق.

(٢٧) ليتنا اقتبسنا منهم النافع دون الضار، واذا كان لا بد من الثاني فليته كان مع الأول.

(٢٨) يوم غلبنا على أمرنا واخذ الحلفاء باستعمارنا واستعبادنا.

(٢٩) رأينا لأحد الشعراء المتقدمين بيتين يصف بهما مبدا صوم النصارى فرأينا اثباتهما للفائدة:

اذا ما انقضت ست وعشرون ليلة ... لشهر هلالي شباط به يرى
فخذ يوم الاثنين الذي ياتي بعدها ... تجد مبتدا صوم النصارى مقررا

(٣٠) الى غير ذلك من الافعال التي لا يقرها الشرع ولا يجيزها العقل، وما هي الا عادات اتبعنها ولا يحدن عنها.

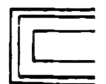
(٣١) شمس الدين محمد بن محمد بن يوسف الحموي الدمشقي الميداني المتوفى عام ١٠٣٣، وهو أول من اشتهر باقامة الاذان على القبر ولم يسبقه في ذلك احد.

(٣٢) بحث الطرق الصوفية في الصفحة ( ) من هذا الكتاب.

(٣٣) الخوان: ما يؤكل عليه ـ السفرة.

(٣٤) **الجناق**: أوعية الطعام ـ المناسف او الصحون.
(٣٥) **السماط**: جانب صحن الدار.
(٣٦) **المالقي**: ينسب الى مالقة، وهي مرفأ من مرافىء الأندلس (اسبانية) على البحر المتوسط، وربما كان اول متاع من هذا النوع ورد الى ساحل الشام على سفينة مالقية، فدعيت بضاعتها بهذا الأسم.
(٣٧) **الفخار** يصنع في قرية عيتا من جبل الشيخ.
(٣٨) كنت رايت في مطالعاتي ان سائحاً اميركيا مرّ على الشام وروى لقومه انه أكل فيها عش الطير الذي يعالجه الشاميون ببعض العقاقير فيغدوا صالحاً للأكل لذيذ الطعم.

ان أهل الشام يأكلون ما يسمونه عش البلبل تسمية مجازية لا حقيقية. وليس العجب في ان حضرة المبشر وقع في احبولة المترجمين الدجالين الذين يرافقون السياح ويقصون عليهم مثل هذه الترهات (فاختطف الكبة من رأس الماعون) وادعى هذه الدعوة بل العجيب في كونه اكلها ولم يفرق بين الفستق والأقذار. ان عش البلبل الذي يأكله الشاميون يصنع من رقائق معجونة بالسمن ومحشوة بقلب الفستق ومحلاة بالقطر أو بمسحوق السكر، والذي تصوره السائح نجس والنجس لا يؤكل.
ان أهل الشام يشبون على المؤانسة ويبالغون في اكرام الضيف ويغالون بمنحه المقام الذي لا يستحقه، لكنهم لم يتوصلوا بعد الى مادة كيمياوية تجعل عسجداً، وليس مع الذوق جدال.



٥ في الأخلاق

الدين يقود المرء الى صالح العمل، ويحول دون وقوعه في مهاوي الزلل. وجميع الكتب المقدسة تدعو الى الفضائل، وتحث على أجمل الخصائل. قال الله تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى واليتامى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلك تذكرون) فهذه هي الاخلاق الكريمة المفروض على الانسان إتباعها. وقد قالت الحكماء الأمم بأخلاقها.

التعاضد

التعاضد والتعاون في طليعة مكارم الاخلاق، فهو ينبعث عن العدل والاحسان، ويقود الى توحيد الكلمة وحفظ الكيان وسواء كان انفرادياً أو عمومياً فمصيره بلوغ الأوطار بخلاف التحاسد والانفراد المؤديين الى الشقاء والدمار.

والحمد لله على ان أهل الشام مفطورون على المروءة وعمل الخير، يعضدون بعضهم بعضا في كل عمل انساني يحفظ كرامتهم ويصون صداقتهم، واذا رأوا أحداً منهم في حاجة الى التعضيد يتسابقون اليه مهما كلفهم الأمر، ولا يحجمون عن التضحية في سبيله بما تصل اليه أيديهم ابتغاء وجه الله تعالى، وضناً بالكرامة التي توارثوها كابراً عن كابر. وأعمالهم المجيدة الدالة على علو الهمم، والمنبعثة عن الاباء والشمم، كثيرة نذكر منها ثلاث وقائع حدثت في ازمنة غير بعيدة بهذه المدينة هي:

١ ـ أراد الوالي ان يجس النبض ويستطلع الأفكار. ففي ذات يوم كان عنده نقيب الأشراف، وشاهد معه من نافذة المكان المطلة على الطريق المفتي قادماً على فرس ضئيل لا يمشي الا بشق الأنفس، وكان الاعتناء بالخيول المطهّمة التي يتبعها ويفاخر بها القوم. فقال الوالي للنقيب:

ـ أيليق هذا الفرس الضئيل بمثل هذا الرجل الجليل؟

ـ انه لفرس من جياد الخيل لا نظير له في كل المدينة ولكن لما اعتلاه طود من العلم خارت قواه، ولم يعد يستطيع حراكاً.

وما لبث المفتي ان أطل وانقطع الكلام.

وفي يوم آخر كان المفتي عند الوالي، واذا بالنقيب يأتي على مهرة تقوم من تحته وتقعد، ولا تضبط الا بعناء عظيم، فقال الوالي للمفتي:

ـ ان هذا الفرس الفتي يؤلم هذا الشيخ الوقور.

ـ انها فرس طاعنة بالسن، ولكن لما اعتلاها ابن رسول الله لم تستطع كتم فخرها وسرورها وراحت تلتفت يمنة ويسرة مشيرة الى ما حازته من شرف ركوب النقيب.

واذ ذاك دخل النقيب فانقطع الحديث وانقطعت معه آمال الوالي من إلقاء التفرقة بين أهل الشام، لان ذلك كان مستحيلا.

٢ ـ كان المفتي يسهر في داره، ويأتيه بعض الناس يسامرونه ويحادثونه الى منتصف الليل، وفي ذات ليلة دخل عليه رجال وقال:

ـ هل بلغكم ما جرى؟

ـ وما هو؟

ـ الآن قبضوا على فلان (وهو من أقران المفتي شرفاً ومكانة، ولكنه مكروه منه لانه خلفه في وظيفته) وساقوه الى السجن وزجّوا في سجن النساء امرأة غريبة وجدوها عنده.

تألم المفتي من هذا الخبر وتظاهر بانه محتاج للراحة ونهض ودخل دائرة الحريم وانفض المجلس. وما لبث المفتي ان خرج ثانية واصطحب أحد خدامه، وذهب واياه أولا الى سجن النساء الذي كان قريباً

من داره، وهمس في أذن السجّان بضع كلمات، ثم انطلق الى ان بلغ دار السجين، وطرق الباب، واستدعى ربة الدار وحادثها في الأمر، ثم أخذها وسار بها الى سجن النساء، فأقامها مقام المرأة التي قبض عليها مع زوجها، وأخذ هذه الى داره فأدخلها احدى الغرف وأغلق عليها الباب. ودخل هو الى دائرة الحريم ورقد كعادته. وعند الفجر أخرج تلك المرأة وأطلقها في سبيلها، وسار هو الى دار الوالي الذي كان ما زال راقداً، فاستيقظ وقال له:

- ان كان هذا الرجل (تفكجي باشي) وهو بمثابة رئيس الشرطة اليوم يفعل ما يشاء ويهتك اعراض الناس فقد وجبت الهجرة، وهاكم خاتم المجلس (الذي كان يبقى عادة مع المفتي) أعيده لدولتكم مودعاً حيث عزمت على السفر الى بيت المقدس وقضاء بقية العمر فيه.

ولما استطلعه الوالي جلية الخبر قال:

- إن فلاناً (وهو الرجل الذي سجن) كان في داره يداعب امرأته، واذا برجال أغراب يدخلون عليهما خلسة ويقودونهما الى السجن دونما سبب.

- لقد أخبروني إن المرأة التي كانت عند هذا الرجل غريبة وليست بزوجته.

- يمكنكم الاطلاع على الحقيقة بإرسال من تعتمدوه مع امرأة تعرف زوجة الرجل وترون ما نابها من الذل والهوان من هذا الموظف الغافل.

دخل الوالي الى دائـرة الحريم، وقص الخبر على عقيلته، فرأت هذه أن تذهب بنفسها لاستطلاع الحقيقة، فسارت ثم عادت وهي غضبى آسفة على هذا المصاب العظيم، اذ رأت بأم عينها زوجة الرجل في السجن، وقد أخلى لها السجان غرفته الخاصة، وهي تبكي وتنتحب من هول المصيبة.

استشاط الوالي غيظاً وغضباً وفي الحال استدعى (تفكجي باشي) وطرده من خدمته، وذهب هو بنفسه مع حضرة المفتي الى السجن، وأطلق سراح الرجل بعد ان اعتذر له عما جرى، وأرسل فأطلق زوجته أيضاً.

٣ - جاء دمشق وال إسمه خليل كامل باشا سنة ١٢٧٥، ورام تنفيذ الأوامر الصادرة بشأن التجنيد، والتي كانت تهمل من عام الى عام، فأمر كاتب المجلس بتلاوتها ليحيلها على التنفيذ، ولما أخذ الكاتب يتلوها اعترضه المرحوم عبد الله بك العظم عضو مجلس الأيالة الكبير وقال إن بلادنا محاطة بالبدو والبادية، وتقوم بخدمته محافظة ركب الحج الشريف في ذهابه وإيابه في كل عام، ولم يسبق لها الاعتياد على غير ذلك من الخدم العسكرية فلذلك لا يمكن تنفيذ هذا الأمر. قطّب الوالي حاجبيه وقال إن هذا أمر سلطاني لا بد من تنفيذه فمن يرى غير ذلك يمكنه الانسحاب وترك المعارضة في أمور الحكومة. نهض عبد الله بك ونهض معه سائر أعضاء المجلس الاثني عشر وخرجوا متفقين على مقاطعة الوالي.

وعلى أثر ذلك عزل الوالي، وأقام عبد الله بك زينة في سوق السلاح والبزورية القريبين من داره اعلانا لسروره من عزل الوالي وتأييداً لفوزه.

هذه وقائع مادية حدثت في الشام، وشاهدها الجمهور، ورويت بالتسلسل الى هذا اليوم. يؤيدها تأجيل الخدمة العسكرية الى سنة ١٢٧٧، وهي سنة الحادثة الشامية التي نفي على أثرها زعماء الشام الى البلاد القصية، وهي تدلك على مبلغ الاتفاق والتضامن اللذين كانا سائدين في البلاد.

فعسى ان يكون شبابنا خير من خلف أولئك الأبطال، وأحسنوا الاقتداء بهم، رحم الله السلف وكلل سعي كل من خدم الوطن خدمة خالصة لوجه الله تعالى بالنجاح والفلاح.

التجّار

كانوا يقسمون التجار الى ثلاثة أقسام: قسم يتاجر بنصف ماله، ويدع النصف الثاني احتياطاً. وقسم يتاجر بماله كله، والقسم الثالث يتاجر بمال الناس. وكان القسم الأول هو المعّول عليه، والثاني يمكنه السير بسفينته

الى ساحل السلام اذا ساعدته الظروف، أما القسم الثالث فقد كان امره يدعو للريبة فيراقبونه عن كثب ويحتاطون بمعاملته.

على أنهم كانوا جميعاً يحافظون على الذمّة والشرف، ولا يخطر ببال احد منهم أن يعدل عن قول قاله، أو أمر تعهد به، أو الاحتيال على الناس، وأكل أموالهم التي حرّمها الله. بل يسعون السعي الحثيث لأداء ما عليهم من الحقوق في اوقاتها. واذا اضطروا يفادون بكل ما يملكون من حطام الدنيا وان لم يبق لديهم ما يسد الرمق فيبيعونه عند الحاجة ويؤدون ما عليهم من حقوق الغير دفعة أو تقسيطاً. والدائنون لا يتأخرون عن مساعدتهم بكل ما في امكانهم.

واذا أفلس التاجر (وكان ذلك من النوادر)، أو قضى نحبه، يجتمع دائنوه وذوو العلاقة معه، ويحسبون ما له وما عليه، فاذا ساوت موجوداته ديونه، هان الأمر، واذا نقص يتبرعون بما نقص في الحال، ويبرئون ذمته، وبعدما ينهون الحساب القديم يجددونه بتقديم ما يلزم الرجل أو أولاده من مال او بضاعة لادارة محله، وتأمين أود عياله، ولا ينظرون الى انه معدم ربما لا يتمكن من التسديد. والله في عون المرء ما دام المرء في عون أخيه.

المصارف

بمناسبة التجار رأينا أن نأتي على ذكر المصارف (البنوك) وما آل اليه أمر البلاد بسببها فنقول:

تأسست المصارف لتسهيل التجارة، وبعبارة أفصح لتأمين استجلاب البضائع والصنائع الافرنجية وترويجها في بلادنا، وأخذت تستجلب للتجار جميع ما يطلبونه وتسلفهم كلما يرغبون، فاتسعت تجارة البلاد وازدادت معاملاتها ازدياداً لم يستطع تجارنا المحافظة على اعتداله ووقفه عند حاجة البلاد الطبيعية الواجب عليهم ان لا يتعدوها، فاختلطت معهم ميزانية العرض والطلب التي هي أساس التجارة وروح النجاح في كل زمان ومكان، وأخذوا يتسابقون ويتنافسون باستجلاب البضائع من الجنس الواحد، ويراكمونها أكداساً في مخازنهم، مما يستدعي الكساد الذي يضطرهم أحياناً لبيعها وتصريفها بروؤس أموالها أو باقل منها كي يتمكنوا من تسديد أقساط المصارف المستحقة عليهم من اصل قيمتها وفوائدها، حتى إذا ما تكررت هذه الحال أصبحت مساعي التجار وأرباحهم كلها عائدة الى البنك دون سواه، والناس كلاعق المبرد لا يدري من أين يأتيه الدم.

وهذه قيمة التمدن الحديث الذي ربحناه من الاختلاط بأهل الغرب والانهماك في تقليدهم ومجاراتهم فيما لم نكن نعرفه من قبل، ويا ليتنا استطعنا الاكتفاء بتبذير أموالنا فقط ولم نتعدها الى بيع أملاكنا، بحيث نصبح ولا رابطة تربطنا بهذا الوطن العزيز وساء ذلك مصيراً.

القناعة

اليك أيها القارىء الكريم مثال على قناعة أهل الشام الأقدمين وابتعادهم عن الغش والاحتيال، والاكتفاء بما قدّر الله لهم من نعمة.

كان أحد العلماء روّح الله أرواحهم يستدين ما يلزم داره من المؤن من سمان في حيه، ويؤدي له القيمة وقت الضمان في كل عام. وفي إحدى السنين جاء الشيخ كعادته حاملاً كيس الدراهم، وحاسب السمان ونقده مطلوبه بتمامه، ثم ناوله وعاء وقال: اجعل أول الحساب الجديد رطل دبس اروم أن أطبخ به حلوى للأولاد. وكان السمّان يربح من الرجل ربحاً لا بأس به فرام ان يكرمه ووضع له على الدبس قدراً من العسل على أن يحسب القيمة بسعر الدبس فقط. ولما اتم عمله واعطى الوعاء للشيخ لعق هذا منه لعقة استغرب طعمه، وقال هذا دبس مغشوش وقد قال نبينا عليه السلام (من غشنا ليس منا) فأخبره السمان بما فعل، وقال إن العسل أغلى من الدبس، وإنما أكرمتك به إكراماً. فقال الشيخ معاذ الله كيف أعوّد أولادي على أكل العسل وليس في مقدوري الدوام عليه.

وأعاد الوعاء الى السمّان، وأخذ دبساً خالصاً.

فما قول أهل زماننا في عمل هذا الشيخ رحمه الله، هل يعدو غفلة وسذاجة فيعيبوه؟ أما يرونه اصابة ويرون فيه درساً أخلاقياً واقتصادياً فيحبذونه؟ هذا ما ندع جوابه الى الأيام، فهي التي تفعل فعلتها وما من أحد يستطيع الوقوف تجاه تيارها.



٦ في التعليم

قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فالعلم أساس التقدم، والجهل مدعاة الانحطاط، والأمة الجاهلة دائمة التعرض لتسلط الأغيار بقوة العلم محرومة منها، ولكي تكون الأمة قوية المراس منيعة الجانب لا تكفيها كثرة نفوسها وإتساع أرضها بل لا بد لها من الانكباب على العلوم التي تولد القوى المادية والمعنوية، وتنقذ من الضلال والاضمحلال.

ان كل ما نراه في الغرب من صنائع وفنون وأعمال جسيمة واكتشافات واختراعات عظيمة، منشؤه العلم والعمل. وجميع الحوادث التي أخنت على الشرق، وجعلته مطية الغربيين، سببها الجهل والكسل ليس إلا.

وأعظم دليل حسي على نتائج العلم والجهل، والعمل والكسل، يتمثل في دولتي الصين واليابان فان بلاد الصين الواسعة الأرجاء، المؤلفة من نفوس تفوق العدّ والاحصاء، كانت ذات حضارة باهرة تغدق صنائعها على جميع بلاد العالم، فالحرير والبارود والنسيج والطيب والورق وكثير غيرها من بدائع الصنائع نشأت أولا (على بعض الأقوال) في بلاد الصين، ومنها انتشرت في سائر اقطار العالم، والخزف الصيني المشهور برقته وبديع صنعه واتقان نقشه وتذهيبه، كان يأتي تباعاً على ظهور الدواب الى أداني البلاد وأقاصيها، ويستعمله الناس في حاجاتهم العامة وقد دام هذا الحال ألوفاً من السنين الى ان استولى الخمول على النفوس العاملة فالقاها في غياهب السبات العميق. ونهضت طائفة قليلة العدد ضيقة الأرض من جزيرة صغيرة في بحر الصين ذاته تدعى اليابان، ولم يكن يعلم بها ولا يسمع بذكرها أحد من قبل، واتبعت سنة التطور، واخذت تسعى وتدأب على العلوم والفنون، وتكد وتجد في تحصيلها واتقانها، الى ان توصلت الى إيجاد حضارة خاصة تغلبت بقوتها على دولة الصين العظيمة، ثم تقاتلت بسببها مع دولة الروس أكبر دول العالم وفازت عليها، فحازت المقام الأرفع والكلمة النافذة في الشرق والغرب، وقامت مقام دولة الصين باتقان الصنائع، وشرعت تشحنها وتغدقها على أسواق العالم بأبخس الأثمان.

ذكرى الماضي

كان السلف الصالح يفاخر بالعلم والعمل، وآثاره الغرّ ما زالت تبهر الأبصار الى الآن، وكان الناس بأجمعهم متكافئين في أعمالهم، لا يكاد يوجد بينهم فرق ولا تمييز أحد على أحد البتة، فكل من جدّ وجد مبتغاه، وفاز بمناه، ولا سيما من جهة العلم الذي كان العربي أسبق الى تلقيه والنبوغ فيه.

أما الاضطهاد الذي شكا منه البعض فانه كان من مقتضى السياسة التي كانت تسود العالم بأسره على اختلاف ملله ونحله، ولم يكن منحصراً بالشرق وحده، بل أن الغرب الى أيام الثورة الافرنسية الكبرى في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد كان أكثر ظلماً واضطهاداً من الشرق، حيث كان أمراء المقاطعات في مختلف جهات اوروبا يستعبدون رعاياهم استعباداً، ويتصرفون في أموالهم بدون حساب، ثم توصلوا الى التحكم بالاعراض أيضاً، وجعلوا من جملة حقوقهم ما دعوه (حق الليلة الأولى) وهي مجيء العذارى ليلة زفافهم الى قصر الأمير قبل أن يذهبن الى أزواجهن، وغير ذلك من العسف الذي لم يعرفه الشرق منذ انبثاق نور الاسلام والحمد لله.

على أن ابتعاد العرب عن الحكومة منذ اثني عشر قرناً أولد الضعف التدريجي في آمالهم وأعمالهم رويداً رويداً، فانحطت العلوم والصنائع في ربوعهم وضعفت فيهم فكرة الابداع، وراج التقليد الأعمى بين جميع طبقاتهم في كل الصناعات، حتى في صنعتي الشعر والادب اللتين كانتا من أعظم مفاخرهم. فان الأوائل رحمهم الله بعدما كانوا يبتدعون المعاني ويخترعون الأساليب ويأتون بالسحر الحلال والحكم البالغة في شعرهم ونثرهم اصبحت سرقة الشعر عادة مألوفة، وأخذ كل من يدعي الشعر لا يأتي غالباً الا بالمعاني المسروقة التي مجّها الذوق وتناقلتها الاسماع، وراح العوام يقتصرون على القراءة والكتابة البسيطة، ولا يرون لزوماً لتعديهما

بدعوى أن أعمالهم إذ ذاك لا تحتاج الى أكثر منهما.

وقد بعثت في البلاد فرقة صالحة تحاول السعي وراء المحافظة على آثار الآباء وصنائعهم، وكانت همزة الوصل بين السلف والخلف، الى أن افتتحت أبواب الشرق للغربيين الذين أخذت حكومة البلاد تحميهم وتناصرهم، ثم أعلن السلطان عبد المجيد العثماني أمنية الأموال والأرواح من المصادرة والارهاق اللذين كانا سائدين فيما سبق، ولرب نعمة تعقبها نقمة، سنة الله في خلقه، فأخذ الغربيون على أثر ذلك يأتون بصنائعهم المزخرفة، ويعرضونها في أسواقنا بأثمان بخسة، فساقنا حبّ التقليد والتجدد الى ترويجها واستعمالها، وعلى مرور الأيام استعضنا بها عن صنائعنا التي كانت منبع ثروتنا وسعادتنا، ثم تبعتها الصنائع المحظورة عندهم والمحمية عندنا وهي طغمة القسس الذين خفوا الى بلادنا زرافات وأخذوا يشيدون البنايات الضخمة بإسم أديرة ومدارس بين اوروبية واميركية، وكل منها يقوم بالدعاية لأمة ودولة.

دخل تلك المدارس أولا غير المسلمين من أبناء الوطن، وراحوا يتعلمون فيها اللغات، وانصرف بعضهم الى الدعايات، وأصبحوا عملاء أهل الغرب، وحازوا على التدريج المركز الأول في تجارة البلاد التي غدا معظمها من الواردات الأجنبية. أما اكثريتنا الساحقة التي لبثت تتلهى بالعلوم والأعمال البسيطة عندما أمنت على أموالها وأرواحها من العبث، فتحت صناديقها وعثرت على مطامير آبائها، واخرجت منها ما اقتصده وادخره السلف الصالح من مال ومتاع وأخذت تبذله بسخاء في سبيل البضائع الافرنجية المميتة لصنائع البلاد والمبيدة لاخلاقها، وهكذا قضت ردحاً من الزمن بفترة وسكون غير مفكرة بالعواقب التي تنتظرها.

وبينما كان بعض المواطنين يتقدمون بخطى واسعة، كانت الاكثرية تتأخر لاتكالها على أموال الآباء التي ظنتها لا تنفد، غارقة في بحار الملاهي، ولم تفتح أعينها الا وعلومها ضعفت وصنائعها بادت وانقرضت، وثروتها اوشكت على النفاد. وعبثاً حاولت اللحوق بالمتعلمين بولوج أبواب المدارس العصرية، فانها كانت تسير ببطء وهم متقدمون، ولبثت على هذه الحالة التي اوصلتنا الى هذا اليوم، حيث أصبحنا عالة على الغرب في جميع حاجياتنا وغدت الصنائع والبضائع الافرنجية تدخل في مأكلنا ومشربنا وملبسنا ودوائنا وبنائنا وأثاثنا وفراشنا ووقودنا وغير ذلك من لوازم حياتنا التي يستوردها المواطنون مباشرة من المعامل الاوروبية والاميركية بواسطة العلوم التي تعلموها، واللغات التي اتقنوها، وغدا تجارنا سماسرة بين أيديهم لا يستطيعون عملاً الا بما يوحون اليهم. ثم اختلطنا بالغربيين شئنا أم أبينا، فلا يسعنا بعد الآن الا ان نسعى السعي الحثيث لسوك الطريق التي تنجينا من الهلاك والدمار، وهي طريق العلوم والصنائع العصرية وتحصيلها بإمعان وإتقان، فان فعلنا ذلك رجونا الحياة، وإلا فلا حياة لأمة بدون علم.

مدارس اليوم

للحكومة السورية في مدينة دمشق اليوم ثمان وعشرون مدرسة ابتدائية فقط. تسع عشرة منها للبنين، واحدى عشرة للبنات، ثم مدرستان ثانويتان هما مدرستا التجهيز للذكور والإناث، ثم الجامعة السورية المؤلفة من معهدي الطب والحقوق. وعدا ذلك توجد مدارس اهلية تدار بادارات خاصة تحت نظر الحكومة وضمن مناهجها العامة، وهي الجامعة الوطنية، والجامعة العلمية، ومدرستا الروم والكاثوليك الثانويتين، وعدة مدارس ابتدائية لجميع الطوائف.

إن هذه المدارس بأجمعها لا تضم أكثر من عشرة آلاف تلميذ بين ذكور وإناث، وهو أقل مما تحتاج إليه المدينة بنسبة نفوسها، والتعليم عندنا ما زال اختيارياً، فلا يدخل المدرسة إلا من شاء من تلقاء نفسه، وهم تقريبا طلاب الوظائف الذين لا يلجون ابواب المدارس إلا بغية الحصول على شهادتها التي تؤهلهم للوظيفة المبتغاة. وحتى الآن لم نر من متعلمي التعليم العالي، حتى ومن متخرجي المدارس الزراعية، من احترف حرفته، أو تعاطى صنعته المنتسب إليها، أو اتخذ تجارة لنفسه، إلا ما ندر، كأن العلم والعمل ضدان لا يجتمعان، وما زال السواد الأعظم من أبناء الأمة باقياً بدون علم، يقتل الوقت في الأزقة ولعب الكرة، ويعتاد على البطالة والكسل المؤديين

الى التعاسة والشقاء. ومدارسنا وخصوصا الحكومية منها تغص في كل عام بالطلاب والطالبات ولا تستطيع قبول كل من يقصدها لضيق بناياتها فيعود أكثرهم خائبين حيث ترفضهم إدارات المدارس وهم لا يقلون عن النصف ممن ساعدهم الحظ ودخلوا المدرسة.

أموال الأمة

لو سألنا إدارة المعارف عن أسباب قلة المدارس وضيقها ربما تجيبنا بان ميزانيتها لا تساعد على المزيد. حالة كون أموال الأمة ما زالت تصرف جزافا مكشوفة ومستورة، وإذا فرضنا عذر المعارف هذا لا يبعد أن نجد فيه شيئاً من المبالغة ومخالفة القاعدة القاضية بتقديم الأهم على المهم.

على أننا ماذا نقول في إدارة الأوقاف المكلّفة أساساً لإحياء المدارس العلمية، فهذه الإدارة أخذت تنفق أموالها في غير السبل المخصصة لها (كجامع باريز)، وتؤدي الرواتب لمن يقوم أو لا يقوم بالوظيفة المكلّف بها، وتنقدهم الأموال الطائلة بحساب وبغير حساب، ثم في إدارة البلدية التي يدخلها في كل سنة ملايين من الليرات فتستهلكها في طرق مفيدة أو غير مفيدة.

أليس حراماً على المؤتمنين على أموال الأمة أن يستهلكوها في غير موضعها، ويبذروها في سبيل ما هو فوق الكماليات، ويدعون البلدة خراباً وأطفالها تائهين في دياجي الجهالة؟

أفلا يمكن لإدارة الأوقاف أن تحيي وتجدد بعض المدارس التي أوقفها السلف الصالح على تحصيل العلوم ثم أخنى عليها الدهر وهي ما زالت تستوفي ريعها؟ ثم تتفق مع البلدية وتخصصان قسما من مداخلهما لمعاونة ادارة المعارف على زيادة المدارس الابتدائية وتشييد المدارس الصناعية التي اصبحنا أحوج إليها من المدارس الأدبية وجعل التدريس الابتدائي إجباريا ولو في داخل المدينة فقط؟

أما تأسيس جمعيات خيرية تسعى وراء تزييد عدد المدارس وإيصالها الى الدرجة المطلوبة من الرقي وجمع نفقاتها من أموال الأمة الخاصة كما تفعل أكثر الأمم، فهذا بحث طالما عالجه الكثيرون، وكان الجواب عليه ان أموال الأمة تستغلّها الحكومة وإدارة الأوقاف ولا تصرفان منها على المعارف إلا النذر اليسير فاذا بذلنا تلك الأموال في السبل المخصصة لها وهي إحياء العلوم والصنائع ولم تكفها فعندئذ تبذل الأمة ما يجب عليها.

مناهج التعليم

المدارس الابتدائية

تؤلف المدارس الابتدائية من ستة صفوف تعلم فيها في ست سنوات مبادىء العلوم الآتي بيانها:

القرآن الكريم ـ القراءة البسيطة ـ مبادىء الكتابة ـ الخط ـ الإملاء ـ اللغة الإفرنسية ـ الحساب ـ الجغرافية ـ الرسم ـ مبادىء الفقه ـ أشغال اليد ـ التاريخ ـ الهندسة ـ الرياضة.

المدارس التجهيزية

تؤلف المدارس التجهيزية من ستة صفوف تعلم فيها ست سنوات العلوم التالية:

العلوم	الصف الأول	الصف الثاني	الصف الثالث	الصف الرابع	الصف الخامس	الصف السادس
الفقه	—	—	—	—	—	—
اللغة العربية	—	—	—	—	—	—
اللغة الافرنسية	—	—	—	—	—	—
التاريخ الحديث	—	—	—	—	—	—
التاريخ القديم	.	.	.	—	—	—
الجغرافيا	—	—	—	—	—	—
الطبيعة	—	—	—	.	.	.
الحكمة		—	—	—	—	—
الهندسة	—	—	—	—	—	—
الحيوان	.	.	.	.	—	.
طبقات الأرض						—
المثلثات					—	—
الميكانيك					.	—
الفلك						—
الاقتصاد	.					—
المنطق والفلسفة					—	—
الحقوق					.	—
التطبيقات				—	—	—
الرسم	—	—	—	—	—	
الرياضة البدنية	—	—	—	—	—	—
الموسيقى	—	—	—	.	.	.
الخط	—	.	.			
حفظ الصحة	.	.		—	—	—

* تنبيه (الخط يدل على وجود الدرس والنقطة إشارة الى عدم وجوده) ثم ان الصف الأول يضاف إلى الصفوف الابتدائية فيقال له السابع، وللثاني الثامن، وهلمّ جرّا.

ملاحظة:

الذي يستلفت الأنظار في هذه الدروس هو اختلاف مذاهب المؤلفين، فمنهم المتساهل ومنهم المتحامل، وخصوصاً في التاريخ، والتلميذ يضيع بين مذهبين مختلفين، وقد رأينا بين الكتب المدرسية كتاباً ينتصر لمعاوية، وآخر يتشيع لعلي (رضي الله عنه) حالة كون ائمة الاسلام هذا البحث إذ لا فائدة من تكراره في هذا الزمن الذي نحن فيه أحوج الى توحيد الكلمة لا الى تفريقها، فهل لادارة المعارف أن تقوم بواجبها، وتوحّد الكتب المدرسية، ولا تأذن ما لم تأمن على سلامتها من مثل هذه النخزات التي تضر ولا تنفع، وان تجعل نحو أساس حب الوطن، ولا تدعها تخل بحقوق البلاد وأهلها؟

أما الكتب التي تستوردها المدارس الأجنبية وتنشرها بين الأيدي وتكره التلامذة على تعلّمها وحفظها فهي نوعان: نوع يهين الاسلام ونبيّه، ونوع يسكت عنه ويهمل ذلك الهدى الجليل والاخلاق الكريمة والفتوحات العظيمة التي أقامت مجد العرب على أساس العدل والاحسان، والتلميذ لا يعلم من أمرها شيئاً.

إن من الحق الذي لا يجحد أن يعلم المرء ماضي أمته ومجدها قبل ان ينظر في تواريخ سائر الأمم، ثم ان التلميذ الذي يحترم معلمه ويجلّه يرى كل كلمة تصدر من فيه حكمة يجب اتباعها. والقسس الذين يعلمون في المدارس الأجنبية لا يستطيعون بحسب وظائفهم الكهنوتية ان يحافظوا على الحياد فيسيئوا الى التلاميذ بقصد أو بغير قصد، عند كل فرصة، مما يشوش الأذهان ويزحزح العقائد. والكتب والدفاتر التي يوزعونها على التلاميذ تحوي نماذج من ذلك.

حتى أننا مع الأسف لم نر من تخرج على أيدي القسس وظلَّ متمسكاً بمعتقداته، الا من عصم ربّك. فهل لوزارة المعارف ان تقوم بواجبها وتكفينا مؤونة الاسترسال، وتنقذ أولادنا من الضلال؟ وعساها فاعلة ان شاء الله.

الجامعة السورية

تؤلف الجامعة السورية من معهدي الطب والحقوق ويتالف المعهد الطبي من ثلاث شعب هي الطب والصيدلة وطب الأسنان. ومن فرعي القبالة والتمريض. ثم للمعهد صف تاهيبي للشعب الثلاث ولغة التدريس هي العربية.

الصف التأهيبي

الدروس	العلوم
التدريس النظري	الكيمياء العضوية ـ صفات الاملاح التحليلية ـ الكيمياء غير العضوية ـ الحيوان ـ النبات ـ الطبيعة.
التدريس العملي	تطبيقات خاصة في الطبيعة ـ الكيمياء العضوية وغير العضوية ـ تحليل كيفي ـ فحص مجهري ـ معرفة النبات ـ تطبيقات على بحث الحيوان.

شعبة الطب

مدة الدراسة في شعبة الطب للحصول على لقب حكيم (دكتور) في الطب خمس سنوات خلا السنة الأولى التأهيبية.

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
١	بحث تكوين الجنين	التشريح الوصفي ـ فن النسيج	تطبيقات على بحث الامراض والتشخيص والسريريات الطبية والجراحية
٢	ايضاً	علم الغرائز (فيزيولوجيا) تطبيقات وممارسة الطبيعة الطبية والجراحية وفن الجراثيم	ايضاً
٣	الامراض الباطنية والامراض الجراحية	التشريح المرضي فن القبالة الطب التجريبي فن الطفيليات امراض	يلازم الطالب ثلاثة اشهر في كل من السريريات الباطنية السريريات الجراحية

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
٤	الأمراض الجراحية الأمراض الباطنية الأمراض العامة	البلاد الحارة التشريح الطبي الجراحي الجراحة الكبرى مفردات الطب	وسريريات الولادة وامراض النساء يلازم الطالب شهران في كل من سريريات الاختصاص وهي العينية والاذنية والانفية والحنجرية وامراض البلاد الحارة والأمراض الجلدية والأمراض الروحية والأمراض السارية وامراض الأطفال وامراض مسالك البول.
٥	أيضاً	علم الصحة وتطبيقاته الطب الشرقي واجبات الطبيب فن التداوي بحث المياه مفردات الطب	أيضاً

شعبة الصيدلة

مدة الدراسة في شعبة الصيدلة لنوال لقب صيدلي من الدرجة الأولى ثلاث سنوات عدا السنة الأولى التاهيبية.

السنة	الدروس النظرية	الدروس العملية
١	الكيمياء والتحليلات العامة (قواعد التحليل بطريقتي الاذن والفم) تحليل الأغذية تحليل المياه العذبة فن الصيدلة	تحليل (صفات الاملحة التحليلية) فن الصيدلة التحليل الكمي
٢	فن الجراثيم فن الصيدلة (الأشكال الصيدلانية) مفردات الطب المياه العذبة نسيج النبات الكيمياء الصيدلانية.	فن الجراثيم تحليل كيفي فن الصيدلة مفردات الطب الكيمياء الصيدلانية نسيج النبات.
٣	طفيليات علم الصحة الكيمياء الصيدلانية بحث السموم كيمياء حيوية.	طفيليات علم الصحة الكيمياء الصيدلانية بحث السموم كيمياء حيوية.

طب الأسنان

مدة الدراسة في شعبة طب الأسنان أربع سنوات خلا سنة التأهيب الأولى.

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
١	بحث الجنين	التشريح الوصفي فن النسيج تشريح الاسنان مبادىء ترميم الاسنان ومعالجتها مبادىء صناعة الاسنان (برونز).	عيادات سنية
٢	ترميم الاسنان	مبادىء صناعة الأسنان فن الغرائز فن	عيادات سريرية

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
٣	مفردات الطب أمراض الاسنان جراحة الفم التخدير ترميم الاسنان	الجراثيم التشريح الطبي والجراحي الكيمياء التحليلية صناعة الاسنان التيجان والجسور. فن الطفيليات صناعة الاسنان التيجان والجسور.	عيادات سنية سريريات زهرية وسريريات امراض الفم.
٤	الأمراض العامة امراض النساء تقويم الاسنان امراض الفم.	حفظ الصحة جراحة الفم صناعة الاسنان اشعة رونتكن.	ايضاً.

فن القبالة

مدته ثلاث سنوات دون تأهيب.

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
١	معلومات مختصرة عن الامراض العامة	مختصر التشريح والغرائز قواعد حفظ الصحة فن التمريض تشريح الجهاز التناسلي في النساء	ملازمة في دار التوليد
٣		حفظ صحة الحامل والنفساء فن القبالة مختصر فن الجراثيم	تطبيقات سريرية في دار التوليد.
٣		حفظ صحة الحامل	سريريات ولادية تمرين في دار التوليد.

التمريض

مدة دراسته لنوال لقب (ممرضة مجازة) ثلاث سنوات.

السنة	الدروس النظرية	الدروس النظرية العملية	الدروس السريرية
١	معلومات مختصرة عن الأمراض العامة	مختصر التشريح والغرائز قواعد حفظ الصحة فن التمريض.	قواعد فن التمريض.
٢		قواعد حفظ الصحة مختصر فن الجراثيم فن التمريض.	قواعد فن التمريض
٣		حفظ صحة الطفل طرق العناية به فن التمريض	تطبيقات على فن التمريض.

معهد الحقوق

مدة الدراسة لنوال لقب (مجاز في الحقوق) ثلاث سنوات.

السنة	العلوم
١	حقوق الدول العامة ـ الحقوق الرومانية ـ حقوق الجزاء ـ قانون الجزاء ـ الحقوق الأساسية ـ علم الاقتصاد ـ مجلة الاحكام العدلية.
٢	حقوق التجارة البرية ـ حقوق الدول العامة ـ احكام الأوقاف ـ الحقوق الادارية ـ الوصايا والقرائض ـ أحكام الاراضي ـ مجلة الاحكام العدلية ـ أصول المحاكمات الجزائية وتطبيقاتها ونظرياتها ـ أحكام الزواج ـ علم الاقتصاد.
٣	الأصول المالية ـ أصول المحاكمات الحقوقية ـ قانون الاجراء ـ مجلة الاحكام العدلية ـ صك الحقوق ـ صك الجزاء ـ الحقوق الادارية ـ حقوق التجارة البحرية ـ الحقوق المدنية الاوروبية ـ حقوق الدول الخاصة ـ أصول الفقه ـ الطب الشرعي.

هذه هي العلوم والفنون التي تُعلم في مدارسنا العامة بلساننا العربي المبين من قبل أساتذة جهابذة من نوابغ الوطن العزيز أخذ الله بأيديهم وكلّل مساعيهم بالنجاح والفلاح.

العلوم الدينية

(لفظة العلماء هنا تدل على علماء الدين المتعممين فقط).

كان السلف الصالح من العلماء الاعلام، أنار الله أضرحتهم، يُقرؤون تلامذتهم أنواع العلوم الدينية والدنيوية مبتدئين من الآيات، فالفقه، فالأصول، فالحديث، فالمنطق، فالكلام، فالحكمة، فالتاريخ، فالرياضيات، فالفلك، الى غير ذلك من بحر العلوم الزاخر. وذلك في المدارس والمساجد وفي دورهم الخاصة كل صباح ومساء، فينبغ من تلامذتهم العدد الكثير ممن يخلفهم في وظائفهم الدينية والمدنية، وتظل البلدة غاصة بأهل العلم على الدوام. هذا خلا الدروس العامة التي يلقيها العلماء في الأشهر الثلاثة (رجب وشعبان ورمضان) في أغلب المساجد وخصوصاً تحت قبّة النسر في الجامع الأموي، وفي التكية السليمية على المرج الأخضر عقيب صلاة العصر من كل يوم، وبعد صلاة الجمعة من أيام الجمع حسب شروط الواقفين رحمهم الله.

وكان يهرع الى هذه الدروس الجم الغفير من مختلف طبقات الأمة الذين اعتادوا اداء الصلاة مع الجماعة، فيصغون الى الأحكام الدينية، ويتعلمون التمييز بين الحلال والحرام، وما فرضه الله عليهم وما نهاهم عنه من الأعمال. واذا كان المستمع أمياً ولازم الدرس بأغلب أوقاته كما كان يفعل الكثير من الناس، وحفظ في كل شهر مسألة واحدة على الأقل، لا يبلغ سن الأربعين الا وهو يعلم زهاء ماية مسألة عويصة من متعلقات دينه تقوده الى صالح الأعمال، واذا عرضت له مسألة أشكل عليه أمرها لجأ الى شيخه الذي يتلقاه بالبشر، ويحل له إشكاله في الحال.

وفي أيام الحكومة العثمانية كان طالب العلم يُعفى من الخدمة العسكرية (ومعنى ذلك أن الدولة كانت تتنازل عن قسم من جنودها لأجل تعلم العلم فقط) فأخذ الناس يسجّلون أولادهم في المدارس الدينية وازداد عدد الطلاب زيادة ملموسة. ولو فرضنا أن البعض من هؤلاء الطلاب لا يصلح لأن يكون أستاذاً، وان منهم من خلع العمامة عندما تجاوز سن العسكرية ولم يعد يذكرها، فلا ريب أن خمسة في المائة على الأقل من أولئك الطلاب يلذّ لهم العلم، فيثابرون عليه، ويستفيدون منه، ويفيدون غيرهم طيلة حياتهم، كما شوهد منهم وثبت بوجودهم وكانت وما زالت خزانة الأوقاف تدر على العلماء والمدرسين من الرواتب ما يكفيهم مؤونة السعي وراء المعاش،

ويجعلهم في بحبوحة من الراحة والعيش الهنيء.

مشايخ اليوم

اما في هذا الزمن فقد تبدلت الأرض غير الأرض، وبالرغم عن كون وظائف التدريس ما زالت في عهدة رجال ينتسبون للعلم، ويتقاضون رواتبهم شهراً فشهراً، وهي لا تقوم بأودهم وأود عيالهم فحسب بل تتعداها وتتكفل بكل ما تصبو اليه أنفسهم من حطام الدنيا وشهواتها، فان هؤلاء المدرسين قد أهملوا التدريس وأبطلوه من اكثر محلاته، وغدت حلقات التدريس التي كانت تغصّ بها المساجد والمدارس لا يُرى لها من أثر، والعامة في جهل مستمر. وطالما تقاضى مشايخنا الذين يرجى منهم الورع والتقوى مبالغ طائلة بدعوى انها متراكمة من رواتب الوظائف التي يتصيدونها ويجمعونها في أنفسهم، ويحرمون منها أهلها دون أن يقوموا بقسط من واجباتها أو يزوروا على الأقل مرة واحدة في العام المسجد المشروطة إقامتهم فيه. يقال إن بعض هؤلاء المشايخ يلقون اليوم في دورهم على أولادهم وذويهم دروساً خاصة بدعوى أنها تقوم مقام الدرس العام المكلفين في الأصل بالقائه في محفل عام في بقعة معينة من مسجد معلوم. ومن هذا القبيل درس القبة في الجامع الأموي الذي كان من أجلّ مفاخر الشام، وعنواناً لما تضمه بين جدرانها من جهابذة العلماء وأئمة الدين، يقصده المسلمون من كل فج، ويحضره الزوار والحجاج الذين يؤمّون دمشق في كل عام ويعجبون بما وهب الله أولئك الأئمة من فضل ونبل وحسن القاء. واذا عرض اليوم لأحد العامة أشكال في فروع دينه لا يجد من يحله له الا بعد عناء عظيم. وقد أهملت الخدمة العسكرية الاجبارية، وأهمل العلماء الأمر بالمعروف، فقل طلب العلم ولم يبق تلميذ متعمم الا ما ندر.

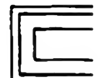
الشميساطية

في الأيام الأخيرة ارتأت ادارة الأوقاف إحياء المدرسة الشميساطية الواقعة الى شمال الجامع الأموي، وجعلها منهلاً للعلوم الدينية يستقي منه الواردون زلالها المعين ليلاً ونهاراً، ويتخرجون على أيدي أساتذة اعلام فيحصلون على الكفاءة بتولي الامامة والخطابة والقضاء والافتاء فضلاً عمّن يزداد نبوغاً ويبلغ درجة أعلى من ذلك. واذا قدّر الله لهذه المدرسة الحياة والانتظام، وثابرت على ما انتدبت اليه من خدمة العلم واحيائه خدمة خالصة لوجه الله تعالى تكون الهمة المبذولة في سبيلها من دواعي الشكر على الدوام. أما اذا صدقت الرواية وكان البعض ممن لم تشبع نهمهم كثرة الرواتب يروم التلاعب في إدارة هذه المدرسة أيضاً، ويقصد احتكارها لنفسه وذويه، وأولو الأمر يجارونه على ذلك فحسبنا الله ونعم الوكيل.

العلم في البصرة

ذهبت (المؤلف) قبل بضع وعشرين سنة الى البصرة مدينة (سيبويه)[1] و(نفطويه)[2] فلم أر فيها رجلاً بزيّ العلماء سوى المفتي والمرحوم عبد الله أفندي باش أعيان الهاشمي، عضو مجلس ادارة الولاية في ذلك الوقت، ولما سألت عن السبب أجابوني أنه لم يبق عندهم وجود للعلماء الذين يستطيعون اقراء التلامذة وتعليمهم، فبطل طلب العلم، وأصبحوا اذا مات مفتيهم (وهو خليفة الحسن البصري[3] طبعاً) يطلبون ويستجلبون مفتياً من بغداد ليقوم مقامه. ثم بحثت بنفسي عن الأمر فعلمت أنه أصبح لا يوجد في جميع أنحاء ولاية البصرة بين تلك القبائل العريقة بالعروبة من يحسن القراءة والكتابة بلسان القرآن سوى من يدعونهم (الموامنة) وهم علماء الشيعة الذين يطلبون العلم في بلاد فارس ويعودون الى أوطانهم ناشرين دعوة مذهبهم بين تلك القبائل العربية التي أصبحت كلها متشيعة.

نحن في سورية لا يوجد عندنا أمثال أولئك الدعاة المتشيعين، فان دعاة الانجيل من مبشرين ومرسلين قاموا مقامهم. فاذا لبثنا على حالتنا الراهنة لا يبعد ان تصبح مدينتنا كمدينة البصرة وليس فيها من يعلم بأمور دينه. فالى أين نحن سائرون؟



هوامش الفصل السادس

(١) **سيبويه** ابي بشر عمرو بن عثمان امام اللغة توفي سنة ١٨٠.

(٢) **نفطويه** ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي الواسطي امام في النحو توفي سنة ٣٢٣.

(٣) **الحسن البصري** ابو سعيد بن يسار البصري التابعي بحر الامة وامام أهل البصرة توفي سنة ١١٠.



٧ في موارد العيش

موارد العيش تختلف باختلاف وضعية الاقليم وخصائصه الطبيعية. فأهل الساحل مثلا تغلب فيهم مهنة التجارة وخوض عباب البحار، وأهل البلاد الداخلية يعالجون على الأكثر شؤون الزراعة وركوب متون الأسفار في القفار، وهكذا كل امرىء يسعى ويعمل للحصول على رزقه جهد المستطاع، وليس للانسان الا ما سعى، ولو اختلفت الأصقاع وتنوّعت الأوضاع.

موسم الحج

موسم الحج في مدينة دمشق المدعوة «باب الكعبة» كان يعدّ في طليعة موارد العيش، حيث يدرّ الأرباح الطائلة على جميع أهلها طيلة العام.

ان الطريق الممتدة من الشام الى المدينة المنورة، فمكة المكرمة، هي الأقصر مسافة، والأكثر سلوكاً من سائر البلاد المؤدية الى الحجاز من جميع الأقطار الاسلامية الشاسعة. وقد اعتنى الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي باصلاح هذه الطريق وإعمارها، واحتفر عليها الآبار، وأنشأ المصانع في كل مرحلة من مراحلها. وبعد الأمويين حاول العباسيون إهمال هذه الطريق والاستعاضة عنه بسبيل الجوف التي سلكها خلفاؤهم، ولكنّ جادة الجوف ما لبثت ان تعطلت بسبب تسلط القرامطة وأشقياء الأعراب عليها، وقطعهم سابلتها، وعدم تمكن الخلفاء من صدهم وردعهم، فأهملت هذه الطريق بحكم الضرورة، وعادت طريق الشام الى سابق عهدها، وأصبحت المحجة الوحيدة التي يسلكها حجاج الشرق والشمال عامة. وقد دأب الملوك والسلاطين الذين حكموا مصر والشام وبلاد الروم على ترميم هذه الطريق وتعميرها وتوطيد الأمن في ربوعها فجعلوا في كل منزلة من منازلها قلعة لها موظفون من الجنود مكلفون بحراسة الماء وتقديمه الى الحجاج في ذهابهم وايابهم، ولبثت دمشق نقطة اجتماع الحجاج الذين يفدون اليها بطريق البر منذ شهر رجب من كل عام من بلاد ما وراء النهر وايران، والافغان، والعراق والأناضول وسواها فيجتمعون في هذه المدينة الى منتصف شهر شوال. وفي خلال هذه المدة يزورون الأماكن المقدسة، ويتاجرون مع أهل الشام متاجرة ذات فوائد متقابلة حيث يبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع ويشترون لقاءه من المنتوجات الشامية ما يروق لهم للاستعمال والمهاداة والمتاجرة، وكان البعض من تجار حمص وحماة وحلب يأتون الى دمشق في موسم الحج ويشتركون بهذه التجارة الغزيرة النفع. ثم يضاف الى هؤلاء الحجاج من يروم قضاء الفريضة من السوريين أيضا، فيبلغون في بعض السنين زهاء خمسة آلاف حاج بين رجال ونساء وخدّام يؤلفون الركب الشامي الذي يسير سيراً مطرداً لا يعتوره خلل يقوده أمير الحج الذي يعيّن من قبل السلطان لتأمين راحة الحجاج وكثيراً ما كانت إمارة الحج تضاف الى ولاة الشام فيكون الرجل والياً وأميراً على الحج في وقت واحد. كان ركب الحج يبرح عادة مدينة دمشق في منتصف شهر شوال من كل سنة، ويبلغ المدينة المنورة في أواسط شهر ذي القعدة، وبعد ان يمكث في المدينة ثلاثة أيام يشدّ رحاله منها قاصداً مكة المكرمة فيبلغها في أوائل ذي الحجة. وعقب قضاء المناسك يقوم من مكة عائداً الى المدينة المنورة فدمشق الشام على الترتيب الذي نذكره في الجدول الآتي:

المراحل

مراحل الذهاب من دمشق الشام الى المدينة المنوّرة وبُعْد بعضها عن بعض:

العدد	المسافة ساعة	المراحل	ايضاحات
—	—	دمشق ـ العسالي	
١	٢	خان ذنون ـ الكسوة	
٢	٩	الكتيبة	
٣	٣	المزيريب	
٤	٥	الرمثاء	أول حدود شرقي الأردن اليوم
٥	١٠	المفرق	
٦	١٣	الزرقاء	
٧	١٦	البلقاء	
٨	١٤	القطرانة	
٩	١٣	الحسّاء	
١٠	١٣	عنزا	
١١	١٠	معان	
١٢	١٨	العقبة	
١٣	١٨	المدورة	
١٤	٨	ذات الحج	
١٥	١٣	القاع الصغير	
١٦	١٣	تبوك	أول حدود الحجاز اليوم
١٧	١٨	الاخضر	
١٨	١٤	المعظم	
١٩	١٤	الدار الحمراء	
٢٠	١٨	مدائن صالح	
٢١	١٠	آبار الغنم	
٢٢	١٦	بئر الزمرد	
٢٣	٨	البئر الجديد	
٢٤	١٨	الهدية	
٢٥	١٨	الفحلتين	
٢٦	١٠	آبار نضيف	
٢٧	١٨	المدينة المنورة	
	٣٤٧	المجموع	

مراحل الذهاب من المدينة المنوّرة الى مكة المكرّمة بالطريق الفرعيّ:

العدد	المسافة ساعة	المراحل	ايضاحات
—	—	المدينة المنورة	
١	٣	آبار علي	
٢	٦	بئر الماشي	
٣	٨	الغرير	
٤	١٠	الريان	
٥	١٣	ام الضباع	
٦	١٤	ظهر العقبة	
٧	٧	رابغ	هنا يدخل الحجاج في الاحرام
٨	١٣	القضيمة	
٩	١٣	عسفان	
١٠	٣٠	مكة المكرمة	
	١٠٧	المجموع	

مراحل العودة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة:

العدد	المسافة ساعة	المراحل
—	—	مكة المكرمة
١	١	الزاهر
٢	٦	وادي فاطمة
٣	١٣	عسفان
٤	٨	الجليص
٥	٩	القضيمة
٦	١٣	رابغ
٧	٧	ظهر العقبة
٨	١٢	بئر رضوان
٩	٨	ام الضباع
١٠	١٠	الغرير
١١	١٢	الريان
١٢	٩	المدينة المنورة
١٠٨	المجموع	

مراحل العودة من المدينة المنورة الى دمشق

العدد	المسافة ساعة	المراحل
		المدينة المنورة
١	٣	الجرف
٢	٥	البئر الصغير
٣	١١	آبار نضيف
٤	١٠	الفحلتين
٥	١٣	دبسة العظام
٦	٩	الهدية
٧	١٣	البراقة
٨	٦	البئر الجديد
٩	٨	بئر زمرد
١٠	١٧	سهل المطران
١١	١٠	مدائن صالح
١٢	٨	جبل ابي طاقة
١٣	١٠	ظهر الحمراء
١٤	٧	مفرش البربير
١٥	١٢	المعظم
١٦	١٨	جنائن القاضي
١٧	٩	الأخضر
١٨	١٣	ظهر المعز
١٩	١٣	التبوك
٢٠	١٢	القاع الصغير
٢١	١٨	ذات الحج
٢٢	٨	المدورة
٢٣	١٩	بطن الغول
٢٤	٩	العقبة
٢٥	٦	بئر الشوبة
٢٦	١٢	معان
٢٧	١٠	عنزة
٢٨	١٢	الحساء
٢٩	١٢	القطرانة
٣٠	١٣	البلقاء
٣١	١٩	الزرقاء
٣٢	١٢	المفرق
٣٣	١٠	الرمثاء

العدد	المسافة ساعة	المراحل
٣٤	٥	المزيريب
٣٥	١٠	الكتيبة
٣٦	٥	خان ذنون ـ الكسوة
٣٧	٤	العسالي ـ دمشق
	٣٤٣	المجموع

المعدات

تشتغل مدينة دمشق بأسرها طيلة العام بالحجاج المسلمين، وإسكانهم خلال مكثهم فيها، واطعامهم، والمتاجرة معهم، ثم باعداد ما يلزمهم ويلزم الصرة السلطانية من الزيوت والشموع والمياه العطرية كماء الورد، وماء الزهر، التي ترسل الى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة المعظمة والحجرة النبوية بهما. ثم باحضار معدات الركب من جمال وبغال وخيول رهافة (رهاوين) وخيام (مضارب) ومحاير (محفات) وتخوت (سرر) وقرب ومطرات واقبية (عبي ـ مشالح) وكفافي، وعكل، واحرامات، وأحذية، وثياب، وصناديق، وارسان (أعنّة)، وسروج، ورواحل، وحلقات، وأجراص، وكلاليب، واكمار، ومشاعل، وفنارات، وقطران، وشموع، الى غير ذلك مما يحتاجه الحاج في رحلتـه، ثم بتهيئة الزاد والذخيرة بين كعك وجبن ولحم مقلي ومعجنات وخضار مجففة ومربيات وشرابات وما شاكلهـا، ثم بعلف الدواب، وترتيب الرجـال الذين يسيرون في خدمة الركب، فيقودون الجمال، ويعلفونها، وينصبون الخيام، ويجمعونها ويملأون الماء، ويحضرون الوقود، ويطبخون الطعام، وهؤلاء يقال لهم العكامة والمهاترة والسقاة ونقلة العلف والأجراء (جمع عكام ومهتار وسقا وحمال وأجير) وغيرها. وتعين الحكومة عند المناقصة بين الطالبين المقتدرين رجلاً يدعى (مقوّم) يقوم بتقديم الجمال وغيرها من المطايا المقتضي للركب في ذهابه وايابه، بحيث إذا هلك أحدها في الطريق يقدم غيرها في الحال، وذلك لقاء أجرة مقطوعة تعينها الحكومة وتعلنها على الملأ، وتأخذ من المقوم كفلاء كي لا يقصّر بواجبه، واذا قصّر تنوب الحكومة عنه بتأمين مطايا الحجاج في الطريق. وكذلك تعين الحكومة سرية من الجند تؤلف من مئتي جندي من راكبي البغال وترفقها بمدفعين جبليين مع ذخائرهما لتأمين المحافظة على الحجاج من تعدي اللصوص في الطريق.

السنجق

عندما يتكامل الركب تخرج أولا الشموع والزيوت والعطور من دار ملتزمها، فيحتفلون بها حرمة للمقامات المهداة اليها، ثم يخرج لواء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) من مسجد الصحابي الجليل أبي الدرداء (عامر الخزرجي الانصاري رضي الله عنه) في قلعة دمشق ويؤتى به من سوق البوابجية فالابارين فالمحايرية فالسروجية فجـامـع السنجقدار، حيث يصلي القوم صلاة العصر جماعة، ثم يسار باللواء (السنجق) الى قصر المشيرية (السراي العسكرية) ويوضع في قاعتها الكبرى، وتتلى قصة المولد النبوي الشريف تيمنا وتبركا، ويظل اللواء ليلة في هذه الدائرة تحت حراسة الجند وتطلق المدافع عند خروجه من القلعة، ولدى وصوله الى الجامع، وعند خروجه منه وحين دخوله من باب السراي.

المحمل

المحمل هو في الأصل الهودج الذي تركبه نساء العرب أيام الأفراح والحروب وتحثثن منه الرجال على الذبّ عن العِرض والوطن. وقد استعملته (شجرة الدر) زوجة الملك الصالح الأيوبي عند ارتقائها أريكة الملك وزخرفته بما يليق بشأن السلطنة، ثم اتخذه ملوك مصر والشام واسطة لترغيب الناس على أداء فريضة الحج، واقرته السلاطين العثمانية وأبقته على ما كان عليه يروح ويغدو مع ركب الحج في كل عام. وهو عبارة عن محفة كبيرة مجللة بالديباج ومنقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطغراء السلطانية ولها رصافات مموهة بالذهب. وكان يحتفل بخروجه وعودته مع الحجيج بموكب عظيم اليك تفصيله:

كان يوم المحمل بدمشق، وهو اليوم الذي يلي خروج السنجق، ويبدأ فيه جموع الحجاج بالمسير نحو القبلة يعدّ من الأيام العظيمة حيث تعطل فيه الأعمال في دوائر الحكومة وفي أغلب أسواق المدينة وخصوصاً على الطريق الطويلة المستقيمة التي يسير عليها موكب الحج من سراي العسكرية الى بوابة الله. فالعسالي على مسافة تقرب من العشرة أميال. وكان يخفّ الى دمشق عدد غير قليل من أهل البلاد والقرى المجاورة للاشتراك بالتفرج على الركب والاحتفاء به ووداع الحجاج الراحلين. ومنذ بزوغ شمس ذلك اليوم ينهض تقريباً جميع سكان المدينة وروادها من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، وينتشرون على تلك الطريق ويملأون الحوانيت والأسطح وطاقات المنازل وشرفات المآذن، وعند الضحى حيث تكون القافلة اخذت بالمسير يحمل المحمل على جمل ضخم الجثة ويسار به وبالسنجق من ورائه بموكب رسمي يتقدمه نقيب السادة الأشراف بملابسه الخضراء، ثم أمين الصرة السلطانية، ومحافظ ركب الحج الشريف، ثم أصحاب المراتب السلطانية من علمية وعسكرية وملكية بملابسهم الرسمية على أصول التشريفات السلطانية ويغادر هذا الموكب باب السراي بين أصوات المدافع وضجيج الخلق تحفّ به كواكب الجند من مشاة وفرسان وسرايا الدرك والشرطة، وتلامذة المدارس العسكرية والملكية، ورجال الطرق الصوفية مهللين مكبرين. ومن أمام المحمل وخلفه تسير جوقتان من أجواق الموسيقى العسكرية تتناوبان العزف بالانغام الشجية وعلى نقاط متقاربة على جانبي الطريق تصف فصائل الجنود المختلفة لتحيّة الموكب الذي يقطع هذه المسافة بنحو ثلاث ساعات على الأقل. وعقيب وصول الركب الى المضارب التي تكون أعدت على دكة المحمل في العسالي، يخفّ لاستقباله والي الشام، ومشير جيشها اللذين يكونان قد حضرا من قبل لتشييع الركب.

ثم توزع الحلوى والمرطبات على الحاضرين، ويسلم المحمل واللواء الى محافظ الحج، حيث يضمهما في صناديق محكمة يتولى حراستها الجند، ويباتان ليلتهما في العسالي.

الركب

يقوم الحجاج الذين يؤلفون الركب ويغادرون دمشق ميممين شطر القبلة، ويرافق بعضهم لفيف من الأهل والأصدقاء بغية وداعهم من مسافات مختلفة تختلف بنسبة استطاعة المودعين، ويتبعون جميعاً تلك المراحل التي ذكرناها آنفاً، وعندما يبلغ الركب اول مرحلة من مراحله، يكون العكامون ورفاقهم قد سبقوه إليه، ونصبوا له الخيام وأعدوها على شكل مدينة صغيرة ذات ازقة متعددة، وهيأوا الماء والوقود وسائر أسباب الراحة، فينزل كل حاج في خيمته ويعلم موقعها الذي لا يتبدل طول الطريق في الذهاب والاياب، وتربط المطايا خلف الخيام، والى جانبها الرحال والاحمال، وتنار ازقتها ليلاً بالمشاعل التي توقد بالقطران، وباطن المضارب أيضاً تنار بالفنارات ذات الشموع. وبينما الحاج يتوضأ ويصلي ويتلو أوراده يكون العكام قد أعدّ له الطعام، فيأكله بلذة وهناء. وفي أوقات الحط والاستراحة يتزاور الحجاج مع بعضهم، ويتسامرون ويتحادثون، وقد جرت العادة ان يكون قيام الركب ونزوله بانتظام تام، متجمعاً غير متفرق، كي لا يضل أحد في الطريق التي تماثل بعضها، ولذلك يطلقون المدافع عند الرحيل ووقت النزول.

المطايا

مطايا الحجاج ثلاثة انواع تخوت ومحائر ورهاوين فالتخت كوخ خشبي ذي باب ونافذتين يحمل على جملين أو بغلين متقابلين ويجلس فيه رجل واحد مرتاحاً. والمحارة محفّة تحمل على جمل وتغطى باقمشة مزخرفة على طراز اقمشة الخيام من نسيج مدينة دمشق ولها مقعدان يجلس ويرقد فيها حاجان معاً، والرهاوين يختارها بعض الحجاج، ويفضلونها على المحارة لأنها تساعد على النزول في الطريق، حيث توجد مقاهٍ سيارة ترافق الركب في مسيره، فيشربون فيها القهوة ويدخنون النركيلة حتى يأتي الركب على آخره، لأنّ طول الركب عند المسير يتجاوز الساعة أو أكثر. وجلّ مساحات المراحل طويلة لا يقوى الركب على قطعها دفعة واحدة، فيجعلون في منتصف المســاحــة ساعة استراحة ينزل فيها الحجاج، ويقضون حاجاتهم، ويصلّون، ويأكلون ويشربون، ويطعمون دوابهم، ثم يرحلون على أصوات المدافع ايضاً.

الاحرام

لما يبلغ الركب أرض رابــغ، وهي من أرض مكـة، يدخل الحجاج في الاحرام، أي يبدأون بأداء المناسك، فيخلعون ثيابهم، ويرتدون مآزر بيضاء لا خياطة فيها.

الجردة

الجردة إرسالية تجارية تنقل للحجيج عند إيابه ما يحتاجه من مأكل وملبس وغير ذلك من اللوازم الضرورية، وهي كانت تبرح دمشق في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة تحت محافظة سرية من فرسان الدرك، وتلتقي بالركب من منزلة الهدية ( ) فتقيم في هذه المنزلة وما بعدها من المنازل سوقاً تجارية سيارة تعود بالفائدة على الطرفين.

عودة الحجاج

ركب الحج الشامي يعود الى دمشق في منتصف شهر صفر وقبل وصوله يقوم أهل الحجاج وذويهم باعداد أسباب القِرى والاكرام لهم، والاحتفاء بهم وبحاشيتهم، فيستحضرون لكلّ حاج وحاجة كسوة جديدة، وقد تتعدد فتكون أكثر من واحدة، ويذهب البعض منهم لاستقبال الحجاج من منازل مختلفة تبتدىء من الكسوة، وتمتد أحياناً الى الزرقاء، ويعودون معهم فرحين بلقائهم، وتقام لهم عقب وصولهم الأفراح سبعة أيام بلياليها. والناس تخفّ الى دورهم للسلام عليهم والتبرك بهم، وقد يأتي الحجيج ببعض الهدايا من المنتوجات والمصنوعات الهندية، ومن تمر المدينة المدعو (جلبي) وهو كبير الحجم صغير النواة كثير الحلاوة لا مثيل له في سائر الجهات، ومن ماء زمزم والحناء وغيرها (وقديماً كانوا يأتون بالعبيد والجواري أيضاً) فيقدمونها الى الأهل والخلان الذين يتلقونها بالبشر ويتبركون بها.

الفائدة المادية

تأمل أيها القارىء الكريم في هذه الأشغال العظيمة التي كانت تدوم وتتكرر في كل عام بمدينة دمشق، وتصور ما ينفقــه الحجــاج وذويهم بين أغـراب ووطنيين من نفقات يعدونها كواجب ديني ومدني ويختارونها بملء الارتياح، وكيف تؤثر على دولاب الأعمال التجارية فتديره ادارة مطردة تفيد الموسر والمعسر في آن واحد، ويبقى

معظمهم في البلاد، ولا يتعداها فيظهر لك عظم تلك الفائدة المادية التي كانت تأتينا بسبب الحجاج المسلمين، ويشترك فيها المواطنون على اختلاف مذاهبهم، مما لا يقل عن ربع مليون من الدنانير الذهبية يعادل الخمسة عشر مليونا من ليرات زماننا الورقية، وقد أضعناها كلها، ولم نستعض عنها بشيء ويا للأسف.

السكة الحديد الحجازية

راى المرحوم السلطان عبد الحميد خان أن الحجاج المسلمين مهما أعد لهم من أسباب الراحة في هذه الطريق الطويلة المضنية لا بدّ لهم من معاناة مصاعب ومكافحة متاعب جمة في حلهم وترحالهم، فقرر ان يخفف عنهم وطأة العناء بانشاء خط حديد بين الشام والحجاز، يقصّر تلك المسافة الشاسعة، ويسهّل على الحجاج أسفارهم. وكتب بعزمه هذا الى سائر ملوك المسلمين وامرائهم بمختلف أقطار المعمورة، ودعاهم للاشتراك في هذا العمل الخيري، فخفوا لتلبية داعي الخليفة، وقدموا لأعتابه زهاء عشرة ملايين من الدنانير الذهبية إعانة لنفقات ذلك الخـط الذي بُدىء به من دمشق، وأوصل الى المدينة المنورة في خلال ثلاث سنوات، واخذت أرتاله تسير بين البلدتين بثمان وأربعين ساعة فقط. وبهذه الواسطة الجزيرة العربية بتلك الشبكة التي تسهّل عند الايجاب أمر الدفـاع عنها تجاه الطامعين بخيراتها، والطامحين للقضاء عليها واستعمارها، ومنعهم من التوسل بمثل هذه الأعمال التي تجعل جزيرة العرب مستعمرة أجنبية الى الأبد[1]، وقد جعل للخط فرعاً من درعا الى حيفا تسريعاً لجلب أوائله في أوقاتها، وتسهيلاً للمناقلات التجارية العامة بين الساحل والداخل ايضا. واليك جدول بأسماء مواقف الخط وبعدها عن دمشق باعتبار الكيلومترات:

مواقف الخط الحديد الحجازي.

العدد	المسافة من دمشق كيلومترات	المسافة بين الموقعين كيلومترات	المواقف	ايضاحات
١			دمشق ـ قنوات	
٢	٥	٥	دمشق ـ القدم	
٣	٢٥,٨٠٠	٢٠.٨٠٠	الكسوة	
٤	٣٥,٧٠٠	٩.٩٠٠	دير علي	
٥	٥٤,٧٠٠	١٩	المسمية	
٦	٦٧,٦٠٠	١٢.٩٠٠	حباب	
٧	٧٤.١٠٠	٦,٥٠٠	خيب	
٨	٨٣.٨٠٠	٨.٧٠٠	المحجة	
٩	٩٦.٢٥٠	٦.٦٥٠	ازرع	
١٠	١١١.٤٠٠	١٤.٨٥٠	خربة الغزالة	
١١	١٢٨,٠٠٠	١٦,٦٠٠	درعا	من هنا يفترق خط حيفا
١٢	١٤١.٧٥٠	١٢.٧٥٠	نصيب	اول منازل شرقي الاردن اليوم
١٣	١٦٦.٧٠٠	٢٥.٩٥٠	المفرق	
١٤	١٩٠.٣٠٠	٢٣,٦٠٠	السمراء	
١٥	٢٠٨.٠٥٠	١٧.٤٥٠	الزرقاء	
١٦	٢٢٧.٤٠٠	١٩.٦٥٠	عمان	حاضرة شرقي الاردن اليوم

العدد	المسافة من دمشق كيلومترات	المسافة بين الموقعين كيلومترات	المواقف	ايضاحات
١٧	٢٣٩,٠٥٠	١١,٦٥٠	القصر	
١٨	٢٥٣,٨٠٠	١٤,٧٥٠	اللبن	
١٩	٢٦٤,٧٠٠	١٠,٩٠٠	الجيزة	
٢٠	٢٨٣,٧٠٠	١٩,٠٠٠	الضبعة	
٢١	٣٠٠,٢٥٢	١٦,٥٥٢	خان الزبيب	
٢٢	٣٠٦,٦٠٠	٦,٢٤٨	السواقية	
٢٣	٣٢١,٢٠٢	١٥,١٢٢	القطرانة	
٢٤	٣٥٣,٥٠٢	٣٢,٣٠٠	المنزل	
٢٥	٣٧٢,٣٠٠	١١,٦٩٨	الغريرة	
٢٦	٣٨٢,٨٦٠	١٠,٦٦٠	الحساء	
٢٧	٤٠٢,٤٠٠	١٩,٥٤٠	جروف الدراويش	
٢٨	٤٢٧,٦٨٥	٢٤,٢٨٥	عنزة	
٢٩	٤٤٥,٥٠٠	١٧,٨١٥	وادي الجردون	
٣٠	٤٦٣,٨١٤	١٨,٣١٤	معان	
٣١	٤٨١,٠٠٠	٣٠,١٨٦	غدير الحج	
٣٢	٤٩٤,٠٠٠	١٣,٠٠٠	بئر الشونة	
٣٣	٥١٩,٢٠٠	٢٥,٢٠٠	العقبة	
٣٤	٥٢٤,٧٠٠	٥,٥٠٠	بطن الغول	
٣٥	٥٣٤,٨٥٠	١٠,١٥٠	وادي الرتم	
٣٦	٥٥١,٣٠٠	١٦,٤٥٠	تل الشحم	
٣٧	٥٦١,٠٠٠	٩,٧٠٠	الرملة	
٣٨	٥٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	المدورة	
٣٩	٥٩٩,٦٠٠	٢٢,٦٠٠	حارة العمارة	
٤٠	٦١٣,٤٠٠	١٣,٨٠٠	ذات الحج	
٤١	٦٣٧,٠٠٠	٢٣,٦٠٠	بئر هرماس	
٤٢	٦٥٩,٤٠٠	٢٢,٤٠٠	الحريم	
٤٣	٦٨٣,٠٠٠	٢٢,٦٥٠	المحطب	
٤٤	٦٩٧,٠٠٠	١٤,٠٠٠	تبوك	اول حدود الحجاز اليوم
٤٥	٧٢٥,٠٠٠	٢٨,٠٠٠	وادي الاثل	
٤٦	٧٤٩,٠٠٠	٢٤,٠٠٠	دار الحج	
٤٧	٧٦٠,٠٠٠	١١,٠٠٠	المستبقة	
٤٨	٧٦٩,٠٠٠	٩,٠٠٠	الأخضر	
٤٩	٧٨٦,٠٠٠	١٧,٠٠٠	الخميس	
٥٠	٨٠٩,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	ذي سعد	
٥١	٨٣٢,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	المعظم	

العدد	المسافة من دمشق كيلومترات	المسافة بين الموقعين كيلومترات	المواقف	ايضاحات
٥٢	٨٥٨,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	خشم الصفا	
٥٣	٨٧٥,٠٠٠	١٧,٠٠٠	الدار الحمراء	
٥٤	٩٠٩,٠٠٠	٣٤,٠٠٠	الطالع	
٥٥	٩٣٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	ابو طاقة	
٥٦	٩٤٦,٠٠٠	١٦,٠٠٠	مبرك الناقة	
٥٧	٩٦٠,٠٠٠	١٤,٠٠٠	مدائن صالح	
٥٨	٩٨٤,٠٠٠	٢٤,٠٠٠	العلاء	
٥٩	١٠٠٠,٠٠٠	١٦,٠٠٠	المشهد	
٦٠	١٠١٧,٠٠٠	١٧,٠٠٠	البدائع	
٦١	١٠٣٩,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	سهل المطران	
٦٢	١٠٥٤,٠٠٠	١٥,٠٠٠	بئر الزمرد	
٦٣	١٠٧٢,٠٠٠	١٨,٠٠٠	البئر الجديد	
٦٤	١١٠٥,٠٠٠	٣٣,٠٠٠	الطيرة	
٦٥	١١٢١,٠٠٠	١٦,٠٠٠	المدارج	
٦٦	١١٣٨,٠٠٠	١٧,٠٠٠	الهدية	
٦٧	١١٦٠,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	الجداع	
٦٨	١١٧٨,٠٠٠	١٨,٠٠٠	تل الشحم	
٦٩	١١٩٤,٠٠٠	١٦,٠٠٠	اصطبل عنتر	
٧٠	١٢١٣,٠٠٠	١٩,٠٠٠	البويرة	
٧١	١٢٣٣,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	آبار نصيف	
٧٢	١٢٥٣,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	البولقة	
٧٣	١٢٧٣,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	الخضيرة	
٧٤	١٢٩٣,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	المحيط	
٧٥	١٣١٢,٠٠٠	٢٩,٠٠٠	المدينة المنورة	
	١٣٢١,٠٠٠			

فرع حيفا من الخط الحديدي الحجازي:

العدد	المسافة من درعا كيلومترات	المواقف	ايضاحات
١		درعا	
٢	١١	المزيريب	
٣	١٦	تل شهاب	
٤	٢٥	زيزون	
٥	٣٦	المفارق	
٦	٤٠	الشجرة	
٧	٥٣	وادي خالد	
٨	٦٥	الحمة	أول حدود فلسطين
٩	٧٤	سمخ	
١٠	٨٤	جسر المجامع	
١١	١٠٢	بيسان	
١٢	١١٨	الشطبة	
١٣	١٢٥	العفولة	
١٤	١٣٩	تل الشمام	
١٥	١٥١	مواجهة عكا	
١٦	١٦١	حيفا	
	١٦١		

وقفية الخط

تعريب الارادة السنية السلطانية القاضية بربط الخط الحديد الحجازي بنظارة الأوقاف

المادة الاولى ـ ربطت إدارة الخط الحجازي العامة بنظارة الأوقاف.

المادة الثانية ـ تودع هذه الادارة لعهدة مدير عام ينتخب من قبل نظارة الأوقاف وينصب بارادة سلطانية.

المادة الثالثة ـ يؤلف مجلس إدارة الخط من ذوي الاختصاص والفن، وينتخب من قبل نظارة الأوقاف، ويصادق على انتخابه من لدن مجلس الوكلاء ويجعل له نظام خاص يحدد زمن انعقاده، ويعين صلاحية ووظائف مأموريه، ويبين صورة إدارة أموره ومعاملاته.

المادة الرابعة ـ الاملاك الجارية بتصرف الخط الحديد الحجازي سواء كان في ممره أو في مواقع اخرى، والتي هي اليوم تابعة لميزانية مستقلة لادارة الخط، وتدار ضمن ميزانية الدولة العامة التي كانت تصححت إسناد تمليكها من قبل نظارة المالية لاسم الخزينة في سنتي ١٣٢٥ ـ ١٣٢٦ الماليتين تعاد ثانية لاسم إدارة الخط الحديد الحجازي العامة ويعهد بادارة شؤونها الى هذه الادارة. أما الاملاك التي لم تربط الى الآن باسناد تمليك فان هذه الادارة منحت الاذن بتسجيلها ايضاً لاسمها وحفظ اسنادها لديها.

المادة الخامسة ـ يعتبر هذا القانون من تاريخ نشره.

المادة السادسة ـ ناظرا المالية والأوقاف يقومان بانفاذ احكام هذا القانون.

في ١٣ تموز سنة ١٣٣٠
محمد رشاد

لبث الخط الحجازي معموراً تسير عليه القاطرات بانتظام تام الى العام الثاني من سني الحرب العالمية الكبرى وهي سنة ١٣٣٤ للهجرة و ١٩١٦ للميلاد. حيث اتفق الشريف حسين باشا امير مكة المكرمة واولاده الشرفاء علي وعبد الله وفيصل وزيد مع دولتي انكلترا وفرنسا اللتين كانتا تحاربان الدولة العثمانية صاحبة البلاد العربية وقاموا بثورتهم (التي ذكرناها في فصل خاص) وخربّوا في خلالها القسم الأعظم من ذلك الخط بين المدينة المنورة ومعان واقتلعوا قضبانه، كي لا تتمكن الدولة من إرسال جنودها عليه لتعقبهم واخضاعهم وكان طريق البحر مسدوداً من قبل أساطيل الدول المتحالفة ضد الدولة العثمانية، فتعطلت المواصلات بين الشام والحجاز، وتعطل بسببها الحج بحكم الضرورة.

وبعدما انتهت الحرب، وعقد الصلح بين المتحاربين في مؤتمر لوزان، ذُكر في المادة الستين من معاهدة الصلح التي وضعت في ذلك المؤتمر ما نصه:

إن الدول التي نالت أرضاً من السلطنة العثمانية يحق لها ان تمتلك جميع الاملاك الواقعة على هذه الأرض مجاناً. اما الأموال والأملاك التي انتقلت من الخزينة الخاصة الى خزينة الدولة بمقتضى ارادات سلطانية، والأموال والاملاك التي كانت تديرها الخزينة فخاصة لخدمة النفع العام، بما ان تلك الدول تقوم مقام السلطنة العثمانية والأوقاف المؤسسة، ينبغي ان تظل كما كانت، ولذلك تقرر ان تجعل ضمن الأموال والأملاك المار ذكرها.

ثم جاء في المادة ١١٧ من المعاهدة المذكورة الجملة التالية:

«ان الدول التي تناظر على حجاج القدس والحجاز وعلى السكة الحديد الحجازية عليها ان تتخذ من الوسائل ما يوافق أحكام المقاولات الصحية المنعقدة بين الامم».

وكذلك ذكر في المادة ١٣٩ من العهدة نفسها ما خلاصته:

«الدول التي امتلكت من السلطنة العثمانية أرضاً متعلقة بالادارة الملكية أو العدلية أو المالية أو بادارة الأوقاف لها أن تحصل على جميع الأوراق والدفاتر والمصورات (الخرائط) والسندات التي بقيت في تركية مما له علاقة بتلك الارض.»

فاستناداً على المادة ٦٠ من معاهدة لوزان هذه استولت دولتا انكلترا وفرنسا المنتدبتان على فلسطين وسورية على القسم الذي بقي معموراً من هذا الخط، وهو الواقع بين الشام ومعان وبين درعا وحيفا ووضعتا أيديهما عليه، وعلى مواقفه وقاطراته وشاحناته ومعامله وأوائله وعلى الأموال الاحتياطية الموجودة في خزائنه وتحت تصرفه، واستأثرتا بها جميعاً. ثم وصلت الحكومة الافرنسية خط الشام بخطوط الشام ببيروت وحلب وربطت الحكومة الانكليزية فرع حيفا بخط مصر وأخذت الحكومتان تستثمرانهما مباشرة. ثم رامت الحكومة الافرنسية أن لا يقال إنها استحلت الأوقاف ولم تراع شرط الواقف، فأمرت بتأليف لجنة في الشام حددت وظيفتها بايجاد الاملاك الموقوفة على ذلك الخط فقط وتركت الدولتان ما بقي من الخط الحجازي بين معان والمدينة. وهو القسم العائد الى حكومتي الحجاز وشرقي الأردن في حالة الخراب والاندراس.

لم يأبه الشريف حسين خلال ملكه في الحجاز بعمل حلفائه هذا حتى ولم يلتفت الى ترميم وتعمير القسم العائد الى مملكته وربطه بسائر الاقسام بحيث يعود سير الحجاج الى ما كان عليه من الانتظام. بل أهمله وجعله يزداد خراباً واندراساً من يوم الى آخر. فانقطع السفر من الشام الى الحجاز بطريق البر بتاتاً، وتعطلت تلك الطريق التي لبثت معمورة ومسلوكة مدة ثلاثة عشرة قرناً دون ان يعتورها خلل.

ولما استولى الملك عبد العزيز ابن السعود ملك نجد على الحجاز واضافه الى ملكه اخذ يطالب بهذا الخط كله لأجل إعماره، وتسهيل السفر على روّاد بيت الله بواسطته. وعلت من مختلف انحاء البلاد الاسلامية أصوات الاعتراض والشكوى من هذا الحيف الذي وقع على الخط فاتصلت مطالبة الملك وشكاوى الاهلين بجمعية الأمم ورام رئيسها الوقوف على الحقيقة فاستوضح المسيو (روبير دوكيه) مندوب فرنسا في تلك الجمعية عن بلاد

الانتداب، وسأله هل كان الخط وقفاً أم لا. فأجاب (دوكيه) مغالطاً انه كان ذا إدارة خاصة، ولم يزد على ذلك شيئاً.

حالة كون الخط كان وقفاً إسلامياً مربوطاً بنظارة الاوقاف كغيره من سائر أوقاف المسلمين. والمادة الستون من معاهدة لوزان تتضمن وجوب المحافظة على الأوقاف فضلا عن صك الانتداب أيضا يقضي بذلك حتماً. والمادة ١١٧ من العهدة المذكورة تشير الى ان الدول التي تستولي على السكة الحديد إن هي الا مناظرة عليها فقط والمناظرة لا تعني الاستثمار والامتلاك طبعا. واذا كانت تنقصنا وثيقة من وثائقه يمكننا جلبها من تركيا بحكم المادة ١٣٩ من العهدة نفسها. ثم ان المادة ٦٠ التي استندت عليها الدولتان بوضع أيديهما على الخط الحجازي تبيح امتلاك الأموال والأملاك للدول التي امتلكت ارضاً من الدولة العثمانية حالة كون الحكومتين الانكليزية والافرنسية لم تكن لهما هذه الصفة ولم تمتلكا الارض السورية امتلاكاً، بل هما منتدبتان عليهما انتداباً موقتاً، وقابلتان مبدئياً بالتخلي عنهما، حينما ينتهي أجل انتدابهما. ولذلك فاننا نستلفت الأنظار الى هاتين النقطتين المهمّتين والى المغالطة التي أبداها (روبير دوكيه) في جمعية الأمم، ونرجو ان تسفر المخابرات التي ما زالت جارية بين جلالة الملك السعودي والدولتين المنتدبتين عن استرداد ذلك الخط الاسلامي البحت واعادته الى أهله والله الموفق.

طرق جديدة

ذكرنا فيما مضى ان طريق الشام ـ المدينة هي المحجة الوحيدة التي سلكها الحجاج المسلمون منذ الف وثلاثمائة عام. فلما تخربت خلال الحرب العالمية ولم يلتفت لاعمارها أحد، وكانت طريق البحر يتعذر سلوكها على معظم الحجاج، سادت في السنوات الأخيرة فكرة افتتاح طريق حديدية جديدة من الخليج العربي الى مكة مباشرة، واعادة فتح طريق الجوف القديمة من بغداد الى المدينة بحيث يسلكها الحجاج الفرس والأفغان والعراقيون وبعض الهنود دون ان يعرجوا على دمشق البتة. واغتنم الانكليز الفرصة وشرعوا بتخطيط طريق حديدية جديدة تبتدىء من منابع البترول في كركوك (العراق) وتنتهي في ثغر حيفا على البحر المتوسط، وسيربطونها حتما بخط مصر، فتصبح اذ ذاك مدينة دمشق منعزلة ومنفردة عن سائر البلاد، ومحرومة من كل ما كان لها من الموارد الطبيعية والمواصلات التجارية.

مقارنة

مقارنة بين الامام يحيى حميد الدين صاحب اليمن والشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة ومليكها المخلوع:

الامام يحيى

لما كان سلاطين آل عثمان يبايعون بالخلافة الاسلامية منذ أيام السلطان سليم الأول لم يكن في امكانهم الاعتراف بامام اليمن الذي هو رئيس المذهب الزيدي المخالف في فروعه للمذاهب الأربعة المجمع عليها أهل السنة. ولبث العثمانيون منذ احتلالهم القطر اليمني على نزاع وقتال دائمين مع ائمة الزيود، ولو استطاعوا لما أبقوا عليهم يوماً من الايام. وبالرغم عن كل هذا فانه عندما أعلنت الحرب العالمية وسدت طرق البحر انقطع المدد عن الجيش العثماني المرابط باليمن وأصبح عرضة للجوع والعري والهلاك فرأى ذلك جلالة الامام يحيى حميد الدين وأبت مروءته الهاشمية ان يصاب أولئك المسلمون المؤلف منهم ذلك الجيش بضر واذى وهم جيرانه، وجار الكريم لا يضام. فأخذ يرسل لهم من ماله الخاص ما يقوم بأودهم من مال وذخيرة ولباس ولم يشأ ان



المؤلف عبد العزيز العظمة

صورة عائلية لعبد العزيز العظمة وأسرته ويبدو في الصورة من اليمين الى اليسار كل من نبيه العظمة، وحيد العظمة، عبد العزيز العظمة، يوسف العظمة، وعادل العظمة وفي الصف الأمامي من اليمين الى اليسار هبة العظمة، وديعة العظمة، وسنية العظمة



المؤلف عبد العزيز العظمة
في مطلع شبابه
٢٧ تشرين الثاني ١٨٧٣



مراسم وداع المحمل الشريف في دمشق سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٤ م ويبدو في الصورة (الأول والثاني غير معروفين) الثالث من اليمين غالب الزالق، والرابع عبد العزيز العظمة، والخامس اللواء طيار باشا، والسادس عارف حكمت باشا، والسابع عثمان باشا، والثامن - الجانب الآخر من المحمل - عثمان نوري باشا قائد الجيش الخامس. التاسع غير معروف. والعاشر عبد الرحمن اليوسف



موكب المحمل الشريف في دمشق سنة ١٣١٠ هـ - ١٨٩٤ م ويبدو في مقدمة الموكب عبد العزيز العظمة ممتطياً حصاناً أبيض



الشهيد يوسف العظمة في اللباس العسكري



الشهيد يوسف العظمة
في اللباس المدني



الشهيد يوسف العظمة في ثياب التخرج من الكلية الحربية
في ايار سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٤ م



المؤلف عبد العزيز العظمة سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٢ م



من اليمـين الى اليسار. عبد العزيز العظمة، ايهم الطرزي، عبد الحميد يحي، ورضا باشا الركابي سنة ١٣١٠ هـ ١٨٩٤ م



أعضاء المؤتمر السوري سنة ١٩٢٠

يباغتهم وهم في حالة الضعف ويبيدهم عن بكرة ابيهم كما فعل الشريف حسين في الحجاز بل تركهم مقيمين في بلاده عائشين بعطائه الى ان وضعت الحرب اوزارها ورحلوا من اليمن بسلام.

وبعد الحرب وتخلي الأتراك عن جميع البلاد العربية طلب بعض الاتراك من رجال الجيش والولاية اليمنية البقاء في اليمن واتخاذها موطنا لهم، فأجابهم جلالة الامام الى طلبهم، واستخدم الضباط منهم في جيشه العربي، وفتح صدره الى من التجأ اليه من مضطهدي الاتراك الكماليين، وجعل منهم المستشار والوزير وناظر المكس[٢] وامراء الجيش وغيره فنالوا في ظله الوارف ما حرموا منه في بلادهم.

الشريف حسين

عندما افتتح السلطان سليم الأول العثماني بلاد الشام ومصر عام ٩٢٢ للهجرة كان الشريف محمد أبي بركات بن الشريف ابي غي اميرا على مكة المكرمة من قبل السلطان الغوري الشركسي سلطان مصر والشام الذي استأصله السلطان سليم وأباد دولته. فاقام الشريف أبي البركات الخطبة في مكة المكرمة باسم السلطان سليم وارسل له وهو في مصر مفاتيح الكعبة المعظمة مع ابنه الشريف حسن وعرض عليه خضوعه واستسلامه فقبله السلطان سليم وأبقاه من لدنه في امارة مكة التي أضيفت مع الحجاز بأجمعه الى الاملاك العثمانية. ومنذ ذلك الحين كلما مات أو عزل أمير من أمراء مكة يعين السلطان اميراً آخر من الشرفاء محله، الى أن انتهت الامارة الى الشريف حسين باشا بن علي، فكان وزيراً من وزراء السلطنة العثمانية، يرتدي خلعتها، ويحمل أوسمتها، ويقبض من الخزينة السلطانية رواتبها. ولما أعلنت الحرب العالمية لاح له ان ينفصل عن هذه الدولة ويتفق مع خصومها، فقام بثورته (التي سنتحدث عنها بالتفصيل في القسم الثاني ـ التاريخي ـ من هذا الكتاب) وقاتل بقايا الحاميات العثمانية في مكة والطائف، فقتل منها من قتل، وسلم الباقين الى حلفائه الانكليز الذين أرسلوهم الى مصر. ثم أخذ يحاول حصار المدينة المنورة، ويخرّب الخط الحديد الحجازي. فنهض السلطان عبد العزيز بن السعود ملك نجد وقدم بخيله ورجاله الى الحجاز، وشرّد الشريف وجماعته، واستولى على القطر الحجازي بكامله، وأضافه الى مملكته، فاقام الشريف حسين مدة في باخرة بخليج العقبة يحاول استرداد ملكه، فجاءته في ١٨ حزيران سنة ١٩٢٥ بارجة انكليزية واخذته قسراً الى جزيرة قبرص التي أقام فيها اقامة إجبارية.

يروم البعض ان ينتحل للشريف حسين عذراً في اتفاقه مع الانكليز، وقبوله إعاناتهم، لأن الحجاز وادٍ غير ذي زرع، وليس فيه ما يقوم بأود سكانه، وانه لولا تلك الاعانات لكان قضي على الحجازيين وهلكوا عن آخرهم. ان هذه الدعوى يخالها من ليس له اطلاع على الحقائق واردة لا ريب فيها، ولذلك رأينا تمحيصها وتصحيحها، فنقول:

حينما أعلنت الحرب العالمية رات الدولة العثمانية صاحبة البلاد ان طريق البحر سوف تقطع من قبل الأعداء ويمسي الحجازيون في ضيق عظيم، فقررت استجلاب المستحضرين منهم الى شتى بلادها ليقيموا على الرحب والسعة ثم يعودوا الى أوطانهم بسلام. وفعلا باشرت بجلب أهل المدينة المنورة الى دمشق وضواحيها، وامنتهم على أموالهم وأرواحهم بين أهليها. وكان على الشريف ان يشفعهم بسائر أهل المدن الحجازية كي تخف وطأة الضيق ولا يبقى في الحجاز سوى من لا يميل الى الهجرة ويستطيع تأمين قوته بأية صورة كانت. أما قبائل البدو فانهم رحل بالطبع فاذا لم يصبروا على الطوى يمكنهم الرحيل الى الأقطار المجاورة حيث ارض الله الواسعة كما كانوا يفعلون في العصور الغابرة. على ان الدولة العثمانية لم تفتر عن ارسال المرتبات الحجازية مع معتمديها امناء الصرة السلطانية حسب عادتها في كل عام وانما الطريق بعد المدينة المنورة كانت مسدودة من قبل الثوار فلم يتمكن أولئك الامناء من اجتياز المدينة والقيام بمهمتهم واخذوا يعودون أدراجهم. فلو كان الشريف يروم إعانة الحجاز بدون مداخلة الانكليز لكان اتفق مع الاهلين، واقتدى بجده المغفور له الشريف ابي غي رضي الله عنه وبدأ بثروته الخاصة التي تضاعفت بما اغتنم خلال الحرب من هنا وهناك، وبذلها في سبيل استجلاب القوت بقوة المال من اداني البلاد وأقاصيها ثم استصرخ ملوك المسلمين وأمراءهم في مختلف بقاع الأرض الذين لو

علموا بحسن نية الشريف لما أحجموا عن تلبية داعيه، وامداده بالاعانات العظيمة في السرّ والعلن. خصوصاً وأن مسلمي الهند لما دعاهم الانكليز للاشتراك في الحرب العالمية اشترطوا عليهم ان لا تتخطى الجيوش الانكليزية البلاد المقدسة الاسلامية. فاعلنت حكومة الهند رسمياً في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٤ أن الحرمين الشريفين في الحجاز والعتبات العاليات في العراق تظل خارجة عن المناطق والأعمال الحربية ثم نادت الحكومة الانكليزية وأعلنت رسمياً ان جزيرة العرب كلها خلا بعض سواحلها (كجدة والحديدة والبصرة وغيرها) تستثنى من الحركات الحربية البرية والبحرية بتمامها، ولذلك لم يكن ثمة من داعٍ للتخوف من الحرب، ثم منع القوت عن الحجاز بتاتاً. ثم ان شريف مكة كان له المقام الأرفع لدى حجاج المسلمين الذين يؤمون الحجاز في كل عام من جميع أقطار المسكونة فيقودهم الى عرفة، حيث يناجون الحمد سبحانه، وهم في حالة الاحرام، ومنتهى الوحدة والاستغراق، عراة حاسرو الرؤوس، لا همّ لهم ولا يخطر ببالهم في تلك الساعة الرهيبة سوى نوال العفو والمغفرة الموعودين بهما من لدن المولى جل وعلا. فهؤلاء الحجاج في حالتهم المنوه عنها كانوا معرّضين في خلال سعيهم وطوافهم حول البيت المعظم لأنواع الاضطهادات كالسلب والنهب والفتك والقتل بحيث تغيب آثارهم عن ذويهم الذين يعودون الى أوطانهم نادبين تلك الفوضى الضاربة أطنابها في أقدس بقعة من بقاع الأرض ناسبين حصولها الى تقاعس الشريف عن الضرب على أيدي أولئك الأشرار، وكفّهم عن رواد بيت الله كما فعل غيره من بعده. فهل بعد كل هذا يُعد قبول الاعانات الانكليزية اضطرارياً أم اختيارياً؟

السيّاح

لما كانت سورية ذات حضارة قديمة وآثار قيّمة عظيمة، وهي عشّ الأنبياء ومنشأ اغلب الأديان وتمتاز باعتدال هوائها وعذوبة مائها وبديع مناظرها. كانت وما زالت مسرحاً للسياح والزوار الشرقيين والغربيين الذين يؤمونها في جميع الأوقات وخصوصاً في فصلي الربيع والصيف لزيارة الأماكن المقدسة ومشاهدة الآثار القديمة، والتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة، والاستفادة من النسيم العليل والمناخ المعتدل. قبلا كان السياح يجوبون هذه البلاد على ظهور الدواب بواسطة شركات السفر، كشركة (كوك)، مثلا، التي تنقلهم من منزلة الى منزلة، وتضرب لهم المضارب في الخلاء وتهيىء لهم الطعام والشراب حيثما حلوا ونزلوا، فتستفيد البلاد من قيم الدواب وأكلافها وعلفها وأوائلها، وتنتعش القرى بما تقدمه الى السياح من لحوم ودجاج وبيض وبقول وفاكهة ووقود الى غير ذلك من لوازم الطعام والعلف. اما وقد وجدت السيارات، وقربت البلاد من بعضها وقضت على الدواب والمضارب فزال معظم تلك الفائدة التي كانت تحصل من معاملات السياح، ولم يبق للبلاد سوى أجور السواقين (وجلهم من الأرمن واليهود الصهيونيين) وارباح أصحاب المطاعم التي يهبطها السيّاح في المدن.

أرتأت جارتنا لبنان تعويض ما فقدته في هذا السبيل بحث الأهلين على إنشاء مصايف كافية في مختلف ربوع الجبل بحيث تجمع أسباب الراحة والنشاط، وتؤمّن الصحة والرفاه، فيقصدها الزوّار ويقضون فيها فصل الصيف بعيدين عن الضوضاء والعناء. وقد قامت لأجل ذلك بدعايات عظيمة في اوروبا واميركا، والقطرين المصري والعراقي، وبذلت في سبيلها المبالغ الطائلة، فتم لها ما ارادت وتجاوز عدد المصطافين الذين أمّوا جبل لبنان في السنة الواحدة العشرين الفاً من النفوس وبلغ مقدار المال الذي تركه هؤلاء في الجبل، ما يقارب العشرة ملايين من الليرات السورية. وبما ان منطقة الشام ايضاً تملك تلك الصفات ذاتها، وهي تحوي بطبيعتها قرى عديدة بديعة المناظر، جيدة الهواء على سلسلة الجبل الشرقي (القلمون) الذي يمتد من قرية الزبداني الى قريتي يبرود وقارة وعلى سفوح جبلي حرمون وقاسيون ولا ينقصها سوى تعبيد طرقها وتسهيل مواصلاتها ومناقلاتها وايجاد أماكن صحية في أطرافها، فقامت الحكومة السورية واخذت على عاتقها تأمين هذا المورد الطبيعي العظيم وقبل ان تعبد الطرق وتجعلها صالحة لسلوك السيارات وسائر وسائط النقل والركوب وتؤمن راحة الزوار وتحث الأهلين على انشاء المنازل وتمدهم بالمال عند اللزوم تركت الطرق على حالها والأهلين وشأنهم واختارت قرية بلودان فقط (التي تحوي عدة نزل تقوم بالحاجة، وقد اعتاد أهلها على إعداد بيوتهم وإيجارها للمصطافين) وانشأت فيها فندقاً فخماً يفوق فنادق لبنان سعة وضخامة وانفقت عليه مبلغاً طائلا قيل إنه ينوف على المائة الف

ليرة سورية، وجرّت اليه المياه العذبة. وعندما تم انشاؤه قامت الدعايات التي لم تستطع سورية الحيلولة دونها لتعطيل هذا الفندق فكان من حظه ان لم يتقدم لاستئجاره وتأثيثه أحد، بل بقي خالياً منذ ثلاث سنوات، واقتسم الجيرة مياهها وراحت نفقاته في سبيل الفخفخة. إن التجارة شيء والحكومة شيء آخر، فمداخلة الواحدة في أمور الاخرى قد تأتي بنتائج معكوسة وتولد اضراراً جمة كما جرى في هذا الفندق أو المصيف الذي ساد عليه السكون، وكاد أمره ينسى ولا من يسأل عنه. فهل تثوب هذه الحكومة الى رشدها (ولا تنشىء المعلف قبل شراء الدابة) فتصلح الطرق أولا ثم تحث الاهلين على الأعمال النافعة وتسهل لهم سبلها فتفيد وتستفيد انشاء الله تعالى.

الزراعة

الزراعة أهم أركان الثروة، وأحد ثدييها اللذين يدرّان الخير والبركة على البلاد، يتعاطاها الكثير من سكان المدن وجميع أهل القرى. كانت سورية في الأزمنة القديمة من أغنى بلاد الله بزراعتها حيث السهول والحقول، واسعة والتربة جيدة، والهواء معتدل، والمياه غزيرة تتدفق من الأقنية والجداول والسواقي والنواعير العديدة المتفرعة من تلك الأنهر الفياضة كالفرات والعاصي وبردى والأردن وغيرها، والمنشأة على أصول فنية ثابتة، فتسقي الأرض المرتفعة والمنخفضة على السواء، وتجعل تلك السهول خضراء نضرة ذات خصب عظيم، تملأ بمحاصيلها الاهراء الضخمة وتكفي لتموين البلاد القاصية والدانية في آن واحد. وما يترك منها للكلأ ترتع وترعى فيه القطعان العديدة من الخيل والابل والبقر والضأن والمعزى وغيرها من الدواب والماشية التي تسدّ حاجات البلاد وتفيض عنها. وهذه النعمة الطبيعية حركت مطامع سائر الأمم فراحوا يغزون هذه البلاد، ويزاحمون أهلها، ويحاولون طردهم وتشتيتهم من بلادهم، مما ادى الى حروب متوالية منذ فجر التاريخ، والى تعطيل واهمال أمر الزراعة وتخريب الكثير من تلك القنوات والجداول، فنضب الماء في بعض الجهات وجفّت الأرض التي لا تصل اليها مياه الأنهر، وغدت تنتظر رحمة الله لريّ حقولها من الغيث الذي قد ينحبس ولا ينهمر في بعض السنين، ويولد الجدب مكان الخصب ويضطر الناس الى استجلاب المؤن من سائر الجهات، فيجرف الثروة الوطنية، ولا يُبقي عليها ولا يذر، كما جرى في السنوات الثماني الأخيرة التي استوردت في خلالها سورية ولبنان من البلاد الخارجية حبوباً كثيرة لتأمين أقواتها. وهذه أثمان تلك الحبوب حسب إحصائية الكمرك.

ليرة سورية	السنة
٥٦٥١٨٤٠	١٩٢٦
٤٠١٢٥٠٠	١٩٢٧
٦١٥١٨٤٠	١٩٢٨
٣٤٨٨٠٤١	١٩٢٩
١٧١٩٦١٩	١٩٣٠
٣٣٣٧٢	١٩٣١
١٥١٦٤٧١	١٩٣٢
٢٣٨٢٥٠١	١٩٢٢
٢٤٩٥٦١٨٤	المجموع.

وعدا ما مَحَلَ وبارَ في الأزمنة الغابرة، فان الأرض التي لبثت تسقى بمياه الأنهر والقنوات في أطراف الشام وضواحيها كانت طافحة بالمغروسات التي قسمت في الأصل الى قسمين: قسم الفواكه والخضار، وهذه تألفت

منها الجنائن والبساتين التي أحيطت بجدران ترابية تحفظها من تعرض الانسان والحيوان. والقسم الثاني الاشجار الباسقة الكبيرة الحجم، كالسرو والزيتون والحور وما شاكلها، وهي كانت تغرس في الفلا وتؤلف أحراجاً وغياضاً كثيفة تصل القرى ببعضها وتظلّ خضراء طيلة العام. وكان أهل الشام يعنون بخشب السرو ويجعلون منه حلقات البيوت (التي ذكرناها خلال البحث عن القاعات) وصناديق الثياب، حتى وبعض أعمدة السقوف لمتانتها وعدم تعرضها للسوس ودوام رائحتها الذكية مدة مديدة، بيد أن أشجار السرو يطول أمد نموها فيحتاج الى سنين عدة قد لا تكفي حياة المرء لقضائها، وجني ما غرسه بنفسه منها، فكان الأوائل رحمهم الله يستعملون ما غرسه الآباء والأجداد، ويغرسون ما يبقى من بعدهم الى الأولاد والأحفاد وهكذا تدوم الأحراج في نضارتها والاستفادة على حالتها. ومن دواعي الأسف ان الطمع والخمول اللذين تسربا الى النفوس العاملة أوصلاها الى إهمال غرس السرو وتركه بتاتا، والاستعاضة عنه بتكثير شجر الحور الذي ينمو سريعاً ولا يعيش طويلا. اما الزيتون الذي كانت تزدان به تلك الحقول الواسعة ويشغل ثمره مركزاً عظيماً في التجارة، فهو كالسرو يفيد الأبناء من غرس الآباء وكانت حقوله تقوم مقام الأحراج الطبيعية للمدينة بحيث يرجع الى الاحتطاب منها أيضاً عند الضرورة لتأمين الوقود في الشتاء وكان العرف والعادة يقضيان بأن يستعاض عن كل شجرة تقطع بغرس شجرة أو أكثر مكانها حيث تنمو مع الأيام وتقوم مقام الأشجار المقطوعة وتجعل المدينة والقرى محاطة بالهالة الخضراء دائم الأوقات. وهذه العادة المفيدة أهملت أيضاً في الأيام الأخيرة ولم يستعاض عن حقول الزيتون بشيء من المغروسات فأصبحت كأحراج السرو مشرفة على النفاد والفناء. ثم انه عندما ازداد السكان واتجهت الرغبة نحو البناء في الفلا اتسعت المدينة بتحويل البعض من بساتينها الى شوارع وأزقة ودور وحوانيت وغير ذلك من البنايات، ففقد بهذه الواسطة قسم لا يستهان به من البساتين التي لم يعوضها أصحابها بإحداث بساتين غيرها، فضاقت دائرة الغرس والزراعة واخذت تلك الهالة الكثيفة تضيق وتتناقص من يوم الى آخر، وتستحيل الى أرض جرداء تثير الغبار في الليل والنهار، وأصبحت مياه تلك البساتين لا تكاد تكفي لرش الشوارع المستحدثة واخماد غبارها المتطاير دوماً ولا أحد يفكر بإحداث بستان يقوم مقام البستان المفقود أو يغرس جذوع الزيتون لتعويض أشجاره المقطوعة. ومن المحقق فنيا ان الاشجار تجلب الأمطار أي انه كلما كثر الشجر في أرض ما يزداد سقوط المطر عليها فقلة الغيث التي راح الناس يشكون ويتذمرون منها في السنين الاخيرة سببها تناقص الأشجار، فاذا إتسعت دائرة الغرس يزداد انهمار الغيث بلا ريب وتتفجر الينابيع التي كادت تنضب وتجف من عام الى آخر، فتنمي الزرع وتنمي الضرع وتعيد تلك الفوائد العظيمة الى سابق عهدها. هذا وان الجنائن والبساتين الباقية في مدينتنا ذات تربة حمراء رملية تصلح لكل انواع المزروعات الصيفية والشتائية وتتحمل الزرع اكثر من مرة في العام، وأشجارها طويلة الساق متنوعة الأثمار، وأهلها ذوو خبرة ومهارة بتطعيمها واصلاح الكثير من انواعها ووضع ثمارها اليانعة غضة ومجففة في ميدان التجارة. واليك مساحة البلاد السورية كلها ومساحة الأرض المزروعة منها اليوم:

المساحة كيلومتر مربع	الأرض المزروعة هكتار	
١٥٧٠٠٠	١٣١٧٠٠٠	سوريا
١٠٥٠٠٠	١٧٢٠٠٠	جبل لبنان
٦٥٠٠	٢١٨٠٠٠	اللاذقية
٦٠٠٠	٤٥٠٠٠	جبل الدروز
٢٧٤٥٠٠	١٧٥٢٠٠٠	

الضمان

لما كانت أثمار الأشجار من الجنس الواحد تينع وتنضج في وقت واحد، ولا تتعداه، فان قطفها وجنيها قبل أن تتساقط وتتفسخ، ثم عصرها أو تجفيفها، يحتاج الى أيدٍ عاملة كثيرة قد لا يتمكن صاحب البستان وحده من استخدامها، فضلا عن ان له في حرث الأرض وزرعها وتعشيبها واصلاحها شغلا يستغرق أيامه كل العام. فقد اعتاد القوم على ما يسمونه الضمان، وهو بيع الأثمار وهي على الأشجار قبل أن تنضج، وهذه العادة نشأت في بخارى عندما أعوز أهلها المال في إحدى السنين، فعوضاً من ان يبيعوا الأرض أو الشجر، اكتفوا ببيع أثمارها التي بدت طلائعها، ولبثت الأرض والشجر ملكاً لهم، وأصبح ذلك عادة متبعة تتكرر في كل عام، ومن بخارى انتقلت هذه العادة الى بلاد الشرق وتأصلت في دمشق واستقرت منذ عصور. موسم الضمان في دمشق موسم تجارة مهمة ينتفع بها الضامن (المشتري) وصاحب الأرض (البائع) والعمال والباعة معاً وقد تناهز قيمة الضمان في بساتين دمشق وغوطتها زهاء المائتين وخمسين الف دينار في السنين المقبلة. وللضمان أصول وقواعد معروفة ومرعية الاجراء بين أهل الشر وهي أنه بعد منتصف شهر نيسان من كل عام، حيث تكون الاثمار بدت على الأشجار يطوف طلاب الضمان البساتين ويرون ثمارها، ويقدرون وزنها وقيمتها لانفسهم كما ان صاحب البستان يقدّر الكمية والقيمة على حدة ثم يجلس الضامن وصاحب البستان ويتبايعان، فاذا اتفقا على بدل معين قضي الأمر، والا فتعاد الجلسة مرة ثانية أو أكثر مع نفس الطالب أو غيره الى ان يحصل التراضي والاتفاق، وحينئذ يؤدي الطالب عربوناً يأخذه صاحب البستان ويدعو له بالبركة، ثم يذهب الضامن لتدبير بقية القيمة وينتظر كلاهما ليلة عيد الخضر (مار الياس) التي تصادف الثالث والعشرين من شهر نيسان على الحساب الشرقي، وهي آخر ليلة يحتمل فيها وقوع الصقيع وأضراره بالاشجار حسب طبيعة الاقليم وتجارب أهله، فاذا ما انقضت هذه الليلة بسلام يعد الضمان باتاً نافذاً، واذا أصيبت الأشجار قبل صباح اليوم الذي يلي تلك الليلة بضرّ أو نقص، يكون الضامن مخيّرا، إن شاء عدل عن ضمانه واسترد عربونه، وهذا من حقوقه المتعارفة، وان شاء ظل قابلا بالضمان، فيؤدي القيمة بتمامها، وربما تنازل له صاحب البستان عن شيء منها باختياره ورضاه.

المحراث

ما زال فلاحو الشام يستعملون المحراث والمحصاد القديمين اللذين تجرهما الأبقار أو الخيول في الفلاحة أو الحصاد لضيق البساتين وكثافة أشجارها التي لا تمكن من استعمال الاوائل الحديثة. أما الحقول الخالية من الأشجار والارض الجرداء فهي تصلح للاوائل الحديثة وتعد أكثر نفعاً وأغزر جدوى.

قمر الدين والنقوع

أعظم المحاصيل التي تستخرج من بساتين دمشق وتصدّر الى البلاد القاصية والدانية هو ما يسمونه قمر الدين[٢] المصنوع من عصير المشمش ذي النواة المرّة المدعو البلدي أو الكلابي ويليه النقوع وهو مجفف المشمش البلدي ذي النواة الحلوة. وقد شاهدت بنفسي خلال رحلاتي العديدة قمر الدين الشامي في كل بلدة هبطتها من الاستانة الى البصرة، ومن اليمن الى مصر والاناضول. أما النقوع فهو أقل من ذلك وإذا وجد في بلدة لا يوجد في غيرها.

الأشجار

الاشجار نوعان: مثمرة، وغير مثمرة، وهذه أسماء الأشجار المثمرة التي تأتي أكلها كل عام وأجناسها المتعارفة بين الناس:

١ ـ **البندق** ـ قليل جداً
٢ ـ **التفاح** ـ السكري، والفسقي، والناعم، والفاطمي، والدرشاوي، والمنيني، والبلدي، والشموطي، والحامض والحمائلي، والعراقي، والسكارجي، والشتوي، والمغربي.
٣ ـ **التمر** ـ يوجد في الشام بضع نخلات لا تقوى على شدة البرودة فيبقى ثمرها غير ناضج ولا يعرف جنسه.
٤ ـ **التوت** ـ الأبيض والأحمر، والأسود، والشامي.
٥ ـ **توت السياج** ـ نوع من الثمر لذيذ الطعم، يقطف من عرائشه التي تنبت بالفطرة، وتلتف على بعض جدران البساتين.
٦ ـ **التين** ـ الملكي، والسلطاني، والميسوني، والسوادي، والبعل، والغريب، والصرفندي، وكعب الغزال.
٧ ـ **الجانرك** ـ (مخفف «جان أريك» التركية) منه السكري، والماوردي، والاسطنبولي، وطعم اللحام، والتفاخي، والأصفر.
٨ ـ **الجوز** ـ البلدي الطويل الساق، والافرنجي القصير الساق والكثير الثمر[٤].
٩ ـ **حب الآس** ـ نوع واحد.
١٠ ـ **الخرنوب** ـ قليل جداً.
١١ ـ **الخروع** ـ نوع واحد[٥].
١٢ ـ **الخوخ** ـ الأسود، والزليط، وأصابع العروس، والأصفر، والماوردي، والأبيض، والقيصري، والأجاصي وخوخ الدب.
١٣ ـ **الدراق** ـ الزهري، والغتمي، والحمصي، والاستنبولي، والكلابي.
١٤ ـ **الرمان** ـ الحلو الشوكي، والماوردي، والحامض الماوردي، والأسود.
١٥ ـ **الزعبوب** ـ جنس واحد.
١٦ ـ **الزعرور** ـ قليل.
١٧ ـ **الزيتون** ـ الأخضر والدان والفقش والجلط والمكبتل الجلاسي والتفاحي[٦].
١٨ ـ **السفرجل** ـ البلدي والشتوي والتفاحي.
١٩ ـ **الشيلك** ـ يقال له (فريز) يزرع في بعض البساتين، وهو نوعان بلدي وافرنجي.
٢٠ ـ **الصبارة** ـ جنس واحد.
٢١ ـ **العفص** ـ جنس واحد.
٢٢ ـ **العناب** ـ جنس واحد.
٢٣ ـ **العنب** ـ الزيني، والبلدي، والتيموني، والعاصمي، وبيض الحمام، وخدود البنات، وأصابع، واشلميش، والمسكي، والصنوبري، والبياضي، والدربلي، والحتاوي، ورقة، وصيصان، والخضيري، والاصوفي، وبزاز الكلبة. وهذه الأنواع كلها بيضاء اللون، ويليها الدوماني، والحلواني، والديراني، وهي حمراء ثم الأسود البلدي، والعبيدي، وأبي قربة، والراوندي، والرومي، والافرنجي، والمريمي سوداء[٧].
٢٤ ـ **الفستق** ـ نوع واحد وقليل جداً، مع انه كان يوجد في قرية عين التينة من جبل القلمون نوع من الفستق يدعى ناب الجمل ضخم الحبة في حرج مشاع من القرية فاختلف الأهلون على ملكيته وساقهم الجهل الى إبادته.
٢٥ ـ **القراصية** ـ وهي الكرز، منها الأبيض، والأحمر، والأصفر، والأسود، والوشنة.
٢٦ ـ **قزلجق** ـ نوع واحد وقليل جدا.
٢٧ ـ **الكمثرة** ـ وهي الاجاص منه العثماني، وأبي سطل، والشتوي، والمغربي، وأبي زبلة.
٢٨ ـ **اللوز** ـ لا ينضج اللوز تماماً ومنه ما يباع غضّا باسم العقابية.
٢٩ ـ **الليمون** ـ الحامض، والحلو، والمغربي، والبرتقال اليافاوي، والشموطي، والمكبتل، والماوردي، والصيداوي، والسكري، والمندلين (يوسف أفندي)، والكباد، والفرسكين، والنارنج، وهذه الأنواع كلها

توجد على الأكثر في الدور دون البساتين، وراء الجدران التي تقيها من لفح الريح الشمالية ولا تخلو دار من شجرة أو عدة أشجار منها.

٣٠ ـ المشمش ـ السندياني، الكلابي، والحموي البكير، واللقيس، والتدمري، والوزيري، والبلدي والماوردي والشمعي، والهندي (اكدنيا)[٨].

تصدر من هذه الأثمار القناطير المقنطرة بين غضة ومجففة، أو معصورة، أو مرباة، الى جبل لبنان وفلسطين ومصر وتركيا والعراق والحجاز واليمن وأوروبا واميركا، والباقي يستهلك في البلاد.

الأشجار غير المثمرة

الحور (ومعظم بنايات دمشق اليوم من أخشابها)، والصفصاف، وشجر الخلاف (المستحي)، والاقاصية (المسكي)، والدردار، والغار، والدلب، والميس، والبلوط، والسنديان، والزنزلخت، والسرو، والصنوبر (وهو لا ينضج في الشام)، والشربين، والطرفة، وشجر الكينا (اوكاليبتوس) بأنواعه، والفلفل (لا ينضج)، والجلنار وسواه مما يستعمل في البناء والوقود وتجديد الهواء والزينة.

الزروع الأرضية

أهمها الحبوب، وهي الحنطة، والشعير، والذرة، بأنواعها، ودارة المكانس، والجلبانة، والكرسنة، والبيقية، والحلبة، والرطبة (وهي القضيب او الفصيفصة)، ثم الفول، والحمّص، والعدس، والماش، والبازالية، والفاصولية، واللوبياء، والسمسم، والشمر، واليانسون، والكمون، والكراوية، والعصفر، والسماق، والشوفان، ثم القنب، والتبغ[٩] والتنباك، وعرق السوس والنيلة[١٠] واصول القمرة، ودودة القرمز، والبطاطا، والقلقاس، والخيار، والبطيخ، والشمام (القاوون)، والقطن[١١]، ثم الكوسا، واليقطين (قرع)، والبقلة (الجرجير)، والباذنجان، والبنادورة، والبامية، والهليون والعكوب، والأرضي شوكي (انكنار)، والسبانخ، والسلق، والملوخية، والبصل، والثوم، والكراث (براصا) ثم الخس، والقرة، والفجل، والجزر، والفليفلة، والبقدونس، والكزبرة، وحشيشة الوادي (دره اوت)، والطرخوم، والنعنع، والخبازي، ثم اللفت، والشوندر، والكرنب، واليخناء (الملفوف)، والقرنابيط. والهندباء، والخردل. وهذه البقول يستهلك منها نحو النصف في الشام وضواحيها ويصدر الباقي الى البلاد المجاورة.

الزهور

سلطانها الورد بانواعه، وهي: البلدي، والجوري، والعسالي، ودم الأخوين، والأصفر، والمشمشي، والأبيض، والأحمر، والألفي، والباذنجاني، والماوردي، والنسرين، والنفنوف، والمنكشة، ثم البنفسج، والنرجس، والمضعف والياسمين بين بلدي وجيلي وأحمر وأصفر وأزرق، وعراتلي، ثم القرنفل البلدي، والمغربي، والريحان، والسيسبان، والداد والغريب، وما يقال له (آه يا انا)، والسدابية، والسمكة، والضفدعة، وحلق المحبوب، والنمط، والعايق و(أحمد بك)، والدفل، ودوار القمر، والعطر، والعطرة، والحلبوب، والشاب الظريف، والحناء، والجميل، والغناجة، والجوكلانة، ولسان العصفور. ثم النباتات الطبية وهي الطيون، والختمية، والمليسة، والبابونج (الاقحوان)، وساط الراح، واذن الجدي، وكزبرة بالبئر وغيرها. ثم القناديل، والمانوليا، والكاميليا، والشمعة، والخبازة الافرنجية، والشكرية، والشمشير، والمرجان، والرش، والميناء، والهرجائي، والغرزة، وسبح ربه، وسلطان الزهور، وزهرة الشعير، وحبال الغرام، والورق، وورق الفضة، والشائطة، والهواء الناعم والخشن، والسيكارة، والنخلة، والسيف، والزنبق الساحلي، والقرطاسية، (أورتنسيا)، والنار، والشمسية، وورق الليمون،

والصالون، والاوية (كشكشة) والباغونية وكف الدب. ان أسماء الكثير من هذه الزهور والنباتات هي من وضع الزهوراتية اخترعوها حسبما خطر لهم، واكثر هذه الأنواع حتى وأجمل منها رأيناها تنبت فطرة في جبال اليمن على حدود تهامة وخصوصاً في وادي حجيلة، حيث تلتقي الحرارة والرطوبة معاً وهناك تملأ السفوح جمالاً ورائحة ولا من يعنى بها.

الصناعة

الصناعة هي الركن الثاني من أركان الثروة والسعادة، أو ثديها الأيسر، وخصوصاً إذا استندت الى العلم والفن والذوق السليم، مع الاتقان والابداع. كانت دمشق فيما مضى تمتاز بصنائعها البديعة، والحفر الناتىء والتطعيم والنقش على الأحجار والاخشاب والمعادن ثم النسيج والوشي وعمل السيوف والنبال، والتجليد، والتذهيب، والحجر الكاشاني، وغير ذلك من أنواع الصنائع الدمشقية تدل على ما كان عليه السلف الصالح من حدة الذكاء وسلامة الذوق. وكانت هذه الصنائع تسد حاجات البلدة وتفيض عنها فتصدرها الى سائر الجهات المعمورة، وتستدرّ منها الأرباح الطائلة. وعلى مرور الأيام اخنى الدهر على الكثير من هذه الصنائع وأبادها، ومن الصنائع البائدة التي نتذكرها مع الأسف صنعة السيوف الدمشقية وترصيعها بالذهب والفضة، وهي المسماة اليوم في اوروبا (داماسكين) أي الدمشقية وكان التيمور أخذ صناعها من دمشق عند رحيله الى بلاده، ثم صنعة الوشي المدعوة (داماسكو) وهي الديباج ثم صنعة النقش والطلاء (الدهان الهندي) التي جددها البعض في الآونة الأخيرة، ولم تلق رواجاً لغلاء كلفتها. ثم صنعة الحك والحفر الناتىء، وهي تكاد تفقد لرغبة الناس عن خشب الجوز والتخوف من نفقاتها، وغير ذلك من الصنائع الدقيقة التي بادت أو كادت تبيد مع الزمن. أهم الصنائع الباقية اليوم في دمشق هي صنعة النسيج (الحياكة) وما يتفرع عنها، وكانت فيما مضى تشغل خمسة عشر الف نولاً من أنوال الحياكة فتنازلت اليوم الى أقل من النصف تقريباً يتعاطاها في دمشق وبعض قراها زهاء عشرون ألف عامل بين رجال ونساء وأطفال يبدأون من قطف القطن وحلجه، وقص الصوف وغسله، ثم غزل الخيوط وكب الحرير والقائه في اقساطه، واستعمال الجميع في نسيج وحياكة الديما بالقطن، والديما المزدوجة بالقطن، والحرير، والالاجة الشامية والمصرية والكرمسوت والقطني (وهو نسيج من حرير مخملي)، والحامدية، والاغباني، والعباة (العباء أو المشلح) الصوفية والحريرية، والستائر، والملايا، والكفافي، والبوشيات، والباشاكير، والشراشف، والفوط، والأقمشة العريضة، والجوخ والشاش، والبازين، والحبر، والكريب، والبوبلين، والجوارب المتنوعة، والكنزات، والفانلا، والبيجاما، والقمصان. ثم الأكمار، والشرائط، والسفاسف، واللباد، والأعدال (أكياس)، والشلف، وبيوت الشعر (الاخبية)، والسجاد، وغير ذلك من الصنائع النسيجية التي لا يقل أكثرها رونقاً واتقاناً ومتانة عما ماثله من المصنوعات الافرنجية بل يفضلها. على ان المواد الابتدائية والأوائل النسيجية والأصبغة المختلفة كانت تستحضر وتهيأ عندنا فتعمّ فائدتها الزراع والعمال والتجار على السواء، وكان يوجد في أغلب الدور في المدن والقرى مغازل يدوية (دواليب) متعددة تديرها وتتسلى بها العذارى والعجائز في منازلهن، فيغزلن بأيديهن الناعمة خيوط القطن والصوف والحرير، ويفتخر أربابهن بهذه الموارد المهمة ويجنون ريعها، ثم أخذت المغازل الافرنجية تدار بالبخار وتضاربنا بارسال الغزل بأقل من أكلافه عندنا، فقل الطلب على الغزل البلدي، وترفعت عنه النسوة لضآلة ما بقي من موارده. وفي أواخر القرن الماضي انشأ البعض معملاً للغزل في طاحون السنان بدمشق، وبدت طلائع نجاحه ولكنه لم يقو على الثبات تجاه المضاربات الأوروبية فاهمل وباد ولم يبق له من اثر، واصبحنا نرسل القطن والصوف والحرير الخام من بلادنا بالقناطير الى اوروبا واميركا، ونستورد ما نحتاجه من الغزل والخيوط منهما. زد على ذلك الصباغ أيضاً فان الألوان التي اعتدنا عليها، وكنا نصبغها عندنا ونستعملها في صنائعنا كانت معدودة ثم تطورت الصنائع مع الأيام، واصبحت الألوان لا تعدّ لكثرتها، وما زال المتخصصون في المعامل الافرنجية يخترعون في كل يوم لوناً جديداً ويحتفظون بسر صنعته لأنفسهم فاضطرنا الدهر أن نأخذ منسوجاتنا المحاكة في الأصل من الغزل الافرنجي ونرسلها بعد الحياكة الى

مصانع أوروبا ونصطبغها هناك بالألوان الرائجة ثم نستعيدها بأجور وأكلاف زائدة وهكذا أمست الأرباح التي نؤمل من النسيج يستهلك معظمها في الذهاب والاياب المكرر ولا يبقى منها سوى أجور الحياكة الزهيدة فنكتفي بها مكرهين أو مختارين. هذا فضلا عن منافسة الصنائع والبضائع اليابانية للمصنوعات والمنسوجات الاوروبية نفسها وبيعها في بلادنا بأثمان بخسة تستحيل مجاراتها، وعدم التفات الدولة المنتدبة علينا لعقد معاهدات مع دولة اليابان وغيرها من الدول التي تفرض علينا بضائعها وتقضي عليها بأن تأخذ ما يعادلها قيمة من بضائعنا ومواردنا الابتدائية وغيرها، مما أدى الى وقوف دولاب الأعمال وجعل صنائعنا وفي طليعتها صناعة النسيج الباقية عندنا على شفا جرف الانقراض وقانا الله شرّ العاقبة. واليك إحصاء قيمة البضائع اليابانية الواردة الى سورية عام ١٩٣٤ اليابان، سوى ما قيمته خمسة آلاف فرنك فقط مما يعدّ من المضحكات المبكيات:

	ليرات سورية
محارم	٢٢١٠٠٠
اقمشة قطنية	٢٥٧٧٥
ساتين	٣٥٤١٢٠
حرير طبيعي	٥٤٢٠٠
فانلة	٨٩٢١٨
حرير صناعي	٣٣٤٣٠
العاب وأوائل	٥٨٩٠٠٠
خردة	٣٤٨٠٠٠
المجموع	١٧١٤٧٤٣

ويلي النسيج الصنائع الزراعية أولها الحرث والزرع والنكش والرجاد ثم الحصاد والتكييل والتصويل والغربلة ثم قشط القنب وصنعه حبالًا وخيوطاً، ثم تجفيف الأثمار وعصرها واستقطارها وصنع المربيات والكونسيروة، واستحصال الزبيب والجلاب والدبس والخل والخمر والكحول[١٢] ثم صنع قمر الدين والنقوع وزيت الزيتون والسمسم (السيرج والطحينة)، ثم عمل القضامة وتربية النحل واجتناء العسل واستخراج الشمع، ثم تربية الدجاج والحمام الزاجل وغيره من الطيور الأهلية، والضأن والمعز والأرانب والأبقار والجاموس والخيل والبغال والجمال والاتن (الحمير) والخنزير، ثم استدرار الألبان وصنع الشمندور والزبدة والقشطة والسمن والجبن واللبن الرائب والقريشة والمجمدات والبوزة (دوندرمة) والثلج الاصطناعي، ثم الكشك والصابون[١٣] وغيرها.

الحدادة

لم يعلم الى الآن بوجود معدن حديدي في سورية ولذلك ما زلنا نستجلب ما يلزمنا من الحديد الواحاً وقضبانا من أوروبا وتركيا، ونصطنع منه المحراث (السكة) والمحفار والمجرفة والكريك والمجلوف والبلطة والقطفة والمشط والسكين والساطور والمجحذ (المسن) والمجلخ والمنقل والشواية والسيخ والمنصب والمحفرة والملقط والطباخ ومجر الصفوة، ثم المسمار والحلقة والسقاطة والساقط والدقر والمفصلات والريشة والمثقب والمدور والكماشة، ثم الدرابزين وقضبان النوافذ والعوارض والأبواب والأقفال والغال والمفتاح والمقص، ثم

ماكنات الأبار وأوائل العجلات والسيارات والطنابر والكميونات والدراجات والمطاحن والفخ والمصيدة ثم الرشمات (الأعنّة) والركائب والنعال والكلاليب، والزناجير ثم الحلل والدسوت (القازانات - المراجل) والعلب والمواقد (صوبات) والاسطوانات (البواري أو المداخن) وما يتبعها ثم الموازين والأواق والحمّام الافرنجي (بانيو) وما شاكلها.

النجارة والخراطة

تبتدىء هذه الصنعة من قطع الأشجار وقشطها وصنعها الواحاً، ثم التحطيب والتكسير وصنع الصندوق والبيرو والخزانة والجاردينير والبراويز والرفوف المتحركة والمكاتب والمناضد والمقاعد والكنبات والكراسي وحفرها وجلائها ونقشها وتنزيل الأصداف والمعادن بين خلاياها، ثم صنعة الموزاييك[٤٤] وهي قطع خشبية وصدفية مختلفة الحجم والشكل ترص ببعضها وتجعل الواحاً وتنشر على طبقة رقيقة ويغلف بها ما يرام من منضدة وخزانة ورف وعلبة وسرير واطار ومقعد وما شاكل ذلك ثم صنع العلب والسحارة والمحارة والتخوت (للسفر وللبيوت) ثم صنع المكاييل والكيلة والمنخل والغربال والقفص والملطش (الفخ) ثم صنع الأبواب والغلافات والدقور والسكرة والشباك والشرشاوة والخص (اباجور) والحلقات والسقوف والطبلات والسلالم والادراج والدرابزين والعريشة والناعورة ولوح الدارس ثم الشوبك والنشابة والكرسي ويد الكبة ودف الرق والقوالب والدواليب والنملية وقلب الأركيلة والمسطرة والدراجة والقبقاب والمنفاخ والاسكملة والطاولة وطاولة النرد ورقعة الشطرنج وأحجارها ثم الألاعيب والطبول والمزامير والعود والقانون والنقارات والدربكة ثم العجلة والكميون والميل والعريش ثم المغتسل والنعش والتابوت.

الصنائع النحاسية

تستورد دمشق النحاس من معدن ارغني في تركيا وتصنع منه الصينية والصدر والملعقة والطنجرة والصحن والكفكير والمغرفة والمصفاة والدست (الماعون) وطبق الغسيل واللكن والمطبقية والجزوة (الدلّة) والطست والابريق والكوكم والبراد والدبية وصحن السيكارة وعلب المجمدات والسكاكين وعلب القهوة والحنفية والسطل والطاسة والكيلة والأجراس والأختام وحلقات الأبواب والمناقل. ثم حفر النحاس وتطعيمه بالفضة والتفنن بجعله ثريات وشماعدين وزهريات ومشربيات ومصابيح وصحون وصواني وغيرها.

الفاخورة - الصلصال

يوجد في قرية المزة غربي دمشق وفي قرية عيتا من جبل الشيخ معدن من التراب الأحمر اللزج يصنعون منه القلل والأجرار والأحواض والأكواب (الخوابي) والجسطر والصحن والزبدية والسراج والأبريق والتنور ورؤوس الأراكيل والقساطل والدربكات والكوانين وسواها. وأخيراً اكتشف في قرية دمر نوعاً من التراب الأسمر يصلح لعمل السمان (الشمنتو) فتألفت شركة خاصة لاستثماره واصداره وقد نجحت بذلك كل النجاح.

الزجاج

يوجد من القديم في حي الشاغور معمل لصنع القوارير (القناني) والقطرميزات والأباريق والزبادي والاقماع والأغطية وأقداح الحجامة وغيرها مما يؤمن بعض الحاجيات. ومنذ مدة تألفت شركة لصنع الزجاج من الرمل المصفى فلم يتسنّ لها الثبات في عملها، ولبثت البلاد تستورد ما يلزمها من الأواني الزجاجية من اوروبا.

السنكرة

القصدير والتوتياء والرصاص يستورد الواحاً من اوروبا وقد يستعملون الصفائح التي يأتي بها زيت الكاز من امـيركـا ورومـانيا وروسيا ويصنعون من جميعها العلب والأباريق والجزوات والمصفاة والسطل والكيلة والبرميل والحمام الافرنجي والسراج والطلمية (المضخة) والمبشرة والقمع والرشاشة والميزاب والطواية والمغسلة وأمثالها.

السراجة

تبتـدىء السراجـة من الدباغة وصنع الحور والنعل السوداني واللماع، والبوكس، والشفرة، ويعمل منها الاخفـاف (الصرامي والزرابيـل)، والأحـذيـة كالبوتين والكندرة والسباط والبوط والجزمة والشحاطة والمست والبابوج والحقيبة (الشنطة)، وصناديق السفر وبيوت الفرش ثم القربة والدلو والراوية والمطرة والسرج، والرش، وثوب القباء، والطرابيش.

وقد أنشئت دباغة فنية في شرق المدينة وراجت بضاعتها مدة ثم تعطلت وعدنا لاستيراد الجلود المدبوغة من خارج البلاد وما زال يوجد في باب السلام دباغات قديمة تسد قسماً من الحاجيات البسيطة.

القصب

نصنع من القصب الشبابة والسلة والقفص والمكبة والسريجة والقفة والمقشة والمكنسة والحصيرة وأطباق الطعام للقرويين.

البناء

يبتـدىء البناء من حفر التراب، واخراج الرمل، وقطع الأحجار، وعمل الطين، وضرب اللبن والآجر وحرق الكلس وصب البلوك وصنع الحجر الرملي والقرميد، ثم نحت الأحجار والرخام وجلائها وحفرها ونقشها وزخرفتها بالأصداف والجص وغيره، ثم الانشاء والعقد، والتبليط، وحفر الآبار، والتجصيص والتكليس والدهان، والطينة، والزريقة، والعدسة، والقصعة، والدك، وصنع الشمينتو، ومدّه.

الطبخ (الطهي)

تبتدىء من الطحن والعجن والخبز وسلق البرغل وطحنه وتفريقه وتفريق السميد والكماجة وتهيئة الطعام، وعمـل الصفيحـة، والزنكـل، والتمرية، والتويتات، وحلوى السميد، والطحين، والكعك، والكرابيج، والبرازق والجـرادق والغريبة، والمعمول، والرقائق كالبقلاوة، والنمورة، واكل واشكر، وعش البلبل، والنهش، والقطايف والكنافة، والكاتو، وكعك اسبانيا، والبرك، ثم المعكرونة، والشعير، والنشاء، والرواسة، والصيد وقلي الأسماك، ثم المحمصـاني، والفوال، والقضماني وصانع الملبس، وراحة الحلقوم، والشكولاتة، والنوكة والحلوى الجزرية، والجوزية، وغزل البنات، والناطف، والحلاوة الطحينية، والملبن، والبوزة (الجليد)، والمجمدات والمخللات، وعرق السوس، وسائر المشروبات الحلوة.

التلبيد (تطفيحة وأصلها مويتاب أي عامل الشعر)

صنع اللباد، والرحال (الجلالات)، وبيوت الشعر (الاخبية)، والمخلاة، والأعدال، والشلف.

الصنائع الصحية

الطب والجراحة وطب الاسنان، والصيدلة، والقبالة والتمريض، والتحليل، والتجبير، والختن، والتطعيم، والتكحيل وما اليه.

الخياطة

تفصيل وخياطة الأثواب العربية والافرنجية كالقميص، والسروال، والقنباز، والصدرية، والمنتان، والدامر، والفرملية، والبكدلية، والجبّة، واللاطة، والحيدرية، والمضربية الشامية، والفروة، والعباءة، ثم البيجاما، وثوب الغرفة (روب دي شامبر)، والسترة، والبنطلون، والفراك، والاستنبولين، والبونجور، والرانديفو، والجاكيت، والصدرية، والبالطو (المعطف)، والكبود، والمشمّع، والقمصان الافرنجية، ثم الرتي والتفرية الخ...

الصنائع النفيسة

الرسم والتطريز، والتخريج، والتسجيف، والصباغة، والطباعة على الحجر وعلى الآلة، وصفّ الحروف، والتصوير باليد، والتصوير الشمسي، وتعمير الساعات، ثم الكتابة بالقلم وعلى الآلة، والتحرير، والتأليف، والنسخ، والخطابة، ثم الغناء، والرقص، والضرب على العود وسائر آلات الطرب الموسيقية.

الصنائع المتنوعة

الصباغة والطباعة على الأقمشة، والتنجيد، والتقشيش، ثم حفر القبور، وغسل الموتى، ودفنهم.

المنتوجات

وهذا جدول يتضمن مقدار ما يصنع وينتج سنوياً في مدينة دمشق وحدها مع وجود الأزمة الاقتصادية الضاربة أطنابها في كل البلاد والمؤدية الى قلّة العمل:

عدد ـ ثوب	نوع
٧٥٠٠٠	نسيج من قطن
٢٥٠٠	نسيج اغاباني
٧٦٨٥٠	نسيج من حرير بلدي ونباتي
١٢٥٥٥٠	كريب دو شين
١٥٤٧٠٠	متر بوبلين من الحرير النباتي
٢٠٠٠٠	كفية وبوشية
٧٥٠٠	بشاكير ومناشف
١٨٧٥٠	دزينة جوارب رجالية
٥٩	طن صابون (يصنع في سورية سنويا أربعة ملايين

عدد ـ ثوب	نوع
	كيلو من الصابون)
١٣٥٤٠	قطعة جلد ماعز مدبوغ
١٦٨٥	قطعة جلد جاموس مدبوغ
	حلوى بأنواعه
	كونسيروا وكونبوت
٣٠٠٠	طن قمر الدين ونقوع
	قضامة
	برغل
	نشاء
—	سيرج وطحينة
—	لباد
—	مصنوعات نحاسية
—	مصنوعات حديدية
—	نسيج مصبوغ
—	مقاعد افرنجية (كنبات)
—	كبريت
—	احجار رملية
—	قلي
—	بيض
—	حبر
—	فواكه مجففة
—	بقول غضة ويابسة
—	عسل
—	دبس
—	غنم وماعز
—	خيل
—	حمير
—	جبن وقريشة
—	الاعيب
—	سروج ورحال واخبية
—	ادوية
—	حصر وكراسي قش
١٥٠٠٠	عباة
١٠٠٠٠	شرشف
١٥٠٠٠	دزينة جوارب نسائية
١٠٠٠٠	قميص وبيجاما وكنزة

عدد - ثوب	نوع
٢٦٣٥٥	قطعة جلد غنم مدبوغ
١٣٥٠٠	قطعة جلد بقر مدبوغ
١٧٨	طن خمور
	سكاكر بانواعها
٢٥٠٠	طن زبيب
٥٠	طن (لوز) بزر مشمش
—	طحين وسميد
—	كعك
—	زيت (يعصر في سورية سنويا ٧١٢ طن من زيت الزيتون)
—	حبال وخيوط
—	سجاد
—	مصنوعات خشبية
—	مصنوعات جلدية
—	كتب مجلدة
٥٠	طن صوف منسول
—	شمنتو
—	فخار
—	قشر الرمان
—	دجاج
—	ماء زهر وماء ورد
—	فواكه غضة
٥٠٠	طن قطن
—	حبوب حنطة وشعير وذرة وغيرها
—	خل
—	بقر وجواميس
—	بغال
—	سمن
—	كشك
—	آلات موسيقية
—	سلال
—	ثياب مخاطة
—	احذية

صُدِّر من سورية عام ١٢٨٩ (١١٢٢٤) أوقية من الاسفنج قيمتها ٥٦٠٠٠٠ فرنكاً ذهبياً

الصنّاع والعمال (حسب الحروف الهجائية)

اصحاب المهن والصنائع في دمشق.

ا - ابري - اتوني - أجير - (صانع) - آذن - اراكيلي - اسطواني - اسكافي - آلاتي - الاعيبي.

ب - بانكير - بزار - بستاني - بقال - بفجاتي - بناء - بندقي - بني - بهلوان - بواب - بوابجي - بوابيري - بوايكي - بوظة (صانعه) - بويجي - بيّار - بسكلتجي - بيطار.

ت - تابع - تيان - تراب - تراس - تلغرافجي - تنبكجي - تنوري - تتنجي .

ث - ثلاج - ثعالبي.

ج - جابي - جاجاتي - جباصيني - جبان - جراح - جرسي - جزار - جزماتي - جصاص - جلواز - جليلاتي - جمال - جنباز - جندي - جلا - جلاب (بائعه) - جلاد.

ح - حارس - حائك - حباس - حباك - حبال - حبوباتي - حجار - حجام - حداد - حراث - حريري - حزام - حسكي - حشاش - حصاد - حصري - حطاب - حفار الخشب - حفار القبور - حكواتي - حلواني - حمامي - حماماتي - حمصاني - حوار - حواصلي - حلاب - حلاج - حلاق.

خ - خادم - خاماتي - خباز - ختان - خراط - خريزاتي - خردجي - خصاص - خضري - خطاط - خطيب - خفاف - خمار - خولي - خياط - خيمي.

د - داية - دباس - دباغ - دركي - دقاق البن - دقاق الجدري - دقاق النسيج - دهان - دكاك - دواليبي - دكمجي - دوندرمجي - دولاتي - دلاك - دلال.

ر - راعي - رباط - رتّا - رسام - رشاش - رقاص - رمال - رواس - رهونجي.

ز - زراع - زبال - زبار - زبيبي - زجاج - زرابيلي - زمار - زنانيري - زهوراتي - زيات - زنكوغرفجي.

س - ساعاتي - سائس - سائق - سائق الترام - سجاد (صانعه) - سراج - سرانجي - سقي - سقطي - سكري - سكاكيني - سماك - سمان - سميد (صانعه) - سنكري - سلال - سينمجي - سيوفي.

ش - شاوي - شالاتي - شرابي - شرباتي - شرطي - شعار - شعال - شماع - شوفور - شويره - شياح.

ص - صاجاتي - صانع - صائغ - صباغ - صبان - صحافي - صراف - صرماياتي - صفاف الحروف - صقال - صناديقي - صواف - صوبجي - صياد - صيدلي.

ض - ضارب اللبن.

ط - طاهي - طباخ - طبال - طبيب - طبيب أسنان - طحان - طرابيشي - طنبرجي - طيار - طيان - طيبي.

ع - عامل - عبجي - عتقي - عجان - عداس - عربجي - عرض حالجي - عرق سوسي - عسلي - عطار - عطري - عقاد - عكام - علبي - عنبري - عواد (ضاربه وصانعه وبائعه) - علاف.

غ - غالاتي - غرابيلي - غراوي - غزال - غسال - غزل البنات - غلاييني.

ف - فاخوري - فاعل - فاكهاني - فتال - فجال - فرا - فراط الجوز - فرام التتن - فوال - فلاح.

ق - قباقيبي - قساطلي - قصاب - قصار - قشاط - قضماني - قبطان - قفاص القصب - قفاص الحديد - قففي - قلبقجي - قميمي (مشعل القمامة في الحمام) - قباب - قواف - قهوجي.

ك - كاتب - كتبي - كحال - كراشجي - كسار - كيعيكاتي - كمار - كميونجي - كناس - كندرجي - كنيفاتي - كهرباجي - كوّاى الطرابيش - كوّاى الثياب - كلاس - كيال.

ل - لبان - لبابيدي - لحام - لوكندجي.

م - مال القبان - ماكنجي - مأمور - مبلط - مبيض - مجارفي - مزركش - مجلد - مجلخ - محامي - محايري - محرر - محمص - مخللاتي - مدرس - مرادني - مزايكي - مزعبر - مزفت - مزين - مسابكي - مساح - مسامري - مستقطر - مسحر - مسجف - مسكي - مسوتي - مشعوذ - مصابني - مصارع - مصدف - مصفر - مصنف - مصور - مصول - مطرز - مطعم - مطهر - معاك - معاليقي - معزل - معصراني - معماري - معلم - مضربية (صانعه) مغربل - مغسل - مفتي - مفتش - مقبعة - مقشاتي - مكاري - مكانسي - مكتبي - ملقي - ممثل - ممرض - مناقلي - منجد - منجم - منشد - موزع - موسيقي - مهندس - ملاح - مواقدي - موبيلياجي - موظف - مؤلف.

ن - ناسخ - ناطور - ناظر - نجار - نحات - نحاس - نخال - نداف - نشاز - نشواتي - نطفجي - نقاش - نكاش - نويلاتي.

و - وقار - وراق - وردي - وزان - وقاد.

التجارة

منذ تأسست مدينة دمشق وهي قطب دائرة التجارة ونقطة اتصالها بين الشرق والغرب، تحف بها الموانىء الساحلية والمدن الداخلية كصور وصيدا وبعلبك وتدمر وانطاكية وبابل وغيرها، وقد راجت تجارتها واتسعت معاملاتها على الرغم من تزلزل جاراتها واندثارها الواحدة تلو الأخرى، وثبتت هي تجاه عواصف الدهر، ولبثت تقاوم صدماته، واصبحت اهمّ مدينة ليس في القطر الشامي فحسب، بل في جميع أنحاء الشرق الواسعة، تقصدها القوافل التجارية من أقصى المسافات وأدناها كالصين وتركستان وايران والافغان والعراق ونجد واليمن والروم ومصر وما جاورها، فتحطّ رحالها في دمشق، وتملأ أهراءها بالخزف الطيبي والطنافس والشال العجمي والحرير والنيلة والقهوة والبهار والطيب والعاج والأحجار الثمينة والمعادن المختلفة وسواها من محاصيل الشرق التي لا تنتج في بلادنا، وهنا تضاف اليها منتوجات الشام ومصنوعاتها وتوزع وتصدر الى مختلف الأقطار قريبها وبعيدها.

دامت دمشق محافظة على هذا المركز التجاري المهم عصوراً طوالا الى ان استفاق الغرب من سباته، وتمكن من افتتحاح أبواب الشرق لتجارته، فأخذ يغدق علينا صنائعه وبضائعه. ثم حصل التطور الاجتماعي والرقي الصناعي في القارتين الاوروبية والاميركية وتغلب القوم على البخار واستخدموه في معاملهم ومصانعهم وطرقهم وسفنهم، مما سهل الانتاج وزاد في تجارة الاصدار لديهم فامتلأت أسواقنا ببضائعهم المزخرفة المتنوعة الأشكال التي أخذت تزاحم صنائعنا، وتملأ أسواقنا، ونحن تجاه هذا التيار الجارف اكتفينا بالأرباح الطفيفة التي تأتينا من وراء العمولة بترويج هذه البضائع ولم نسع لمجاراة الغربيين بالعلم والعمل وترقية صنائعنا التي تحفظ لنا ثروتنا وتجعلنا في غنى عن الغير وعن مصنوعاته، ورحنا نحاول الدوام على الصنائع اليدوية التي أخذت بالانحطاط والتأخر من يوم الى يوم. ولم تقتصر مزاحمة الصنائع الغربية على الحاجيات التي الفناها فقط بل ان اختلاطنا التدريجي بأهل الغرب ساقنا الى تقليدهم في أزيائهم وعاداتهم أيضا، فتنوعت بذلك الحاجيات التي لم نكن نعرفها من قبل، وأخذنا نراها في الأسواق فنخفّ الى شرائها، ونسلك سبيل التقليد في استعمالها. ثم افتتحت ترعة السويس، وتحولت تجارة الشرق الاقصى اليها فانقطعت عن دمشق تلك الواردات العظيمة التي كانت تأتيها بطرق القوافل البرية، وأصبحت تجارتها لا تتجاوز محصولاتها الداخلية وما يأتيها من البلاد المجاورة فتصدر معظمها بدون مكس الى سائر البلاد العثمانية المترامية الأطراف التي كانت تمتد من الخليج العربي الى البوسنة والهرسك وطرابلس الغرب، ومن اليمن الى رومانيا وكان أهل هذه البلاد يرتدون على الأكثر الاثواب المصنوعة من المنسوجات الشامية وكانت سوقها رائجة رواجاً لا بأس به. وفي غضون ذلك حاول بعض أبناء البلاد تاسيس معامل تقوم ببعض الحاجيات الضرورية وتقودنا الى اقتصاد شيء من ثروتنا ومنعها من التسرب الى أيدي الغير فأنشأوا في بيروت ودمشق وغيرها من البلاد السورية بضعة مصانع لصنع الشمع والورق وغزل القطن ونسجه وعمل الزجاج وغير ذلك من أنواع الصنائع التي لمعت بوارق الأمل بنجاحها وأقبل عليها الناس بارتياح، فاستلفت ذلك أنظار الرقباء الأغراب الواقفين لنا بالمرصاد، فخفوا لخنق هذه الصنائع بمهدها، وذلك بتخفيض أسعار ما يماثلها من صنائعهم تخفيضاً أوصلوه عمداً الى اقل من أسعار الأوائل الخام قبل عملها، ولما كانت رؤوس أموالنا لا تساعدنا على المجازفة والدوام على نكبة الخسائر الفادحة اضطررنا الى احناء الرؤوس تجاه جبروت هذه المضاربات وارتقاب الفرص للتخلص منها. هذا ما كان قبل الحرب العالمية التي غيرت خريطة العالم وداست اخلاقه وافسدت عاداته وعنعناته. ثم انحلت الدولة العثمانية وانقسمت الى دويلات صغيرة، وكان من نصيب سورية ان تحصر ضمن منطقة داخلية بحتة محرومة من مخرج تخرج إليه وتصدر منه بضائعها وحوائجها فاضطرت الى اصدارها واستيرادها من موانىء الغير بكلفة تستنفد في بعض الأحيان الارباح التي تؤمل منها، فضلا عن ان تلك البلاد التي كانت تستعمل النسيج الشامي أصبحت على بعد شاسع من الشام يحول دون سهولة الوصول اليها الحواجز الكمركية العديدة التي أقيمت على تخوم ممالكها الجديدة مما قضى على صنعة النسيج عندنا قضاء مبرماً. وبينما الناس يحاولون الخروج من هذا المأزق

إذ بالدولة المنتدبة علينا تعمل على زيادة الرسوم الكمركية، ومضاعفتها خلافاً لمعاهدة (سايكس ـ بيكو) التي تعهدت فيها الدولتان الانكليزية والافرنسية بان تبقى الرسوم الكمركية في هذه البلاد على ما كانت عليه، ولا تزيدانها الى مدة عشرين سنة على الأقل، ولبثت جارتنا فلسطين ذات رسوم كمركية ضيئلة فتحولت تجارة الادخال اليها، وأصبحت تدخل بلادنا بوجه التهريب منها، فخارت من جراء ذلك قوى الشام وأصبحت على شفا الافلاس والبوار مما ساق البعض من أبناء البلاد وعمالها وتجارها الى مغادرتها والرحيل عنها الى البلاد الخفيفة المكس فلسطين وشرق الاردن واختار بعضهم الهجرة الى اميركا وغربي افريقية طلباً للرزق الذي ضاقت عليهم سبله في بلادهم. وبينما بلادنا تقاسي أهوال هذا البحران العظيم إذ اكتشفت طريقة استخدام الأثير والكهرباء في سبيل النهم البشري، وأخذت تنهال علينا سيول السيارات والطيارات والدراجات والهاتف (التلفون) والناقل (السينما) والحاكي (الراديو) وغيرها من مخترعات هذه الأيام[15] اندفع إليها المتهوسون من أبنائنا وراحوا يبذلون في سبيلها مختارين ومقلدين كل ما بقي لديهم من ثروة الآباء عدا ما يستنتجونه من أعمالهم الخاصة.

العملة

ما زالت حتى سنة ١٣٤٩ ـ ١٩٣٠ المسكوكات العثمانية الذهبية والفضية هي المتداولة بين الأيدي في الأخذ والعطاء، لأن البلاد محاطة بالبادية والبدو، وهم يتجنبون الورق خشية بعثرته وضياعه بمختلف الأسباب ولا يتعاملون الا بالذهب والفضة كما هو رأيهم من قديم الأزمان[16]. وقد دام هذا الحال حتى في أيام الحروب، فالقوائم النقدية التي أصدرتها الدولة العثمانية أيام حرب القرم وفي حرب ١٢٩٣ ـ ١٨٧٦ ثم في سني الحرب العالمية لم تلق رواجاً في سورية الا في معاملات الحكومة فقط ولبثت الفضة والذهب هما واسطة التعامل بين جميع طبقات الأمة، حتى ان جمال باشا (الذي دعوه بالسفاك) اضطر خلال الحرب لاستجلاب الملايين من الدنانير الذهبية لتسديد نفقات الجيش وتأمين عطايا البدو، مما جعل البلاد في يسر عظيم لم نعهده لا قبل الحرب ولا بعدها. اما الورق السوري الذي اصدره البنك الافرنسي (المدعو بالسوري اللبناني) وأكره الحكومة السورية على التعامل به بقوة المدفع فهو يباع ويشترى عند الحاجة حيث تقبضه الحكومة عن الضرائب وتنفقه على الرواتب ويضطر قابضوه الى بيعه وتبديله بالذهب والفضة. وهكذا يربح الصيارفة وأكثرهم من الأرمن واليهود، ربما من ورقة واحدة في الساعة الواحدة. ليس للحكومة السورية اليوم عام ١٣٤٩ من عملة خاصة سوى قطع النيكل المستعملة في الترام فقط.

أنواع العملة **القرش** ـ هو الواحد القياسي في المعاملات اليومية وهذه قيم العملة اليوم:

القرش ـ أربعين بارة مفروضة، والبارة والقرش لا وجود لهما إلا في المسامع وعلى الورق.

البرغوث ـ خمسين بارة وهو القرش الأصلي أو الصاغ ويدعى أبو الخمسين.

الريال المجيدي ـ خمسة وعشرين قرشاً فضياً أو عشرين أبي الخمسين.

الليرة العثمانية الذهب هي أساس المعاملات التجارية الكبرى، وفي يومنا هذا تساوي ٢٧٥ قرشاً او ١١ ريالاً مجيدياً وأسعارها تتحول بنسبة كثرة الفضة وقلتها. أما الورقة السورية فليس لها قيمة ثابتة وقيمتها المفروضة ١٠٠ قرشاً تعادل ٢٠ فرنكاً إفرنسياً ورقاً والليرات الانكليزية والافرنسية الذهب والليرتان الانكليزية والمصرية الورق وغيرها من المسكوكات الأجنبية تابعة لأسعار (كامبيو) القطع في اوروبا والمسكوكات الفضية الأجنبية لا تتداول في الأسواق، وإذا وجدت يبتاعها الصيارفة بالأسعار التي يرونها.

الذهب

كانت البلاد السورية قبل الحرب تتعامل بالدنانير (الليرات) الذهبية بين عثمانية وانكليزية والليرات ذات العشرين فرنكاً (التي وحد عيارها الاتفاق اللاتيني العام في اوروبا) وهي افرنسية ونمسوية وروسية وايطالية

وبلجيكية واسبانية وسويسرية وصربية الخ.. وكلها كان يطلق عليها إسم الافرنسية باعتبار قيمتها وكانت توجد بكثرة في أسواقنا لزيادة المعاملات التجارية بيننا وبين بلادها، ويقدر مجموع الكل وهو الذي يؤلف ثروة البلاد العامة بنحو ١٥٠٠٠٠٠٠ ليرة. وفي أيام الحرب تدفقت على سورية الليرات العثمانية الذهب المسكوكة حديثاً بالملايين، وتبعتها الليرات الانكليزية التي وردت بواسطة الأعراب وغيرهم فازداد الذهب في البلاد السورية وبلغ زهاء خمسة وعشرين مليوناً من الدنانير على أقل تقدير. ولما تزايدت الثروة وكثرت النقود بسهولة في وقت قصير داخل النفوس الطمع فرامت المزيد، وكانت أوراق الدول المتحاربة كروسية والمانية والنمسة قد هبطت أسعارها في أواخر أيام الحرب، فجاءت بها المصارف الى سورية وقامت بدعايات عظيمة لبيعها وتصريفها فراجت وشاياتها واشترى أهل الشام على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم من أوراق الروبل والمارك والكورون ما تربو قيمته على الخمسة ملايين ليرة دفعوها ذهباً، واستبدلوها بتلك الأوراق التي ما لبثت ان فقدت قيمتها بتمامها وأصبحت لا تساوي شيئاً. وبعد الاحتلال الافرنسي كانت مدة الامتياز الممنوحة من قبل الدولة العثمانية الى البنك الافرنسي الذي كان يدعى (بنك الامبراطورية العثمانية) اوشكت على الانتهاء فتثبيتاً له فوض اليه الجنرال غورو المفوض السامي الافرنسي حق اصدار أوراق نقدية بإسم دولتي سورية ولبنان وحول اسمه الى البنك السوري اللبناني بدون علم هاتين الدولتين ولا أخذ رأيهما وموافقتهما. فجاء هذا البنك بأوراقه النقدية غير المضمونة التي بلغت بحسب الاحصاءات الرسمية الى عام ١٩٣٤ اربعة عشرة مليوناً من الليرات السورية وسحب لقاءها من الأسواق ما يربو على الخمسة ملايين ليرة ذهبية وارسلها الى بلاده[١٧] ثم ان بعض السوريين كانوا قبل الحرب العامة يودعون أموالهم وبضائعهم الزائدة في خزائن ومستودعات البنك المذكور. فلما حلت الحرب توقف البنك عن تأدية تلك الودائع والامانات وبعد الحرب عمد الى أدائها ورقاً بحسب التشريع الخاص الذي أصدره المفوض السامي الافرنسي فخسر المودعون بسبب ذلك زهاء مليون ليرة ذهباً. وعلى أثر ذلك فقدنا أكثر من نصف ثروتنا العامة من حيث نشعر ولا نشعر وبقي لدينا نحو أربعة عشر مليوناً من الدنانير وهو مبلغ غير يسير لو استطعنا المحافظة عليه وادارته بتعقل وبصيرة لكان كفانا غائلة هذه الأزمة الاقتصادية التي أوقعنا أنفسنا فيها بسبب عدم التوازن بين دخلنا وخرجنا. ولكنّا أخذنا نبذر أموالنا بحساب وبغير حساب في سبيل الواردات الأجنبية الضرورية وغير الضرورية التي جعلناها تطغي علينا وتبتلع ثروتنا ونلحقها بأملاكنا وبما جنيناه من خلال هذه المدة من أتعابنا، ويا ليتنا انتبهنا لهذه المغامرات واعتدلنا بعض الاعتدال، واحتطنا في نفقاتنا، وحافظنا على الأقل على أملاكنا وقنعنا بما تذره علينا من خير قلّ أو كثر، لكانت انقذتنا من الافلاس العام الذي أصبحنا على ابوابه.

ولولا بعض الارساليات الذهبية التي يستجلبها بعض الصيارفة من العراق وفلسطين وغيرها لحرمنا من الذهب بتاتاً وأصبحت ثروتنا ورقاً في ورق.

أهذا هو الاستقلال الاقتصادي الذي ننشده؟

الأوراق النقدية

تعامل البشر في أول نشأته بمبادلة الأشياء ببعضها وهي عادة فطرية أقرب الى العدالة من غيرها فلا يجد معها حق ولا يصيب متعاملوها حيف.

ثم آلف الناس القيم وراحوا يقدرونها من المعادن المختلفة التي تعاطوها بادىء ذي بدء بدون سك (ضرب) ثم اخترعوا أصول السك وجعلوا على السكة أسماء الملوك وعلاماتهم وتواريخ توليتهم تمييزاً لكل منها عن غيره، وكان الذهب والفضة يرجحان على غيرهما من سائر المعادن لخواص طبيعتيهما، ثم ازدادت نفوس البشر، واتسعت تجارته، وتنوعت معاملاته، ونمت ثروته، فأصبح الذهب والفضة على رغم كثرة استخراجهما من المناجم الغنية في مختلف جهات المعمورة لا يكفيان لتأمين المعاملات العمومية فاصطلحوا في اوروبا واميركا على الاستعانة بالاوراق النقدية التي هي كسندات شرعية تكفلها الحكومات ومصارفها (البنوك) الغنية وتؤمنها

بضمانات من السبائك والنقود الذهبية التي لا تقل عن نصف أو ثلث قيمتها وتضع هذه الضمانات في خزائنها وتعرضها من حين الى آخر على انظار الناس علنا ولا تمسها قط. واذا شاء أحد جامعي هذه الأوراق ان يستبدلها بالذهب يمكنه ذلك بسهولة في أي وقت وأي محل ومدينة كانت دون ان يحتاج لكلفة او نفقة ما. ولذلك اخذ البعض يفضل الورق على المسكوكات المعدنية لخفته وسهولة عده وحمله وقلة نفقاته، فعمّ استعماله القارتين الاوروبية والاميركية ومنهما سرى الى هذه البلاد. لم يدر في خلد الأكثرية ان ذلك الضمان وهذا الأداء هما مختصان بأيام السلم وسكون العواصف السياسية وهدوء الأزمات الاقتصادية فقط. وانه إذا اهتزت ابرة السياسة يوماً من الأيام، وحلّت الحرب مكان السلم فإن الضرورات تبيح المحظورات والمصالح العامة تقدم على المنافع الخاصة. فقد رأينا الدول المعظمة خلال الحرب العالمية تلجأ الى خزائنها وكنوزها وتستعين بما حوته من أموال، سواء كانت تملك حق التصرفّ بها أو لا تملك، وتنفقها كلها على الحروب تاركة أمر تعويضها الى زمن السلم وعودة الرخاء واليسر. وعندما وضعت الحرب اوزارها لم تستطع الدول الظافرة فضلا عن الدول التي غلبت على أمرها ان تعوض على حملة الأوراق النقدية ولا بجزء من قيمتها الموضوعة حتى ولا من أداء ديون الحرب المشروعة، فتدهورت قيم تلك الأوراق وهبطت هبوطاً مريعاً، انتهى في اكثر الدول الغالبة الى تناقص قيمتها، أما أوراق الدول المغلوبة فقد فقدت قيمتها بتمامها.

وبالرغم عن هذه الحالة التي عمّت جميع الأقطار فان الافرنسيين لما جاؤونا منتدبين على سورية لتدريب أهلها على أصول الادارة منحوا مصرفهم الذي دعوه (البنك السوري ـ اللبناني) حق إصدار أوراق نقدية باسم سورية (وسورية لا علم لها بذلك كما شرحناه في الباب السابق) فاصدرها وجعل لكل ورقة منها مائة قرش قيمة إسمية وربطها بمقدرات الفرنك الافرنسي الذي يعادل خمسة قروش بحيث تساوي كل ورقة سورية عشرون فرنكاً ورقاً، واشترط في جملة طبعها على الأوراق ذاتها ان قيمتها تدفع حوالة على فرنسة بالفرنكات الافرنسية فقط[18] وأكره الحكومة السورية على التعامل بها بقوة الدولة المنتدبة وبطشها، وسحب لقائها ذهب البلاد كما قدمنا، ولبثت تلك الأوراق تتداول في بيوت الأموال فقط مدة من الزمن، ثم بثت الدعايات لنشرها والتعامل بها بين الحضر والبدو عامة ليتسنى استنفاد البقية الباقية من ذهب البلاد، فراجت الدعايات وتعمم استعمال الأوراق في المدن والقرى والجبل والبادية على السواء، وبلغت مع الأيام أربعة عشر مليوناً، وهي تزداد وتتضاعف من يوم الى يوم[19] لم يضع البنك في بادىء الأمر شيئاً من النقود تأميناً لأوراقه هذه، بل تركها مدة بدون ضمان البتة اللهم الا بعض سندات على خزينة الجيش الافرنسي يقال انها في مقام النقد اليوم أما غداً فلا يعلم مصيرها الا الله. وعندما هبطت قيمة الفرنك في اوروبا اخذت الأوراق السورية، تتبعه وتتدهور معه ولا تستقر على حال، حتى كادت تفقد قيمتها بتمامها، وتبيد ثروة البلاد، فارتفعت الأصوات بالشكوى والاحتجاج، وكثر اللغط بسببها بين أصدقاء فرنسا وغيرهم على السواء، فراموا كمّ الافواه عن المشاغبة ووضعوا للمرة الأولى في مركز البنك الافرنسي في بيروت خمسة عشر الف ليرة ذهبية فقط باسم ضمانة تلك الأوراق، ثم زادوها شيئاً فشيئاً الى ان بلغت اليوم سنة ١٩٣٤ (٦٢٥٠٠٠) ليرة بين نقود وسبائك كما هو مذكور في ميزانيات البنك الاسبوعية التي ينشرها في الصحف على الملأ. حالة كون الضمانة المتوجب وضعها في الأصل لقاء الأوراق المتداولة هي بحسب القانون الافرنسي ٣٥٪ من قيمتها على الأقل، أي أكثر من ثلث قيمتها، وهذا المبلغ الموضوع باسم ضمانة هو زهيد لا يوازي عشر الضمانة القانوني، ولذلك أضافوا عليه قيمة الموضوعات في الخزينة الافرنسية ومجموعها ٥٤١٥٠٠٠ ليرة، بحيث يتعادل معها القدر المتوجب وضعه قانونياً. على أنه يهمنا ان نعلم هل هذه الموضوعات في الخزينة الافرنسية هي ذهب ام ورق. فالميزانيات لا توضح ذلك في الوقت الذي تشير فيه الى ان ٦٢٥٠٠٠ ليرة الموضوعة في بيروت هي نقود وسبائك وهذا فيه نظر. وسواء كانت هذه الضمانة ورقاً ام ذهباً فمن يكفل لنا بقاءها عند هبوب العواصف السياسية وحصول الأزمات الاقتصادية. ولرب قائل يقول ان البنك ذي أغيار في عالم المال فلا يسمح بمسّ اعتماده مهما كلفه الأمر ولو فادى برأس ماله فالجواب على هذا الفرض هو:

أولا ـ ان سحب الاموال الذهبية من المصارف والتشريع بدفعها ورقاً سبق للدولة المنتدبة ولغيرها من الدول المعظمة ان فعلته كما أشرنا الى ذلك آنفاً، حتى ان بعض الدول المعظمة كانكلترا واميركا التي كانت اوراقها

النقدية مضمونة بالذهب وتفضل على الذهب نفسه لدى سكان العالم أجمع يتعاملون بها ويؤلفون معظم ثروتهم العامة منها، حيث لم تؤثر فيها العوامل السياسية حتى ولا في ابان الحروب، بل لبثت ثابتة تقاوم العواصف، واذا بالدول أصحابها تفاجيء العالم بين عشية وضحاها بسحب ضمان تلك الأوراق، وتتركها في مهب الريح تتلاعب بها الأهواء فتجعلها بين هبوط وصعود الى ان تقضي على ثروة العالم وتضيع على الناس أموالهم التي تقدر بالمليارات. وهذا العمل الذي هو ظلم واغتصاب بحيث لم يستطع أحد الحيلولة دونه ولا الاعتراض عليه، وراحت أموال الناس هدراً بسببه[٢٠].

الجواب الثاني ـ ان المصارف في اوروبا مرتبطة ببعضها فاذا حدثت أزمات شديدة يوماً من الأيام وأسفرت عن نتائج معكوسة تتضعضع المصارف وتنضب تلك الكنوز وتصبح فارغة كفؤاد ام موسى. وهناك الطامة الكبرى على حاملي الأوراق والمتعاملين بها حيث لا يبقى من أثر لتلك التأمينات وتذهب كما ذهب الروبل والمارك والكورون في مهب الريح، ويمسي حاملوها خاوي الوفاض يعضون الأنامل على ما فرّطوا به ولات حين مندم. وعلاوة على ما ذكرناه خلال البحث عن الدنانير من الخسائر الفادحة التي أصابتنا بسبب الأوراق النقدية رواية نذكرها على سبيل التفكهة تسلسلت عن شاهد عيان قال:

في أواخر أيام نابوليون الأول كان جنديان متراجعان يقصدان قرية تراءت لهما عن بعد وبينما هما مهرولين اليها اذ رأيا على قارعة الطريق كيساً مملوءاً بالأوراق النقدية ذات القيم المختلفة فخف أحد الجنديين لحمل الكيس ونقله الى القرية أمل الاستفادة من قيمة اوراقه، فقال رفيقه ترى هل يساوي هذا الكيس وما حواه من ورق أجرة حمله ونقله؟ واتفق الاثنان على الجواب بالنفي والقيا الكيس على الثرى ومضيا في سبيلهما.

الفضة

لأجل سحب ما بقي في البلاد من الذهب وتأميناً للتعامل بالورق وحده تحولت الدعايات نحو العملة الفضية وأخذت تستورد بكثرة مريعة، وتباع في الأسواق بأقل من أسعار الفضة الخام (قبل سكّها) في اوروبا فحاذر الناس العاقبة وراحوا يبيعون ما لديهم من الفضة بتلك الأثمان البخسة وأخذت الفضة تشحن بالقناطير من البلاد الى اوروبا واميركا حيث تصاغ أوان ثمينة تدر أرباحاً وافرة وبهذه الواسطة اضاع الناس القسم الأخير من ثروتهم وتراث آبائهم. إن الفضة مهما تدنّت أسعارها لا بد من أن يعقبها الصعود النسبي فتثبت عند حد معقول لأنها معدن ثمين يمكن الاستفادة منه في أي وقت كان، أما الورق فانه اذا كان مضموناً لا يؤمن ضمانه واذا لم يكن له ضمان فلا قيمة له ألبتة. ولذلك كان يجدر بنا أن نتمعن جيداً في الأمر، ونحافظ على الفضة ولو نابنا بسببها شيء من الخسارة التي هي وقتية واقل بقليل من خسارة الورق، ويمكن تعويضها عند ارتفاع أسعار الفضة الذي لا بد منه.

الأوزان

الأوزان المستعملة في الشام على الطريقتين القديمة والحديثة هي كما يلي:

الرطل الشامي ـ أقّتان. او ١٢ أوقيّة تعادل ٢.٥٦٦ كيلوغرام.

الأقّة ـ ٤٠٠ درهماً تعادل ١.٢٨٣ كيلوغرام.

الوقيّة ـ ٢/٣ ٦٦ درهما، تعادل ٢١٤ غراماً.

الدرهم ـ ٧/١٠ من المثقال أول ٣.٢٠٧ غراماً.

المثقال ـ ٣/٧ غراماً.

القنطار الشامي ـ ١٠٠ رطل أو ٢٠٠ أوقة تعادل ٢٥٦.٦ كيلوغرام (الجرّة المستعملة في المعاصر ٣ ارطال او ٧ كيلوغرام).

وهذا جدول الأوزان الاعشارية نسرده على الترتيب:

واحد مليغرام ـ معشار الغرام ١/١٠٠٠

واحد سنتيغرام ـ ١/١٠٠ اي عشر الغرام.

واحد ديسيغرام ـ ١/١٠ اي عشر الغرام
(ولذلك فالغرام الواحد، يساوي: ١٠ ديسيغرام، او ١٠٠ سنتيغرام، او ١٠٠٠ مليغرام)
واحد ديكاغرام ـ ١٠ غرامات.
واحد هيكتوغرام ـ ١٠ ديكاغرام او ١٠٠ غرام.
واحد كيلوغرام ـ ١٠٠ ديكاغرام، او ١٠ هيكتوغرام، او ١٠٠٠ غرام، ويعادل ٤.٦ اوقية اي ٤ اواق و ٤٠ درهماً عتيقاً.
واحد كنتال ـ ١٠٠ كيلوغرام تعادل ٣٨.٣٣ رطلاً، اي ٣٨ رطل و٢.٧٥ اي اوقيتان وثلاثة ارباع الاوقية.
واحد طون (طن) ـ ١٠ كنتال او ١٠٠٠ كيلوغرام تعادل ٣٨٣ رطلاً قديماً. اي ثلاثة قناطير و٨٣ رطلاً.
واحد لبيرة ـ (المستعملة في وزن الماء والسوائل) حجمها ٠.١ اي عشر متر مكعب ووزنها كيلوغرام واحد

المكاييل

المكاييل ايضاً لم تزل تابعة للكيل الاستنبولي، وهو ما يسمونه (الجفت) عندنا

الجفت (في الحبوب) الوزنة في الطحين والبرغل)	ـ ٢٥ اوقة او ١٢.٥ رطلاً تعادل ٣٢.٣ كيلوغرام
المد (نصف الجفت)	١٢.٥ اوقة، او ٦.٢٥ رطلا تعادلها ١٦.١٥٠ كيلوغرام
التمينة (ثمن المد)	ـ ١.٥٦٢ اوقة، او ٩.٣٢ اوقية، او ٢.٠٤٨٨٥٧ كيلوان وكسر طفيف.
الجرة والليبرة ـ	ذكرناهما في باب الأوزان.

المقاييس

وهذه القياسات القديمة والحديثة:

الذراع المعماري ـ	٠.٧٥٨ من المتر.
الذراع التجاري ـ	٠.٦٩٥٧ من المتر.
الكيلومتر ـ	١٠٠٠ مترا مسطحاً.
القصبة (في مساحة الأرض) ـ	(٥.٥٧٤) ذراعاً مربعاً او ٣١.٠٦٩ ذراعاً مسطحاً يعادلها (٤.٨٧) متراً مربعاً او ٢٣.٧١٦ متراً مسطحاً.
الفدان الخطاط ـ	٢٤٠ قصبة او ٧٤٥٦.٥ ذراعاً مسطحاً او ١٣٢٧.٧٦ ذراعاً مربعاً تعادل ٥٦٩٢ متراً مسطحاً او ١١٦٨.٨ متراً مربعاً اي ١.١٦٨ هكتاراً.
الفدان الدوماني ـ	٢٤ فداناً خطاطاً او ٣٧٦٠ قصبة مساحتها ١٧٨.٩٥٦ ذراعاً مسطحاً او ٣٢١٠٦ ذراعاً مربعاً تعادل ١٣٦.٦٠٨ متراً مسطحاً او ٢٨٠٥١ متراً مربعاً اي ٢٨.٠٥١ هكتاراً.
الدونم ـ	٤ اولك او ١٦٠٠ ذراعاً تعادل ١٢٦٢.٦ متراً مسطحاً او ٥١.١٣ قصبة.
الاولك (الار) ـ	١٠٠ متراً مربعاً.
الجريب (الهكتار) ـ	١٠٠ آر او ١٠٠ مترا مربعاً.
سنتيار ـ	١/١٠٠ من الار او متراً مربعاً واحداً.

الدواب

الدواب قسمان: مستأنس ووحشي، والمستأنس ثلاثة أقسام للركوب وللجر وللأكل والاستدرار. أهم الدواب المستأنسة المطايا وخيرهم الخيول العربية التي تعد أصيلة بنسبة اجناسها وانسابها المضبوطة عند اربابها وهي: الصقلاوية والجدران والكحيلة والجلفة والمعنقية وأم عرقوب والبيان والحلاوتة، والحمدانية، وارتفاع هذه الافراس يتراوح بين المتر والاربعين والمتر والثمانية وخمسين سنتيمتراً فقط ولم توجد الى الآن فرس تعلو أكثر من ذلك. كان أهل الشام كسائر أهل البلاد العربية كلها يعتنون بتربية الخيل واقتنائها والمتاجرة بها، فيشترون مثلا الفرس (الأنثى) بخمسين ديناراً ويربونها عاماً واحد، فلا تلبث ان تلد مهرة لا تقل شكلاً وقيمة عن أمها،

فيبيعون الواحدة ويبقون على الثانية وهلمّ جرا.

وكان الجيش العثماني يبتاع من الشام في السنة نحو الخمسماية حصان (ذكر) وبغل لكتائب الفرسان والمدفعية والبغالة والنقلية. وكانت مدينة دمشق تصدر مثل ذلك الى اوروبا واميركا ومصر، وكان السعر المتوسط لما يبتاعه الجيش عشرون ديناراً وما يرسل الى البلاد الخارجية لا يقل عن الخمسين ديناراً فيحصل من وراء ذلك زهاء أربعين الف ليرة ذهبية تقريبا في كل عام ــــــــــ[٢١] راس مالها خفيف وعلفها بسيط. اما الان فالتمدن جعلنا نقلع عن هذه العادة المفيدة ونهملها كما أهملنا كل مفيد غيرها ونالف ركوب العجلات والسيارات حتى كادت أصناف الجياد تتلاشى هي وأجناسها.

ومن المطايا الجمال، والبغال، والاتن (الحمير) السوداء والبيضاء وهي تدخل في قسم الجر والتحميل أيضا. فالجمل يؤتى به من البادية، والبغال والاتن تستولد في الشام، وقد يؤتى بالبغال من بلاد فارس إيران والاناضول أيضاً. ومن المطايا ما يسمونه الكدش. وهي خيول التركمان يؤتى بها من شمال الأناضول الشرقي، وتستعمل على الأكثر في الجر والتحميل، وكانوا يجعلون منها الرهانات (الرهاوين)، وهذه أيضاً أهملت منذ ان انقطع سفر الحجّ في البر، وكان يوجد نوع من الاتن السوداء ضخم الجثة عظيم الهيكل يستطيع حمل قنطار من الأحمال كالجمل، وهذا أيضاً باد وانقرض لعدم الاعتناء به. والباقي منه اليوم صغير الجثة ضئيلها بنسبة ما كان عليه قبلا، ومن الحمير جنس أبيض اللون يستورد من قبيلة الصليب في البادية، وهو يصلح للركوب أيضاً.

أما دواب الأكل والاستدرار فهي البقر والجاموس (وهي للحرث أيضاً)، والضأن (الغنم) والمعزى والخنزير، فالبقر منه البلدي ومنه ما يسمونه العكش، والبقر البلدي جميل الشكل وله وبر لمّاع وتوجد منه نوادر تدرّ البقرة الواحدة منها زهاء ستة أرطال من اللبن (الحليب) في خلال أربع وعشرين ساعة، ومتوسط الأبقار البلدية تدرّ من رطلين الى أربعة أرطال في اليوم الواحد، والبقر العكش صغير الجثة، وأنثاه لا تدر أكثر من رطل واحد في اليوم. والغنم يُجلب من شمال الآناضول ونجد والعراق، ومنه ما يربّى في الشام أيضاً. فغنم الآناضول يُدعى (قرماني) وهو ذو إلية عريضة وعظام دقيقة بخلاف الغنم النجدي ذي الالية المستطيلة والعظام الغليظة، والضأن البلدي هو من جنس القرماني ولكن خصيتيه أصغر من خصيتي غنم الاناضول. والمعزى تستولد وتربى في الشام، ومنها النوع البلدي الذي يربى على الأكثر في قرى داريا وجرمانا وبيت سحم وقد تظهر منه نوادر تدر احداها نحو رطلين من اللبن في كل اربع وعشرين ساعة، وباقي المعزى تحلب واحدتها من أوقتين الى ثلاث أوقيات في الصباح والمساء معا. والمعزى العكش جثتها أصغر ودرها أقل. وفي البساتين وبعض الدور القصيّة توجد خلايا النحل، وعسلها لذيذ بنسبة الزهور التي تمتصها. والقرد والخنزير يندر وجودهما، والهرة موجودة في كل مكان، وقد أبيدت الكلاب ولم يبق منها الا الغريب. ومن الطيور الأهلية توجد أنواع الدجاج بين بلدي وهندي، وحبشي وسوداني، وانكليزي، واسبانيولي، ويوجد أيضاً الأوز، والبط، والحمام الزاجل، والحمام المطوق (يا كريم) والشحرور والعصفور والستيتية. ومن طيور الصيد يوجد الحجل، والترغل، والسمّن، والفرة، والهدهد، ودجاج الماء، وابي الفول. ويوجد أيضاً الغراب والزاغ، والسنونو، والشوحة، والعصفور الدوري، والوطواط (الخفاش) والبوم والقطا. ويجمع الصيادون من الأنهر كثيراً من الأسماك وهي جنس واحد قليل اللذة بالنسبة لأسماك البحر. وعلى ضفاف الأنهر يوجد السرطان والسلحفاء، والضفدع، والحلزون، ومن الحيوانات الوحشية يوجد في الجبال والبوادي المحيطة بدمشق الدب، والنمر، والضبع والغزال والثعلب والخنزير البري، وابن آوى، والقنفذ، والخلد، والسنجاب، والنمس، والأرنب، والحرباء والحردون وابي براقش. والحيّات في دمشق غير سامة لوجودها في الأوكار الكثيرة الرطوبة بخلاف العقرب والرتيلاء (العرتيلة) التي تقطن الدور وتؤذي بلسعتها. ويوجد أيضاً الصرصور، والخنفساء والذباب والبعوض، والفراش، والزنبور، والزلقط، والنمل، والفار، والجرذ، والبق، والبرغوث، والقمل، وفي بعض السنين يسطو الجراد آتيا من جهتي الشرق والغرب (نجد ومراكش)، ويفتك بالمزروعات فتكاً ذريعاً وقد يسلّط عليه طير صغير يدعى السمّور فيأكله ويبيده.

احصاء المواشي الموجودة في البلاد السورية عام ١٩٣٥.

نوع	رؤوس
ابقار	٢٠٥٥٥٧٣
معزى	٥٦٧٥٧
بغال	١٠٩٥٢٥
جمال	١٤١٨
خنزير	
اغنام	
خيل	
أتن	
جاموس	

كانت البلاد السورية في الأزمنة القديمة تعتني بتربية الماشية فتؤمّن منها حاجتها وتصدر ما زاد الى البلاد الخارجية. وعلى مرور الأيام أصابها ما أصاب الزراعة من الاهمال بسبب الغارات والحروب وأصبحت ماشيتها لا تنتج ما يسد عوزها، فاضطرت لاستيراد ما ينقصها من الآناضول والعراق ونجد التي كانت معنا داخلة في المنظومة العثمانية فتأتينا منها المواشي بدون مكس، أما الآن فقد وضعت الكمارك على تخوم الدول الحديثة واضطررنا لأداء المكوس عن كل ما نستورده منها مما أدى الى غلاء أسعار اللحوم المستمر في بلادنا.

وهذه مقادير الدواب التي استوردتها البلاد السورية في خلال أربع سنوات:

خيل وإبل وغيرها	السنة
٥٢٩٨٧	١٩٣١
٤٨٤٣٠	١٩٣٢
٢٦٤٧٤	١٩٣٣
٢٣٦٧٠	١٩٣٤

السيارات

السيارة (اوتوموبيل) مركبة ميكانيكية تدار بايقاد زيت البانزين في مرجلها، وتسير بسرعة تعادل ١٢٠ كيلومترا في الساعة ولكنها لا تستطيع الدوام على هذه السرعة التي قد تؤدي الى عطب في أوائلها، وخطر على ركابها فتعدل سيرها وتخففه الى ما دون الخمسة والاربعين كيلومترا داخل المدن، وتسعين كيلومترا في الصحراء. وهي تقطع البادية بين دمشق وبغداد بأربع وعشرين ساعة تقريباً، وتجعل المسافر يختارها بسبب هذه السرعة. ولما كانت لا توجد في بلادنا معامل لصنع السيارات واوائلها، ولا معدن نستنتج منه زيوتها، أخذنا نجلب السيارات وأوائلها وزيوتها من اوروبا واميركا بقيم زائدة تستنزف ثروة البلاد تدريجيا.

وهذا الاحصاء الرسمي للسيارات الموجودة في بلادنا سنة ١٩٣٤.

سيارة	البلد
	جبل لبنان
٦٨٠٧	المدن الاربعة
٩١٨	اللاذقية
٢١٥٨	الاسكندرون وجبل الدروز
٩٨٨٣	**مجموع السيارات في سورية ولبنان**

احصاء زيت البانزين الوارد على سورية في ثلاث سنوات.

الوزن طن	السنة
٢٩٤١١	١٩٣١
٣٢١٦١	١٩٣٢
٣٤١١٤	١٩٣٣
٩٥٦٨٧	**المجموع**

إذا كان السعر المتوسط لكل سيارة مائتان وخمسون ليرة دينارية، تكون قيمة هذه السيارات ٥٣٢٨٧٥٠ ليرة ذهبية، واذا أصاب السيارة من العطب ما هي معرضة له في كل سفرة من أسفارها، أو تعطلت أوائلها، لا تستعاض ولا يستفاد منها بشيء سوى الأنقاض التي تكاد لا تساوي دانقاً لكثرتها وعدم امكان تصليحها واستعمالها عندنا. أما قيمة البانزين فهي كما جاء في الاحصاء الرسمي ٤٣٩٢٥٢٥ ليرة سورية في ثلاث سنوات فقط، أضف اليها ثمن الكاوتشوك والأوائل التي تعطل ويضطر أصحابها الى تبديلها وتجديدها، وهو على أقل تقدير لا يقل عن المائة ألف ليرة في كل سنة، وبلغ في السنين الثلاث المار ذكرها ثلاثمائة ألف ليرة، فمجموع قيمة البانزين والكاوتشوك وما شاكلهما ٤٣٩٢٥٢ ليرة، تعادل زهاء ٨٠٠٠٠٠ ليرة ذهبية. ولربَّ معترضٍ يعترض على قيمة السيارات بدعوى انها ليست كلها ذات قيمة عالية فنجيبه بأن هذه القيمة التي عدلناها للسيارات هي اقل ما يمكن الاعتماد عليه من الاسعار المتعارفة لاننا لو فرضنا أنا نبتاع بعض سياراتنا وهي مستعملة من لبنان وفلسطين بأسعار واطئة فان قيمتها الأصلية داخلة في حساب ما يخرج منا لقاءها. على أننا ما زلنا نبتاع من مال الأمة سيارات الوزراء والرؤساء بأعلى من تلك القيم ومنها ما ابتعناه بما ينوف عن الألف ليرة ذهبية كما هو معلوم عند من له اطلاع على هذه المبايعات. وقد جاء في احصاء أخير ان السيارات المستعملة في سورية بلغ عددها عام ١٩٣٨ (٣٧٣٩ سيارة) عدا الدراجات البخارية ومجموع كلفها ٨٧٠٠٠٠٠ ليرة سورية وعدا الرسوم الكمركية، يكلف استثمارها في السنة ٣٧٥٠٠٠٠ ليرة وينفق على اصلاحها ٦٠٠٠٠٠ ليرة في السنة والرقم المتوسط الذي تخسره البلاد في كل سنة على السيارات ٥٣٢٠٠٠٠ ليرة. وهذا المبلغ الطائل هو على قيمة الخيول التي اضعناها وأضعنا فوائدها بسبب السيارات فما القول بما أوصلنا إليه هذا التمدن؟ ونحن ما زلنا متاخرون أشواطاً عن الغربيين ولا نرى لزوماً لتقليدهم بالصنائع والأعمال المثمرة والسعي وراء ما يدر علينا الخير والبركة كما قلدناهم في مثل هذه الفخفخات ونفقاتها التي لا تتناسب مع احوالنا الاقتصادية العمومية

وهي تمتص دمـاءنـا وتجعلنا على شفا الافلاس والهلاك. فلو كنا خصصنا هذا المبلغ العظيم او قسماً منه لتأسيس معمل لصنع السيارات أو أي نوع غيرها من الحاجيات التي لا غنى لنا عنها فماذا تكون النتيجة؟ فهل من بصير؟

الوظائف

لا بد لكل شعب من حكومة تدير أموره وتؤمنه على أرواحه وأمواله واعراضه، وتحول دون اعتداء قويّه على ضعيفه، وتدرأ عنه طوارق الحدثان. واذا لم تكن تلك الحكومة من الشعب وإليه يأتيه الغريب ويستولي عليه ويجعله أضعف من أن ينال حقاً أو يبلغ منى.

قامت حكومة الأمويين في صدر الاسلام، ودامت زهاء قرن واحد، وهي الحكومة العربية الوحيدة. وبانتهائها انتهى الحكم العربي، حيث قام العباسيون بقوة الأعاجم وحاذروا تألب العرب عليهم يوماً من الأيام، فأقصوا عن جنديتهم وسائر خدماتهم العامة كل عربي أبي النفس، وحصروا وظائف حكومتهم كلها بشيعتهم الفرس وغيرهم من الأقوام الغريبة.

ودام هذا الابتعاد اثني عشر قرناً توافد في خلالها الأغراب على البلاد العربية جمعاء من المشرق الى المغرب وسكنوها واستبدوا بأهلها تعضدهم الحكومات المختلفة التي قامت فيها أيام العباسيين وبعدها، وكانت هذه الحكومات أعجمية بحتة برؤسائها وعمالها وجنودها، ولغاتهم التي يتكلمون بها محرومة من الأحرف الهجائية، فلا تكتب ولا تقرأ بل ويتعذر النطق بها لغير أهلها، فاضطروا الى استعمال العربية في قراءتهم وكتابتهم. ولما جاء العثمانيون، وهم أرقى تلك الأمم علماً ومعرفة، وقد تعلموا العربية منذ اسلامهم، واستعملوا أحرفها في كتابة لغتهم التركية أيضاً، فاقتصروا بهذه اللغة على المخابرات الرسمية فقط، ولبثت لغة البلاد العامة يتكل ويتكاتب بها جميع الأهلين الذين أصبحوا عرباً على اختلاف أنسابهم. على ان هذا الخليط الذي تألّف منه سكان البلاد لم يكن في الامكان توحيد كلمته، فراح يسير مع الهوى، الى ان فترت مع الأيام همته، وضعفت قوته، وطاب له المقـام، وكره الأسفار من حيث هي ثم ازداد ورعاً وحاذر الوقوع في الزلل، والتزم الخمول الذي أدى به الى التخوف من الحياة وجعلها علة العلل.

ولمّا جلس السلطان عبد المجيد خان على سرير السلطنة العثمانية أعلن التنظيمات الخيرية القاضية بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات بين جميع رعاياه المختلفي القوميات والمذاهب. على ان داء الانزواء المزمن الذي مني به أهل البلاد العربية منذ أحقاب لم يمكن شفاؤه في بضعة أعوام فلبثوا مبتعدين عن الحكومة وخدمتها أمل التخلص من جنديتها الى ان حدثت حادثة الشام المعروفة بحادثة الستين ولم يكن يوجد إذ ذاك في خدمة الحكومة من أهل البلاد العربية سوى بضعة أشخاص يعدون على الأنامل، وكان البعض يعتذر عن عدم ولوج ابواب الحكومة بعدم معرفة لسان الدولة الرسمي الذي لم يكن يعلمه في الشام سوى بعض المتحدرين من أصلاب تركية، حديثي العهد بالعروبة حالة كون التجارب اظهرت بعدئذ ان اللسان العثماني قريب المأخذ سهل التعليم وخصوصاً لأبناء العرب، لأنه مركّب على الأكثر من كلمات عربية بحتة، وليس فيه سوى الظروف والآلات والقليل من الأسماء التركية والفارسية السهلة الحفظ.

في تلك الأونة قررت الدولة العثمانية التجنيد الاجباري وهو أول الخدمات العامة المتوجبة على جميع أبناء الوطن في جميع أقطار العالم حفظاً لذلك الوطن من الانهيار بين أيدي الاغيار. ثم أحدثت التشكيلات الادارية في ولاياتها. فبينما كانت الايالة القديمة لا تحوي من الموظفين سوى النفر القليل وهم خليط من الأقوام المؤلفة منها الدولة، أصبحت الولايات الجديدة ذات دوائر وأقلام (مكاتب) متعددة تحتاج الى الكثير من الموظفين ولذلك فتحت باب التوظيف على مصراعيه لجميع أبناء البلاد على اختلاف مذاهبهم مبتدئة من الجندية. وعندما تجند السوريون وذهبوا الى العاصمة وسائر البلاد المجاورة ليقوموا بحراسة الوطن المشترك بين الجميع، رأوا ان الخدمة العسكرية سهلة بخلاف ما كانوا يتوهمون من قبل، فألفوها وراحوا يتقدمون اليها من تلقاء أنفسهم،

ويقدمون اليها اولادهم بايديهم مختارين غير مكرهين، فمنهم من يدخلها متطوعاً بصفة جندي بسيط يقضي أيام الخدمة المعينة كسائر الجنود الذين يؤخذون بالاقتراع، ثم يعود الى بلدته ومهنته طليقاً أو يفضّل البقاء بالجندية فيصبح ضابطاً ويتدرج في مراتب الجيش، ومنهم من يدخل المدارس العسكرية التي تعلم تلامذتها مجانا وبدون أجرة أنواع العلوم والفنون الحربية، ثم تخرجّهم ضباطاً ذوو شهادات عالية تؤهلهم للصعود الى اسمى درجة من درجات الجيش وهي مرتبة المشيرية المعادلة لمنصب الوزارة حيث لا يبقى أمامهم، اذا ساعدهم الحظ والأجل، من مانع يمنعهم من الارتقاء والوصول تدريجياً الى مقام الصدارة العظمى التي هي وكالة الخلافة والسلطنة ورأس جميع وظائف الدولة وقد نالها البعض من أبناء البلاد العربية كما نذكره فيما يأتي. ولم ينظر في تقليد الوظائف العامة الا الى الاقتدار والجدارة فقط، ولم تكن منحصرة بطائفة دون طائفة من الناس أو بالمتخرجين من مدارس الحكومة وحدهم، بل تسرب اليها كل من شاء من السوريين على اختلاف مذاهبهم[٢٢].
فنجحوا وظهر النبوغ العربي الذي جعلهم يفوزون على أقرانهم الاتراك ويتقدمون عليهم درجات. ثم ان البدل العسكري عن الخدمة الفردية بعدما كان أيام الحادثة الشامية مائتي ليرة ذهبية وهو يعادل نحو الثلاثة آلاف ليرة سورية في زمانها وقام بدفعه وأدائه الكثير من الناس خوف التجنيد ليس غير، تنازل هذا البدل وهبط تدريجياً الى الخمسين ليرة فقط، ولا من يؤديه سوى البعض من ذوي اليسار، لاعتياد الأهلين على الخدمة العسكرية التي أصبحت أيامها مهرجانات عامة يسير إليها المطلوبون بعراضات[٢٣] تضج لها المدينة بأسرها وتعطل أعمالها للاشتراك بها والتفرج عليها، ثم أخذ بعض الشبان يذهبون مباشرة الى العاصمة بعدما كان لا يؤمّها سوى بعض التجار (وقليل ما هم)، ويدخلون في مدارسها العلمية والملكية والطبية والحقوقية والهندسية والبيطارية عدا المدارس العسكرية الثلاث (الحربية والمدفعية والطبية) التي سبق ذكرها. وغيرها من المعاهد العلمية المفتوحة الأبواب لكل طالب مجاناً وبدون أجرة. ولما ينالون اجازاتها يتقلدون الوظائف بحسب المسلك الذي اختاروه عند دخولهم المدرسة ثم يتدرجون في مراتب الدولة ومناصبها حيث نبغ منها المشير والوزير والفريق وصدور العلماء وقضاة استنبول والحرمين وما يعادلها من المراتب الملكية، وصار منهم النظّار، والولاة، ورجال المابين السلطاني وقادة الجيوش واركان حربها، حتى ان تسعين في المائة من أمراء وضباط الجيش الخامس بدمشق أصبحوا من أبناء البلاد العربية وغدا القضاة ورجال الادارة والمال والحقوق وبعض المهندسين (لقلتهم وعدم رغبتهم في هذا الفن سابقاً) والأطباء والبياطرة والفنيين في سورية وغيرها من الولايات العثمانية المترامية الاطراف من أهل البلاد العربية ايضاً، وهكذا اشتركوا فعلاً بالحكم بعد ان يبتعدون عنه. وعندما افتتح مجلس النواب العثماني (المبعوثان) كان عدد اعضائه من الولايات العربية يناهز عدد النواب الاتراك، فلو اتفقت كلمتهم لكانت لهم الأكثرية النسبية والقول الفصل ونالوا كل ما يصبون اليه من إصلاح وتنظيم. ثم ان الموظف كان أميناً على مستقبله وارتقائه بنسبة استعداده واقتداره، وعلى راتب التقاعد الذي يستحقه ويناله في شيخوخته ويخصص لأهله وأولاده من بعده بحسب الحق القانوني الذي اكتسبه منذ دخوله الوظيفة. وعلى هذه الصورة أصبح الكثير من نخبة القوم وأبنائه يتسابقون الى هذه المهنة الشريفة التي تجمع بين خدمة الوطن ورفاه العيش في آن واحد ويفضلونها على غيرها.

دأبت أوروبا على اغواء الشرقيين باثارة النزعات القومية واغرائهم على الانفراد والافتراق عن الجامعة العمومية ليسهل عليها التهامهم واحداً بعد واحد وكل من وقع في شراكهم وشذّ عن الجماعة ما لبث ان أصبح لقمة سائغة في أفواه الطامعين، كما شوهد ذلك في جميع أقطار الشرق. وكان يجب علينا ان نتعظ بغيرنا، ولا نلقي انفسنا بأيدينا الى التهلكة، ولكن الله سبحانه قدّر لنا تفريق الشمل وتقطيع الأوصال، والسير في طريق الانحلال والاضمحلال، حيث جعل البعض منا يستمع لدسائس الغواة المضللين الذين باعوا ضمائرهم وأوطانهم في سبيل الدعاية الأجنبية، ويقول معهم ان الاتراك هضموا حقوقنا ويرومون تتريكنا وإضاعة لغتنا. أما قولنا بأننا مهضومو الحقوق فهذا إدعاء باطل يكذبه الواقع، لأن الحقوق الشخصية مصانة بالاحكام الشرعية التي لا تفرق بين شخص وآخر بل تنظر الى المجموع نظرة واحدة مستندة على القاعدة الكلية القائلة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). أما الحقوق السياسية فقد أوجبتها التنظيمات الخيرية التي ذكرناها فيما سبق، وأيدها القانون

الأساسي والتعامل الجاري الذي يقضي بالمساواة التامة بين جميع أفراد الرعية بدون تفريق جنس أو مذهب. وكل من سلك مسلك الوظائف من أبناء العرب ما لبث أن تدرّج في مسلكه بحسب قابليته واستعداده، وترقى اكثرهم فنال أعلى المراتب والمناصب[٢٤] باعتباره فرداً من أفراد الأمة العثمانية بصرف النظر عن جنسيته وقوميته كما قدمنا. وفيما يلي نذكر أسماء من حاز رتبة الوزارة في الدولة العثمانية من أبناء البلاد العربية وقام بوظائفها منذ أيام السلطان عبد المجيد خان، أي منذ أن افتتحت للعرب أبواب التوظيف في الحكومة، وذلك عدا أشراف مكة وأمراء مصر الذين نالوا الوزارة للشرف فقط، وخلا صدور العلماء وقادة الجند الذين نذكرهم على حدة وألوف الموظفين الذين حازوا مراتب وشغلوا مناصب رفيعة دون الوزارة ولم ينظر الى أنهم أولاد العرب. أما قلتها بنسبة كثرة الأتراك فمنشؤها عدم رغبتهم في التغرّب عن بلادهم، ولو تغربوا لنالوا أكثر من ذلك بلا ريب[٢٥].

الوزراء العرب في الدولة العثمانية منذ أيام السلطان عبد المجيد خان:

الاسماء	البلدة	بعض الوظائف التي تولوها
تقيّ الدين باشا المدرس	حلب	تقلب في ولايات عدّة
منيف باشا العنتابي	حلب	تقلب في النظارات
قدري باشا الحكيم	حلب	تولى رئاسة الوزارة (باش وكيل)
ناصر باشا السعدون	البصرة	والي البصرة
خير الدين باشا الشركس	تونس	تولى الصدارة العظمى
السيد فضل باشا	حضرموت	
اسماعيل حقي باشا	اللاذقية	ناظر النافعة
أحمد عزت باشا العابد	دمشق	الكاتب الثاني للحضرة السلطانية
فرانكو باشا نصر الله	حلب	متصرف جبل لبنان
نعوم باشا التوتنجي	حلب	متصرف لبنان ثم سفير في باريس
محمود شفيق باشا الكوراني	حلب	ناظر الضبطية
سليم باشا ملحمة	بيروت	مستشار الرسومات
نجيب باشا ملحمة	بيروت	مستشار النافعة

وهذه أسماء القادة من أبناء البلاد العربية الذين نشأوا في الجيش العثماني في خلال تلك المدة، ونالوا على التدرج أعلى مراتبه، وتقلبوا في مختلف مناصب الدولة:

الاسماء	البلدة	الرتبة	الوظيفة
محمود شوكة باشا	مشير	مشير	تولى الصدرة العظمى
محمد باشا العرق سوسي	الشام	فريق	رافق السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد وعبد المجيد
علي قيراط باشا	طرابلس الغرب	فريق	رافق نفس السلاطين
حسن اديب باشا	الشام	فريق	تولى ولايتي اليمن وطرابلس الغرب
يحيى باشا اليكن	الشام	فريق	والي اشقودرة

الاسماء	البلدة	الرتبة	الوظيفة
زكي باشا المدير	حلب	فريق	قائد الجيش الرابع
كامل باشا القدسي	حلب	فريق	قائد فرقة الحديدة
هادي باشا العمري	بغداد	فريق	ناظر الحربية
صادق باشا المؤيد	الشام	فريق	مرافق جلالة السلطان ووزير مفوض في بلغارية
حسن تحسين باشا	الشام	اميرلواء	اركان حرب
اسعد باشا قدح	الشام	اميرلواء	اركان حرب
محمد علي باشا القضماني	الشام	اميرلواء	سواري (قائد خيالة)
ثابت باشا الكريدي	الشام	اميرلواء	بياده (قائد مشاة)
زاهد باشا الشيخ فضلي	الشام	اميرلواء	عضو مجلس التفتيش العسكري
زاهد باشا الهبل	الشام	اميرلواء	سواري
سعيد باشا الريحاوي	الشام	اميرلواء	قائد فرقة ديار بكر
عبد الحميد باشا الارناؤوطي	الشام	اميرلواء	اركان حرب
سامي باشا الفاروقي	بغداد	اميرلواء	قائد حملة حوران
مصطفى باشا الكردي	بغداد	اميرلواء	اركان حرب
زكي باشا	حلب	اميرلواء	اركان حرب وقائد الجيش الرابع قبل جمال باشا الكبير
رضا باشا الركابي	الشام	اميرلواء	قائد فيلق بغداد ثم حلب
أسعد باشا صوايا	جبل لبنان	اميرلواء	معلم في المدرسة الحربية
احمد توفيق باشا الحلبي	حلب	أميرلواء	قائد فيلق اليمن
شكري باشا الأيوبي	الشام	أميرلواء	بياده
عبد الحميد باشا القلطقجي	الشام	أميرلواء	اركان حرب
فؤاد باشا	الشام	اميرلواء	مستشار نظارة الحربية
سعيد سعدي باشا رمضان	الشام	أميرلواء	اركان حرب ـ مستشار وزارة الحربية
عبد الرحمن باشا شعيب	الشام	اميرلواء	سواري
محمد علي باشا الشحرور	الشام	اميرلواء	سواري
أمين باشا شاكر الفاوقجي	الشام	اميرلواء	سواري
محمد علي باشا	حلب	اميرلواء	قائد لواء عسير
ابراهيم ادهم باشا	حلب	اميرلواء	بياده
مصطفى نوري باشا القبرصي	الشام	أميرلواء	بياده
تحسين باشا الكريدي	الشام	اميرلواء	بياده

وعدا هؤلاء فقد مُنح الأميران محمد باشا ومحي الدين باشا أكبر أولاد الأمير عبد القادر الجزائري رتبة فريق ترغيباً لهما ولمواطنيهما من مهاجري الجزائر في الدخول في التابعية العثمانية والتساوي في الحقوق والواجبات مع ابناء البلاد. اما المراتب التي منحها عفواً الأمير فيصل بن الحسين وأخواه علي وعبد الله فهي اسميّة بحتة حيث لا جيش ولا راتب ولا هم يحزنون.

العلماء من أولاد العرب الذين نالوا المراتب العليا في الدولة العثمانية:

الاسم	البلدة	الرتبة
السيد سليمان افندي الكيلاني	بغداد	صدور
السيد أبو الهدى افندي الصيادي	حلب	صدور
السيد يوسف صدقي أفندي	ماردين	صدور
السيد احمد أسعد افندي الخشة	دمشق ثم المدينة	صدور
محمد افندي الجابي	بغداد	قاضي استنبول
محمد امين أفندي	بغداد	قاضي استنبول
محمد افندي الحمزاوي	دمشق	قاضي استنبول
محمد عطاء الله افندي الكواكبي	حلب	قاضي استنبول
محمد سعيد افندي الرفاعي	البصرة	قاضي استنبول
محمد فيضي افندي الزهاوي	بغداد	قاضي استنبول
السيد توفيق البكري	مصر	قاضي استنبول
عمر بهجت افندي	حلب	قاضي استنبول
مصطفى افندي الرفاعي الجندلي	حمص ثم أزمير	قاضي استنبول
جميل افندي آل جميل	بغداد	قاضي استنبول
السيد عبد الرحمن افندي الكيلاني	بغداد	قاضي استنبول
السيد مصطفى أفندي الكيلاني	بغداد	قاضي استنبول
السيد عبد الرزاق افندي الصيادي	حلب	قاضي استنبول
السيد رجب افندي الرفاعي	البصرة	قاضي استنبول
عبد الرحيم أفندي	بغداد	قاضي استنبول
عطاء الله أفندي المدرّس	حلب	قاضي استنبول
السيد حمزة أقدس	حضرموت	قاضي استنبول
السيد ابراهيم أسعد أفندي الخشة	المدينة	قاضي استنبول
السيد أبو الخير افندي عابدين	دمشق	قاضي استنبول
أسعد افندي الشقيري	عكا	قاضي استنبول

هل كان الأتراك يرومون تتريكنا؟

وأما قول الدعاة بأن الأتراك يرومون تتريكنا واضاعة لغتنا فالجواب عليه هو لساننا العربي المبين الذي ما زلنا نتكلم ونقرأ ونكتب به منذ أربعمائة واربع عشرة سنوات (٩٢٢ ـ ١٣٣٦)(*) التي وجد فيها العثمانيون بين ظهرانينا. وفضلا عن أنهم لم يستطيعوا في غضون تلك المدة كلها تعليمنا لغتهم (والأصح أنهم تساهلوا معنا احتراماً لهذه اللغة الشريفة) فقد كنا نحن نتمثّل كل من جاء منهم الى بلادنا بالعروبة، ونجعلهم هم وأولادهم عرباً لا ينطقون الا العربية لغة بلادنا، وينسون لغة بلادهم وأجدادهم كما ذكرنا آنفاً، وذلك في كل وقت، وخصوصاً في الزمن الذي كان فيه الحكام يستطيعون عمل كل شيء دون ان يلقوا معارضة من أحد، وكانت أوروبا لا تعلم من أمرنا شيئاً.

(*) وهي تقابل (١٥١٦ ـ ١٩١٧) ميلادية. (ن.ص.)

ان الدعايات في كل عصر ومصر تضرب على الوتر الحساس لكي تقضي على عقول البسطاء من الخلق وتجعلهم يستمعونها ويميلون اليها. وكانت الدعاية الأجنبية للتفريق بين الترك والعرب قائمة أولا على أفضلية الجنس، وأحقيته بالحكم والولاية، ودامت على ذلك اكثر من نصف قرن ودعاتها يضربون في صعيد بارد، ولم يخطر لهم هذا الاغواء الأخير حتى قام الأرمن وانتفض الأروام في العاصمة، واضطرّت الحكومة الى اعداد عدّتها نحوهم، واذ كانوا يكتبون دفاترهم التجارية بلغاتهم القومية التي لا يحسنها من الأتراك الا القليلون، وكانت الدولة بحاجة الى فحص تلك الدفاتر بين آونة وأخرى لتستطلع على ما يؤديه هؤلاء القوم من الأموال والاعانات الى أرباب الثورات والدول المخاصمة، فلذلك أصدرت امرها بجعل دفاتر التجار تكتب بالتركية ليسهل الاطلاع عليها من قبل مفتشي الدولة عند اللزوم. فاغتنم الدعاة هذه الفرصة وحوّلوا دعاياتهم نحو اللغة وقالوا ان الحكومة تروم منع اللغة العربية وإبطالها، وهي دعوى فارغة لا يقوم لها وزن من التضليل، بدليل ان اللغة العربية لبثت تدرس في مدارس الحكومة نفسها حتى بعد ذلك الأمر بكثير فضلا عن ان المدارس الأهلية العربية في جميع انحاء السلطنة العثمانية دامت مفتوحة الأبواب الى آخر أيام الدولة وبعدها. ولو كان في الأمر غبن او حيف لما قبل القانون القاضي بذلك في مجلسي النواب والأعيان العثمانيين ووقّعه على التأكيد نواب العرب وأعيانهم المعروفون باخلاصهم للقضية العربية، كالمرحومين الزهراوي واليوسف وغيرهما. وفي هذا العصر لا يتصوّر المرء ضياع لغته ولو نابه شيء من الضغط لأن ذلك كان محالا. ثم قال الدعاة ان الأتراك أجلوا الأروام والأرمن عن بلادهم، والجواب ان هذا الاجلاء كان نتيجة ثورات دامية قام بها أولئك الأقوام تجاه وطنهم، والخيانة العظمى التي ارتكبوها بالاشتراك في الحرب ضدّ دولتهم وفي صفوف أعدائها. فبعد ان قمعت الدولة تلك الثورات التي لم يكن القائمون بها على استعداد لاستثمارها، وغلبت اليونان، نصيرة الأروام، على أمرها، وافقت أوروبا على مبادلة السكان بينهما، وهذا ما كان يبتغيه الشعبان، وتتوق اليه الحكومتان، ولولاه لما تمّ شيء من ذلك. فلو كنّا لبثنا كآبائنا وأجدادنا محافظين على ولائنا لدولتنا ومثابرين على طاعتها، كما يقتضيه الدين والواجب، متضافرين معها على الذبّ عن الوطن، نابذين تضليلات الغواة المارقين، لما كان من مصلحتها التخلّي عنا وتركنا فريسة بين أيدي الطامعين. أما وقد طاش سهم المتهوسين من أبنائنا وراحوا ضحية اغواء الشريف حسين الذي وقع في شراك الانكليز، فوعدوه أولا بتأسيس حكومة عربية يكون هو ملكها، وما لبث أن أصبح مقصوص الجناح ملقى في جزيرة قبرص ينتظر حتفه ويرى بأمّ عينه ضياع ملكه وامارة آبائه وأجداده من قبله. ولمّا طالب الانكليز بوعودهم، أجابوه انك أخذت أجرتك لقاء خدمة، وقد تكافأنا فلم يبق لأحدنا عند الآخر شيء.

ولهذه الأسباب أصبحنا لا حول لنا ولا طول. فقدنا آمال الاستقلال التي حلمنا بها حيناً من الدهر وأضعنا معها عزّتنا ومجدنا. أما ضباطنا وقادتنا الذين كانوا يحلمون الأحلام الذهبية، ويرون في أنفسهم قدرة على كل شيء، فقد أصبحوا قابعين في دورهم، يعضون الأنامل على ما فرطوا به، ولات حين مندم. وقد أضاع معهم اولادنا الآمال بالوصول الى ما كان ميسوراً لهم في أيام الدولة العثمانية، فان الواحد، منهم بعدما كان يتصور ويؤمل الوصول الى أسمى درجة من درجات الدولة أصبح لا يحلم اليوم برتبة رئيس (يوزباشي) أو قائد (بيك باشي) في تلك الكتائب التي دعوها الجيش السوري، وجعلوا قيادتها بيد الافرنسيين وحدهم، ولا يصل الى غيرها من الوظائف المدنية التي أصبحت على عدد الأنامل، ما لم يبع ضميره بيع السلع. على ان وظائف الحكومة غدت عبارة عن امتطاء السيارة وقبض الراتب فقط، دون التعرّض لأي أمر من أمور الوظيفة، وهذه نتيجة الاغراءات، جزى الله فاعليها بما يستحقّونه.



هوامش الفصل السابع

(١) كان السلطان عبد الحميد يحسب حساب الأباعد ويسعى جهده لمنعهم عن التخطي الى بلادنا ولم ينتظر من الأقارب ان يبلغ بهم الطيش درجة يكونون معها واسطة لذلك التخطي الذي ما لبث ان اصبح استعماراً واستعباداً فسبحان الله.
(٢) راغب بك القبرصي، علي علوي بك الأرضرومي، زهدي بك، أحمد ثريا بك وغيرهم.
(٣) .قمر الدين، إسم عرف به مجفف عصير المشمش منذ العصور الخالية ولعله ينسب الى السلطان قمر الدين ملك المغول وعم التيمور المشهور.
(٤) محصول الجوز السنوي في دمشق بلغ اربعمائة الى خمسمائة الف كيلو، اي من ثمانمائة الى الف قنطار قديم في السنين الماضية.
(٥) في سنة ١٩٣٤ زرع ١٣٠٧ هكتارا من الأرض بالخروع فانتج ٢٠٥٠ كنتالاً، وفي سنة ١٩٣٥ زرع ١٢١٠ هكتاراً فأنتج ٢١٠٠ كنتالا من الخروع.
(٦) كان يحصل في الشام سنويا ١٥٠٠٠٠ كيلو من الزيتون الأخضر و٢١٢٠٠٠ كيلو من الزيتون الأسود ويعصر ٧١٣٠٠٠ كيلو من الزيت.
(٧) العنب الذي يحصل من كروم دمشق وقراها يقدر بمليوني كيلو، اي أربعة آلاف قنطار في العام.
(٨) محصول المشمش السنوي في دمشق يقدر بثلاثة الى أربعة ملايين كيلو اي من ستة الى ثمانية آلاف قنطار قديم.
(٩) في عام ١٩٣٤ زرع في البلاد السورية ٥٤٧٣ هكتاراً من الأرض فانتج ٢٣٥٦٣ كنتالا من التبغ وفي العام الثاني زرع ٥٢٤٠ هكتاراً فانتج ٢٠٠٤١ كنتالاً تبغاً.
(١٠) كانت سورية تصدر في العام الواحد ١٢٣٨ طوناً من النيلة.
(١١) احصائية القطن الصادر من سورية في ست سنوات.

الوزن طن	القيمة ليرات سورية	السنة
١١٥٥	٥٢٥٣٨٢	١٩٢٩
٢٢١٢	٧٠٤٨٧٥	١٩٣٠
١٦٣٣	١٦٦٣٧٤	١٩٣١
١٠٢٥	١٢٣٢٧٧	١٩٣٢
٣٨٠	٧١٧٨٠	١٩٣٣
١١٥٠	٢٢٠٥٨٠	١٩٣٤
٧٥٥٥	١٨١٢٢٦٨	

وهذه مساحة الأرض المزروعة قطناً ومنتوجاتها.

مساحة الارض هكتار	المنتوجات كنتال	السنة
١٣٢٤٣	١٢٧٦٦	١٩٣٤
١٢٨٤٠	١٥٠٢٢	١٩٣٥
٢٦٠٨٣	٢٨٧٨٨	.

(١٢) جاء في احصائية دائرة الزراعة انه يستخرج ١٥٠٠٠٠ كيلو من الخمور سنوياً.

(١٣) كانت سورية تصدر في العام الواحد ٢٥٠٠٠ طناً من الصابون البلدي الذي يصنع من زيت الزيتون الصافي دون سواه، ثم ساق الطبع بعضهم الى صنعه من عكر (اوساخ الزيت) ومزجه بالزيوت المعدنية والاصطناعية فتحولت الرغبة عنه وتدنت اخراجاته من عام الى عام حتى هبطت في السنين الأخيرة الى ٥٦ طناً فقط. اما ما يصرف منه داخل البلاد السورية فيقدر بمائتين وخمسين طناً سنوياً لا اكثر. ولا ينكر ان لقطع الأشجار المتواصل وعدم غرس الأفلاذ مكانها التأثير العظيم في قلة الزيت وصنع الصابون.

(١٤) **الموزاييك** في الأصل هي الفسيفساء التي ذكرناها خلال البحث عن الجامع الأموي، وهناك مؤلف من فصوص زجاجية مربعة ومذهبة ذات الوان متعددة ثم ترص ببعضها وتجعل منها النقوش البديعة.

(١٥) وهذا إحصاء بعض الكماليات التي إستوردتها سورية عام ١٩٣٤ ميلادية.

القيمة ليرات سورية	الوزن كيلوغرام	النوع	ليرات سورية	مشروبات
٣٢٤٣٣	٦١٢٠	فيلم سينمائي	٣٢٤٥٢	شامبانيا
٤٥٨٨٦	٣٢٥١٦	الواح فوتوغرافية	١٦٣٣٧٧	جعة (بيرا)
٨٤٦٢٦	١٩٣٠٤٤	العاب متنوعة	٣٠٥٦٨	ويسكي
٦٤٨٠		زهور اصطناعية	٥٤٨٧٣	خمور متنوعة
٢٨٩٨		مواد مفرقعة للاولاد	١٢٨٩٤	كونياك
٢٠٨٦٣		كبريت	٤٧٠٩٧	مقبلات
			٦٢٨٩٤	مياه معدنية
١٩٣١٨٦			٣٥٦١٥٤	

المجموع العام بالليرات السورية ٥٤٩٣٤٠

وقد اتينا في ذيله على مجموع قيمة البضائع الأجنبية الواردة على سورية ولبنان في سبع سنوات اولها سنة ١٩٢٧ وآخرها سنة ١٩٣٣ بما فيها ٤٤٦٨٥٠ ليرة قيمة ٨٩٣٧ آلة من آلات الراديو الآخذة، و٤٤ مليون ليرة سورية او ٨٠٢٨٧٥٠ ليرة ذهبية قيمة السيارات وزيوتها وأوائلها.

وهذه قيمة الصادرات من بلادنا في خلال هذه السنين السبع.

القيمة فرنك	الوزن طن	السنة
٥٤٧٧٣٨٥٤٦	١٠٤٠٩٨	١٩٢٧
٥٣٤٨٣٧٤١١	٧٧٩٤١	١٩٢٨
٦٨٤٧٣٠٤٦٠	١٣٢٢١٩	١٩٢٩
٦١٢٣٢١٦٧١	١٨٨٠٥٩	١٩٣٠
٤١٧٨٣٣٣٣٣	١٨٠٧٣٩	١٩٣١
٣٤٢٤٩٣٠٠٠	١٢٩٣٣١	١٩٣٢
٣٢٧٩٥٣٨٥	١٢٠٤٥٠	١٩٣٣
٣١٧٢٧٤٨٧٩٥	٩٢٢٨٣٧	

مجموع الواردات ٨٧٢٩٥١٨٨٤٥
مجموع الصادرات ٣١٧٢٧٤٨٧٩٥
العجز فرنكاً ورقاً ٥٥٥٦٧٧٠٤٥٠

وكان سعر الليرة العثمانية الذهب خمس ليرات سورية ونصف، فتكون قيمة هذه الفرنكات ٢٦٣٢٨٨٣١٧ ليرة سورية تعادل زهاء خمسين مليوناً من الدنانير الذهبية خرجت من هذه البلاد في غضون تلك المدة. واذا حسبنا ان نصف هذه المبالغ عائدة الى لبنان فيكون المدفوع من مال السوريين ٢٥ مليون ديناراً ذهبياً لقاء بضائع ليست من الحاجة في شيء وهي تفنى وتستهلك في قليل من الزمن ولا يبقى لها من اثر مما ادى الى شان النقود الذهبية من البلاد وهبوط قيم الاراضي والأملاك وتوتر الأزمة التي اخذت بخناق الناس جميعاً. ولقاء ذلك نرى حكومتنا جامدة لا تبدي حراكاً ولا تاتي بأي أثر من آثار انقاذ البلاد وأهلها من هذه الورطة المهلكة، والأصح أنه ليس للحكومة من الأمر شيء. اما الحكومة المنتدبة علينا فهي تنظر الى نزوح الأهلين وجلائهم عن البلاد بارتياح وتعمل على املاء الفراغ بالأرمن واليهود والنساطرة (الآشوريين) وامثالهم من الاقوام التي نبذتها أوطانها فوسعت لها صدر بلادنا مؤملة ان تعيش معها بسلام.

(١٦) البادية صحراء قفراء ليس فيها بنايات ولا مخازن توضع وتختزن فيها الأوراق النقدية كما هي العادة في البلاد المتحضرة، ولا يوجد بين البدو صيرفي ولا يعلمون معنى المصارف، فاذا قبضوا الورق اضطروا الى طمره بين الرمال أو تخبئته في الأخبية تحت الرحال كما يفعلون بالقطع المعدنية وانما الورق لا يقاوم ما قد يعترضه من النار والماء والهواء وتسلّط الجرذ والوحش فتحرقه المواقد وتذروه الرياح وتجرفه الأنهار والسيول وتلوكه الدواب والحشرات فتبيده وتمحو أثره وقيمته (التي سحب البنك لقاءها ذهب البلاد) تغدو غنيمة باردة لذلك البنك كما هو مشاهد وثابت فعلا بمتعدد الاحوال. ومثاله انصاف الورقة السورية وارباعها عندما أستبدلتها الحكومة بأمثالها من الفضة وأعلنت منعها من التداول تبعثرت على هذا النمط وعبثا اعلن البنك لمن هي في حورته ان يأتي بها ويأخذ قيمتها فضة، فلم يات منها الا القليل بدلالة تكرار هذا الاعلان مما يثبت ان هذه الأوراق كلها أو معظمها لم تعد الى البنك بل فقدت أو أهملت لمختلف الأسباب.

(١٧) واخيراً تضاعفت هذه الأوراق وتجاوزت الثلاثين مليون من الليرات، والحبل على الجرار.

(١٨) معنى ذلك انه اذا حصل في السياسة ارتجاج ما، لا يوجد من يؤدي لنا قيمة تلك الأوراق في بلادنا، ولو ورقاً، فنضطر الى حملها وارسالها الى فرنسا لقبض قيمتها وربما لا توازي اذ ذاك نفقات ارسالها وعمولتها مقدار ما يدخل في اليد من صافي قيمتها، والله أعلم.

(١٩) بلغت الأوراق النقدية السورية ـ اللبنانية المتداولة واحداً وثلاثين مليوناً من الليرات.

(٢٠) كما جرى في سورية أيضاً عندما اعلنت الدولة الافرنسية خفض قيمة الضمان القانوني عن الفرنك، وهو عملتها الوحيدة، وتركته يفقد ثلث قيمته، فسرى ذلك الى الأوراق السورية المرتبطة بالفرنك والبالغة (حتى تلك السنة) ستة عشر مليونا من الليرات، ففقدت ثلث قيمتها دفعة واحدة. وضاع بذلك على السوريين عامة ثلث ثروتهم وهي تربو على الخمسة ملايين من الليرات.

(٢١) سطر يبدو انه سقط عند طبع المسودة المتوافرة لدينا، كما يبدو من انقطاع سياق الحديث. (ن.ص)

(٢٢) خليل افندي أيوب، خليل أفندي الخوري، متري افندي شهلوب، الشيخ شديد حبيش، أنطوان أفندي غضبان، أنطوان افندي الوكيل، وغيرهم من المسيحيين السوريين نالوا مراكز عليا في الحكومة العثمانية في ذلك الوقت.

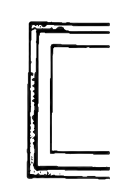
(٢٣) **العـراضـات**: احتفالات شعبية يقوم بها نفر من مختلف الطبقات، ينشدون الأناشيد ويرتلون الأهازيج ويلعبون الألعاب المختلفة على أصوات الطبل والزمور.

(٢٤) كانت الدولة العثمانية لا تمنح الرواتب والمناصب لموظفيها الا بالتدريج فيبتدىء الموظف من أصغر وظيفة ورتبة وبعد ما يتمرن عليها ويحيط بواجباتها ينال الرقي درجة درجة بدون طفرة ولا مفاجاة بخلاف هذه الأيام التي اصبحت وظائفها عامة ووزاراتها خاصة تمنح عفوا لمن لم يكن سبق له ان تولى وظيفة بسيطة في الحكومة والمّ بها وتدرب عليها. ولا ينظر الآن في التولية الا الى الصداقة المطلوبة من الموظف نحو الدولة المنتدبة وحدها سواء استطاع الرجل القيام بواجبات وظيفته أو لم يستطع والاغلب انهم ينتقونه عمداً من الجهلة والدخلاء كي لا تحدثه نفسه القيام بأي عمل يقضي به الواجب مما لا يروق أصحابنا المنتدبين ويخـالف خطتهم المـرسـومة. وهم بإجلاسهم هؤلاء الطفيليين على مقاعد الحكم، وادخالهم إياهم في المجتمعات والمنتديات السياسية، يرمون أولا الى تأمين مقاصدهم من ورائهم بواسطة مستشاريهم الذين خولوهم السلطة الواسعة والقول الفصل في امور البلاد كلها، وجعلوا وزراء الحكومة ورؤساءها لا يأتون بعمل ما الاّ برأيهم وامرهم، وثانياً يعلنون للملأ وخصوصاً لأبناء جلدتهم وزملائهم اعضاء جمعية الأمم ان السوريين جهلة وليسوا أهلاً لأدارة انفسهم بأنفسهم، وأنهم ما زالوا بحاجة الى السيطرة الأجنبية التي تدوم ما دامت الحال على هذا المنوال الى ما شاء الله.

(٢٥) اقتضت حكمة الله البالغة المبنية على الحث على السعي والعمل ان لا يكتمل السؤدد لامرىء في مسقط رأسه وموطنه ولا يستتب أمره الا بالاغتراب وامتطاء متون الأسفار والأخطار وتذليل عقبات الظفر والانتصار. وجميع الأنبياء والرسل الكرام ومؤسسو الخلافات والحكومات في مشارق الارض ومغاربها من آدم الى يومنا هذا من اعظم الشواهد على ذلك.

القسم الثاني

التاريخ الحديث



٨
الشام في عهد التدخل الأجنبي والتنظيمات العثمانية

نابوليون في مصر والشام

القائد نابوليون بونابارت ـ الذي صعد الى سرير الامبراطورية الافرنسية ثم قضى نحبه في أيدي الانكليز بجزيرة القديسة هيلانة في المحيط الأطلسي عام ١٨٢١ ـ هو من نوابغ الدهر الذين يظهرون في كل عصر ومصر، وأصله من جزيرة كورسيكا التي كانت ايطاليّة فتفرنست.

دخل نابوليون مدارس فرنسة العسكرية، ونشأ فيها ضابطاً، وتدرج في مراتب الجيش بسرعة، حتى نال بذكائه ودهائه رتبة «جنرال» وهو دون الثلاثين من العمر. وكان يطمح الى امتلاك المعمورة بأسرها، فقام في اوروبا بجلائل الأعمال وعظيم الفتوحات التي أوجبت اعجاب مواطنيه الافرنسيين، واستلفتت أنظار خصومهم.

وهنا نأتي على ذكر ما فعله في مصر والشام فنقول:

كان نابوليون يقود الجيش الافرنسي الذي اعد للاستيلاء على بريطانيا، ولما فشلت هذه السياسة اقترح نابوليون على الحكومة الادارية القائمة وقتئذ في باريز ان يذهب بذلك الجيش الى مصر ويجعلها قاعدة للاستيلاء على الشرق كله. وكانت هذه الحكومة ترغب اذ ذاك في ابتعاده عن وجهها مهما كلفها الأمر، فاجابته الى طلبه.

انتقى نابوليون من ذلك الجيش خمسة وثلاثين ألفاً من الجنود، وأعدهم في مرفأ طولون، واركبهم منه على خمسمائة سفينة، واقلع بهم نحو الشرق، ولم يبح لأحد بقصده لكي يخفي امره عن أعين خصومه الانكليز. وجاء أولا الى جزيرة مالطة التي كانت في أيدي بقايا (فرسان القديس يوحنا) الصليبيين، فطردهم منها واستولى على الجزيرة، وأقام فيها حامية من رجاله، ثم حوّل وجهه نحو مصر، وجاء أولا الى ثغر الاسكندرية، فمنعته قلعتها من الدنوّ من البرّ، فسار الى خور المرابط في غربها وأخرج اليه قسماً من جنوده وزحف بهم على الاسكندرية فاحتلها غبّ مناوشة طفيفة في ٢٧ محرّم ١٢١٣ هـ (١ تموز سنة ١٧٩٨م)، ثم اخرج بقية جيشه الى ميناء الاسكندرية بعد ان أسكت مدافعها وأخفى سفنه التي جاء عليها في مرفأ أبي قير في شرقيّ الاسكندرية، وأذاع على أهل مصر نشرة ذكر فيها أنه جاء لينقذهم من جور المماليك ويؤيد حقوق الدولة العثمانية عليها. وكان يقول كلما سنحت له الفرصة انه صديق للعثمانيين، وان المماليك سبق لهم الاعتداء على الافرنسيين فجاء لينتقم منهم، وانه سيحافظ على الشعائر الاسلامية ويحترم المساجد ويخرج للأهلين كنوز بلادهم[1].

ثم تقدّم من الاسكندرية قاصداً مدينة القاهرة، ولما اقترب من مدينة الرحمانية التقى بالجيش المصري الذي كان يقوده مراد بك الكبير، أحد المتحكمين على مصر في ذلك الزمن، وكان الجيش المصري فاقد النظام، يجهل اساليب الحرب المستحدثة، وليست لديه مدافع، بخلاف جيش نابوليون المدرب والمجهز بالمدافع العديدة، وغبّ مناوشة طفيفة اندحر الجيش المصري وتشرد في الأرض، وانطلق الافرنسيون حتى بلغوا ضواحي القاهرة، فقام واليها بكر باشا، وشيخ البلد ابراهيم بك، وانضم اليهم مراد بك، وحاولوا صدّ الجيش الافرنسي بما جمعوه من قوة، فلم يطق المماليك الثبات تجاه نيران المدافع ودخل الافرنسيون مدينة القاهرة يوم ١٠ صفر ١٢١٣ (٢٤ تموز ١٧٩٨م) وانسحب منها الوالي والأمير ابراهيم بك الى مدينة بلبيس على طريق الشام، وفرّ مراد بك الى جهة الصعيد، وأقام نابوليون في قصر محمد بك الألفي بالأزبكية.

قام الاسطول الانكليزي الذي يقوده الأميرال نيلسون، وراح يبحث عن الأسطول الافرنسي في عرض البحر،

فعلم انه في مرفأ أبي قير، وكانت سفن الافرنسيين ثلاث عشرة، وجنودهم احد عشر ألفا ولديهم ١١٩٦ مدفعاً بقيادة الأميرال (برودير)، وسفن الانكليز ثلاث عشرة ايضاً، وجنودهم ثمانية آلاف معهم ١٠١٢ مدفعاً. فباغت الانكليز الافرنسيين على حين غرة، وضربوهم الضربة القاضية وأهلكوهم في خلال ساعتين فقط، واغرقوا القسم الأعظم من سفنهم الحربية برجالها، ولم ينج منها سوى أربع سفن تمكنت من الفرار بشق الأنفس، وقتل من الانكليز زهاء ألف جندي، وسقط من الافرنسيين نحو خمسة آلاف، وأسر منهم ثلاثة آلاف، واصبح الافرنسيون بعد هذه الكارثة كالمحصورين في مصر.

لم يبال نابوليون بهذه الخسارة الفادحة. ولبث مثابراً على عمله، فرتب الدواوين المصرية ممن استمالهم الى حظيرته من أهل البلاد، واخذ يدير حكومتها بواسطتهم وفرض على مدينة القاهرة خمسمائة الف ريال غرامة حربية، وجباها بسهولة، وصادر أموال الأمراء الغائبين، وأخذها من دورهم، وضرب السكة باسم السلطان سليم الثالث العثماني، وأرسل فرقة من جنوده لفتح الدلتا في شمال القاهرة وتعقيب مراد بك. وتظاهر هو بالاسلام وحضر الصلاة في الجامع الأزهر، وارسل المحمل كعادته الى الحرمين الشريفين آملا ان ينال ثقة المسلمين ومعاضدتهم، بيد ان اختلاف عادات الافرنسيين واخلاقهم وطرحهم الضرائب الفادحة على الأهلين، جعل القلوب تنفر من نابوليون، ولم تفده تلك المظاهرات الفائدة التي توخاها. ثم اتفق الأمير ابراهيم بك مع أحمد باشا الجزار والي عكّا، وأخذا يحثان الناس على قتال الافرنسيين والذبّ عن اوطانهم، فأعلن نابوليون العفو العام عن كل من قام في وجهه من الأهلين آملا استجلابهم الى حظيرة الطاعة وتخفيف غلواء الرأي العام ضده، فلم يجده ذلك نفعاً لأنه بعد العفو استحضر بعض الأشخاص واقتصّ منهم بدعوى أنهم المحرضون على تلك الثورات، فنقض بذلك عهده ووعوده، وازدادت نفرة جميع الطبقات منه.

اضافت الدولة العثمانية صاحبة البلاد قيادة السواحل المصرية ايضاً الى احمد باشا الجزّار، والي عكا وقائد السواحل الشامية، ليذبّ عنها ويحفظها من تخطي الأعداء، وارسلت عبد الله باشا العظم والي الشام بحملة الى مصر، واخذت تعد الجنود في كل مكان وترسلها الى الشام ومصر، فخشي نابوليون من تفاقم الخطب وترك بعض جنوده في القاهرة وهبّ بباقي جيشه الى الاسكندرية، وداهم الفرقة العسكرية التي قدمت من القسطنطينية ورابطت بين الاسكندرية وابي قير، وتغلب عليها، ثم زحف نحو الشام مؤملا ان تدين له كما دانت مصر، فاعتدّ الجزار عدّته في عكا، وتهيأ للدفاع والكفاح.

هبط الافرنسيون أرض الشام، واستولوا أولا على قلعة العريش، ثم تصادموا في غزّة مع عبد الله باشا العظم والي الشام الذي وافاها مع الحملة العثمانية، ودحروه واحتلوا غزة. ثم جاءوا الى يافا، واكتسحوا البلدة، وامتنعت عليهم قلعتها التي اعتصم بها نحو أربعة آلاف جندي من الجنود العثمانية، وأبوا التسليم ما لم يؤمنوا على أرواحهم، فأمنهم الجنرال (كليبر) قائد الحملة الافرنسية التي احتلت يافا، وجرّدهم من سلاحهم وأقامهم في ضاحية البلدة على حدة. ثم جاء نابوليون واعترض على قائد الحملة لأنه أبقى على حياة أولئك المساكين الذين أصبحوا بعد استسلامهم عزلا من السلاح، وامر بقتلهم جميعا. وعبثاً حاول قوّاده ثنيه عن عزمه، فلم يرعوِ، ولبث مصراً على أمره، وقتل أولئك الأسرى بأجمعهم رمياً بالرصاص يوم ٢٠ آذار سنة ١٧٩٩.

وتقول: ان هذا العمل «العظيم» يخالف القواعد الحربية المعمول بها في جميع أنحاء العالم. وقد فعل نابوليون أفظع من ذلك اذ قتل الجرحى والمرضى من جنوده الافرنسيين أنفسهم (كما سنشرحه فيما يأتي) بحجة أنهم يعيقونه عن السفر، وهذا أيضاً عمل سيء لم يسبقه اليه قائد.

نعم ان القوّاد لا يفكرون الاّ بجيوشهم وتأمين سلامتها وإيصالها الى الهدف المرسوم لها. فهل في الابقاء على حياة أولئك الأسرى والمرضى والجرحى ما يعيق نابوليون عن غايته؟ لنفرض جدلاً انه حاذر من رجوع الأسرى الى قتاله فأبادهم، أفليس ترك المرضى والجرحى وشأنهم، وهم من لحمه ودمه، خيراً من قتلهم بيده، حتى ولو تصوّر ان العدوّ سوف يقتلهم من بعده. ان في ذلك عبرة، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

بعد واقعة يافا تقدم نابوليون بجيشه نحو الشرق، واحتل في طريقه مدينة حيفا التي كانت خالية من الجند والعتاد، وأخذ يحاصر قلعة عكا، وجاءه وهو على حصارها الشيخ عباس من أحفاد ظاهر العمر الذي كان متوارياً

عن الانظار، وشكا الى نابوليون أمره، وقدّم له بلاد صفد التي يدّعي التصرف بها، فرحب به نابوليون، وأعطاه أمراً بالولاية على بلاد أبيه وأمدّه بالسلاح والكسوة، فذهب الى حيث أتى، ولم يعرف بعد ذلك مصيره. ثم قدم على نابوليون أيضاً بعض رجال المتاولة العامليين الذين سبق لهم ان خدموا الصليبيين فيما سلف، وقدّموا لجيشه الذخائر والمؤن، وكذلك فعل الموارنة اللبنانيون، وخدموا الافرنسيين بكل ما تصل اليه أيديهم. أما الدروز فانهم ابوا الاشتراك في مثل هذا العمل المشين، وهجر الكثيرون منهم جبل لبنان، ورحلوا الى حلب وحوران.

ثم اجتمع في مرج ابن عامر زهاء ثلاثين ألفاً من جنود الشام والاستانة، وأحاطوا بفرقة الجنرال كليبر الافرنسية، فخف لنجدته وأنقذه جنوده من خطر الهلاك.

لبث الحصار مستمراً على عكا، وواليها أحمد باشا الجزار رابض فيها ربضة الأسد، والأسطول الانكليزي الذي يقوده الاميرال «سيدني سميث» مع الأسطول العثماني يمدّانه ويساعدانه من البحر، فلم تفد نابوليون كثرة مدافعه وهول قذائفه التي كان يوالي اطلاقها كالأمطار خلال الحصار الذي دام أربعة وستين يوماً، ولبثت عكا مصونة من كيده واستيلائه.

تناقص عدد الافرنسيين، وخصوصاً عدد قوادهم وضباطهم بسبب الحروب والأوبئة التي سادتهم، ولم يبق لدى نابوليون ما يمكنه من الثبات تجاه أعدائه الذين تكاثروا وتعاقب ورودهم عليه، فعمد الى تجربة حظه لآخر مرة، ورتب هجوماً عاما بكل قواه، واقتحم قلعة عكا، واستبسلت جنوده وتوصل بعضهم ولكنهم التجأوا الى المسجد الجامع[٢] فحاصروهم فيه الى اليوم التالي، وعند الصباح استسلموا لهم، فسلموهم الى قائد البحر الانكليزي دون ان يمسّوهم بسوء.

ثم رام نابوليون ان يعيد الكرة بالهجوم، ولكن وصل في ذلك اليوم محسن باشا، متصرف رودس، الذي أوفدته الدولة بحملة من الجند النظامي الجديد وأغار على جيش نابوليون الذي كان قد فقد أكثر من نصفه، وظهرت فيه بوادر العصيان والامتناع عن القتال، فحاذر نابوليون العاقبة، وقرر ترك سورية نهائياً ودفن ذخائره بين الرمال، وحول وجهه عن عكا، وغادرها عائداً نحو الغرب، ولما بلغ يافا لم يستطع الثبات فيها لتوالي ورود القوات العثمانية عليه، فأحرق معسكره، وسمّم ستين جندياً من جنوده الافرنسيين الذين كانوا في المستشفى يعالجون مما أصابهم من الجروح والأمراض ولم يستطيعوا الرحيل معه، فقضى على حياتهم اذ سقاهم جرعاً من روح الأفيون القتال، ثم قام من يافا قاصداً مصر بطريق العريش سنة ١٢١٤هـ ـ ١٨٠١م، ولم يظفر بشيء من سورية سوى العار الذي ارتكبه في يافا.

ولما بلغ مصر راى انه لا يستطيع الثبات فيها أيضاً لتكاثر خصومه عليه، وجاءه اذ ذاك كتاب من أخيه في باريز يخبره بانشقاق الافرنسيين على بعضهم عقيب فشلهم تجاه الدول المتحالفة، ويستحثه على العودة الى فرنسا لاغتنام الفرصة السانحة، وكان من دأب نابوليون ان لا يحاذر الا على نفسه ولا يؤثر عليها شيئاً، فجمع بعض قواده الباقين على قيد الحياة، وركب معهم خلسة احدى السفن الثلاث التي سمحت انكلترة بعودتها الى فرنسا، وكتب الى الجنرال كليبر في مصر ينيبه عنه في قيادة الجيش، ويأذن له بالعودة الى فرنسا فيما اذا لم يأته المدد خلال أربعة أشهر.

ثم وفد على مصر واليها الجديد نصوح باشا العظم واتفق مع الأمير ابراهيم بك وقاتل الافرنسيين حتى في أزقة القاهرة، ودام نضاله معهم عشرة أيام انسحب في خلالها مراد بك الى جهة الافرنسيين واعانهم على أسياده العثمانيين، فعهد اليه كليبر بادارة مصر العليا وأخذ كليبر وخلفه الجنرال منو (الذي تظاهر بالاسلام وسمّى نفسه عبد الله) يطرحان الضرائب الفادحة على الناس ويستصفون أموالهم، ولجأوا في سبيل الحصول عليها الى ضروب التعذيب والارهاق مما لا يحله شرع ولا يقبل به ضمير[٣]. وظل كليبر دائباً على ظلمه وعسفه الى ان اغتاله شاب سوري من أهل حلب الشهباء يدعى سليمان[٤] عام ١٢١٥.

وبعد مصرع كليبر لم يستطع خلفه الجنرال منو مقاومة القوى العثمانية والانكليزية التي أخذت ترد تباعاً الى مصر فاضطر الى إخلاء القاهرة والاسكندرية وسائر البلاد المصرية، واعادتها الى أصحابها العثمانيين،

فتسلمها منه يوسف باشا الصدر الأعظم الذي جاء مع الجيش العثماني الى القاهرة، وبارح الجنرال منو مع البقية الباقية من الجيش الافرنسي مرفأي ابي قير والاسكندرية على السفن الانكليزية عائدين الى بلادهم عام (١٢١٦هـ - ١٨٠٦م) بعد ان أقاموا في مصر ثلاث سنوات بدون جدوى.

شطحات

إن القارىء الكريم ليعجب إذا علم ان نابوليون نفسه اعترف - في مذكراته التي كتبها في المنفى - بالخطأ الذي اقترفه في يافا، وصاحب الخطط[٥] يقول ان قتل الأسرى لم يكن الا لعودتهم الى قتاله مرة ثانية بعدما اطلقهم من العريش وغزة، وان هذا العمل له من القوانين الحربية ما يجيزه ويشفع به.

وكذلك يقول صاحب الخطط ان جنود العثمانيين كانوا في ذلك الوقت يتألفون من عرب وأتراك ومغاربة وارناؤوط وشراكسة وان «بيت الاسكاف فيه من كل جلد رقعة» (كذا). ان هذا التشبيه لا ينم على الفضل والادب الواجب على الاستاذ ان يتحلى بهما. فهل جهل ان اولئك الأقوام هم الذين كانت تتألف منهم الدولة العثمانية، وهي لم تأت بهم من غير بلادها كما فعل سواها من الدول الغابرة والحاضرة.

وهلا رأى بأم عينه الجنود الانكليزية والافرنسية وهي مجموعة الأقوام وانموذج اللغات. وكيف تعامى عن هذه الفصائل التي يعيش بكنفها. وهل يرى فيها من وحدة القومية واللغة والقصد؟!

الجزار

أحمد باشا الجزار[٦] بوسنوي الأصل، تناوب الولاية في الشام وعكا بضع سنوات وهو من الولاة الصارمين الذين نبغوا في ذلك الزمن المحفوف بالمكاره والفتن، وله كما لغيره من رجال ذلك العصر بعض الشذوذ الذي جعل الألسن تتناقل أخباره وظلمه وعتوّه.

على ان إعانته لأهل الشام على قمع الفتن وتوطيد الأمن وقضائه على ظاهر العمر وانقاذه الناس من شروره، ثم دفاعه المجيد عن عكا تجاه حملات نابليون العنيفة ينبغي ان تذكر قبل غيرها، وتشفع ما أمكن الشفاعه بما ينسب اليه من المساوىء[٧].

كانت للجزّار خصومة شخصية مع عبد الله باشا والي الشام منشؤها تنازع البقاء على الولاية، وقد سعى كل منهما السعي الحثيث لدى الدولة لعزل خصمه وتوليته محله، وتوفقا لذلك أكثر من مرة، وكانت شكايات عبد الله باشا بحق الجزار تستند الى محاضر ومضابط يوقعها الناس كما هي العادة عندنا في كل أمر هام[٨] والجزار يعلم بالساعين والموقعين على تلك المضابط والمحاضر، ويرمي الى الانتقام منهم. وربما كان هذا هو السبب الباعث على تشديد الضغط على الأهلين في سبيل تحصيل الأموال وتعذيب المتمنعين عن أدائها. ومن جملة أفعال الجزار أنه في زمن ولاية عبد الله باشا العظم دمشق للمرة الثانية حرض مصطفى آغا البربر متسلم طرابلس على تأخير أموال الدولة عنده وعدم إرسالها الى عبد الله الذي ذهب بنفسه الى طرابلس للحصول على الأموال، وفي خلال ذلك ورد الأمر من العاصمة بعزل عبد الله باشا وإعادة الجزار الى ولاية الشام. وقد نمي الى عبد الله باشا أن الجزار جعل فاتحة أعماله ان أرسل الى وكيله بدمشق، محمد بن عقيل، ثلة من الجند، وأمره ان يقبض على عبد الرحمن افندي المرادي المفتي، وحسن أفندي الدفتردار، ومصطفى بك سبح عامل حمص، ويقتلهم في الحال، وان ابن عقيل صدع بأمر الجزار فاستشعر عبد الله باشا من ذلك، وخشي على نفسه، وترك طرابلس وغادرها هائماً على وجهه في الصحراء، الى ان بلغ بغداد، وتوسط له واليها علي باشا لدى الدولة وأمنه من قبلها على حياته، وقد عنفت الدولة الجزار على عمله هذا، فالقى تبعته على ابن عقيل وقطعه إرباً!

كان الجزار يغضي عن زلّات رجاله الذين تجاوزوا الحد في معاملة الناس وارهاقهم كالشيخ طه الكردي جابيه في دمشق الذي كان يعذب الناس أشد التعذيب لأجل الحصول على الأموال المفروضة.

يقول الدكتور مشاقة[٩] في تاريخه، وهو أطرف أقواله، ان الجزّار كان محباً للعدل، مساوياً بين الرعية فقد عامل علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامية اليهود وعقّال الدروز معاملة متساوية في الحبس والتعذيب والمصادرة ولم يفرق بينهم في شيء.

السلطان محمود

شرع السلطان سليم الثالث باصلاح الجند وتدريبه على الأصول المستحدثة، فلم يرق ذلك للانكشارية القابضين على زمام الدولة فخلعوه وأجلسوا ابن عمه السلطان مصطفى الرابع مكانه، وما لبث هذا ان ثار عليه الجنود أيضاً وقتلوه مع سليم الثالث، فاعتلى أريكة الملك السلطان محمود خان الثاني الذي كان ولوعاً بالاصلاح الذي بدأ به ابن عمه السلطان سليم، وهو أول من خلع الطيلسان (القاووق) ولبس الطربوش وارتدى الثياب الافرنجية.

ولما جلس السلطان محمود كانت الدولة العثمانية تعاني مهالك وأخطارا جمة، فان الجند، وهو سياج الملك كان جاهلاً متمرداً يأبى التعليم والتدريب، ومعظم الايالات في ايدي المتغلبة يديرونها بالأحكام الاقطاعية، ولا يهتمون الا بأنفسهم، والوهابيون استولوا على الحجاز وافتتحت أمامهم طرق مصر والشام والعراق، وبلاد الروم في هياج واضطراب دائمين يطلب أهلها الانفصال والاستقلال بتحريض واعانة دولة الروس وغيرها من الدول الأوروبية، وباي تونس وداي الجزائر متذبذبان لا يقرّ لهما قرار[١٠]، وعلي باشا تبه دلنلي، والي يانيا، يستند الى معاضدة الافرنسيين ويدعو لنفسه، وعدا هذه المشاكل فان حرب الروس مع الدولة دام ست سنوات بدون فاصلة والدول العظمى تتلون ازاء الباب العالي[١١] تلون الحرباء ولا تستقر على حال.

نهض السلطان محمود بعزم شديد وهمة لا تعرف الكلل، واقتحم كل هذه المعضلات، وكان سبباً لحياة السلطنة العثمانية قرناً آخر بعد ذلك الوقت الذي أشرفت فيه الدولة على الاضمحلال، فأبطل الاحكام الاقطاعية، وعاقب الكثيرين من الولاة المتمردين وأبدلهم بمن يركن اليهم، ومهد أمور بلاد الروم (روم ايلي)، وأخرج الوهابيين من الحجاز بواسطة وزيره محمد علي باشا والي مصر، ثم عيّن ابراهيم باشا، نجل محمد علي باشا، والياً على الموره التي كانت ثائرة على الحكومة العثمانية، فاتفق ابراهيم باشا مع الرشيد محمد باشا رأس العساكر العثمانية (سر عسكر) الذي كان يكتسح الموره من شمالها، وجعل الثوار بين نارين، وكادا يقضيان عليهم ويحتلون مدينة (نابولي) حاضرة ايالة الموره اذ ذاك، فقامت قيامة العالم الاوروبي وخف لمناصرة اروام المورة وارسلت دولتا انكلترة وفرنسا اسطوليهما الى مرفأ (ناوارين) الذي كان راسياً فيه الأسطول العثماني المصري المؤلف من اثنين وخمسين قطعة من السفن المختلفة، فداهمه الأسطولان بالحرب، وسدّا عليه مدخل المرفأ، واحرقاه وأغرقاه برمّته ومنعا ابراهيم باشا من التقدم الى الأمام، وأرغماه على العودة الى مصر دون ان يتم عمله.

ونادت الدولتان باستقلال الموره باسم «دولة اليونان» منذ سنة ١٢٤٤ هـ (١٨٢٨م)، وفي تلك الآونة كان أهل القطر الجزائري[١٢] في شمال افريقيا يكافحون الجيش الافرنسي الذي ساقه عليهم شارل العاشر ملك فرنسا بدعوى تعقيب لصوص البحر (قرصان) الجزائريين الذين كانوا يتعرضون على السفن الافرنسية ويسلبونها أشياءها فاحتل الافرنسيون ذلك القطر العظيم واستولوا عليه بأجمعه وأسروا الأمير عبد القادر[١٣] الحسيني الجزائري الذي كان يقود الجزائريين في نضالهم، وأرسلوه الى قلعة طولون واعتقلوه فيها، وأعلنوا امتلاكهم للقطر منذ أيلول سنة ١٨٣٠م (١٢٤٦هـ).

الانكشارية

«الانكشارية» كلمة محرّفة من لفظة (يكي جرى) ومعناها الجند الجديد، وهو صنف عسكري أسسه الغازي اورخان، ثاني الملوك العثمانيين، ونسقه ونظمه حفيده السلطان سليمان القانوني وجعل شطره يؤلف من اولاد

اهل الذمة فكان يجمع في كل عام منهم نفراً ويدخلهم الثكنات الخاصة في العاصمة حيث يبدلون أسمائهم ويأخذون أسماء جديدة ويتدربون على الأساليب الحربية وعندما يشبون يكونوا جنوداً ومنهم من يدخل المدرسة الداخلية في القصر السلطاني المدعوه (اندرون) ويتعلم القراءة والكتابة والقصة والادب وغير ذلك من العلوم ثم يخرج الى دوائر الدولة ويتقلب في وظائفها ويتدرج في مراتبها، وكانوا في هذه المدرسة يضيفون على أسم كل تلميذ نعتاً خاصاً تميزاً له عن غيره ممن يحمل مثل اسمه ويدعون هذه الاضافة مخلصاً فيقولون مثلا محمد صلحي أو مصطفى لطفي وغير ذلك من المخالص التي تقوم مقام الكنى فيعرف التلميذ بها دون غيرها وكان سائر رجال الدولة ايضاً يتبعون هذه الخطة[٤٤].

أحسن السلاطين الأول قيادة هؤلاء الجنود الذين نشأوا على طاعة الدولة والانقياد التام لأوامرها، وكانوا يعدون أفضل جنود العالم انتظاما وأشدهم بأساً واحتداماً واقداماً (بشهادة مؤرخي الافرنج انفسهم) فتوصلوا بهم الى تلك الفتوحات العظيمة، والاستيلاء على ممالك واقاليم واسعة برمتها.

على ان افراط السلاطين في إكرامهم عند السّعَة جعلهم يطالبون باستمرارها حتى في أيام الضيق أيضاً، ويطمحون الى المزيد، فأخذوا كلّما جلس سلطان جديد على العرش يتجاوزون الحدود في طلباتهم الفادحة، ويعمدون الى الشغب وأعمال القتل والنهب بغية الحصول عليها. ثم ان انتماءهم الى الطريقة البكتاشية[٤٥] التي طرأ عليها التطور الاخلاقي، أدى الى ان اندسّ بينهم أناس مختلفو المقاصد والمذاهب، وراحوا يفسدون أخلاقهم. ومع الأيام وهن نظامهم وساءت سيرتهم، واختلت طاعتهم، وأخذوا من يوم الى آخر يجراون على التمرّد والعصيان ويقلبون الدست (وهو الماعون الذي يطبخون فيه طعامهم) ويخرجون على السلطان، وكثيراً ما امتنعوا عن الحروب، ويفرّون من الصفوف، ويعتدون على الرعايا، ويجورون ويظلمون ويرفضون التعليم والتدريب، حتى سئمت منهم الدولة، وملتهم الأمة، وانقلب عليهم الراي العام بأجمعه.

ورأى السلطان محمود ان ينصحهم بادىء الأمر ويكفهم عن هذه الأعمال المخالفة للدين والواجب، وينتخب منهم جماعة يتعلمون ويتدربون على أساليب الحرب المستحدثة التي لا بد منها لكل جندي، وبحسب عادة ذلك الزمن عقد لأجل ذلك مجلساً عاماً حضره رؤساؤهم، وأفتى فيه شيخ الاسلام (طاهر أفندي قاضي زاده) بوجوب التعليم والتدريب، وكتبوا بذلك محضراً قبله الحاضرون ووقعوه، بما فيهم رؤساؤهم وقوادهم، ولما بوشر بأمر التدريب أخذ ضباطهم يتأففون ويتذمرون منه، مما دعا الى الريبة في أمرهم. فاحتاطت الحكومة للأمر وأعدت له عدته، فاستدعت سائر الصفوف العسكرية الثابتة على ولائها وطاعتها، وأضافت اليهم ثلاثة آلاف وخمسمائة طالب من طلاب العلوم في العاصمة، فسلحتهم جميعا وجعلتهم رهن اشارتها. وعند ذلك قام الانكشارية يوم الخميس ٩ ذي القعدة سنة ١٢٤١هـ (١٥ حزيران ١٨٢٦م) وأخرجوا الدسوت اعلاناً لعصيانهم حسب عاداتهم السابقة، وحاولوا اغتيال قائدهم الأكبر (آغا الانكشارية) محمد جلال الدين آغا الذي لم يمالئهم في غلوائهم ولبث موالياً للسلطان، وأغاروا على الباب العالي، وراموا قتل الوزير سليم باشا، الصدر الأعظم، فلم يعثروا عليه، لا في داره ولا في دائرته، فنهبوهما واضرموا النار فيهما، وطلبوا الذي أفتى بتدريبهم، والذي كتب العهد وكل من خالفهم في رأيهم ليقتلوهم ويأسروا أولادهم.

عندئذ جاء السلطان محمود الى قصر (طوب قبو) واجتمع عليه الصدر الأعظم وسائر رجال الدولة من علماء وأمراء، وجاءت الجنود الموالية وطلبة العلم وتاهبوا للدفاع والنضال وأخرج السلطان اللواء النبوي الشريف وسلمه الى الصدر الأعظم وشيخ الاسلام، فنصباه على منبر جامع السلطان أحمد، ونودي بالمسلمين عامة ان يلتفوا حول اللواء الشريف، فهرع الناس الى باحة الجامع بالألوف.

ثم أرسلت حملة الى ثكنة الانكشارية الكبرى (وهي التي جعلت بعدئذ دائرة للمشيخة الاسلامية) فحاول العصاة صدها فلم يفلحوا، وغبّ مناوشة خفيفة باء المتمردون بالفشل، واحترقت الثكنة بمن فيها من العصاة، ثم أتت الحملة على سائر الثكنات ودكّتها الى الأرض، وراحت تتأثر الانكشارية الذين فرّوا، وتقبض عليهم حيثما وجدوا، وترسلهم الى ساحة السلطان احمد، حيث تضرب أعناقهم. وقد بلغ عدد الهالكين من الانكشارية في ذلك اليوم ستة آلاف شخص. ولبث الصدر الأعظم ورجال الدولة في الجامع بضعة أيام تذاكروا خلالها بأمر

الجندية، وأجمعوا على الغاء صنف الانكشارية، واحداث صنف جديد يؤلف من أبناء الأمة بوجه الاقتراع ويدعى «العساكر المنصورة»، وصدر أمر السلطان بذلك في عام ١٢٤١.

الأعمال العظيمة

غبّ انتهاء فتنة الانكشارية، شرع السلطان محمود باصلاح ما اختلّ من أمور الدولة وانجز في بضع سنوات أعمالا عظيمة لم يتسن لأسلافه القيام بها في بضعة عصور، وهي هذه:

الاصلاحات العسكرية:

١ـ الغاء صنف الانكشارية وابادة طغاته.
٢ـ تحرير الجند النظامي وتدريبه.
٣ـ تأسيس المدرسة الحربية.
٤ـ إصلاح المدرسة البحرية.
٥ـ إصلاح دار المدفعية (طوبخانه).
٦ـ تأسيس المدرسة الطبية.
٧ـ إقامة الحصون والاستحكامات على التخوم والثغور.
٨ـ انشاء السفن البحرية.
٩ـ تأليف كتائب الرديف.
١٠ـ تأليف خمسة فيالق عاملة، وهي أولا: فيلق الحرس السلطاني الخاص في العاصمة. ثانيا: فيلق الاستانة، وقد اتخذ مدينة شمتي في ولاية الطونة مقراً له. ثالثا: فيلق الروم أيلي، ومركزه مناستر، رابعا: فيلق الأناضول ومقره أرضروم. خامساً: فيلق البلاد العربية (عربستان) وقاعدته دمشق الشام.

الاصلاحات المدنية

١١ـ الغاء المصادرة ومنعها بتاتاً.
١٢ـ تأسيس نظارة الأوقاف.
١٣ـ تسجيل النفوس وتحرير الاملاك.
١٤ـ تأسيس نظارة المالية.
١٥ـ إصلاح الضرائب وتنظيم أمور الجباية.
١٦ـ إصلاح السكة وتوحيد عيارها.
١٧ـ إحداث البريد وانشاء طرقه.
١٨ـ إلغاء أصول العوائد عن الموظفين وتخصيص رواتب لهم.
١٩ـ تأسيس أول صحيفة في العاصمة بإسم (تقويم وقائع).
٢٠ـ قبول أصول الحجر الصحي (الكورنتينال) وإنشاء المحاجر الصحية.
٢١ـ إحداث نظارة التجارة.
٢٢ـ إصلاح دوائر الباب العالي.
٢٣ـ تأسيس المدارس الرشدية.
٢٤ـ تأسيس ديوان الأحكام العدلية.
٢٥ـ تأسيس شورى الدولة.

من تأملّ في هذه الأعمال العظيمة، وعلم انه لم يكن للكثير منها من اثر في السلطنة فيما سبق، وتصوّر ذلك الزمن الذي كان الجهل فيه عاماً شاملاً أكثر طبقات الأمة ـ لأدرك قدر ذلك السلطان العظيم وأسف على ما نابه في آخر أيامه من تمرد بعض عماله عليه مما كان سبباً لوفاته متأثراً منها يوم ١٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ رحمه الله.

احوال

نعود الى ذكر الأحوال البسيطة التي حدثت في دمشق خلال تلك الفترة فنقول: في سنة ١٢٢٧ حدث نزاع بين الوالي سليمان باشا السلمدار وبين آغا القلعة بدمشق، فأحاطه الوالي في القلعة وأمر جنوده باطلاق النار عليها من المآذن، ثم نصبوا السلالم وتسلقوا الجدران ودخلوا القلعة عنوة، وأوقعوا بناءها فانتهت الفتنة.

كانت أموال البقاعين وحاصبيا وراشيا من جملة المرتبات الحجازية، ونائب جبل لبنان يجبيها ويدعي أداءها الى والي صيدا الذي لا يرسل الى والي الشام شيئاً منها، مما أدى الى منازعات ومجادلات جمة كما سبق ذكره في أبوابه.

دام هذا الخلاف الى سنة ١٢٣٦ حين عيّن درويش باشا المعزول من الصدارة العظمى والياً على الشام وأميراً على الحج، فطلب الأموال من عبد الله باشا الخزندار والي إيالة صيدا (عكا) وأخذ هذا يماطله كعادته فشكاه درويش باشا الى الباب العالي، واستحصل أمراً بعزله من عكا ونفيه الى ديار بكر، فما كان منه الا ان استعان بصديقه الأمير بشير الشهابي نائب جبل لبنان، وقام الاثنان بجموعهما المؤلفة من الدروز والموارنة والهوارة والاكراد والمغاربة وحملوا على دمشق فخرج اليهم درويش باشا بمن عنده من الجنود القلائل وتلاقى الجمعان في أرض اللوان بين داريا والمزة، وتبودل القتال فغلب درويش باشا على امره، واحترقت قرية المزة التي كان متحصناً فيها سنة ١٢٣٨، وعاد عبد الله باشا والأمير شهاب أدراجهما دون أن يدخلا المدينة.

ثم استشفع عبد الله باشا بمحمد علي باشا والي مصر فغضت الدولة الطرف عنه، وفي أيام ولاية مصطفى باشا البيلاني سنة ١٢٣٩ تشاجر الأمير بشير الشهابي نائب جبل لبنان مع المشائخ آل جنبلاط والعماد، وأوقع فيهم ولكنه اضطر هو أيضاً تجاه غليان الأهلين الى التغيب عن الجبل مدة أقام في خلالها بحوران، ثم عاد الى مقره في لبنان وفتك بمخالفيه وانقلب على الشيخ بشير الجنبلاطي الذي كان ينازعه الزعامة وتوصل الى قتله وصلبه في عكا، وقضى على بضعة مشايخ من آل أبي نكد، وشمل فريقاً من أهله الذين أبوا التنصّر مثله.

في خلال ثورة الموره كان أروام البلاد العثمانية يمدّون الثوار بالمال والرجال، ولما انتهت أمرت الدولة بالاقتصاص من نصارى البلاد الذين اعانوا الثوار في قيامهم، وجاء الأمر بذلك على وجه التعميم الى الشام أيضاً فشهد رؤساء الاسلام ان أروام الشام عرب لا علاقة لهم بأروام الموره، وهم يجهلون لغتهم ولا سبق لهم إمدادهم بشيء وما زالوا مطيعين للدولة يؤدون جزيتها في أوقاتها ولا يأتمرون الا بأمرها، وكتبوا بذلك محضراً رفعوه الى الدولة فغضت الطرف عنهم.

يقول الكرد علي في خططه ان المسلمين أنفسهم لو استطاعوا في ذلك الزمن ان ينفصلوا عن الدولة لما تأخروا، وهذا وهم محض لتعصب المسلمين وتصلبهم في دينهم وشدة تعلقهم وتمسكهم بدولتهم التي يعلمون حق العلم انها الملجأ الوحيد والحامي الأعظم للاسلام والمسلمين وان شذوذهم عنها يقودهم الى الانفراد ويلقيهم تحت نير الاستعباد، ولم يكن إذ ذاك من يستمع مثل هذه الدعايات الى ان كثر الدخلاء ومات الزعماء وساد الادعياء وتنوعت طرق الأضاليل وعمت البلوى وغلبت الأطماع على الضمائر، وغش المتهوسون بمثل هذه الأقاويل يخبطون خبط شعواء حتى قضوا على البلاد وأهلها وهم يظنون انهم قد أحسنوا عملاً.

سليم باشا

تولى الشام سنة ١٢٤٦ سليم باشا[١٦] الذي كان صدرا اعظم أيام حادثة الانكشارية وإبادتهم، وكانت الدولة اخذت بترتيب الجيش المنظم وتأليفه من أبناء البلاد بوجه الاقتراع فزودت سليم باشا بأوامر تقضي

بتحرير الأملاك وتسجيل النفوس وجعلهما مقدمة لتجنيد الشبان وأخذهم الى الخدمة العسكرية أسوة بسائر البلاد العثمانية.

كان زعماء الشام محافظين على لا مركزية واسعة في ادارة بلادهم، ولا يؤدون الى الدولة سوى المال المفروض عليها من قديم الزمان، ويعارضون الحكومة في كل أمر مستحدث من شانه تبديل الحالة الراهنة ولو كان للاصلاح.

راى الوالي ان يبدأ أولا بتحرير الأملاك لقاء ضريبة طفيفة فرضها على العقار، وتحادث بذلك مع محمد آغا الشوربجي الداراني متسلم دمشق الذي آنس منه المعاضدة في مشروعاته العتيدة، وقال له نبدأ الآن بهذا ثم نشفعه بباقي الاصلاحات.

وكان الشوربجي رغم ارتباطه بالوالي من جهة الوظيفة تجمعه بمواطنيه عهود ومواثيق لا يسعه الشذوذ عنها فجمع زعماء المدينة وحادثهم في الأمر، فامتنعوا جميعاً عن اجابة طلب الوالي، ورام الشوربجي أن يلتزم جانب الحياد فصاح به رشيد آغا الشملي زعيم الميدان قائلا: أما معنا! واما معه! فلم يستطع المخالفة لاجماعهم واتفق معهم على القيام ضد الوالي الذي اعتصم بالقلعة، وأخذ يطلق منها نار المدافع إرهاباً للناس فحصروه فيها ثم توصلوا الى القبض عليه ونقلوه الى دار في العصرونية، وأضرموا فيها النار فاحترقت الدار واحترق الوالي معها.

وعلى أثر ذلك رام السلطان محمود ان ينتقم لوزيره من أهل الشام، ولكن محمد علي باشا والي مصر ـ الذي يظن انه هو الذي أسس هذه الحركة وأذكى نارها من طرف خفي ـ عاجله باحتلال البلاد، وذهبت فتنة الوالي كصرخة في واد.

ابراهيم باشا

كان الشرق، ومـا زال، مطمح أنظار الغربيين منذ زمن الاسكندر، وفي العصر الماضي أخذت دولتا انكلترا وفرنسا تتنازعان النفوذ فيه اكثر من غيرهما من الدول الغربية، وخصوصاً في القطرين المصري والشامي (السوري).

لما استقرت ولاية مصر لمحمد علي باشا (وهو من أهل مدينة قوله من مضافات ولاية سلانيك في مكدونيا) كان في جملة الجنـود الارنـاؤوط الذين أرسلتهم الدولة العثمانية الى مصر عقيب رحيل نابليون عنها) خفّ اليه الافرنسيون[١٧] وراحوا يساعدونه بالعلوم والفنون العصرية، ولا سيما بتدريب الجند على الأصول المستحدثة، فمال اليهم كلياً وفضّلهم على الانكليز الذين كانوا خصوماً للافرنسيين، فأخذوا يوالون المماليك ويلتزمون جانبهم ضد محمد علي باشا وأصدقائه الافرنسيين.

في خلال ذلك كان المماليك المتسلطون على الأحكام في مصر متفرقي الكلمة متألبين على بعضهم، فعمد محمد علي باشا الى استئصالهم واحداً بعد واحد، وقد نجح في ذلك وتمكن من تنظيم جيش مدرب ألف معظمه من زملائه الأرناؤوط. وبأمر السلطان محمود أرسل حملة على الحجاز لاخراج الوهابيين منها، وأخرى الى المورة لاخماد ثورتها. فامتازت هاتان الحملتان بدربتهما وانتظامهما وتسنى لهما الظفر على الجنود غير المنظمة، ثم أرسل حملة ثالثة الى السودان فاستولت على بلاد سنار وما جاورها. وكانت الدولة العثمانية صاحبة البلاد مشتبكة في حرب مع دولة الروس فاغتنم محمد علي باشا فرصة اشتغالها بالحرب واعتقد ان في إمكانه عمل كل شيء يؤدي لتوسيع دائرته، ورأى من الافرنسيين تحريضاً وتشجيعاً على ذلك.

وكان الأمير بشير الشهابي نائب جبل لبنان طموحاً الى التوسع أيضاً. فالتف حوله الاكليروس الافرنسي ـ اللاتيني، وقربه من الافرنسيين، فذهب بدلالتهم الى مصر، واجتمع مع محمد علي باشا وقرر معه العمل على اكتساح بر الشام كله. ثم عاد الأمير الى الجبل وأزال منافسيه، وظن انّ الجو خلا له وحده. جرت سنّة الكون من قديم الازمان ان تهيىء لكل أمر هام وسيلة تؤدي الى اخراجه من حيز القول الى ساحة العمل، وكانت الدولة العثمانية قد عهدت بولاية الموره الى ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا. ولما استقلت اليونان عاد ابراهيم باشا

بدون ولاية كما قدمنا، فاستدعى محمد علي باشا من الباب العالي ان يولي ابراهيم باشا ولاية الشام عوضاً عن المورة، فلم يوافق الباب العالي على توسيع دائرته من جهة الشام، واختار له ولاية كريت فأباها. ثم وقعت في يد الباب العالي مراسلات كانت دائرة بين محمد علي باشا ومصطفى باشا والي اشقودره يعد بها الأول بامداد الثاني بالجنود والأموال والذخائر ويقول انه سيزحف على القسطنطينية ويحتلها عن قريب. على أثر ذلك قرر الباب العالي عزل محمد علي باشا من ولاية مصر وأخذ يعد حملة ليسوقها عليه، وكان زهاء ستة آلاف شخص من فلاحي مقاطعة الشرقية بمصر هاجروا الى غزة من جور العمال المصريين ولما طلب محمد علي باشا من عبد الله باشا والي عكا اعادتهم الى مصر أجابه عبد الله باشا ان البلاد كلها للسلطان وللرعية ان تختار المسكن الذي يروق لها.

عدّ محمد علي باشا هذه الأسباب وسيلة لخروجه على الدولة، وزحفه على الشام، وراح يحشد جيشه في العـريش بقيادة ابنه ابراهيم باشا سنة ١٢٤٧، وكان هذا الجيش مؤلفاً من أربعين الفاً من الجنود ولديه أربعون مدفعاً.

قام ابراهيم باشا، وساعده أركان حربه سليمان بك الفرنساوي من مصر وجاءا بحراً الى يافا، واستوليا عليها ثم قدمها الجيش المصري بطريق البرّ بعد ان دانت له غزة والقدس ونابلس وما يليها من البلاد، فزحف ابراهيم باشا بهذا الجيش الى عكا واخذ يحاصرها، وأقام على حصارها سبعة أشهر الى ان استولى عليها سنة ١٢٤٩ بمعاونه الأمير بشير الشهابي، وأرسل عبد الله باشا واليها الى أبيه في مصر. ثم اتصل بابراهيم باشا أن الدولة عهدت بولاية مصر الى حسين باشا رأس العسكر العثمانية (سر عسكر).

وأضافة اليه ولايتي كريت وسنار (السودان)، وكان حسين باشا متهيئاً للزحف ولكنه يترقب ليرى نتيجة نزاع محمد علي باشا مع عبد الله باشا الذي سبق له التمرد ايام درويش باشا خشية اتفاقهما معاً. على اثر سقوط عكا قام الاسطول العثماني من الاستانة وحمل معه الف فارس من الجند، وأخرجهم الى ساحل قرمان لينضموا الى جيش حسين باشا، فاهتم ابراهيم باشا للأمر، وقام من عكا قاصداً دمشق، وارسل ابن أخيه عباس باشا[١٨] الى البقاع ليقطع الطريق على الجنود الذين بلغه خبر قدومهم من حلب مع واليها عثمان باشا.

كانت الدعايات السياسية تلعب دورها في البلاد، وأخذ ابراهيم باشا يتبع سياسة التفريق بين الطوائف كيلا يتفق عليه الأهلون ويعرقلون أعماله، وأصاب جبل لبنان النصيب الاكبر من هذه السياسة، حيث افترق أهله فرقتين، فكان النصارى في جانب الأمير بشير المتفق مع المصريين قائلين بالدعاية الافرنسية، والدروز موالين للحكومة العثمانية وعاملين بالدعاية للانكليز، وقد جند الامير بشير اربعة آلاف شاب من شبان جبل لبنان وأدخلهم في الجيش المصري الذي حمل به ابراهيم باشا على الشام بقصد احتلالها. ثم جاء الاسطول المصري واحتـل سواحـل الشام من صور الى اللاذقية، ولمّا اقترب ابراهيم باشا بجيشه من دمشق مع الأمير بشير الشهابي وجماعته، جمع علي باشا واليها جنده المحلي وأضاف اليه نفراً من متطوعة الاكراد وغيرهم وخرج معهم الى سهل داريا وحاول ان يقاوم بهم الجيش المصري فلم يفلح. أرسل ابراهيم باشا نشرة الى أهل دمشق دعاهم بها الى الخلود الى السكينة وتمكينه من دخول المدينة سلماً كيلا يصيبهم اذى! فأبى الاكثرون ذلك وتفرقت الكلمة وساد اللغط بين الناس، وأخيراً دخل ابراهيم باشا مدينة دمشق بدون حرب يوم ١٤ محرم سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢م. بعـد ان انسحب منهـا الوالي والقـاضي والنقيب والمتسلم وأغلب الأعيان والاتراك، وذهبوا الى الصحراء والى بلاد الشمال. ثم ترك ابراهيم باشا حامية في دمشق وزحف بباقي جيشه نحو الشمال والتقى في ضواحي حمص بالفرقة العسكرية القادمة من حلب فهزمها واحتل حمصاً وحماة وبعلبك، ثم استولى على مدينة حلب. وكان حسين باشا رئيس العساكر العثمانية قد وصل بجيشه الى ضواحي حلب فباغته ابراهيم باشا في جبـل بيلان وهزمه وأسر ألفي جندي من جنوده، وأدخلهم في الجيش المصري، ثم استولى على الاسكندرونة واشفعها بقصبتي بيلان وبياس وتبع حسين باشا الى جبل السلطان، واحتل ادنه وطرطوس وأخذ يحشد جنوده في ادنه.

كانت دولة انكلترا تحاول التدخل في الأمر منذ بدايته، ولكن السلطان كان يمانع في ذلك. وفي هذه الآونة بلغ

ابراهيم باشا مدينة قونيه التي كانت خالية من الجند واحتلها. وبعد عشرة أيام من سقوط قونية أتاها الجيش العثماني الذي يقوده الرشيد محمد باشا فداهمه ضباب كثيف وأحاط به الجيش المصري وأسره برمته.

عند ذلك عرضت دولتا انكلترا وفرنسا وساطتهما رسميا، وأعلنت روسيا أنها تمنع دنوّ المصريين من المضايق بقوتها. وكان السلطان محمود يميل الى قبول المعاونة الروسية فارتبك الباب العالي في الأمر، وخشي عاقبة مداخلة الروس التي تولد أخطاراً فادحة في المستقبل[١٩]. واذ ذاك طلب محمد علي باشا أن تضاف اليه ولايات الشام وادنه علاوة على مصر، وأن تكون كلها وراثية تنتقل الى اولاده من بعده، فلم يوافقه الباب العالي على هذا الطلب وما زال الجيش المصري في تقدم مستمر حتى بلغت طلائعه مدينة كوتاهية، وهمّ ابراهيم باشا بدخول مدينة بروسه عاصمة العثمانيين القديمة فلم يتح له ذلك.

رأى السلطان محمود نفسه مضطراً الى قبول المعاونة الفعلية التي عرضتها عليه روسيا وأمرت أسطولها في سيواستبول (القريم) ان يكون على أهبة السفر عند أول طلب يصدر من قبل السلطان، وحينذاك ابرمت معاهدة (خنكار اسكله سي) التي تقضي بتعاون الدولتين الروسية والعثمانية عند اللزوم والطلب، وبسدّ مضيق الدردنيل (ضياق القلعة او القلعة السلطانية) على سفن الدول الأجنبية جمعاء، وبذلك أصبحت روسيا قابضة على زمام تركيا وآمنة من تعرض الدول الأجنبية على بلادها.

على أثر ذلك جاء وكيل سفير فرنسا الى الباب العالي واستأنف عرض وساطة دولته في الأمر فأجاب الباب العالي انه يوافق على توجيه ولاية الشام الى محمد علي باشا بدون وراثة وقبل ذلك السفير، ولكنه لم يستطع اقناع ابراهيم باشا وأبيه بشانه، على انه منعاً لمداخلة الروس الفعلية أشار على ابراهيم باشا بالصبر والتأني.

ثم جاء الأسطول الروسي الذي كان طلبه السلطان الى مياه الآستانة ورسا فيها وتعهد اذ ذاك سفير فرنسا الجديد الى الباب العالي بأنه يضمن عقد الصلح مع المصريين على الشروط التي سبق ذكرها، وعضده بذلك سفير روسيا أيضاً، وأقنعوا محمد علي باشا بذلك فعقدت الهدنة لمدة أربعين يوماً أعقبها الصلح بمدينة كوتاهية يوم ١٤ أيار سنة ١٢٥٣ ـ ١٨٣٧، على ان يعهد بولايتي الشام وآدنه الى محمد علي باشا بدون وراثة الى خمس سنوات فقط لقاء جزية سنوية قدرها ستون كيس (أي ثلاثمائة الف ليرة) وأصدر السلطان عفواً عن الذين اشتركوا في الحرب من أهل الاناضول، وعاد ابراهيم باشا الى وراء جبل السلطان في آدنه.

في ذلك الوقت كانت بلاد الأكراد ثائرة أيضا على الدولة، وابراهيم باشا يمد الثوار بالسلاح والذخائر، ويقيم أغلب أيامه في مدينة أنطاكية ليراقب الثغور عن كثب ويتعقب مجرى الثورة بنفسه.

فوّض محمد علي باشا ولاية الشام من قبله الى شريف باشا (صهر نصوحي باشا العظم) وعهد بماليتها الى حنا بك البحري الحمصي الذي كان مقدماً لدى ابراهيم باشا وأبيه. وكانت الخزينة المصرية قد تضايقت بسبب الحروب ونفدت اموالها وهلك معظم رجال الجيش المصري فضاعف محمد علي باشا الضرائب في مصر وجباها عن سنتين سلفاً ووضع يده على الستين الف كيس التي جمعها المصريون لأجل تأسيس مصرف (بنك) في القاهرة وانفقها كلها، ثم أمر ابنه ابراهيم باشا باجراء المواد الآتية في بر الشام:

١ـ حصر الحرير لحساب الحكومة.

٢ـ اعادة الضريبة الشخصية المسماة «فردة» وجبايتها من جميع الأهلين بدون استثناء.

٣ـ تجنيد الشبان الشاميين وادخالهم في الجيش المصري.

شرع ابراهيم باشا بتنفيذ هذه الأوامر فتذمر الناس منها ونفرت قلوبهم بسببها، وندم كل من مالأ ابراهيم باشا من قبل، وراحوا يتمنون عودة حكم العثمانيين ليتخلصوا من ظلمه وجوره[٢٠].

ثم أخذ الناس ينتقضون على المصريين في كل جهة، حتى اضطرهم لاستكثار الجند لحفظ مراكزهم، وثارت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية، وساقوا عليهم الجنود الذين توغلوا في البلاد واغتروا بقوتهم واستخفوا بخصمهم، فخذلوا وتراجعوا وهلك الكثير منهم، وعاد من سلم الى اللاذقية يتعثر بأذيال الفشل. ثم امتدت ثورة اللاذقية الى صافيتا وعكار حصن الاكراد، وتقاتل الأهلون مع الجند، وأخذ ابراهيم باشا يدخل في الجندية كل شاب وقع في يده دونما فحص ولا تحقيق عن احواله، ويقتل الناس على الشبهة، ويوقع بكل من يخاله يدعو الى

الدولة العثمانية، فحاذره الناس من سوء العاقبة وتشردوا في البلاد وتعطل دولاب الأعمال مدة.

ولما بوشر بالتجنيد في نابلس ثار أهلها وشاغبوا، وكان ابراهيم باشا في القدس فحاصروه فيها زهاء شهر ولم يمكنوه من الخروج منها، وكان يقودهم متسلّم نابلس الشيخ قاسم الأحمد من بيت ابي غوش، ولمّا ضاق الحصار على ابراهيم باشا حضر محمد علي باشا بنفسه الى يافا وأرسل الى الشيخ قاسم كتاباً ودّيا واشفعه بمال وافر ووعده بأن لا يأخذ من نابلس مالاً ولا رجالاً، فاقتنع الشيخ قاسم بوعود محمد علي باشا، وفك الحصار عن القدس، وخرج منها ابراهيم باشا وجاء الى يافا ورأى ان الجنود المرسلة لنجدته قد وافوها، فعاد في الحال وأخذ يطلب قاسماً ويتعقبه من بلد الى بلد، الى ان أدركه في قلعة الكرك وحاصره فيها، ففر منها الشيخ الى الصحراء ولجأ الى قبيلة عنزة، فخشي شيخها العاقبة وقبض على الشيخ قاسم وأولاده ورفاقه وسلمهم الى ابراهيم باشا فأعدمهم جميعاً في القدس وعكا والشام، وكان الشيخ قاسم أحد الاثنين اللذين أعدما في عكا.

ثم أمر ابراهيم باشا بجمع السلاح من الاهلين في جميع البلاد، فاتفق الدروز في وادي التيم الذين يقودهم الشيخ شبلي العريان مع دروز حوران وعربان السلوط في الملجاة وغيرهم، وأبوا تسليم سلاحهم، وامتنعوا عن تجنيد اولادهم. فأرسل عليهم ابراهيم باشا فرقة من جنوده مع الفريق أحمد باشا، فقابلها الدروز وحلفائهم في وعرة اللجون وكسروها شر كسرة، ثم ساق عليهم حملة ثانية فدحروها أيضاً. وسيّر شريف باشا والي الشام في اربعمائة فارس الى قرية ام الزيتون في وادي اللواء فقضى عليهم الشيخ حمدان عن آخرهم وكان معهم علي آغا البصيلي كبير الهوارة، وعبد القادر آغا ابي حبيب متسلم حوران فقتلوا ابي حبيب لأنه من موظفي الحكومة، وأبقوا على البصيلي إكراماً لعشيرته، وأخذ الدروز والعربان يقطعون السابلة، وينهبون القوافل بين دمشق وبيروت ويفتكون بكل من وجدوه منفرداً من العسكر المصري. وعجز شريف باشا عن كبح جماح العصاة، فجاء ابراهيم باشا بنفسه وعمد الى ضرب الدروز من خلفهم، أي من جهة صرفند في جنوب الجبل، وأعد لذلك فصيلة من الفرسان الأكراد وساقها عليهم، فتراجع الدروز أمامها وقادوها الى سهل دامة، ثم عادوا وأعملوا فيها السيف، فلم ينج منها الا الشريد. ثم قصد ابراهيم باشا إفناء الدروز بدس السم في مياههم، وطلب من الدكتور كلوت بك الفرنساوي طبيب الجيش المصري ان يستحضر له سائلا قتالا فأنكر الدكتور طلبه، وحاول منعه من استعمال هذه الواسطة الوحشية التي تشمل النساء والأطفال أيضاً فلم يأبه ابراهيم باشا لقوله ولبث مصرا على أمره والزم كيمياوي الجيش بصنع كمية كبيرة من محلول السليماني القتال، والقاها بكثرة في المياه، فمات كل من شرب منها، واضطر الدروز الى مغادرة مواقعهم والرحيل عنها الى إقليم البلان فهلك من السم والظمأ الكثيرون منهم.

وقد وزّع ابراهيم باشا ستة عشر ألف بندقية مع ذخائرها على الموارنة في جبل لبنان، وساقهم الى محاربة الدروز، فتجمع الدروز في قرية جينة من اقليم البلان، وشن عليهم الأمير مجيد الشهابي الماروني الغارة فهزمهم، ولكن شبلي العريان القائد الدرزي أدركهم وحصر الموارنة في سراي حاصبيا وشتت من بقي منهم خارج الحصار، فساروا الى البقاع حيث قاتلهم أهلها وأهلكوهم عن آخرهم. ثم جمع ابراهيم باشا من حصل عليه من الجند وجاء فخيم في قرية عيحا قرب راشيا، فأتى الدروز وأقاموا أمامه في غابة هناك، ونشبت الحرب بين الفريقين فلم يظفر المصريون بشيء من الدروز، ثم اشتبكوا معهم في حرب بوادي بكا، وأطبقت عليهم الجنود كلها من كل جانب وأكرهتهم على الفرار بعد ان قتل من الجانبين عدد غير قليل. ثم حدثت واقعة ثالثة في قلعة الصخور تفرق على أثرها الدروز واستأمن شبلي العريان الى ابراهيم باشا وأمنه وجعله (بكباشي) قائداً على ألف فارس من الهوارة.

فقد ابراهيم باشا من جنوده في خلال سنتين أكثر من عشرين ألف جندي، وانتقض عليه أيضاً أهل الكرك وذبحوا حاميتهم وجميع الموظفين عندهم، وأهلكوا كتيبة مصرية كانت عائدة الى مصر فأضلوها الطريق وقتلوها عن بكرة أبيها.

وفي تلك الآونة عُقدت معاهدة تجارية بين الدولتين العثمانية والانكليزية في لوندره عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) اباحت للانكليز حرية التّجارة في جميع انحاء السلطنة العثمانية، فأعلن محمد علي باشا والي مصر أنه لا يعترف

بها ولا يجيزها في ولايته، وعندئذ أخذ الاسطول الانكليزي يسير مع الأسطول العثماني ويساعده على طول الخـط. وفي خلال ذلك انتهزت انكلترا الفرصة واستولت على مدينة عدن العربية[٢١] الواقعة على منفذ البحر الأحمر في المحيط الهندي، واشترتها من شيخها أحمد فاضل بن عبد الكريم بستين الف دينار عام ١٢٥٣هـ ـ ١٨٣٧م، وجعلتها مقدمة للتسلط على البحر الأحمر وبرزخ السويس بأجمعه.

كان الرشيـد محمد باشا رأس العساكر العثمانية مرابطاً، منذ عهد كوتاهية، في قرية نتريب الواقعة على التخوم الشامية الكردية بغية توطيد الأمن في بلاد الأكراد التي كانت ثائرة على الدولة كما قدمنا، ثم مات وخلفه حافظ باشا الذي لم يسبق له ان حضر حرباً ما في حياته، فاغتر بجيشه الذي بلغ ثمانية وثلاثين ألفاً من الجنود مع مائة وستة من المدافع، وأمل ان يبلغه الى المائة وخمسين الف بما طلبه من جنود الأطراف، ويبطش بابراهيم باشا ويستعيد شرف الدولة الذي مزقه بمساعدة الصدف، وكان ابراهيم باشا يحشد جيشه تجاه جيش حافظ باشا، وقد أبلغه الى الأربعين ألفاً، وعنده مائة وستة مدافع أيضاً، ولقاء الضباط الافرنسيين الذين كانوا في الجيش المصري، كان في جيش حافظ باشا ثلاثة من الضباط الجيش البروسياني بصفة معلمين[٢٢]. وفي يوم جمعة رأى الضباط البروسيانيون أن الموقع المرابط فيه الجيش المصري هو أحط وأوطأ من مواقع العثمانيين وأشاروا على حافظ باشا باغتنام الفرصة ومباغتتهم بالقتال قبل ان يصلحوا شأنهم، فاستطلع حافظ باشا رأي المنجّم الذي كان يلازمه فقال المنجّم إن الحرب في يومي الجمعة والأربعاء تكون مشؤومة لا يرجى منها الظفر، وعليه رفض حافظ باشا راي المعلمين، وفي اليوم الثاني أبدل المصريون موقعهم وضاعت الفرصة السانحة على الجيش العثماني، فغادر البروسيانيون ذلك الجيش معلنين أن لا عمل لهم مع المنجمين!

ثم قام حافظ باشا في غلس الليل (٩ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥) وأرسل ثلة من جيشه وأغار بهم على الجيش المصري، ودامت مناوشاتهم الى الصباح حيث اشتد القتال أربع ساعات انهزم في نهايتها جيش حافظ باشا وقتل أربعة آلاف من جنده، وسقط من المصريين ثلاثة آلاف قتيل، وأسر المصريون من جيش حافظ باشا إثني عشر الف جندي وكان الشؤم الذي أشار اليه المنجم على حافظ باشا نفسه، حيث وقع أسيراً بين يدي ابراهيم باشا وكانت هذه الواقعة هي القاضية على السلطان محمد، فمات متأثراً منها.

جلس السلطان عبد المجيد على العرش وأعلن رغبته في حلّ الخلاف بالطرق السلمية، وعهد بالصدارة العظمى الى خسرو باشا أكبر الوزراء سناً الذي عهد الى مصطفى باشا السفير في لوندره بالتفاوض في الصلح، وأبقاه في الآستانة، وأصدر السلطان أمره الى رئيس العساكر ووزير البحرية بتوقيف الجيش حيثما هو مرابط في تلك الآونة، وأبقاء الأسطول في جناق قلعة (الدردنيل)، فما كان من أحمد فوزي باشا وزير البحرية العثمانية (الذي استماله محمد علي باشا بواسطة عثمان رياله) الاّ أن خان وطنه وخالف أمر سلطانه، مدعياً أن لخسرو باشا عداوة قديمة معه، وهو يخشى على نفسه من غدره، وأخذ الأسطول العثماني المودوع اليه، والمؤلف من عشرين سفينة حربية، وسار به الى الاسكندرية، وسلمه الى محمد علي باشا خصم الدولة[٢٣].

طلبت معتمدو الدولة الى محمد علي باشا إعادة الأسطول فأجابهم أنه في حالة حرب مع الدولة ولا يسعه أن يعيد الغنم الذي ساقه الحظ اليه، ثم قال إنه مطيع للسلطان ولكن السلطان محاط بقرناء السوء. وطلب عزل الصدر الأعظم وتفويض جميع الايالات التي في ايدي جيوشه اليه على طريق التوارث، واقترح على بعض الوزراء وعلى والدة السلطان كتابة، أن يتوسطوا بجعله خلفاً لخسرو باشا وتوليته سند الصدارة العظمى التي هي رئاسة الحكومة في الدولة.

عند ذلك تبدل وجه السياسة واتفقت الدول الخمس (وهي روسية وفرنسا وانكلترا والنمسا وبروسية) على حل المسألة المصرية برمتها دون ان يكون لأحد منها أي غنم، فاجتمع سفراء هذه الدول الخمس في الاستانة وقرروا إعادة بر الشام بأجمعه الى حكومة السلطان وكتبوا بقرارهم هذا الى قناصلهم في الاسكندرية، وبلغوه الى محمد علي باشا، فاستغرب محمد علي باشا هذا القرار، وظن انه يصادف موانع جمة في تنفيذه، وفعلا ظهر بعض الخلاف بين المؤتمرين خلال البحث عن التدابير الواجب اتخاذها للوصول الى الغاية المنشودة، ولبثت انكلتـرا متمسكـة بلزوم إعادة جميع البلاد التي استولى عليها المصريون مع الاسطول بكامله الى الحكومة

العثمانية. وكانت فرنسا ترى أن تحل المسألة مباشرة بين الفريقين (الباب العالي ومحمد علي باشا) بدون مداخلة اجنبية، ولذلك قررت الدول الأربع، خلاف فرنسا، ان تعقد مؤتمراً دولياً في لوندره لتقرير ما يجب عمله نهائياً في هذا الشأن، وكانت انكلترا قانعة بان إصرار محمد علي باشا على مطاليبه هو نتيجة تحريض الافرنسيين، فاقترحت في ذلك المؤتمر الذي عقد في لوندررة الاسراع باخراج المصريين من الشام قبل انتهاء مدة الصيف، والاستفادة من الثورات الناشبة ضدهم في طول البلاد وعرضها، فقبل المؤتمر هذا الاقتراح، وعقدوا بذلك عهداً وقعه معتمدو الدول الأربع سنة ١٣٥٦هـ - ١٨٤٠م، وأضيفت الى هذا العهد مادة منفردة تتضمن إرادة سلطانية تقضي بمنح محمد علي باشا لواء عكا اذا هو خضع لقرار المؤتمر الدولي في الحال، وأنه اذا تأخر عن ذلك أكثر من عشرة أيام يحرم من هذه المنحة.

بلّغ قناصل الدول قرار المؤتمر الدولي ومضمون الارادة السلطانية الى محمد علي باشا فلم يكن منه الا الاباء والرفض لأن المسيو (تيير) رئيس الوزارة الافرنسية أشار عليه بأن لا يتجاوز جبال السلطان، وأن يقوي عكا والاسكندرية، فاذا تمكن بذلك من تمديد أجل الحرب الى وقت الربيع فان فرنسا تتدخل اذ ذاك في الأمر بجميع قواها، والأرجح أنها تتوصل الى تعديل ذلك العهد. وقد استدعى محمد علي باشا رفعت بك معتمد الباب العالي لديه وقال له - إن مداخلة الدول في المسألة تؤدي الى اضرار الطرفين وأنه على استعداد لقبول مصر بطريق التوارث، وبرّ الشام كله بقية الحياة، وانه سيعدل عن المطالبة بكريت وآدنه، وسيعرض ذلك على السلطان مباشرة. على ان العشرة أيام مدة المهلة المعينة لقبول قرار المؤتمر كانت انقضت بكاملها ولم يبد محمد علي باشا ميلاً لقبوله والعمل بموجبه، فكتب القناصل محضراً بأن محمد علي باشا أبى الامتثال لأحكام عهد لوندره، ورفض إعادة الاسطول العثماني، ثم أنزلوا رايات دولهم وغادروا الاسكندرية عائدين الى بلادهم.

عندئذ جاء دور التنفيذ فقام القومودور (سير تشارلز نابيه) الانكليزي وجاء بسفنه الستّ الى بيروت واستولى على السفن المصرية الراسية في مينائها وكانت اثنتي عشرة سفينة، وأذاع على أهل الشام نشرة عامة دعاهم بها الى القيام ضد ابراهيم باشا، وحرض الجنود المصريين على الفرار. ثم قدم الى بيروت الأسطول الدولي بقيادة الاميرال (ستوقوفورد) الانكليزي وهو يؤلف من ست دوارع انكليزية وثلاث بوارج نمساوية، وانضمت اليه سفن القومودور (نابيه) الست. وفي اليوم التالي بلغها على السفن النقالة عشرة آلاف جندي عثماني مع المشير عزت باشا والف وخمسمائة جندي انكليزي، وكتيبتان بحريتان انكليزية ونمساوية، وخرجوا جميعاً الى البر وأقاموا على بعد ثلاثة أميال من مدينة بيروت، وأطلقوا مدافعهم على الجيش المصري الذي كان مخيماً في حرجها، وأكرهوه على الانسحاب. وقد حاول الجيش المصري مقاومة هذه القوى فلم يفلح.

انقطع عندئذ أمل الأمير بشير الشهابي نائب جبل لبنان من بلوغ الارب فأودع امواله وحليّه في الأديرة، واستسلم الى الفريق خالد باشا قائد الحامية العثمانية في صيدا، واتفق هذا القائد مع الاميرال الانكليزي، ونفياه حسب طلبه الى جزيرة مالطة[٢٤].

وقد قامت الحكومة الافرنسية واحتجت على استعمال الضغط والشدة في برّ الشام ومصادرة السفن من مرفأ بيروت فلم يصغ لاحتجاجها أحد. وكان الملك لويس فيليب ملك فرنسا يرمي الى المسالمة لأن دولته لم تكن على قدم الاستعداد لخوض غمار الحرب، ولا يعتمد على قوى محمد علي باشا وحدها. ولذلك استقال المسيو تيير رئيس وزرائه، وعهد الملك برئاسة الوزارة الى المسيو (كيزو) الذي أخذ يسعى جهده لتبديل مجرى السياسة.

لما ضربت بيروت بالمدافع وانسحب جنود ابراهيم باشا الى الوراء، وزع الأسطول الدولي ثلاثين ألف بندقية مع ذخائرها على الدروز الذين ثاروا على ابراهيم باشا، وقام الشاميون المجندون في الجيش المصري وغادروا قطعاتهم العسكرية، وعادوا الى أهلهم، وتعقب الدروز الفصائل المصرية الى بعلبك والتحق بهم بعض المواطنين المسيحيين بسبب الأضرار التي لحقتهم من الجنود المصرية وراحوا جميعاً يناوشون الجنود حينما وجدوها.

على اثر ذلك أحرق ابراهيم باشا بعض القرى الدرزية والمسيحية في لبنان واستباحها (وهي قرى حمانا بوارش بكفيا وغيرها) وقتل خوري قرية الكحالة وتعرض جنوده على النساء في قضاء المتن، ثم قبض على سبعة وخمسين رجلاً من مشايخ البلاد ونفاهم الى مصر ثم الى السودان.

وبعد بيروت استولت السفن الدولية على قلعة عكا، واستسلمت لها صور، وصيدا، وطرابلس، ثم أيالات السواحل المصرية، فانقطع رجاء محمد علي باشا بسقوط عكا واستقال صديقه (تيير)، ونفي حليفه الأمير بشير.

رأى الاميرال ستقوفورد ان يكتفي بهذا القدر ويؤجل اتمام المسألة الى وقت الربيع ولكن القومودور (نابيه) عزم على انهاء هذه المسألة التي أعجزت سياسيي اوروبا، واجبار محمد علي باشا على الخضوع لقرار المؤتمر الدولي، فذهب الى الاسكندرية بسفنه الستّ، ورسا على مقربة من المدينة فشاعت في الاسكندرية شائعة مؤداها ان الأسطول الانكليزي جاء ليضرب المدينة بقنابله، فهاج الناس من هذا الخبر، وظهرت بوادر العصيان في جنود المدفعية المصرية، ثم اجتمع نابيه الى محمد علي باشا وجعله يوقع عهداً يقضي باصدار أوامره العاجلة الى ابراهيم باشا باخلاء الشام في الحال، ونقل الجنود المصرية على السفن الانكليزية، واعادة الأسطول العثماني حيثما تفوض اليه مصر على طريق التوارث تحت ضمان الدول.

ولما كان ابراهيم باشا مضطراً لمغادرة الشام لأن جنوده كادت تتلاشى فيها بسبب الثورات التي قامت ضدها في جميع انحاء البلاد، وكان فعلاً قد باشر الرحيل بطريق البر، فلم تكن ثمّة حاجة لنقل جنوده على السفن الانكليزية ولذلك لم يرق للاميرال (ستقوفورد) عمل القومودور (نابيه) وأبان له ان لا صلاحية له تخوله عقد مثل هذا العهد، وقد حبّذ اللورد (بالمرستون) رئيس الوزارة الانكليزية عمل الاميرال وارسل له كتاباً ذكر فيه ـ ان حق إنتقاء وتعيين الحاكم المناسب من بين أفراد الرعية للحكم على جزء من اجزاء السلطنة العثمانية هو من خصائص وحقوق جلالة السلطان وحده بصفته حاكم الدولة العثمانية الوحيد، وأنه لا يحق للدول الأجنبية ان تسيطر على ذلك ـ وكان بالمرستون يقصد من هذا الكتاب اسماع الدولة الافرنسية وإرجاعها عن مطامحها. ولما ابلغ الاميرال كتاب (بالمرستون) الى محمد علي باشا ايقن محمد علي باشا ان فرنسا تخلت عنه تجاه سياسة الانكليز الصارمة، وأجاب بأنه سيصدع بما يؤمر به ويخضع لقرار المؤتمر الدولي بحذافيره.

وعندئذ أصدر محمد علي باشا امراً قطعياً الى ابراهيم باشا بأن يترك الشام ويغادرها عائداً الى مصر مسرعا، فرحل عنها عام (١٢٥٦هـ ـ ١٨٤١م) بطريق البرّ، وأخذ معه جميع الحبوب والمواشي الموجودة فيها، وقبل رحيل ابراهيم باشا من دمشق جاء احمد آغا اليوسف بفصيلة من الخيالة الأكراد المجندين من قبل الدولة للمحافظة على الأمن، وانتظر بضعة أيام في جهة الزبداني ريثما تم الجلاء واعادت الدولة الى ولاية الشام علي باشا الذي كان واليها عند دخول ابراهيم باشا. ثم سلم محمد علي باشا الأسطول العثماني الى المعتمدين اللذين أرسلا من الاستانة وهما: مظلوم باشا، مستشار وزارة البحرية، وبادر (اولكن) باشا الانكليزي أمير البحر في الدولة العثمانية. وعند ذلك أي في شهر كانون الثاني سنة ١٢٥٦ ـ ١٨٤١ صدرت الارادة السلطانية بتوجيه ولاية مصر على طريق الوراثة الى محمد علي باشا، بحيث تنتقل من بعده الى الأرشد فالأرشد من ذريته على ان يؤدي الى الدولة اربعين مليوناً من القروش جزية سنوية عن مصر، وان لا يتجاوز الجيش المصري في حالة السلم الثمانية عشر ألفاً من الجنود، وان تكون السكة والأزياء العسكرية المصرية مطابقة ومماثلة لسكة الدولة وأزيائها، وأن يحظر على والي مصر إنشاء السفن البحرية.

وفي سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٥٠م جاء محمد علي باشا الى العاصمة (الاستانة) وفاز بالمثول بين يدي السلطان، ثم اعتراه العته اذ أصبح طاعناً في السن، فاستبدل في الولاية بابنه الأكبر ابراهيم باشا. وما لبث ابراهيم باشا ان لقي وجه ربه بعد ولايته بواحد وسبعين يوماً، فخلفه في الولاية ابن أخيه عباس باشا عام ١٢٦٥هـ، وتوفي محمد علي باشا في تلك السنة.

هامش

يقول بعض المؤرخين ان ابراهيم باشا قام في الشام بأعمال إصلاحية كترتيب المجالس وتنظيم المالية وانماء الزراعة والصناعة والتجارة وتعميم تربية دودة القز واستخراج بعض المعادن كالفحم الحجري الذي وجدوه في لبنان وأهملوه.

هذا ما ذكره المؤرخون وفي طليعتهم صاحب «خطط الشام» الذي أتى على ذكر المحاسن دون المساوىء التي ضجّ الناس منها، وكانت سبيلاً لانتقاضهم عليه بعد أن خضعوا له وأطاعوه.

نعم، انه ذكر الاحتكار، وزيادة الضرائب، والتجنيد وغيره، وانما أغفل أمراً طالما انتقده في خططه على الملوك والأمراء والسلاطين من أمويين وعباسيين وأيوبيين وعثمانيين وغيرهم.

نحن لا يهمنا كون الرجل صالحاً أو طالحاً، فالرجال بأعمالها، والأمور بخواتيمها، وكل مسؤول عن عمله. ولكنه المؤرخ يجب عليه ان يصدق في رواياته، ويساوي بين الناس في تدقيقاته وتعليقاته! فهلا سمعت يا حضرة الأستاذ (صاحب الخطط) عن المرحوم ابيك الذي كان يعلم حق العلم ما كان يجري كل ليلة في دار القباقبي (مقر ابراهيم باشا) على ملأ الناس. واذا كان ابوك لم يحدثك بذلك وهو محال لما نعلمه عن خصائله عفا الله عنه، فهلّا سمعته من أفواه الناس وهو مما شاع وذاع وملأ الأسماع في هذه البلدة التي انت ربيبها. انك ما فتئت تقول كان الملك الفلاني كذا والسلطان الفلاني كذا! فلماذا سكتت عما ابتلى به هذا الرجل وأطنبت بمدحه فقط؟ ان الذي حملك على ذلك هو التملق ليس غير! فاذن عندك مقياسان وميزانان، وهذا عمل يقضي على المؤلف ان لا يعتد بكلامه ولا يوثق برواياته.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن أهم خطيئات ابراهيم باشا في الشام، التي نفّرت منه القلوب، هي إكثاره من سفك الدماء بحق أو بغير حق، ونكثه العهود ودسّه السم في المياه، والقاؤه التفرقة بين الأهلين الوادعين، وتحريضهم على قتال بعضهم، ثم تزييده الضرائب، وتجنيده الشبان، وقتله الرهبان، وغير ذلك مما أجمع الناس على استنكاره والشكوى منه. ولو كان له بعض العذر في قتل الجنود الفارين والمذنبين فما القول بالمستأمنين وخَدَمة الدين الذين حرم الله دماءهم، ونكثه العهد مع الشيخ قاسم أبي غوش، ودسّه السم في مياه الدروز الذين لم يستطع الظفر بهم حرباً! وهذا أعظم مما فعله نابليون في يافا، ثم لجوءه الى المكر على ملأ الناس مما أسقط من حومته واطاعته، وسبب اللغط عليه بين جميع طبقات الخلق! اما تزييده الضرائب وتجنيده الشبان فليس فيهما ما يشين لانه راعى بذلك مصلحة الجيش التي لا بد منها في كل زمان ومكان.

وصاحب الخطط يزداد في تملقه وينتقد الشاميين على عدم تقديرهم قدر المصريين، وطلبهم الرجوع الى حكم العثمانيين! وهذا لا يوافق المنطق لان امة بأسرها على اختلاف مللها ونحلها جربت المصريين سبع سنوات كوامل وأيقنت ان في إبقائهم غضاضة عليها وعلى شعائرها ومصالحها، فنبذتهم والقت بنفسها في أحضان أمها الرؤوم الدولة العثمانية، وهي لا تخشى في ذلك لومة لائم، ولا تسمع اعتراض معترض أو نقد ناقد تجاه اجماعها.

أما الاستشهاد بقصائد الشعراء فهو تمويه يا حضرة الأستاذ لا ينطلي على المحققين أمثالك. لأن القادحين والهاجين أكثر من المادحين والمتزلفين، وانت تعلم مبلغ الشعراء عندنا، فهم يهيمون في كل واد، حتى اذا قضوا من الممدوح لبانتهم عادوا وانقلبوا عليه وأخذوا يهجونه ويذمّونه ذماً قبيحاً، وكلا الأمرين فيه نظر. والدواوين طافحة بأمثال هذه الشواهد.

الافرنج

أتى على الشرق حين من الدهر وهو في غنى عن الغرب، لا تربطه به رابطة ولا تحوجه اليه حاجة. وعلى الرغم من افتتاح الموانىء الشرقية للتجارة الافرنجية منذ أيام الرشيد العباسي فقد كان يتعذر على الغرباء تجاوز خط الساحل، ويندر وصولهم الى بلاد الداخل بأية صورة كانت. حتى انه في أيام الصليبيين أيضاً لم يستطيعوا اجتياز ذلك الخط، ولبث الداخل مصوناً من كيدهم، محافظاً على شرقيته، لم تشبه شائبة غربية قط. وكانت البلاد ملكاً لأهلها، وهم على اختلاف مذاهبهم مؤتلفون مع بعضهم في امور المعاش، قانعون بما حباهم الله به من نعمته، مكتفون بصنائعهم وبضائعهم، لا يعرفون غير الزي الشرقي، ولا لغة غير العربية، راتعون في بحبوحة الراحة والعيش الهنيء.

دامت هذه الحال الى أوائل القرن الماضي حين أجاز الأمير فخر الدين بن معن دخول الافرنج الى جبل لبنان،

ثم تبعه ابراهيم باشا المصري، ففتح لهم أبوب البلاد الداخلية، فخفّوا من القطرين الأوروبي والأميركي بين سياح وتجار وقسس، جاءوا بتيار بضائعهم وصنائعهم يزاحمون بها صنائعنا وبضائعنا، وراح مبشروهم يشيدون المدارس والمستشفيات في المدن والقرى، ويستجلبون اليها الناس بشتى الوسائل، ويعلمونهم فيها ما يتناسون به لغتهم وقوميتهم(٢٥). واخذت الدول الأجنبية ترسل قناصلها تباعاً لحماية هؤلاء الروّاد أدبياً، وتعهدت حكومتنا بالمحافظة عليها مادياً. وكان أكثر هؤلاء القناصل ذوي معرفة باللغة العربية، فراحوا يجوبون البلاد وينفثون في صدور أهلها روح التفرنج الذي قضى على تقاليدنا وأباد ثروتنا، وأوصلنا الى هذا اليوم. والمثل التركي يقول: «القرية المرئية لا تحتاج الى دليل».

السلطان عبد المجيد

لما افتتح السلطان محمد خان الثاني العثماني القسطنطينية وجعلها عاصمة ملكه اقتدى بالسلف الصالح، وعطف على سكانها الأروام الذين اضاعوا ملكهم وسمح لهم بأن يفصلوا في أمورهم الدينية والشخصية فيما بينهم بدون مداخلة الحكومة في ذلك.

ثم توسعت دائرة هذه المنحة وشملت غير المسلمين جميعاً في انحاء الدولة كلها، ولمّا طغى الانكشارية في الدولة وتجاوزوا الحدود في أعمالهم عمّ ظلمهم بعض الرعايا الذين جعلتهم الأيام آلة صماء في أيدي ذوي المطامع من الدول الأجنبية التي تجمعهم بها صلة الدين، فأخذوا يراجعونها ويبثون اليها شكاويهم مما أدى الى فتح باب المداخلة على مصراعيه. دام هذا الحال الى اوائل أيام السلطان عبد المجيد خان الذي رأى غب الاستشارة مع وزيره مصطفى رشيد باشا ان يزيل الأسباب المؤدية الى مثل هذه الشكايات، ويسد باب المنازعات والمداخلات بصيانة الأهلين عامة من غبث العابثين وتأمينهم على أموالهم وارواحهم ومنحهم الحقوق المتساوية مع بعضهم بدون تمييز أحد عن أحد بسبب دينه ومذهبه، فأصدر بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٥٥ أمره العالي المشهور بفرمان كلخانه، أو التنظيمات الخيرية، وهو نسخة مصغرة عن القانون الأساسي الذي تدار به الممالك على الأصول الاستشارية (الديمقراطية) بأمل توسيعه في المستقبل.

وبوشر فعلاً بتطبيق أحكام هذا الأمر العالي وأجريت التنسيقات في دوائر الدولة وموظفيها وألغيت التزامات وغيرها مما كان يدعو الحيف والضرر على الخزينة والأهلين معاً، وتأسست في العاصمة والولايات مجالس إدارية يشترك فيها الأهلون من جميع المذاهب في إدارة أمور الحكومة، وغير ذلك من الاصلاحات التي أسفرت عن نوال الشعب حقوقه وحريته، وأخذ الباب العالي يخطو خطوات واسعة في سبيل هذه الاصلاحات، ويسعى جهده لتوطيد دعائم الأمن في طول البلاد وعرضها.

حرب القرم

كانت دولة الروس القيصرية ترمي الى إثارة الفتن من حين الى آخر في أنحاء الدولة العثمانية ليتسنى لها القضاء عليها والوصول عن طريقها الى البحر المتوسط ثم الى الهند أغنى بلاد العالم في ذلك الزمن، مما أدى الى حصول منافسة بينها وبين سائر الدول ذات العلاقة بهذه البلاد، ولذلك لم ترق لها الاصلاحات التي باشرت بها الدولة العثمانية، وراحت تعرقلها، وتوصلت لاذكاء نار الثورة في بلاد الصرب والبلغار، والأرناؤوط، فأخمدتها الدولة قبل ان تتسع.

ثم قام القيصر نيقولا الأول امبراطور روسية وادّعى حماية المسيحيين ولا سيما الارثوذوكسيين في الشرق، وطلب وضع الاماكن المقدسة وروادها تحت حمايته أيضاً بحجة عجز الدولة العثمانية عن ذلك.

وما هذه الدعوى سوى نعرة أو حملة جديدة من نوع النعرات والحملات القديمة التي كان يرددها الصليبيون ويحملون بها على هذه البلاد، وقد اتخذتها روسيا ديدناً لها، وشرعت منذ أيام عميدها بطرس الأكبر

تتعرض للدولة العثمانية لأي سبب ولو كان طفيفاً وتحاربها حروباً مطردة في كل عشرين سنة مرة بدون انقطاع بغية إضعافها وإبادتها.

إحتجت الدولة العثمانية على هذا الطلب ورفضته رفضاً باتاً لان الأماكن المقدسة وقوافل روادها مصونة ومحفوظة من كل اعتداء في جميع الادوار، والأهلون على اختلاف مذاهبهم متمتعون بالحرية التامة في اقامة شعائرهم والفصل في أمورهم الشخصية في كنائسهم، وأيدتها في ذلك سائر الدول الكبرى. ولكن الدولة الروسية لبثت مصرّة على طلبها وطال الجدال بين الفريقين، ثم اسفر سنة ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م) عن اعلان الدولة الروسية الحرب على الدولة العثمانية، فاتفقت معها الدول الأربع - انكلترا وفرنسا والنمسا وساردينية (ايطالية) - واشتركت الدول الثلاث انكلترا وفرنسا وساردينيا بجيوشها وأساطيلها في الحرب مع العثمانيين ضد الروس اشتراكاً فعلياً، واحتلت النمسا (اوستريا) بلاد الأفلاق (رومانيا) لكيلا تنضم الى روسيا، وأرسل عباس باشا والي مصر فرقة عسكرية مؤلفة من خمسة عشر الف جندي نجدة للدولة العثمانية التابع لها. وغبّ مصادمات عنيفة انتهت الحرب بفوز الحلفاء واستيلائهم على قلعة (سيفاستوبول) الروسية الواقعة على سواحل بلاد القريم في شمال البحر الأسود.

وعقيب الحرب عقد مؤتمر دوليّ في باريز عام ١٢٧٢هـ - ١٨٥٦م، وأبرمت فيه معاهدة أيدت استقلال الدولة العثمانية التام واعترفت لها بجميع الحقوق الأوروبية العامة مما قضى على آمال الروس وجعلهم يتأخرون عن مراميهم عشرات السنين.

شتّى

في أيام السلطان عبد المجيد قام (بدرخان بك) متسلم قضاء الجزيرة في ولاية الموصل وثار على الدولة في جمع من قومه الأكراد وتعرض بهم على ما جاوره من البلاد، فخفّ اليه عثمان باشا مشير جيش الآناضول وحاصره في قلعة (اوراق) التي لجأ اليها واعتصم بها وأكرهه على التسليم، وأرسله مع أولاده الى العاصمة، واعتقلوا فيها، ثم اجلتهم الدولة الى جزيرة كريت، وبعدها سمحت لهم بالمجيء الى الشام وسكناها.

وفي أيامه أيضاً أنشئت الفنارات البحرية على السواحل العثمانية للمرة الأولى وأحدثت المدارس الاعدادية العسكرية لاعداد التلامذة الى المدرسة الحربية العليا، ثم تأسس مجلس المعارف الكبير الذي دعي وقتئذٍ (انجمن دانش).

ولما تقاسمت دولتا روسيا وأوسترية (النمسة) بلاد اللاه (بولونيا) والمجر (هنغاريا) عطف السلطان عبد المجيد على اللاهيين والمجريين وأغاثهم وحماهم من المخاطر المحدقة بهم، وقبل من التجأ اليه منهم ومنحهم التابعية العثمانية وأدخلهم في جيشه وغيره من دوائر الحكومة ووظائفها.

وفي أيامه أحدثت أول صحيفة سيارة في العاصمة بعد (تقويم الوقائع) الحكومية، دعيت (جريدة حوادث) عام ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م.

ثم افتتحت المدارس الرشدية في الولايات، ومدّ أول خطّ برقيّ (تلغراف) فيها عام ١٢٧١، وأنشىء خط ازمير - آيدين الحديدي عام ١٢٧٤ وهو أول سكة حديد أنشئت في الشرق. وفي تلك السنة بدات هجرة الشراكسة الى البلاد العثمانية على أثر ضغط الحكومة الروسية عليهم في بلادهم.

الدروز والموارنة

لم ينج جبل لبنان من الدسائس التي تسربت اليه أيام الأمير بشير الشهابي، أضف اليه ألوف الأسلحة التي دخلته في زمن ابراهيم باشا المصري وبعده، ولبثت الدعايات الأجنبية تلعب أدوارها فيه بصورة هائلة فتجعل من الحبة قبة، وتعارض في كل امر مشروع تقوم به الحكومة لاصلاح البلاد، وغير ذلك من الغرائب التي لم تحجم

الدولة الافرنسية عن الاتيان بها بدون فحص ولا تمحيص استجلاباً لقوم يخالونها نصيرة لهم كما نشرحه فيما يلي!

كان الأمير قاسم بن الأمير بشير الشهابي الذي ولي الامارة بعد أبيه لا يحسن الادارة والسياسة، فأخذ الدروز والموارنة في أيامه يتحينون الفرص للايقاع ببعضهم الى ان حصل أول انفجار سنة ١٢٥٧، فقام الدروز واكتسحوا مدينة دير القمر، وأخرجوا الأمير قاسم من قصره، وجروه على الأرض احتقاراً، ثم احتلوا قصبة زحلة واوقعوا فيها مذبحة.

ارتأت الدولة نزولا عند طلب الأهلين ان تخلي الأمير قاسم عن العمل وتجعل الجبل قسمين: درزي، وماروني، وتعهد بكل قسم منهما الى أمير من أهله. وهكذا فعلت وعينت الأمير أحمد ارسلان قائم مقام على الدروز والأمير حيدر أبي اللمع قائمقاماً على النصارى وأبعدت آل شهاب المارونيين عن وادي التيم، وعينت شبلي آغا الديام متسلماً على حاصبيا.

ولما كان الدروز والموارنة مشتركين في القرى والأملاك في أكثر جهات الجبل وليس في الامكان عزلهم عن بعضهم لم يكن لهذا التقسيم الفائدة المرجوة لأهل العلائق من الفريقين، فعادوا وطلبوا توحيد الجبل واعادته سيرته الاولى!

وكانت الدولة أرسلت السر دار عمر باشا المجري الى بيروت لتوطيد دعائم الأمن، ثم جعلته حاكماً عاماً على الجبل، فقبض على بعض زعماء الدروز المشاغبين واعتقلهم، ورام أهلهم انقاذهم من السجن وحاولوا االهجوم على سراي بيت الدين فلم يفلحوا، واقتحموا ديرين من أديرة النصارى، وقتلوا في جملة من قتلوا الراهب شارل الافرنسي.

على أثر ذلك أرسلت الدولة شكيب أفندي وزير الخارجية العثمانية لاصلاح الجبل، فجاء بيروت في رمضان عام ١٢٦١ ورأى كتدبير ابتدائي لاستعمال الشدة تجاه المتمردين أن يجلو الأجانب المقيمين في مختلف أنحاء الجبل فينتقلوا موقتاً الى بيروت أو غيرها من البلاد لكيلا يصيبهم أذى عند مطاردة المتمردين كما أصاب الراهب شارل من قبل. فاعترضت الدولة الافرنسية على ذلك، وطلبت تعويضاً لتبعتها فيما إذا أكرهوا على مغادرة أعمالهم في الجبل.

ثم اتفق شكيب أفندي مع المشير نامق باشا قائد جيش البلاد العربية وقررا جمع السلاح من كل ناحية مباشرة، ولما سارت سرية كسروان لأداء واجبها أخبرت عن وجود السلاح في أحد الأديرة، ورام قائدها دخول الدير وتفتيشه، فمانعه الرهبان ولذلك اعتقلهم ودخل الدير عنوة. وكانت سرية اخرى تتحرى عن السلاح في ذلك القضاء، فاعترضها خليل المدوّر أخو ترجمان قنصل فرنسا، وحرّض الناس على عدم التسليم فقبض عليه القائد وسجنه، وانتقل الأمر الى أوروبا بأن القنصل نفسه قبض عليه واعتقل، فجاءت بارجة افرنسية الى ميناء جونيه، حيث معتقل المدور، وهددتها باطلاق القنابل واخراج الجند الى البر، وحينئذ تبلبل الأمر وقفل شكيب أفندي عائداً الى العاصمة بعد ان قام في الجبل باصلاحات جمة، كتشكيل النواحي والقائمقاميات وترتيب الأمور لها كل بحسب تحمله واستحقاقه، وفي سنة ١٢٦٧ عادت الفتن واشتدت، وامتد لهيبها حتى بلغ مدينة حلب حيث قام أهلها من باب النيرب ونهبوا أحياء المسيحيين، ثم أخمدت الفتنة واعيدت المنهوبات الى أصحابها.

بنو الحرفوش

الحرافشة، أو بنو الحرفوش، أسرة شيعية قديمة كانت تقطن بلاد بعلبك وتتولى احكامها، وفي سنة ١٢٦٧ قام الامير محمد الحرفوش متسلم بعلبك ضد الأوامر الصادرة بشأن التجنيد وجمع جمعاً من بعلبك ووادي العجم وأخذ يغير به على القرى الآمنة، فجردت عليه الدولة حملة مع أمير اللواء مصطفى باشا الذي تعقب الأمير وقبض عليه في قرية «معلولا» من جبل القلمون، ثم استسلم له سائر مشايخ بعلبك، فجاء بهم الى الشام، وأبعدوا جميعاً الى جزيرة كريت، فتنصر فيها بعضهم.

البابيون

في أيـام ناصر الدين شاه ملك ايـران سنة ١٢٥٦ للهجرة ظهر في بلاد فارس مذهب جديد دعي المذهب البابي[٢٦]، ابتدعه رجل من شيراز يدعى السيد علي محمد، فتبعه بعض الناس لقربه من مذهب الامامية السائد في تلك البلاد، ومن مذهب القرامطة الذي ظهر فيها من قبل وأبقى أثره في نفوس أهلها.

قام أتباع هذا المذهب وساروا على قدم الاسماعيلية، وحاولوا الفتك بكل من خالفهم في معتقدهم، ثم أثاروا الفتنة على الحكومة الفارسية، وكان من جملة دعاتهم إمرأة من مدينة (قزوين) بديعة الجمال تسمى (سلمى) أو (زرين تاج ـ أي ذات التاج المذهب) طلقت زوجها على خلاف أحكام الشرع الاسلامي، وآمنت بالباب الذي أخذ يكاتبها ويخاطبها بلفظ «قرّة العين»، فعرفها أصحابها بهذا الاسم، وكانت قرة العين تجلس للمناظرة مع الرجال وتحاول بث دعاياتها بينهم. ولما عزمت الدولة الفارسية على البطش بهم، واستئصالهم سارت «قرة العين» أمامهم وخطبت فيهم قائلة: «إن احكام الشريعة الأولى قد نسخت، والشريعة الثانية لم تصل الينا بعد، ونحن الآن في فترة لا تكليف فيها بشيء» فساد الهرج بين أتباعها وفعل كل منهم ما سولت له نفسه من المنكرات والموبقات. ولما اصطدمت «قرة العين» بجنود الدولة استمات أتباعها في سبيل الذبّ عنها، وقتل عدد غير قليل من الفريقين بسببها، ثم قبضت الحكومة الفارسية على «قرة العين» وصاحبها السيد علي محمد، فقتلت السيد علي محمد رمياً بالرصاص في مدينة تبريز، وأحرقت قرة العين بالنار عام ١٢٦٥.

وعلى أثر ذلك فرّ الى البلاد العثمانية خليفتا السيد علي محمد وهما (ميرزا يحيى نوري) الذي دعي (صبح أزل)، وأخوه حسين علي نوري (الذي قيل له بهاء الله). ثم وقع الشقاق بين الأخوين خلال قيامهما بالدعوة لمذهبهما، وافترق أصحابهما فرقتين دعيتا الأزلية والبهائية، يجمعهما اسم البابية العام، ثم أجلت الحكومة العثمانية صبح أزل الى جزيرة قبرص، وأرسلت البهاء منفياً الى عكا، فأقام فيها بضع سنين يدعو الى مذهبه، فلباه بعض الناس، وخصوصاً من جهات اوروبا واميركا. ثم مات البهاء عام ١٣٠٦هـ ـ ١٨٩٢م وخلفه ابنه عباس أفندي الذي انتحل اسم عبد البهاء، وزوج ابنته من شاب مسيحي من أتباعه، وبعد موت هذا خلفه حفيده (شوقي بك) وهو ما زال حيا يقيم في عكا وشيعته منتشرة في بعض أنحاء اوروبا وأميركا.

حادثة الشام

هذه الحادثة من أفظع الحوادث وأعظم الكوارث التي انتابت الشام وأهلها عامة، وما من ذي ضمير حي الا وقلبه يتفطر مما حلّ بضعاف الناس من المصائب في هذه الحادثة المشؤومة التي أثارها الجهل، وأضرم نارها تنازع النفوذ الدولي.

تنوعت الروايات عن هذه الحادثة، وراجت بشأنها سوق المبالغات رواجاً أدى الى طمس الحقائق الثابتة بالحس والبرهان. فقد ادعى بعض القسس من وطنيين واغراب وقالوا في نشراتهم وصرخاتهم ان المسيحيين الذين قتلوا في هذه الحـادثـة يتجـاوزون المـائة ألف نسمة، في حين أن أهل الشام كلهم، من مسلمين ومسيحيين وموسويين، كانوا في ذلك الحين لا يكادون يبلغون هذا العدد من النفوس، ومسيحيوها زهاء عشرة آلاف نسمة أو أقل. وقد نجا السواد الأعظم منهم. ثم هوّل المسيحيون وأكبروا مصابهم ونادوا بالويل والثبور، وكانوا محقين لولا ان داخلهم الطمع بطلب زيادة التعويضات والاستكثار من الاعانات والاسعافات. ولا بدّ للناقد البصير ان يتمعن في الأمر من كل جهاته، ويحكّم العقل والمنطق في مسموعاته ومحاكماته، توصلا الى الحقيقة المنشودة، ودفعا للأحلام والأوهام.

ذكرنا فيما مضى ان فرنسا وانكلترا هما الدولتان اللتان تتنازعان النفوذ في هذا الشرق للاستئثار بمنافعه، وأن الدولة الافرنسية تقدمت في دعاياتها ومداخلاتها، حتى أخذت تضرب الموانىء الأمينة ببوارجها الحربية لخبر مجرد ظنته حقيقة واقعة، ولم تر لزوما للتحقق عنه والتثبت منه. وان المارونيين، وهم أكثر السكان نفوساً في جبل لبنان يوالون بحسب صلتهم الدينية، دولة فرنسا الكاثوليكية، كما أنهم في الزمن الغابر كانوا عوناً

للصليبيين على اجتياز الساحل السوري. ثم ساعدوا جيش نابوليون الأول حينما اكتسح مصر وفلسطين، وانه لقاء ذلك استمال الانكليز دروز الجبل الذين هم في الدرجة الثانية نفوساً بعد المارونيين، وان الأمير بشير الشهابي، نائب جبل لبنان، كان يتبع سياسة التفريق، ويطمح الى توسيع دائرته. ولما ضمن عضد المارونيين ومن ورائهم مساعدة الدولة الافرنسية نحوه، فتك برؤساء الدروز وقتل منهم نفراً، مما كان له أسوأ الأثر لدى الدروز، اذ جعلهم يتحينون الفرص للأخذ بالثأر من المسيحيين عامة.

ثمّ ان فرنسا جمعت الأمير بشير بصديقها وحليفها محمد علي والي مصر الذي حلم بالتضخم والتسلطن، والفت بينهما، بحيث يعملان معاً على تحقيق الأحلام، ولمّا أرسل محمد علي باشا حملته على الشام مع ابنه ابراهيم باشا، استقبلهما الأمير بشير مع أولاده من فلسطين، وبذلوا لها وفي سبيلها جهد الطاقة من الخدمات، ثم جنّدوا شبان لبنان وأدخلوهم في الجيش المصري، وسهّلوا له الاستيلاء على الشام كلها.

ولمّا رام ابراهيم باشا تنفيذ التجنيد الاجباري الذي لم تالفه البلاد قامت عليه الثورات في مختلف الجهات، وأخذ القوم يناصبون الجنود المصريين العداء، ويقاومونهم حيثما وجدوهم. فوزّع ابراهيم باشا ستة عشر الف بندقية على الموارنة الموالين، وساقهم الى قتال الدروز المعارضين الذين تلقّوا بعدئذ ثلاثين الف بندقية من الأسطول الدولي الذي قدم الى بيروت. وأخذ الموارنة يتحرشون بالدروز الذين قابلوهم وقاتلوهم مراراً عديدة. وحافظ الدروز في جميعها على كرامتهم. وتأصل العداء بين الفريقين واصبحا لا يدعان فرصة الا وينتهزانها للايقاع ببعضهما، بحيث لا يمضي يوم من الأيام دون ان تحدث فيه حادثة تؤدي الى قتال تسيل فيه الدماء.

وعادة التقليد لها المقام الأول لدى الأقوام الشرقية لكيلا يعد أحدهم جباناً أو أقل رجولة من جاره، فضلا عن ان الغزو والثأر هما من العادات القديمة التي تأصلت في نفوس القوم منذ أجيال عريقة في القدم.

وفي شهر آب سنة ١٢٧٥هـ ـ ١٨٥٩م حصل شجار بين أهل قرية «بيت مري» في لبنان، تغلب فيه الدروز على الموارنة. ثم قام الشيخ يوسف عبد الملك واقتحم بجماعته الدروز بعض القرى المارونية واستباحها، فجاء خورشيد باشا والي صيدا وصالح الفريقين على ان يعوض الدروز أضرار الموارنة. وقبل ان يجف مداد هذا الصلح عاد النزاع والخصام الى شدتهما، وقتل الدروز رجلا مارونياً في دير القمر، واشفعوه برئيس رهبان دير الروم، وأخذ يوسف بك كرم وطانيوس شاهين، الزعيمان المارونيان، يشنان الغارات على قرى الدروز، وسرى النزاع الى البلاد المجاورة كطرابلس وصيدا واللاذقية أيضا، ثم قام المطران (طوبيا عون) أسقف بيروت الماروني وألف عصبة لتهيئة أسباب الانتقام، وراح رجال هذه العصبة، وجلهم من الاكليروس الماروني، يطوفون القرى ويثيرون الهياج، ويحرضون الناس لمقاتلة بعضهم، ويفتكون بكل من تمكنوا منه من خصومهم الدروز فتكا ذريعاً.

وفي أحد أيام سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م تجمع نحو خمسمائة ماروني من كسروان في قرية بعبدا، وأرسلوا ثلة منهم الى بيت مري فردهم الدروز على أعقابهم وتعقبوهم الى بعبدا، وشردوهم مع باقي المجتمعين هناك. ثم أعاد الموارنة الكرة على قرية العبيدية وغيرها فلم يفلحوا، وعم الهياج والقتال سائر الجبهات. وسقط في غضون ذلك بعض الرهبان الأغراب من الافرنسيين وغيرهم.

قال اللورد (دوفرين)، أحد أعضاء اللجنة الدولية التي قدمت الى سورية عقيب الحادثة الشامية في تقرير ارسله الى حكومته الانكليزية، ما تعريبه بالحرف:

«انه لمن العبث وصف المسيحيين بالشهداء القديسين، فانهم لا يقلون عن جيرانهم الدروز همجية وظمأ للدماء. وكثيرا ما كانوا يقتلون بعضهم، ولا يعفون حتى عن النساء. ولما كان الدروز من هذا القبيل أكثر شفقة من النصارى، لأنهم لا يتعرضون للنساء قط. فمن الخطأ وصف القتال الذي جرى بين الدروز والموارنة بمثابة اعتداء وثنيين برابرة على اتباع دين المسيح الأدعياء، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهمجية»

وكذلك لا يجب الاعتماد على ما قاله الدكتور ميخائيل مشاقه من أن استثناء النصارى من الخدمة العسكرية هو السبب في قيام الدروز والمسلمين عليهم بدمشق، فهذا وهم مخالف للحقيقة. والواقع ان الخدمة العسكرية كانت مهملة قبل الحادثة الشامية سنة ١٢٧٧هـ ـ ١٨٦١م، كما هو معلوم ومحقق من المعاملات

الرسمية والأحوال الواقعة. وقنصل بريطانيا المستر (برنارد) يكذب هذه الرواية ضمناً ويقول ان فتنة الشام لم تنشأ عن السجناء الذين أخرجهم الوالي من السجون وطاف بهم البلدة إرهابا لغيرهم، بل تسببت عن بعض الأطفال الصغار الذين كانوا يلعبون برسم الصليب على الأرض بالأزقة.

اهتمت الدولة بجمع السلاح الذي دخل لبنان بكثرة هائلة وتسرب منه الى سائر الجهات، ورأت ان تستعمل اللين والتؤدة في هذا السبيل خشية الاصطدام بنار يتطاير شررها وكان ما حسبته.

أبى الدروز ان يسلموا سلاحهم ما لم يسلم المسيحيون اسلحتهم، وحاول الموظفون التوسط في الأمر بان يجمعوه شيئا فشيئا من الفريقين معاً، غير ان الدسائس الأجنبية كانت تعبث في عقول البسطاء وتسوقهم الى الجهة المخالفة، وكان سعيد بك جنبلاط الزعيم الدرزي موظفاً عثمانياً بصفته (اميرالاي) الجند اللبناني، فحاول جمع السلاح من مسيحيي دير القمر واذ امتنعوا عن تسليمه له تسلمه ظاهر باشا قائد الحامية في قصبة الدير، فعدَّ الدروز ذلك فرصة ووثبوا على دير القمر وفتكوا باهلها المسيحيين وأوقعوا فيهم مذبحة، ثم تبعهم دروز وادي التيم واقليم البلّان فقاموا وأغاروا على حاصبيا وقتلوا البعض من أهلها النصارى مع الخوري الذي لجأ الى القائد عثمان بك اميرالاي في حاصبيا، ولم يستطع هذا حمايته لاختلاط الحابل بالنابل وكثرة المهاجمين وقلة جنوده بالنسبة لهم.

وفي اليوم ذاته باغت الدروز نصارى راشيا وقتلوهم بما فيهم نفر من بني شهاب المارونيين، ثم قام الشيخ اسماعيل الأطرش شيخ دروز حوران وجاء بخيله ورجاله الى قصبة زحلة وأوقع فيها مذبحة وأحرق بعض دورها ومساكنها.

في غضون هذه الفتن كانت أفكار الناس هائجة ومضطربة، واذ بغبطة البطريرك (ايروثيوس) بطريرك الروم الارثوذكس الانطاكي يمر من باب البريد بدمشق (في نحو الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٧٦هـ ـ ٩ تموز ١٨٦٠م)[٢٧] ويرى في طريقه بعض الصبية من رعاع القوم يلعبون برسم الصليب على الأرض ويتكلمون كلاما بذيئا، فارسل ترجمانه الخواجه (حنا فريج) الى دار الحكومة واستحضر بعض القواصة (الشرطة) الذين قبضوا على من وجدوه من أولئك الصبية وأعطوهم مكانس وساقوهم الى حيث كانوا يلعبون ليكنسوا الأرض ويزيلوا ما رسموه عليها تحت أنظار الشرطة، وكان بينهم ابن المدعو (محمد الشقار) الذي رأى ولده بين أيدي القواصة فظن انهم أخذوه ليفتكوا به، فصاح بالناس صيحة كانت القاضية على الشام وأهلها، حيث أغلقت الاسواق على أثرها، وهبّ الرعاع الى حي المسيحيين، وتبعهم الدروز الذين قدموا من القرى المجاورة للبلدة ومن جبل حوران واقليم البلان[٢٨] وأوقعوا القتل والنهب في ذلك الحي ثم أضرموا النار فالتهمت الأخضر واليابس.

كانت البلاد لا تحوي سوى نفر قليل من الجند المنظم، والتجنيد الالزامي لم يتسنّ تنفيذه الى ذلك الحين، وقطعات الجيش فارغة تقريباً من معظم أفرادها. وكان حفظ الأمن مفوضا الى القواصة (الشرطة) والعونية (الدرك) وهؤلاء قليلون أيضا لا يستطيعون قمع تلك الفتن ما لم تساعدهم قوى كافية، مما لم يكن له وجود في حينه، كما ان التلغراف لم يكن قد أوصل الى الشام اذ ذاك، ولم يكن هنالك غيره وسائط المخابرات السريعة، بل كانت مكاتبات الحكومة المهمة مع العاصمة ترسل بواسطة سعاة يستغرق ذهابهم وايابهم نحو الشهر أو أكثر.

ولما تفاقمت الخطوب في الشام على الوجه المشروح وبلغت مسامع السلطان عبد المجيد أمر باعداد فرقة عسكرية كاملة العدد والعدة وسوقها على الشام مع فؤاد باشا[٢٩] وزير الخارجية العثمانية لتسكين الفتنة وتعقيب الجناة واعادة الأمن الى نصابه.

وفي خلال ذلك توفي السلطان عبد المجيد يوم ١٧ ذي الحجة هـ الموافق ٢٥ تموز ١٨٦١م، عن عمر لم يتجاوز الأربعين عاماً، وخلفه أخوه السلطان عبد العزيز. وقام الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسا ورام إرسال حملة من قبله الى سورية بحجة حماية المسيحيين، وأخبر بعزمه الدول العظمى التي قررت ان لا تنفرد فرنسا بهذا العمل بل تشترك فيه الدول المعظمة كلها، وان تجعل الحملة تحت طلب مندوب جلالة السلطان (وهو فؤاد باشا) وأن لا تلبث في سورية اكثر من ستة أشهر.

على انه قبل تبليغ هذا القرار كانت الحملة الافرنسية قد بارحت فرنسا وتوجهت الى سورية مع الجنرال (دي بوفور والملقب ايضا بالمركيز دي هطبول) وعلم فؤاد باشا بسفرها فخف مسرعاً الى بيروت ورأى ان تلك الحملة بلغتها قبل يومين من وصوله وزحفت قاصدة دمشق، فتبعها في الحال وأدركها في سهل البقاع واوقفها عن الزحف بناء على المخابرة التي جرت بين السلطان والامبراطور مباشرة، فعادت الحملة أدراجها الى بيروت ورابطت فيها حيناً من الزمن، ثم استقدمها فؤاد باشا الى كسروان وزحلة للمحافظة على قرى المسيحيين فقط، ولم ير من حاجة لمجيئها الى دمشق لأن الأمن كان توطد فيها واستتب كما نذكره فيما يلي:

قدم فؤاد باشا الى دمشق واتخذ من التدابير الصارمة ما أوقف الناس عند حدود الشرع، وقبض على من نسبت اليهم إثارة الفتن وأودعهم الى المحكمة التي الفها بصورة (فوق العادة) فحكمت هذه المحكمة باعدام ١٦٧ شخصاً نفذ فيهم في الحال، فقتل (١١٠) أشخاص رمياً بالرصاص في ساحة المرج الأخضر و(٥٧) شخصاً صلبوا في أسواق المدينة، ثم قضت المحكمة بالأشغال الشاقة (الكوريك)[٢٠] على (١٨٦) شخصاً استخدم بعضهم في انشاء الطرق، وأرسل الباقون الى دار الصناعة (ترسانة) البحرية في العاصمة. وحكمت أيضاً بابعاد (١٤٥) شخصاً الى بلاد مختلفة منهم محمد سعيد بك شمدين[٢١] اميرلاي العونية (فرسان الدرك) وشبلي آغا العريان[٢٢] احد قوادها، وأخذ فؤاد باشا من مسلمي دمشق مائتي شاب الى الخدمة العسكرية وهم أول من جنّد من أهل الشام، وأوجب على كل من لم يستطع اداء الخدمة الفعلية ان يدفع مائتي دينار بدلاً نقدياً، وبحسب حكم المحكمة أيضاً أعدم الوالي أحمد عزت باشا، وأمير آلاي علي بك قائد حي المسيحيين، وعثمان بك قائد حاصبيا، والقائد محمد علي آغا قائد راشيّا، وغيرهم من الضباط الذين قصروا في واجباتهم[٢٣]، وعوّض المنكوبين من الضريبة التي طرحها وجمعها بصورة استثنائية، واتمّها من مال الحكومة، وحوّل المدرسة العسكرية (جامع تنكز) الى مستشفى لتداوي النساء المسيحيات، وخصص المستشفى العسكري الى المرضى من رجالهن، وأنشأ لجنة لتوزيع المال والطعام والثياب على المنكوبين الذين لجأوا الى القلعة وأقاموا فيها مدة.

ثم حكمت المحكمة أيضا بالاعتقال المؤبد في احدى القلاع على الشيخ عبد الله الحلبي[٢٤] شيخ الشام في عصره، وبالاعتقال لمدة خمس عشر سنة على عبد الله بك بن نصوح باشا العظم[٢٥] ومحمد بك العظمة[٢٦]، ـ جدّ مؤلف هذا الكتاب ـ وأحمد افندي الحسيبي[٢٧]. وبالسجن لمدة عشر سنوات على طاهر افندي الأموي[٢٨] مفتي الأحناف، وعمر أفندي الغزي[٢٩] مفتي الشافعية، وبمثله ثلاث سنوات على عبد الله بك أسعد باشا العظم[٤٠] وابنه علي بك وأحمد افندي العجلاني[٤١] نقيب الاشراف والشيخ عبد الهادي افندي العمري[٤٢]، وهؤلاء هم زعماء دمشق وأعضاء مجلس إدارتها الكبير، وكان الحكم عليهم لا بسبب اشتراكهم في الجنايات، فهم أبعد خلق الله عن ذلك بل بدعوى انهم لم يردعوا العامة عن ارتكاب مثل هذه الاعمال المنكرة، وقد أجلاهم فؤاد باشا عن دمشق، وأقصاهم الى بلاد مختلفة من بلاد الدولة كقبرص ورودس، وقونيه، وغيرها، فمات بعضهم في المنفى ثم عفا السلطان عمّن بقي منهم على قيد الحياة وعادوا الى دمشق بعد سنوات، وكلهم مسلمون سنيون راحوا فداء غيرهم ممن أثار الفتنة وأضرم نارها في مختلف الانحاء[٤٣]، وقد رام فؤاد باشا ان يقتص من الدروز ولكن الدعاية الانكليزية ادركتهم وجعلت المسيحيين يحاذرون عاقبة أمرهم، ويطلبون محاكمتهم بحسب الشرع الاسلامي، وفي المحاكمة لا بد من شهود عدول، وشهادة المسيحيين المتضررين لا تصلح في هذه الدعوى، والدروز لا يشهدون على بعضهم، وهكذا نجوا من العقاب والقصاص، واكتفى فؤاد باشا بنفي مائة رجل منهم الى طرابلس الغرب فقط.

وقد كان للكثير من مسلمي الشام أياد بيضاء بفتح دورهم للاجئين المسيحيين وانقاذهم من الغارات والتعديات كالعلامة محمد أفندي الحمزاوي[٤٤]، وأخيه أسعد افندي، والشيخ سليم افندي العطار[٤٥] وسعيد آغا الوزّي[٤٦]، وعمر آغا العابد[٤٧]، وصالح آغا المهايني[٤٨] في الميدان. أما الامير عبد القادر الجزائري[٤٩]، فانه عفا الله عنه فتح داره وصدره الى المنكوبين ونال جزاء عمله شكر الدول المعظمة وأوسمتها العالية.

وعقيب ذلك عقد في بيروت مؤتمر دولي حضره معتمدو الدول الخمس (انكلترا وفرنسا وروسيا وأوسترية وبروسية) ثم اشتركت فيه ايطاليا، ووضع نظام جديد لادارة جبل لبنان، فاقرّه الباب العالي. وهو يقضي بجعل

جبل لبنان متصرفية ممتازة خاضعة للباب العالي مباشرة، يتولاها وزير من وزراء الدولة العثمانية المسيحيين. وقد عيّن لأول مرة داود أفندي مستشار نظارة النافعة متصرفاً على لبنان ومنح رتبة الوزارة سنة ١٢٨١ للهجرة الموافقة لسنة ١٨٦٤ للميلاد.

السلطان عبد العزيز

أخذت الدولة بتنفيذ قانون التجنيد الالزامي بطريق الاقتراع في جملة الاصلاحات التي شرعت بها عقيب الحادثة الشامية منذ عام ١٢٧٧ في جميع انحاء سورية، واستثنت لوائي حوران ودير الزور، واستعاضت فيهما عن الخدمة العسكرية الفعلية ببدلات مقطوعة من الحنطة والشعير تؤدي غبًا في موسم الحصاد من كل عام.

وسنأتي على ذكر بعض ما أجري من الاصلاحات في أيام السلطان عبد العزيز بحسب تواريخها في الأبواب الآتية:

الجيش

كان السلطان عبد العزيز خان رحمه الله يرمي الى تعزيز جيشه وتقويته بحيث يكون عند مسيس الحاجة مهيأ للذبّ عن حياض الوطن والمحافظة عليه بسهولة. فعممّ الخدمة العسكرية في أنحاء السلطنة كلها، ونسق قوانينها وجهّز الجيش النظامي العامل بالبنادق ذات الابرة من عمل (شنايدر) البروسي التي تستعمل فيها القراطيس الجاهزة والتي كانت الباعث الأقوى لغلبة البروسيانيين على النمساويين في واقعة (سادوفا) عام ١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٦م. ثم أتم ترتيب الجند الاحتياطي (الرديف)، وأنشأ مستودعاته، وملأها بالملابس والأسلحة والذخائر وسائر المعدات الحربية. ثم حصر بنادق (شنايدر) بالجند (الرديف) وحده، وجهز الجيش النظامي العامل بالبنادق التي احدثت بعدها في اميركا باسم (مارتيني هنري).

وعطف على الأسطول العثماني واعتنى به اعتناء عظيماً، واستجلب له المعدات والمدمرات، وأوصله الى الدرجة الثانية بين أساطيل الدول المعظمة في ذلك الحين، وأدخل نجليه يوسف عز الدين أفندي ومحمود جلال الدين أفندي في الخدمة العسكرية البرية والبحرية مبتدئين من صفة جندي بسيط يحمل الحساء الى رفاقه الجنود تأييداً لشرف الجندية، وترغيباً بها. في خلال ذلك ثار الجبل الأسود في أقصى بلاد الروم، وتبعه جبل دروز حوران فساقت الدولة عليهما حملاتها وأخضعتهما بقوتها واعادتهما الى حظيرة الطاعة.

لمّا دارت رحى الحرب بين دولتي فرنسا وبروسيا عام ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧٠م وانتهت بدخول الجيش الألماني ظافراً الى باريز عاصمة الافرنسيين تمخضت الدولة الروسية كعادتها ورامت محاولة القيام بأعمال سفرية فاجابها السلطان عبد العزيز بأن جمع لأول مرة في يوم واحد مائة وخمسين فوجاً (طابور) من جنود الرديف في البلاد العثمانية بالملابس الجاهزة والعدد الكاملة، وأبقاهم شهراً واحداً تحت السلاح، تدربوا في خلاله على الأساليب الحربية وذلك إضافة الى الجنود العاملة (النظامية) من جميع الصفوف المقيمة دوماً على قدم الحرب. وكان رديف الشام مخيماً عامئذ في سهل القابون، وبعد انقضاء الشهر اذن له بالانصراف وأصبح هذا الحشد عادة مألوفة تتكرر في كل عام.

متنوعة

في أيام السلطان عبد العزيز افتتح طريق العجلات بين بيروت ودمشق عام ١٢٧٧، وانشئت الثكنتان العثمانية والعزيزية في محلتي الباب الشرقي والميدان بدمشق واقيمت فيهما الجنود الكافية لحراسة الأمن، ومدّ اول سلك برقيّ (تلغراف) بين العاصمة ودمشق، وكان مركزه يومذاك بالشام في بيت البلطجية الذي هو المدرسة الشاذلية اليوم.

ثم نظمت معاملات البريد الذي جعل مركزه في دار بني الخياط بالقرب من حمام الباشا، وتأسست المدارس الرشدية الملكية في سورية ومنها مدرستا الجقمقية والملك الظاهر بدمشق، اللتان تخرج فيهما أغلب رجال هذه المدينة.

وفي سنة ١٢٨٥هـ جرى اصلاح وتنظيم شورى الدولة، وديوان الأحكام العدلية في العاصمة، وجعلا منقسمين الى دوائر متعددة تأميناً لانتظام المعاملات وتسريعها.

وفي تلك السنة افتتحت المدرسة السلطانية في سراي الغلطة بالعاصمة، والمدرسة العثمانية في باريز ليتعلم من رام من العثمانيين اللغة الافرنسية بصفتها لغة السياسة العامة.

وفي سنة ١٢٩٠ انشئت قلعة البرك (براق) في فم وادي اللواء مدخل جبل الدروز بمناظرة جواد بك (بكباشي) قائد أركان الحرب الذي حاز اخيراً منصب الصدارة العظمى ثم عين مشيراً على الجيش الخامس بدمشق[٥٠].

وأقيم في العاصمة (الآستانة) معرض عام عرضت فيه نماذج المحاصيل والمصنوعات من البلاد العثمانية في حينها.

ثم أحدث أول ترام في العاصمة، وانشىء النفق الذي يصل حيّ (غلطه) بـ (بيرا) المعروف بـ (بك اوغلي).

الولايات

في سنة ١٢٨١ جرى ترتيب وتنظيم الولايات العثمانية على الوجه الذي دام الى آخر أيام الدولة. وقبلاً كانت البلاد منقسمة الى إيالات صغيرة وكبيرة غير متناسقة، فجعلت مدينة دمشق حاضرة للولاية السورية التي تألفت إذ ذاك من ألوية الشام وبيروت وعكا والبلقاء (نابلس) والقدس وطرابلس وحماه وحوران. وكانت اللاذقية قضاءً مرتبطاً بمتصرفية طرابلس، وحمص ومعرة النعمان قضائين تابعين للواء حماه، وقلعة العريش مربوطة بلواء القدس وشرق الأردن مضافاً الى لوائي حوران والبلقاء.

وبحسب قانون الولايات جعل لكل ولاية مجلسان الأول: مجلس الادارة في حاضرة الولاية، وفي كل من مراكز الألوية والأقضية وهو يجتمع في أيام معينة من الأسبوع وينظر في إصلاح الطرق وتلزيم الأعشار وإدارة المدارس وغير ذلك من الأمور الداخلية البحتة، والثاني: المجلس العمومي الذي يجتمع مرة واحدة في السنة بحاضرة الولاية وحدها ويبحث في ميزانية الولاية وتعليماتها وتشكيلاتها الخاصة ويقرر ما ينبغي إجراؤه في خلال السنة من الاصلاحات وغيرها.

ثم أضيف الى هذين المجلسين المجلس البلدي المكلف بتنظيم كل بلدة على حدة، وهذه المجالس كانت أول درجة من درجات الحكم الذاتي يتدرب فيها الأهلون على أصول الادارة ريثما يبلغون من النضوج السياسي ما يؤهلهم لدرجة أعلى من ذلك.

وقد مضى على هذه التأسيسات والتشكيلات زهاء سبعين عاماً توالت في غضونها على سورية ثلاث أو أربع حكومات مختلفة النزعات وانتخابات المجالس ما زالت تجري في أوقاتها ولكنه لم يقدر لها الضبط والحرية حتى اضطرت الحكومة مؤخراً الى تعيين اعضاء البلدية ورؤسائها من قبلها تعيينا لا انتخابيا.

وأول من تولى رئاسة البلدية في دمشق هو كامل بك القبرصي الذي حاز أخيراً منصب الصدارة العظمى ثم توفي في بلدة قبرص.

راشد باشا

في سنة ١٢٨٣ تولى محمد راشد باشا ولاية سورية، وكان من أقطاب الماسونية، فانتشر المذهب الماسوني في أيامه أيّما انتشار، وأصبحت الأكثرية من موظفي الحكومة السورية وقتئذ من المنتمين الى العشيرة الماسونية دون غيرها.

وفي أيام هذا الوالي ثارت جبال النصيرية، وتبعتها قبيلة الخريشا من بني صخر في البلقاء، وأرسلت عليهما الحملات الكافية فاخضعتهما واعيدتا الى حظيرة الطاعة.
ومن سورية عيّن راشد باشا وزيراً للخارجية العثمانية، واشترك في خلع السلطان عبد العزيز، فاغتاله ضابط شركسي إسمه حسن مع حسين عوني باشا وزير الحربية (سر عسكر) وأحمد باشا قيصرلي وزير البحرية حيث كانت هيأة الوزارة مجتمعة في دار مدحت باشا رئيس شورى الدولة إذ ذاك.

الخديوي اسماعيل باشا

كان اسماعيل باشا والي مصر يسعى جهده للمحافظة على سياسة التفاهم مع الدولة العثمانية التابع لها تسهيلاً لمصالح الطرفين، فدعا عام ١٢٨٤ السلطان عبد العزيز خان لزيارة رعاياه في مصر، وقبل السلطان دعوته وسار الى الاسكندرية، حيث احتفل به احتفالاً لم تشهد البلاد أعظم منه، ثم قصد القاهرة فسمي أحد شوارعها الكبرى باسمه، وأنعم على اسماعيل باشا بلقب خديوي[٥١] وجعله معادلاً لمقام الصدارة العظمى التي هي رياسة الحكومة في الدولة، ومنحه حق انتقال الخديوية من بعده الى الأكبر فالأكبر من أولاده، بعد ان كانت تمنح للأرشد من ذرية جده محمد علي باشا عامة، وقدم الخديوي الى السلطان الباخرتين اللتين كان اشتراهما من قبل ودعاهما (سلطانية) و(عبد العزيز).
كانت توجد في البلاد العثمانية وخصوصاً المصرية منها عادة قديمة تُدعى السُخرة، وهي تتلخص بانه كلما رات الحكومة لزوماً لمشروع عام كافتتاح الطرق وتعبيدها وما ماثل ذلك من الأعمال العمومية، تجمع أبناء البلاد القادرين على العمل وتستخدمهم بدون أجرة الى ان تنتهي تلك الأعمال، وهذه العادة لا تأتلف مع العدالة المطلوبة من الحكومات تجاه رعاياها، اذ لا يمكن معها التساوي بين الناس في العمل فاخذ الشعب يتأفف ويتذمر منها، واغتنم المصريون الفرصة وشكوا الى السلطان أمرهم، فصدرت ارادته في الحال بإلغاء السخرة وأبطالها بتاتاً، من مصر وسائر الولايات العثمانية أيضاً واستعاضت الحكومة عن ذلك بتأسيس إدارة الطرق العامة التي فرضت على كل رجل ما بين العشرين والستين من العمر ان يعمل بنفسه أربعة أيام من كل سنة فقط في انشاء الطرق العامة في بلدته وتعبيدها، أو يؤدي بدلا مقطوعاً عن هذه الأيام الاربعة الى خزينة الدولة، حيث تتجمع فيها وتصرف على أجور العَملة الذين تستخدمهم بالأجرة من غير المكلفين، وهكذا تحولت السخرة الى شكل منظم، واصبحت أخفّ وطأة على الناس وأكثر فائدة للحكومة.
وفي تلك الآونة اتقدت نيران الثورة في ولاية كريت بتحريض دولة اليونان ومعونتها، فساقت الدولة حملاتها العسكرية لاخضاع الثوار وأمدّها الخديوي اسماعيل باشا بفرقة عسكرية مؤلفة من ستة عشر فوجاً (طابور أو أورطة على اصطلاح المصريين) من الجنود المصرية، فكافأ السلطان بأن أنعم عليه بمرفأي «سواكن» و«مصوع» الواقعين الى غرب البحر الأحمر، واضافهما الى مصر، ثم اشفعهما بمرفأ زيلع وجميع الشواطىء الغربية من ذلك البحر الذي كان بمثابة بحيرة عثمانية لا يشارك الدولة في حكمها مشارك.
وبعد مدة أخذ اسماعيل باشا يتجاوز أحكام الامتيازات المصرحة بالالتزامات السلطانية الممنوحة له ولجدّه، وجعل يعقد القروض ويفرض الضرائب الفادحة ويبذر الأموال بدون حساب فأصدر له عالي باشا الصدر الأعظم امراً بالتزام أحكام الامتيازات والكف عن فرض الضرائب وعقد القروض بدون أسباب مجيزة. واكرهه على التخلي عن البواخر الثلاث المسماة ابراهيمية، ومظفر، واميرية التي اشتراها خلافاً لشروط الولاية.

الرحلة السلطانية

في سنة ١٢٨٤هـ ـ ١٨٦٧م أقامت الحكومة الافرنسية معرضاً عاماً في باريز، ودعا امبراطورها نابليون الثالث ملوك اوروبا وقياصرتها لزيارة هذا العرض فلبوا دعوته، وكان السلطان عبد العزيز خان أحد المدعوين،

وســـار بطريق البحر الى باريز حيث احتفل به احتفالاً رائعاً. وقد استعرض الامبراطور جيشه أمام ضيوفه القيـاصرة والملوك، واستخرج معهم تصويراً كان هو في وسطه، وعلى يمينه الامبراطور اسكندر الثالث قيصر روسيا، ثم السلطان عبد العزيز ملك الدولة العثمانية، ثم الملك ليوبولد ملك البلجيك، وعلى يساره الامبراطور فرانسوا جوزيف عاهل النمسا والمجر، فالملك غليوم الأول ملك بروسيا فاوسكار ملك السويد والنرويج[٥٢] ثم ذهب السلطان من فرنسا الى انكلترا تلبية لدعوة الملكة فيكتوريا ملكة الانكليز فاحتفل به من قبل الحكومة الانكليزية وشعبها احتفالا منقطع النظير، وعاد من انكلترا الى فرنسا ثم توباز عاصمة النمساويين حيث زار الامبراطور (فرنسوا جوزيف) عاهل النمسا والمجر الذي ما لبث ان أعاد له الزيارة بنفسه في الآستانة عام ١٢٨٧ وقدم الى الاستانة ايضاً لزيارة السلطان البرنس ادوار ولي عهد انكلترا بالنيابة عن أمه، والامبراطورة (اوجيني) قرينة الامبراطور نابليون الثالث، ثم البرنس (اومبرتو) ولي عهد ايطاليا ثم ولي عهد (هانورا)، والبرنس فردريك ولي عهد بروسيا ثم ناصر الدين شاه ملك ايران.

تحرير الأملاك

كانت الأراضي والأملاك في سورية كما هي في غيرها من الولايات غير مسجلة في دوائر الحكومة، ومعاملات البيع والشراء تجري في المحاكم الشرعية فقط، وفي بعض الأحيان يتفق أصحاب الأرض والأملاك ويتبايعون فيما بينهم بصكوك عادية لا علم حتى للمحاكم الشرعية بأمرها، مما أدى الى الفوضى في المعاملات والمناقلات وتعذّر معه ثبوت الملكية عند الايجاب بدون معاناة مصاعب جمة قد تؤدي الى ضياع الحقوق.

وفي عام ١٢٨٤هـ شرعت الحكومة بتحرير الأراضي والأملاك وتسجيلها وتثبتها في دوائر التمليك (طابو) على اسماء اصحابها المتصرفين بها والواضعين الأيدي عليها بدون منازع حسب أحكام قانون الاراضي الذي أعلن في آخر أيام السلطان عبد المجيد، ثم تعدّل وتوسع في ايام السلطان عبد العزيز.

ولم يتقدم أحد يدّعي التصرف بها فأصبحت ملكاً لبيت المال ووضعت الحكومة يدها عليها وطرحتها في المزاد بين النـاس لبيعهـا لمن يرغب كي يعمرها ولا يدعها في حالة الخراب، فلم يتقدم للمزايدة عليها سوى بعض الأشخاص من ذوي الثروة الواسعة الذين رسا عليهم مزادها فاشتروها بأثمان بخسة ربما تقل عن مداخيل سنة واحدة من سنيها، وهي مرج ابن عامر والاسطبل والبطيخه وغيرها.

ترعة السويس

منح سعيد باشا والي مصر المهندس الافرنسي دليسبس امتيازاً بفتح ترعة بين البحر المتوسط والبحر الأحمر لتسهيل المواصلات والمناقلات بين الشرق والغرب وشرع بحفرها في الحال من المحل الذي دعوه (بورسعيد) الى السويس وأتّمها في عهد الخدويوي اسماعيل باشا عام ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م، وقد احتفل بافتتاحها احتفالا عظيماً حضره ملوك أوروبا وقياصرتها. ومدة امتياز هذه الترعة مائة عام تبتدىء من يوم الافتتاح عام ١٨٦٩م وتنتهي عام ١٩٦٨م[٥٣].

عسير واليمن

في سنة ١٢٨٧ قام محمود بن عائض شيخ بلاد عسير وثار على الحكومة العثمانية وتعرض على لواء الحديدية فجـردت الدولة عليه حملة مع الفريق مختار باشا الذي نال على أثرها رتبة المشيرية. وعقيب حرب ٩٣ لقب بالغازي وقضت تلك الحملة على ابن عائض واستردت البلاد التي احتلها وداومت السير الى أن بلغت مدينتي صنعاء وتعز وما اليها من البلاد، وجعلت اليمن ولاية عثمانية مرتبة كسائر الولايات السلطانية.

ضياء باشا

في سنة ١٢٩٣ وليّ سورية عبد الحميد ضياء الدين باشا (وهو الشاعر التركي الذائع الصيت) فاظهر خلال ولايتـه قبر صلاح الدين الأيوبي، وكانت البنايات العامة التي أحدثت حوله حجبته عن الانظار، واقامه هو وضريح الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي الأندلسي إمام الصوفية من المرمر المحفور الباقي الى يومنا هذا.

الهرسك

في آخر ايام السلطان عبد العزيز قامت الهرسك في أقصى بلاد الروم الغربية بثورة على الحكومة، وأرسلت الحملات العسكرية لاخضاعها، وانقضت أيام السلطان عبد العزيز ولم ينته أمرها. وهنا يقول صاحب الخطط إن رومانيا نالت استقلالها وتخلت الدولة عن بلاد الصرب في أيام السلطان عبد العزيز وهذا أيضاً خطأ وعدم تثبت في الرواية لأن ذلك لم يكن الا عقيب حرب الروس سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م في أوائل ايام السلطان عبد الحميد خان الثاني كما نذكره فيما يأتي.

السلطان مراد

كان الصدر الأعظم أمين عالي باشا قابضاً على زمام الدولة يديرها حسبما تقتضيه الحكمة والسياسة، ولا يدع إمكاناً لمداخلة أحد غير وظيفته في أمورها الهامة قط. ولما توفي عالي باشا عهد السلطان عبد العزيز بمنصب الصدارة العظمى الى محمود نديم باشا الذي رام ان يسير في أثر سلفه، ولكنه لم يكن كفؤا لهذا الأمر الهام، فعمد الى استجلاب نظر السلطان ومحبته بانفاذ كل ما يميل اليه ويأمر به مهما كانت مادته وقيمته، وأخذ يبذل اموال الدولة جزافاً، مما ادى الى الاعتراض العام، فرأى حسين عوني باشا وزير الحربية (سر عسكر) واكبر الوزراء سناً ونفوذاً في السلطنة إيقاف الصدر الأعظم عند حد معقول، فوسوس اخصامه الى السلطان ووشوا له بأنه يروم السيطرة عليه وعلى أوامره، وأثاروا غضبه واستصدروا ارادته السنية بالغاء رتبة حسين عوني باشا ونفيه الى بلدته (اسبارته) في ولاية قونية، فلبث فيها مدة وجيزة ثم عفا عنه السلطان بتوسط رؤساء الجيش، وأعاده الى وزارة الحربية، فبقيت في نفسه حزازات توصل بها الى إقناع زملائه الوزراء بخلع السلطان لاختلال ظاهر في شعوره ولتبذيره، واتفقوا على ذلك وبايعوا إبن أخيه السلطان محمد مراد الخامس واقاموا السلطان المخلوع في قصر (طوب قابو) القديم وعقيب ذلك كتب السلطان عبد العزيز بخط يده الى السلطان مراد يهنؤه فيها بالسلطنة، ويرجوه إنقاذه من الضيق والاضطراب اللذين أوقع فيهما. وختم الرسالة بهذه الجملة: «أظن انه لا يبرح من بال جلالتكم ان الجنود الذين سلّحتهم بيدي هم الذين اوقعوني في هذه الحالة» ـ محذراً إياه من قراء السوء.

السلطان عبد الحميد

كان السلطان مراد فاقد العزم والارادة. قضى أيامه بين الأماء والخصيان، ولمّا فوجىء بخبر الجلوس على حين غرة، ارتاع منه وخاله مكيدة نصبت لاغتياله، وما عتم أن فاجأه خبر انتحار عمه السلطان عبد العزيز، ثم اغتيال الوزراء الذين اشتركوا في خلعه، فاضطرب من ذلك أيما اضطراب وخشي على نفسه، واعتراه الجنون المطبق، فاضطروا الى خلعه بعد ثلاثة أشهر من جلوسه وبايعوا أخاه السلطان عبد الحميد خان الثاني.

امتدت أيام هذا السلطان أربعاً وثلاثين سنة استكثرها الطبع البشرى على رجل فرد ينعم بنعم السلطنة طيلة هذه المدة، فأقاموا حوله ضجة تنوّعت الروايات فيها واختلفت الأقوال واهين شخصياً بصورة لم يشهدها

التـاريـخ منذ العباسيين، وأصبح مضغة في أفواه الناس. ومنشأ كل هذا طغمة الاتحاديين (الآتي ذكرهم) وأذنـابهم الذين رامـوا ستر معايبهم وتحويل الأنظار عن تلاعبهم في أمور الحكومة باسناد كل منقصة الى السلطان وتنفير القلوب منه حتى جعلوا أفراد الجند والعامة يسبونه في العلن بعد ان كانوا يسبحون بحمده ويقدسونه في كل آن.

وها نحن نسرد أخباره دون تطرف ولا محاباة، وللمنصف ان يحكم بما يراه، والله المهيمن على الجميع.

حرب ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م

لما جلس السلطان عبد الحميد على العرش كانت نيران الثورة متقدة في جميع بلاد الروم حيث اتصلت فتنة الهرسك بالجبل الأسود والصرب والبلغار، وكانت خزينة الحكومة فارغة خالية، والدائنون الأوروبيون لم يستوفوا فوائد ديونهم منذ ثلاث سنوات، ولذلك لم يأتمنوا على أموالهم بعقد قرض جديد، وبالرغم عن هذه المعضلات جرى تجهيز الحملات العسكرية وسوقها من جميع البلاد العثمانية، ومن جملتها سورية، فحملت على البلاد الثائرة واخضعتها، ورابط رديف الشام عامئذ في مدينة (متروبجه) على تخوم الصرب، واشتركت مصر في هذه الحملات كما كانت تشترك من قبل في حروب الدولة العثمانية بصفتها جزءاً من أجزائها، وأرسلت فرقة عسكرية مؤلفة من ستة عشر الف جندي مع الأمير حسن باشا ثاني انجال الخديوي اسماعيل باشا وتقدمت هذه الفرقة الى مدينة نيش على تخوم الصرب ولما أدركها الشتاء رحلت الى ثغر وارنه على البحر الأسود، ورابطت فيه، وأرسلت إمارة تونس ثلاثة آلاف بغل ومقداراً من المال إعانة للدولة العثمانية التي كانت تابعة لها.

وبعد معارك عنيفة اكتسح الجيش العثماني بقيادة السردار عبد الكريم باشا المعاقل الصربية التي كان يقـودهـا الميرالان الروسيان (غورقو وشرنايف) في بلدتي علكشتاج وزايميار وافتتحت أمامه طريق العاصمة الصربية (بلغراد) فاضطر أميرها البرنس ميلان الى الخضوع والاستسلام ولجأ الى الأعتاب السلطانية، فقبله السلطان وعفا عما مضى.

وكانت فرقة من الجيش العثماني بقيادة المشير سليمان باشا تطارد جنود الجبل الأسود الى ان الجأتهم الى الاعتصـام بعـاصمتهم (جيتينه) وحاصرتهم فيها وكادت تستولي عليها، وقضت فرقة ثالثة على ثورة البلغار وأخمدت جذوتها فقامت قيامة قيصرية الروس التي ترمي الى تحرير الصقالبة من نير العثمانيين وجعلهم تحت كنفها واقترحت عقد مؤتمر دولي لتقرير الاصلاحات التي يجب اتخاذها في بلاد الصقالبة (السلاف) العثمانيين تأمينا لراحتهم. وفعلاً عقد المؤتمر في وزارة البحرية بالآستانة، وفي حالة انعقاده أعلنت الدولة العثمانية قانونها الأساسي الذي يضمن الحرية والمساواة لا الى الصقالبة وحدهم بل الى جميع التبعة العثمانية على اختلاف مذاهبهم، وكان معتمد الروس في المؤتمر أعد لائحة فيما ترى دولته من اصلاح شؤون الصقالبة، فاهتم المؤتمر لتخفيف وطأة هذا الطلب وعدله ما أمكن التعديل ولكنه اشترط إجراء الاصلاحات تحت مراقبة لجنة دولية تحرسها فرقة عسكرية أجنبية، فجمعت الدولة جمعية عامة من ذوي الحل والعقد وأهل الراي والنظر لدرس هذه المطاليب والمقترحات وقبلت هذه الجمعية بالاصلاح مبدئيا ولكنها أجمعت على رفض سيطرة اللجنة الدولية وحراستها من قبل الجنود الأجنبية لأنها تمس باستقلال الدولة، ولا حياة لدولة بدون استقلال. على أثر ذلك انفضّ المؤتمر وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية وساقت جيوشها التي كانت على أهبة الزحف على حدود الدولة في الشرق والغرب، ونقضت الصرب عهدها واشتركت مع الروس في هذه الحرب ضد العثمانيين الذين غلبوها في الأمس، ثم اجتاز الروس نهر الطونة (الدانوب) وحاصروا المشير عثمان باشا الغازي في قلعة (بلونه) ولما لم يكفهم جيشهم لبلوغ الغاية استنجد الامبراطور نيقولا الثاني قيصر روسية بالأمير (شارل كارول) أمير مملكتي الأفلاق والبغدان اللتين دعيتا فيما بعد المجر ورومانيا، طالباً المعونة باسم الدين بجملته المشهورة: «استحلفك ان تنقذ النصرانية من الاسلام». وقد لبّى الأمير طلبه وأرسل الجيش الروماني الى بلونه، حيث اشترك مع الروس في تشديد الحصار عليها الى أن نفدت المؤن والذخائر، وتغلبت الكثرة على القلة، واضطرت

بلونه الى التسليم، وعندئذ اجتاز الأسطول الانكليزي مضيق الدردنيل (جناق قلعة)، وجاء الى مياه الآستانة بدعوى حماية رعاياها وتوصل الى عقد معاهدة مع الباب العالي تقضي بصد غارات الروس عن البلاد العثمانية وكانت النتيجة ان احتلت بريطانيا جزيرة قبرص العثمانية احتلالا دائما. وأضافتها الى ممتلكات التاج البريطاني.

ثم اضطرّ الباب العالي الى قبول المطاليب الروسية التي جعلت استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود والبلغار شرطاً أساسياً لوقف الحرب وعقد الصلح.

وعقيب ذلك عقد مؤتمر دولي في برلين عاصمة المانية عام ١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م حضره معتمدو الدولتين الروسية والعثمانية فجعل هذا المؤتمر بلاد البلغار شطرين فالشطر الواقع في حوضة البلقان منحه شبه استقلال، والشطر الثاني وهو الواقع في جنوب البلقان جعله ولاية ممتازة مرتبطة بالباب العالي مباشرة دعاها ولاية (الروم ايلي الشرقية) وأيد انفصال واستقلال رومانيا والصرب والجبل الاسود، وأجرى بعض التعديل في سائر مواد الصلح. وغبّ التوقيع على هذه الشروط انسحبت القوات الروسية الى وراء البلقان ثم عادت الى بلادها.

وما لبثت امارة البلغار ان عادت وأغارت بواسطة أميرها (اسكندر دوباتمبرغ) على ولاية الروم ايلي الشرقية واحتلتها وأضافتها الى إمارتها، ولم يكن في إمكان الدولة المنهوكة القوى إذ ذاك ان تعود الى الحرب فوراً، ولم تحصل على نتيجة من الاحتجاجات التي طيرتها الى الدول العظمى الموقعة على معاهدة برلين، فاضطرت الى قبول الأمر الواقع وتوجيه منصب الولاية المذكورة الى البرنس (دوباتمبرغ) على ان يؤدي جزيتها السنوية الى الخزينة السلطانية مباشرة.

مجلس المبعوثان

كانت الشعوب كلها في الشرق والغرب تساس بالحكم المطلق، اي أن الأمير أو الملك كان يستبدّ بأمره ونهيه على الرعيّة، وفي المهمات فقط يستعين برأي أهل الحل والعقد من رؤساء الأمة، وقد امتاز سلاطين آل عثمان بأنهم كانوا لا يقطعون في أمر ذي بال في أيام السلم أو الحرب الا بعد الحصول على فتوى من قبل المفتي العام الذي دعوه شيخ الاسلام. ويروى عن السلطان أبي زيد الثاني العثماني المنعوت بالولي انه كان يحتفظ في غرفته الخاصة بصندوقين مملوئين أوراقاً لا يعلم مضمونها غيره. وقبل وفاته أوصى إبنه السلطان سليم بأنه عندما يتوفى يدفن هذان الصندوقان معه في قبره، ولما حاول ابنه تنفيذ هذه الوصية اعترضه شيخ الاسلام المشهور علي أفندي، وقال إذا لم نعلم ما في هذه الصناديق من أشياء لا يجوز أن ندفنها مع رجل ذاهب الى لقاء ربه ونخشى ان يكون فيها ما هو محرّم شرعاً، واضطرّوا لفتح الصناديق واذ بها تحوي الألوف من الفتاوي ومن فوقها ورقة بخط السلطان الراحل يقول فيها إن جميع الأحكام التي أصدرتها في أيامي هي مستندة الى هذه الفتاوي فاذا سألني ربي عنها اقدمها له وانجو من السؤال. فتبسم شيخ الاسلام وقال ـ أتهدوني يا مولاي فوالله ما افتيتك الا عن رسول الله عن جبريل عن الله ـ فافعل ما أنت فاعل.

ومن الحقائق التاريخية ان السلطان نور الدين محمود بن زنكي أنشأ دار العدل في الشام، وكان يجلس فيها هو والقاضي لانصاف المظلوم من الظالم ولو كان ابنه أو أكبر قواده، وان السلطان صلاح الدين الأيوبي كان لا ينفك عن مرافقة العلماء ومشاورتهم حتى في إبان حروبه، وان الملك الظاهر بيبرس كان يتفقد البلاد وأهلها بنفسه على حين غرة. وان السلطان سليم العثماني كان يلازمه قاضيه ووزيره في جميع أسفاره، وأن ابنه السلطان سليمان القانوني كان يجلس الى منتصف الليالي ويتذاكر ويتشاور مع وزرائه وقضاته في شؤون الدولة الهامة وهذا المكان المدعو (قبه آلتي) أي تحت القبة في قصر (طوب قابو) السلطاني بالقسطنطينية كان مجمع السلاطين مع الوزراء والعلماء للمذاكرة والمشاورة وإبرام الأحكام المشروعة على الدوام.

على ان سنّة الكون قضت من حين الى آخر بالتطور في الأخلاق والعادات وفي سائر الأحوال والمعاملات مما

أدى الى حصول بعض الشذوذ عن هذا الصراط السوي، ومنها التطور الاجتماعي الذي حصل على أثر الانتباه العالمي في أوروبا واميركا حيث قامت حكومات استشارية (ديمقراطية) تأخذ برأي الشعوب بواسطة نواب ينتخبون من قبلها مما هو مطابق في الأصل لمبادىء الشرع الاسلامي الذي يأمر بالمشاورة ويجيز تبدل الاحكام بتبدل الأزمان، فرأى السلطان عبد المجيد كتدبير ابتدائي لتدريب الأمة وتمرينها على أصول الحكم الذاتي ان يؤلف من الأهلين على اختلاف مذاهبهم مجالس استشارية في العاصمة والولايات تشترك في تنظيم القوانين الاجتماعية وتقرير الأحكام الادارية، وتبعه السلطان عبد العزيز فأسس دوائر البلديات ومجالس الادارة. ولما جلس السلطان عبد الحميد قبل أصول المشروطية التي تجعل أمور الدولة تحت مراقبة مجلس عام يؤلف من فرعين: الأعيان (الشيوخ) والمبعوثان (نواب) وتكون هيأة الحكومة واسطة لتنفيذ ما يقرره هذا المجلس ويقترن بتصديق جلالة السلطان صاحب الكلمة العليا في أمور السلطنة كلها، وأوعز الى وزيريه مدحت باشا الصدر الأعظم وسعيد باشا رئيس الكتاب باعداد قانون أساسي ليكون دستوراً تتمشى عليه الدولة في أمورها الادارية فأعد كل من الوزيرين دستوراً استقاه من الدساتير الأوروبية وعرضه على الأعتاب السلطانية فقبل السلطان الدستور الذي أعده سعيد باشا[٥٤] وأمر بوضعه موضع العمل والتنفيذ.

وبحكم هذا القانون وحكم الملحق الذي أضيف اليه جرت انتخابات النواب لأول مرة بواسطة مجالس الادارة في الولايات المنتخب أعضاؤها انتخاباً فانتقى عن سورية توفيق أفندي القدسي (دمشق) خالد افندي الأتاسي (حمص) حسين أفندي بيهم (بيروت) يوسف ضيا افندي الخالدي (القدس) نقولا افندي النقاش (طرابلس) وخليل افندي غانم (بيروت) وتوارد النواب على العاصمة فاجتمع المجلسان للمرة الأولى عام ١٢٩٤، ورأس مجلس النواب أحمد وفيق أفندي نائب الأستانة وصادق على ميزانية الدولة، ثم عاد واجتمع في السنة التالية برئاسة حسن فهمي أفندي نائب الآستانة ايضاً واقر قانون البلديات بعد تحويره وتعديله وصادق على الميزانية أيضاً ثم رام المناقشة في أمور الحرب والعدوّ على الأبواب فرأى السلطان في ذلك خطراً على حياة الدولة واضطر الى تعطيل المجلس وتأخيره الى أجل غير مسمى.

تونس ومصر

داب الانكليز على امتلاك طرق البحار وتحقيق واتخاذ قواعد بحرية في الشواطىء المهمة منها بحيث تلجأ اليها أساطيلها عند اللزوم والحاجة. ولمّا استولوا على بلاد الهند إزدادت فيهم هذه الرغبة، وراحوا يسعون جهدهم لامتلاك جميع الطرق التي تؤدي إليها، وكان مضيق جبل طارق، ورأس الرجاء الصالح، وبعض جزر بحر المحيط قد وقعت في أيديهم من قبل، فأضافوا اليها جزيرة مالطة، وباب المندب، وبوغاز هرمز، ثم احتلوا جزيرة قبرص ولم يبق عليهم لتأمين طريق الهند سوى مصر ولا سيما بعد افتتاح ترعة السويس فجعلوها مطمح انظارهم.

وكانت السياسة الأوروبية تقضي بحفظ التوازن بين الدول العظمى، فهي تعتبر الحالة الراهنة اصلاً لكل دولة واذا نالت إحداها غنماً في جهة من الجهات تقوم الدول الاخرى وتستحصل ما يعادل ذلك الغنم بنسبتها من جهة ثانية كيلا تختل الموازنة وتتفوق الواحدة على الأخرى وهي حكمة ظالمة منشؤها تأمين المنافع دون النظر الى ما يعانيه الغير من المصائب بسبب عجزه عن الذبّ عن حياض وطنه، والويل للضعيف.

لما حصلت روسيا على مراميها في جهة البلقان راحت الدول الأخرى تعمل على توسيع دوائر نفوذها وأملاكها في جهة ثانية، فاكتسحت النمسا (اوستريا) ولايتي البوسنة والهرسك واحتلت انكلترا جزيرة قبرص، وعدت ايطاليا بعدم معارضتها في احتلال طرابلس الغرب، ثم اتفقت مع فرنسا على تقسيم النفوذ فيما بينهما في القطرين المصري والمغربي (تونس ومراكش) بحيث تعمل كل منهما في قطر دون مداخلة الاخرى.

وبحسب هذا الاتفاق قامت أولا دولة فرنسا سنة ١٢٩٧هـ ـ ١٨٨١م وتجاوزت تخوم تونس بحجة تعرض قبيلة خيبر التونسية على التخوم الجزائرية، فاحتج الباب العالي على هذا العمل لأن تونس جزء من أجزاء

السلطنة العثمانية منذ ان افتتحها القائد خير الدين باشا المعروف بذي اللحية الحمراء (بارباروس) وامتلكها من السلطان محمد بن حفص عام ٩٨٨، وكان السلطان عبد العزيز العثماني قد أعلن سنة ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧١م ان تونس هي ولاية عثمانية مرتبطة بالباب العالي مباشرة ولم يلق اعتراضاً من أية دولة أخرى.

وتجاه هذا الاحتجاج ادّعت فرنسا ان تونس هي إمارة مستقلة لها جندها وسكّتها وأوسمتها الخاصة ولا تربطها بالباب العالي رابطة كجزية وغيرها، ومن جهة ثابرت الدولة على إقامة الحجج لتأمين حقوقها، وأهمها الخطبة التي تقام في جميع أنحاء القطر التونسي باسم السلاطين العثمانية، ورتبة الوزارة التي يمنحها السلطان الى الباي فيتقبلها باحترام ويحمل لقب باشا المختص بها ويرتدي كسوتها، ثم معاونة البايات للدولة العثمانية في حروبها، وغير ذلك من البراهين الدامغة، ومن جهة ثانية أرسلت الأميرالاي بدري بك الدمشقي على الباخرة عز الدين الى فرخة تونس وزوّدته بتعليمات من جملتها حث الباي والأهلين على المقاومة، وأن يكونوا يداً واحدة في الذبّ عن حياض الوطن، وقد اتصل خبر سفر الباخرة عز الدين الى تونس بالحكومة الافرنسية بواسطة جواسيسها فانذرت الباب العالي انها في حالة حرب في المياه التونسية فكل باخرة أجنبية تاتيها يغرقها أسطولها في الحال، وفي خلال ذلك كان الجيش الافرنسي قد احتل القطر التونسي[٥٥] وأكره الباي محمد الصادق باشا على التوقيع على معاهدة القصر السيد التي خولت فرنسا حق الحماية على الامارة كلها، فاضطر الباب العالي لتوقيف الباخرة عز الدين عن الدوام في سفرها واسترجعها من كريت الى الآستانة.

وفي العام الثاني أي في سنة ١٢٩٨هـ ـ ١٨٨١م جاءت انكلترا واستولت على القطر المصري بدعوى حماية الخديوي توفيق باشا من الثورة التي نشبت عليه في مصر أيام وزارة محمود سامي باشا البارودي بقيادة أمير اللواء أحمد عرابي باشا المصري[٥٦].

أعدت الحكومة العثمانية صاحبة البلاد جيشاً لاخماد جذوة الثورة المصرية وارسلت هذا الجيش مع المشير درويش باشا على سفن متعددة تقصد الاسكندرية فلما بلغ الجيش بطريقه جزيرة كريد اضطر للتوقف فيها لأن دولة انكلترا اخبرت الباب العالي بانها متفقه مع فرنسة على حفظ حقوق السلطان في مصر، وأنهما لا تسمحان بتزييد تلك الحقوق بصورة المداخلة في امورها الداخلية، وهما تعارضان هذا العمل بكل قواهما.

ثم رام الباب العالي ان يرسل وفداً للتحقيق عن اسباب الفتنة ونتائجها فجاء سفير انكلترا الى الباب العالي وأنذر سعيد باشا الصدر الأعظم بأن إرسال الوفد أيضا هو مداخلة في أمور البلاد وأن انكلترا تعارض في إرساله وتخشى من أن الاصرار عليه يعرض حقوق السلطان الى الضياع.

ثم أعلن اللورد (غرانفيل) وزير خارجية انكلترا ان حكومته تنوي حفظ الحالة الراهنة في مصر وهي تضطر للعدول عن هذه النية فيما إذا سادت فيها الفوضى.

وفي تلك الغضون قام الأميرال سيمور قائد الأسطول الانكليزي في البحر المتوسط وضرب مدينة الاسكندرية بمدافعه، ثم أخرج في خلس الليل الحملة التي يقودها الجنرال (ويسلي) الى مرفأ بور سعيد حيث زحفت منه على التل الكبير مقر جيش عرابي باشا ليلة ١٢ أيلول سنة ١٨٨٢ وداهمته بالحرب فكسرته واستولت على القطر المصري بأجمعه[٥٧] وأعلنت انها تحتله موقتاً ريثما يستتب الأمن فيه وتعود اليه السكينة.

أصبح الباب العالي تجاه هذا الأمر الواقع وبعد احتجاجات ومعارضات دامت حيناً من الزمن لم يسعه سوى اقامة مفوض سام في مصر تأميناً لسيادة السلطان عليها، ولبث هذا المفوض مقيما في مصر وجزيتها تؤدى عاماً فعاماً لحساب الدولة العثمانية الى أيام الحرب العالمية حيث قامت انكلترا وأعلنت خلع الخديوي عباس حلمي باشا عن حكم مصر لأنه كان محافظاً على ارتباطه بالسلطنة العثمانية ونادت بعمّه حسين كامل باشا نجل الخديوي اسماعيل باشا سلطاناً على مصر تحت حمايتها في ٧ كانون الأول سنة ١٩١٣.

الطرق الصوفيّة والأحزاب السياسية

في صدر الاسلام ظهر علم التصوّف على أساس الانقطاع الى عبادة المولى سبحانه، والاعراض عن زخارف الدنيا والزهد في الحال والحياة والملذات، وكان أئمة ذوو فضائل باهرة ينثرون دور الحكمة فيهتدي بنبراسها

العالم.

وفي القرن الثاني للهجرة نشأ الأقبال على الدنيا وزينتها واختلط الناس ببعضهم وراح بعض المتصوفين يتكلمون كلاما لا يجيزه الشرع كالتجلي والحلول والوحدة وغير ذلك من الألفاظ التي أوجبت صدور الحكم الشرعي بقتل قائلها الحلاج البغدادي وتنفيذ الحكم عليه في الحال. ومن بعد أولئك الأئمة العظام استعان أولادهم واخلافهم باسم الجدود والسلف الصالح على حفظ مذاكرهم التي تعددت فاصبحت هناك طرق شتى لكل منها شيخها ورباطها ومريدوها الذين يرون في صاحبهم القطب الرباني والغوث العهداني الواجب اتباعه دون سواه.

دام هذا الحال الى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله الذي لم يدع شاردة ولا واردة من شوارد الأمة ومواردها الا استعملها في سبيل كيد الأعداء وحدهم فسن للطرق الصوفية قانوناً يفرض على أهل كل طريقة ان يجتمعوا في يوم معين من أيام الاسبوع الذي يأتي قبل عيد الفصح عند المسيحيين في كل عام ويقيمون اورادهم وأذكارهم في زاوية من زوايا الأرض المقدسة مؤلفين مع من يلحق بهم من عامة الناس كتلة اسلامية لا يستهان بها تجاه جموع النصارى والأغراب الذين يأتون القدس في ذلك الموسم لأجل الحج والزيارة ويكونون حراساً أمناء للبلاد دون ان تكون لهم صفة عسكرية ولا سياسية ولا يكلفون الحكومة شيئا.

وهكذا جعلت الطرق رغم تعددها لا تخلو من فائدة علمية وعملية الى ان دارت الأيام دورتها وساد الجهل وفسدت الاخلاق وتولى رئاسة الطرق من لم يكونوا أهلاً ولا كفؤا لها فراوا الطريقة عبارة عن ترديد بضع كلمات باسم الورد والذكر بما لم يكونوا يفهموا معناها ومغزاها ثم أخذ بعض المتشيخين يستعملون نفوذ الطريقة في سبيل حطام الدنيا حتى قيل فيهم:

«كان التصوف اتباعاً للسلف فأصبح ابتياعاً للعلف، وكان تعففاً فصار تكلفاً، وكان قناعة فصار مجاعة، وكان تجريداً فصار ثريداً، وأصبحت الطرق عبارة عن جياع يلتهمون القصاع بواسطة الطريق وحده».

ولما رام الأغيار اكتساح بلاد المسلمين واستعمارها رأوا في هذه الحالة أكبر حجة لبلوغ الارب، فاستخدموا البعض من منتسبي الطرق في سبيل غاياتهم ودعاياتهم وتمّ لهم ما أرادوا منذ أيام الخلافتين العباسية والفاطمية وظهرت آثاره حينما قام جنكيز خان طاغية المغول لاكتساح بلاد الشرق وعند دخول حفيده هولاكو الى بغداد ثم الى دمشق، وإبان استيلاء التيمور على الشام وغيرها من مواطن الاسلام، وفي غضون وصول نابليون الأول الى مصر، وأثناء استيلاء الفرنسيين على تونس، وتخطي الانكليز على مصر كما ذكرنا في خلال البحث عن تلك الوقائع في أبوابها من هذا الكتاب، وكان منشؤه الجهل والطمع بالمال الفاني ليس إلا.

هذا ما كان في الأعصر السالفة، أما في هذا العصر فالطرق الصوفية كادت تتلاشى ويُتناسى ذكرها وقامت مقامها الأحزاب والفرق السياسية التي تالفت من نوابغ الوقت ومفكريه. ونراها ـ والأسف ملء أفئدتنا ـ تدأب على ما كان يفعله جهلاء القوم فيما سبق من مناوئة بعضهم البعض بحيث تؤدي الى انشقاق الأمة على نفسها وتلجأ الى العدو الغريب للتغلب على المواطن أو الجار القريب لمجرد كونه يخالفها في مبدئها فتتوطد أقدام الأغراب في البلاد بواسطتها.

وهذا أعظم حزب من الأحزاب السياسية التي ظهرت في بلادنا وهو ما يدعونه «جمعية الاتحاد والترقي» فقد كان سبباً لاندثار الدولة العثمانية وضياع معظم بلادها، وهذه الأحزاب التي تألفت في سورية أيام الأمير فيصل كانت من دواعي تخطي الافرنسيين على البلاد وهي من أجلى البراهين على ما ذكرنا.

أما الفرق بين هذه الأحزاب العصرية وما سبقها من الطرق التي تحمل اسم الصوفية فهو أن جماعة الأوائل كان ضررهم وقتياً وخاصاً، واخف وطأة على البلاد التي حافظت على شرقيتها وعروبتها في أيامهم ولم تتسرب اليها العجمة والغروبة قط.

اما أحزاب هذا الزمن فان أضرارها أصبحت ثابتة الأركان تزعزع الشرق بكلكلها وتجعله مطية للغربيين الى أن يحكم الله، وهو أحكم الحاكمين.

الاستخبارات

يقول بعض المؤرخين، وخصوصاً صاحب الخطط، إن السلطان عبد الحميد كان يستخدم (الجواسيس)، ولو صدر هذا القـول من غير صاحب الخطط لعذرناه لجهله، أما هو فبصفته اليوم وزيراً من وزراء الدولة السورية[٥٨] نسأله هل توجد حكومة في العالم ليس لها دوائر استخبارات تتطلع بواسطتها على ما يجري في بلادها وبلاد الغير من الأحوال والحركات الماسة بحقوقها والمتعلقة بمصالحها.

هل يستـطيـع صاحب الخطط ان يوضح لنا ماهية الجواسيس الذين تستخدمهم الحكومة التي هو من اعضائها، وعن القناطير المقنطرة من أموال الأمة التي تستهلكها حكومته تحت أسم التخصيصات المستورة؟ وتستعملها لغايات هو أدرى بها من غيره؟ وكيف يفسر لنا وجود الضباط الافرنسيين في كل بقعة من البقاع السورية ويدلنا على وظائفهم ومبلغ تدخلهم في أمور الناس والحكومة مباشرة.

ثورات الدروز

من جملة الثورات التي اعترضت حكومة السلطان عبد الحميد قيام الدروز في حوران بثورات دامية تكررت منهم في أيامه نحو عشر مرات وفي كل مرة منها كانت الحكومة تجرد عليهم حملاتها وتخضعهم بقوتها ثم تعود الى طريق الرفق واللين وتجعل موظفيهم من الدروز أنفسهم. وبعدما تسترد جنودها يعودون ويجددون الثورة ويتعدون على جيرانهم الحورانيين ويقتلون النفوس البريئة ويحرقون البيوت الآمنة فتعود الحكومة الى ردعهم واخضاعهم ولا ترمي الى أكثر من ذلك حذراً من مداخلة أجنبية لا تحمد عقباها.

وقد اكتفت الحكومة العثمانية باحاطة الجبل بثكنات ومخافر عدة تحديداً لتخومه ومنعاً لتطاوله على الأرض الحورانية، فانشأت لذلك قلاع المزرعة وبصر الحريري، والسويداء، والمسبية، علاوة على قلعة البرك (براق) المنشأة من قبل واقامت في كل منها الحمايات الكافية لحراسة الأمن. (فهل تشبه الليلة البارحة؟).

دور العلوم

في أيام السلطان عبد الحميد تأسست دور العلوم العصرية في جميع البلاد العثمانية وكان منها في سورية ما نذكره فيما يلي:

١- المدارس الرشدية العسكرية ـ كان فرعها بدمشق في فناء جامع القديم وقد أمها الطلاب من كل فج وراح يتخرج منها في كل عام من مائة الى مائتي تلميذ يتعلمون مجاناً وبدون أجرة قط أنواع العلوم واللغات وقد ظهر فيهم النبوغ العربي فكان ابن العرب الذي لم يكن يعلم حرفاً واحداً من غير العربية ـ اذا دخل هذه المدرسة لا يكاد يتم دروسه الا وهو يتكلم التركية كابنائها وله حظ وافر من الافرنسية وسائر العلوم والفنون العصرية. وكان يوجد في هذه المدرسة اساتذة مختصون يدرسون اللغتين العربية والفارسية وآدابهما وأساليبهما باتقان، وكان التلاميذ الذين يتخرجون من هذه المدرسة أحراراً في اختيار المسلك الذين يروق لهم فمن شاء دخل المدرسة الحربية مختاراً غير مكره فلا يلبث أن يصير ضابطاً في الجيش ويفتح أمامه باب الترقي درجة درجة الى أن يبلغ رتبة المشيرية بدون تمييز أحد عن احد الا باللياقة والاستحقاق ومن شاء منهم احترف الحرفة أو اتخذ الصنعة أو المهنة التي يختارها فيسهل عليه استعمالها، ومعظم النوابغ الذين يفخر بهم الوطن اليوم هم ممن تخرجوا من هذه المدرسة ونالوا شهادتها. ولم تقتصر فائدة هذه المدرسة على فئة دون غيرها فانها كما كانت تعلم التركية لأولاد العرب كانت تستعرب أولاد الكرد والترك والارناؤوط والشراكسة وتمثلهم بالعروبة أيضا، أما من دخل هذه المدرسة وخرج منها دون ان يستطيع إتمام دروسه فهم قسمان قسم الأغبياء الذين لم يقووا على تلقي العلوم المقررة في منهاج المدرسة والتي لا

بد من الالمام بها لنوال الشهادة، والقسم الثاني ذوو الاخلاق الذميمة الذين تطردهم المدرسة كيلا يفسدوا أخلاق رفاقهم.

٢- المدرسة الاعدادية المُلكية - وهي التي دعاها البعض (مكتب عنبر) وقد دامت الى يومنا هذا حيث تعرف اليوم بمدرسة التجهيز.

٣- دار المعلمين - أنشئت لها بناية خاصة في فناء تكية السلطان سليمان بالمرجة وهي اليوم معهد الحقوق.

٤- المعهد الطبي - ومستشفى الغرباء - وهما باقيان الى يومنا هذا.

٥- مدرسة الصنائع - في باب الآغا وهي ما زالت تعلم الأطفال الصناعات المختلفة.

وهذا عدا مئات المدارس الابتدائية للبنين والبنات التي تأسست وافتتحت في مختلف أنحاء البلدة وضواحيها، ثم المدرسة الاعدادية العسكرية القديمة الباقية الى هذا اليوم.

أما في العاصمة فقد تأسست المدارس العالية التي تعود بالنفع على جميع العثمانيين بدون استثناء وقد أمّها الطلاب العرب من مختلف أنحاء الجزيرة وتخرجوا منها وانخرط من رام منهم في سلك الوظائف فنال المراكز العليا في الدولة، وهي مكتب المُلكية ومدرسة الحقوق ومكتب القضاء ومدرسة الهندسة ومدرسة البيطرة ثم مدرسة العشائر، أضف اليها ما كان موجوداً من قبل وهو المكتب السلطاني والمكتب الحربي والمكتب البحري ومدرسة المدفعية ومدرستا الطب العسكرية والملكية.

مدحت باشا

في سنة ١٢٩٥ هجرية تولى أحمد مدحت باشا المعزول من الصدارة العظمى ولاية سورية وأول إصلاح قام به هو تخطيط طريق معبدة جديدة بين دمشق وصيدا مارّة من خارج جبل لبنان خشية انقطاع طريق بيروت يوماً من الأيام. ثم الغى القوائم النقدية التي تسربت الى سورية ايام الحرب الروسية ولم تكن تتداول في غير بيوت الأموال ومنع التعامل بها في سورية منذ سنة ١٢٩٥ مالية واضطر الدولة لالغائها من الولايات ايضاً. ثم انشأ حديقة عامة باسم الأمة بين محطة العجلات (شارع سليمان شفيق باشا اليوم) وساحة السراي (التي دعيت في هذه الأيام ساحة المرجة) بدمشق وغرس فيها الأشجار والرياحين وأعدها لتنزه الأهلين، وهذه الحديقة انشئت عليها بعدئذ دائرة الحكومة الموجودة اليوم، ثم أسس الجمعية الخيرية برئاسة العلامة محمود افندي الحمزاوي، مفتي الشام وعميدها فانشأت الكثير من المدارس الابتدائية على الأصول العصرية. ثم جمعت الكتب النفيسة القديمة التي كانت مبعثرة في مكاتب مختلفة واخذت أيدي السرقة والفساد تعبث فيها وجعلها في مكتبة عامة واحدة في بناية الملك الظاهر يناظر عليها موظف ومكفل، ثم أنشأ مدحت باشا مدرسة الصنائع لتعليم صناعات الحياكة والحدادة والنجارة والخياطة وغيرها، فكتب المكتوبجي بهاء بك تاريخاً لها بالتركية ضمن البيت الاول منه ما تعريبه:

«ان مدحت باشا هو خديو سورية» فكانت هذه العبارة مدعاة لرفع حجر التاريخ عن باب المدرسة والحذر من مدحت باشا الذي كان في طليعة الوزراء الذين خلعوا السلطان عبد العزيز والسلطان مراد من قبل، ثم أظهر مدحت باشا الصرامة بالاقتصاص من الجناة مخالفاً بذلك مبدأ السلطان عبد الحميد الذي كان يرى الدماء التي أريقت خلال الحرب في بداية سلطنته كافية لأيامه كلها، ولذلك كان لا يجيز احكام الاعدام التي تصدر من المحاكم ويأمر بتبديلها الى السجن المؤبد. ثم نقل مدحت باشا من الشام الى ولاية ازمير بتحفظ سنة ١٢٩٦.

قوزان

في سنة ١٢٩٥ ثار أحمد باشا زعيم جبل قوزان في ولاية آدنه على الحكومة العثمانية وجمع شرذمة من قومه وحاول التعرض بهم على ما جاوره من البلاد، فحمل عليه عزت باشا مشير الجيش الخامس السلطاني بدمشق

واحاط به، ثم قبض عليه وعلى أسرته وأرسلهم الى العاصمة، فانتهت فتنتهم.

العدلية

كانت المحاكم الشرعية هي المرجع الوحيد للفصل في الأمور الحقوقية والجزائية كلها في جميع بلاد الشرق، ثم تطورت العادات تطوراً لم يعد في الامكان معه رؤية جميع الدعاوي ومحاكماتها في محكمة واحدة ليس لها سوى قاضٍ فرد. وكان الشرع الاسلامي يجيز تبدل الأحكام بتبدل الأزمان كما قدمنا فرأت الحكومة أيام السلطان عبد المجيد تفريق الأمور الجزائية والتجارية عن المواد الحقوقية لان البت فيها يكفيه رأي الحاكم وتقديره وحده، فأنشئت المحاكم او المجالس الجزائية والتجارية التي دامت حيناً من الزمن.

وفي أيام السلطان عبد المجيد أصبحت هذه المحاكم أيضاً لا تفي بالقصد لضيق أنظمتها، فارتؤي تعديلها وتأسيس دائرة عدلية عامة تؤلف من فروع الحقوق والجزاء والتجارة على ثلاث درجات بدائية واستئنافية وتمييزية، وجعل في كل محكمة نائب عام يتأثر الجرائم ويطلب عقاب مقترفيها باسم الحق العام ونظمت قوانينها بصورة عامة شاملة وشرع بتطبيقها منذ عام ١٢٩٧ في جميع البلاد العثمانية.

ولاية بيروت

كانت البلاد السورية داخلها وساحلها واحدة تربطها وتجمعها وحدة القومية واللغة والعادات وعلى مرور الايام ساق حب الاثرة البعض من أهل الساحل والأصح أنه نفذت فيهم الدعايات التي ترمي الى التفرقة فطلبوا الانفصال عن الأم سورية وجعلهم ولاية لوحدها، وبعد مخابرات ومناقشات دامت حينا من الزمن تغلب الرأي الانفصالي وجعلت بيروت ولاية لوحدها تؤلف من الوية بيروت وطرابلس واللاذقية وعكا ونابلس.

ثم تألف في سورية لواء جديد في الكرك تولى متصرفيته للمرة الأولى حسين حلمي أفندي الذي كان مكتوبجي الولاية السورية أيام الوالي ناشد باشا ثم تولى الصدارة العظمى عقيب اعلان الدستور.

البنك الزراعي

لم تكن توجد في البلاد مصارف (بنوك) زراعية وكان المزارعون يقترضون ما يلزمهم من الأموال عند مسيس الحاجة من مرابين أفرطوا في الظلم حتى أخذ بعضهم يستوفي من ضعاف الناس وخصوصاً في لواء حوران مائة بالمائة تقريباً فارتأت الحكومة تأسيس مصرف (بنك) زراعي تكون له فروع في جميع أنحاء السلطنة، ويؤلف رأس ماله من ضريبة طفيفة تضاف على العشر الشرعي، ويدوم استيفاؤها الى أن يبلغ رأس مال البنك العام في السلطنة كلها عشرة ملايين ليرة ذهبية بحيث يقرض من شاء من الزراع ما يلزمه من المال بفائدة طفيفة لا تتجاوز التسعة في المائة وينقذهم من جور المرابين وظلمهم وشرعت بهذا العمل منذ سنة ١٣٠٥، وفروع هذا البنك ما زالت دائبة على أعمالها ومثابرة على استيفاء تلك الضريبة الى يومنا هذا، على أن رأس مال البنك قد تجاوز الحد المعين له ليس في الدولة العثمانية فحسب بل في البلاد التي كانت من اجزائها فيما سبق ثم انسلخت عنها عقيب الحرب العالمية ولا يخطر ببال أحد ان يطلب رفع هذه الضريبة عن عاتق الأهلين لأنها أصبحت ضغثاً على إبالة، وخصوصاً في مثل هذه الأيام العصيبة.

الخطوط الحديدية

في أيام السلطان عبد الحميد خان مدت الخطوط الحديدية في أغلب أنحاء السلطنة وكان منها في البلاد

العربية ما نذكره فيما يلي:
١ـ خط بغداد الكبير.
٢ـ خط بيروت، الشام المزريب.
٣ـ خط الشام ـ حلب ـ بيرة جك.
٤ـ خط طرابلس ـ حمص.
٥ـ خط يافا القدس.
٦ـ الخط الحجازي العظيم.
٧ـ فرع درعا ـ حيفا.
٨ـ فرع درعا ـ بصرى الشام.

منح يوسف المطران البعلبكي امتيازاً بمدّ خط ترام بخاري من بيروت الى دمشق فالمزيريب ابتاعه من شركة افرنسية، وكان منه هذا الخط الضيق الباقي الى هذا اليوم، وليس في محطاته ولا سقيفة خشبية على الأقل يستظلها الركاب والمستقبلون والمودعون ويتقون بها أشعة الشمس وقطرات المطر والثلج في الصيف والشتاء. ولا غرابة في هذا، لأن الشرق في نظر الغربيين خلق للاستثمار ليس الا، واهله لاهون بأنفسهم ولا يدرون طريق الوصول الى حقوقهم.

ثم توسّع ذلك الامتياز واضيف اليه مدّ خط ثان من دمشق الى حلب فبيره جك على الفرات، وكان الأولى ان يبدأ به من دمشق حسب امتيازه وعنوانه مارا من دوما فالنبك فحمص على خط مستقيم، ولكن المنافع الخاصة تغلبت على المصالح العامة في هذه القضية وجعل هذا الخط يبتدىء من رياق في البقاع لكي يمر من بيروت الى بعلبك، بلدة صاحب الامتياز، ثم الى حمص دون ان يعرج على دمشق البتة فيعمر البلاد التي يمرّ بها، ويسقط دمشق ويضيع عليها فوائد كونها واسطة ومستودعاً لنقل وحفظ البضائع الشرقية والغربية كما كانت قبلا، يوفّر تجارتها وعمرانها، ويمنعها من التقدم في مراقي الفلاح[٥٩].

أما الخط الحجازي فانه بدىء بتأسيسه وتمديده من دمشق الى المدينة المنورة بمباشرة المشير كاظم باشا في دمشق ومناظرة اللجنة المركزية التي يرأسها أحمد عزت باشا العابد، الكاتب الثاني للحضرة السلطانية بالعاصمة، وقد جمعت نفقات هذا الخط على وجه الاعانة من جميع المسلمين في أقطار الأرض كلها بايعاز بسيط من مقام الخلافة العظمى. وانتهى تمديده في ثلاث سنوات واخذت قاطراته تروح وتغدو بين البلدين (الشام ـ والمدينة) في ثمان وأربعين ساعة فقط، وجعل له فرعاً من درعا الى حيفا كما أوضحنا في الفصل السابع من هذا الكتاب، وهناك أتينا على صورة وثيقة هذا الخط وملخص بنود المعاهدة المتعلقة به.

المباني العالية

ان معظم البنايات العالية التي تزدان بها دمشق وضواحيها اليوم هي من آثار السلطان عبد الحميد خان وهذه أسماؤها:

١ـ مستودع الذخائر الحربية (جبخانة) وثكنة محافظية على سفح الشرف الأعلى في شمال المرج الاخضر.
٢ـ الثكنة الحميدية واصطبلاتها ومستودعاتها ومستشفيات الخيل ودار البيطرة وما يتفرع عنها في جنوب المرج الأخضر.
٣ـ معهد الطب ومستشفى الغرباء في بستان الاعجام فوق الثكنة السليمية.
٤ـ محطة الحجاز مبدأ الخط الحجازي انشئت على الطراز العربي البديع في أول شارع جمال باشا.
٥ـ دار المعلمين وهو معهد الحقوق اليوم في فناء تكية السلطان سليمان.
٦ـ دائرة الأملاك السلطانية وهي دائرة الشرطة اليوم.
٧ـ دائرة الحكومة محل حديقة البلدية القديمة.

٨ـ دائرة البلدية الى شرق الحكومة.
٩ـ دائرة العدلية تجاه البلدية
١٠ـ دائرة البريد والبرق بجانب دائرة العدلية[١٠].
١١ـ مستودع المدافع غربي دائرة المشيرية.
١٢ـ ثكنة التلغراف التي اتخذت بعدئذ دائرة للوازم الجيش في ساحة المشيرية، ثم جعلت ثكنة للأطفائية وأخيراً انشئت محلها دائرة المصالح العقارية.
١٣ـ ثكنة المتطوعة خارج بوابة الله.
١٤ـ جامع الشمسية في حيّ المهاجرين.
١٥ـ مخفر المستشفى العسكري على طريق الصالحية.

ثم ثكنات المسمية والمزوعة وبصرى والحريري والسويداء التي انشئت للاحاطة بجبل الدروز، وهذا عدا الثكنات والمخافر ودور الحكومة والجوامع والمدارس وسواها من المباني العالية المتعددة التي أنشئت في مختلف البلاد السورية وسائر أنحاء الجزيرة العربية ولم يكن لها وجود من قبل.

حريق الاموي

يتألف سقف الجامع الأموي من ألواح خشبية مصفحة بالرصاص، وعلى مرور الأيام تشقق الرصاص واخذت مياه المطر تنفذ من السقف وتسقط على حرمي الجامع فتؤذي المصلين.

وفي سنة ١٣١٢، أيام ولاية رؤوف باشا، رام متوّلي الجامع وهو الشيخ محمد الحلبي اصلاح الرصاص ولحمه، وجلب لأجل ذلك سمكريا صعد بموقده الى سطوح الجامع فطارت من الموقد شرارة اتصلت بالخشب الجاف وساعدتها الرياح فالتهب السقف ولم تتمكن الوسائط الاطفائية من إخماد النار لأن سقف الجامع يزيد ارتفاعه عن قوة المضخات مما جعل المياه المدفوعة لا تصل الى الحريق، فدكت السقوف وتساقطت الأعمدة وأصبح لا يرى من الجامع سوى جدرانه المهشمة.

نهض كرام الدمشقيين بما عرف فيهم من علوّ الهمة والشهامة وجددوا جامعهم من أموالهم الخاصة وأعادوه الى سيرته الأولى[١١] فجاء بحمد الله تعالى أتقن وأمتن مما كان عليه قبل الحريق.

وكان لمحمد فوزي باشا العظم والوالي ناظم باشا همة عظيمة في هذا الشأن تذكر لهما بالشكر.

حرب اليونان

في سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م دارت رحى الحرب بين الدولة العثمانية ودولة اليونان على اثر طموح الثانية لتوسيع حدودها وعبثها في الأمن على تخوم البلاد العثمانية بواسطة العصابات الرومية التي كانت تثيرها وتسيرها. وغبّ مناوشات لم تدم كثيراً تقهقر الجيش اليوناني أمام القوى العثمانية التي أرسلت وقتئذ من بلاد الروم فقط ولم يشترك فيها أبناء العرب لانسداد البحر من قبل الأسطول اليوناني في ذلك الحين، وكاد العثمانيون يدخلون أثينا عاصمة اليونان ويستردون تلك البلاد التي كانت فيما مضى من جملة أملاكهم.

صعقت أوروبا المسيحية لهذا النبأ المهول ونادى اللورد (سالسبوري) رئيس الوزارة الانكليزية في مجلس العموم البريطاني قائلا: إن البلاد التي دخلت تحت راية الصليب لا يمكن ان يعود اليها الهلال. ثم تبعه القيصر اسكندر الثالث امبراطور روسيا وأرسل كتاباً ودّياً (او تهديدياً) الى السلطان عبد الحميد رجاه فيه بأن يكتفي بما حازه جيشه من النصر.

ثم عقد الصلح على ان تؤدي اليونان غرامة مالية الى الدولة العثمانية ويعود الفريقان الى سابق حالهما.

وهكذا ظهر التعصب المسيحي تجاه التساهل الاسلامي في القرن العشرين ايضاً.

المهاجرين والفيجة

ازدادت نفوس الشام ازدياداً عظيماً ضاقت معه بنايات المدينة على رحبها فكثر الازدحام، وظهرت الجراثيم المضرة في مياه الأنهر فاولدت أمراضاً فتاكة أخذت تنتاب البلدة من عام الى عام ولذلك انشأ الوالي ناظم باشا طريق الصالحية وحيّ المهاجرين تخفيفاً للازدحام وحصر مياه الشرب بماء عين الفيجة النقي فاستجلب منه كمية وافرة ضمن أنابيب حديدية بدونما تمتزج بغيرها من المياه الآسنة ووزعها على الأحياء فانقذت المدينة من الأمراض المهلكة التي انقطع اثرها بعد ورود ذلك الماء الطهور.

الترام والنور

لما كان حيّ المهاجرين الذي أنشىء حديثاً على سفح جبل قاسيون يبعد عن مركز الأعمال العامة في المدينة بعداً شاسعاً، ولا يستطيع كل امرىء الصعود الى الجبل والوصول الى الأحياء القصية ماشياً أو راكباً دون معاناة مصاعب واختيار نفقات قد لا يتمكن منها الجميع. فتخفيفاً لهذه المصاعب والنفقات ارتأت الحكومة مد خط ترام كهربائي الى الجبل والى سائر انحاء المدينة بحيث ينقل الناس بأجور زهيدة ويسهّل عليهم سكنى الأحياء الجديدة.

واذ ذاك تقدمت شركة بلجيكية وطلبت امتيازاً بمدّ الترام وتوزيع النور الكهربائي في مدينة دمشق فمنحتها الحكومة امتيازاً، لم تراع فيه مصالح البلدة كما ينبغي لأنه كان الأول من نوعه في جميع بلاد الشرق.

على أن شروط هذا الامتياز على علاتها كانت اضمن لصالح البلدة وأهون لها من الشروط التي تلتها بعد الاحتلال واقرها المجلس البلدي بدون فحص ولا تروّ، فان الشروط الأولى كانت تجعل اسعار النور أقل من الأسعار التي قبلت بها البلدية مؤخراً، كما انها كانت تقضي بأن توسع الشركة الطرق التي يمر منها خط الترام وترممها عند اللزوم على حسابها ونفقتها، اما الشروط الجديدة فانها تلقي نفقات هذا التوسيع والترميم على عاتق البلدية التي تقبل ذلك وتقره.

تمدد خط الترام في أول الأمر وجعل أربعة أقسام، الأول الى حيّ المهاجرين على سفح الجبل، والثاني الى الجسر الابيض والثالث الى امام جامع الشيخ الأكبر مبدأ حي الاكراد والرابع الى الميدان ولبثت الأسواق ضيقة والأخطاء ملموسة.

وقد وزعت الشركة على المعابد والأسواق انواراً ضئيلة لا تفي بالقصد، ثم جرى تمديد خط المهاجرين بضعة أمتار الى الامام لقاء تزييد أجرة الركوب عشرين في المائة، وتمدد خط جديد الى خصبة دوما ماراً بقلب المدينة وبعض القرى المجاورة فشقت البلدية له الطرق على نفقتها ولم تفعل الشركة سوى مدّ الحديد واستثمار الأجور الفادحة فقط.

ضجّ أهل الشام من عسف هذه الشركة وغلاء أسعارها وقاطعوها بضع مرات بأمل ارجاعها الى جادة الاعتدال فكانت الحكومة لا تنظر الى المقاطعة بعين الرضا خشية ان تؤول الى العبث بالأمن وتتحوّل الى ثورة يتطاير شررها، واخذت تهدد المحرضين على المقاطعة بالعقاب الشديد وتنفي بعضهم الى بلاد نائية، ولكن هذا التدبير لم يأت بالنتيجة المبتغاة وفي كل مرة كان الناس يدأبون على المقاطعة الى أن تعود الشركة وتخفض أسعارها وتعدّل شروطها بعض التعديل.

ثم ان الحكومة مقيدة مع الشركة بعقد يجب عليها تنفيذه والمحافظة عليه، أما الأهلون فانهم لا ينكرون ذلك ولكنهم يعتقدون انهم أحرار في معاملة هذه الشركة ولا محل لاكراههم على التنوير والركوب بوسائط ذات أسعار فادحة تفوق أمثالها في سائر الجهات، ويطلبون لأجل العودة لمعاملتها التخلص من الغبن الفاحش والوصول الى تخفيض الأسعار وجعلها معتدلة أسوة بغيرها فعسى ان تجد الحكومة طريقاً وسطاً لحل هذه القضية التي أصبحت معضلة مزمنة وتنقذ الناس من الحيف والضرر إن شاء الله.

رحلة الامبراطور

في سنـة ١٣١٦هـ ـ ١٨٠٨م قام الامبـراطور غليـوم الثـاني قيصر الألمـان برحلة الى الشرق فجاء اولا القسطنطينية، ولقي من صديقه السلطان عبد الحميد خان الثاني حفاوة عظيمة وتذكارا لزيارته هذه العاصمة التاريخية أنشىء في ساحة السلطان أحمد بالاستانة حوض بديع يستقي منه الواردون ماء زلالا. وفي ذات يوم ارتدى الامبراطور رداء المشير العثماني وسلم به على السلطان وهو سائر الى الجامع مجاملة وصداقة.
ثم جاء الى سورية وزار مدينتي دمشق وبيت المقدس، فأقام له الوالي ناظم باشا دكة (مصطبة) على سفح جبل قاسيون كانت نواة حي المهاجرين ونصب على الدكة سرادقا فخما قصده الامبراطور واعجب بمناظر الغوطة البديعة التي تمثلها كخريطة طبيعية تعرض للرائي جميع أحياء المدينة وقراها بدورها وقصورها وسائر مبـانيها بارزة بين كثافة الاشجار والرياض الغناء. وقد أهدى الامبراطور الى ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق إكليلا بديعاً اصطنعه خصيصاً من معدن السيه (البرونز) في مصانع برلين ووضعه على قبر السلطان فظل هذا الاكليـل ردحـاً من الزمن الى ان احتـل الانكليز مدينة دمشق أيام الأمير فيصل فسرقه الكولونيل (لورانس) جاسوسهم الأكبر بدعوى انه من الغنائم الحربية، وأخذه الى بلاده.

تلغراف المدينة

لما كانت المدينة المنوّرة منعزلة عن سائر البلاد ارتأى السلطان عبد الحميد خان أن يربطها بالأسلاك البرقية (التلغراف) مع الشام وسائر البلاد العثمانية تأميناً لاستقصاء أخبارها في أوقاتها على الدوام. وعهد بهذه المهمة الى أمير اللواء صادق باشا المؤيد أحد حجّاب جلالته فقام بمدّ الأسلاك مبتدئا من دمشق، وأوصلها الى المدينة المنورة في وقت وجيز. وقد أقيم في ساحة البلدية نصب تذكاري لذلك.
دام هذا الخط حينا من الزمن الى ان تخرّب مع الخط الحديدي الحجازي ابّان الثورة العربية كما ذكرنا في محله.



هوامش الفصل الثامن

(١) من جملة الحيل والخدع التي استعملها نابليون في مصر استصداره نشرة من بعض المشائخ المنتمين الى الطرق الصوفية ذكر فيها ان مجيء الافرنسيين هو مشيئة الله وارادته، فمقاومتهم تكون اعتراضاً على القضاء والقدر، وعلى اثر ذلك استسلم السذّج من الناس لهذه الدعاية، وتشتتت آراؤهم واحتل الغريب بلادهم بدون عناء.

(٢) المسجد بيت الله، وقد قال الله تعالى (ومن دخل بيتي كان آمناً).

(٣) يقول المؤرخ الجبرتي ان الافرنسيين فعلوا في مصر لأجل الحصول على اموال الناس افعال غريبة لا تخطر على بال احد وربما لم يفتكر بها قره قوش الذي اشتهر بالظلم في العصور الغابرة. فان الناس كانوا هجروا مساكنهم وتركوا حوانيتهم وهاموا على وجوههم هرباً من جور الافرنسيين وارهاقهم، حيث اخذوا يباغتون الدور والمساكن ولا يمكنون الأطفال والنساء من مغادرتها ويصادرون منها ومن حوانيت اصحابها كل ما وجدوه من مال ومتاع، ويقدرون قيمته لأنفسهم، فاذا تساوت مع القدر الذي فرضوه على صاحبها من الغرامة اكتفوا بها، واذا نقصت اتمّوها من مال جاره، واذا زادت حسموا الزيادة من غرامة الجار، وهكذا اظهروا عدلهم وانصافهم.

(٤) **سليمان بن عثمان المقداد** من سكان محلة مسترام بك في حلب كان يطلب العلم في الأزهر الشريف، وقد تفنن الافرنسيون في تعذيبه والقضاء عليه، فاحرقوا أولا يده اليمنى بالنار حرقاً، ثم وضعوه على وتد (خازوق)، وجعلوه يعاني شدائد الآلام الى ان فاضت روحه، رحمه الله. وقتلوا معه ثلاثة من مشائخ الازهر بدعوى أنهم كانوا يعلمون بنيته ولم يردعوه عنها.

(٥) **صاحب الخطط**. المقصود هو محمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) من اكبر الكتاب والمؤرخين السوريين، ورئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة. تولى وزارة المعارف في سورية في عهد الانتداب الفرنسي مرتين، ومن مؤلفاته المشهورة كتابه (خطط الشام) الذي يشير اليه مؤلف هذا الكتاب ويناقشه في أماكن عديدة. (ن.ص.)

(٦) **احمد باشا الجزار**: (؟ ـ ١٨٠٤): من مشاهير الولاة العثمانيين، ولد في البوسنه وذهب الى مصر مع واليها علي باشا حكيم اوغلو واشترك في معارك عديدة اظهر فيها شجاعة نادرة، ثم اصبح والياً في الشام وصيدا لمدة ثلاثين عاماً تقريباً، ولقب بالجزار بعد مجزرة أوقعها بالبدو في مصر فذهب ضحيتها نحو ٧٠ الفاً منهم. وخلال ولايته على الشام وصلت القوات الفرنسية بقيادة نابـوليـون بونابارت الى عكا في سنة ١٧٩٩ فحصّنها وقاوم فيها حصار نابوليون الذي دام ٦٤ يوماً بمساعدة الأسطول الأنكليـزي، وخاض معها معركة ضارية اضطر نابوليون على أثرها الى التراجع بعد ان امر بان تدفن في الرمال الأسلحة والذخائر التي يصعب حملها واعادتها. ولكن احمد باشا الجزار تعقب قوات نابوليون واشتبك معها في قتال عنيف مني فيه نابوليون بهزيمة منكرة.

وقيل انه كان قائداً شجاعاً وذكياً وشهماً، ولكنه كان شديد الظلم عظيم البطش، وانه كان يغيّر زيه ليلاً ويختلط بالشعب ويصغي الى اقوال الناس في حكمه، حتى ذهب البعض الى الظن بأنه ساحر او من اصحاب الكرامات. (ن.ص.)

(٧) ننقل هنا على سبيل المثال والتفكهة ما قاله الشيخ اسعد الشقيري العكّي، نديم جمال باشا، عندما استردّ الاتحاديون مدينة (أدنه) من البلغاريين، أمام قواد الجيش وضباطه، وهو: انت كأهل بدر، قد غفر الله ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر.. الخ.

(٨) انظر بحث المضابط في مكان آخر من هذا الكتاب.

(٩) **الدكتور ميخائيل بن جرجس بن ابراهيم بن بتراكي مشّاقه اللبناني**، توفي عام ١٣٠٥ (وتقابل ١٨٨٧/ ١٨٨٨م ـ ن.ص.) عن تسعين عاماً.

(١٠) **باي** وتكتب بالافرنسية Bey ، كلمة تركية معناها السيد او الأمير، وقد لفظها المصريون (بيه)، والسوريون (بك). اما الداي Day ، فهي كلمة تركية أيضاً بمعنى الخال، استعملها الأتراك وخصوصاً الانكشارية منهم بمقام التعظيم للرئيس الأكبر كما استعملوا كلمة (بابا) أو الاب، وخواجه (وتلفظ بالتركية خوجا، أي الشيخ) بهذا المقام، وكانت كلمة (داي) تطلق خاصة على حاكم الجزائر الذي هو في الوقت ذاته رئيس الجند أيضاً.

اما كلمتا معلم وخواجه اللتين كانتا تستعملان لوجهاء اليهود والنصارى في بلادنا فهي باقية من ذلك الزمن، وكان يقصد منها المجاملة بنعوت خاصة، فاطلقت أولا على معلمي مدارسهم، ثم عمّت جميع طبقاتهم.

(١١) **الباب العالي**: بالافرنسية (La porte sublime) هو عنوان دائرة الوزارة في القسطنطينية، عاصمة الدولة العثمانية، حيث تصدر منه المقررات والمخابرات السياسية وقد اصطلح على الافادة عن الحكومة العثمانية بالباب العالي، ويقابله في انكلترا (Whitehall).

(١٢) **الجزائر**. احتل الافرنسيون بلاد الجزائر عسكرياً، ثم عمدوا الى استعمارها واستعباد اهلها سلماً واقتصادياً ففتحوا ابوابها لأصحاب ورؤوس الأموال من قومهم الذين خفّوا اليها زرافات ووحداناً، وبلغوا اربعمائة الف نسمة عداً ووضعوا ايديهم على مرافق البلاد واستملكوا ارضها وقبضوا على زمام تجارتها التي أخذت تزداد وتنمو من عام الى عام حتى بلغت سنة ١٩٢١

(١٦٠٠٠٠٠٠٠) من الفرنكات. وبالرغم عن هذا اليسر العظيم المتحصل من خيرات البلاد وان مسلمي الجزائر اشتركوا في الحرب العالمية تحت الراية الافرنسية، فسقط منهم في سبيل فرنسا (١٦٠٠٠) ستة عشر ألف قتيل، فان الافرنسيين يعترفون بأن الأربعة ملايين ونصف مليون من النفوس البشرية المؤلف منها القطر الجزائري اصبح منهم أربعة ملايين! نعم اربعة ملايين اي اربعة آلاف الف نسمة لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً وهم بأجمعهم مزارعون وأُجَراء وعمال عند طبقة المستعمرين، وبعض اصحاب الأملاك الاغراب، وان هؤلاء الملايين الأربعة يتكففون بالأجور الزهيدة التي يتقاضونها من أصحاب الاشغال فقط، وهم على أسوأ حال من المعيشة، حيث أخذت المجاعة تنتابهم من عام الى عام وتهلك الألوف منها جوعاً وتميت ثمانين بالمائة ٨٠٪ من أطفالهم بسبب سوء الغذاء. ثم ان الحكومة الافرنسية لها شريعة خاصة تدعى (انديجينه) تميز بها الافرنسيين عن غيرهم من الأقوام التي ساقها سوء الحظ ونكد الطالع للوقوع تحت نيرها. وبحكم هذه الشريعة ان القانون يعدّ الاوروبيين في الطبقة الاولى من السكان، ويتمتعون بجميع الحقوق المدنية ويليهم الاسرائيليون التي منحتهم الشريعة المعروفة بشريعة (كريمية) جميع الحقوق السياسية التي يتمتع بها الأوروبيون. وبعد الاسرائيليين يأتي المسلمون الذين يؤلفون اكثرية السكان الساحقة في القطر الجزائري، ولكنهم محرومون من الحقوق السياسية ويعتبرون في الطبقة الثالثة من البشر، وادنى من اليهود، ولا يحق لهم التوظيف في أي وظيفة حكومية عامة. ولحاكم الجزائر وحده حق الحكم بالعقوبة التي رآها على أي مسلم جزائري دون ان يرجعه الى محكمة او محاكمة حتى أن المحاكم الافرنسية القائمة في الجزائر لم يسبق لها ان حكمت لمسلم على افرنسيّ قط، واذا جيء لها بمجرم افرنسي قتل مسلماً مثلا تنوع عليه الأسئلة وتجد له من خلالها مخرجاً تحكم بقبوله وتعذره وتبرره من القصاص. وقد تكرر هذا الظلم حتى اصبح معتقداً عاماً لجميع الجزائريين، ومن اغرب ما يروى انه في ذات يوم قتل رجل افرنسي من جنسه ولما سألته المحكمة عن السبب اجابها ـ انني ظننته مسلماً ـ فعذرته وبرّأته. وقد أغلقت الحكومة الافرنسية الكتاتيب التي تعلم اولاد المسلمين قراءة القرآن واصول الدين، واكرهت التلامذة على مغادرتها ودخول المدارس الافرنسية والتي لا تعلم ألا الافرنسية فقط فأصبح من يقرأ ويكتب من الجزائريين، وهم الاقلية الضئيلة منهم. يجهلون القراءة والكتابة بلسان دينهم وقومهم. ولا يستطيعون ابداء فكرهم الا بالافرنسية وحدها ثم ان الافرنسيين عندما احتلوا الجزائر بثّوا دعاياتهم لنشر الدين المسيحي في البلاد ولما لم يجدوا ضالّتهم بين الجزائريين المتصلبين في دينهم بدأوا باغواء البعض بالمال وغيره، فلم يتبعهم سوى شاب واحد يدعى يوسف وأعلن تنصّره، فقربوه منهم. وادخلوه الجندية وأوصلوه في وقت قليل الى رتبة الجنرالية في الوقت الذي لم يوجد فيه في الجيش الافرنسي الجزائري والمراكشي والتونسي ضابط مسلم بين كل الضباط الكثيرين الا ما ندر، والمسلمون الذين يؤلفون ذلك الجيش لا يتجاوز أحدهم على الأكثر مرتبة (آجودان) مهما بلغت مساعيهم ـ فليتق الله المكابرون.

(١٣) تلاقى الامير عبد القادر في قلعة طولون بالبرنس نابليون ابن أخت الامبراطور نابوليون الأول وتبادل معه الولاء وتعاهدا على الأخاء ولما تولى البرنس رئاسة الجمهورية ثم الامبراطورية الافرنسية أفرج عن الأمير عبد القادر وتوسط لدى السلطان عبد الحميد العثماني بسكناه في البلاد العثمانية فأقامه السلطان اولا في مدينة بروسة، حيث مولد ابنيه الاميرين علي وعبد الله، ثم سمح له بالمجيء الى دمشق وسكناها.

(١٤) ان تبديل الأسماء واستعمال المخالص اصبح عاماً شاملاً أكثرية العثمانيين على اختلاف طبقاتهم، وخصوصاً العلماء والأمراء والشعراء والذين يلجون دوائر الدولة ومدارسها وسائر خدماتها منهم، فيبدلون أسماءهم الأصلية بأسماء جديدة او يضيفون عليها اعلاماً خاصة تدعى «مخالص» كما قدمنا، ويؤمنون بهذه المخالص عن انفسهم في أشعارهم واسفارهم وعلاماتهم ويعرفون بها لدى اقرانهم. وقد عمت المخالص البلاد العربية ولا سيما المصرية منها أيضاً ودامت الى هذا اليوم. مثال تبديل الأسماء: ان مدحت باشا الوزير العثماني الذائع الصيت كان يسمى أحمدا فقط، وعندما دخل المدرسة اضافوا على اسمه مخلصاً، وقالوا احمد أشرف، ولما دخل الباب العالي استبدلوا اسم اشرف بمدحة، وقالوا احمد مدحت. وهكذا عرف الى آخر ايامه.

ومن اولاد العرب الذين بدّلوا اسماءهم القائد نصرت افندي الجيرودي الدمشقي الذي كان اسمه ضرغام. فلما دخل المدرسة العسكرية دعوه نصرت، والقائد حلمي افندي الشقلي الدمشقي كان يسمى ارسلان فدعوه عثمان، وأضافوا عليه مخلصاً فأصبح عثمان حلمي، ثم عرف بحلمي فقط وكثير غيرهم.

(١٥) البكتاشية ـ طريقة ابتدعها المدعو (حاجي بكتاش ولي) أيام الغازي اورخان، ثاني سلاطين ال عثمان، وكان هذا الرجل من مظنة الصلاح فحضر حفلة تأسيس الجنود الانكشارية التي اسسها السلطان المشار اليه، ودعا لهم بالخير فجعله الجند شيخهم ودخلوا كلهم في طريقته، وقد انتشرت هذه الطريقة في انحاء الأناضول وبلاد الروم (روم ايلي) حتى كان الارناؤوط كلهم منتمين اليها، ويقال ان الفرقة التي يدعونها في بلاد الكرد (قيزل باش) ومعناها الرأس الأحمر، والطريقة المسماة (ملاميه)، هما من فروع البكتاشية.

يدّعي البكتاشيون أنهم من اهل السنة في حين ان افعالهم تخالف ذلك وتدل على أنهم من غلاة الشيعة، مذهب الاسماعيلية، فهم يقولون بالاربعة عشر معصوماً الذين نالوا الشهادة من اولاد علي، ويظن البعض أنهم من اصل مسيحي

لقولهم بالأقاليم الثلاثة (الله، محمد، علي) ولوجود نوع من الاعتراف عندهم حيث يذهب مقترف الذنب منهم الى شيخه ويعترف له بذنبه فيغفرها له الشيخ من نفسه، ثم لأنهم يبيحون الخمرة ولا يحجبون النساء عن الرجال. وأكثرهم يتبتل ويعيش مجرداً بعيداً عن الزوجات وكان المتبتلون منهم يسكنون تكية تدعى تكية (قيزل ولي سلطان) من مدينة (ديمتوقة) في ولاية أدرنة ثم ان البكتاشية يقولون بالتناسخ ويجحدون التكاليف ولا يعترفون بصوم ولا صلوة ولا حج ولا زكاة ويؤوّلون ذلك بأن هذه التكاليف انما فرضت على المبتدئين لا على الواصلين. وانه بعد الوصول الى الحقيقة يصبح المرء في حلّ منها. واكبر شيخ للطريقة البكتاشية يقيم في بيرادي أي بيت القطب، في المكان المدعو حاجي بكتاش بين مدينتي قيرشهر والقيصرية في الأناضول. وللمتبتلين شيخ آخر يدعى (مجرد باباسي) أي أبو المتبتلين وكل شيخ يسمونه «بابا». وأتباعه يحملون اسم مريد فقط وأكبر تكاياهم كانت «مرديون كوي» من حي الغلطة في الآستانة.

(١٦) **محمد سليم باشا** (١٧٧١ ـ ١٨٣١) تولى الصدارة العظمى (رئاسة الوزارة) في الدولة العثمانية في سنة ١٨٢٤، ثم عزل من مناصبه ونفي الى غاليبولي. وقبل ان يمضي على نفيه عام واحد أعفي عنه وعين والياً في ولايات يانيه، ثم حلب. واخيراً الشام في عام ١٢٤٦هـ (الموافق ١٨٣٠م) ودامت ولايته للشام ثلاثة أشهر فقط ثار عليه الدمشقيون بعدها واحرقوا بيته وقتلوه على أثر الحوادث التي يروي المؤلف تفاصيلها في أعلاه. (ن.ص.)

(١٧) سبق للافرنسيين ان حملوا على مصر مرتين، الأولى في زمن الملك لويس التاسع الذي جاء بجيشه الى دمياط ثم تقدم منها الى المنصورة فوقع فيها أسيراً في ايدي الجيش المصري الأيوبي. والثاني حملة نابليون الأول الذي اكتسح القطر المصري بكامله، ثم اضطر لتركه دون ان ينال منه مأرباً. ولما لم تجدهم الحملات العسكرية نفعاً عمدوا في هذه المرة، وهي أيام الملك لويس فيليب، الى تجريد حملة علمية واحتلال مصر سلميا، مؤملين ان يتوصلوا الى الاستقرار في هذا القطر لا حبّاً بسواد عيون اهله وخدمة حكامه، كما يقولون،بل للاستئثار بخيراته واستثمارها ليس غير. ولكن السياسة الانكليزية التي كانت لهم بالمرصاد ما لبثت ان اكرهتهم على تركه ومغادرتهم ولو بعد حين.

(١٨) **عباس باشا ابن طوسون باشا** ابن محمد علي باشا ولد عام ١٢٢٨ وتوفي عام ١٢٧٠ (وتقابلان بالتاريخ الميلادي ١٨١٣ و١٨٥٤ على التوالي ـ ن.ص.)

(١٩) **السياسة الروسية**: كانت السياسة الروسية ترمي الى اكتساح البلاد العثمانية والوصول الى القسطنطينية وسواحل البحر المتوسط حسب وصية الامبراطور بطرس الكبير أشهر قياصرتها وعميدهم بدعوى ان دين الروس جاء من القسطنطينية، وان اول قيصر روسي تزوج بنت آخر قيصر قسطنطيني، فكان بذلك الوارث الشرعي لقياصرة الروم ويحق له ولأخلافه استرداد القسطنطينية والاتحاد مع العناصر المسيحية الشرقية بأية وسيلة كانت.

(٢٠) وهكذا فعلوا عقيب الدعايات الكثيرة الأخيرة، ومن لم يتعظ بما فيه لا يحق له ان ينتظر نجاحاً في آتيه.

(٢١) بعد ان تمكنت انكلترا من عدن توصلت لاقناع مشائخ النواحي التسع المحيطة بها بالهدايا والعطايا المختلفة وادخلتهم كلهم في حمايتها وجعلتهم يرفعون الأعلام الانكليزية على بلادهم، وهذه اسم تلك النواحي ومقدار نفوسها

النفوس	
٥٠٠٠٠	لحج
٢٥٠٠٠	الحاشب
١٢٠٠٠٠	اليافع العليا والسفلى
٤٠٠٠٠	شيوخ متفرقون
٢٠٠٠٠	الصبيحي
٣٠٠٠٠	الضالع
٤٠٠٠٠	الفضل
٢٥٠٠٠	العالق
١٥٠٠٠	الواحدي
٥٠٠٠	العازل

(٢٢) احد هؤلاء المعلمين هو **الرئيس مولتكه** الذي حاز فيما بعد رتبة الماريشالية واشتهر بانتصاره على فرنسا في حرب السبعين سنة ١٨٧٠ ودخوله باريس ظافراً.

(٢٣) **خيانة وجبن وبيع ضمير!** فان الجنود، قواداً وأفراداً مكلفون بحفظ ما أؤتمنوا عليه من الاسلحة والمعدات والمواقع الحربية الى آخر نسمة من حياتهم مهما اعترضهم من العوارض. وهذا الرجل يفضل نفسه على دولة وامة اذا كان ما يدعيه من

خصومة خسرو باشا صحيحاً. ولم يخجل من تسليم ابناء الأمة وسفنها وأسلحتها وعتادها الى خصم الدولة وعدوّها، ويكون عليها ضغثاً على ابالة، ويا للعار.

(٢٤) بعد انتهاء المسألة عفا السلطان عبد الحميد عن الأمير بشير الشهابي فجاء الى العاصمة (القسطنطينية) وسكنها الى ان وافاه الأجل ودفن في كنيسة الارمن الكاثوليك في «غلطة» سنة ١٢٦٧هـ ـ ١٨٥١م.

(٢٥) يقول الافرنسيون ان مدارسهم في سورية أخرجت خمسين الف تلميذ من ابناء البلاد وذلك كان لهم الحق الأول في الانتداب عليها. وهذه أكبر حجة لهم يقيمونها كلما سنحت لهم الفرص. ونحن ما زلنا نتسابق ونتهالك على ادخال اولادنا في تلك المدارس لنؤيد لهم حجتهم.

في الزمن السابق كنا نلقي تبعة اهمالنا على عاتق الدولة العثمانية لأنها كانت تستعمل اللغة التركية في مدارسها ونزعم ان ذلك يعيقنا عن تعقب لغتنا واتقانها.

اما وقد انحلت الدولة العثمانية منذ عشرين سنة وعللنا النفس بتأليف حكومة سورية ذات وزارات متعددة من جملتها وزارة المعارف التي أخذت تبذل في سبيلها ما استطعنا من الأموال لتشييد المدارس وتزييدها وتثقيف اولادنا ثقافة تغنينا عن الالتجاء الى مدارس الغير ـ يؤسفنا ان نرى هذه المدارس لا تستطيع حتى الآن ان تخرج معلماً يضاهي معلمي اليسوعيين والعازاريين وامثالهم، وما زال الكثير من رؤساء معارفنا ومدارسنا ممن تخرجوا من غير المدارس الوطنية، وهم يبذلون جهد المستطاع لتخريج تلامذة اكفاء! فمتى تكلل مساعيهم بالنجاح يا ترى! وهل نبقى على ما كنا عليه لا نهتم بدخول المدارس الا لنوال شهاداتها التي تؤهلنا للوظائف الحكومية في غير المدارس طبعاً.

(٢٦) **المذهب البابي** مزيج من التصوف والفلسفة واعتقادات الشيعة الامامية. قال مبتدعه السيد علي محمد ان المهدي المنتظر هو اليوم من سكان عالم روحاني غير هذا العالم الجسماني، وانه هو نفسه باب المهدي او باب الدين. ومن هنا دعيت شيعة البابية. وتؤلف من عناصر اسلامية ومسيحية وموسوية ووثنية على السواء بدون تفريق بينها. ثم نعت مبتدع هذه النحلة نفسه (بالنقطة) أو (خالق الحق) وانه لم يكن نبياً فحسب بل هو مشخص للالوهية ايضاً. ومنح أحد اتباعه لقب الباب ثم قال له انه هو المهدي بذاته وان ذلك الجسم اللطيف الروحاني تمثل في هذا الجسم الكثيف المادي. ولما كانت الرجعة اي رجوع بعض الأئمة الى عالم الحياة هي من الأصول الثابتة عند الامامية كما ان التناسخ من المعتقدات الباطنية زعم البابيون ان رئيسهم السيد علي محمد هو نفس الحسن والحسين، ثم ادعى انه هو النبي بذاته وان الله انزل عليه كتاباً إسمه البيان وهو المعنى بقوله تعالى «خلق الانسان علمه البيان» وان الانسان هو علي محمد والبيان هو كتابه المذكور.

يؤلف هذا الكتاب من سور متعددة عربية وفارسية منها سورة نابليون. وسورة ناصر الدين. وسورة السلطان عبد العزيز وغيرها وكلها رسائل دعوة الى ملوك العصر وكباره. وقد أضاف اليها تلميذه البهاء (الآتي ذكره) سورة دعاها (سورة الأسرار) استهلها بقوله: «سبحان الذي أسرى بعبده نهاراً من الايران (كذا) الى عكاء».

يحاول البابيون توحيد الأديان ومزجها في مذهب واحد فلا يدحضون ديناً ولا يجحدون نبياً. ويعتقدون بالحلول والتناسخ. ويقولون بثواب الأرواح وعقابها خيالياً لا فعلياً ويصلون ركعتين في صباح كل يوم وهم مولون وجوههم شطر المسجد الذي اسسه السيد علي محمد في شيراز ويقولون ان الباب أعظم من محمد وان محمداً أعظم من عيسى. ويصومون شهراً واحداً في السنة يبتدئون به من آخر الحوت ويفطرون في أول الحمل الذي هو عيد الفرس المدعو (نوروز).

من مبادىء البابية تخريب جميع الأماكن المقدسة في العالم كمكة وبيت المقدس وقبور الأنبياء والأولياء عند حلول أول سلطة لأحدهم. ويوجبون على كل سلطان يقوم منهم ان يضع السيف في رقاب العالم فأما الدين أما الموت! ويحرمون الخمرة والتبغ ويشربون الشاي ويذبّون اليه ويجيزون العقد على الاثنتين. أما الشراء والمتعة فليس لهما حد عنهم. ويقال أنهم يجيزون ايضاً نكاح الأخت. ويبيحون السفور للنساء. ويحرمون الطلاق على الرجال. ويميلون الى الاباحية فيهدرون دماء من خالفهم ويستبيحون اموالهم ويمثلون الشيوعية بمشاركة بعضهم بعض في الأموال بدون استثناء. الى غير ذلك من الأمور المتضادة.

وعلى ذكر البابية وسائر الشيع والبدع المغالية رأينا أن نأتي على ذكر اليزيدية ايضاً اتماماً للفائدة.

اليزيدية: طائفة تسكن ولاية الموصل وبلاد الاكراد وبعض بلاد الأرمن والقفقاس. يعتقدون بتناسخ الأرواح ويسجدون للشمس ثلاث سجدات عند ظهورها على الأفق في كل صباح وعندهم المعمودية والختل معاً. وهم يجلّون الشيطان ويعبدونه اتقاء شره على ما يزعمون. ويتحاشون ذكر إسمه وينعتونه بالملك الطاووس يمثلونه على شكل طائر الطاووس مصنوعاً من النحاس الأصفر. ويسجدون له.

ويقولون ان الله غضب على الملك الطاووس واخرجه من الجنة. ولكنه سوف يعيده اليها يوم القيامة. ويقدسون النار لأنها تطهرهم من الأدران وتحرق منهم الشرور. ولهم كتابان الأول يسمونه (الجلوة) ويمنعهم فيه الشيطان من ذكر إسمه. ويحثهم على احترامه وعبادته. وقد جاء في الجلوة ان جميع الكتب المقدسة في جميع الأديان ليست من الكتب المنزّلة وانما هي محرفة تحريفاً كبيراً. وكتابهم الثاني يدعونه (مصحف رسن) يذكرون فيه تفسير العالم وما فيه من المخلوقات وان جميع طوائف

البشر خلقت من نسل آدم وحواء الا شيث ونوح وانوس وهم آباء اليزيديين، فهم من نسل آدم وحده، وانه في كل الف سنة سينزل من السماء اله يسن الشرائع ومن هؤلاء الآلهة يزيد الذي ينتمون اليه ويختلفون في من هو! فمن قائل انه يزيد ابن معاوية (وهذا بعيد الاحتمال لأن اليزيدية لم تكن معروفة قبل العصر السادس للهجرة وبينها وبين يزيد ابن معاوية أحقاب عدة، ثم ان يزيد كانت ترقبه انظار الشيعة وتعد عليه أعماله ولم يدعوا بادرة بدرت منه الا واحصوها وسجلوها عليه ولم يأت ذكر اليزيدية فيما نقلوه عنه) والأغلب ان مؤسس هذه الطائفة هو يزيد ابن نيسه رئيس فرقة الشيعة اليزيدية التي ذكرناها في الصفحة (٦٠) من هذا الكتاب.

ومن معتقدات اليزيدية ان الله اطلق من السماء سبعة خراف فيها أرواح الآلهة، وكان أولها ساق الشيطان المهم الذي ترك الله له العالم ليحكمه مدة عشرة آلاف سنة. وهم يحترمون الشيخ عديّ بن مساق الذي ولد في قرية (بيت قار) من أعمال بعلبك في الشام ثم رحل الى جبل الهكارية في بلاد الكرد وانقطع في زاوية ابتناها هناك لنفسه، وتوفي فيها عام ٥٥٧ للهجرة، وقد اشتهر هذا الشيخ في حياته انه من المتصوفة، وألف طائفة دعيت في ايامه العدوية وربما استحالت مع الزمن الى طائفة اليزيدية هذه. يقول القاضي ابن خلدون - اتبع الشيخ عدي خلق كثير وجاوز حسن اعتقادهم فيه الحد حتى جعلوه قبلتهم التي يصلون اليها وفي خبرتهم الأخروية التي يعودون عليها.

ويحتفل اليزيديون بذكرى مولد الشيخ عدي احتفالا كبيراً في شهر ايلول من كل سنة، ويزورون البيت الذي ولد فيه في بيت قار، ويحجّون الى قبره المصنوع من الصخر وقد نقشت عليه تصاوير ثعابين غليظة، وفي دهليز هذا القبر او المعبد مذبح يتدفق الماء من تحته ولا يسمح بحال من الأحوال لغير اليزيدي بأن يدنو من هذا المعبد أو أن يدخله ويطلع على أسرار العبادة فيه.

(٢٧) كذا جاءت في الأصل، في حين ان يوم ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٧٦هـ يصادف ١١ حزيران سنة ١٨٦٠م. (ن.ص.)

(٢٨) توجد في ضواحي دمشق سبع قرى درزية وهي جرمانا. والأشرفية. والجديدة. وصحنايا. وعرطوز. واقصاها لا يتجاوز الساعة بعدا عن المدينة. واعظمها قرية جرمانا التي هي اقرب الى حي المسيحيين من سائر احياء المدينة نفسها. أما وادي اللواء مدخل جبل حوران وقلعة جندل الدرزية أول أقليم البلان فهي تبعد عن المدينة زهاء ساعتين او ثلاث ساعات فقط.

(٢٩) فؤاد باشا (١٨١٤ - ١٨٦٨) هو كجه جي زاده محمد فؤاد باشا من كبار رجال الدولة العثمانية في أواخر عهدها. درس الطب ثم تحول الى السياسة وتولى وزارة الخارجية خمس مرات والصدارة العظمى (رئاسة الوزارة) مرتين، وكان من دعاة الاصلاح واسهم في التنظيمات العثمانية وحاول تنفيذها. وكان رجلاً على جانب عظيم من الثقافة حاضر البديهة كما كان أديباً وشاعراً. وقد أُرسل الى لبنان حينما كان وزيراً للخارجية للمرة الثالثة. (ن.ص.)

(٣٠) «الكوريك»: كلمة تركية معناها الرفش (المسحاة) أشارة الى تشغيل المحكوم عليهم بحفر التربة. (ن.ص.)

(٣١) محمد سعيد باشا ابن شمدين (مخفف شمس الدين) اي الداقوري توفي بدمشق عام ١٣٢٠.

(٣٢) شبلي باشا ابن حمدان العريان من دروز اقليم البلان تولى بعض المناصب في العراق. ومات فيه عام ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م).

(٣٣) الجندي مكلف بالمحافظة على موقعه وسلاحه والأمن المودوع اليه حفظه وبعدم تمكين الغير من العبث بوظيفته ما لم يفقد روحه في سبيلها. واذا ضنّ بذلك فجزاؤه الاعدام حتماً بحسب القانون العام المرعي الأجراء لدى جميع الدول.

(٣٤) الشيخ عبد الله بن الشيخ سعيد بن الشيخ محمد قضيب الباب الحلبي الدمشقي توفي عام ١٢٨٧ بدمشق.

(٣٥) عبد الله بك بن نصوح باشا ابن سعد الدين باشا العظم الشهير بابن ناصيف باشا. توفي بمصر سنة ١٢٨٥.

(٣٦) محمد بك بن اسماعيل بك بن ابراهيم بك العظمه الدمشقي توفي منفياً بمدينة الماغوصة بقبرص سنة ١٢٧٨.

(٣٧) احمد أفندي بن علي افندي ابن الشيخ احمد العطار الشهير بالحسيبي توفي بمدائن صالح على طريق الحج سنة ١٢٩٣.

(٣٨) طاهر أفندي بن عمر افندي الاموي توفي بالشام سنة ١٢٩٥.

(٣٩) عمر افندي ابن عبد الغني ابن محمد الغزي العامري الدمشقي توفي منفياً بمدينة الماغوصة في قبرص سنة ١٢٨١.

(٤٠) عبد الله بك ابن احمد ايج ايلي سبط أسعد باشا العظم توفي بدمشق سنة ١٢٨٠.

(٤١) احمد افندي ابن سعيد افندي ابن حمزة افندي العجلاني توفي سنة...

(٤٢) الشيخ عبد الهادي أفندي ابن سليم افندي ابن عبد اللطيف أفندي العمري الشهير بابن عبد الهادي توفي بدمشق سنة ١٢٨٣.

(٤٣) ان الاقتصاص من الجناة أمر لا مندوحة منه حفظاً لنظام الكون وانما يشترط بالقصاص ثبوت الجرم من جهتي التعمد والفعل. فهل كان هذا العقاب مستجمعاً الشروط الشرعية والقانونية وكان المعدومون كلهم ممن باشر القتل والنهب وأعان عليه بنفسه؟

نحن لا ننكر الظروف الحرجة التي رافقت تلك الحادثة المشؤومة، فقد قال الله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة» وانما هنالك دعايات ومداخلات غير مشروعة كان لها الوقع السيء في نفوس القوم مما أدى الى الانتقاد كما نرويه على علاته.

يعلم كل من سكن الشام ولو مدة وجيزة ان اهلها اعتادوا التفرج على كل حادث يحدث في مدينتهم خيراً كان ام شراً، فهم يخفون افواجاً من الأحياء القصية للتفرج على الحريق ولم لم يكن لهم علاقة به' وعلى قطع راس المجرم او صلبه مثلا، مما تشمئز منه النفوس. ولكنه امر واقع لا ريب فيه.

روى الثقاة ممن لا علاقة لهم بأحد الطرفين ان زهاء نصف الأشخاص الذين اعدموا على اثر هذه الحادثة كانوا من قبيل المتفرجين الذين ذهبوا الى حيّ النصارى للتفرج على الحريق ليس الا وعادوا دون ان يأتوا بعمل ما! وانما رجل رام الزعامة في هذه البلدة ايام اولئك السراة ولم يتح له ذلك بوجودهم فاغتنم الفرصة وهسّ في آذان القناصل واعضاء اللجنة الدولية وجعلهم يطلبون ابلاغ عدد المعدومين الى الخمسمائة عقاباً وارهاباً. وعبثاً حاول فؤاد باشا اقناعهم بأن المجرمين لا يبلغون هذا القدر. فانهم اتفقوا ولبثوا مصرين على طلبهم، ولما كان تفكيك الاتفاق الدولي قد يؤدي الى نتائج ربما تكون أدهى من ذلك وأمر. فقد اضطر فؤاد باشا تجاه ضغط اللجنة الدولية لأن يعد بعض ذوي الشبهات الذين ثبت ذهابهم الى حي النصارى في ذلك شركاء في الجناية مما ادى الى هذه النتيجة المؤلمة كما رواه وأيده الوزيران الكبيران احمد اسعد باشا ومصطفى عاصم باشا الكريدي من ولاة الشام وغيرهم ممن كانوا في حاشية فؤاد باشا وتواترت رواياتهم الى الآن

قاتل الله السياسة ما اغرب نتائجها' ان فؤاد باشا له اليد البيضاء في توقيف زحف الافرنسيين على دمشق وتلافديه ذلك الأمر الخطير الذي كاد يؤدي الى اسوأ العواقب في ذلك الحين. ولهذا كان جديرا بأن يذكر بالخير والشكر على الدوام، على ان افراطه في مداراة أعضاء اللجنة الدولية ـ ولو أسال منه الدموع كما قيل ـ وكان من قبل اختيار أهون الشرّين! جعل الناس من مختلف الأجناس والطبقات يلومونه وينسبون اليه الضعف والظلم فسبحان الله.

(٤٤) **محمود** افندي ابن نسيب افندي ابن كمال افندي الحمزاوي مفتي الشام وعميدها توفي بدمشق سنة ١٣٠٥.

(٤٥) **الشيخ سليم** افندي ابن الشيخ يسين بن الشيخ حامد العطار الموصلي الأصل الدمشقي المولد توفي بدمشق سنة ١٣٠٥.

(٤٦) **سعيد آغا** بن مصطفى آغا بن عبد الله آغا الوزي.

(٤٧) **عمر آغا** بن عبد الله من قبيلة الموالي تصفحت كنية من العبد الى العابد توفي بدمشق سنة ١٢٨٤.

(٤٨) **صالح آغا** بن اسماعيل آغا بن خليل آغا المتوفي سنة ١٢٧٩.

(٤٩) كانت عبارة «عفا الله عنه» في الاستعمال العثماني ترد عند ذكر الاموات من قبيل الدعاء لهم، كما نقول اليوم «رحمه الله» وليس لها المعنى السلبي الذي قد توحي به ـ ن. ص.

(٥٠) **جواد باشا** من مواليد دمشق، ولد فيها عام ١٢٦٨هـ ـ ١٨٥٢م وكان أبوه مصطفى عاصم بك أول مدير للمدرسة الاعدادية العسكرية في الشام.

(٥١) «**خديو**» كلمة فارسية معناها الوزير الأكبر والأمير الأعظم.

(٥٢) **كنت** (المؤلف) اقتنيت هذا التصوير ووضعته بين أوراقي فتبعثر خلال رحلاتي العديدة وفقد مع غيره، وعند رحلتي الى اوروبا عام ١٣٢٩ رأيت في الباخرة التي اقلتنا الى مرسيليا نسخة من المجلة الافرنسية (Illustre) وفيها هذا التصوير وقد عنونته المجلة بعنوان «رسم تاريخي» وكتبت تحت صورة السلطان عبد العزيز (شاه الفرس)، في حين ان دعوة الامبراطور نابوليون كانت مقتصرة على ملوك اوروبا وحدها دون ملوك سائر القارات ولم يشترك بها احد منهم، ثم ان صورة السلطان عبد العزيز معروفة لجميع رجال السياسة، وتوجد منها نسخ متعددة في كل جهة، وهو سمين الجسم ملتح يلبس طربوشاً، بخلاف ناصر الدين شاه ملك الفرس آنذاك، فقد كان نحيف الجسم حليق اللحية كبير الشاربين يلبس سدارة ايرانية وصورته مطبوعة على طوابع البريد والأواني الخزفية، وموجودة كذلك في كل مكان، فماذا تقصد المجلة الافرنسية من هذا التخريف، هل هو غلط بحت، ام ان الدعايات ضد العثمانيين حملتها على تحريف الحقائق حتى في هذه الصورة أيضاً؟

(٥٣) كان **الخديوي اسماعيل باشا** يملك ١٧٦٠٠٠ سهماً من أسهم تلك الترعة التي بلغت ارباحها درجة لم تبلغه ارباح اي شركة من شركات العالم، فالتف حوله المستر دزرائيلي رئيس وزارة انكلترا واشتراها منه بكاملها عام ١٨٧١ ثم ان الحكومة المصرية كانت اخذت لنفسها ثلاث آلاف سهم من تلك الأسهم لقاء قيمة الأرض وجزيتها، فطمع بها أصدقائهم الانكليز واستخلصوها من الحكومة المصرية واستأثروا بها لأنفسهم، ولم يدعوا من تلك الترعة التي حفرت في ارض مصر بسواعد ابنائها وكانت سبباً لاحتلال الغريب بلادها سوى الذكرى المؤلمة فقط.

(٥٤) **الدستور** الذي قبله السلطان هو دستور سعيد باشا لا مدحت باشا كما جاء في الخطط. فكلا الدستورين مطبوعان في كتاب (اسّ انقلاب) لأحمد مدحت الكاتب التركي الشهير.

(٥٥) لما اعتدى الافرنسيون على تونس قام اهلها الأشاوس للذبّ عن وطنهم وحاولوا قتل الافرنسيين الغاصبين، فتبعهم احد مشايخ الطرق الصوفية وسار معهم بنية الجهاد، ولما تقارب الجمعان من بعضهما حدّق الشيخ بالأعداء ثم نكص على عقبه وصاح في الناس قائلا: ها هو قطب الغوث آتياً في ركاب القائد الافرنسي وقد حرّم القتل فنكص الناس بنكوصه وعدلوا عن المقاومة ورضوا بالذل والصغار الى هذا اليوم.

(٥٦) **أحمد عرّابي** بن محمد من مواليد مدينة الزقازيق سنة ١٢٥٦ توفي بالقاهرة سنة ١٣٢٩. ان الثورة العرّابية بمصر هي نسخة

مصغرة عن الثورة العربية في الحجاز لأن الجيش المصري كان مؤلفاً من ضباط عرب وشراكسة، فوسوس الشيطان لعرابي باشا بأن يقوم ضد الشراكسة الذين كان يعضدهم الخديوي توفيق باشا بدعوى انهم اغتصبوا حقوق العرب وكان من أمره ان وقع هو ورفاقه في الأسر، وأوقع البلاد في قبضة الانكليز.

اما الثورة العربية في الحجاز فان الشريف حسين رام الانفصال عن العثمانيين فثار عليهم واغرى شبان البلاد على القيام معه، فكانت النتيجة ان ذهب هو والحجاز في أيدي الغير، وجعل البلاد العربية بأسرها تحت سيطرة الأغراب وسلطتهم. وفي كلتا الثورتين كانت الأصابع الأجنبية تلعب أدوارها وتدس دسائسها في العقول الى ان وصلتهما الى نتائج حققت معها مقاصدها.

(٥٧) من جملة الخدع التي استعملها الانكليز عند دخولهم مصر انهم أغدقوا العطايا على مشائخ الطرق الذين توصلوا الى دخول استحكامات الجيش المصري ودس الدسائس بين جنوده، حتى انه في الليلة التي كان فيها الجنرال ويلسلي مصمما الهجوم عليهم الهاهم المشائخ بالأرواح والاذكار الى منتصف الليل وما ان خلدوا الى الرقاد حتى باغتهم الانكليز برصاصهم وقذائفهم، وقبل ذلك بقليل دخل احد المشايخ الى استحكام المدفعية وبيده ثلاثة اعلام نصب العلم الأول منها على مدفع وقال: هذا للسيد البدوي، وجعل الثاني على مدفع آخر وقال هذا للسيد الدسوقي، ووضع العلم الآخر على مدفع ثالث وقال هذا لسيدي عبد العال، ولم تنقض ساعة من الزمن حتى كانت المدافع والأعلام كلها في أيدي الانكليز وكان عرابي باشا عزم على ردم الترعة ونسفها بالالغام منعاً للانكليز من دخولها فساقوا عليه مهندساً (دليسيبس) الافرنسي وجعلوه يخدعه بقوله ان الترعة مصونة من التعرّض حيث تحرسها أعين الافرنسيين الذين لا يمكنون احداً من الدنّو منها

وقد تكررت هذه الخدع والدسائس على بسطاء المسلمين في مختلف البقاع كما اشرنا اليها في صفحات شتى من هذا الكتاب. وكل ذلك مصدره وجود الطرق المدعوة بالصوفية على ايدي اناس جهلاء لا يملكون سوى دعوى النسب ويطمحون الى تأمين عيشتهم على أكتاف السذّج من الخلق الذين يخدعون بخزعبلاتهم، وما زالت وقائعهم تترى واضرارها تتوالى الى يومنا هذا، وقد الغت الحكومة التركية جميع هذه الطرق من بلادها، وصادرت تكاياها وزواياها، بعد ان طردت مشائخها ومريديها وأكرهتهم على امتهان الحرف المشروعة لاكتساب المعاش بالسعي والعمل، فمن لنا بالأقتداء بها والضرب على أيدي المشعوذين الذين ما برحوا يستعملون اسم الدين لاشباع نهمهم وسدّ مطامعهم في هذه البلاد ايضاً ومنعهم من الدجل بتاتا.

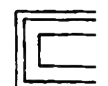
(٥٨) الأمثلة على اعمال «صاحب الخطط» في الوزارة ستذكر في الصفحات التالية من هذا الكتاب.

(٥٩) الظاهر ان هذا هو الخط الأساسي لمنهاج السياسة الافرنسية التي تخشى عليه جميع حكوماتها على اختلاف نزعاتها فيما يتعلق بسورية، فهي تخال دمشق عدوا لدودا وترمي الى إضعافها وإفقارها بكل وسيلة.

على ان الضرر في هذه المرة سببه اهل دمشق انفسهم، فان الجيش والولاية كانا مجمعين ومتفقين على الاعتراض على ابتداء الخط من رياق لأسباب جوهرية كتبا بها الى الباب العالي وغيره من دوائر العاصمة العالية وفندا كل دعاية جاءت في هذا السبيل وكادا ينجحان في مسعاهما. ولما أعجزت الافرنسيين وذويهم الحيل قام رشيد المطران اخي صاحب الامتياز واستكتب محضراً استهله بالدعاء والشكر للسلطان على انشاء خط حديدي من رياق الى حلب، وعرض هذا المحضر على المتزعمين والمتعممين من الدمشقيين فوقعوه بدون ترو ولا امعان. وغبّ التوقيع عليه بالمئات أرسله على جناح البرق الى العاصمة حيث كان البعض ينتظره هناك فأحل المحل المُقصود بحجة ان الأمة تروم ذلك، وقضي الأمر. ثم رام ذلك البعض ان يعوّض على دمشق بجعلها مبدأ الخط الحجازي، وما لبثت فرنسا وانكلترا ان وضعتا أيديهما على الخط الحجازي ايضاً وحرمتا البلاد من حقوقها الطبيعية والاقتصادية والدينية في آن واحد.

(٦٠) كان العلامة محمود افندي الحمزاوي مفتي الشام وعميدها نظم تاريخاً لهذه الدائرة فنقش على بابها. وبيت التاريخ منه هكذا (ففدى تاريخه ازهى ملكاً ـ به لمسلك البرق والبريد تم سنة ١٣٠٠) وحيث انه يحتوي اسم السلطان انتزعه الاتحاديون إبان ثورتهم ووضعوا مكانه حجراً بسيطا كتبوا عليه «دائرة البرق والبريد» فقط. وكذلك طمس الاتحاديون التواريخ المنقوشة على قاعدة النصب (الأثر الحجري) المقام في ساحة المرجة (البلدية) تذكارا لمد الاسلاك البرقية الى المدينة المنورة كيلا يرى فيها اسم السلطان ايضاً وهكذا جنوا على التاريخ جناية مزدوجة.

(٦١) اعادة السقف الى حالته الأصلية وجعله خشباً ايضاً يجعل خطر الحريق دائما في كل وقت ولذلك ارتأى البعض ان يجعل الجامع ذا قباب حجية على طراز جوامع الروم كما هو في التكية السليمية دفعا لذلك الخطر، فعارضته الأكثرية الساحقة من الأمة، وأصرت على اعادته كما كان خشباً، حفظا لشكله القديم، وبذلت في سبيل ذلك ما يلزم من النفقات فتمّ لها ما ارادت.



٩ جمعية الاتحاد والترقي وإنهيار السلطنة

لما أجل السلطان عبد الحميد مجلس النواب (المبعوثان) ولم يُدع الى الاجتماع ثانية، تآمر عليه بعض الناس في مدينة سلانيك وأسسوا جمعية سياسية دعوها (جمعية الاتحاد والترقي) وجعلوا لها فروعاً في سائر البلاد العثمانية وفي مصر وأوروبا، فاخذت هذه الجمعية تبث الدعايات وتنشرها ضد السلطان في جميع الانحاء وتطلب إعادة الحكم النيابي، وأنشأت لذلك صحفاً متعددة كانت تطبعها في مصر واوروبا وسلانيك وترسلها مغلقة الى كل من تأنس منه الميل الى الحرية من ابناء الأمة وموظفيها، وقد أربا عدد الصحف التي أصدرها الاتحاديون على الأربعين جريدة تحت أسماء مختلفة، ولم تثبت منها سوى ثلاث وهي المسماة «مشورت» و«ميزان» و«عثمانلي»، والباقية اختارت الاحتجاب من تلقاء نفسها بعد صدور بضعة أعداد منها.

انتشرت دعوة الاتحاديين أوّلا في المدارس العالية بالعاصمة كالمدرسة الحربية والطبية والبحرية، والملكية، والحقوق، والهندسة، والسلطانية، ومدرسة «نمونة ترقي» وغيرها من المدارس الرسمية وأخذ تلامذتها ينقلون دعاياتهم الى اوطانهم ثم ان الضباط الذين تشربوا روح الثورة في المدرسة راحوا ينفثون سمومهم في أفراد الجند أيضا حتى أصبح الجيش الثالث في سلانيك كله من منتسبي جمعية الاتحاد ولم يشذّ عنه سوى الفريز شمسي باشا في مناستر وقائم المقام ناظم بك في سلانيك، فقتلهما الاتحاديون جهاراً واتفقوا مع عصابات البلغار وكاتبوا الجيش الثاني في ادرنه، واستمالوا الى حظيرتهم ونادوا بالدستور العثماني (القانون الاساسي) في مدينتي سلانيك ومناستر يوم ١٠ تموز سنة ١٣٢٤ مالية، فرأى السلطان النزول عند رغبتهم كيلا تتفرق الكلمة، وتتهلهل الآراء، وأعلن العمل بالقانون الأساسي في العاصمة وسائر الولايات ايضاً، بعد ان كان يؤجله لاعتقاده بأن الأمة لم تبلغ من النضوج السياسي درجة تؤهلها للسيطرة على الأحكام العامة بعد.

عقيب اعلان الدستور استولى الاتحاديون على مناصب الدولة ومراكزها بأجمعها واحتكروها لأنفسهم، ثم بوشر بانتخاب النواب (المبعوثان) على درجتين فانتخب للمرة الأولى عن دمشق عبد الرحمن بك اليوسف، وسليمان افندي الجوخدار، ومحمد افندي العجلاني، وشفيق بك المؤيد، ورشدي بك الشمعة، وجبران افندي لويس، وما لبث المجلس ان أجتمع في العاصمة وراسه أحمد رضا بك[1] زعيم الاتحاديين ونائب الاستانة، وراح يتناقش في الأمور المودعة اليه واذ ذاك اعلنت دولة اليونان الحاق جزيرة كريد وضمها اليها، ونادت اوستريا (النمسا) بالقضاء على ولايتي البوسنة والهرسك اللتين كانت تحتلهماموقتا، وأعلن البرنس فرديناند امير البلغار انفصاله واستقلاله عن الدولة العثمانية، وأبدت سائر الدول بعض المتحفظات تجاه عجرفة الاتحاديين وغطرستهم.

وكان لدعاية الاتحاديين اثرها السيء في سورية حيث لا مجتمع سياسي يرجع اليه الناس في مشوراتهم وآرائهم. ولما رأوا من الاتحاديين ذلك النفوذ العظيم في قلب الحكومة راساً على عقب وتسلمهم زمامها تبعهم البعض أمل الوصول معهم الى الغايات التي تصبو اليها نفوسهم ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا ان تلك الاستفادة إن هي الا احتكار منحصر ببعض أشخاص من صناديد الاتحاد ومن سواهم، ففترت همّتهم وأدركتها الدعايات الأجنبية التي كانت لهم بالمرصاد ومنّتهم بأماني بنوا عليها القصور العوالي (كما نذكره في باب الاصلاحات الآتي) فطلبوا من الاتحاديين التساوي معهم في جميع وظائف الدولة بحيث يكون منهم الوزراء في عاصمة الدولة أيضاً، ولما لم يجابوا الى طلبهم ترك أكثرهم حزب الاتحاد والترقي وانخرط في الائتلاف الذي تأسس في العاصمة لمناوءة الاتحاديين وتخليص الأحكام من أيديهم. ثم تألف في دمشق حزب آخر دعوه (الجمعية المحمدية) وانضمّ اليه عدد غير قليل من الدمشقيين وغيرهم.

وفي غضون ذلك قامت في العاصمة أفواج القناصة (التشايمي) التي جيء بها من بلاد الروم وقلبت ظهر

المجن لضباطها وقادتها من الاتحاديين وطردتهم من بينها وجاءت بسلاحها الى ساحة (آياصوفيا) بالاستانة حيث مجلس المبعوثان في نفس يوم ٣١ آذار سنة ١٣٢٥ ماليّة، وقتلت خطأ ناظم باشا وزير العدلية ظناً بأنه احمد رضا بك رئيس المبعوثان، والأمير محمد ارسلان نائب اللاذقية، توهماً بأنه حسين جاهد مبعوث الاستانة وروح الجمعية الاتحادية، وصاحب جريدة «طنين»، وعمّ الهياج يومذاك العاصمة والولايات كلها.

وعلى أثر ذلك قام الفريق محمود شوكت باشا البغدادي[٢] قائد الفيلق الثالث في سلانيك واصطحب معه عصابات البلغار وبعض كتائب الفيلقين الثاني والثالث وزحف بهم على العاصمة واحتلها. وأبى السلطان عبد الحميد مقاومته ومقاتلته بما كان لديه من الجند الثابت على ولائه والخاضع لأمره ضنًا بدماء الأمة من ان تراق هدراً.

ثم قبض جيش الاحتلال هذا الذي دعوه جيش الحركة على من قام ضد الاتحاديين بقلمه ولسانه وأعدمهم جميعاً، وأجلى من شاغب عليه عن بلادهم، ثم حصل على قرار من مجلس المبعوثان المؤلف من الاتحاديين دون سواهم بخلع السلطان عبد الحميد فخلعوه وأجلسوا أخاه محمد رشاد افندي باسم السلطان محمد الخامس.

في أيام هذا السلطان ازداد تسلط الاتحاديين على امور الدولة، واستولوا على الكليات والجزئيات من وظائف الحكومة، وأرسلوا السلطان المخلوع الى سلانيك ـ معقل الحرية بنظرهم وأسكنوه هناك مدة في قصر التاجر (الاطني) الايطالي تحت الاحتياط والمراقبة، ولما اشتبكوا بالحرب مع اليونان أعادوه الى العاصمة واسكنوه قصر (بكلر بكي) على شاطيء البوسفور فأصيب وهو فيه بعلة (ذات الرئة) التي تنبعث على الأكثر من تأثير البرد فمات متأثراً منها في شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٦ هجرية و١٠ شباط سنة ١٩١٨ ميلادية رحمة الله.

كان السلطان عبد الحميد ذا عزم وارادة، بعيد النظر، كارهاً للحروب وفق في توطيد دعائم الأمن ونشر العلوم وانماء الزراعة وتوسيع التجارة في جميع أنحاء السلطنة الواسعة، وقد امتاز برفضه الاستقراض من الأجانب طيلة مدة حكمه التي ناهزت الأربع وثلاثين سنة. وفي النهاية عومل من قبل تلامذة المدارس التي أنشاها هو كما عومل قبله عمه السلطان عبد العزيز من جانب الجنود الذين سلّحهم بنفسه.

اتهم الاتحاديون السلطان عبد الحميد ببضعة أمور رئيسية، وهي:

١ـ إستبداده المطلق.

٢ـ إضاعته البلاد.

٣ـ منحه الرتب العسكرية لمقربيه بدون استحقاق، وغضّه الطرف عن تلاعبهم.وعن إخلالهم بامور السلطنة.

٤ـ صرفه الأموال جزافاً.

٥ـ إعدامه الشباب الذين كانوا يشاغبون عليه.

وهذه الدعوى بعيدة عن العقل والمنطق، ومهما يكن من أمرها فان الحكومات في جميع الأعصار والأمصار تنظر دوماً الى الصالح العام وتنصرف الى تأمين منافع المجتمع، اذا تعارض لديها أمران تختار اخفهما ضرراً واهونهما شراً، والذي يراه الحاضر لا يراه الغائب وكم من أمر تلجأ اليه الحكومات مكرهة لئلا تضطر الى قبول ما هو أعظم منه وأمثال ذلك كثيرة[٣].

ولا عبرة بالكتب والصحف التي كانت تطبع وتنشر في ذلك الحين بايعاز من الاتحاديين وتعليمهم لأن أصحابها كانوا مدفوعين من قبل الخصم لتسويد صحيفة السلطان عمداً وتبرير أعمالهم كما فعل المتشيعون عند قيام العباسيين، فأظهروا الامويين بمظهر الضار المهلك لهذه الأمة، وهو ادعاء بعيد عن الحقيقة بعد الارض عن السماء. على ان الاتحاديين ما تسلموا زمام الأحكام بين عشية وضحاها الا وقاموا بأعمال غريبة جعلت أعمال السلطان ضئيلة لا تذكر بالنسبة اليها، وهي لا تلتئم مع دعاياتهم واليك ايضاحها:

١ـ أظهر الاتحاديون من ضروب الاستبداد ما لم يحلم به نيرون والنمرود.

٢ـ اضاعوا ثلاثة أرباع بلاد السلطنة وهي إقليم الروم (روم ايلي) بأجمعه المؤلف من ولايات يانيا واشقودره وقوصوه ومناستر وسلانيك، ومعظم ولاية آدنه، ثم ولايات كريد وطرابلس الغرب وبحر الجزر (الارخبيل) ثم بلاد العرب كلها وهي مصر، الحجاز، اليمن، نجد، العراق، وسورية، ثم ولاية آدنه (كيليكيا).

٣- صعد أنور[٤] بطل الحرية من رتبة قائد (بكباشي) الى رتبة فريق خلال ثلاث سنوات وتولى نظارة الحربية ونيابة قيادة الجيش العليا (والقائد الأعلى هو السلطان نفسه) وتوصل هو الى السيطرة على العائلة المالكة. وتبعه جمال[٥] وأضرابه وقطعوا في بضع سنوات بضع درجات من المراتب العسكرية التي لم يكونوا لينالونها في أقل من عشر سنوات فيما اذا روعي بحقهم القانون العسكري بحذافيره. وأصبح أنور الكل في الكل يستبد بمصالح الدولة استبداداً يودي الى التهلكة. وقد بلغ به الطيش والغرور الى ان أكره الدولة على الدخول في الحرب العالمية دون سابق استشارة ولا مذاكرة (كما نشرحه فيما يأتي انشالله).

٤- أخذ جاويد[٦] وزير المالية يعقد القروض لحساب الدولة الواحد تلو الآخر لقاء وضع مالية الدولة تحت إشراف ومراقبة الافرنسيين والتعهد بترجيحهم على غيرهم في الامتيازات التي يرام منحها الى الراغبين من الأجانب وغير ذلك مما له مساس بكرامة الدولة واستقلالها وراح يأخذ عن تلك القروض عمولة لنفسه بلغت في إحداها ستمائة الف دينار من القرض ذي الأربعين مليوناً الذي عقده في باريز سنة ١٣٢٨. وشرع الاتحاديون يضعون أيديهم على تلك الأموال الطائلة ويستجرونها من خزانة الدولة تحت اسم التخصيصات المستورة ويبذرونها في سبيل أهوائهم وأغراضهم دون ان يكونوا مكلفين بأداء حساب عنها ولا من يجرؤ على سؤالهم عن مصيرها.

٥- استخدموا الجواسيس الذين أربوا على جواسيس السلطان المخلوع باضعاف.

٦- كل من تجاسر وانتقد أعمالهم أو أبدى رأياً أو فاه بكلمة ضدهم أعدموه في الحال، كما فعلوا بالداماد صالح باشا، والفريق يوسف باشا، والزعيم فريد بك، والمحرر أحمد صميم، وعلي كمال وغيرهم.

على أثر ذلك انقلب عليهم الرأي العام الذي كان يعضدهم من قبل واسقطهم من الحكم الذي تولاه حزب الائتلاف بزعامة كامل باشا الصدر الأعظم ولكن هذا الحزب لم يستطع إخفات صوت الاتحاديين فثابروا عليه وجاء ذات يوم أنور الى الباب العالي وقتل ناظم باشا وزير الحربية في بهو الباب العالي واغتصب الحكم اغتصاباً والف وزارة جديدة وجعل محمود شوكت باشا رئيساً (صدراً أعظم) لها وتولى هو وزارة حربيتها. وما لبث محمد شوكت باشا ان قتل على قارعة الطريق بالاستانة من قبل بعض الاشخاص الذين كانوا في صفوف الاتحاديين ولم ينالوا مأربهم فانقلبوا عليهم.

وبعد مدة تألفت وزارة اتحادية رأسها سعيد حليم باشا[٧] أمين سر (سكرتير) جمعية الاتحاد والترقي، وفي أيام هذه الوزارة أعلنت الحرب العالمية الكبرى واشتركت فيها الدولة العثمانية برأي أنور وحده (كما نذكره في باب الحرب) الذي حاول أن يجعل هيأة الوزارة تجاه امر واقع شأنه في جميع امور الدولة الهامة فأبى بعض الوزراء التوقيع على قرار الدخول في الحرب واستقالوا من مناصبهم (وهم اوسقان افندي ناظر البريد والبرق وسليمان افندي البستاني وزير الزراعة والتجارة، وجود كصما محمود باشا وزير النافعة وجاويد بك[٨] وزير المال) ولبث سائر الوزراء في مراكزهم ووقعوا القرار الذي أعده أنور باشا بشأن الاشتراك في الحرب وحملوا وزرها الى يوم الدين وهم:

سعيد حليم باشا	الصدر الأعظم
خيري افندي	شيخ الاسلام
طلعت باشا	وزير الداخلية
أنور باشا	وزير الحربية
أحمد جمال باشا	وزير البحرية
إبراهيم بك	وزير العدلية
شكري بك	وزير المعارف

وكان من نتيجة هذه الحرب ان استولت الدول المتحالفة على العاصمة وضواحيها وانفرط عقد الجمعية

الاتحادية وتشرّد رجالها وفرّ كل منهم الى جهة متنكراً ومختبئاً، فادركتهم رسل المنون حيث اغتيل طلعت باشا في برلين، وقتل سعيد حليم في روما، وشنق جاويد في انقرة، واغتيل أنور في مجاهل آسيا، وأهلك جمال في تفليس، واعتقل حسين جاهد مؤبدا في جوروم، ولم يعلم مصير الباقين، وما يدري القاتل عما يعمل الظالمون.

تصحيح شطحات صاحب الخطط

ذكرنا ما كان من أمر الاتحاديين وأعمالهم التي أودت بحياة الدولة العثمانية وهنا نأتي على تصحيح بعض الأغلاط التي جاءت في كتاب الخطط فنقول:

١- يقول صاحب الخطط ان جنود الأرناؤوط الذين جيء بهم الى الشام إبّان ثورة الدروز تركوا في العراء فهلكوا بالزجر! وهذا غلط، فان أولئك الجنود جاءوا بملابسهم السوداء الجديدة وهي كاملة لا ينقصها شيء على مرأى ومشهد من الناس عامة وخصوصاً أهل دمشق الذين شاهدوهم بأعينهم وما زال أكثرهم أحياء حتى ان ملابسهم السوداء كانت علامة بين الدروز وإشارة للابتعاد عنهم اتقاء شرّهم فكان الدروز يحثون بعضهم على الزرق (ذوي الملابس الزرقاء ـ وهم اولاد العرب) ويوصون بالابتعاد عن السود (أرباب الملابس السوداء ـ وهم الأرناؤوط).

نعم ان أولئك المساكين مات منهم نفر ولكن ليس بسبب العراء كما قيل بل بسبب التعرض فجأة من الحرارة الشديدة البرد القارص عند خروجهم الى بيروت فانهم لما بلغوها وكانوا في مستودعات البواخر الشديدة الحرارة أخرجهم قائدهم ومواطنهم أمير اللواء نعيم باشا الى ذروة الجبل الكثيرة البرودة وكان الوقت شتاء وسار بهم دون استراحة نحو دمشق التي كان يخالها سقطت أو هي على وشك السقوط في أيدي الدروز.

٢- لم يكتف صاحب الخطط بتلك الغلطة بل تعداها الى أعظم منها وقال إن الجنود في الدولة العثمانية كانوا يلبثون في الخدمة العسكرية عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، لا يسرّحون ولا يبدلون وخصوصاً إذا كانوا في بلاد قصية كالحجاز واليمن وغيرها. وهذا أيضاً غير صحيح لانه لم يكن شيء من ذلك في جيش الشام قط. أما اليمن فاننا ذهبنا اليها بانفسنا، وشاهدنا بأعيننا وعلمنا من تدقيقاتنا عن الزمن السابق ان جنود اليمن والحجاز الذين يرجعون الى فيلق واحد لم يلبثوا في الخدمة العسكرية أكثر من أربع أو خمس سنوات على الأكثر وذلك إبان الضرورات والاحتياج الشديد فقط، وفي سائر الأيام كانوا يسرّحون ويستبدلون غبّ انقضاء المدة المعينة لهم وهي ثلا ث سنوات لا اكثر.

٣- وهنالك غلطة ثالثة: وهي قوله ـ ان أكبر رجال الشورى العسكري (ويعني أركان الحرب) في الفيلق الخامس قال له ـ ان الدولة بحسب إحصاء الجيش كانت تدفن في كل سنة من أبناء الشام في بلاد اليمن نحو عشرة آلاف جندي يهلكون من الأمراض والقلّة وتغيير الهواء وانها دامت على ذلك خمسين سنة.

يجدر بالمؤلف ان يراعي المنطق في أقواله، وهذا الادعاء لا يحوي شيئا من ذلك، واليك البرهان:

الدليل الأول

اننا لا نخال ذلك الرجل الكبير يتفوه بمثل هذا الخطأ الفاحش، لأن الفيلق الخامس بدمشق كان مؤلفاً من أربع وستين دائرة لأخذ العسكر (التجنيد) وكل دائرة كانت تجنّد في اليوم الواحد من مائتين الى مائتين وخمسين شاباً فقط، والقدر الأعظم لمجموع الجنود التي كانت تؤخذ سنوياً من منطقة الفيلق كله كان يتراوح بين الخمسة عشر والسبعة عشر الفا، يتأخر منهم زهاء خمسهم ويتوارى عن الأنظار فيقال له بقايا والخمس الثاني يؤدي البدلات النقدية لقاء الخدمة الفعلية، ويلبث في بلاده حراً طليقاً فيبقى ثلاثة أخماس لا يتجاوز مجموعها العشرة او الاثنى عشر الفاً بوجه العموم وهم من أهل المنطقة كلها التي تمتد من غزة الى البستان وقوزان ومنهم العربي

والتركي والكردي والشركس الى غير ذلك من الاقوام سكان هذه البلاد، اما ابناء الشام منهم فاذا اعتبرنا الشام تشكل الساحل والداخل معاً بما فيها فلسطين وحلب ودير الزور فهم اهل اربعين دائرة يبلغون (٤٠×٢٥٠=١٠٠٠٠) عشرة الاف يخرج منهم الخمسان وهم دافعو البدلات النقدية، والبقايا المتأخرون وعددهم اربعة الاف فيبقى ستة آلاف فقط لسياق بعضهم الى كتائب الحرس الخاص السلطاني في العاصمة التي كانت تؤلف من أبناء العرب دون سواهم والبعض منهم يدخل القطعات العسكرية المؤلف منها الفيلق نفسه، وقسم قليل منهم يرسل الى الحجاز واليمن، وهو لم يكن يبلغ في سنة من السنين أكثر من ألف او الف ومائتي جندي قط، ومؤلف هذا الكتاب تولى هذه الوظيفة بنفسه زهاء أربعة عشر عاماً وقوله عن علم لا يمكن دحضه، فكيف يكون والحالة هذه الهالكون من أبناء الشام وحدهم في السنة الواحدة عشرة آلاف.

الدليل الثاني

ونأتي به من جهة اليمن، وهو انه إذا كان يهلك في العام الواحد عشرة آلاف جندي من أهل الشام وحدها أفلا يكون بقي منهم في الجيش ما يضاهيهم عدّاً على الأقل. لنفرض المحال ونقل جدلا انهم كانوا يموتون كلهم ولا يعود منهم لبلدته أحد، وهذا يخالف الواقع، على انه من المعلوم يقيناً والمشاهد حساً وعياناً ان الجيش السابع في اليمن كان يؤلف من أبناء جميع الاقوام القاطنين في مختلف البقاع في الدولة العثمانية، ففيه التركي والارناؤوط والكردي واللاز واليونان والشركس وغيرهم عدا أولاد العرب، وكل قسم من أبناء هؤلاء الأجناس كان أكثر من أولاد العرب بوجه التأكيد فاذا كان الهالكون من أبناء الشام عشرة الاف في العام والخدمة العسكرية ثلاث سنوات فقط (لا عشر أو خمس عشرة كما جاء في الخطط) يكون مجموع الهلكة من الشاميين في السنين الثلاث، ثلاثين ألفاً اضف اليهم مثلهم من كل جنس من أولئك الأجناس السبعة المؤلف منها الجيش (٧×٣٠٠٠٠=٢١٠٠٠٠) يبلغ مجموع الجيش اليمني مائتين وعشرة آلاف جندي أو ما يقارب ذلك. فهل يقول بهذا ذلك الرجل الكبير؟ كلا! لا يمكن ذلك لأننا نعلم حق العلم ان مجموع الجيش اليماني كله لم يتجاوز بل ولم يبلغ في بعض السنين العشرة آلاف جندي قط. وهو مزيج من جميع الأجناس كما قدّمنا وفي كل سنة يسرّح ثلثه ويعود الى بلاده ويبقى الثلثان، وهلم جرا. وربما قصد ذلك الرجل الكبير أن يقول ان مجموع من مات من أبناء الشام بالجندية في اليمن بلغ العشرة آلاف وذلك منذ استيلاء الغازي مختار باشا على عسير وصنعاء عام ١٢٨٧ فاذا قسمنا هذا العدد على السنين الأربعين التي قضاها العثمانيون في اليمن (لا الخمسين كما يقول الكرد علي) ١٠٠٠٠/٤٠=٢٥٠ يصيب السنة الواحدة مائتان وخمسون شخصاً (وهذا أيضاً يستبعد وقوعه على ما نعتقد) فأين ذلك من العشرة آلاف التي ذكرت في كتاب الخطط.

السلطان رشاد

كان السلطان محمد رشاد ضعيف الارادة جزوعاً، سلّم زمام الملك الى الاتحاديين وترك لهم الحبل على غاربه، ولم يكن له من السلطنة سوى الاسم والاثم فقط.

وكان الاتحاديون في أيامه لا يحجمون عن الاتيان بكل كبيرة او صغيرة مهما كان شأنها دون ان يتبصروا في عواقبها فساء مصير السلطنة وانتهى بالاحتلال التام.

نوّهنا فيما سبق بخلاصة الأعمال الجنونية التي قام بها الاتحاديون في أيام هذا السلطان، وهنا نأتي على ذكر ثلاث وقائع منها، وهي التي أودت بحياة الدولة العثمانية، فنقول:

طرابلس الغرب

كانت دولة ايطاليا تنظر الى تونس وطرابلس الغرب القريبتين منها نظرة الجشع والطمع منذ القديم وعندما استولت فرنسا على تونس استحلت لنفسها طرابلس الغرب وحصلت على موافقة ضمنية من انكلترا وفرنسا

بعدم معارضتها في ذلك، وراحت تتحين الفرص لاحتلالها. علم بذلك السلطان عبد الحميد وأعد عدته للدفاع عن طرابلس الغرب فيما اذا تخطى عليها متخطٍ، فأقام فيها فرقة عسكرية كاملة العدد والعدة (والفرقة سبعة عشر طابوراً كما لا يخفى) وعدا هذه الفرقة العاملة أرسل ايضاً بوجه الاحتياط عشرين ألف بندقية مع ذخائرها لتوزع عند الحاجة على الأهلين الذين كلفوا بالتدريب العسكري بحيث يكونون احتياطاً لتلك الفرقة، وعلى قدم الدفاع عن الوطن متى دعاهم لذلك داع.

ولما استولى الاتحاديون على زمام الدولة اخذوا من فرقة طرابلس الغرب خمسة أفواج أي زهاء خمسة آلاف جندي بسلاحهم الى جهات مختلفة، ثم لاح لهم تبديل تلك البنادق الاحتياطية ببنادق من الطراز الحديث، وبدون ان يرسلوا غيرها او يستبدلوها استبدالا، سحبوا تلك البنادق كلها الى العاصمة، وتركوا البلاد بدون سلاح، فاغتنمت ايطاليا الفرصة وخفت الى الساحل الطرابلسي وأخرجت تتدرج بالاستيلاء على الولاية كلها وشفتها باحتلال الجزر الاثنتي عشرة الواقعة في مدخل بحر الجزر (الارخبيل) وهي رودوس وغيرها وقطعت بذلك خط المواصلات بين العاصمة وطرابلس.

البلقان

في أيام السلطان رشاد اتفقت دولة البلقان ضد الدولة العثمانية وتجاوزت حدودها ودخلت ارض الدولة التي رامت الذبّ عن حياضها ولكن خزانتها كانت فارغة من جميع القروض التي عقدها الاتحاديون وبذروها في سبيل دعاياتهم وترسيخ اقدامهم، وكان الجيش ما زال في قبضة الضباط الاتحاديين وادواته ناقصة ومؤونته وذخائره تكاد تكون مفقودة وقد استولى عليه الوهن والضعف من الجوع والعرى وتبلبلت آراء قواده بين منتسبي الأحزاب فلم يقو على الدفاع وتراجع امام الخصوم تراجعاً مشيناً. فتبعته جيوشهم واكتسحت بلاد الروم (روم ايلي) برمّتها، وكان من نصيب اليونان ولايتا يانيا وسلانيك، وخمسا ولاية مناستر، واستولت الصرب على ولاية قوصوه وما بقي من مناستر، وتطاول الجبل الأسود على ولاية اشقودره، فزحفت البلغار على ولاية ادرنه ورامت التقدم نحو العاصمة القسطنطينية، وكادت تستولي عليها أيضاً سنة ١٣٢٩ لو لم تعترضها الدول العظمى وتوقفها على أبواب المدينة.

الحرب العالمية

وهي ثالثة الأثافي وقد أفردنا لها بابا خاصاً سنذكره فيما بعد.

الاصلاحات

على أثر استيلاء الاتحاديين على جميع دوائر الدولة واستبدادهم باحكامها قام نفر من السوريين وعقدوا اجتماعاً في بيروت دعوه (جمعية الاصلاح) ووضعوا فيه لائحة تتضمن المطالب الآتية:

١ـ حصر اللغة التركية في المخابرة مع العاصمة فقط وجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية.

٢ـ انتقاء الموظفين السوريين ممن يحسنون العربية واستثناء الولاة من ذلك الى ست سنوات فقط.

٣ـ اخذ راي الحكومة المحلية في انتقاء مأموري الملكية والعدلية وضباط الدرك.

٤ـ إحداث محكمة تمييز عليا في سورية عدا محكمة الآستانة التمييزية لتمييز الاحكام التي تصدر من محاكم حلب والشام وبيروت والقدس.

٥ـ جعل الخدمة العسكرية محلية تقضي في الولايات العربية أيام السلم فقط.

٦ـ تقسيم مداخيل البلاد الى قسمين الأول حاصلات الكمرك والبريد والبرق والبدلات النقدية العسكرية فهذه تبقى الى الحكومة المركزية كما في السابق والثاني الضرائب والرسوم وغيرها من واردات الحكومة وهذه توضع تحت تصرف الولايات فتصرف في سبيل الاحتياجات المحلية.

٧- إعادة تأليف المجالس العمومية في الولايات التي كانت تأجلت من قبل وجعلها ذات صلاحيات واسعة في الادارة والتشريع بحيث يكون من اختصاصها حل جميع المسائل ما عدا السياسة العامة والمدافعة الوطنية التي تبقى من اختصاص الحكومة المركزية في العاصمة.
٨- الاستعانة بالمستشارين الأجانب، لتنسيق واصلاح أمور الدرك والشرطة والعدلية والمالية وتعيين هؤلاء المشاورين لمدة خمس عشرة سنة وانتقاؤهم من المتضلعين من إحدى اللغتين العربية والتركية.

ثم انتخبوا وفداً أرسلوه الى باريز برئاسة الشيخ عبد الحميد الزهراوي[٩] وائتمروا هناك أيضاً، وقرروا ان يشترك أبناء العرب في ادارة الدولة المركزية اشتراكاً فعليا وان تعتبر اللغة العربية في مجلسي النواب والأعيان لغة رسمية فيهما، وان تنفذ لائحة الاصلاحات البيروتية بحذافيرها.

ثم دخل الشيخ الزهراوي على المسيو (بيشون) وزير الخارجية الافرنسية ورجاه باسم سورية ان يتوسط لدى الدولة العثمانية في هذه الاصلاحات (وبذلك أيّد دعوى فرنسا في سورية وفتح لها باباً جديداً للمداخلة في شؤون الدولة العثمانية).

خشي الاتحاديون من اتساع الخرق وبعثوا بأحد رجالهم، وهو مدحت شكري بك وزير المعارف، الى باريز، فاسترضوا جماعة الوفد وأطمعوهم بالوظائف الكبرى ووعدوهم باجراء الممكن من تلك الاصلاحات المقترحة بحيث يكون التعليم الابتدائي والثانوي باللغة العربية، وان تستعمل العربية في بعض المعاملات القانونية المعينة وان العرائض التي ترفع الى السلطات الرسمية تكون بالعربية، وأن يعيّن بعض رجال العرب في مجلسي الأعيان والشورى، وان تعاد المجالس العمومية كما كانت قبلا، وغير ذلك.

وفعلاً أخذ الاتحاديون بتنفيذ هذه الوعود واحدثوا في الشام وبيروت وحلب وبغداد مدارس ثانوية باسم المدارس السلطانية العربية فأخذت تلقي دروسها باللسان العربي وعينوا الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وعبد الرحمن بك اليوسف عن سورية، ومحمد أفندي بيهم ويوسف بك سرسق عن بيروت، وسليمان افندي البستاني وابراهيم افندي صوصة عن جبل لبنان وأحمد بك كتخدا عن حلب، ومحيي الدين أفندي النقيب عن بغداد، وغيرهم اعضاء في مجلس الشيوخ (الأعيان) العثماني، وأعادوا تأليف المجالس العمومية في كل ولاية ، وجعلوا عبد الوهاب أفندي الانكليزي، وشكري بك العسلي، مفتشين للأمور الملكية في ولايتي بروسة وحلب، ومنحوا غيرهم من رواد الاصلاح ما راموا من الوظائف فقنعوا واكتفوا بها والتزموا السكون بعد تلك الضجة التي ثار عجيجها في البلاد كلها.

الحرب العالمية

الحرب العالمية الكبرى أعظم مصيبة أصيب بها البشر منذ الخليقة حيث اشتركت فيها اثنتان وعشرون دولة، ودامت أربع سنوات متواليات، وتطاحنت في ميادينها جيوش أربى عدد جنودها على الخمسين مليوناً من النفوس البشرية، هلك وقعد عن العمل منها زهاء نصفها بين قتلى وجرحى ومرضى وذوي عاهات لا يرجى شفاؤها، وقد بلغت نفقاتها ستة وخمسين مليارا (٥٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠) من الدنانير الذهبية وكل ذلك ذهب ضحية الاثرة والجشع ليس الا[١٠].

ومهما قيل عن اسباب هذه الحرب فان الدهاء الانكليزي الذي اعتاد العمل من وراء ستار لا بد من ان يكون له التأثير العظيم في نشوبها - عن أيد انكليزية طبعاً - لان نهضة الألمان العسكرية والصناعية والتجارية والاستعمارية التي اخذت تنمو وتتسع من حي الى آخر كانت لا تلتئم مع المصالح الانكليزية ويخشى منها على النفوذ البريطاني في كل محل هبطته من بقاع الأرض المترامية الاطراف.

ولما كانت سنّة الكون تقضي بأن يكون لكل أمر هام سبب ظاهري تتستر وراءه المقاصد الأصلية، وكانت الأسباب الحقيقية لايقاد نار الحرب لا يمكن الحكم عليها حكماً نزيهاً بريئاً من شوائب التحزب والأغراض في حياة علية القوم الذين كان لهم ضلع فيها - فقد اعتاد المؤرخون على إرجاء البت في هذه الأمور الهامة الى ما بعد مرور قرن أو نصف قرن على الأقل بحيث يكون ذوو العلائق قد رحلوا عن هذه الدنيا وسهل العثور على

الوثائق الصحيحة التي تظهر الحقائق كما هي. ولذلك أحببنا عدم الخوض في هذا المضمار وتركناه الى أهله ووقته، واقتصرنا في هذا المختصر على ذكر الأسباب الظاهرية وما نتج عنها في بلادنا من ويلات وانقلابات فنقول:

في صيف ١٩١٤ للميلاد و١٣٣٢ للهجرة ـ كانت دول اوروبا العظمى تؤلف كتلتين متعاهدتين ضد بعضهما، الأولى المانية واوسترية (النمسة) وايطاليا والثانية انكلترا وفرنسا وروسيا. وكانت روسيا تساند الدول الصقلبية الصغرى كالصرب التي دعيت بعد الحرب (يوغوسلافيا) وانكلترا تعاضد الدول الغربية كالبلجيك وغيرها.

وفي تلك الآونة جاء الارشيدوق (فرانسوا) ولي عهد الامبراطورية النمساوية الى مدينة سيراجيفو (بوسته سراي) حاضرة إيـالة البشناق فاغتاله فيها شاب صربيّ يسمّى (برينسيب ايليك) وعلى أثر ذلك قامت قيامة النمسا واخذت تضغط على المملكة الصربية بدعوى أنها هي المحرضة لذلك الشاب. فناصرتها روسية وهبت كل من تلك الدول لمساعدة حلفائها. فتولدت من ذلك الحرب العالمية التي أعلنت في ١٤ آب سنة ١٩١٤ (رمضان ١٣٣٢). في اول الحرب التزمت ايطاليا جانب الحياد ثم نقضته حينما انتهى أجل اتفاقها مع الكتلة الجرمانية، وانضمّت الى أخصامها، وتبعتها بعض الدول في اوروبا واميركا، فمنها من اشتركت قبلا في الحرب والقتال ومنها من قطعت علاقاتها السياسية مع الكتلة الأولى واخذت تخاصمها عن بعد وتصادر بواخرها التي لجأت بسبب الحرب الى مرافئها وبذلك بلغ عدد الدول المحاربة والمخاصمة للكتلة الجرمانية ثماني عشر دولة ومن جملتها حكومة الولايات المتحدة الاميركية التي أعلنت اشتراكها بالحرب مع الانكليز والفرنسيين في أواخر أيامها وكان لاشتراكها التأثير الحاسم لانهاء تلك المجزرة.

ومنذ اول الحرب اطلق اسم «المتفقين» على الكتلة المحاربة الأولى، وعنوان «الحلفاء» أو «المتحالفين» على الكتلة الثانية تمييزاً لكلّ منها عن غيره، وهذه أسماء دول الكتلتين:

الكتلة المتفقة	الكتلة المتحالفة
١ـ لمانيا	١ـ روسيا
٢ـ وسترية (النمسة)	٢ـ انكلترا
٣ـ المغاريا	٣ـ فرنسا
٤ـ تركية	٤ـ ايطاليا
	٥ـ بلجيكا
	٦ـ صربية
	٧ـ رومانيا
	٨ـ بروتوغال
	٩ـ اليونان
	١٠ـ اميركا
	١١ـ البرازيل
	١٢ـ ارجنتين
	١٣ـ شيلي
	١٤ـ مكسيكا
	١٥ـ بيرو
	١٦ـ هايتي
	١٧ـ بوليفيا
	١٨ـ بورتوريكو

ولما كان الاتصال بين دول التحالف من جهة البحر تحول دونه جيوش المتفقين وطريق البحر الشمالي يغلق في اغلب ايام السنة بالجليد الذي يمنع الدنوّ من شواطئه، فلم يبق للحلفاء من أجل الاتصال ببعضهم سوى طريق المضيقين (الدردنيل والبوسفور) الواقعين بين البحر المتوسط والبحر الأسود، وهما ملك الدولة العثمانية التي قد يؤثر ميلها الى احدى الكتلتين في حالة الحرب ونتائجها، فخفت كل منهما الى استمالتها.

وكان السلطان رشاد يخشى الحرب ويحاذر عواقبها، وكبير وزرائه (الصدر الأعظم) سعيد حليم باشا يأباها، فلم يجرأ الدولة العثمانية بادىء ذي بدء على خوض غمارها، ولبثت مدة من الزمن مترددة بين القبول والرفض، وقد اقترح عليها الحلفاء ان تبقى على الحياد على ان يضمنوا لها استقلالها، فلم تجبهم الى ذلك أيضاً، وكان انور باشا وزير الحربية وعميد الاتحاديين هو الآمر الناهي النافذ الكلمة في جميع أمور السلطنة، فالتفّ حوله الامبراطور غليوم الثاني عاهل الألمان بنفسه، وأقنعه بالاشتراك في الحرب مع كتلته المتفقة التي كان يؤمل فوزها وانتصارها على الكتلة المتحالفة وارسل له مدرعتين حربيتين كان اسمهما (غورين وبرسلاو) فدعاهما (باوز وبارباروس) وأدخلهما البحر الأسود تحت العلم العثماني فتحرشتا بالأسطول الروسي في البحر الأسود وتعقبتاه الى ساحل القريم وضربتاه بقذائفهما، فعد ذلك اشتراكاً فعلياً في الحرب من قبل الدولة العثمانية صاحبة العلم (تشرين الثاني سنة ١٩١٤) قال الداماد شريف باشا الصدر الأعظم في مؤتمر «سيفر» إذ كان مندوباً من قبل الدولة العثمانية فيه ـ إن الدخول في الحرب لم يكن الا بمجرد رأي انور وحده، وان السلطان وهيأة الحكومة لم يكن لهما علم به قبل وقوعه. وبما ان الدولة العثمانية تحتاج الى المال لادارة دفة الحرب اخذت تستجره بوجه الاستقراض من حليفتها المانيا. حدثني احد أرباب البصيرة من الاتحاديين قال: لولا استعجال أنور باشا في قبول الدخول في الحرب بدون قيد ولا شرط لكنا إذا قدر لنا دخولها نوفر على انفسنا نفقاتها ونلقيها على عاتق الذين يرون من مصلحتهم اشتراكنا معهم لنسد المضايق لاخصامهم. وهذا القول يدل دلالة صريحة على ان الاتحاديين انفسهم لم يكونوا مجمعين على دخول الحرب في جانب المانيا والنمسا، بل كانوا مترددين بين الكتلتين الى ان قضى عليهم أنور وجعلهم تجاه أمر واقع.

وفيما يلي نذكر ما حاق بالبلاد العربية من المصاعب في هذه الحرب المشؤومة التي اوصلتنا الى الحالة الراهنة فنقول:

المخابرات السرية والمعاهدات الخفية

دابت انكلترا على العمل بشتى الوسائل لتمزيق شمل الخلافة الاسلامية بتفريق العرب عن الترك وحل المسألة الشرقية التي استعصى أمرها على الغربيين منذ زمن الاسكندر، فوجدت في شخص الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة أكبر معين ونصير لأمانيها حيث أخذ من قبل الحرب العالمية يحتك بها، أمل الوصول الى اريكة الملك والخلافة التي تصبو اليها نفسه منذ صباه، وهي تهش في وجهه وتمنيه بالوعود، وقد انتحل الشريف لنفسه الزعامة على العرب جمعاء وراح يتكلم باسمهم[١١].

وكرر ادعاءه بانهم متفقون معه وراغبون في الخلاص من حكم العثمانيين، ثم اتصل الشريف بواسطة ابنه الأمير عبد الله[١٢] بالجنرال كيتشنر باشا) الانكليزي الذي كان ناظراً للجهادية المصرية، ومعتمداً لانكلترا في مصر، وبالسير (هنري ماكماهون) قنصل انكلترا في الاسكندرية وغب مخابرات ومذاكرات سرية جمة دارت بين الطرفين تعهد الجنرال والقنصل باسم دولتهما البريطانية باستقلال البلاد العربية وملكية الشريف حسين وأولاده عليها[١٣] وإعادة الخلافة الى العرب، وتعهد لها الشريف باثارة العالم العربي ضد الدولة العثمانية وبأنه إذا اعلنت حرب عامة في وقت من الأوقات لا يكون ضدّ انكلترا بل هو يساعدها على اخصامها، ويرجح الانكليز في كل مشروع اقتصادي يلزم البلاد العربية غبّ انفصالها عن الجامعة العثمانية.

ولما دخلت الدولة العثمانية الحرب مع المتفقين اقترحت انكلترا على حليفتيها فرنسا وروسيا اقتسام بلاد السلطنة العثمانية فقبلت الدولتان اقتراحها على ان تستولي روسيا على القسطنطينية والمضيقين وولاية ادرنه

وبلاد الأكراد، وان تعطى فرنسا سورية وولاية كيليكيا والموصل، وأن تكون لانلكترا مصر والعراق وسائر جزيرة العرب، وان تجعل فلسطين مقاطعة دولية تديرها هياة مختلفة من الحلفاء، وان تترك الاناضول لأهلها، واتفق الحلفاء على ذلك بتاريخ ٢٥ اذار سنة ١٩١٥ ثم حولوا هذا الاتفاق الى معاهدة رسمية أبرمت في مدينة (بيترسبورغ) في ٤ آذار سنة ١٩١٦ وسترى صورة هذه المعاهدة فيما يأتي. ثم أخذت انكلترا تتلاعب مع الشريف حسين وتغالطه وتساومه على البلاد العربية التي وعدته بتوليها وطلبت منه تحديدها فحددها الشريف أولا ـ من ادرنه الى خليج البصرة وما تحت هذا الخط من ارض الجزيرة كلها، واستثنى من ذلك فرضة عدن الانكليزية وحدها، فابتسمت له انكلترا وأغدقت عليه الهدايا واجابته بلسان السير (هنري ماكماهون) انها كما تعهدت له سابقا ترغب في استقلال البلاد العربية وتوافق على ان يكون الخليفة عربيا. اما من جهة الحدود فان مرسين والاسكندرونة لا تعدّ عربية بحتة، وكذلك الاقسام الواقعة غربي دمشق وحمص وحماة وحلب وهي مسيحية بأكثريتها الساحقة، فادخالها ضمن الحدود المطلوبة قد يؤثر على النتيجة التي تتوخاها انكلترا من الاتفاق مع فرنسا بشأن مطالب الشريف وتأييدها وان لانكلترا مصالح جمة في ساحل العراق وهي اذ ذاك تحتلها بجنودها فلا يمكن إدخالها ضمن الدائرة التي طلبها الشريف. على ان انكلترا تتعهد بحماية الأراضي المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف للعرب باستقلالهم وتقدم لهم الحماية وكل مساعدة تقضي لهم وتعينهم على تأسيس حكومتهم بشرط ان يكون جميع الموظفين الذين يحتاج اليهم لتنظيم دوائر ممالكهم من التبعة الانكليزية وحدها[١٤].

على أثر ذلك حذف الشريف حسين من مطاليبه اولا مرسين وآدنه، ثم عدل عن جبل لبنان، ثم قبل بأن يتخلى عن البلاد المحتلة من الانكليز في العراق لقاء مال يدفع له كتعويض عنها، ثم وافق على المعاهدات التي سبق لانكلترا عقدها مع شيوخ العرب وتعهد برعايتها والمحافظة عليها.

وفي ٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ عيّنت الحكومة الافرنسية المسيو (جورج بيكو) قنصلها السابق في بيروت مندوباً لمتابعة شؤون الشرق الأدنى ومفاوضة الحكومة الانكليزية في مستقبل البلاد العربية فجاء الى لوندره واجتمع الى السير (مارك سايكس) المندوب البريطاني لأمور الشرق الأدنى، فدارت بين المندوبين مفاوضات تقرر في نهايتها ان تستأثر الدولتان (فرنسا وانكلترا) ببلاد العرب تحت اسم المعاونة والمساعدة وان ينظم مصور (خريطة) لهذه البلاد ترسم عليه خطوط الحدود التي عينتها الدولتان لنفسيهما.

وقد تم ذلك في شهر أيار سنة ١٩١٦ وأرسل المسيو (بول كامبون) سفير فرنسا بلوندره كتاباً الى السير (ادوار غراي) وزير خارجية انكلترا يتضمن خلاصة ما حصل عليه الاتفاق بين مندوبي الدولتين معلناً قبول فرنسا له، وطالبا تنظيم معاهدة خاصة بمحتواه، فوافقت انكلترا على ذلك ونظمت هذه المعاهدة التي عرفت بمعاهدة (سايكس ـ بيكو)، وسننقل صورتها فيما يأتي، وغب التوقيع على هذه المعاهدة أعدت فرنسا جيشاً لاحتلال سورية التي جعلت من نصيبها، ولكن سقوط روسيا في ذلك الحين جعل انكلترا تبدل رأيها وتحتفظ لنفسها بحق القيام مقام روسيا باحتلال القسطنطينية، وتحرض فرنسا على ارسال الجيش الى سلانيك والدردنيل لمنع جيوش المتفقين من الوصول الى البحر المتوسط بعد انحلال روسيا، وتعهدت انكلترا بارسال جيش من مصر لاحتلال سورية باسم الحلفاء واقتنعت فرنسا بذلك.

المعاهدة الثلاثية لتقسيم البلاد العثمانية

في ٤ آذار سنة ١٩١٦ وقعت الدول الثلاث انكلترا وفرنسا وروسيا في مدينة بطرسبورغ على المعاهدة الآتية:

بناء على المفاوضات التي دارت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في ربيع سنة ١٩١٥ في لوندره وباريز.

وبناء على اقتناع هذه الدول المتحالفة بوجوب إنقاذ الأمم الخاضعة للسلطنة العثمانية واقتسامها مناطق نفوذ فيما بينها.

ولما كانت الأكثرية الساحقة من أبناء هذه البلاد راغبة جد الرغبة في الخلاص من تحكم الحكومة الحاضرة.

ولما كان الواجب يقضي بضرورة العمل على تدريب هذه الشعوب.

فقد تقرر ما يلي:

المادة الأولى ـ تتعهد فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا فيما بينها أن تعمل يداً واحدة في سبيل إنقاذ البلاد العربية وحمايتها وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها تتولى بريطانيا مراقبتها وإدارتها.

المادة لثانية ـ تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج وتسهيل وسائل السبل المؤدية الى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم.

المادة الثالثة ـ تقسم البلاد العثمانية الى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه الآتي:

منطقة نفوذ روسيا

اولا ـ تضم الى روسيا المناطق التالية:

أ ـ ولايتا أرضروم وتبليس والمناطق التابعة لهما.

ب ـ الأراضي الكائنة جنوبي كردستان والممتدة على خط موش ـ زهرت، ومن هناك تنحدر الى جزيرة ابن عمر ثم تتبع خطاً مستقيماً الى العمادية فالحدود الايرانية.

جـ ـ تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالا الى البحر الأسود بحيث تدخل طربزون ضمنها.

د ـ تنتهي نقطة حدود روسية على البحر الأسود شرقي طربزون في نقطة تحدد فيما بعد.

تخضع هذه الأراضي خضوعاً تاماً الى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسيا وتعتبر من ممتلكاته.

منطقة نفوذ فرنسا

ثانياً ـ تضم الى منطقة النفوذ الافرنسي المناطق التالية:

أ ـ السواحل السورية وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية وتنتهي في الاسكندرونة.

ب ـ تضم المناطق الساحلية جميعها الى فرنسا مع جبل لبنان المعينة حدوده بحسب الاتفاق الدولي.

جـ ـ تضم جزيرة أرواد والمناطق المجاورة لها والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرّف في الفقرة السابقة الى فرنسا.

د ـ تضم ولاية كيليكيا الى النفوذ الافرنسي وتبدأ حدود هذا الخط في جهة الجنوب من الحدود الخاضعة الى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمر ثم تتجه الى عينتاب وماردين ثم تنحدر شمالاً من آلاطاغ ـ قيصري ـ آق طاغ ـ بليبت طاغ ـ مزرعة ـ اكين ـ خربوط.

هـ ـ تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الافرنسي.

منطقة نفوذ بريطانيا

ثالثا ـ تؤلف منطقة النفوذ البريطاني من المناطق التالية:

أ ـ تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والافرنسية في الخطين السالف ذكرهما الى النفوذ البريطاني وهذه المنطقة تضم القطر العراقي مع نفس مدينة بغداد.

ب ـ السواحل الممتدة من الحدود المصرية الى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسا.

جـ ـ تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس الى آخر البحر الأحمر الى نفوذ بريطانيا المطلق.

د ـ تؤلف الحكومات العربية عملا بالمادة الآتية من سكان المناطق المأهولة بالعرب على ان تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال الذي يعين فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة.

رابعاً ـ

تؤلف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الافرنسي والبريطاني دولة أو حلف دول عربية مستقلة وفقاً لاتفاق خاص بين فرنسا وانكلترا على أن تحدد حدود هذه الدولة عند تنفيذ الاتفاق.

خامساً ـ
يكون ميناء الاسكندرونة دولياً وتعلن حرّيته.

سادساً ـ
تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضي التركية على ان توضع تحت إدارة خاصة وفقا لاتفاق يعقد بين فرنسا وانكلترا وروسيا بهذا الشأن تحدد فيه مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم.

سابعاً ـ
تعترف الدول المتعاهدة مبدئياً ومقابلا بجميع العقود والامتيازات المعطاة قبل الحرب في هذه الاراضي.

ثامنا ـ
تقبل الدول المتعاقدة جانباً من الدين العثماني بنسبة الأرض التي تملكها.

سايكس ـ بيكو

جعلت معاهدة سايكس ـ بيكو التي ذكرنا صورة عقدها فيما سبق بلاد العرب شطرين تحت إشارة الألف والباء وحددت تخوم هذه البلاد بخطوط وهمية زرقاء وحمراء وسمراء على المصور (الخريطة) الذي الحق بهذه المعاهدة ويعني بالزرقاء سورية والحمراء العراق والسمراء فلسطين.

وهذه صور الرسائل السياسية التي تبودلت بين الحكومتين بشأن تصديق هذه المعاهدة:

الرسالة الأولى المرسلة من المسيو بول كامبون سفير فرنسا بلونده الى السر (ادوارد غراي) وزير الخارجية الانكليزية بتاريخ ٩ أيار سنة ١٩١٦ وهذا تعريبها:

أولا ـ تميل فرنسا وبريطانيا العظمى الى الاعتراف بدولة عربية مستقلة أو حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الف وباء كما هو مبين في المصور (الخريطة) بادارة زعيم عربي وتقدمان له الحماية.

يكون لفرنسا في منطقة الف ولبريطانيا في منطقة باء الحق الأول في عقد القروض والتزام المشاريع المحلية وتقدم فرنسا في منطقة الالف وبريطانيا في منطقة الباء المستشارين الفنيين والاداريين حينما ترى الدولة العربية او الحلف العربي ضرورة لذلك

ثانيا ـ تفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء وبريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء بأن تعملا على ما ترغبان فيه أي تديراها بصورة مباشرة او غير مباشرة بالاشتراك مع العرب، او تأسيس دولة عربية او حلف من الدول العربية.

ثالثاً ـ تدار المنطقة السمراء بادارة دولية ويترك أمر البت فيها وتعيين شكل حكومتها الى أن تنتهي المفاوضة مع روسيا وسائر الحلفاء ومندوب شريف مكة.

رابعاً ـ تعطي بريطانيا العظمى ١ ـ مرفأي عكا وحيفا ٢ ـ كمية معينة من نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الألف وتضاف الى منطقة الباء، وعلى حكومة جلالة الملك (بريطانيا) لقاء ذلك أن لا تفاوض في وقت من الأوقات دولة من الدول بشأن تسليمها جزيرة قبرص قبل ان توافق فرنسا على ذلك.

خامساً ـ تكون الاسكندرونة مرفأ حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الكمركية، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الاسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر او بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء.

ولا فرق في ان تكون هذه البضائع البريطانية واردة من المنطقة الحمراء او صادرة إليها أو خاصة بمنطقتي الألف والباء.

وتكون حيفا مرفأ حراً للتجارة الافرنسية وتجارة مستعمراتها والبلاد المشمولة بحمايتها ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات واختلاف في الرسوم الكمركية ويكون شحن البضائع منها واليها مباحاً بالسكة الحديدية التي تمرّ من المنطقة السمراء ولا فرق في ان تكون تلك البضائع واردة أو صادرة من المنطقة الزرقاء أو من منطقتي الف وباء.

سادساً ـ لا تمرّ سكة حديد بغداد بمنطقة الف جنوباً الى ما وراء الموصل ولا بمنطقة باء الى ما وراء سامرا قبل

ان يتم انشاء السكة الحديدية بين حلب وبغداد عن طريق وادي الفرات وقبل أن يوافق الفريقان على ذلك التمديد.

سابعاً ـ يحق لبريطانيا العظمى وحدها ان تنشىء وتدير وتمتلك خطاً حديدياً يبتدىء من حيفا وينتهي في منطقة باء ولها الحق ايضاً بأن تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط متى شاءت، ومن المعلوم أن هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فاذا تعذر مَدُّهُ في المنطقة السمراء واقتضى الأمر لمروره من غيرها تسمح فرنسا بذلك.

ثامناً ـ تبقى تعريفة المكس العثمانية كما كانت عليه سابقاً الى مدة عشرين سنة في المنطقتين الحمراء والزرقاء وألف وباء، ولا يجعل فيها تبديل ولا تغيير الا بمعرفة الفريقين وموافقتهما.

تاسعاً ـ من البديهي ان فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الأوقات بشأن التنازل عما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء ولا تتخلى عن هذه الحقوق الا الى الحكومة العربية أو الحكومات العربية المتحدة وعلى حكومة جلالة الملك (الانكليز) ان تعمل بموجب هذه الشروط في المنطقة الحمراء.

عاشراً ـ يوافق الفريقان المتعاهدان ـ الحكومة الافرنسية والحكومة البريطانية الحاميتان للدولة العربية ان لا تسمحا لدولة ثالثة بأن تمتلك ملكاً في ارض جزيرة العرب ولا تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة الى شرقي سواحل البحر الأحمر.

وهذا لا يمنع الحكومة البريطانية من ان تعدل جبهة عدن بمقتضى الاصول الفنية وللأحوال الخاصة بعدما تثبت لزوم ذلك على اثر التعدي التركي.

حادي عشر ـ تجري المفاوضة مع العرب بشأن تخوم البلاد العربية المتحدة بأسم الدولتين كما في السابق.

ثاني عشر ـ من المعلوم ان مراقبة توريد الأسلحة الى البلاد العربية منوط بالدولتين.

تعريب الرسالة الثانية المرسلة من المسيو (بول كامبون) الى السير ادوار غراي في ١٥ ايار سنة ١٩١٦:

قبل أن يجيب فخامتكم على رسالتنا المؤرخة في ٩ أيار حول تأليف دولة عربية، ابديتم رغبتكم في إضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي تصبح افرنسية وفي المناطق التي تسود فيها الادارة الافرنسية، فغبّ الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك ان توافق ايضاً، على نفس الشروط في المناطق الداخلية في ادارتها.

ولي الشرف ان أعلم فخامتكم أن الحكومة الافرنسية مستعدة لان تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطى لها والمناطق التي ستشمل بعنايتها. اما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى على ما كانت عليه في الماضي، ومن المعلوم أن هذه الامتيازات لا تعني بقاء الامتيازات الأجنبية والامتيازات القضائية.

جواباً عن هاتين الرسالتين أرسل السير (ادوارد غراي) الى المسيو (بول كامبون) عن ٢٦ أيار سنة ١٩١٦ رسالة ضمّنها الموافقة على نص المعاهدة كما جاء في كتاب المسيو بول كامبون في ٩ أيار ١٩١٦.

تعليق

لم يكن للشريف حسين علم بالمعاهدة الثلاثية التي عقدت سرا ولم يفتضح أمرها الا بعد أن انحلّت دولة الروس القيصرية، فاظهرها الشيوعيون (البلاشفة) ونشروها على الملأ.

ان معاهدة سايكس ـ بيكو والمخابرات التي دارت بين الشريف حسين وعمّال الانكليز وقبل بها الشريف صراحة أو سكت عنها قبولا واقرارا ـ لم تكن بعيدة عن مضامين هذه المعاهدة التي جعلت الخلافة الاسلامية العوبة بين أيدي الانكليز، وكانت الضربة القاضية على القضية العربية التي ترمي الى الاستقلال التام الناجز دون سواه. وأدخلت بلاد العرب كلها تحت نير الاستعباد الدائم للغرباء والدخلاء حيث وضعت الحماية على الدولة أو الدول العربية الموهومة الموكول أمر تأسيسها أو عدمه الى رأي الحليفتين (فرنسا وانكلترا) واختيارهما فقط، وأباحت لهما الاستئثار في قروضها ومشاريعها ومستشاريها ومرافئها وأنهارها وطرقها حتى وبفرض ضرائبها، ومكوسها أيضاً فأين اذن الاستقلال المنشود.



الملك فيصل الأول سنة ١٩٢٠



دمشق ، محطة سكة حديد الحجاز



دمشق ، ثكنة الحميدية



دمشق - فندق فيكتوريا



دمشق - مبنى البلدية



دمشق . ساحة المرجة



دمشق . مدخل سوق الحميدية



دمشق . سوق مدحت باشا



دمشق . شارع الدرويشية



دمشق . نهر بردى



دمشق . باحة المسجد الأموي



دمشق . حمام الخياطين

ثم ان المعاهدة الثلاثية واتفاقية (سايكس ـ بيكو) اعتبرتا فلسطين خارجة عن دائرة الرقابة الأجنبية، وتركتا أمر تقرير مصيرها الى ما بعد الاتفاق عليه بصورة خاصة مع روسيا ومندوب شريف مكة. فلما سقطت روسيا اغتنمت انكلترا الفرصة ووعدت اليهود الصهيونيين بجعل فلسطين وطناً قومياً لهم، وسهّلت للدكتور (وايزمان) رئيس الطائفة الصهيونية بأن يحصل من الأمير فيصل بن الحسين مندوب جلالة أبيه في مؤتمر الصلح بفرسايل على كتاب يتضمن قبوله بهذا الوطن بحيث يتعاون فيه العرب واليهود معاً. وبالرغم عن استنكار الشريف حسين لعمل ابنه هذا كان سكوته على تلك الأمور جناية لا يمحوها تصلبّه في أمر فلسطين وحدها بعد ان أضاع البلاد كلها.

على أن اتفاقية (سايكس ـ بيكو) ـ رغم ما فيها من أضرار جمّة ـ كانت تشير الى حصر المستشارين بطلب الحكومة المحلية فقط، والتعهد بابقاء ضريبة المكس العثمانية على حالها الى عشرين سنة بدون تعديل أو تبديل، فهل قامت الدولتان بهذا التعهد ايضا، لا! لان المحافظة على العهود يحتاج الى أمّة متحدة ودولة قوية تطالب بها. أما الأمة العربية ـ فهي ويا للأسف الجم ـ بانقسامها على بعضها وتخاذلها عند الشدائد اصبحت أضعف من ان تؤلف كتلة موحدة تطلب وتأخذ حقها بنفسها، وأما دولة سورية فهي ما زالت تتمخض بها السياسة منذ خمسة عشر عاما ولم يحن وقت وضعها بعد! والله يعلم هل يقدّر لها الوجود، أم تبقى في عالم الخيال كما هي الآن.

ولهـذه الأسبـاب لم تحجم الدولتـان عن تقديم المستشارين مباشرة وجعلهم الآمرين الناهين في الدوائر والادارات المسيطرين عليها. واذا قال قائل انها تقصد من ذلك حفظ مصالح البلاد وحمايتها ـ وهذا فيه نظر ـ لأن ما شوهد من أعمال الانتداب الى الآن لا يلتئم مع هذا القول، وعلى كلا التقديرين ماذا نقول في التلاعب الذي أجروه وما زالوا يجرونه في ضريبة المكس وتبديلها ومضاعفتها من يوم الى آخر قبل انقضاء نصف المدة التي تعهدوا بأن لا يمسوا في خلالها تلك الضريبة أصلا، مما أضر بالبلاد وأهلها كل الضرر وجعلهم على شفا الافلاس.

ان العهود الدولية في عرف أساطين السياسة هي تجاه الضعيف كقصاصة ورق تتناثر عند الاقتضاء في مهبّ الريح، والحكم للقوة فقط.

أما القوة فلا سبيل للحصول عليها الاّ بالاتحاد والعمل، فهل لنا ذلك؟

جمال باشا

على أثر اشتراك الدولة العثمانية في الحرب العالمية عهدت الى أمير اللواء احمد جمال باشا[١٥] ـ وزير البحرية وأحد صناديد الاتحاد القابضين على زمام الحكم ـ بقيادة الجيش الرابع الذي جعل مقره اذ ذاك في دمشق مع بقاء وزارة البحرية في عهدته، ومنحته السلطة الواسعة التي لم تكن لغيره من قبل كادارة دفّة الحرب واجراء كل ما يراه واجباً لتوطيد دعائم الأمن في هذه الديار، التي كانت تغلي فيها مراجل الدعايات الشرقية والغربية، وأباحت له التصرف في الأمور الهامة أيضاً كالتشريع والتنفيذ والعفو بدون استئذان الى أقصى الدرجات بحيث كان في امكانه ان يعاقب بحكم محكمة أو برأيه المنفرد بالسجن أو النفي حتى بالاعدام أيضاً كل من حاد عن الطريق السـويّ مهمـا علت منزلته وتصاعدت درجته من الجنود والأهلين على السواء ويعفو عمن شاء ولو كان من محكومي الاعدام أيضاً.

يفعل كل ذلك وهو غير مقيّد باستشارة أحد، مستبدا برأيه، متمتعاً بالاستقلال التام في عمله وهيهات من يعارضه، وقد توصل الى أن جعل أصغر راس في الجندية (اونباشي ـ آمر عشرة) يعدم من تلقاء نفسه الجندي الفـار حيثمـا وجده، ويكتفي بالاخبار عنه الى رئيسه إخباراً بسيطا فقط، وهكذا أصبحت البلاد طوع يديه وطأطأت الهام لجبروته، وكان لهذه الشدة والصرامة التأثير الحاسم لاستتباب الأمن والراحة في طول البلاد وعرضها. ثم ان جمال باشا لم يقتصر على العقاب والارهاب فقط بل كان يحاول من حين الى آخر تخفيف وطأتهما

والعمل على تطييب القلوب واستمالة الناس الى حظيرة الطاعة والسكون بشتى الوسائل. فكان يقيم الولائم ويدعو اليها في جملة من يدعو الشبان والكهول المتهوسين الذين اتبعوا الشريف حسين وجعلهم يعملون في تفريق الأخ عن أخيه في ذلك الوقت الذي كنا فيه أحوج الى الاتحاد لا الى التفرقة التي تجعل البلاد لقمة سائغة في أفواه أولي المطامع، وكان جمال باشا يتجاهل أعمال هؤلاء المتهوسين ويغضي عن زلاتهم ويخطب فيهم حاثاً على الخلود الى السكينة والالتفاف حول وحدة الوطن والذود عن حياضه وترك لهم الوقت الكافي للرجوع الى جادة الصواب.

ثم باشر الأعمال الحربية وكان يرمي الى اشغال الانكليز عن ترعة السويس كي يخففوا وطاتهم عن الألمان في الجبهات الاوروبية، فجرد الفرقة الخامسة والعشرين من الفيلق الثامن المؤلفة من أبناء العرب وأرسلها الى الترعة فلم تنجح في مهمتها وقتل او أسر معظم رجالها وعاد الباقون ادراجهم.

عند ذلك لاحظ جمال باشا ان دعايات الشريف حسين كان لها أثر في النفوس لا بدّ من انفجارها بمثل هذه الأسباب، وان أهل الشام الذين أشيع عنهم انهم من انصار الشريف ربما ينتهزون فرصة من هذه النكبة التي بددت شمل أبنائهم ويثورون عليه ويفتكون به فعاد الى دمشق مخاطراً[11] ولكن لم يكن شيء مما ظن وأشيع، وكوفىء من قبل الحكومة الاتحادية برتبة فريق كأنه حاز نصراً باهراً.

أيقن جمال باشا اذ ذاك ان السواد الأعظم من الأهلين لاه بأعماله الخاصة ولا يابه لسواها، وأن تلك الدعايات الحماسية والنشرات المهيّجة إن هي الا شنشنة اتبعها بعض الأفراد القلائل الذين يعدون على الأنامل واعتادوا تكرارها بين آونة وأخرى على افراد الشعب الهادىء ولم يكن لها التأثير الذي تخشى عواقبه.

ثم ظهر من الأوراق التي وجدت في دار القنصل الافرنسي في بيروت والاوراق التي سرقها بعض أبناء البلاد انفسهم ووشوا بها على رفاقهم ما كان يفعله اولئك المتهوسون من التبجح بالثورة والتحريض عليها، واذا كانت النصائح لم تثن هؤلاء المغرورين عن عزمهم وكان حفظ كيان البلاد والقضاء على كل محاولة قد تؤدي الى فصل أي قطعة من جسم الدولة هو من أقدم وظائف الحكام الأساسية المعمول بها في جميع اقطار العالم، كان لا بد لجمال باشا أو لأي شخص يشغل مركزه من اتخاذ الأسباب المؤدية لحفظ ذلك الكيان فقرر تعقيبهم ومعاقبتهم، وقد أفرط في ذلك كما نذكره بعد هذا الباب ان شاء الله تعالى.

ان الثورة والقيام ضدّ الدولة الحاكمة، ثم تأسيس حكومة حديثة أمور لا تتم ببضعة أشخاص لا علم للأمة بأمرهم بل يلزمه إعداد العدد وتهيئة الأفكار بكل وسيلة من الوسائل المادية أو المعنوية لقبول الانقلاب المقصود، وجعل الناس بأكثريتهم الساحقة يرضون به ويجمعون على قبوله وهذا لم يكن موجوداً مما جعل تلك المساعي تذهب سدى وتأتي بعكس النتيجة. حدثني المرحوم سعيد أفندي الأيوبي قال ـ دعاني ذات يوم محمد الكرد علي الى حفلة تقام في بهو البلدية فحضرتها وقام صاحب الدعوة وخطب في الناس حاثا على الخروج على أوامر الحكومة فاسكتّه في الحال وقلت له ـ وقد عضدني في قولي أكثر المجتمعين ـ: إن شئت التكلم بهذا الموضوع فتكلم باسمك وأسماء من هم على شاكلتك فقط ولا تعمم لأننا نحن أهل البلاد لسنا ولن نكون على رأيك ولا نمالئك في غلوائك، وكلنا أبا عن جد متمسكون بأهداب دولتنا العلية ولا نرى عنها بديلا !ـ فاضطر الى أن يقطع كلامه ويفضّ الجلسة.

الأحكام العرفيّة

عقيب اعلان الحرب تهيّأ قناصل الدول التي أصبحت معادية للدولة العثمانية لمغادرة بلادها والرحيل عنها حسب العادة المألوفة، وكان قناصل انكلترا دهاة فأحرقوا وأخفوا جميع الأوراق التي كانت لديهم مما له علاقة بهذه البلاد بخلاف قناصل فرنسا الذين لم يتوقعوا التحرّي في دورهم ولبثوا متمسكين بحقوق الامتيازات القنصلية التي حالت حالة الحرب دون رعايتها، فجاء ذات يوم رجال الشرطة الى دار قنصل فرنسا العام في بيروت وتحروها رغم احتجاجه فوجدوا فيها أوراق المذاكرات التي كان يجريها القنصل مع بعض المتهوسين من أبناء البلاد السورية ويكاتب بشأنها سفير دولته بالاستانة وهي تدور حول القيام بثورة في سورية وطلب معاونة

فرنسا للحيلولة بين الثوار وبين الدولة العثمانية فيما اذا ساقت عليهم جنودها لاخضاعهم، أما دار قنصل الانكليز فانها غبّ تحريها لم يوجد فيها من اثر لمثل هذه الأوراق التي أزالها القنصل من قبل ولو أبقاها لازدادت البلوى، لأن الذين كانوا يؤمون دار القنصل الانكليزي لا يقلّون عن المترددين على دار الافرنسي ونعم الحارس الأجل.

وعدا هذه الأوراق فان سقوط الأخلاق لعب دورا هاما في هذه الكارثة ايضا حيث توصل بعض أبناء البلاد الى سرقة أوراق الأحزاب والجمعيات السياسية التي تألفت في ذلك الحين بالبلاد وأخذت تعمل ضد الدولة المالكة كحزب الامركزية والجمعية القحطانية والجمعية الثورية بمصر [١٧] وتمكن غيرهم من العثور على ضبط مذاكرات جمعية الاصلاح البيروتية والوفد الباريسي، التي تدل على ما كان يتبجح به أعضاؤها من الأمور الماسّة بمصالح الدولة وحياتها وجاءوا بهذه الأوراق الى الاتحاديين أمل المكافاة التي نالوها ولكنهم جوزوا بعدها جزاء سنمّار [١٨]حيث أعدموا في جملة من أعدم. ثم عثر الاتحاديون على ضبط أسماء الأشخاص المنتمين لجمعية الثورة بدمشق [١٩]التي تألفت في الأصل باسم جمعية العربية الفتاة (اقتباسا من اسم تركية الفتاة التي دعيت بعدئذ جمعية الاتحاد والترقي وذكرناها آنفا) وقد رأس هذه الجمعية رضا باشا الركابي، [٢٠]ثم اتصلت بالأمير فيصل بن الحسين والكولونيل لورانس الانكليزي وأخذت على عاتقها إثارة الأفكار وتهيئتها لخلع نير العثمانيين وقبول الحكم الانكليزي.

أضاف الاتحاديون كل هذه الأوراق الى بعضها واحتفظوا بها ثم نشروا قسما منها برسالة طبعها جمال باشا باللغات التركية والعربية والافرنسية ودعاها (ايضاحات)، وكان جمال باشا في الآونة هذه لا يفتر عن خطبه ونصائحه في المآدب والمنتديات العامة، آملا برجوع أولئك المتهوسين الى رشدهم في الوقت الذي كانت أوراقهم وقعت في يديه وحياتهم أصبحت بين شفتيه، وقد أراهم مثالاً من بطشه واقتداره بأن أودع أولا الى ديوان الحرب العرفي جماعة من المنتمين الى حزب الامركزية في مصر فحكم هذا الديوان باعدام أحد عشر شخصا منهم، وهم المرحومون: نايف تلو، عبد القادر الخرسا، مسلم عابدين، محمد المحمصاني، محمود المحمصاني، محمود العجم، أحمد حسن طباره، علي الأرمنازي، سليم عبد الهادي، نور القاضي، وحمد الشنطي، ونفذ فيهم الحكم صلبا في بيروت في ١١ آب سنة ١٩١٥.

ثم حكم ديوان الحرب بالاعدام أيضا على حافظ بك السعيد اليافي والشيخ سعيد الكرمي وحسن أفندي حماد النابلسي وقد أبدل حكم الأول والثاني بالسجن المؤبد لطعنهما في السن وفر الثالث من السجن.

لم يكن هذا الارهاب كافيا لارتداع الباقين الذين دأبوا على الشغب فعمد جمال باشا اذ ذاك الى تعقّبهم، ففرّ من فرّ، وقبض على من وجده منهم، واستثنى الذين أظهروا التوبة اليه واستغفروا عن ذنوبهم بشفاعة الشيخ أسعد الشقيري نديمه ومعتمده [٢١]،وأودع الباقين الى ديوان الحرب الذي كان مستقرّا في عاليه، من جبل لبنان.

وغبّ المحاكمة حكم على القافلة الثانية المؤلفة من واحد وعشرين رجلا صلبوا في بيروت والشام في يوم واحد (وهو يوم ٤ رجب سنة ١٣٣٤ هـ ـ ٦ أيار ١٩١٦ م) وهم المرحومون: رشدي بك الشمعة، الأمير عمر الجزائري، الأمير عارف الشهابي، شكري بك العسلي، عبد الوهاب أفندي الانكليزي، جلال النجاوي، توفيق البساط، بترو باولو، رفيق رزوق سلوم، جرجي الحداد، سليم بك الجزائري، عبد الغني العريسي شفيق بك المويد، أمين لطفي الحافظ، سيف الدين الخطيب، صالح حيدر، عبد الكريم الخليل، يوسف الهاني، سعيد عقل، عمر حمد، علي الحاج عمر، واشفعهم بالشيخ عبد الحميد الزهراوي، وفي ٥ حزيران سنة ١٩١٦ أعدم أيضاً في بيروت الشيخ فيليب الخازن وأخوه الشيخ فريد الخازن، لثبوت تجسسهما لحساب فرنسا.

ثم حكم ديوان الحرب بالاعدام على نفر ممن فرّوا وتوصلوا الى البلاد القصيّة وكانوا في الأصل مقيمين خارج البلاد العثمانية ولهم صلة بأولئك المحكومين وانما ظل هذا الحكم حبرا على ورق ولم يتمكنوا من تنفيذه.

وقضى ديوان الحرب بالاعتقال والنفي على الأمير طاهر الجزائري، وتوفيق بك الناطور، ورياض بك الصلح، وغيرهم وحكم ببرائة ثلاثين شخصا من المسجونين بينهم رضا بك الصلح، وأسعد بك حيدر وعثمان بك العظم، ورشدي أفندي الشوا، ونجيب بك شقير، وفائز أفندي الخوري، ورشيد أفندي الحشيمي، وجميل بك الاتاسي،

وفريد باشا اليافي، وسامي بك العظم، وغيرهم. ثم صلب جمال بدمشق اثنين من رهبان الموارنة والكاثوليك الذين جيء بهم من لبنان وطرابلس حيث كانا يكاتبان وزارة الخارجية الافرنسية ويدعيانها لاحتلال سورية، التي سمياها (فرنسا الصغرى) ويقولان إن الأهلين على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم ينتظرونهم بفروغ الصبر وسيلقونهم بالبشر مما دعا جمال باشا لاعداد العدة نحو حفظ الساحل السوري من تخطي الأعداء على حين غرة، فضغط على أهله وقتر عليهم بالقوت الذي اعتادوا استجلابه من خارج البلاد، واضطر العوام منهم الى الرحيل الى البلاد المجاورة لتأمين معاشهم ليبقى الساحل خالياً تقريبا من السكان فاذ قدم الافرنسيون على حين غرة لا يجدون من يقبلهم ويساعدهم.

ثم أجلى بعض وجوه اللبنانيين والسوريين الذين لهم علاقة بأولئك المعدومين أو أُخبر عنهم أنهم من دعاة الانفصال، وابعدهم عن عائلاتهم الى الأناضول والروم ايلي حيث أقيموا في قونيه، وبروسه، وازمير وقرق كليسا، واطنه وسيواس وديار بكر وغيرها، وكان منهم مصطفى بك العابد. والأميران علي باشا وعبد الله باشا الجزائريان، وأكليل بك المؤيد، وشريف افندي الكيلاني، وبدر الدين أفندي الجزائري، وعلي آغا العسيلي، ويوسف أفندي السبع وغيرهم.

المسألة الشرقية

المسألة الشرقية، وهي جعل بلاد الشرق عامة تحت حكم الغرب ونفوذه، ابتدات من هجرة الأمم العالمية من الشرق الى الغرب قبل المسيح بخمسة قرون، ثم من إغارة دارا ملك الفرس على بلاد اليونان وتأثره من قبل الاسكندر الكبير الذي اكتسح معظم بلاد الشرق في حينه ثم من تعرض الرومانيين على مصر وسورية وآسيا الصغرى ثم من بزوغ شمس الاسلام واقتحامه أطراف المعمورة وولوجه أوروبا من شرقها وغربها، ثم من قيام أوروبا المسيحية لغزو الشرق الاسلامي بواسطة الحملات الصليبية التي أثارتها على الشرق وكان نصيبها الخيبة والفشل.

لم تفتأ اوروبا تعالج هذه المسألة كلما سنحت لها الفرص على مرّ السنين والأحقاب بأمل استعمار آسيا والاستئثار بكنوزها، غير ان سببين رئيسيين كانا يحولان دون بغيتها حيناً من الدهر: السبب الأول ـ استحالة اتفاق الدول الاوروبية الكبرى على من يمتلك القسطنطينية وبيت المقدس، الأولى لموقعها الجغرافي والثانية لقداستها الدينية، اذ كانت كل دولة عظيمة تطمع لامتلاك هاتين المنطقتين، أو إحداهما على الأقل، لأن من يستولي على القسطنطينية من ذوي الحول والطول يهيمن عن مضايقها الفاصلة بين آسيا واوروبا ويهدد الشرق والغرب والشمال في آن واحد، وكذلك امتلاك القدس من قبل اية دولة مسيحية يؤثر على نفوذ وغطرسة غيرها، من الدول، ولذلك كان يفضل بقاء هاتين البلدتين في أيدي دول غير مسيحية ويعد أخف ضرراً من استيلاء إحدى الدول العظام عليهما والاعتضاد بهما، والسبب الثاني ـ هو أن أوروبا قبل ان يجوب القس لا رميت الشرق ويستطلع أحواله كانت تخاله اتوناً ملتهباً يلتهم كل من يدانيه من الأغراب فتحسب حساب الاسلام وعصبيته، وملوك الشرق وشوكتهم، وتخشى من ان يقوم المسلمون في مختلف الأقطار وينقضون على نصارى بلادهم ويفتكون بهم، ولا يدرون منهم ديارا ثم يغيرون على الغرب ويكتسحونه بلدة بلدة ويجعلونه قاعاً صفصفاً، كما سبق لطارق بن زياد وموسى بن نصير ان اجتاحا اسبانيا وهددا فرنسا حيناً من الدهر، واكتسح جنكيز والتيمور بلاد الروس واللاه وما جاورهما وقضيا على أهلها قتلاً واسراً وتشريداً، ثم ان دول اوروبا الكبرى كانت على اختلاف عظيم مع بعضها بسبب السياسة العالمية التي كلما اصطدمت بالمسألة الشرقية تطاير شررها وشوهدت آثاره المخربة، في مختلف الأنحاء والأزمان، اما الدول الصغرى فكانت لاهية بأنفسها وليس من السهل اجتماعها واتفاقها على كلمة واحدة.

لبثت المسألة الشرقية تتجاذبها الأمواج الى ان اكتشفت اميركا[٢٢] وتطاولت الاعناق الى ما وراء البحار وتمكن البروقانيون من عبور رأس الرجاء الصالح والاتصال بالساحل الهندي ثم استولى الانكليز على معظم اقليم الهند.

في خلال الحملات الصليبية والأسفار الهندية اختلط الغربيون بأهل الشرق وعلموا أن المسلمين ليسوا من الوحوش الضواري كما كانوا يتوهمون، بل هم أكثر ثقافة وأغزر علماً من الغربيين أنفسهم، ولكنهم على اختلاف دائم مع بعضهم، فعمدوا الى الاستفادة من هذه الاختلافات وتوسيع شقتها بشتى الوسائل ليسهل التسلط عليهم.

ثم نشبت الثورة الافرنسية الكبرى، وقام على أثرها نابليون الاول وحاول الاستيلاء على الشرق الأدنى فلم يفلح وعاد من حيث أتى، وبعده استولى الافرنسيون على بلاد الجزائر وتسربوا هم والبلجيكيون والهولانديون الى أواسط افريقيا وجزر البحر المحيط، ثم قامت روسيا القيصرية وحملت على الشرق من شماله ودوخته مملكة مملكة، حتى بلغت تخوم الصين وكانت تطمح بالخروج الى البحر المتوسط واكتساح ساحله وداخله والتقدم نحو بلاد الهند وانتزاعها من أيدي الانكليز حسب وصية عميدها بطرس الكبير، ولكن الدولة العثمانية جارتها كانت واقفة لها بالمرصاد وقد أغنت سائر الدول مدة من الزمن عن الاشتباك مع الروس في حرب تكون مجهولة العواقب وخطورتها، وقد بلغت هذه الدولة (العثمانية) حيناً من الزمن شأناً بعيداً عن القوة والمكانة، وأخذ ملوك اوروبا يهابونها ويتسابقون لخطب ودها حتى أن (فرانسوا الأول) ملك فرنسا استجار بها على عدوه (شارل الخامس) ملك المانيا الذي جمع، بحق الوراثة أربعة تيجان من تيجان الملوك والقياصرة الاوروبيين في شخصه ورام سحق فرنسا وابادتها فانجدها السلطان سليمان القانوني بأسطوله وجيشه العظيمين وحمومها هي ومليكها من الهلاك والدمار. على ان الدولة العثمانية بصفتها دولة الخلافة أخذ نفوذها على المسلمين عامة في مشارق الأرض ومغاربها يزداد ويتسع من حين الى آخر، وكان المسلمون في أغلب البلاد التي وقعت تحت نير الاستيلاء الأجنبي كتركستان والهند وجاوة وغيرها من الأقطار الاسلامية ما زالوا يقيمون خطبة صلواتهم باسم السلطان العثماني، وهم على اتصال دائم به يترقبون الفرص لاظهار تعلقهم وتمسكهم بمقام الخلافة الأقدس، وقد أبدوا ذلك فعلا عندما أوعز اليهم السلطان عبد الحميد بعزمه على إنشاء السكة الحديدية الحجازية، فهبوا لتقديم ما يلزمها من النفقات من أموالهم الخاصة بكل شوق وارتياح.

وكانت القبائل العربية في انحاء الجزيرة خاضعة لهذه الدولة تناوىء كل من تحدثه نفسه بالتخطي على أي بقعة من بقاعها فاستلفت هذا النفوذ وتلك القوة أنظار الاوروبيين وجدد فيهم الحدا من اعتزاز قوة الاسلام، وعدوها خطراً على حياة اوروبا ورأوا درأ لهذا الخطر ان يعمدوا الى إضعاف الدولة العثمانية وتجزئتها الى دويلات وامارات صغيرة تقوم مقامها بحراسة تخوم الروس وتشغلها بنفسها وتحول دون تقدمها المادي والمعنوي ثم ازالتها من عالم الوجود شيئا فشيئا.

ولما كان الشرق منشأ جميع الأديان المعروفة في العالم، وكل بقعة من بقاعه لا تخلو من جماعات مختلفي العقائد ـ تعبد باريها على الطريقة التي شبت عليها والفتها على انها في أمور المعاش مؤتلفة مع بعضها بعيدة عن الانفراد والانفصال عن الجامعة السياسية. فقد عزم الأوروبيون على تبديل هذه العادة والعيش الهنيء بالتعاسة والشقاء تأميناً لمنافعهم وراحوا يبذرون بذور الشقاق وفكرة الافتراق بين هذه الاقوام الوادعة ويمنونها بأماني الاستقلال ويغرونها بالمال والسلاح ويفرقون بين الأخ وأخيه والاب وذويه ويجعلونهم خصوماً موملين ان يخسف الهلال الاسلامي وتبيد دولة الخلافة فيخلو الجوّ لأوروبا المسيحية، ولا يبقى للشرقيين عامة، وللمسلمين منهم خاصة، من نصير ولا ظهير يجمعهم عند الملمات ويقيهم شر التعرضات والتعديات سوى الله وحده.

ومنذ عصر كامل أخذت انكلترا تلتف حول القبائل العربية وتغريها بالوعد والوعيد وتسعى جهدها لتفريق ذات بينها وتمزيق شملها، وبدأت أولا بافساد أخلاقها واضعاف تقاليدها واقتصادياتها[٢٣]. وراحت تحرضها على بعضها ثم سولت لها القيام على السلطنة العثمانية بحجة انها تركية وهم عرب أحق منها في الحكم والخلافة[٢٤] ثم توسعت في دعاياتها وراحت تعمل على ايجاد او احياء قوميات في بعض الزوايا قد اكل الدهر عليها وشرب منذ ألوف السنين، وتغري هذه القوميات او الأقليات البالية على طلب الانفصال والاستقلال عن الوطن الأم لتحكم نفسها بنفسها بمعونتها ومساعدتها (ولم تدر ان المعاونة والمساعدة هما الاستعمار

والاستعباد بذاته) حتى اذا ما اتسع نطاق الخلاف بين الحاكم والمحكوم تذكي نار الثورة وتلقي العثرات في سبيل إخمادها فيتبلبل الأمر وتصبح طريق الهند ـ على زعمها ـ في خطر وتحاول حينئذ المداخلة وإملاء إرادتها على المتخاصمين على السواء، وانما هذه المداخلة لا تخلو من خطرين: أولهما ـ وجود منافع جمة لغير انكلترا من الدول المعظمة في هذا الشرق المنكود الحظ ـ بأهل الغرب ـ فلا تمكنها من الانفراد بأمره، وثانيهما ـ تهلكة الحرب فيما اذا اضطرت لخوض غمارها في تلك الصحاري القاحلة، ولذلك كانت انكلترا تدأب على التحريض من جهة وتبحث عن واسطة تبلغ بها غايتها دون خطر ولا تهلكة من جهة ثانية.

والأدلة على تحريض القبائل العربية من قبل الدولة الانكليزية كثيرة، منها ما شاهده المؤلف بأم عينه عند قبيلة (بني لام) العراقية من بنادق من نوع المارتيني، وهناك يقال لها ماطلي منقوشة في داخل خزانتها محل وضع الخراطيش بالقلم العربي المذهب هذه العبارة: ـ متى ينهض العرب ـ وهي مرسلة هدية الى تلك القبيلة من قبل حاكم الهند الانكليزي. على انه بعد عناء عظيم ومساع دامت عصراً كاملاً لم يتسن لانكلترا سوى وضع حمايتها على فرضتي الكويت والبحرين وما جاورها من شواطىء الخليج العربي وعلى مرفأي مسقط وعدن على المحيط الهندي، ولبثت الأكثرية الساحقة من كرام العرب الأباة محافظة على شممها مقيمة على ولاء العثمانيين حماة الاسلام والمسلمين.

ولمّا لم تأت المساعي المبذولة لحل المسألة الشرقية طيلة هذه العصور بالنتائج المبتغاة، وبالنظر لازدياد غطرسة روسيا وفرنسا تجاه انكلترا ازدياداً يمس بعظمتها وجبروتها عمدت انكلترا الى المراوغة واتخاذ سياسة ذات وجهين تأميناً لمنافعها، فكانت تارة تميل نحو الدولة العثمانية ضد فرنسا وروسيا وطوراً تنقلب عليها، ثم تعود فتتحالف مع هاتين الدولتين أو أحداهما على الدولة العثمانية نفسها، فعندما احتل نابليون الأول القطر المصري وكان قبل ذلك ينوي اكتساح الجزيرة البريطانية كلها ـ خفت انكلترا لتعقبه واغرقت أسطوله في مرفأ أبي قير وعملت مع الباب العالي على اخراجه من مصر وسورية ثم عادت وانقلبت على الدولة العثمانية واجتازت بأسطولها مضيق الدردنيل وأخذت تهدد القسطنطينية ثم اتفقت مع روسيا وفرنسا واغرقت الاسطول العثماني المصري في مرفأ (ناوارين) وأعلنت استقلال اليونان لتكون عوناً لها على تركيا، ولمّا ثار محمد علي باشا والي مصر على السلطان بمعاونة فرنسا التزمت انكلترا جانب السلطان كيلا تستقر قدم الافرنسيين بمصر، وسعت مع الباب العالي لاخراج المصريين من بلاد الدولة التي احتلوها، ونالت جزاء ذلك عهداً لفتح أبواب البلاد العثمانية للتجارة الانكليزية. وحينما أعلنت حرب القريم بين الدولة العثمانية وروسيا بسبب طموح قيصر الروس لحماية القبر المقدس وكان الاستئثار بذلك يخالف منافع الدول (كما ذكرنا آنفاً) اشتركت انكلترا وفرنسا وساردينيا (ايطاليا) مع العثمانيين في حروبهم ضد روسيا واستصدرت من السلطان عبد المجيد أمرا يجعل دعاوى الأمور الشخصية المسيحية تفصل في الكنائس دون مداخلة محاكم الدولة بشأنها، وهكذا كانت انكلترا تتلون في سياستها بحسب الظروف ولا تعطي شيئا باليمين ما لم تنل أجره بالشمال، ولما حدثت المسألة الشامية ورام الامبراطور نابليون الثالث أن يتداخل في أمرها ولم يكن ذلك في مصلحة انكلترا، خفّت الى سائر الدول المعظمة وحرّضتها على تحديد مداخلة نابليون وجعلها دولية كيلا تستأثر فرنسا وحدها بسورية، وعقيب حرب ٩٣ (١٨٧٦) احتلت انكلترا جزيرة قبرص بدعوى صد غارات الروس على البلاد العثمانية ولم تفعل سوى إلحاق تلك الجزيرة بممتلكات التاج البريطاني فقط، ثم توصلت الى إقناع الدول الثلاث (فرنسا وايطاليا واوستريا ـ النمسا) على اقتسام بعض ممتلكات الدولة العثمانية، فسهلت للنمسا اكتساح ولايتي البوسنة والهرسك، ووافقت فرنسا على احتلال تونس ووعدت ايطاليا بطرابلس الغرب واستولت هي على مصر، وبعد ذلك حاولت التطاول على جزيرة العرب وتطويقها بالخطوط الحديدية من داخلها وبالمراكز البحرية من سواحلها فلم يطق السلطان عبد الحميد هضم هذه المداخلات ومنحها ما تطلبه من الامتيازات ورام انقاذ حكومته وسائر اطراف الجزيرة العربية من براثنها، فحول مجرى السياسة ومال نحو المانيا التي رآها أخف وطأة من الانكليز، وليس لها مطامع في الشرق تخشى عواقبها، فكادت انكلترا له كيدا أوصله الى خلعه وتضحيته بعرشه في سبيل هذه السياسة رحمه الله.

وعند ذاك عادت انكلترا الى جهة روسية وفرنسا، عدوتيها القديمتين، وتحالفت معهما ضد الألمان والعثمانيين معـا، وتـوصلت الى اعلان الحرب العالمية. فلمّا غلبت روسيا على أمرها وأصبحت النمسا والمانيا بمعزل عن المنظومة الاوروبية، التفّت انكلترا حول الشريف حسين باشا بن علي، أمير مكة المكرّمة، ووعدته بأن تجعله هو وأولاده ملوكاً على بلاد العرب، فخدع الشريف بوعودها الخلابة، وكان سببا لحل المسألة الشرقية بما يوافق المنافع الانكليزية.

وبعد ان قضت انكلترا من الشريف حسين لبانتها نبذته نبذ النواة، واخذت تبحث عن غيره، كما هو دأبها منذ القدم، ولا غرابة في ذلك، فالسياسة لا تراعي في سبيل المنافع خليلا، ولا تلتئم مع ما يسمونه الصدق والوفاء، وهذه عبرة لمن شاء ان يعتبر.



هوامش الفصل التاسع

(١) **احمد رضا**: (١٨٥٩ ـ ١٩٣٠) سياسي تركي من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي البارزين الذين عملوا ضد السلطان عبد الحميد بعد انقلاب المشروطية. كان مديراً للمعارف في «بورصة» ثم ترك وظيفته وسافر الى باريس وانتخب رئيساً لفرع جمعية الاتحاد والترقي فيها. وهناك اصدر جريدة سياسية باللغتين التركية والفرنسية أسمها «مشورت»، ولكنه عاد الى استانبول بعد انقلاب المشروطية في سنة ١٩٠٨ واصبح مشاورا عاما للاتحاد والترقي ثم انتخب نائبا عن استانبول فرئيسا لمجلس المبعوثان العثماني، واحتفظ بهذه الرئاسة لمدة ثلاث سنوات عين بعدها عضوا في مجلس الأعيان. توفي سنة ١٩٣٠. (ن.ص.)

(٢) **محمود شوكت باشا** (١٨٥٦ ـ ١٩١٣) ولد في العراق. وهو ابن سليمان بك الذي كان متصرفاً للبصرة، وشقيق حكمت سليمان، رئيس وزراء العراق في العهد الملكي. تخرج من المدرسة العسكرية في استانبول وقضى حوالي تسع سنوات في المانيا وخدم في الجيش الالماني، ثم عين واليا لولاية (قوصوه) في عهد الثورة، ثم أنيطت به قيادة الجيش الثالث. ولما قامت محاولة للاطاحة بالدستور في سنة ١٩٠٩ دخل محمود شوكت باشا الى الاستانة بجيشه فسحق الحركة. وعلى أثر خلع السلطان عبد الحميد اصبح أقوى شخصية في البلاد. وعلى الرغم من انه لم ينتم الى حزب الاتحاد والترقي، فانه كان يؤيد سياسته. أصبح في عهد الاتحاديين وزيراً للحربية مدة من الزمن، ثم رئيساً للوزراء. وفي سنة ١٩١٣ دبر له خصوم الاتحاديين مؤامرة فاغتالوه وهو في عربته يتجه الى مقر رئاسة الوزراء، وكان في السابعة والخمسين من عمره. (ن.ص.)

(٣) يروى عن **امين عالي باشا** الصدر الأعظم في زمن السلطان عبد العزيز انه قال لأخصائه ذات يوم خلال البحث عن اخلاء مدينة بلغراد من المسلمين وجعل كريد ولاية ممتازة يتولاها وال مسيحي ـ انني لم أدع وسيلة من الوسائل الا توسلت بها لتأجيل ذلك والعدول عنه، ولما أعيتني الحيل اضطررت لاختياره مكرها على علم بانه أخف ضرراً واهون شرا من اتفاق الدول الأوروبية علينا واكراهنا على توسيع حدود الصرب والحاق كريد باليونان مباشرة وهو ما كانت تطلبه روسيا بالحاح، وتعضدها فيه بعض الدول المعظمة على انني أخال ـ واظن انني غير مخطىء في تخيلي ـ ان من يخلفني في منصبي هذا ربما سيق الى اعظم من ذلك واختاره معتقدا انه قد احسن عملا.

(٤) **انور باشا** (١٨٨١ ـ ١٩٢٢) من اقوى رجال حزب الاتحاد والترقي. تخرج في المدرسة الحربية وخاض غمار السياسة في سن مبكرة جدا. ترأس عصابة اعتصمت بالجبال واعلن العصيان على استبداد عبد الحميد وأجبره على اعلان الدستور بعد حكم مطلق دام حوالي ٣٣ سنة. وعاد انور الى استانبول محمولا على الأكتاف بطلا من ابطال الحرية. اصبح وزيرا للحربية في سنة ١٩١٣ وتزوج احدى الأميرات. كان أنور الشخص الذي قام بالدور الاكبر في زج تركية في الحرب العالمية الأولى الى جانب المانيا، وبعد انتهاء الحرب بخسارتهما غادر تركية سرا في ١٩١٨ مع طلعت وجمال. في سنة ١٩٢٢ انضم الى حرب عصاة ضد البلاشفة، وقتل في بخارى في الثانية والأربعين من عمره. عرف بشجاعته العظيمة. (ن.ص.)

(٥) **احمد جمال باشا** (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢) وزير البحرية في عهد الاتحاديين. تخرج في المدرسة الحربية وانتمى الى حزب الاتحاد والترقي وقام بدور فعال في تهيئة انقلاب المشروطية الثاني سنة ١٩٠٨ فاصبح من اكثر رجال الحزب نفوذاً. عين والياً عسكرياً في آطنة سنة ١٩٠٩، وبغداد (١٩١١) ثم استانبول. عين وزيراً للبحرية، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عين قائدا للجيش الرابع وواليا عسكريا في سورية، وهناك نكل بأحرار العرب، واعدم عددا كبيراً منهم ولقب بالسفاح. عاد الى تركيا، ولما انتهت الحرب بخسارة المانيا وتركيا هرب على باخرة المانية (مع طلعت وانور). في سنة ١٩٢٢ قتله شخص ارمني في تفليس. (ن.ص.)

(٦) **احمد جاويد**: من أبرز اعضاء حزب الاتحاد والترقي ووزير المالية خلال حكمهم يقال انه من اليهود الذين اعتنقوا الاسلام في تركيا (دونمة)، وهو ابن تاجر من سلانيك تخرج من المدرسة الملكية الشاهانية وشغل وظائف مختلفة فأظهر كفاءة عالية ... سريعا. فاصبح نائباً ثم وزيراً للمالية. اتهم في سنة ١٩٢٦ بالاشتراك في مؤامرة لاغتيال مصطفى كمال فحوكم وشنق (ن. ص.)

(٧) **سعيد حليم باشا** (١٨٦٣ ـ ١٩٢١) هو حفيد محمد علي باشا ومن اعضاء العائلة الحاكمة في مصر. عين في سنة ١٨٨٨ عضوا في مجلس شورى الدولة العثماني، وعاد الى استانبول بعد ثورة الاتحاديين وعين عضوا في مجلس الأعيان. اوفده حزب الاتحاد والترقي الى اوروبا خلال الحرب الليبية (١٩١١) للحصول على تأييد الدول لتركيا في موقفها. أصبح رئيساً لمجلس شورى الدولة (١٩١٢)، وسكرتيراً عاماً لحزب الاتحاد والترقي (١٩١٣) فوزيراً للخارجية في وزارة شوكت باشا وعلى اثر اغتيال الأخير عين صدراً اعظم (رئيسا للوزراء). استقال في شباط ١٩١٧ على اثر فشل السياسة الاسلامية التي كان من دعاتها الرئيسيين. وفي سنة ١٩١٩ القي القبض عليه ونفي الى جزيرة مالطة. اغتاله شخص ارمني في روما سنة ١٩٢١. (ن.ص.)

(٨) لم تكن استقالة جاويد حمية وطنية، بل لأنه كان مرتبطاً مع دولة فرنسا على اثر القروض التي عقدها لحساب الدولة متعهدا لها بأن لا يدع دولته تدخل في حرب ضدها.

(٩) **عبد الحميد الزهراوي** (١٨٧١ ـ ١٩١٦) من زعماء النهضة الوطنية في سورية ولد في حمص، وقاوم سياسة عبد الحميد الثاني قبل الدستور وأصدر لهذه الغاية جريدة (المنبر) التي كانت توزع سراً. هرب الى مصر في سنة ١٩٠٢ وبقي فيها حتى

١٩٠٨. انتخب نائبا عن حماه في مجلس المبعوثان العثماني فذهب الى الاستانة واشترك في تاسيس حزب (الحرية والاعتدال)، ثم (حزب الائتلاف) المناوئين لحزب الاتحاد والترقي، اصدر جريدة اسبوعية بأسم (الحضارة).

انتخب رئيساً للمؤتمر العربي الأول في باريس (١٩١٣)، ثم استماله الاتحاديون وعينوه عضواً في مجلس الأعيان، وكان يطمح ان يعين بمنصب (شيخ الاسلام). قبض عليه في سورية، وحكم عليه المجلس العرفي بالاعدام، ونفذ فيه الحكم سنة ١٩١٦ وكان عالماً في الدين والسياسة. (ن.ص.)

(١٠) جاء في احصائية أخرى عن الحرب العالمية ان هذه الحرب أزهقت أرواح عشرة ملايين نسمة من البشر وكلفت ثمانين مليارا أخرى من الجنيهات الانكليزية، ويقول الخبيرون في نفقات البناء ان الثمانين مليار جنيه تكفي لتشييد منزل على الطراز الحديث مع بستان حوله لكل رب عائلة في انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة والمانيا وروسيا وبلجيكا وكندا ومصر، وهي تكفي ايضاً لانشاء مستشفى وجامعة ودار كتب في كل مدينة في العالم أجمع.

(١١) انظر جواب اللورد رجلان في مكان آخر من هذا الكتاب.

(١٢) كان الأمير **عبد الله بن الحسين** نائباً عن الحجاز في مجلس النواب العثماني (المبعوثان) وهو يروح ويغدو الى الأستانة بطريق مصر لحضور جلسات المجلس في كل عام، كلما مر بالقاهرة يمكث فيها بضعة ايام متظاهراً بانتظار سفر الباخرة التي تقله من الاسكندرية الى العاصمة، وفي خلال ذلك يجتمع خلسة مع الجنرال كتشنر (الذي كان وزير الجهادية المصرية ثم نال رتبة اللوردية وصعد الى وزارة الحربية الانكليزية ثم اغرقته الغواصات الألمانية في بحر المانش) ويتذاكر الأمير معه في شؤون البلاد العربية ومصيرها، وقبل اعلان الحرب العالمية بسنة كاملة وقبلما قضى جمال باشا على شبان سورية بثلاث سنوات اي في سنة ١٩١٣ (خلافاً لدعوى الشريف بأن قيامه على الدولة العثمانية كان بسبب الفتك باولئك الشبان الذي كان في سنة ١٩١٦) كان الأمير عبد الله ضيفاً على الخديوي عباس حلمي باشا في قصر عابدين بالقاهرة، فزار رسميا كتشنر باشا مع المستر ستورز السكرتير الشرقي لدار الاعتماد البريطانية وتظاهر كيتشنر باشا بشكر الأمير على عناية ابيه الشريف حسين بالحجاج الهنود وتأمين استراحتهم وقد أعاد الأمير الزيارة في دار الاعتماد بنفسه، ثم ان الأمير كلما مر بالاسكندرية كان يحتفل به القنصل الانكليزي (السير هنرى ماكماهون) ويسهل له اسباب سفره بعد ان يختلي به ساعات طويلة، وقد اعترف الشريف حسين نفسه في كتابه الذي سلمه الى ماكماهون بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ بانه كان يتخابر مع المستر (ستورز) بشأن القضية العربية منذ سنة ١٩١٣.

أما مخابرات الشريف هذه فقد كان ينقلها الشيخ محمد عارف بن عريفان المكي رسول الشريف ومعتمده وعلي افندي أصغر الايراني البهائي المذهب الذي كان يقطن حي الجمالية بالقاهرة ويتعاطى مهنة التجسس للأنكليز في مصر والحجاز، وفي سنة ١٩١٤ قبل اعلان الحرب العالمية وضعت انكلترا بواسطة المستر (فيتز موريس) رئيس تراجمة السفارة الانكليزية بالاستانة باخرة خاصة تحت أمر الأمير عبد الله ليركبها ويبحر بها متى شاء، وعندما اغلق مجلس النواب العثماني بسبب الحرب غادر الأمير عبد الله العاصمة مع أخيه الأمير فيصل الذي كان نائب جاره في ذلك المجلس على تلك !الباخرة عائدين الى الحجاز بطريق الاسكندرية ولما بلغا القاهرة ناولهما المستر (ستورز) كتاباً من الحكومة الانكليزية موجهاً الى ابيهما الشريف حسين يتضمن الموافقة رسمياً على اعادة الخلافة الى العرب.

(١٣) كان ذلك غشاً وخداعاً من انكلترا بدليل انها بعد هذا التعهد عقدت حليفتيها فرنسا وروسيا عهدا تقضي باعطاء السواحل السورية بأجمعها الى فرنسا، وابدت ذلك بمعاهدة سايكس ـ بيكو ايضاً، ثم جعلت فلسطين كلها وطناً قومياً لليهود الصهيونيين، ولما أعلن الشريف استقلاله من ملك بلاد العرب حسب وعود انكلترا اليه، ابت هاتان الدولتان القيام بما تعهدتا به ولم تعترفا للشريف بما ادّعاه من وعودهما بل قصرتا اعترافهما له بملك الحجاز.

(١٤) كانت انكلترا تنوي إلهاء الشريف بملك الحجاز فقط تحت هذه الشروط المهلكة التي تعني وضع السيادة المطلقة على ذلك الملك ايضا والاستئثار بأموره، ولم ينتبه الشريف لهذه المخادعات بل سكت عنها قبولا واقراراً، كما سيأتي ذكره في هذا الكتاب.

(١٥) كان **جمال باشا** طموحاً للمعالي غريقاً في بحار الخيلاء والتخيلات يساعده ذلك النفوذ العظيم الذي أحرزه في الدولة، فقد قال ذات يوم لخلوصي بك والي الشام: عندما تنتهي الحرب قد تعرض عليّ أمارة القفقاس أو مصر فأيهما أرجح يا ترى ـ وكان خلوصي بك سريع الجواب فأجابه فورا ومداعبا: تقبلون الاثنين فتصيفون في الواحدة وتشتون بالأخرى. ثم ان دائرة الاستخبارات العثمانية كانت علمت بأن انكلترا اقترحت على الدول المتحالفة اقتسام السلطنة العثمانية (كما سبق ذكره) فأدرك جمال باشا الخطر المحدق بالأمة ورام انقاذ الأناضول وبلاد العرب على الأقل من براثن المتغلبين وحاول الاتفاق لأجل ذلك مع روسيا وانكلترا ولكن تضعضع روسيا القيصرية في ذلك الحين وميل انكلترا نحو الشريف حسين أكثر منه، اضطر جمال باشا لتأجيل الامر الى فرصة ثانية، فقام زميله مصطفى كمال باشا وكان على نفس الراي والفكرة، وسعى لانقاذ البلاد التركية فأوصله الحظ الى غايته.

(١٦) عقيب حرب الترعة عاد **جمال باشا** من القدس الى الشام على قطار خاص من السكة الحديدية الحجازية فساقت الحكومة الجنود وصفوف الخلق من مختلف الطبقات لاستقباله من محطة الحجاز، ولما حان الوقت وسمع صفير القاطرة القادمة تهيأت

الجموع لتحية القادم واذا بالقطار يأتي فارغاً، وليس فيه ولا راكب واحد وعندما وصل القطار سالماً ولم يلق تعرضاً من احد أعقبه قطار ثان يقلّ جمال باشا وحاشيته، فصفق له المستقبلون حسب العادة المألوفة.

(١٧) **محمد الشنطي اليافي** معتمد حقي بك العظم سكرتير حزب اللامركزية في مصر سرق أوراق الحزب واخذها الى اثينا عاصمة اليونان وسلمها الى غالب كمال بك سفير تركيا فيها لقاء جائزة نالها.

(١٨) **سنمّار** اسم البنّاء الذي ابتنى قصر الخورنق للنعمان الأكبر ملك الحيرة، ولما راق القصر للملك القى البنّاء من أعلاه الى الارض واهلكه كيلا يبني مثله لغيره.

(١٩) كان من اعضاء هذه الجمعية أولاد المرحوم **عطا باشا البكري والدكتور عبد الرحمن شهبندر ومحمد الكرد علي وشفيق بك المؤيد والامير عمر الجزائري والامير عارف الشهابي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب افندي الانكليزي**، وغيرهم وقد سكن وقتئذ الدكتور شهبندر والكرد علي قرية المزّة حيث كان يسكنها الركابي باشا سكنى سياسية لتسهل اتصالهم ببعضهم، والابتعاد عن أنظار الحكومة في اجتماعاتهم التي كانوا يعقدونها خلسة في دورهم، ولم يخف أمرها عن جيرتهم الذين مروا بهم مر الكرام ولم يأبهوا لهم.

يقول الكولونيل **لورانس** الانكليزي في كتابه المسمى (الثورة العربية) كنا نعتمد على اللجنة الفيصلية التي كانت تعمل بدمشق منذ شهور برياسة «علي رضا» لتأييد فيصل وتهيئة الأفكار لقبول التطورات الحديثة، وقد نجحت في جمع السلطة كلها في يدها.

(٢٠) **علي رضا (باشا) الركابي** (١٨٦٦ ـ ١٩٤٢): كان من أبرز الشخصيات السياسية في سورية في عهد فيصل، وأول رئيس للوزراء في حكومتها العربية. ولد في دمشق وتخرج في المدرسة الحربية في الاستانة وتدّرج في المناصب العسكرية حتى رقي في سنة ١٩١٢ الى رتبة لواء وعيّن قائدا في القدس ثم محافظاً وقائداً في المدينة المنورة، ثم نقل الى العراق، وقد أحيل على التقاعد سنة ١٩١٤ بعد ان اشار على الدولة العثمانية بالبقاء على الحياد في الحرب العالمية الأولى، فعاد الى دمشق قبيل الثورة. واضطر خلال الحرب الى مداراة جمال باشا بما لا يسيء الى بلده فاصبح رئيساً لبلدية دمشق ولكنه بقي على صلة بالوطنيين ولما دخل الجيش العربي دمشق سنة ١٩١٨ عيّن حاكماً عسكرياً، وبقي في هذا المنصب حتى خلفه فيه الأمير زيد، فنقل مديراً للحربية (أي وزيراً للدفاع) حتى اعلان الاستقلال وتتويج فيصل، فكان أول رئيس للوزراء بعد الاستقلال، وبقيت وزارته في الحكم حتى أول مارس سنة ١٩٢٠ ثم استقالت. ولما احتل الفرنسيون سورية سافر الى مصر فالحجاز ثم قصد شرق الأردن وتولى رئاسة الوزارة فيها مرتين، وعاد الى سورية في سنة ١٩٢٦ معتزلا السياسة وأقام في دمشق حتى وفاته في ٢٥ أيار ١٩٤٢، فشيع باحتفال مهيب.

جاء عنه في تقرير الاستخبارات البريطانية لسنة ١٩١٩ عن الشخصيات الرئيسية في دمشق (Who,s who in Damas-cus) ما يأتي: «عمره ٥٠ سنة. جنرال وموظف سابق في العهد التركي. امر بتسلم القيادة في منطقة طبرية للدفاع عنها، ولكنه هرب والتحق بالبريطانيين. مولع بجمع المال، لا ذمة له، واستاذ قديم في اساليب الدسائس التركية. من انصار الاستقلال التام، ومعاد للفرنسيين، غير محبوب». (F.O. 371/6455) (ن.ص.)

(٢١) الذين كانوا في درجة المحكومين وعفا عنهم جمال باشا هم رضا باشا الركابي، ومحمد الكرد علي، وعبد القادر الخطيب وغيرهم. (الشيخ أسعد الشقيري هو والد المرحوم احمد الشقيري، الأمين العام المساعد لجماعة الدول العربية سابقاً). (ن.ص.)

(٢٢) **اكتشاف امريكا**: كانت أوروبا الى القرن الخامس عشر للميلاد (التاسع للهجرة) تجهل ما وراء بحارها ففكر البرقانيون قبل غيرهم باقتحام البحر والاتصال بما ورائه وأول من قام بهذه المهمة البرنس هانري أبن ملك البرقان عام ١٤٢٠ فسلك البحر واتصل بجزيرة مادر ثم توصل غيره من المواطنين (البروقانيين) ايضاً الى اكتشاف ساحل الكونغو في غرب افريقيا، ورأس الرجاء الصالح في جنوبها عام ١٤٨١ وبعد ذلك اكتشف خريستوف كلومب الايطالي جزائر (باهاما وكوبا وهياق) وتبعه (امير قو راسيوجي) الايطالي الجنس والاسباني التبعة، فاكتشف معظم القارة الجديدة التي دعيت بأسم اميرقا منذ اوائل القرن السادس عشر.

وقد ساهم العرب في هذه الاكتشافات العظيمة وخصوصاً بواسطة الأخوين العربيين اللذين تجنسا بالجنسية الاسبانية عقيب الانقلاب الأندلسي، وغامرا بنفسيهما فدعاهما الناس (المغرران) واختصر الاسبان والبوريكه هذه اللفظة وقالوا (المغرو)، واحد هذين الأخوين افتتح لنفسه ولايات بيرو وشيلي وبوليفيا سنة ١٥٣٥.

(٢٣) قامت انكلترا في جزيرة العرب بادخال البضائع الكاسدة والأسلحة والذخائر الزائدة اليها وتقديمها في بادىء الأمر كهدية الى رؤساء القبائل حتى اذا ما تمرنوا عليها وألفوها راحو يتسابقون في شراء واقتناء الألوف منها ثم شفعتها بالسيارات وسائر المزخرفات، وعلّمت العرب طرق استعمالها وجعلتهم يهملون البيض ويتركون الصافنات الجياد وسابقات الريح فتم لها ولزملائها الاوروبيين بذلك مقصدان الأول زيادة المقاتلات وكثرة القتلى بين العرب حيث يتأصل العداء وتدوم الشحناء والثاني ـ استنزاف اموال القبائل ومدخراتها وجعل الجزيرة افرغ من فؤاد أم موسى فلا تعقد عليها الآمال ما دامت الحال على هذا المنوال والله أعلم بمصيرها.

(٢٤) الاسلام يجبّ ما قبله ويجعل العربي والأعجمي، والابيض والأسود بنعمة الله اخواناً بدون تمييز احد عن احد الاّ بالتقوى.

كان الشريف حسين باشا بن علي، أمير مكة، ذا نزعة استقلالية، يرمي إلى فصل العرب عن الترك وتأليف حكومة عربية تجمع شتات الجزيرة بأسرها، وقد احتكّ بدولة الانكليز قبل الحرب العالمية فرأى منها تحريضاً خاله يؤمِّن الوصول إلى ما تصبو إليه نفسه. ولما قام الاتحاديون في الدولة العثمانية واستمالوا تلامذة المدارس وغيرهم من شبان البلاد وثبّتوا فيهم روح الثورة والعداء ضد السلطان، كان الشريف حسين عضواً في مجلس الشورى بالاستانة عاصمة الدولة، فاستغلّ هذه الفرصة وأيّد فكرة الثورة، وحرّض التلاميذ وغيرهم من الشباب العرب المتهوسين على أن يجعلوا اتجاهها نحو الثورة والتفريق بين الترك والعرب بغية الوصول الى الانفصال والاستقلال [1].

تشرّب بعض التلامذة من أبناء العرب في مختلف مدارس العاصمة هذه الدعاية الانفصالية وراحوا ينقلونها إلى بلادهم عند خروجهم من المدارس، ويثبتونها بين مواطنيهم، وينخرطون في الأحزاب السياسية التي عمّت فروعها جميع الجهات، ويتطفلون على الداخلة في الأمور الخارجة عن حدود وظائفهم، فاستلفت ذلك أنظار الحكومة، وكان سبباً لتشتيت الضباط العرب وتفريقهم إلى فيالق الدولة في مختلف البلاد القصية بعد أن كانوا لا يوظفون إلا في بلادهم وفي عاصمتهم فقط. وعلى أثر دخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية ازدادت في الشريف تلك الأمنية وكان قبل ذلك عيّن أميراً على مكة المكرمة، فجمع في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٥ (أي قبل نصب المشانق في سورية بثمانية شهور) أولاده الأربعة: علي وعبد الله و فيصل وزيد في مدينة الطائف، وائتمروا فيما يجب عمله لبلوغ الغاية المقصودة، وقرروا إنهاء الاتفاق مع الانكليز، وترقّب الفرصة المناسبة للقيام بالثورة ضد الدولة العثمانية وحلفائها، وكانت رسل الانكليز في هذه الآونة تروح وتغدو بين مصر والحجاز، وتتصل بالشريف حسين سراً وعلانية.

وفي خلال ذلك سحبت جمعيـة الاتحاد والترقي القابضة على زمام السلطنة العثمانية ثلاثة أرباع الفرقة العسكرية المرابطة في الحجاز[2] وطلبت من عاملها الشريف حسين باشا أن يمدّها أيضا بقدر من المتطوعة لتستخدمهم في سدّ ترعة السويس وسائر خدمات الجيش، فتعهّد لها الشريف بتجنيد ألف وخمسمئة متطوع لقاء ستين ألف دينار ذهبي استخرجها من الدولة نقداً وعدّاً، وفعلاً باشر الشريف باستكتاب بعض المتطوعة ولكنه في الوقت ذاته استفاد من خلوّ البلاد من الجند العامل، وخفّ إلى الانكليز الذين كانوا لا يزالون يحرّضونه على القيام ضدّ السلطان ليتسنّى لهم القضاء على الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية والحلول محلها في الحكم والسيطرة على العرب والمسلمين عامة، فتعهّد لهم بإثارة العالم العربي ضدّ الدولة المالكة (العثمانية) لقاء تعهّد الانكليز وحلفائهم الافرنسيين بإعادة الخلافة الى العرب، وملكية الشريف وأولاده على البلاد العربية كلها كما ذكرنا ذلك بالمناسبة في مختلف أبحاث هذا الكتاب.

وفي غضـون ذلك كان الأمير فيصل بك نجل الشريف حسين باشا مقيماً بدمشق في نزل (فيكتوريا) مقر الجيش الرابع العثماني بصفته ظاهراً ضيفاً كريماً على جمال باشا قائد الجيش يستشيره في بعض الأمور التي تتعلق بالعرب، وباطناً كرهينة عن أبيه الذي استشعرت منه الدولة وشمّت رائحة الانتقاض عليها، وكان جمال باشا يجامل فيصلا كيلا يدّعي إحراجه من قبله، ويعلم من هم الذين يوالونه ويأتون معه، فترك له الحرية بالتزاور مع من شاء من الناس، وفي خلال هذه الزيارات أخذ يجتمع على فيصل بعض المتهوسين، وهو يغريهم بالمال، ويعدهم المواعيد الكثيرة. وكان الديوان العرفي في قرية عالية من جبل لبنان يحاكم من وقع في اليد من الشبان الذين لبثوا دائبين على المؤامرة ضد سلامة الدولة، فرام الأمير أن يشفع لهم ووسّط أباه في الأمر فأبى جمال باشا إجابة سؤالهما ورفض شفاعتهما منذراً بأن وحدة البلاد وضرورة المحافظة عليها تقضيان باتخاذ

التدابير الصارمة تجاه كل طموح للانفصال عن جسم الدولة بحكم جميع الشرائع الدينية والمدنية في أقطار العالم كلها.

ثم سار جمال باشا إلى القدس ومعه فيصل بك الذي مثل دوره أحسن تمثيل، واظهر ذات يوم كتاباً مصطنعاً ادّعى أنه أتاه من الحجاز وفيه خبر مرض ابنه الوحيد الأمير غازي، الذي كان جمال باشا يعلم حق العلم انه يحبّه حبّاً جمّا، وبكى فيصل وانكبّ على جمال باشا ورجاه أن يسمح له برؤية نجله قبل أن يحول بينهما الأجل، وأقسم بابنه وجدِّه تحت الصخرة الشريفة أن يعود بأكثر ما يمكنه من السرعة مع متطوعة الحجاز الذين جمعهم أبوه وساقهم نحو المدينة المنوّرة مع أخيه الأمير علي!

انطلت الحيلة على جمال باشا بإغراء مؤتمنه الشيخ أسعد الشقيري الذي أظهر حناناً على فيصل وابنه، وأذن لفيصل بالذهاب إلى الحجاز، وأردفه بوفدٍ من أهل الشام لاستقبال أخيه الأمير علي ومتطوعته.

خفّ فيصل من القدس مسرعاً، ولمّا بلغ المدينة المنورة وتلاقى مع قائدها الفريق فخري باشا لم يرق لهذا القائد الحازم طور فيصل وظواهره، وأحسّ منه الغدر والخديعة، فأبرق إلى جمال باشا يحذّره منه، ويستأذنه بالقبض عليه ومنعه من السير إلى مكة، فأبى جمال باشا إلّا الثبات على قوله لأنه استوثق من فيصل بيمينه بجده المصطفى عليه السلام، وأمر فخري باشا بأن لا يمانعه ولا يمسه بسوء، فتركه فخري باشا في سبيله.

غادر فيصل المدينة المنوّرة وكان فيها أخواه عبد الله وعليّ، فخرجا بحجّة وداعه وفرّا نحو مكة معه وتبعتهم شراذم المتطوعة الذين جاءوا معهما إلى المدينة، وكان الشريف حسين وأولاده ينتظرون الفرصة لإعلان خروجهم على السلطان، فجعلوا من إعدام الشبان المتهوسين في الشام وسيلة لذلك، وكانت فاتحة أعمالهم أن أرسل فيصل الى مكتب البرق في المدينة رسائل بتوقيعه يخاطب فيها جمال باشا بالشام ويقول له هكذا: إن اعتداءك على المخلصين من أولاد العرب، وإعدامك إياهم جعلني في حلٍّ من يميني، وأصبحت أملك حرية العمل من الآن وصاعداً. وكان هذا أول الظهور بالثورة.

بلغ فيصل مكة المكرمة في الوقت الذي انتهت فيه المفاوضات والمخابرات بين انكلترا وفرنسا من جهة، وبين الشريف حسين من جهة ثانية، بشأن مَلَكية الشريف وإثارة العالم العربي ضد الحكومة العثمانية. فقام الشريف في اليوم التاسع من شهر شعبان سنة ١٣٣٤ حزيران سنة ١٩١٦ وخلع طاعة السلطان وأعلن انفصاله عن الدولة العثمانية، ونادى بنفسه ملكاً على العرب، فخفّت دولتا انكلترا وفرنسا واعترفتا رسمياً بانفصاله واستقلاله، ولكن لا في بلاد العرب كلها كما ادّعى وأعلن هو، بل في ملك الحجاز وحده.

وبالرغم من انحصار ملكه في الحجاز دون سواه، وكون يده لا تصل الى غيره من الأقطار العربية التي ما برحت مناوئة له الى آخر أيامه، فأقام للدعاية التي أخذ على عاتقه القيام بها نشر بتوقيع ملك البلاد العربية نشرة عامة خاطب بها جميع العرب وسواهم من رجال الجيش العثماني، والقاها بواسطة الطيارات الانكليزية على الجيش وهذه صورتها.

نشرة الحسين على الجيش

الى جميع العرب وسواهم من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني

سمعنا بمزيد الأسف انكم تحاربوننا، نحن الذين نجاهد في سبيل المحافظة على احكام الدين الاسلامي الشريف من التغيير ولتحرير العرب قاطبة من حكم الاتراك.

نحن نعتقد ان الحقيقة الخالصة لم تصل اليكم لذلك ارسلنا لكم هذا الاشعار ممهوراً بمهرنا، نؤكد لكم اننا نحارب لأجل غايتين شريفتين. وهما حفظ الدين وحرية العرب عامة، ولقد ارسلنا الأوامر المشددة لعموم رؤساء ورجال قبائلنا بانه اذا اسرت جيوشنا اي واحد منكم فيجب ان يعاملوكم في الحسنى ويرسلوكم الى اولادي حيث يرحبون بكم ويحسنون وفادتكم.

لقد كانت المملكة العربية مستعبدة تحت سلطة الاتراك مدة طويلة فقتلوا من قتلوا من اخوانكم وصلبوا من

رجالكم ونفوا نساءكم وعيالكم بعد تحريف دينكم، فكيف تطيقون الصبر بعد ذلك وتحتملون عناء الاستمرار معهم فترضون بمعاونتهم؟

هلمّوا للانضمام الينا نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحريّة العرب حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد اسلافكم انشاء الله تعالى، والله الهادي الى سواء السبيل[٣].

شريف مكة المكرمة وملك البلاد العربية

عقب هذه النشرة أرسلت انكلترا رسلها لايقاد نار الثورة في بلاد العرب بدلالة الشريف حسين وأولاده، وأردفتهم بالأموال والذخائر الوافدة. وكان أشهر هؤلاء الرسل الكولونيل (لورانس) الذي وافى الحجاز في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٦، وتلاقى مع فيصل في المحل المدعو النخيل المبارك عقيب محاولة فيصل وأخيه زيد محاصرة المدينة المنورة وفشلهما وتعقّبهما من قبل فخري باشا قائد المدينة الى ينبع. وكاد فخري باشا يستولي على ينبع لولا وصول الاسطول الانكليزي ومساعدته أولاد الشريف بمدافعه الضخمة التي لم يكن لدى فخري باشا ما يماثلها.

ثم تكاتب فيصل ولورانس مع شيوخ قبائل البدو في الشام، واستدعياهم للمعاونة فلباهما الشيخ نوري بن شعلان[٤] شيخ قبيلة الرولة، والشيخ عوده ابو تايه[٥]، شيخ قبيلة الحويطات، ودفع الكولونيل لورانس لكل من هذين الشيخين ستة آلاف جنيه انكليزي ذهبي كسلفة ابتدائية ثم ابلغها الى الخمسة وعشرين الف ديناراً مما لم يكونا يحلما بخمسه او عشره من قبل واضطرهما ان يلازماه كظله ولا يأتمران الا بأمره، وجعل قبائل الأعراب السعودية في أيدي لورانس، يديرها كيف شاء، لذلك دعاه قومه «ملك الثورة غير المتوّج».

أخذ الأصفر الرنان الذي يصحبه لورانس ليبهر عقول ضعفاء القلوب من الناس، وخصوصاً رجال البدو والذين لم يألفوه بل ولم يعرفوه من قبل، فراحوا يلتفون حول لورانس وينظرون دوما الى يده ولسانه، فأدخل البعض ممن انتقاه من شبابهم في فصائل الجيش الحجازي الذي كان يقوده أولاد الشريف وبعض الضباط الفارين من الجيش العثماني، وأخذ لورانس ينقد كل جندي منهم جنيهين انكليزيين ذهبا في كل شهر[٦].

في خلال ذلك انفجرت مسافة الخلف بين الشريف حسين وابنيه فيصل وزيد اللذين أوشكا ان يفترقا عن أبيهما ويعصيا أوامره، لولا ان ثاب الشريف الى رشده فعاد أولاده الى اطاعته.

ثم ان الشريف حسين وابنه عليّ أخذا يضايقان بقايا الحاميات العثمانية الطفيفة المرابطة في مختلف بلاد الحجاز، فقاتلوهم بسلاح الانكليز، وقتلوا البعض منهم، وأسروا الباقين، وسلموهم الى الانكليز الذين نقلوهم الى الاسكندرية واعتقلوهم مع أسرى حرب الترعة والعراق. وبالرغم من كل هذا لم تكن الشراذم التي دعوها بالجيش الحجازي لتستطيع مقاومة الجنود المنظمة ومقاتلتها خصوصاً إذا كانت مجتمعة ومتحدة، فوسّط الشريف أصدقاءه الانكليز على الاستعانة بأسرى الجنود العثمانية المعتقلين بالاسكندرية فبثّوا رسلهم في معتقل الأسرى، واستدعوا أولاد العرب منهم واحداً واحداً، ضباطاً وافراداً، وأطمعوهم بتخليصهم من الأسر واستخدامهم في الجيش العربي برتب أعلى من مراتبهم، ورواتب أعلى من رواتبهم، وخدعوهم بأنهم إنما يخدمون بذلك دينهم ووطنهم بقتالهم الألمان الذين قبضوا على زمام السلطنة العثمانية، ويرومون الاستيلاء على الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) أيضاً.

غش بعض الأسرى بهذه الخدعة الحربية والحيلة الانكليزية وقبلوا بالمجيء الى الحجاز، والانخراط في جيش الحسين. وتبعهم بعض أفراد الجند الذين فرّوا من الجيش العثماني، ولم يجرأوا على العودة الى بلادهم لان الفار من الجندية خلال الحرب جزاؤه الاعدام، بحكم القوانين الحربية العامة.

ومع ذلك لم يبلغ الجيش الحجازي الخمسة آلاف مقاتل بوجه العموم، والسوريون الذين التحقوا به لم يكونوا اكثر من مائة وخمسين رجلا كلهم من الأسرى والفارين، وليس بينهم من متطوع من تلقاء نفسه أحد[٧].

أما رجال البدو الذين انضمّوا الى هذا الجيش فانهم كانوا كثيري التردد على أهلهم، يحاولون في ذهابهم وايابهم ان يخدموا الطرفين حيث يقبضون العطايا التي يقدمها لهم جمال باشا أمل استبقائهم على قدم الطاعة،

ثم يعودون ويأخذون رواتبهم من الانكليز ايضا.

وطالما تبجّح البعض وفاخر بقوله إننا حاربنا الأتراك في صفوف الحلفاء، فان كان القصد من ذلك تلك الشرذمة القليلة التي التحقت بجيش الحسين طمعاً بالأجور الوافرة التي تقاضتها فليس فيه ما يوجب الفخر كما يقول اللورد دوجلان عضو مجلس الشيوخ الانكليزي (الذي كان خلال الحرب ضابطاً يدعى الميجر سومرست، وقد طاف الجزيرة بين الرسل الانكليز واشترك في إدارة الثورة) في جوابه الذي نشره على الملأ في صحف لوندره بتاريخ ٣١ كانون الأول سنة ١٩٢٣ رداً على نداء الشريف حسين ومعاتبته الأمة الانكليزية بأنها لم ترع له عهداً[٨] وان كان ثمة رهط سوري اشترك في صفوف الانكليز او الافرنسيين كما اشترك فوج الصهيونيين في الجيش البـريـطاني فلتأتون بذكره ليكون ردّا على مقال اللورد رجلان الذي لم يلق من يدحضه. أما بعض المتشردين من الموارنة اللبنانيين الذين خدموا في بعض الكتائب الافرنسية فانهم كانت لهم وظائف خاصة كالتجسس والترجمة وغير ذلك من الخدمات، ومع ذلك فلم يتجاوزوا عدد الأنامل تقريباً.

وأما المهاجرون المسيحيون الذين انخرطوا في الجيش الاميركي في آخر الحرب فانهم اتخذوا هذه الخدمة مهنة وتجارة عندما ضاقت بهم سبل العيش في المهجر وبذلت لهم حكومة الولايات المتحدة ـ التي سبق لها ان استخدمت في جيشها النساء أيضاً ـ أموالاً طائلة لم يكونوا ليحلموا بها، ومع ذلك فانهم لم يبلغوا الألوف ولا المئات كما بولغ فيهم ولم يكن اشتراكهم في الحرب الا باسم وخدمة اميركا صاحبة العلم الذي حاربوا تحته الألمان وحدهم.

اللورد رجلان

نص جواب اللورد رجلان مترجماً حرفيّا:

«يقول الملك حسين إن العرب في العراق وفلسطين وسورية لبّوا دعوته؛ فهذا القول عار عن الصحة! لقد انضم الى الحلفاء قليلون من سكان هذه البلاد وتناولوا اجوراً وافية! إن دعوى الملك حسين بانه يتكلم باسم العنصر العربي كله لا أساس لها، فقد كان قبل الحرب شريفاً لمكة كموظف تركي براتب معين انتقته الحكومة التركية من بين مرشحين كثيرين لهذا المنصب.

ان العائلات الشريفية كثيرة، فمن الخطأ حصر هذا التعريف. نعم ان عائلة الملك حسين اكتسبت بعض النفوذ من اتصالها الدائم بمكّة، ولكنها لا تعدّ انبل وأشرف من عائلات متعددة أخرى تمتّ بانسابها الى النبي العربي. إن الرأي العام عند الحضر من العرب في شأن العائلة الملكية المزعومة قد أفصح عنه أيما افصاح فلاح من شرق الاردن بعد الهدنة بقوله: لا شك انهم لن يجعلوا فيصلا ملكاً علينا. اذ يكفينا ما نذوقه من بلاء دون ان يكون علينا ملك بدويّ.

ومهما كان من امر وعودنا الى العرب فلا شكّ ان الملك حسينا واولاده قد كوفئوا خير مكافأة».

اخلاء الشام

تبودل القتال بين الجيشين العثماني والانكليزي في جبهة الية وكان الجنود العثمانيون قد تناقصت وذخائرهم أوشكت ان تنفد لبعد المسافة عن العاصمة وصعوبة جلب العتاد والذخائر منها بطريق البر، وكان البحر مسدوداً من قبل أساطيل الدولة المتحالفة والمتجولة دوماً فيه، فبعد ان ربح العثمانيون وقعتين فازوا بهما على الانكليز في قاطبة وغزة وأسروا منها بعض الضباط والجنود وجاءوا بهم الى دمشق ثم نقلوهم الى العاصمة، عاد الانكليز واثقلوا عليهم باعانة بوارجهم ومعدّاتهم من البحر واستولوا أولا على مدن العريش وبئر السبع وغزة ويافا ثم احتلوا مدينة القدس يوم ٩ كانون الاول سنة ١٩١٧ بقيادة الجنرال اللنبي، القائد الانكليزي العام الذي كتب الى المستر (نويد جورج) رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ: إن الحرب الصليبية تنتهي اليوم باسترداد الجنود الانكليز للمدينة المقدسة فكافأه الوزير عليها برتبة الماريشالية ولقب اللوردية، جزاء هذا الظفر العظيم.

عقيب سقـوط القدس رابط العثمانيون على ضفة نهر العوجاء شرقي مدينة يافا وجعلوا مدينتي طول كرم ونابلس مقرا لجيشهم السابع والثامن، وكان يقود الجيش الأول أحمد فوزي باشا الفريق وقائد الثاني امير اللواء مصطفى كمال باشا (الذي انقذ بعدئذ بلاد الاناضول من أيدي الدخلاء اليونان ونعت بالغازي وأصبح رئيساً للجمهورية التركية) وكانت قيادة الجيش العامة منوطة بالمشير (ليمان فون ساندرس باشا) الألماني الذي خلف جمال باشا واقام في مدينة الناصرة. وفي غضون ذلك كان العثمانيون في هذه الجبهة معرّضين للمخاطر الآتية:

١ـ بلغ تناقص الذخائر الحربية وخاصة القنابل منها درجة اضطرت الجيش للاحتياط في حرقها بخلاف الانكليز الذين كانوا يملكون البحار ويقذفون القنابل كالأمطار.

٢ـ كان الفحم الحجري روح الخطوط الحديدية قد نفد من قبل واستعيض عنه باحطاب الأشجار التي قطعت بحكم الضرورة من مختلف البلاد تأميناً لسلامة الجيش المحارب ودفعت قيمتها لأصحابها، ولكن الأحطاب أيضاً أخذت تتناقص والاتيان عليها أصبح بأجمعها لا يفيد الا أياما معدودة ثم يعود الخطر دفعة واحدة لا يمكن تلافيها.

٣ـ كانت دعايات الشريف حسين ما تزال تتسرّب وتنساب الى البلاد العربية، وتثير الهياج بين المتهوّسين من شبابها وأخذ موارنة لبنان يدعون فرنسا لاحتلال سورية، فلو لبت فرنسا دعوتهم لقطعت على الجيش العثماني المرابط في فلسطين خط رجعته واتصالاته بالاناضول والعاصمة، وجعلته بين نارين تصعب نجاته منهما.

٤ـ كان مكتب الاستخبارات العثماني علم ان الجيش الانكليزي قرر القيام بهجوم عام يوم ١٥ أيلول سنة ١٩١٨ بمعاونة أسطوليه البحري والجوي (الطيارات) وجعله حاسماً للمسألة.

فلهذه الأسباب قرر العثمانيون، بالاتفاق مع حلفائهم الالمان والنمساويين اخلاء سورية والانسحاب منها تدريجياً، وفعلا باشروا بالانسحاب، وبدأوا أولا بنقل الأموال الموجودة في خزائنهم وفي البنك الزراعي وصندوق الأيتام وغيره.

وفي تلك الآونة جاء الأسطول الانكليزي الى شاطىء فلسطين، وضرب بقنابله الجيش العثماني السابع المرابط في طول كرم ثم أخرج سرية من الجند وأرسلها تحت جنح الظلام الى مدينة الناصرة فاحتلتها وكادت تأسر القائد ليمان باشا، الذي كان مقيماً فيها لولا ان سبقها وخرج منها مسرعاً وجاء الى دمشق.

ثم أخذ الجيشان السابع والثامن بالانسحاب من طول كرم ونابلس، وتبعهما الجيش الرابع الذي كان مرابطاً في السلط بقيادة أمير اللواء جمال باشا الصغير (الآتي ذكره) وجميعهم توجّهوا نحو دمشق بقصد الاناضول وكانت مناوشاتهم بعد ذلك مع الانكليز والعرب من قبيل حروب المؤخرات لتأمين خط رجعتهم فقط.

ولما بلغوا دمشق تابعوا السير على الخط المستقيم ولم يتوقفوا في أية بلدة من البلاد السورية قط.

الزحف على الشام

أخذ الأمير علي بن الحسين يضغط على المدينة المنوّرة بما جمعه من قوّة، فثبت فيها قائدها فخري باشا ولم ينل منه مأرباً، ولم يغادر فخري باشا مدينة الرسول الا بعد انتهاء الحرب وتخلي الاتراك عن جميع البلاد الواقعة وراء جبل طوروس في آدنة، ومجيء هيئة رسمية مؤلفة من رجال معروفين منه شخصياً حاملين (فرمان) أمر السلطان رشاد القاضي بالتسليم.

ولما يئس الأمير من الاستيلاء على المدينة، أخذ يناوش هو واخوته بقايا الحاميات القليلة العدد المتفرقة على طول الخط الحديدي بين المدينة ومعان وقد خرب في غضون ذلك بعد اقسام الخط واقتلع قضبانها الحديدية وطمر آبارها كيلا تستفيد منها الحكومة العثمانية وتستعملها ضده.

ثم اجتاح الأمير فيصل الساحل الحجازي على خليج العقبة، واحتل قريتي ينبع والوجه، ثم تلقى أمراً من

الجنرال اللنبي بالتقدم نحو الشمال للالتحاق بالجيش البريطاني الزاحف على دمشق.
وكان الأمير عبد الله قد حاصر الطائف واحتلها، ثم التحق بأخيه الأمير فيصل وعمل معه على احتلال العقبة بمساعدة (عودة ابي تايه) شيخ قبيلة الحويطات من البر، والأسطول البريطاني من البحر، وكان هذا الأسطول يوالي اطلاق القنابل على العقبة حتى اضطرت حاميتها إخلائها.
وبعد العقبة واصل فيصل السير ولم يجد من يقاومه الى ان بلغ مدينة معان وحاول الاغارة عليها فارتد بخسائر فادحة.
ثم جاء الامير زيد الى الطفيلة وتقاتل مع حاميتها الطفيفة فاصيب قائدها في المعركة مما اضطر الحامية الى التراجع تاركة بعض الأسرى والمدافع.
وقد التحقت بفيصل سرية من المدفعية الافرنسية، وكانت الطيارات الانكليزية تواكبه وتكشف له مواقع الأتراك وتقذف عليهم قنابلها.
وفي غضون ذلك تناوشت الجنود البريطانية مع حامية عمّان التركية واستولى الانكليز على مدينة السلط.
وذهب فيصل الى قلعة الأزرق ليجعلها مقرّا له ولجماعته وأتاه وهو في الأزرق الكولونيل (لورانس) الانكليزي مع نوري بن شعلان شيخ الروله، وعوده أبي تايه شيخ الحويطات، اللذين سبق ذكرهما، واخبر لورانس فيصلا بسقوط نابلس وتراجع الجيش السابع والثامن العثمانيين، ثم أمر القائد الانكليزي الأمير فيصلا بالمسير الى تل شهاب ليقطع على العثمانيين خط رجعتهم، فسار نحوها، وعلم العثمانيون بأمره فاعدوا له كميناً كاد ان يقع فيه هو وجماعته لولا خيانة ضابط عربي من الفريق الثامن العثماني وإخباره فيصلا بأمر الكمين حيث أخذ اهبته وابتعد عنه ونجا من الهلاك.
وقد خرب فيصل وذووه قسماً غير قليل من السكة الحديدية الحجازية وخصوصاً من درعا وعمان، ودرعا والمزيريب، ودرعا وخربة الغزالة، وهدم خمسة وعشرين جسراً من جسورها، وجعل حامية درعا مبتورة الأوصال.
ولما كان من مقتضى القواعد الحربية العامة ان كل من يفتح بلدة من بلاد العدو تبقى تلك البلدة في يده الى ان يتقرر مصيرها في نهاية الحرب، وكان الانكليز قد وعدوا فيصلاً بافتتاح سورية وتسليمها له، ـ كانوا كلما أخضعوا بلدة من البلاد السورية يتوقفون أمامها الى ان يأتي فيصل ويدخلها قبلهم ليكون من حقّه احتلالها وادارتها ـ وبناء على تلك القاعدة والمخابرة التي جرت مع فيصل قام الشريف ناصر بن علي ابن عم الأمير فيصل وأخذ معه شرذمة من الأعراب وخفّ بهم الى دمشق على طريق الكسوة، حيث التحق بأوائل الحامية البريطانية الواردة من جسر بنات يعقوب ـ القنيطرة ـ فاتحد معها، وقصدوا جميعاً مدينة دمشق.
واخذ الجيش البريطاني يضغط على مؤخرة العثمانيين المتراجعين ويؤسر بعض أفرادهم، ويسلب بنادقهم ورشاشاتهم ويحتل ما في طرقه من البلاد التي انسحب العثمانيون منها على طول الخط.

ليمان باشا

جاء المشير (ليمان فون ساندرز باشا)[٩] من الناصرة الى دمشق بعد ان امر الجيش العثماني الذي كان تحت قيادته بالانسحاب، وأقام بدمشق في نزل (فيكتوريا) يراقب الأحوال عن كثب.
وكان قد بقي في دمشق بعض الضباط الذين قطعت علاقاتهم مع الجيش من قبل، وأتاه منهم علي رضا باشا الركابي امير اللواء المتقاعد متظاهراً بالسلام عليه، (وكان هذا الرجل ذا صلة قديمة بجمال باشا منذ أيامهما في العراق فجعله جمال باشا رئيساً للجنة لتحكيم جبل المانع الواقع في جنوب دمشق واعداده للمدافعة فيما اذا تخطى الأعداء على الشام من جنوبها على أنه في الوقت ذاته لم يحجم عن التواطؤ مع فيصل ولورانس وقبل منهما رئاسة لجنة الثورة السورية التي ألّفها لورانس وكلفها بتهيئة البلاد للخضوع والاستسلام عندما يدنوا الجنود الانكليز منها وإدارتها باسمه) ولم يكن ليمان باشا يعلم شيئاً من ذلك فتباحث مع الركابي باشا في امر سلامة الجيش المنسحب وقرر معه ان يذهب رضا باشا الى قضاء وادي العجم ويسعى جهده لتمرير بعض

المقاتلين من القرى المجاورة وتعبئتهم على خط سعسع ـ القنيطرة، ممر الجيش الانكليزي القادم ويشغل بها طلائعه ما أمكن الاشغال ولو يوماً أو بعض يوم الى أن يتم تراجع الجيش بسلام، فتعهد رضا باشا بذلك وأنقده ليمان باشا (على قول صاحب الخطط) مبلغاً كبيراً من المال، فسار به من دمشق وبات ليلة في قرية الدرخبية الواقعة على ذيل جبل المانع، وارسل الى الجنرال اللنبي القائد الانكليزي العام يخبره بمهمته مع مصور الحصون التي انشأها على ذلك الجبل إثباتاً لاخلاصه للانكليز وعدائه للعثمانيين، فحفظ الجنرال له هذه الخدمة ووعده بالمكافأة عليها.

ثم خلع رضا باشا الثياب العثمانية وارتدى الملابس العربية، ولما توارت طلائع الانكليز لجأ الى قائدها وعرض عليه خدمته واخبره بأن الاتراك اخذوا ينسحبون من الشام على طريق العجلات ودله على المنفذ الموصل الى ذلك الطريق من وراء قرية قطنا وحرضه على ارسال قوة تمنعهم من السير وتقضي عليهم.

في خلال ذلك غادر ليمان باشا دمشق، وعاد اليها رضا باشا مدّعيا ان العربان سلبوا ماله وثيابه، وقال صاحب الخطط: «ذهب رضا باشا من الشام قائداً تركياً وعاد اليها حاكماً عربياً انكليزياً».

وكذلك وفد على ليمان باشا الأمير سعيد الجزائري وعرض عليه خدماته أيضاً. وقدّم له ملحم قاسم شيخ قرية بريتال في بعلبك بدعوى انه من الأصدقاء الذين يركن اليهم، فاعتمده ليمان باشا وأعطاه ألفاً وخمسمئة دينار ذهبي ليؤمن الطريق على الجنود المتراجعة، فأخذ المال وما كان منه الا ان أغار بجماعته الاشقياء على مستودعات رياق العسكرية وراح ينهبها حتى اضطر محافظوها الألمان الى نسفها بالمدمرات ثم تعقب الفصائل العثمانية المتراجعة والحق بها بعض الأضرار وسلب سلاح المتأخرين وقتل زهاء ثلاثين جندياً منهم.

جمال باشا الصغير

عقيب رحيل ليمان باشا من دمشق غادرها رأفت بك، آخر وال عثمانيّ في سورية، واناب عنه بهجت بك أميرلاي أركان الحرب فقام هذا بالنيابة سبعة أيام ثم رحل مع أمير اللواء جمال باشا المرسيني المعروف بالصغير، وهو قائد الفريق الثامن العثماني الذي كان عطف على الشام وأهلها، حيث كان تقرر نسف جميع الأماكن الأميرية الموجودة بدمشق وتدميرها بالمدمرات قبل الرحيل، وكانت عينت لذلك فصائل خاصة وأمرت أن تقوم بهذا العمل ثم تغادر المدينة مسرعة، فعارض جمال باشا الصغير هذه الفكرة المهلكة التي تشمل النساء والأطفال أيضاً، واتفق بالرأي مع قائد المدفعية النمساوية، وتمكّن الاثنان من إلغاء ذلك القرار الذي لو تم تنفيذه لحرقت المدينة بأكثريتها لوجود أغلب الأماكن الأميرية بين الدور والأسواق، وهكذا أنقذ المدينة وأهلها من الدمار والهلاك. ولم ينسف يوم الرحيل سوى مستودعات الذخائر الحربية (جبخانه) ومحطة التلغراف اللاسلكي في القدم وكلاهما غير متصلين ببناء قط.

وبعد انتهاء الجلاء جاءت الى افق دمشق طائرتان المانيتان وألقتا قنابلهما على دار الحكومة وانحرف خط السقوط بتأثير النسيم قليلاً فسقطت منها قذيفة في نهر بردى أمام دار الحكومة، وسقطت قذيفة ثانية على حي البحصة القريب منها، فأصابت المرحوم أديب افندي نظمي الطناحي وقتلته.

كان جمال باشا الكبير قد اعتقل أمير اللواء المتقاعد شكري باشا الأيوبي[١٠] حيث وجد معه قائمة بأسماء المرشحين للوزارة العربية واعتقل معه أمير اللواء عبد الحميد باشا القلطقجي، والزعيم زكي بك العظمة، لكونهم مخالفين لخطته، وعذّبهم أشد التعذيب. ولما تولى جمال باشا الصغير أفرج عنهم فنجوا من الهلاك.

وفي آخر يوم من أيام العثمانيين بالشام وهو يوم الأحد ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ للهجرة الموافق ٢٩ ايلول سنة ١٣٣٤ مالية (١٩١٨ ميلادية) جاء جمال باشا الصغير بسيارته الى حديقة الأمة في المرجه، حيث أعدّ له شكري الأيوبي حفلة وداع حضرها بعض وجهاء الشام وعلمائها، وأشار عليهم جمال باشا بأن يعلنوا استقلال البلاد لأن العثمانيين نفضوا يدهم منها بتاتاً.

ثم غادر جمال باشا دمشق مع الأميرالاي بهجت بك وكيل آخر وال عثماني فيها، وقام شكري باشا الأيوبي

بأمر المحافظة على الأمن ورفع العلم العربي على سارية دار الحكومة ضحوة اليوم الثاني وهو اليوم الوحيد الذي حكم فيه شكري باشا.

فذلكة من تاريخ الدولة العثمانية

تألفت الدولة العثمانية في أول نشأتها من قبيلة صغيرة حاربت واقتحمت وامتلكت تلك البلاد الشاسعة بهمّة سلاطينها وبسالة رجالها ثم بانضمام القوى الجديدة اليها من البلاد التي دخلت في حوزتها، فميخايل الكوسا البروسي، والغازي اورافوس المكدوني، كانا من أشهر القواد العثمانيين وأشدهم بلاء في أغلب الفتوحات العثمانية ولما تواقع السلطان ابي زيد مع التيمور كان امراء البلاد قد انضموا برهوطهم الى التيمور الذي وعدهم باعادة إمارتهم اليهم، وتبعهم الجنود التاتاريون الذين كانوا يؤلفون معظم جيش أبي زيد، ولم يكن معه حينما وقع في الأسر سوى رجال قبيلته وحاشيته مع الصربيين والاولاحيين (الافلاقيين أهل رومانيا) الذين أبلوا أحسن البلاء في خدمة السلاطين العثمانيين، وظلوا يقاتلون في سبيلهم وتحت رايتهم طيلة الدور الأول من حياة الدولة وهو إبان شوكتها وقوّتها.

لم تفكر الدولة في ذلك الزمن الذي كان لها فيه كل شيء ميسوراً بحفظ التوازن بين أهلها وأهل البلاد الأصليين المخالفين لمعتقدها، بل غالت في نشر العدالة العمرية بينهم، وجعلت من كنائسهم حكومة ضمن حكومتها، ولم تبال بكثرتهم وقلّتهم، حتى ولم تشأ ان تقتضي بالسلف الصالح، وتستجلب بعض العشائر من البادية أو من وراء النهر مثلا وتسكنهم في البلاد المفتوحة بين عناصرها القديمة كي تتوازن القوتان، وهذا أعظم خطيئاتها السياسية، ودخلت في دور الحياة الثاني، وتركت شظف العيش، وطاب لها التنعم والرفاه وأخذ أمراء الأسرة العثمانية يتطاحنون على السرير مما أدى الى حصول الوهن الذي كاد يقضي عليها بعد السلطان أحمد الأول.

ولما بلغت الدور الثالث من الحياة، تطوّرت الأخلاق، وفسد نظام الجند، وتجلّى الانحلال في جسم الدولة، وتحكمت ربات النحور في القصور على جلائل الأمور وتنبهت العناصر المحكومة واتبعت دعايات الأجانب وأخذت تخرج من حكمها واحدة بعد أخرى.

ثم جاء الدور الأخير فاعتصم السلاطين في قصورهم، وتركوا الحبل على غاربه للوزراء والأمراء ومنهم الطامع والطامح، والعالم والجاهل، وأصبحت الدولة في العصر الماضي على شفا جرف الانهيار، وقد نعتها البعض بالرجل المريض أو الميت المتحرك، ولم يكن ذلك عبثاً، وكاد يفقد الأمل من شفائها من أمراضها الفتّاكة لولا ان قيّض الله رجالا أولي حزم وعزم قادوا السفينة الى شاطىء السلامة، وانقذوها من الغرق، كالسلطان محمود الثاني، ونجله السلطان عبد الحميد، ووزيره الداهية مصطفى رشيد باشا، وتلميذه أمين عالي باشا، الذين كانوا سبباً في اطالة مدّتها قرناً آخر بما اتخذوه من أساليب الحكمة السياسية الرشيدة، وبعد ان كانت الدولة على شفا الانقراض لم تستطع مقاومة أحد ابنائها، مهدوا السبيل لخروجها من حرب القريم ظافرة معدودة من دول أوروبا العظمى، ولم تكن فقدت الى ذلك الحين سوى بلاد المجر والمورة، ولبثت الراية العثمانية تخفق من البوسنة والهرسك الى خليج البصرة، ومن فرقة عدن الى القسطنطينية وبلاد البغدان (رومانيا)، ثم شرعت باصلاح أحوال الرعية بما لديها من الوسائل الضئيلة، وأخذت تسعى جهدها لجبر نواقصها وإكمالها، ولكن الدعايات الروسية لم تدعها لحظة ولبثت تعمل على اضعافها في السر والعلانية، الى ان تأصل النفور بين الحكومة وعناصرها سكان بلاد الروم المنتمين الى العرق الصقلي، وقامت هذه العناصر تطالب بالانفصال والاستقلال كما فعلت المجر واليونان من قبل وتوالت الفتن والثورات في مختلف البلاد بايعاز وتحريض الدولة الروسية وغيرها من الدول الكبرى التي تنازع النفوذ في هذه البقاع، وأخذت العصابات الروسية تعيث فساداً في بلاد الصرب والبلغار والبوسنه والهرسك، فطارت أول شرارة من الهرسك، وبينما الدولة تعمل لاخمادها إذ ثارت الصرب وتبعها الجبل الأسود ودبت عقارب الفساد في بلاد البلغار، فحاولت الدولة قمع كل هذه الفتن واعادة الأمن الى نصابه، وفعلا هزمت الجيش الصربي وحاصرت عاصمة الجبل الأسود، وأطفأت ثورة البلغار، ولكن روسيا حامية هذه

العناصر ومثيرة تلك الفتن عاجلتها باعلان الحرب سنة ١٢٩٣ ـ ١٨٧٦ وتبعتها الصرب والجبل الأسود ثم مملكتا رومانيا فتناوشت معهم جميعاً زهاء سنة ونصف السنة، الى ان تغلبت الكثرة على القلة، وبلغت جيوش الروس أبواب العاصمة.

خرجت الدولة من تلك الحرب منهوكة القوى تتعثر باذيال الوهن والضعف فانتهز الخصوم فرصة ضعفها وتقدموا في دعاياتهم كيلا يمكنوها من ضمد جراحها ولم شمتها ودامت الدعايات الأجنبية سائرة تدس الدسائس التي تنخر في جسم الدولة وتعاقبت فيها الثورات المادية والمعنوية واهمها ثورة الاتحاديين الذين توصلوا الى القبض على زمام السلطنة وجعل السلطان والباب العالي العوبة بين ايديهم لا يأتون بحركة أو سكون الا برأيهم وايعازهم، كما اوقعوها في حرب مع اليونان والصرب والبلغار والجبل الأسود ومكنوا ايطاليا من الاستيلاء على طرابلس الغرب والجزر الاثنتي عشرة وبينما كانت الدولة في هذه الحالة تعاني شدائد الأهوال إذ ادخلها الاتحاديون في الحرب العالمية على غير رضاها ولا علم سلطانها وكانوا سبباً لاضمحلالها واندثارها.

هذه خلاصة وجيزة من تاريخ الدولة العثمانية وذلك ما صادفته في ادوار حياتها من عزّ وذل، ومجد وسقوط، ولم يخل رجالها بحسب الطبيعة البشرية من غلطات سياسية وهفوات إجتماعية، وانما حسن النية والشفقة على الرعية كان رائدها في جميع أيامها، ولم يفتر سلاطينها عن حث العمال على العدل، واجتناب الظلم بكل وسيلة طيلة أيامهم.

يدعي البعض عدم وجود القدر الكافي من آثار العمران التركي في هذه البقعة السورية، في حين أننا اذا استثنينا الجامع الأموي القديم نرى ان أكثرية الجوامع والمساجد والمدارس والتكايا والخانات والأسواق والحمامات وغيرها من المباني العالية العامة هي من آثار العثمانيين دون سواهم، على ان بلاد الروم نفسها لم تكن أسعد منا حظاً بل كنا جميعاً متساوين في البؤس والنعيم، لا يكاد يختلف أحدنا عن الآخر في أمر جوهري قط. بل ان اخواننا الأتراك كانوا يقومون بخدم الدولة الشاقة أكثر منا، فان الجيش العثماني الى أيام الحادثة الشامية كان يؤلف من الأتراك وحدهم ولم يكن فيه من العرب أحد، كما أن حرب اليونان عام ١٣١٣ قام بها الأتراك فقط لأن انسداد طرق البحر في ذلك الحين من قبل الأسطول اليوناني حال دون سوق جيش البلاد العربية الى ساحة القتال، وانتهت تلك الحرب دون ان يشترك فيها عربي واحد. على ان الجسم إذا داهمه الاحتضار لا يلبث ان يقضي عليه وجميع الأعمال الصالحة التي تبدو منه في ذلك الدور تعد من قبل الاختلاج المؤدي الى الموت.

وهنا نرى ان ندعو معشر الكتّاب والمؤرخين الى حظيرة العدل والانصاف، فان الدولة بادت وانقرضت، ولم يعد من مطمع في رجوعها الى عالم الحياة، وانما هي الذمة والشرف يقضيان على المرء بالتخلي عن الأغراض والغايات، فما كل حركة مشينة ولا كل عمل سيء، والعصمة لله وحده.

اننا اذ نطالب بحقوقنا فلا ينبغي ان نهمل واجباتنا، وهي قول الحق ولو كان مراً، والحق ـ فيما نعتقد ـ ان السلطنة العثمانية حافظت على هذا الشرق طيلة تلك العصور وأمنت استقلاله، وحمت بيضة الاسلام واعلت شوكته، وتساهلت مع غير المسلمين ومنحتهم مساعدات تمكنوا بواسطتها من حفظ كيانهم ولولاها لتفككت عرى الكل وانتثرت الجموع وأصبحنا كلنا أثراً بعد عين. وهي من هذه الجهة ايضا تفضل جميع الدول الغابرة والحكومات الحاضرة بلا مراء.

والمنصف من ينتقد الأعمال بمفرداتها، ولا يأخذ المجموع بجريمة الفرد ويحكم على السلطة كلها لتقصير ظهر في بعض أيامها من بعض عمالها ويحكم العقل والمنطق في أحكامه، فصاحب الدار لا يهدمها بنفسه، ولا يرضى ان يهدمها غيره وهي ملجؤه الوحيد وان كان ثمة خطأ فهو خطأ اجتهاد والله من وراء القصد.

الاحتلال الانكليزي

في يوم الثلاثاء ١٥ ذي الحجة ١٣٣٦ للهجرة الموافق ١ تشرين الأول ١٩١٨ للميلاد تقدمت فرقة الفرسان الأسترالية التي يقودها الميجر (استروالدن) وهي طليعة الحملة المساقة على دمشق من الجنرال (شوفل) من

أصل الجيش البريطاني الشرقي الذي يقوده الجنرال اللنبي القائد البريطاني العام، ومعها الشريف ناصر بن علي ابن عم الأمير فيصل، تتبعه ثلة من الأعراب، فدخلوا جميعاً مدينة دمشق واحتلوها بدون حرب ولا مقاومة، وعهدوا بحكومتها الى أمير اللواء المتقاعد رضا باشا الركابي، ثم تأثر الجيش البريطاني بقايا الجيش العثماني وتبعها نحو دمّر حيث توقف فيها قطار السكة الحديدية بين موقع الشادروان ودمّر، وكان مشحوناً بخزينة الجيش العثماني، فنهبها الفلاحون وبعض المصطافين في دورهم هناك والجنود الأسترالية. ويقول الكولونيل لورانس في مذكراته: سلب الأستراليون من العملة التركية ملايين لا تحصى، وأخذوا ينفقونها يميناً وشمالاً بغير حساب، وأصبحت الليرة العثمانية لا تساوي شيئاً عندهم (رُوِيَ أن جندياً أسترالياً نقد غلاماً صغيراً أمسك له جواده ورقة من فئة الخمس والعشرين ليرة أي ألفان وخمسمائة قرش تركي).

وكذلك طارد الفرسان الإنكليز الجنود التركية المتراجعة عن طريق البرّ حتى أبعدتها عن خان القصير في ضواحي دوما.

وفي يوم الفزّة وليلتها، اي بين خروج العثمانيين ودخول الإنكليز حاذر الناس حدوث فتنة بين الرعاع قد تنقلب إلى سلب ونهب يعم المدينة كلها، واتخذوا لذلك ما أمكن من الاحتياطات وإنما انشغال الأوباش بنهب مال الحكومة وسلب الجنود المتراجعة ألهاهم وحال دون تطاولهم على الدور والأسواق وحمى الله المدينة من شرّهم.

وفي يوم الخميس ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ و ٣ تشرين الأول سنة ١٩١٨ دخل الأمير فيصل بن الحسين إلى مدينة دمشق وذهب توّاً إلى نزل (فيكتوريا) حيث يقيم الجنرال (شوفل) الإنكليزي فتلقّى أوامره، ثم جاء إلى دار الحكومة واحتلّها، وأقام ضيفاً في دار المرحوم محمود بك البارودي بالقنوات.

هوامش الفصل العاشر

(١) يهمنا ان نعلم هل كان الشريف حسين يدري بما آلت عليه احوال العرب واخلاقهم واوضاعهم وانفتهم في الاصل من الرضوخ إلى الفدائية على السواء ! وهل كان يأمل مع كل هذه الأمور والحالات والتطورات ان يحملهم على تناسي الماضي وعنعناته والحضر وتشتتاته ويجعلهم يتّحدون تحت راية واحدة ! وبعبارة اوضح هل كان يعتقد بانضمام إقليمي نجد واليمن العربيين إلى مملكته المزعومة وتخلّي إماميهما عنهما ! ثم هل كان ينتظر من الإنكليز خاصة، واوروبا عامة، أن تساعده على جمع شتات العرب وإعادة المجد السالف الذي يدّعي انه كان ينشده ! اوَلَمْ يعتبر بما آل إليه امر عرابي باشا المصري الذي سبق وقام ضد الخديوي توفيق باشا بدعوى إنقاذ العرب من جور الشراكسة وتسلطهم وكان من امره ما كان ! إن الظواهر تدلنا على ان الشريف كان يعلم كل هذا ولكنه اغترّ بالوعود الخلّابة فراح مع الغابرين، والله اعلم !

(٢) فرقة الحجاز كانت كغيرها من الفرق العسكرية مؤلفة من لوائين وفوج واحد من القناصة. وكل لواء آلايان، والآلاي اربعة طوابير مجموعها سبعة عشر طابوراً سحبت الحكومة منها إثني عشر طابوراً فلم يبق في الحجاز كله سوى خمسة طوابير، وكل طابور كان إذ ذاك يؤلف من ٣٥٠ جندياً.

مجموع الجنود التي لبثت مرابطة خلال قيام الشريف بثورته في مختلف البقاع الحجازية من مكة الى المدينة، فالعقبة، فينبع، فجدّة، فالوجه فالطائف وضواحيها، كان يتراوح بين الألف ومائتين والألف وخمسمائة جندي لا اكثر، وهذا من سوء تدبير الإتحاديين وقد سبق لهم نظيره في طرابلس الغرب ولم ينتهوا من عاقبته المؤلمة، ولولا ذلك لما تجاسر الشريف على القيام تجاه السبعة عشر طابوراً التي كانت حامية الحجاز، ومرابطة فيه دوماً.

(٣) ملاحظة: يدّعي الشريف حسين بهذه النشرة انه يجاهد لأجل الدين وحرية العرب وان الأتراك قتلوا وصلبوا ونفوا الكثير من العرب، وحرّفوا الدين عن مواضعه، وهو يدعو ابناءه العرب إلى الانضمام إليه لتصبح المملكة العربية كما كانت في عهد السلف الصالح ! إن ادّعاء الشريف بانه يجاهد لأجل الدين هو مواربة رد عليها مسلمو الهند في حينها وقاطعوه لأجلها طيلة أيامه بالحجاز، خصوصاً وان فصل البلاد عن الجامعة الإسلامية ووضعها تحت حكم الأغيار واستعبادهم، لا يعد جهاداً لأجل الدين، بل هو لغايات قد علمها الله والملائكة والناس أجمعين.

أما النفر الذين صلبهم ونفاهم جمال باشا فالنكبة فيهم اهون بكثير من المصيبة بالاحتلال الأجنبي الذي اوقف فيه جلالة الحسين واولاده.

واما تحريف الدين فلسنا ندري أين وكيف جرى، واما خداع الشريف لمسناه بأيدينا وكان من جملة عواقبه أن قام المبشرون بالدين المسيحي واخذوا ينصرون الناس على المكشوف بينما كانوا في زمن الاتراك لا يجراون على أن ينبسوا ببنت شفة في هذا الموضوع ولم تقع في ايامهم مسائل التنصير إلّا ما ندر وكانت خلسة دائماً. ثم انه إذا كان الشريف يقصد من تحريف الدين الكتابين اللذين نشرهما الملحدان عبيد الله وعبد الله جودت خلال ثورة الاتحاديين فهما يعبران عن زندقة صاحبيهما فقط، وقد نبذتهما الأمة بإجمالها، ولم يصغ إليهما مصغ، وقد سبق مثل ذلك في صدر الإسلام أيضاً.

(٤) نوري الشعلان (١٨٤٧ ـ ١٩٤٢) شيخ مشايخ الروله (من عنزه) التي كانت تسيطر على الصحراء السورية بين دمشق ونجد. (ن.ص.)

(٥) الشيخ عوده ابو تايه (١٨٥٨ ـ ١٩٢٤): زعيم حويطات التوايهة الذين يقيمون عادة حوالي معان، ومن أشهر فرسان البدو في تلك الفترة. وقد قام بدور مهم في عمليات الثورة ودعم الجيش الشمالي. اتخذه لورانس صديقاً وتحدث عنه كثيراً في «اعمدة الحكمة السبعة» وكتاباته الأخرى. (ن.ص.)

(٦) يُروى انه جاء في مذكرته التي كتبها فيما بعد انه كان يسعى لاستقلال البلاد العربية فقط، وعلم بأن حكومة الإنكليز متفقة مع فرنسا على مقاسمة هذه البلاد وامتلاكها فيما بينهما، وانه هو مضطر بحسب وظيفة التجسس التي اخذها على عاتقه ـ للكذب على العرب وغشهم بصداقة الإنكليز، فأخذ ضميره يعذبه فلما وضعت الحرب أوزارها وانتهت وظيفته اعتزل خدمة الحكومة بتاتاً واعاد الأوسمة المهداة له من الحكومة إليها وقضى بقية حياته بصفة عتّال بسيط. (انظر كتاب الثورة العربية للورانس).

(٧) كان القانون العثماني يقضي بأن يكون جميع الأهلين على اختلاف مذاهبهم من سن العشرين الى الخامسة والأربعين من العمر جنوداً يخدمون في مختلف وظائف الجيش ولذلك فإن النفر القليل الذين التحقوا بالجيش الحجازي وهم من ارباب هذه الأسنان طبعاً كلهم فارّون من الجندية بعد دخولها او قبله او من الأسرى الذين اطمعوهم بالمال ليس إلّا.

(٨) مقال اللورد رجلان نشرنا تعريبه بالباب الآتي.

(٩) ليمان باشا (١٨٥٥ ـ ١٩٢٩) هو الجنرال الألماني اوتوليمان فون ساندرز الذي ذهب إلى تركيا رئيساً لبعثة عسكرية انتدبت لتنسيق الجيش العثماني وإصلاحه، وانتمى إلى الجيش العثماني ومنح فيه رتبة (مشير). ولما نشبت الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤، واشتركت فيها الدولة العثمانية إلى جانب المانيا، بقي في تركيا، واصبح قائداً للجيش الأول التركي في (جناق قلعة).

وفي اواخر الحرب نقل إلى قيادة مجموعة جيوش الصاعقة خلفاً للجنرال فالكنهاين، فلم يحقق نجاحاً في مهمته. عاد إلى ألمانيا بعد الحرب وتوفي في ميونيخ. (ن.ص.)

(١٠) **امير اللواء شكري (باشا) الايوبي**: من رجالات سورية الوطنيين، اعتقله جمال باشا (مع شكري القوتلي وفارس الخوري وآخرين) بعد تنفيذ أحكام الإعدام بالشهداء العرب في ٦ ايّار وحلّ الديوان العرفي، واستصدر حكماً بإعدامهم بتهمة التآمر لإشعال ثورة عربية للانتقام من جمال باشا، ولكن ديوان التمييز العسكري في العاصمة نقض تلك الاحكام، فأصرّ جمال على بقائهم معتقلين. فبقي الأيوبي رهن الاعتقال والتعذيب حتى غادر جمال سورية.

ولما اقترب فيصل من دمشق طلب إلى أعوانه فيها تسلم زمام الأمور حال انسحاب الاتراك، ورفع العلم العربي على ابنية الحكومة، وقد تسلّم الأيوبي إدارة دمشق من وكيل الوالي التركي قبيل مغادرته، فبقي على رأسها لمدة يومين حتى وصل فيصل وعيّن علي رضا باشا الركابي حاكماً عسكرياً على دمشق وشكري الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت، وطلب إليه التوجه إليها في الحال لإعلان قيام الحكومة العربية فيها ورفع العلم العربي بناء على طلب أهلها، فذهب على رأس قوة صغيرة. ورافقه في هذه السفرة الشاقة رستم حيدر. وقد استاء الفرنسيون لهذه الخطوة، فحملوا الجنرال اللنبي على إصدار امر بإنزال الأعلام العربية وانسحاب شكري الأيوبي، فرفض الاستجابة لهذا الامر، ولكن اللنبي نفذ ذلك بالقوة على الرغم من اعتراضات الموظفين العرب. فاضطرّ الأيوبي الى العودة إلى دمشق، وعيّن بعد ذلك حاكماً عسكرياً في حلب. (ن. ص.)

١١ الحكومة العربية والتمهيد للاستعمار الفرنسي

تمهيد

كان الاتحاديون وباء وبلاء على الدولة العثمانية، قبضوا على زمامها وأصبحوا فيها كل شيء من لا شيء كالكاتب البسيط (مثلا طلعت [1] الذي كان لا يحلم بأكثر من خمسمائة قرش راتبا شهريا أصعدوه دفعة الى مقعد الوزارة وأوصلوه الى الصدارة العظمى).

ولأجل ستر معايبهم وجبر نواقصهم لم يروا أسهل من الشدّة والضغط، والخبط والخلط، ولا مانع ولا من رادع فالجيش يساندهم، والعوام تعاضدهم، وكانت النتيجة أن كانوا سببا في انحلال الدولة، وراحوا معها كالهباء المنثور ولم تفدهم كثرتهم من الله شيئا.

ولو بقي الأمر عند هذا الحدّ لتركناهم وشأنهم، وانما سرت عدواهم الينا، وكادت تفنينا، فانه عقيب مجيء الأمير فيصل بن الحسين تأسس بدمشق النادي العربي الذي قام مقام جمعية الاتحاد التركية معتضدا بالمرتزقة الذين استحضرهم من مختلف بلاد الله. وزيّن الاستفادة منهم عن علم أو بغير علم فوسع الأمير لهم صدور المجالس واقامهم في مختلف الوظائف. واذ كانت تنقصهم الخبرة والدربة استعاضوا عنها بتقليد الاتحاديين بارتكاب الشطط واحتكار العروبة والصداقة فقط. وحيث أن البلاد السورية هي جزء من البلاد العثمانية لم تكن وظائفها لتكفي ذلك التيار الجارف مهما تزايدت وتوسعّت، فألفوا الأحزاب وراحوا يتطاحنون على المقاعد ويكيدون لبعضهم في السر والعلانية وكثيرا ما اوقعوا الأمير في حيص بيص، وجعلوه يبرم وينقض، ويأمر ويرفض، ويتذبذب ويتلاعب بمقدّرات البلاد، ثم اروه شبح التاج الذي لوّحت له به انكلترا فخلبوا لبّه، وما عتم بين عشية وضحاها أن ذهب الملك واندثر التاج، وهوى الأمير عن عرشه والعاقبة للمتقين.

الجنرال اللنبي

سلم الجنرال اللنبي، قائد الجيش البريطاني، بلاد الشام التي احتلها جيشه الى الأمير فيصل بن الحسين على أن يكون رضا باشا الركابي حاكما عسكريا على دمشق، ثم أخذ يودي من خزينة الجيش البريطاني في كل شهر مائة وخمسين الف جنيه مصري إعانة للأمير على بثّ دعايته وتنظيم حكومته.

وفي خلال ذلك ألقت الطيارات الانكليزية على مدينة دمشق نشرات بتوقيع مقّر الجيش البريطاني تنبيء بأن حكومة البلغار ايضا خضعت للحلفاء وامضت معهم الهدنة مقدمة للصلح. وفي ذلك إشارة الى فشل السياسة الألمانية العثمانية وانقطاع المواصلات بين برلين والآستانة بتاتا. ثم القت الطائرات منشورا دوليا سناتي على ذكره وتنفيذه في الباب التالي.

المنشور الدولي

عقيب الاحتلال في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ يوم عقد الهدنة العامة القت الطيارات الانكليزية على البلاد السورية باسم الدولتين الحليفتين انكلترا وفرنسا منشورا من قبل الجنرال اللنبي القائد البريطاني العام يتضمن ما يلي :ـ

> ان السبب الذي حاربت الدولتان من أجله هو تحرير الشعوب التي رزحت عدة قرون تحت نير مظالم الأتراك (كذا) تحريراً تاماً، واقامة حكومات وادارات وطنية تستمدّ سلطتها من اختيار الأهلين لها اختيارا حرا.

ان الدولتين لا تقصدان ان تنزلا أهل هذه البلاد على الحكم الذي تريدانه، بل أن همها الوحيد أن يتحقق بمعاونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الأهلون أنفسهم، وان تضمنا عهدا نزيها يساوي بين الجميع، ثم تسهيل ترقية الاقتصاديات في البلاد، واحياء مواهب الأهلين وتشجيعهم على نشر العلم، ووضع حد للخلاف الذي قضت به السياسة التركية . (كذا) (انتهى)

تفنيد

هذا هو تعريب المنشور الذي نقلناه حرفيا، وهو مكتوب بلسان السياسة المرن بغية اقناع السوريين بأن الحلفاء يريدون بهم الخير كما أذاعوا ذلك مرارا.

على أنه بالرغم من تفاخر الأمير فيصل يوم مبايعته بالملك على سورية بهذا المنشور نرى أن نظرة واحدة تكفي لاظهار فساده وكونه هو والحقيقة على طرفي نقيض وان القصد منه إغراء الشرقيين الذين يخالهم الغربيون أغبياء لا يفهمون للسياسة معنى، وها نحن نفند هذا المنشور ونبسط الادلة على فساده لا بما ثبت بعده من أعمال الدولتين الحليفتين في مختلف البلاد التي احتلتاها وأظهرتا فيها من الغرائب والعجائب ما يخالف روح هذا المنشور على خط مستقيم، بل بتحليل عبارات المنشور نفسه وتفنيدها واحدة واحدة، فنقول:

١ـ هل كانت الحرب العالمية بسبب الشعوب غير التركية التابعة للسلطنة العثمانية؟ كلا .

٢ـ يقول المنشور إن هذه الشعوب رزحت تحت نير مظالم الاتراك عدة قرون، فان كان القصد من الأتراك هو العثمانيون لا غيرهم، فها هو التاريخ بين أيدي الجميع يدلنا على أن هذه البلاد منيت بتحكم العناصر الغريبة منذ انقراض الأمويين وظهور العباسيين أي منذ الف ومائتي سنة بدون فاصلة، والضغط والاضطهاد اللذان كانا سائدين في الأزمنة السالفة لم يكن لهما من أثر أيام العثمانيين، بل كان العثمانيون ارفق بالرعايا من جميع الدول الغابرة، والأدلة على ذلك كثيرة. إن هذه الدعوى خلقتها الدعايات الغربية منذ اقتحمت أبواب الشرق للغربيين كي تتوصل بها الى التفريق بين أبنائه وتأمين السيادة عليهم بعد انحلال الدولة العثمانية التي كانت آخر معقل للشرقيين عامة.

أما بعض الشرقيين الذين اتصلوا بالغرب بمختلف الأسباب فانهم اغترّوا بتلك الدعايات، وظنوا ان الغرب هو النعمة العظمى، والسعادة الخالدة التي يبشرّون بها، فراحوا ضحية هذه الاغراءات.

٣ـ ما معنى الافادة عن الحكومة والادارة الوطنية بصيغة الجمع. الم تعد الحليفتان الشريف حسينا حينما التفتا حوله لاستجلابه الى حظيرتهما بأن تجعلاه ملكا على العرب. وأخذ هو نفسه ينتحل ويستعمل هذه الصفة بتواقيعه ومراسلاته تحت أعين الحلفاء وأبصارهم. فلماذا لم تثبتا على وعودهما وتجعلا الجزيرة مملكة واحدة يكون الشريف ملكها وأولاده نوابا عنه. إن هذا يستحيل لاختلاف نزعات القوم والحليفتان تدريان باستحالته، إذ لا نفوذ للشريف في غير القطر الحجازي. حتى أن نفوذه في الحجاز نفسه كان ضئيلا، لا يستطيع معه جمع الكلمة وتأليف القلوب. ولم يكن ذلك الوعد الا وسيلة للاستيلاء على زمام الشريف وحمله على خلع طاعة العثمانيين وتوسيطه لبثّ الدعايات ضدّهم خدمة لمصالح الحلفاء ليس إلاّ.

٤ـ إن الحرية التي ينعمون بها على الأهلين في اختيار الحكومات التي يريدونها لا تاتلف مع العهد الذي قطعته الحليفتان لنفسيهما وجعلتاه دستورا لأعمالهما من قبل ذلك المنشور بعامين كاملين بحكم اتفاقية (سايكس ـ بيكو) المانحة للحليفتين حق العمل في هذه البلاد على ما ترغبان فيه. واذا كانت الحليفتان تقصدان حقيقة منح الحرية لأهل هذه البلاد، لم يعد من حاجة لما دعتاه المعاونة والمساعدة من قبل الغير وخصوصا لأن يضمن لهما هذا الغير عدلا نزيها يساوي بين الجميع. فالمعاونة والمساعدة والضمان كل هذه الكلمات معناها المداخلة، والمداخلة تنافي الاستقلال المنشود.

٥ـ تسهيل ترقية الاقتصاديات هو بيت القصيد من هذه الشنشنة كلها. والقصد منه أن يلهو الشرقيون بشيء من الاقتصاد ويتركوا الحرية والاستقلال اللذين هما عماد الراحة والسعادة، ولا حياة لأمة بدونهما،

ويكونوا خدما لمن يمنحون تلك الامتيازات الكبرى، فيسكبون عرق الجبين لقاء كسرة في إمكانهم تداركها لأنفسهم بغير هذه الواسطة التي تجعل كنوز البلاد وخيراتها ملكا لأصحاب الامتيازات الاغراب، وليس لأهل البلاد منها سوى أجور العمل الزهيدة فقط. وهذه بلاد الجزائر وأعمال الافرنسيين فيها، ثم ترعة السويس من أجلى الشواهد على ذلك.[٢]

٦- اجلاء مواهب الأهلين وتشجيعهم على نشر العلوم بينهم جعلوه في تونس والجزائر ومراكش تلك البلاد العربية القحة التي أصبح ابناؤها بعد الحكم الافرنسي لا يستطيعون التكلم بلسان آبائهم وأجدادهم دون أن يمزجوا بكلامهم ألفاظا أعجمية ما أنزل الله بها من سلطان، والسواد الأعظم منهم أمسى جاهلا حتى في قراءته حروف هذه اللغة الشريفة.

إن السوريين قبل تشرّفهم بالغربيين كانت لهم في بلادهم وعاصمتهم مدارس عالية يهرع اليها الطلاب من أبنائهم ويتعلمون فيها أنواع العلوم والفنون العصرية العالية التي فقدت البلاد أكثرها منذ الاحتلال، ولولا أن سبق للدولة الافرنسية وتعهّدت بابقاء التدريس باللسان العربي لكانت أكرهت أبناء سورية أيضا على تلقي العلوم الباقية في مدارسهم الوطنية بلغتها الافرنسية فقط، ونبذ لغة الآباء التي حافظنا عليها طيلة أيام العثمانيين وغيرهم رغم كل دعاية وادعاء.

٧- الخلاف الذي يقولون انه قضت به السياسة التركية لا وجود له الاّ في مخيلة قائليه، اللهم الا أن يكون القصد هو الاختلاف الديني. فاذا صح ذلك لا يسعنا سوى التعجيب والاستنكار، ولا حول ولا قوة الا بالله.

الأمير فيصل

اتخذ الأمير فيصل دار نوري باشا في الصالحية مقرا له، وجعل عنوانه ـ قائد الجيوش الشمالية (بالنسبة الى الحجاز) وأحدث لنفسه حاشية وديواناً وعهد برياسة الديوان أولا الى عيسى أفندي العيسى الفلسطيني، ثم استبدله بنسيب بك البكري. وبأمر الجنرال اللنبي منح رتبة فريق في الجيش العربي الى رضا باشا الركابي حاكم دمشق العسكري ورتبة أمير اللواء الى الزعيم ياسين بك الهاشمي البغدادي الذي كان قائدا للفريق الثامن العثماني وله صلة بفيصل واللنبي، وجاء دمشق ليلة الاحتلال، فعيّنه فيصل رئيسا للشورى العسكري (اركان الحرب) وامره بتنسيق الجيش وترتيبه بعد إخراج كل تركي منه. وكذلك منح رتبة أمير اللواء الى جورج بك الحداد من ضباط البوليس المصري الذي جاء دمشق في ذلك الحين، وجعله مديرا للأمن العام، وأعطى الرتبة ذاتها الى كل من الشريف ناصر بن علي، والشريف علي بن الحسين الحارثي من أبناء عمومه اللذين اشتركا معه في قتال العثمانيين، ثم عين سعيد باشا شقير اللبناني من موظفي حكومة السودان مديرا لمالية سورية.

ولبثت دوائر الحكومة على حالها بعد أن استبدلت منها اللغة التركية باللغة العربية وأخرج من الوظيفة كل من ينتمي الى العرق التركي وطردوا جميعا من البلاد، واستمر الشراكسة والأرناؤوط والأكراد وغيرهم في وظائفهم، ثم أحدث مجلس الشورى برئاسة الحاكم نفسه.

كلمة

ان استبدال اللغة التركية باللغة العربية أمر طبيعيّ لا مندوحة منه، أما اخراج كل من ينتمي الى العرق التركي من الخدمة وطردهم جميعا من البلاد فهي فكرة بعيدة عن العدل ومخالفة للفطرة العربية التي كان يفاخر بها الجميع، خصوصا وأن أولئك المساكين هم على الأكثر من مواليد البلاد، يتكلمون اللغة العربية ولا يحسنون لغة سواها.

كنت (المؤلف) في تلك الآونة مارّا ذات يوم من أمام دار الحكومة، فرايت لفيفا من النسوة يبكين وينتحبن، ودون أن أسالهن شيئا اعترضتني عجوز منهن وقالت لي بلسان مرتجف وعين باكية هذه العبارة التي أفضّل تعريبها بالحرف:

«لماذا قطعوا رواتبنا ونحن أرامل وأيتام كما ترى أن الدولة العثمانية ما زالت تؤدي الرواتب المخصصة حتى

الى النَّور [٣] فهل نحن في نظر الشريف احط من أولئك القوم؟» (انتهى).

والحمد لله على أن الاتراك لم يعاملوا أبناءنا مثل هذه المعاملة السيئة، وفتحوا صدورهم الى المقيمين عندهم منا واللاجئين إليهم من أبناء العرب وجعلوهم يتمتعون بنعمة المساواة معهم خلا من شذ وساعد أخصامهم ضدّهم.

المناطق

عقيب احتلال دمشق احتل جنود الحلفاء مدينة بيروت في ٦ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩١٨، ومدينة حمص في ١٤ من الشهر المذكور ثم مدينة حماه في ١٦ وحلب في ٢٥ منه، واطلق على البلاد السورية كلها إسم بلاد العدو المحتلة، وجعلت ثلاث مناطق تمهيدا لما ينويه الحلفاء من التفريق بينها فدعيت فلسطين المنطقة الجنوبية وحكمها الانكليز مباشرة، وقيل للمدن الأربع الداخلية، وهي دمشق، حمص، وحماه، وحلب، المنطقة الشرقية وكانت بلاد الأردن وجبل دروز حوران ضمن هذه المنطقة التي تولّى حكمها الأمير فيصل بن الحسين تحت نظارة الانكليز طبعا، وسمي الساحل المنطقة الغربية واتخذت مدينة بيروت حاضرة له.

ثمّ جرّب سمّو الأمير أن يوحد الساحل مع الداخل تحت اسم سورية العام، وعين أمير اللواء شكري باشا الأيوبي حاكماً عسكرياً على بيروت، وأرسله اليها مر سرية من الجيش العربي، فبلغها ورفع العلم العربي على دار حكومتها، وما لبث أن أكره على إنزال العلم ومغادرة بيروت لان الجنرال اللنبي قائد جيوش الحلفاء الذي سلم البلاد الداخلية الى الأمير فيصل عيّن الكولونيل (بياباب) الافرنسي حاكماً على المنطقة الغربية فجاء بيروت وأنزل العلم العربي ورفع العلم الافرنسي واكره شكري باشا على العودة الى دمشق، لم يبال سمو الأمير بهذه الاهانة التي لحقته من طرد نائبه وإنزال علمه، وسكت عنها كأن لم تكن شيئا مذكورا، لأن الامارة باقية، والاعانة جارية، والملك عتيد، وعلى الدنيا السلام.

الدعايات

كان الأمير فيصل لأجل تثبيت امارته، وتأمين حكومته، يحتاج الى نشر الدعايات وتزويقها بالماديات ـ كما فعل المعزّ العلوي بمصر ـ وكانت الأموال تغدق على الأمير من أوليائه الانكليز بكثرة، فاتكأ أولا على الشيخ عبد القادر مزغر المقدسي الذي أسس ناديا بدمشق لأجل بث الدعايات، دعاه النادي العربي، أو نادي الشبيبة العربية. وكان هذا الشيخ أكبر معوان للأمير حيث أخذ يبث الدعايات في جميع أنحاء سورية وفلسطين وينثر الذهب الوهاج يمنة ويسرة من غير حساب. ثم تبعه الكثيرون من أضرابه وراحوا يطوفون البلاد ويستجلبون الناس بالدرهم والدينار والاطماع بالوظائف، وبايعاز من الأمير أعلن هؤلاء الدعاة أولا ـ أن الاستقلال العربي يتناول الوحدة بين الشام والعراق والحجاز وسائر أقطار الجزيرة، وكلما ازداد رسوخ اقدام الأجانب في البلاد كانت هذه الدائرة تضيق مع الأيام فحينما بويع الأمير بالملك اقتصرت على الشام وحدها بحدودها الطبيعية من مدائن صالح الى جبال طوروس، بما فيها فلسطين وجبل لبنان، ثم اهملت فلسطين وشرق الأردن لدخولهما تحت الادارة البريطانية مباشرة، وبقيت الدعوة على استقلال سورية الداخلية والساحلية معا، ثم حذفت لبنان لانطوائها تحت العلم الافرنسي واكتفى سمو الأمير بالمدن الأربع فقط.

وهذا مع كونه من المضحكات المبكيات فهو مطابق في الأصل لما صرّحت به انكلترا في مخابراتها السرّية مع حضرة الشريف حسين والقصد منه أن تبقى البلاد الداخلية بمعزل عن الساحل وتقطع مواصلاتها مع أي كان وراء البحر ثم يؤتى اليها بالأغراب من أرمن وشراكسة وآشوريين ويهود وغيرهم ممن لفظتهم أوطانهم ولم تقبلهم بلدة من بلاد الله سوى سورية التي هي مسيّرة غير مخيرة في سياستها التي يقبض عليها الحلفاء وحدهم، فيستوطن هؤلاء الأغراب ارضها ويزاحمون أهلها بالاستيلاء على موارد معيشتها، ويعقدون الآمال على ترسيخ أقدامهم وتوطيد دعائم شوكتهم فيها وساء ذلك مصيرا.

الأحزاب

ذكرنا آنفا أن النادي العربي الذي تألفت أكثريته من الشباب الفلسطيني كان هو المعوّل عليه في الرأي، حيث اعتمده الأمير واتّكأ عليه الحاكم ثم تألف حزب الاستقلال ورأسه لأول مرة فوزي بك البكري وتولى أمانه سره توفيق بك الناطور البيروتي، وكان مبدؤه الاستقلال التام الأخير بدون حماية ولا وصاية.

وقبل ذلك تألف حزب «العربية الفتاة» الذي ذكرناه فيما سبق، ثم تألف حزب العهد السوري والعهد العراقي وتبعه حزب الاتحاد ثم حزب أم القرى وغيره، حتى أربت الأحزاب على الثمانية وكلها ترمي الى غاية واحدة هي استقلال البلاد ولكن الطرق تختلف، وباختلافها تتولد الضغائن ويحصل التطاحن بين منتسبيها وخصوصا في مثل هذه البلاد التي لم تألف ذلك.

ثمّ اتحد بعض الرجال المنتمين الى احزاب مختلفة والّفوا كتلة عامة دعوها اللجنة الوطنية، وكان من رجالها الدكتور عبد الرحمن شهبندر، وإحسان بك الجابري، وجميل بك مردم بك، والشيخ كامل القصاب، وسعيد بك حيدر، وشكري بك القوتلي، والأمير عادل ارسلان، وغيرهم من السوريين واللبنانيين الذين كانت تعضدهم أكثرية الشعب الساحقة.

ثم انشقّ آل البكـري عن حزب الاستقلال وألّفوا حزبا جديدا دعوه الحزب الوطني السوري، فانخرط في عضويته الشريف علي بن الحسين الحارثي، والشريف ناصر بن علي، والشيخ تاج الدين الحسيني، وعبد الرحمن اليوسف، وأحمد افندي الحسيبي، وراشد باشا مردم بدك، والشيخ عبد المحسن أفندي الاسطواني، والشيخ عبـد القـادر الخـطيب، ومحمد أفندي كرد علي، وعطا بك الأيوبي، وبديع بك المؤيد، وتوفيق أفندي شاميّة، والدكتور شاكر القيم، وغيرهم ممن اشتهروا بالولاء للافرنسيين والتساهل معهم، وأعلن هذا الحزب أن مبداه السعي وراء استقلال سورية التام بحدودها الطبيعية، والدفاع عنها بكل الوسائل الفعالة، واخذ هذا الحزب على عاتقه مقاومة اللجنة الوطنية حيث كان يقول باختيار طرق المسالمة بخلاف الوطنيين الذين كانوا يعتقدون أن أوروبا لا بدّ أن تضطر الى الاعتراف بالأمر الواقع لا محالة.

كان الأمير فخر الدين بن معن حاكم جبل لبنان محببا بنفسه الى جميع الأهلين ويتلاعب معهم في أديانهم فيخاله كل منهم على دينه ومذهبه. وهكذا فعل الأمير فيصل بن الحسين حيث أخذ يهشّ في وجوه رجال تلك الأحزاب كل على حدة، ويحثهم على المثابرة على أعمالهم المضادة لبعضها وخلافا لما يطلب من الحاكم أن يكون فوق الأحزاب فان الأمير كان يميل الى بعضهم دون البعض الآخر ويطلعه على أسرار لم يطلع عليها غيره.

وكثيرا ما أسر الأمير لرجال الحزب الواحد بالشكوى من ضغط الآخر حتى جعل كلا من الأحزاب يسعى بكل قواه لمنـاوئة مخالفه وإسقاطه الى الحضيض مما أدّى الى تأصل النفور بين الأحزاب، وتعدى درجة الجدل السياسي وتجاوزه الى العداء الشخصي، ولم يكن سمو الأمير ليستطيع توحيد الكلمة وتأليف ذات البين، فوقع من حيث يشعر أو لا يشعر في تذبذب أوصله الى ان ينقض في يومه ما أبرمه في أمسه، وقد صدر منه ذلك مرارا.

وفي تلك الأونة استقال رضا باشا الركابي الحاكم العسكري على أثر ضغط الأحزاب المخالفة كما نذكره فيما يأتي وأقيم الأمير زيد شقيق الأمير فيصل رئيسا للحكومة السورية بعنوان رئيس المديرين وانتقى زملاءه من رجال الأحزاب المختلفة وما لبث الركابي باشا أن صار مديرا للحربية بين هؤلاء المديرين.

وعد بلفور

بينما كان الشريف حسين يدعو العرب للالتفاف حول أصدقائه الانكليز ويحرّضهم على الخروج عن طاعة السلطان العثماني كان الانكليز يساومون الصهيونيين الذين طردتهم أوروبا الوسطى من بلادها ـ على سكنى ارض الميعاد (فلسطين) وجعلها وطنا قوميا لهم، وفي نهاية هذه المساومة أرسل اللورد «آرثر بلفور» وزير خارجية بريطانيا الى اللورد (روتشيلد) رئيس الطغمة اليهودية الصهيونية في أوروبا بتاريخ ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ كتابا رسميا اليك تعريبه بالحرف:ـ

«يسرّني كثيرا أن أبعث اليكم من قبل حكومة صاحب الجلالة البريطانية بالتصريح الآتي الذي

يعطف على الأماني اليهودية الصهيونية وهو تصريح عرض على مجلس الوزراء فاقّره:
إن حكومة صاحب الجلالة (بريطانيا) تنظر بعين الاستحسان الى إنشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي وستستخدم جهودها كلها لتحقيق هذا المشروع، على ان يفهم جيدا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يمسّ الطوائف غير اليهودية الساكنة في فلسطين سواء في حقوقها المدنية أو الدينية ولا أن يمس الحقوق والانظمة السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلد آخره (انتهى).

هذا هو نصّ كتاب اللورد بلفور الذي وعد به الصهيونيين باتخاذ فلسطين وطنا قوميا لهم، وبعد ثلاثة أشهر من تاريخ هذا الكتاب اتصل من مصدر تركي بالشريف حسين ان الانكليز الذين أغروه على خلع طاعة الدولة العثمانية قرروا إعطاء فلسطين الى اليهود وتقسيم سائر البلاد العربية فيما بينهم [٤] فخفّ حضرة الشريف الى سؤال وزارة خارجية الانكليز عن حقيقة الأمر وجاءه الجواب بتاريخ ٨ شباط سنة ١٩١٨ بواسطة المحقق الانكليزي في جدة الكولونيل (رايست) يحاول فيه تكذيب ذلك الخبر (وهو بمعناه ومغزاه يطابق المنشور الدولي الذي اذاعه الماريشال اللنبي على البلاد السورية بتاريخ ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨.

وهذا تعريب جواب وزارة الخارجية الانكليزية:ـ
...... لا ريب في أن السياسة التي تتبعها تركية ترمي الى خلق الشكوك والريبة بين دول الحلفاء وبين العرب الذين بذلوا جهودا عجيبة تحت إمرة جلالتكم وإدارتكم لاستعادة حريتهم السابقة، والسياسة التركية لا تنقطع عن زرع هذه الشكوك وايهام العرب بأنّ لدول الحلفاء مطامع في أرضهم وحمل الحلفاء على الاعتقاد بأنها تستطيع نهي العرب عن الخطة التي قرروا اتباعها، ولكن مزاعم الدساسين لن تتمكن من زرع الخلاف بين الذين تتجه أفكارهم نحو هدف واحد وفكرة واحدة.
إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية مستمرّة ، بالاتفاق مع حلفائها، في اتباع خطة العطف على كل حركة ترمي الى تحرير الشعوب المظلومة وهي مستعدة لتأييد الأمم (كذا) العربية في جهادها لاعادة بناء امبراطورية عربية يسود فيها الحقّ والشرع بدلا من الظلم التركي، ويختفي من بين العرب النزاع الذي أثارته السلطات الرسمية.
ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تكرر وعودها السابقة المتعلقة بتحرير الأمم (!) العربية، وهي قد تعهدت بعد ارتباطها بهذه السياسة، بالاستمرار في هذه الخطة بشرف؟! وقررت عدم السماح باعادة العرب المحررين الى لجّة الاستعباد ثانية، ومساعدة العرب الباقين تحت النير التركي على نيل حرّيتهم. (انتهى)

ملاحظة

ان حضرة الشريف حسين قبل بهذا الجواب دون أن يقابل عليه اسئلته التي أوردها بشأن وعد بلفور وتقسيم بلاد العرب، وعدّه كافيا لتكذيب الأخبار التي تواردت عليه بهذا الشأن، وهو في الأصل يرجّح كذبها لأنها من مصدر تركيّ، ويعتقد بصدق الانكليز ولو خالفوا وعودهم على الخطّ.

حاشية

كان من نتيجة هذا الوعد المشؤوم أن بلغت جموع اليهود الذين سمحت لهم انكلترا بالهجرة الى فلسطين حتى عام ١٩٣٦ زهاء نصف مليون من النفوس بعد أن كانوا يبلغون عشر هذا المقدار في جميع انحائها، وأخذوا يضايقون أهلها ويستولون على مرافق حياتهم، وما زالت وفود مهاجريهم ترد تباعا بدون انقطاع، فخشي الناس من تفاقم الخطب وازدياد عدد اليهود في هذه البقعة المقدسة على أعداد سكانها واصحابها الأصليين من مسلمين ومسيحيين، وهناك الطامة الكبرى، حيث تصبح لهم الأكثرية الساحقة والحكم الفصل في ادارة البلاد، فيكرهون أهلها على الرحيل ليس من بلاد آبائهم وأجدادهم فحسب، بل من بلاد باركها الله وجعلها القبلة الأولى

للمسلمين والمسيحيين معا، ولم يطيقوا الصبر والتحمّل على هذه النكبة اليهودية الانكليزية، ولم يتمكنوا من اسماع أصواتهم الى من ينصفهم وينقذهم من الفناء والهلاك بتأخير هجرة اليهود وايقافها عند حدّ معقول، فهبّوا لايقاد نار الثورة على اليهود والانكليز معا، وها هم الآن يبذلون جهودا جبارة تجاه الجنود الانكليز ومدافعها ورشاشاتها ودباباتها وطياراتها وسائر وسائل التدمير منها، ولا يبالون بالسجن والنفي والقتل والتعذيب وهدم البيوت والمساكن وحرق المؤن والذخائر، الى غير ذلك من أسباب الجور والظلم، وما زالوا دائبين على عملهم هذا ولا ينصرهم الآ الله والحق.

(كتب في رجب سنة ١٣٥٥ هـ و تشرين الأول سنة ١٩٣٦م)

مؤتمر الصلح

في ١١ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ أمضيت الهدنة العمومية بين جميع المتحاربين على أن يعقد مؤتمر دوليّ في قصر فرساي بفرنسا لتقرير الصالح العام.

وفي غضون ذلك كان الأمير فيصل متولّي سورية قد ذهب الى حلب للتعرّف على أهلها فأوعزت اليه وزارة الخارجية الانكليزية بأن يأتي الى فرنسا ليحضر المؤتمر ويشترك في تقرير مصير البلاد العربية فيه، وكتبت الى أبيه جلالة الحسين ملك الحجاز بأن ينيبه عنه ليكون تكلمه في المؤتمر قانونيا [٥].

كان الأمير فيصل حديث العهد بالسياسة، فارتكب في هذه الرحلة خطأين عظيمين أوقعا البلاد العربية، وخصوصا بلاد فلسطين، في مهاوي الشقاء والاستعباد، حيث تسجلا رسميا في سجلات المؤتمر، ولم يتمكن أحد بعد ذلك من تصحيحهما رغم الجهود المكررة التي بذلت بشأنهما.

الخطأ الأوّل

في قبول وعد بلفور، فالانكليز الذين وعدوا اليهود الصهيونيين بتوطن فلسطين ألقوا على فيصل فكرة التعاون معهم لتستفيد البلاد من رؤوس أموالهم العظيمة وتستزيد عمرانا وثروة، وتصبح تلك الأرض الجرداء الواسعة جنانا نضرة يانعة تدر لبنا وعسلا على جميع السكان مهما تكاثروا. فاقتنع فيصل بهذه الدعاية الصهيونية، واختمرت نظريتها في فكره، ثم ساقوا عليه الدكتور وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية العام الذي خلب لبه بكلماته المعسولة وعرض عليه خدماته الجليلة، وتوصل بدهائه الى أن حصل منه على كتاب يتضمن الرجاء بتسهيل تعاون اليهود مع العرب. فعدّ هذا الكتاب قبولا وتعهدا رسميا باجراء وعد بلفور وتنفيذه بحذافيره.

الخطأ الثاني

في قبول مبدأ الانتداب ـ التفّ دهاقنة السياسة حول الأمير فيصل وراح كل منهم يدسّ عليه نظرية لم يتسن له إدراك خوافيها وأهم هذه الدسائس ضرورة الاتصال والمعاونة والاستشارة من دولة أجنبية ليتمكن من تأسيس حكومة منظمة وتوطيد دعائمها على أسس متينة. وساقوه الى أن يرفع للمؤتمر تقريرا يقول فيه ـ إن سورية هي بلاد بلغت من الرقي درجة تؤهلها لحكم نفسها بنفسها **ولكنها ما زالت في حاجة الى المعاونة والاستشارة الأجنبية** (كذا).

فهذا الكلام المتناقض عدّ مؤيدا لاتفاقية (سايكس ـ بيكو) وقائلا بنفوذ وسيطرة الأغراب على البلاد العربية وبالتالي كان نواة للانتداب الذي تقرر بعد ذلك، فسلب البلاد حريتها واستقلالها وجعلها تئنّ تحت وطاته الشديدة الى الآن والله يعلم هل تستطيع النجاة من أهواله أم يستمر الى ما شاء الله.

والأغرب من ذلك أن جلالة (المنقذ الأعظم) الملك حسين لم يحاسب ابنه على هذه الأخطاء التي صدرت باسمه بل سكت عنها قبولا واقرارا لهذه النتائج المؤلمة، والأمر لله من قبل ومن بعد.

اتفاق جديد

في ١٥ أيلول سنة ١٩١٩ اضيفت على معاهدة (سايكس ـ بيكو) بعض التعديلات لمصلحة انكلترا حيث

أعيدت منطقة الموصل التي كانت نصيب فرنسا بحكم تلك الاتفاقية الى المنظومة العراقية الخاضعة للسيطرة الانكليزية لقاء منح فرنسا الربع من محصول النفط (زيت الكاز) الذي ظهر في كركوك، واستأثرت انكلترا بمنطقة سورية الجنوبية وهي فلسطين، وجعلتها وطنا قوميا لليهود الصهيونيين بحسب وعدها لهم بلسان وزير خارجيتها (اللورد بلفور) وقبول الأمير فيصل بذلك، ثم تركت فرنسا باختيارها ولاية آدنة (كيليكيا) ولواء عينتاب اللذين كانت تحتلهما بجنودها الى الأتراك الكماليين تجنبا لما لاحظت وقوعه في ذلك الحين من إتفاق العرب مع الترك وتألّبهم على الافرنسيين مما يؤول الى نتائج تحرج موقفهم[٦] واكتفت فرنسا بالبلاد الباقية من سورية بعد أن تعهدت انكلترا بأن تسحب جنودها من هذه البلاد لقاء تعهد فرنسا باحتلال ساحلها فقط دون التعرّض الى مدنها الداخلية التي وعدت بريطانيا بان تؤلف فيها حكومة عربية تقدم لها فرنسا المساعدة الضرورية المنصوص عنها في معاهدة سايكس ـ بيكو، وأن تضمن انكلترا وفرنسا لهذه البلاد وما جاورها من البلاد العربية استقلالا واسعا يؤمن لأهلها حريتهم.

وبحسب هذا الاتفاق الجديد جلت الجنود الانكليزية عن سورية في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٩ وعيّنت فرنسا المسيو (جورج بيكو) بطل المعاهدة المعلومة مفوضا ساميا على سورية ولبنان ثم استبدلته بالجنرال غورو وأضافت اليه قيادة جيوشها أيضا، وجعلته منفصلا ومستقلا عن الجنرال اللنبي الذي كان قائدا عاما لكل سورية ولبنان.

سنرى في الأبواب التالية ما فعله الجنرال غورو من تجزئة سورية وتقسيمها الى حكومات متعددة أولدت الحالة الراهنة.

المقدّمات

كانت سورية، التي تسمّى برّ الشام أيضا، معروفة من الشرقيين والغربيين عامة بأنها تشمل الساحل والداخل معا، وكان أهل هذه البلاد بأجمعهم في الوطن والمهجر يحملون اسم «السوريين» فقط، دون ذكر لبنان الذي، رغم ادارته بصورة استثنائية، يعدّ قطعة من سورية ليس غير. والاكثرية الساحقة في برّ الشام هي ولا مشاحة من المسلمين وانما الاسلام ـ على ما يزعمون ـ هو عدّو لفرنسا، بخلاف المارونيين سكان جبل لبنان القديم فانهم ـ على قول بعضهم ـ قائمون بوظيفة طلائع للجيش الافرنسي وخادمون له منذ أيام الصليبيين.

لما تركت انكلترا سورية لفرانسا اشترطت عليها ـ أو كانت متفقة معها ـ على المحافظة على مدنها الأربع (دمشق حمص وحماه وحلب) فقط وقد كررت عبارة هذه المدن الأربع في معاهداتها ومخابراتها السياسية مع فرنسا والشريف حسين مرارا. فأصبحت فرنسا طليقة من كل قيد وشرط تفعل بباقي البلاد ما شاءت وكانت السياسة الافرنسية ترمي الى توسيع جبل لبنان على حساب سورية ـ شاء أهلها أم أبوا ـ فلما تسلّم الجنرال غورو زمام المفوضية الافرنسية سهّل السبل لغبطة البطريرك الماروني لأجل الحصول على مضابط أغروا الناس على توقيعها بدعوى انهم اذا التحقوا بلبنان يعفون من الضرائب التي يؤدونها في سورية واللبنانيون في حل منها، وأنهم يستثنون من الجندية شأن سكان لبنان عامة. ثم عثر الجنرال غورو على مصوّر (خريطة) قديم كان أعدّه أحد الافرنسيين عقيب الحادثة الشامية ولم يأبه له المؤتمر الدولي المنعقد اذ ذاك في سورية وأهمله فاتخذه الجنرال غورو وعدّه مؤيدا لتلك المضابط التي استند عليها وعزم على احتلال الاقضية الأربعة (بعلبك، البقاع، حاصبيا، وراشيا) والحاقها بالمنطقة الغربية التي هي جبل لبنان، وأخبر الحكومة السورية بعزمه هذا، وأضاف اليه أن يستعمل السكة الحديدية الممتدة من رياق الى حلب في نقل حاجيات الفرقة الافرنسية التي كانت وقتئذ مرابطة في عينتاب.

ان الحدود المقررة لجبل لبنان هي التي أقرّها المؤتمر الدولي عقيب الحادثة الشامية سنة ١٨٦٥ واختارها الأهلون عن طيب خاطر ودامت الى آخر أيام العثمانيين وأيدتها المعاهدة الثلاثية المنعقدة بين فرنسا وانكلترا وروسيا عام ١٩١٦. وأن تلك الأقضية الأربعة خارجة عن تلك الحدود وهي من جملة البقاع الشامية بدون منازع كما ان المضابط التي تمكنوا من توقيعها من بعض الناس تخالف رأي الأكثرية الساحقة من أهل البلاد

الذين لا يرون الاّ الاستمرار على الارتباط بدمشق دون سواها.

ثم أن خط رياق - حلب يمرّ من المنطقة الداخلية التي هي متاخمة لتركية فنقل الجنود الافرنسية عليه يعدّ تحرشا بالحكومة التركية واشتراكا فعليا في قتالها. ولذلك اهتم الرأي العام السوري بهذا الطلب المجحف بحق سورية وطلب رفضه بحقّ.

ولكن الركابي باشا، حاكم دمشق العسكري في ذلك الوقت كان يتبع السياسة الافرنسية كيفما اتجهت، وقد حاول أن يساعد الافرنسيين حتى بالجنود العربية أيضا، بدعوى أنهم يقاتلون الأتراك في سبيل العرب (كذا) فاختلف بالرأي مع الأحزاب التي اضطرته الى الاستقالة كما ذكرنا فيما سبق، وقررت الحكومة السورية رفض تلك المطاليب كلها والاحتجاج عليها.

العصابات

على أثر انسحاب الانكليز من سورية وتقدّم الافرنسيين لاحتلال بعض المناطق الداخلية منها حصل بين الأهلين هياج وعقبه إحتجاج ومقاومة للفصائل الافرنسية في بعلبك والحولة وتل كلخ وفي مزرعة الشوف بجبل لبنان، وفي جبال النصيرية، وانطاكية، والحمام، سقط فيها بعض القتلى والجرحى من الفريقين، ولذلك تألفت على حدود المنطقة الغربية عصابات أهلية لصدّ كل هجوم قد يقع على المنطقة الشرقية وكان يقود العصابات في قضاء القنيطرة وما جاورها الرئيس فؤاد سليم، وفي حصن الأكراد علي آغا الدندشي، وفي جبل الكلبية (اللاذقية) الشيخ صالح العلي، وفي حارم ابراهيم بك هنانو، وفي انطاكية صبحي بك بركات. وكان هؤلاء الفرسان على اتصال دائم بالأمير فيصل يتلقون أوامره وينالون عطاياه مباشرة.

أخذت هذه العصابات تتعرض كلما سنحت لها الفرصة على الأراضي الساحلية التي أصبحت منفصلة عن المنطقة الداخلية، وكانت عصابات القنيطرة أكثر فعالية من غيرها. ولم تكف المخابرة مع الأمير فيصل لردعها ومنعها فجرّد الجنرال غورو فصيلة من الجيش الافرنسي في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ وأرسلها بدلالة أهل جديدة مرجعيون المسيحيين الى المحل المدعو البحصاص من أرض الحولة في قضاء القنيطرة حيث قصر الأمير محمد الفاعور رئيس قبيلة الفضل الذي خاله الافرنسيون مصدر هذه الأعمال فضربت الفصيلة الافرنسية قصر الأمير وهدمته وعلى أثر ذلك نهض الأمير للذبّ عن حياضه وحمل بعشيرته على تلك الفصيلة الافرنسية ودحرها، ثم اقتحم قرية الجديدة وأوقع فيها مقتلة، وأحرق بعض دورها. طالت المخابرة بين الأمير فيصل والجنرال غورو بشأن هذه العصابات وانتهت بتعهد الأمير بمنع تعرضها على بلاد الساحل على أنها رغم هذا التعهد لبثت دائبة على أعمالها. وقد فرض الافرنسيون على أهل جبل عامل الذين كانوا يؤون العصابات في قراهم ودورهم مائتي ألف دينار جزاء نقديا، ويقول الريحاني إنهم جمعوا اربعمائة وخمسة وثمانين ألف (٤٨٥٠٠٠) دينار أدّوا منها الى أهل جديدة الذين احترقت بيوتهم مائتي ألف دينار واحتفظوا بالباقي.

نظريات حقوقية

نشر المجمع العلمي الأميركي لحقوق الدول بيانا أذاعه في كانو الثاني سنة ١٩١٩، وأيّد المجمع العلمي الدولي بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٩، والبيانان يتضمنان نظريات حقوقية لها مساس بالقضية العربية فرأينا تعريبهما بنصّيهما:

بيان المجمع العلمي الأميركي

المادة الأولى - لكل قوم حق البقاء والدفاع عن حياضه وانما هذا الحق لا يستلزم الاضرار بالدول البريئة التي لم تأت بعمل سيء ولا يبرر الأعمال التي يقصد منها ضمان البقاء والدفاع اذا كانت بعيدة عن العدالة.

المادة الثانية - لكل قوم حق الاستقلال أي أن له أن يسعى للحصول على السعادة المنشودة وأن يكون حرّاً في رقيّه وتقدّمه وصدّ مداخلة الأقوام الغريبة

ومـراقبتهـا، على أن يتجنب في ذلك التـدخل في شؤون غيره من الأقوام والاعتداء على حقوقها العامة.

المادة الثالثة - كل الأمم متساوية في الحقوق.

المادة الرابعة - كل قوم الحق بتملك أراضي محدودة وانفاذ سلطته القضائية فيها من أرض وسكان وطنيين واجانب.

المـادة الخامسة - كل قوم ذي حق يجب على الأقوام الأخرى أن تحترمه وتحافظ عليه لأن الحقوق والواجبات متقابلة فحيث وجد حق الفرد ترتب واجب على الآخرين.

المادة السادسة - إن الحقوق الدولية هي دولية وقومية في آن واحد فهي دولية لأنها قانون جمعيـة الأمم ولأنهـا تطبق في جميـع القضايا الحادثة بين أعضاء هذه الجمعية، وهي قومية لأنها قانون البلاد الداخلي ولأنها تطبق في القضايا المنحصرة في المواضيع الداخلية كغيرها من القوانين الداخلية.

بيان المجمع الدولي

ان المجمع العدلي الدولي يذيع البيان الآتي معتقدا بضرورة تثبيت حقوق الدول وواجباتها الأساسية في المعاملات الدولية وقانعا بأن هذا البيان يساعد على تقدم الحقوق الدولية، ويسهل أعمال جمعية الأمم.

المادة الأولى - للدول حق البقاء والدفاع عن حياضها.

المادة الثانية - الدول مستقلة والقصد من الاستقلال هو الرقي والتقدم بحرية تامة دون أن يكون لأية دولة الحق بالمداخلة في سيادتها سواء تجلّت هذه السيادة في الأمور الداخلية أو في الأمور الخارجية.

المادة الثالثة - الدول متساوية أمام الحق ولكن حقوق الدول مقيدة بالواجبات التي تقضي عليها احترام حقوق الدول الأخرى.

المادة الرابعة - إن حق كل دولة مقيد بحقوق غيرها من الدول وعلى الدول واجبات متقابلة فيما بينها وتجاه الجمعية الدولية.

المادة الخامسة - يجب على كل الدول أن تراعي في علاقاتها الأمور التالية:

أ- حفظ العلاقات الدولية المستندة الى قواعد العدل والانصاف.

ب - مراعاة الحقوق الدولية بدقّة تامة.

جـ - احترام العهود بعناية كاملة.

د- إنفاذ قرارات لجان التحكيم باخلاص.

هـ - تجنب الخوض في غمار الحرب قبل التوسل بكل الوسائل السلمية لحسم الخلاف.

و- السعي المشترك لمنع الحرب وايقافها.

ز- الاشتراك في إيجاد المؤسسات الدولية وما يدعو الى رقيها.

حـ - مراعـاة الرقي المـدني والنفـع الانساني في عمل الواجبات وانفاذ الحقوق. (انتهى).

خاطرة

هل تشمل هذه الحقوق أبناء البشر عامة، في مختلف بقاع الأرض بدون استثناء؟ أم هي تنحصر بالأوروبيين والبيض من الأميركيين وحدهم! وبعبارة أوضح هل هي تعم جميع أبناء الأديان المعروفة تحت الشمس! أم هي

لا تتعدى المسيحيين فقط!

هذه خاطرة جالت في البال فأوردناها تاركين الجواب عليها الى الأيام وحدها.

جمعية الأمم

تألفت جمعية الأمم من قبل عدد غير معيّن من الدول التي تقصد توسيع التعاون بين الأمم المتمدنة والمحافظة على السلم وجعل الحق والعدل سائدين في العالم.

وقد خصص القسم الأول من معاهدة فرساي سنة ١٩١٩ لبنود هذه الجمعية، وهي ستة وعشرون، ذكر في مقدمة كل عهد وضع في مؤتمر فرساي بعنوان عهد جمعية الأمم. وبحكم هذه المواد تتألف جمعية الأمم من أعضاء أصليين وأعضاء ملتحقين. فالأعضاء الأصليون هم نواب الاثنين والثلاثين دولة الموقعة على معاهدة فرساي ومن جملتها الممالك البريطانية الأربع وهي (كندا، واستراليا، وافريقيا الجنوبية، ونيوزيلاندة) ثم مستعمرة الهند، عدا مملكة بريطانية الأصليّة.

أما مجلس جمعية الأمم فانه يتألف من تسعة أعضاء، وهم أولا مندوبو الدول الخمس العظمى وهي بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان والولايات المتحدة الأميركية [٧] وثانيا من أربعة نواب مندوبين عن بقية دول العالم ومنتخبين من قبل المجمع [٨].

المادة الثانية والعشرون

تعريب المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم المتعلقة بالانتداب، والتي جعلت مقدمة لمعاهدة الصلح في مؤتمر فرساي سنة ١٩١٩.

يجب إنفاذ المادة الآتية في البلاد والمستعمرات التي تقطنها شعوب غير قادرة على إدارة نفسها بنفسها وفقا لقواعد المدنية الحاضرة.

لما كان الأخذ بأيدي هذه الأمم وإنهاضها الى مستوى يليق بها، هو فريضة على الحضارة ـ أصبح من الواجب وضع ضمانات خاصة في هذا العهد حفظا لهذه الغاية.

من البيّن أن احسن وسيلة فعلية يتوسل بها لتحقيق هذه الأمنية هي أن يعهد بالوصاية على هذه الشعوب الى الدولة التي تكون أجدر من غيرها بقبول هذه التبعة لكثرة وسائطها المدنية والتجارية وبالنظر الى أوضاعها الجغرافية، وتقوم الدولة المذكورة بهذه الوصاية باسم جمعية الأمم كدولة منتدبة من قبلها، لهذا العمل.

أما أنواع الوصاية فانها تختلف باختلاف الشعوب وتتباين مع تباين الأوضاع الجغرافية والشروط الاقتصادية وما ماثل ذلك من العوامل الأساسية.

هذا وأن قسما من الجماعات التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية سابقا قد بلغت من الرقيّ درجة يمكن معها الاعتراف بأنها شعوب مستقلة استقلالا وقتيا بشرط أن تساعدها الدولة المنتدبة في أعمالها وأن تعد نصائحها دليلا لها في إدارة شؤون بلادها ريثما تصبح قادرة على إدارة نفسها بنفسها. **ويجب أن تعتبر رغائب تلك الجماعات في انتخاب الحكومة التي تنتدب عليها**. أما درجة الرقي في الشعوب الأخرى ولا سيما شعوب افريقية الوسطى فهي تستلزم التخلي عن ادارة البلاد الى الدولة المنتدبة.

على هذه الدولة أن تمنع تجارة الرقيق وبيع السلاح واستعمال الكحول الضار في هذه البلاد وأن تضمن حرية الوجدان وحرية الأديان ولا تحيد عنها الاّ في الحالات التي تستلزمها محافظة الأمن العام وصون الاخلاق من الفساد.

ولا يجب أن تنشىء القلاع ولا أن تبتني المراكز الحربية في هذه البلاد، ولا أن تدرّب

أهلها تدريبا عسكريا الا اذا كان ذلك لاعداد القوة الكافية للمحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد ويجب عليها ايضا أن تكفل لأعضاء جمعية الأمم المساواة التامة في تجارة البلاد والمبادلة الاقتصادية فيما بينها.

أما البلاد التي في الجنوب الغربي من افريقية وبعض الجزر في بحر الاوقيانوس فهذه لا يمكن أن تدار شؤونها بأحسن من قوانين الحكومة المنتدبة عليها، وهي تعتبر كجزء من أجزائها وذلك بالنظر لقلة نفوسها وصغرها وبعدها عن مراكز الحضارة ومجاورتها لتلك البلاد الخاضعة للحكومة المنتدبة عليها، ولغير ذلك من الأسباب والعوامل.

ويترتب على الحكومة المنتدبة في جميع الأحوال أن تبعث الى جمعية الأمم بتقرير سنويّ تبحث فيه أحوال البلاد التي أنتدبت عليها، وستؤلف لجنة دائمة لتلقّي هذه التقارير وفحصها وابداء الرأي للجميع بشأن المسائل المتعلقة بانفاذ أحكام الانتداب.

واذا لم يتفق أعضاء اللجنة على تمديد سلطة الحكومة المنتدبة وتعيين كيفية إشرافها على البلاد فمجمع الأمم يدقق في هذه القضية ويقرها.

(انتهى)

استدراك

ان سورية لا تقلّ رقيّا وحضارة عن بلاد الآخرين: الموره، والصرب، واللاه، والبلغار، التي كانت مثلنا تابعة للسلطة العثمانية فيما مضى، ثم نالت استقلالها التام الناجز بدونما يكون لأحد وصاية ولا سيطرة عليها.

فلماذا أقرّت الدول العظمى استقلالها في حينه، وجاءت اليوم تضنّ بمثل ذلك الاقرار وتقضي علينا بالوصاية الى أجل غير محدد، ثم تعود وتقول يجب أن تعتبر رغائبنا في انتخاب الحكومة التي تنتدب علينا.

ان التناقض المشهود في هذا البحث له سببان: الأول كون تلك الأقوام التي سبقتنا ونالت استقلالها فورا هي من الشعوب الأوروبية ونحن آسيويون. والسبب الثاني جشع الأوروبيين وطموحهم لامتلاك بلاد الشرق واستعمارها، لا بوجه الاستلحاق مما يخالف روح العصر بل بصورة أخف وطأة على الأسماع من الاستملاك وهي دعوى تحضيرنا وترقيتنا والنتيجة واحدة.

(وهنالك سبب ثالث وهو اختلاف الأديان وقد أجّلنا البحث عنه الى فرصة أخرى).

على أن هذه المادة تتضمن غير ذلك من المتناقضات، فان الاستقلال والوصاية ضدّان، وهي تجمعهما في صعيد واحد، ثم إذا كنا مستقلين ولو وقتيا، ورغائبنا معتبرة في انتخاب الحكومة التي تكون موصية علينا فهلاّ يجب أن يكون لهذه الوصاية حدّ وأجل معيّنان؟ إن الوصاية حكما يشترط فيها بلوغ سنّ الرشد ولذلك اشترطت هذه المادة دوام الانتداب علينا الى أن نصبح قادرين على إدارة أنفسنا بأنفسنا فمتى يكون ذلك؟ وفي أيّ وقت نستطيع الادعاء بأنه أصبحت لنا تلك المقدرة. فلماذا أهملت المادة هذا الشرط المهم وتركته لمشيئة الوصي وارادته المطلقة فقط.

هل من لوازم الحضارة دوام سيف الانتداب مسلطا فوق رؤوسنا ونحن محرومون من حقوقنا واستعمال حرّياتنا وانفاذ رغباتنا الى أبد الآبدين؟

وهل تقصد جمعية الأمم أن تصطبغ بصبغة الدولة المنتدبة علينا، ونسير معها على طول الخط الى أن نصبح كأبنائها. فأين اذن الاستقلال الموعود؟ واذا أبت فطرتنا هذا الخنوع، ماذا تكون واجبات الدولة الوصية تجاهنا. هل يحق لها أن تجر علينا جيوشها وتفرض علينا إرادتها فرضا ثم تكرهنا تدريجيا على الرحيل عن بلاد آبائنا وأجدادنا وتركها لمن تراه الدولة المنتدبة أجدر وأنسب لها منا أم ينبغي ان تدعنا وشأننا وتعيدنا الى جمعية الأمم لترى رأيها وتعاملنا بالعدل والانصاف كما هو شأن الحضارة الحقيقي؟ أما وقد قررت الدول العظمى ـ كما جاء في صك الانتداب ـ أن تكون فرنسا هي المنتدبة علينا فاننا نسألها جدلا هل إذا تفرنسنا معها وأصبحنا أطوع لها من ظلها، تمنحنا الحقوق الأفرنسية وتعاملنا معاملة الافرنسيين أنفسهم. أم تدعنا كأهل تونس

والجزائر وتعاملنا معاملة المستعمرين ولا تفرق بيننا وبين أهل أواسط أفريقيا إلّا بالاسم.

المؤتمر السوري

ترك مؤتمر السلم الدولي المنعقد في قصر فرساي بفرنسا أمر البتّ في مصير البلاد المنفصلة عن جسم الدولة العثمانية الى المؤتمر الثاني الذي كان على أهبة الانعقاد بعده في مدينة (سان ريمو) وبالرغم عن أن الأمير فيصل كان قبل بالحماية الافرنسية على سورية بحسب التقرير الذي رفعه الى مؤتمر فرساي فقد بدا له العدول عن فكره، وعاد ينشد الاستقلال التام بحيث أوحى اليه أن مؤتمر (سان ريمو) لا يخرج عن الحقوق العامة في شيء يخالف آمال الأمة وامانيها وفقاً لمنطوق المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم. وكانت لجنة الاستفتاء التي نذكرها بالباب الآتي قادمة في طريقها الى سورية، فرأى سمو الأمير ان يجمع مؤتمراً سورياً عاماً يؤلف من نواب منتخبين عن البلاد السورية كلها، ويكلفه بدرس قضية البلاد واعلان أمانيها، وتعيين شكل حكومتها، ووضع دستورها (القانون الأساسي) ليستند اليه بنفسه الكريمة.

وقد جرى انتخاب أعضاء المؤتمر السوري من قبل المنتخبين الثانويين في المنطقة الداخلية ومن جانب أولي الرأي والمكانة في المنطقتين الغربية والجنوبية (لبنان وفلسطين). واجتمع هذا المؤتمر في بناية النادي العربي بدمشق يوم ١٧ حزيران سنة ١٩١٩ ورأسه المرحوم محمد فوزي باشا العظم وافتتحه سمو الأمير بخطاب جاء فيه ما يلي:

رأيت أن أدعوكم لتقرير مصير البلاد حسب رغبة الأمة فقد رأى مؤتمر السلم أن ينظر في رغائب الشعوب وحتم على نفسه أن يقرر مستقبل كل أمة بحسب إرادتها ورغبتها ثم قال: نحن لا نطلب من أوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا به حق بل نطلب منها أن تصدق على حقنا الصريح الذي اعترفت لنا به جمعية الأمم كافة، نريد حياة واستقلالاً تامين.

وما لبث رئيس المؤتمر أن توفي فجأة، فانتخب للرئاسة هاشم بك الأتاسي [٩] نائب حمص بصفته أكبر الأعضاء سناً.

وفي تلك الآونة قدمت لجنة الاستفتاء الى دمشق، فاتخذ المؤتمر السوري قراراً بتاريخ ٢ تموز سنة ١٩١٩ يتضمن المواد الآتية:

١ ـ طلب الاستقلال السياسي التام لسورية بحدودها الطبيعية من جبال طوروس إلى رفح شرقاً ومنها إلى الجوف جنوباً ومن الجوف إلى العقبة غرباً، ثم الى الفرات والخابور شمالاً، وابي كمال شرقاً ثم الى البحر المتوسط غرباً، بدون حماية ولا وصاية قط.
٢ ـ ملكية الأمير فيصل على هذه البلاد.
٣ ـ الاحتجاج على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم التي ادخلت السوريين في عداد الدول الخاضعة للانتداب [١٠].
٤ ـ طلب المعاونة الفنية فقط من قبل الولايات المتحدة الأميركية التي ليس لها مطامع سياسية في سورية لمدة عشرين سنة فقط لا اكثر على أن لا تمس هذه المعاونة استقلال البلاد ووحدتها.
٥ ـ اذا لم تتمكن اميركا من قبول هذه المعاونة فلتكن من قبل بريطانيا العظمى بنفس الشروط.
٦ ـ رفض الاعتراف بأي حق تدّعيه فرنسا في سورية.
٧ ـ رفض الهجرة الصهيونية الى جنوب سورية.
٨ ـ اتحاد سورية ولبنان وفلسطين معاً.
٩ ـ طلب الاستقلال للعراق على أن لا تكون هنالك حواجز كمركية بينه وبين سورية.
١٠ـ الاحتجاج على المعاهدات السرية القاضية بتجزئة البلاد وطلب إلغائها.

وقد ذهب رئيس المؤتمر مع واحد وعشرين عضواً من أعضائه إلى لجنة الاستفتاء ورفع لها نسخة عن هذا القرار تحريراً.

ولمّا غادرت لجنة الاستفتاء سورية انفضّ المؤتمر السوري من تلقاء نفسه، فتزوّد الأمير بقراره، وسار به إلى أوروبا للمرة الثانية.

الاستفتاء

رأت جمعية الأمم أن ترسل وفدا الى سورية لاستفتاء أهلها في الحكومة التي يرغبونها للانتداب عليهم بحكم المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم، فقدم اليها في ١٠ حزيران ١٩١٩ وفد مؤلف من المستر (شارلس كراين) سفير الولايات المتحدة الأميركية في بيكين وبعض رفاق له، منتدبين من قبل الجمعية الأممية وبدأ هذا الوفد عمله من فلسطين ثم جاء الى دمشق فبادهه المؤتمر السوري بقراره المتضمن رفض الانتداب وطلب الاستقلال التام ومعاونة أميركا أو انكلترا الفنية الى أجل محدود وغير ذلك من المطالب التي ذكرناها في الباب السابق.

ثم استمع الوفد افادات أهل الشام وغيرها من البلاد السورية على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم، فاجتمعت أكثريتهم الساحقة على تأييد المؤتمر السوري في مطالبه ولم يشذ عن ذلك سوى المغاربة [١١] مهاجرو الجزائر وأهل المذاهب الغربية من المسيحيين فقط، وفي خلال ذلك كانت أميركا قررت عدم الاشتراك في مؤتمر سان ريمو ورفض المداخلة في أمور أوروبا كيلا تتداخل أوروبا في الأمور الأميركية، فلما عادت اللجنة الى باريس وقدمت نتيجة أعمالها الى وزارة الخارجية الافرنسية لم تعبأ به هذه الوزارة بل ألقته في زوايا الاهمال وأقنعت انكلترا بعدم قبوله أيضا فراحت تلك المساعي ادراج الرياح.

كليمنصو . فيصل

ذهب الأمير فيصل من الشام متوجها الى أوروبا ومزوّدا المسيو كليمنصو بالأماني القومية التي تنشد الاستقلال التام الناجز دون سواه، وعند ذهابه كان مؤتمر سان ريمو على أهبة الانعقاد فلأجل الوصول اليه قبل أن يقرر شيئا يخالف آمال الأمة السورية وأمانيها، رام الأمير الاسراع وأبحر من بيروت الى الاسكندرية على أمل ركوب إحدى البواخر منها الى فرنسا ولما بلغ الاسكندرية لم يجد باخرة تقلّه سوى نسافة بريطانية عرضت عليه فركبها وسار بها وفي أثناء الطريق توقفت النسافة في عرض البحر يومين كاملين بحجة فقدان الوقود واصلاح الخلل الذي طرأ عليها ثم واصلت السير وما بلغت مرسيليا إلّا والاتفاق قد تمّ بين فرنسا وانكلترا بشأن الانتدابات (وفقا لعهدة سايكس ـ بيكو المعلومة) وأقرّه المؤتمر، هرع عندئذ الأمير الى لوندره لبثّ الشكوى من هذا الحيف، واجتمع على اللورد (كورزون) وزير خارجية انكلترا فأجابه هذا أن سورية أصبحت تحت الانتداب [١٢] الافرنسي بحكم القرار الذي أصدره مؤتمر سان ريمو الدولي وأشار عليه بأن يذهب الى باريس ويجتمع الى المسيو (كليمنصو) رئيس الوزارة الافرنسية في ذلك الحين ويقرر شؤون البلاد السورية معه.

ذهب الأمير الى باريس فعرضت عليه وزارة الخارجية الافرنسية لائحة اتفاق كانت أعدّتها من قبل، وكلفته بأن يوقّعها بدون اعتراض لأنها غاية ما يمكن اسداؤه لسورية، فوقّعها الأمير مختارا بتاريخ ١٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٩، وقد دعيت اتفاقية (كليمنصو ـ فيصل)، وهي تتضمن ما يأتي:

بما أن السوريين في الوقت الحاضر ـ نظرا لاختلال النظام الاجتماعي المنبعث عن الاضطهاد التركي، والخسائر التي حدثت اثناء الحرب ـ لا يستطيعون أن يحققوا وحدتهم وينظموا ادارة أمّتهم بدون مشورة أمة مشاركة، فيطلب الأمير باسم الشعب السوري هذه المهمة من فرنسا وحدها.

جميع المستشارين والمديرين والموظفين الفنيين الذين يلزمون لتنظيم الدوائر المدنية والعسكرية في سورية يطلبون من الحكومة الافرنسية دون سواها.

توضع أمور المالية والخطوط الحديدية تحت سلطة وسيطرة المشاورين الافرنسيين وحدهم.

يكون للحكومة الافرنسية حق الأولوية التامة في جميع الالتزامات والقروض السورية ولا تمنح هذه المشاريع لوطنيين تكون أسماؤهم معارة الى راسماليين أجانب.

يكون جبل لبنان مستقلا عن سورية تحت الحماية الافرنسية.

يكون لجبل حوران استقلال اداري ضمن الكيان السوري.

ولقاء ذلك:

تعترف فرنسا للشعوب التي تتكلم العربية والتي تقطن سورية على اختلاف المذاهب بالاستقلال وحكم أنفسها

بأنفسها فيما اذا اتحدت.
وتتعهد بأن تحمي هذا الاستقلال وتقدّم جميع المساعدات التي يطلبها الأمير.
وان تمنح معاونتها لتنظيم الدرك والشرطة والجيش في سورية.
وان تكون اللغة العربية لغة البلاد الرسمية على ان تعلّم اللغة الافرنسية كلغة مساعدة، وبصورة ممتازة واجبارية.

هذه هي الشروط التي قبل بها الأمير فيصل ووقعها مع المسيو كليمنصو بالحروف الأولى كما هي العادة بحيث لا تنشر الّا بعد أن يتّم الاتفاق عليها مع الحكومة السورية نهائيا.

رأي

ان هذه الاتفاقية هي النسخة المصغرة عن معاهدة (سايكس ـ بيكو) التي سبق ذكرها ولم يكن سمو الأمير فيصل بتوقيعها وقبولها سوى أداة لتنفيذ الخطة التي رسمتها السياسة الانكليزية الافرنسية من قبل ولم تحد عنها قيد أنملة.

على أننا نتساءل كيف وافق الأمير على هذا الاعتراف الذي يقضي على السوريين بعدم الاستطاعة على تحقيق وحدتهم وتنظيم إدارة أمورهم وما هو ذلك الاختلال الاجتماعي الناشىء عن الاضطهاد التركي الذي يستلزم مشاركة أمة غريبة في إدارة شؤون بلادهم! ومن أين انتحل الأمير لنفسه حق المطالبة باسم الشعب السوري بتلك المهمة من فرنسا حالة كون الشعب السوري لم يفوّضه في ذلك بل كانت إرادته التي أملاها على الأمير بدمشق تطلب الاستقلال التام ليس إلّا!

ان كل هذه الأقاويل هي مغالطات سياسية يقصد منها وضع سورية تحت الوصاية الافرنسية فقط، وتقطيع أوصالها بتقسيمها الى دويلات وإدارات يناوىء بعضها بعضا، وتؤدي حتما الى منع الاتحاد الذي أشار اليه (كليمنصو) على سبيل الاستدراك معتقدا باستحالته. ثم أن سمو الأمير لم يبح بحقيقة هذه الاتفاقية ورام أن يكتم أمرها بحسب نص بندها الأخير وترك الأفكار هائجة ومضطربة بشأنها تنتظر الوقوف على حقيقتها، وما لبث الأمير نفسه أن تبع ذلك التيار وراح يسعى لنقض ما تّم من جهته فكان سعيه مردودا عليه، ومؤديا الى تلك النتيجة التي أصابته وأصابت البلاد بسببه.

وهناك نظرية ثانية وهي قول البعض أن هذه الاتفاقية هي أخفّ وطأة من معاهدة (سايكس ـ بيكو) وأنها لو قبلت وطبقت بحذافيرها لكانت أقل ضررا مما وصلت اليه البلاد فيما بعد!

لكل امرىء رأيه ومذهبه ولا جدال في ذلك، ولكن وضع الأمور المدنية (وهي الداخلية والعدلية والمعارف والتجارة والزراعة وغيرها) ثم الأمور العسكرية كلها، دركها وشرطتها وجيشها، ثم أمور المالية والنافعة تحت السيطرة الافرنسية واحتكار مشاريع الالتزامات والقروض وحصر التمثيل الخارجي بالافرنسيين، وفصل البلاد عن بعضها ــ كل هذه الشؤون الحيوية التي هي روح الحكومة وأسسها كيف تستباح ولا تكون ضارّة ولا ماسة باستقلال البلاد وحياتها.

ثم أن الرأي العام في البلاد كان يلتهب غيرة على الاستقلال التام الناجز الذي وعد به من قبل، وفقدان الجرأة الأدبية والحكمة السياسية في الأمير ومعاونيه على إبداء الحقائق كما هي ـ جعل الهياج يزداد ويشتد ويستنكر هذا الاتفاق الذي ظل موقتا ولم يدخل في دور التنفيذ، وكان ما كان ضحية الاختلافات السياسية ويا للأسف.

ولنا كلمة اخرى في هذا الصدد سنوردها عند البحث عن عودة الأمير انشاء الله.

اخطاء الحسين

تتجلى أخطاء الشريف حسين في اعتماده على ظواهر الأقوال من وعود الانكليز وتمويهاتهم المرنة وتفسيرها وتأويلها لنفسه حسبما كان يخالج ضميره من آمال وأمان بغية الوصول اليها والحصول عليها ـ دون التبصر في الأمر من جميع جهاته وتمحيص تلك الوعود ومعرفة درجة انطباقها على بعضها وما يمكن أن تكون نتائجها ـ كما تقتضيه الحكمة والحزم ممن يروم أن يتولى الحكم وهو سليم الصدر يخال الناس كلهم على شاكلته من

الصدق والوفاء ولا يعلم ولا يريد أن يعلم بما يجري في العالم المتمدن من المضحكات المبكيات في سبيل تأمين المنافع وتأمين المطامع.

وأول خطأ وقع فيه الشريف حسين هو قبوله باستثناء سورية الغربية بأجمعها وحذفها عن سائر البلاد العربية بدعوى أن أكثرية سكانها من المسيحيين! حالة كون هذا الوصف لا ينطبق الا على جبل لبنان وحده، أما ألوية الاسكندرون واللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وجبل عامل حتى وأقضية بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا أيضا والتي تؤلف الجبهة الغربية من سورية هي مسلمة بأكثريتها الساحقة، ولكن الانكليز كانوا يرمون الى حصر مطالب الشريف في المدن الأربع الداخلية فقط (وهي دمشق حمص حماه حلب) دون أن يكون لها منفذ على البحر قط.

فلو تمعّن حضرة الشريف في هذه التحديدات وسأل الخبراء عن وضع الساحل السوري ـ اذا كان هو يجهله ـ يعلم انها مغالطات ترمي الى إبعاد العرب عن ساحل البحر المتوسط والقائه في الداخل تحت سيطرة الحلفاء دون سواهم.

ثم أن حضرة الشريف بدلا من أن يكتم هذه المخابرات ولا يطلع عليها سوى بعض أولاده على ما قيل لو جمعها وفحصها واستلخص منها ما أعلنه على الملأ من تأسيس المملكة أو الممالك العربية المستقلة واستكتب الانكليز والافرنسيين بذلك عهداً صريحاً تكفل هو فيه بمعاونتهم على إنهاء الحرب بالمعاهدة التي قبل بها، وتتعهد له انكلترا وفرنسا بتأسيس تلك المملكة أو الممالك العربية واستقلالها التام بحدودها وأوصافها المتعارفة بين الجميع ـ لعلم كل من الفريقين ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات تجاه الآخر رسميا بدونما تأويل ولا تعليل!

ولكن الشريف وأولاده لم يعلموا إلاّ بما أوحت به اليهم انكلترا فقط، وكانوا كحاطي ليل يحلمون الأحلام الذهبية ولا يدرون طريق الوصول اليها.

اكتفى حضرة الشريف على الأكثر برسائل السر هنري ماكماهون قنصل انكلترا في الاسكندرية وغيره من عمّال الانكليز الذي كالوا له النعوت والألقاب جزافا بدون نتيجة ولا معنى، واغترَّ بالالفاظ المطاطة التي وردت في المنشور الدولي الذي أذاعته الدولتان الحليفتان انكلترا وفرنسا ووعدتانا فيه بتأسيس حكومة أو حكومات عربية بمعاونتها ومساعدتها، ثم بكتاب وزير الخارجية الانكليزي الذي جاءه بعد ذلك المنشور يحاول فيه تكذيب الأخبار الواردة للشريف ويؤيد المنشور بمعناه ومغزاه، ولو تمعّن حضرة الشريف وأولاده بعبارات ذينك المنشورين والكتاب لظهر لهم أن القصد منهما تمويه الحقائق وتكرار لفظ التحرير والمعاونة وهما كلمتا حقّ أريد بهما الباطل كما شرحنا ذلك في محله.

واذا اضفنا الى ذلك سكوت حضرة الشريف عن الأخطاء التي ارتكبها ابنه ونائبه الأمير فيصل في مؤتمر الصلح بفرساي، وتأييده ـ عن قصد أو بغير قصد ـ وعد بلفور وطلبه الانتداب على سورية لرأينا أن طغيان الغرباء والدخلاء على بلادنا وما حاق ويحيق بنا من المصائب والنوائب منهم وبسببهم كان نتيجة ذلك التساهل والاهمال. أما عدم اعتنائه بالجيش وجعله يستطيع مقاومة الأغيار عليه فهو خطأ عائد لشخصه وقد ذاق مرارته بنفسه، ولا حول ولا قوّة الاّ بالله.

عودة الأمير

عاد سموّ الأمير من سفرته الثانية الى أوروبا في ٢ كانون الثاني ١٩٢٠ بعد أن اتفق مع المسيو كليمنصو كما قدمنا وكان قلقاً متردداً لا يستقر على حال كأنّه علم بثقل العبء الذي حمله لنفسه وحمله للبلاد معه.

ولما بلغ بيروت احتفل به الجنرال غورو وهنأه بسلامة الوصول فأجابه شاكرا وقال في خطابه له ـ أنه سيتبع السياسة الافرنسية بعد ذلك اليوم ويحافظ على مصالح فرنسا الاقتصادية بتمامها.

ثم قدم الى دمشق واستقبلته الجماهير بحماس عظيم، فحوّل لسانه وخطب مبشّرا بالاستقلال المنشود.

ولما استقّر به المقام في دمشق رام البعض أن يستدرجه عن نتيجة رحلته فلم يجرأ على التصريح بالحقيقة

والتزم طريق التمويه واخذ يتلعثم في اقواله ويناقض نفسه بنفسه حيث قال على مائدة أعدّها في قصره لنخبة من اعيان الشام جواباً على سؤال أورده المرحوم عبد القادر بك المويد :ـ لا حماية ولا وصاية وانما هو ما يدعونه (ماندا)ـ ومعناها الاستشارة والمساعدة أو التدريب وما شاكل ذلك.

ثم أن حزب «العربية الفتاة» الذي يرأسه اذ ذاك ياسين باشا الهاشمي كان أكثر نفوذا لدى الأمير من غيره من الأحزاب فاطلعه الأمير سرّاً على اتفاقية (كليمنصو ـ فيصل) ففحصها الحزب وقرر رفضها بتاتا.

ثم ذهب الأمير الى النادي العربي وخطب فيه خطبة رنانة قال فيها ما يلي:

«.. مبداي هو استقلال البلاد، والله يشهد انني ساع لذلك، ولا أظن أنه يوجد رجل واحد يرضى بالاستعباد للأجنبي» ثم قال: «أعود فأؤكد لكم أنني عزم على الاستقلال التام، الاستقلال الذي لا يجعل لأمة من الأمم حق السيطرة عليكم».

فهذه الأقوال التي صدرت من فم الأمير وما سبقها من خطبه في المؤتمر السوري وغيره، جعلت الأفكار العامة تعتقد بحقيقتها وتتّقد غيرة على نوال الاستقلال الناجز الذي بشّر به سمو الأمير ولا تنشد سواه.

ثم أسر سمّو الأمير لبعض خواصه بقوله «ان ما توصلت اليه (ويعني اتفاقية كليمنصو) هو أعظم مساعدة يمكن الحصول عليها ولولاي لكانت نفحت وجعلت تضرّ بمصالح البلاد أكثر مما هي عليه»!!!

وهذا الجواب، عدا مخالفته لأقوال الأمير وخطبه السابقة، فهو يستلفت الأنظار ويدلّ على أن سموّ الأمير كان لا يجهل الأضرار التي تنجم عن عمله، وهو يقبل بها على علم تثبيتا لمركزه وتوصلاٍ للغاية التي ينشدها لنفسه، بارتقاء سرير الملك ليس إلاّ!

فليته، بعد أن عبث براي الأمة وفعل فعلته بخلاف تفويضها وأمانيها، ثبت عند أقواله وأفصح عن حقيقة ما جرى معه بدون تمويه ولا تعليل. اذن لحفظ مكانه وصان بلاده ـ التي ائتمنته من عبث العابثين وكان خيرا له أن يغادر الشام شريفا مكرّما من أن يضطر لتركها ملوما مدحورا.

فيصل ملكاً

عدل الأمير فيصل عن فكرة الاستشارة الأجنبية التي قبلها في مؤتمر (سان ريمو) وسببت الانتداب ورام أن يجعل أوروبا تجاه أمر واقع لاعتقاده أن لكل أمة الحق باختيار الحكومة التي توافقها، فدعا المؤتمر السوري الذي اجتمع في السنة الماضية ثم انفض لنفسه وعرض عليه قرار المؤتمر الدولي الذي قضى بوضع سورية تحت الانتداب الافرنسي، فأصدر المؤتمر السوري قراراً برفض قرار مؤتمر سان ريمو الدولي وأعلن استقلال البلاد السورية ونادى بالأمير فيصل ملكاً عليها يوم ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٨ الموافق ٧ آذار سنة ١٩٢٠. وفي اليوم التالي بُويع بالملك في محضر عام عقد في بهو بلدية دمشق وحضره الكولونيل (كوس) معتمد فرنسا ولم يحضره أحد منَ الانكليز.

وقد سئل الأمير من قبل بعض أخصائه عن استعجاله في قبول الملكية فأجاب انه اتفق بشأنها مع فرنسا وعلى أثر ذلك نشر قلم المطبوعات الافرنسي في بيروت بلاغاً دحض به دعوى الأمير وكذبها من أصلها.

عقيب البيعـة القى جلالة الملك خطبة استهلها بذكر المنشور الدولي وأفاض في التنويه عن عدالة اوروبا ومحبتها للعرب ثم استلفت الأنظار نحو الجالية العراقية وتمنى لها سعادة وراحة دائمتين.

وتألفت أول وزارة ملكية برياسة السيد علي رضا الركابي:

السيد علي رضا الركابي	دمشق	رئيس الوزارة
السيد علاء الدين الدروبي	حمص	رئيس مجلس الشورى
السيد رضا الصلح	بيروت	وزير الداخلية
السيد سعيد الحسيني	القدس	وزير الخارجية

السيد عبد الحميد قلطقجي	دمشق	وزير الحربية
السيد فارس الخوري	حاصبيا	وزير المالية
السيد جلال زهدي	اسكندرون	وزير العدلية
السيد ساطع الحصري	حلب	وزير المعارف
السيد يوسف الحكيم	اللاذقية	وزير النافعة

وقد ذهبت هذه الوزارة الى المؤتمر السوري فمنحها ثقته بالإجماع.

عقيب البيعة لفيصل أبدت له انكلترا بأنها مستعدة لتصديق ملكيته مما يدل على أن كل ما جرى كان بعلمها وتحريضها. ولكن فرنسا عارضتها في ذلك ورفضت فيصلا رفضاً باتّاً لتذبذبه وعدم ثباته عند اقواله، ولما لم يكن من مصلحة انكلترا الانفراد والافتراق في الأمر عن فرنسا لأن مصالحهما المشتركة في اوروبا تقضي باستمرار الاتفاق، فقد ضحّت انكلترا بسورية وفيصلها في سبيل منافعها واشتركت مع فرنسا بتبليغ فيصل رسميا بتاريخ ١٨ آذار سنة ١٩٢٠، أي بعد البيعة له بعشرة أيام أن الدولتين ـ انكلترا وفرنسا ـ لا تعترفان بصحّة قرار المؤتمر السوري، ودعياه شخصيا للحضور الى اوروبا لبسط قضيّته أمام مؤتمر الصلح والإجابة عن الأسئلة التي يروم أن يلقيها عليه.

أجاب الملك (أو الأمير) معتذراً بأن أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد، وأرسل مرافقه أمير اللواء نوري باشا السعيد معتمداً من قبله الى اوروبا ليدلي لأولياء الأمر فيها بالأسباب التي أدت الى قبوله الملكية، وأنها لا تؤثر على ما بينه وبين الدولتين من عهود.

سار نوري باشا السعيد وتبعه رستم بك حيدر مستشار الأمير الخاص الى اوروبا، وبذلا منتهى الجهود لإقناع رجال الدولتين بالأمر الواقع فلم يفلحا.

على أن تلك الوزارة التي أخذت على عاتقها إيصال البلاد الى الاستقلال التام لم يتسنّ لها النجاح في مهمتها فاتهمها المؤتمر السوري بالضعف والتساهل، وعلى أثر ذلك استقالت يوم ٣ أيّار سنة ١٩٢٠ وخلفتها وزارة جديدة رأسها السيد هاشم الأتاسي رئيس المؤتمر السوري وكانت كما يلي:

السيد هاشم الاتاسي	حمص	رئيس الوزارة
السيد رضا الصلح	بيروت	وزير الداخلية
السيد عبد الرحمن شهبندر	دمشق	وزير الخارجية
السيد يوسف العظمة	دمشق	وزير الحربية
السيد جلال زهدي	الاسكندرون	وزير العدلية
السيد فارس الخوري	حاصبيا	وزير المالية
السيد ساطع الحصري	حلب	وزير المعارف
السيد يوسف الحكيم	اللاذقية	وزير النافعة
السيد جورج رزق الله	بيروت	وزير الزراعة والتجارة

وعلى أثر قبول السيد الأتاسي رئاسة الوزارة انتخب المؤتمر السوري الشيخ رشيد رضا نائب طرابلس رئيساً للمؤتمر وثابر على عمله.

نظرة في الوزارة

تألفت هذه الوزارة من نخبة رجال العهد، ولو كانت البلاد هادئة والأمور مستقرّة لكان يرجى منها الخدمات الجلّى، ولكن البلاد كانت في حالة هياج واضطراب متواصلين، والدعايات الأجنبية تلعب دورها بصورة مهولة، والمصلحة تتطلب خبرة في أطوار البلاد وأخلاق أهلها، وحكمة في إدارة دفتها، وهذا ـ ويا للأسف ـ ما كان ينقص

البعض من رجال هذه الوزارة الذين كانت أكثريتهم لا تعلم من أحوال العاصمة وطباع أهلها إلا القليل. وفوق ذلك فالملك حجازيّ، ومستشاروه أغراب، وهذا ما أدّى إلى اللغط، وتألب بعض المتزعمين على الحكومة والالتفاف حول أخصامها وكان كافياً لتسرب الغش والوهن في جسم تلك الدولة الفتية واندثارها قبل أن تترعرع. أقول قولي هذا ولا أقصد أن أبخس الناس أقدارهم فاني من القائلين بفضل هؤلاء السادة ونبلهم، ولكنني أتساءل هلّا كانوا يعلمون بوجود الأحزاب المتعددة والدعايات العظيمة القائمة في العاصمة والبلاد، وأن كلّا من تلك الأحزاب ينادي ويخالف الآخرين ويسعى بكل ما أوتيه من قوة لإسقاطهم الى الحضيض وتثبيط أعمالهم مهما كلفه الأمر؟ ألا يدرون بأولئك المخالفين والمتزعمين الذين كانوا من حملة الألقاب الضخمة (وهي كسراب بقيته يحسبه الظمآن ماء) فكيف بهم يلجأون اليهم عند النفس الأخير؟ ويضعون حياة الوطن ومماته بين أيديهم؟ ويعتمدون على وعودهم بالمعاونة والمساعدة مما أدّى الى تلك النتيجة المؤلمة؟

أليس هذا إفراطاً بالاعتماد؟

الجيش السوري

«كن على أهبة الحرب تضمن لنفسك السلم». هذه كلمة سياسية تؤثر عن الأمير بسمارك داهية الألمان.

كان وزير الحربية السورية ورئيس أركان حربها قبل الوزارة من القائلين بهذه الكلمة الساعين لاعداد معدات الحرب توصلا للسلم وتوطيدا للأمن حيث تكون الأمة قوية المراس عزيزة الجانب يحسب الأقارب والأباعد حسابها، ولا يقدمون للاعتداء عليها.

تألف الجيش السوري في أول عهد الحكومة الفيصلية من متطوعة مختلفة الأصقاع، والمتطوّعون في كل زمان ومكان يكلفون الحكومة التي تستخدمهم في جيشها نفقات زائدة عن الحد المعروف لأنهم لا يقبلون على التطوع والانخراط في جيش لا علاقة له ببلادهم الّا بأمل تناول رواتب ضخمة تنوء تحتها ميزانية تلك الحكومة، فضلا على أنهم باعتبارهم أغرابا عن الوطن لا يهمهم من أمره سوى قبض رواتبه، والتنعم بخيراته ليس غير. وسواء عندهم شقيت البلاد أم سعدت.

ثم أن متطوّعي الجيش السوري قد تناقصوا على مرور الأيام بمختلف الأسباب وتعذر إبلاغهم الى القدر الكافي، فرأت الحكومة أن تجند ابناء البلاد تجنيداً الزاميّا ليذودوا عن أوطانهم ويحفظوا كيانها شأن سائر الأمم التي تطلب الحياة والاستقلال.

بوشر أمر التجنيد منذ شهر كانون الأول سنة ١٩١٩ فاجتمع لدى الحكومة عدد غير قليل من الجنود الذين كان أكثرهم مدربا على الخدمة العسكرية والأساليب الحربية، منذ أيام الحكومة العثمانية، وبعد هنيهة استعرض وزير الحربية الجيش بفرقه الثلاث ـ المشاة والفرسان والمدفعية ـ في شارع النصر أمام جلالة الملك والوزراء ولفيف الأهلين والجالية الوطنية فنال إعجاب الجميع بدربته وانتظامه. ثم ازداد عدد الجنود زيادة تجاوزت العدد المفروض وكانت البلاد في يسر عظيم من الذهب الذي تدفق عليها أيام الحرب العالمية فطلب الأهلون قبول البدلات النقدية من أرباب اليسار لقاء الخدمة الفعلية ورأت الحكومة النزول عند طلبهم وقررت قبولها وجعلتها ثلاثين دينارا ذهبيا عن الخدمة الفردية لستة أشهر فقط، فخفّ الناس لأداء البدلات النقدية بسهولة وكثرة، حتى بلغت في برهة وجيزة زهاء نصف مليون من الليرات، أي أن الذين دفعوا البدلات تجاوز عددهم الخمسة عشر ألفا وكانوا أكثر من الذين دخلوا الجيش وخدموه خدمة فعلية.

بسبب هذه البدلات وقفت أعداد الجنود العاملة عند العشرة آلاف فقط ولو صرف النظر عن البدلات وتمكنت الحكومة من منع الدعايات واخفات أصوات الدعاية لكان عدد الجنود ازداد الزيادة المتوقعة وتجاوز الخمسة وعشرين الفا بدون ريب.

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) طلعت باشا(١٨٧٤ ـ ١٩٢٢) : احد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي والقائمين بانقلاب المشروطية سنة ١٩٠٨، وقد اصبح فيما بعد اكثر زعماء الحزب نفوذا وكان آخر رئيس وزراء في عهد الاتحاديين. بدأ حياته موظفا صغيرا في دوائر البريد، وبعد المشروطية أصبح نائبا في مجلس المبعوثان وشغل وزارات البريد والبرق، والداخلية في عدة وزارات، وبعد استقالة سعيد حليم باشا عين رئيسا للوزراء. وعلى الرغم من دراسته البسيطة كان طلعت باشا يتمتع بذكاء شديد وشعبية كبيرة ويجيد عدة لغات. على اثر قبول تركية لشرط الهدنة في سنة ١٩١٨ هرب منها مع انور وجمال على باخرة المانية، ولكنه اغتيل في برلين على يد رجل ارمني. ومما يلاحظ ان الكتب التركية تؤكد على نزاهته واستقامته ووطنيته. (انظر مثلا:
Mustafa Ragip Esatli, **Ittihat ve Terakki Tarihinde Esrar Perdesi,**
(Istanbul, 1975, p. 734) (ن. ص.)

(٢) اعمال الافرنسيين في الجزائر وهنا نأتي على ذكر افعالهم في ترعة السويس.
عندما حصل الافرنسيون بشخص مهندسهم ديليسيبس من الحكومة المصرية على امتياز شق ترعة السويس واستثمارها جلبوا بواسطة الحكومة فلاحي البلاد واستخدموهم في حفر تلك الترعة وجعلوا لكل عامل يسكب عرق الجبين من الصباح الى المساء خمسة فرنكات اي خمسة وعشرون قرشا أجرة يومية. ولما كان الفلاح المصري قد اعتاد على التقتير والاقتصاد في مأكله ومشربه وملبسه، ولكنه ميال بطبيعته الى الخلاعة والتهتك اعدت الشركة لأولئك العمال المقاهي والمقاصد والمحاشش والمقامر والمطاعم وبيوت الخلاعة والدعارة وغير ذلك مما يستهوي ضعاف النفوس. فوجدها العمال وسيلة للتخلص من عناء النهار والحصول على الراحة واللذة في الليالي، وهرولوا اليها يفرغون فيها جيوبهم ولا يبرحونها ومعهم قطعة واحدة مما قبضوه من الأجور. وهكذا كانت الشركة تؤدي تلك الأجور باليمين وتستردها بالشمال في آن واحد ولا تترك في جيب احد من العمال المساكين فرنكا واحدا يأخذه لأهله عند ايابه الى عزبته.
ولما افتتحت الترعة وشرع باستثمارها بلغت أرباحها درجة لم تنلها اي شركة في العالم قبلها، فطمع بها الانكليز واستخلصوها من الخديوي اسماعيل باشا والحكومة المصرية، ولم يتركوا للمصريين منها شيئا.

(٣) النَوَر ـ أو الغَجَر ـ اسم الطائفة التي تعيش تحت مضارب الشعر في أرياف البلاد متنقلة دوما من جهة الى أخرى ـ و «نور» في الأصل هو دخان الشحم الذي يعالج به الوشم حتى يخضر، وقد اطلق على هذه الطائفة لاختصاصها بصنعه. هذه الطائفة لا تدين بدين من الأديان المعروفة بالعالم ـ اصلها من بلاد الهند انتقلت في العصور الماضية الى أرض الهند فدعاها الهنود «سندرومي». ودأبت على السفالة واللصوصية وفساد الأخلاق فقاطعها اهل الهند وطردوها من بلادهم في أواخر القرن الثامن للهجرة، وكان التيمور اذ ذاك قادما بجيوشه الى الاقليم الهندي فتقربت هذه الطائفة رجالا ونساء من جنوده، وراحت تقوم بما يطلبونه من الخدمات، رحلت معهم من الهند فذهبت فرقة منها الى بلاد الروس فالقدرين فالأفلاق (رومانيا) حيث عرفت هناك باسم مولتاني، واقامت متشردة في ضواحي (بكرش) بخارست وعلى ضفاف نهر الدانوب (الطونّه) وتعاطت اللصوصية المألوفة عنها، فضغط عليها الأمير (ميرجه) امير الأفلاق وأكرهها على احتراف الحرف المشروعة كالحدادة والنجارة وعمل العجلات وغيرها، وسكن البعض منها بلاد الأفلاق واختلطوا بأهلها ولجأت فرقة منهم الى المزارع والقرى الأفلقية، فاستعبدهم أهلها واخذوا يسرقون أولادهم ويبيعونهم بيع السلع، وعبر فريق منهم الطونة وتبسطوا بلاد الروم (روم ايلي) واستقرت اكثريتهم في مدينة ادرنه وما حولها، وتسلق بعضهم الجبال وهبطوا بقاع الاورال والشيك وبوهيميا والمانيا وسائر البلاد الاوروبية الغربية فعرفوا هناك باسم (تزيغان) أو بوهيميين لانهم جاءوا اليها من بوهيميا، ولبث فريق منهم في بلاد الشرق وتفرقوا في مازندران وأرمينيا وبلاد الكرد والآناضول حيث عرفوا باسم (جنكانة)، ومرّ بعضهم في سورية واخذوا اسم «النَوَر» ثم ذهبوا الى مصر ومنها تسربوا الى شمال أفريقية ثم دخلوا اسبانية وتقدموا شرقا الى أن بلغوا ايطالية فعرفهم الايطاليون باسم (مصريين ـ أقباط) لانهم جاءوا تلك البلاد من مصر (حيث تعرف مصر في أوروبا كلها باسم بلاد القبط وأهلها يقال لهم قبطيون في مقام المصريين في حين أن اكثرية السكان في القطر المصري من المسلمين العرب والأقباط فرقة مسيحية معروفة لا تعلق لها بهذه الطائفة قط) وبالرغم من كل هذه الرحلات والتنقلات وتشتتهم في جميع الأصقاع والجهات لم تتبدل عاداتهم، ولم تتطور أخلاقهم، بل ما زالوا دائبين على ما الفوه من المساوىء الى يومنا هذا.
وهم في الأصل يتكلمون لغة واحدة هي (السندونية) التي جلبوها معهم من الهند، وقد طرأ عليها بعض التحريف والتبديل، بحسب لغات البلاد التي أجتازوها واقاموا في ربوعها، والفاظهم ما زالت تتشابه بعضها وتدل على انها من أصل واحد. واذا شعروا باضطهاد في احدى الجهات يتظاهرون بمذهب الأكثرية من أهلها ويحاولون اداء طقوسها ولكنهم يضمرون خلاف ما يظهرون.

(٤) بحكم معاهدة سايكس ـ بيكو المذكورة آنفا.

(٥) أو لاتمام الطبخة الانكليزية بأعتبار ان الملك حسين يتكلم بأسم العرب جميعا.

(٦) في تلك الآونة عدل الأمير فيصل رايه وراح يسعى شخصيا لاستمالة الغازي مصطفى كمال باشا لتوحيد الجبهتين العربية والتركية ضد العدو المشترك وهو فرنسة بالرغم من المساعي التي كانت تبذل بشأن اتفاق العرب مع الافرنسيين لقتال الأتراك مباشرة.

(٧) قبل عدولها عن دخول الجمعية.

(٨) هذا هو الوصف الرسمي لجمعية الامم، ولنا فيها كلمة سنوردها في الصفحة (٢٨٦) من هذا الكتاب خلال البحث عن الدكتور ويلسن.

(٩) هاشم الاتاسي (١٨٧٥ ـ ١٩٦٠): السياسي السوري الوطني المعروف. ولد في حمص، وكان رئيسا للمؤتمر السوري قبل ذلك. وقد أصبح رئيسا للجمهورية السورية بين سنتي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ وثم ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وللمرة الثالثة في ١٩٥٤.

(١٠) المادة ٢٢ استندت في ذلك على تقرير الأمير فيصل الذي رفعه الى مؤتمر فرساي كما قدّمنا.

(١١) غريب امر هؤلاء المغاربة فأنهم لما جاءوا الى بلادنا مهاجرين كانوا يقولون انهم أضطروا لترك بلادهم من جور الافرنسيين الذين اكتسحوها واستولوا على مرافق حياتها وجاروا وظلموا الى غير ذلك من انواع العسف وأنهم لاذوا بكنف دولة الاسلام (العثمانية) التي فتحت لهم ابواب بلادها واطعمتهم من جوع وأمنتهم من خوف، على انهم بعدما أستقرت اقدامهم في هذه البلاد وأمنوا على أموالهم وأرواحهم، انقلبوا على هذه الدولة وابوا الدخول في تابعيتها والتساوي مع أهل البلاد في حقوقها وواجباتها، ولبثوا محافظين على التابعية الافرنسية الى آخر أيام الدولة العثمانية، ولما أحتل الافرنسيون سورية رفعوا العلم الافرنسي وانخرطوا في الجيش الافرنسي وطلبوا الانتداب الافرنسي، ولله في خلقه شؤون.

(١٢) الانتداب بالافرنسية (Mandat) كلمة جديدة أخترعها الدكتور (ويلسون) رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميركية وممثلها في مؤتمر الصلح في فرساي، وقد فسروها بالارشاد والاشراف وهي الوصاية بعينها.

١٢ كارثة ميسلون والانتداب الفرنسي

قرار الدفاع

كانت البلاد بأكثريتها الساحقة تلتزم فكرة الدفاع وتنادي بالاستقلال لاعتقادها أن لا حياة لأمة محرومة من استقلالها، راسفة في قيود الذل والخنوع لغيرها.

ثم لعبت أيدي الدعايات والتحزبات وتمكنت من تفريق ذات البين وجعلت من الأحزاب المعارضة فريقا يسعى جهده لتثبيط الهمم وتسكين الفكرة الثائرة، واخمادها في مهدها.

لا ريب في أن فرنسا ـ التي اخذت تناوئنا في ذلك الحين ـ قد أخرجت من الحرب العالمية جنودا يربو عددها على ضعف سكان سورية ولذلك يرى في الوهلة الأولى كان في إمكانها أن تسوق الى أي جهة شاءت من الجنود ما يضاهي عدد السكان السوريين بأجمعهم. ولكن هل كانت حقًا تستطيع ذلك في تلك الآونة يا ترى؟ الجواب لا يخلو من غموض وابهام للعوامل الآتية:

١ـ ان الافرنسيين عانوا الحرب ست سنوات متوالية فقدوا في خلالها ما يقارب من نصف جيوشهم وشبابهم بين قتلى وجرحى وذوي عاهات.

٢ـ ان فرنسا خرجت من الحرب واقتصادياتها مزلزلة وماليتها مضعضعة.

٣ـ ان الحالة الأوروبية السياسية لا تسمح بمس الجيوش المرابطة اذ ذاك على الحدود وفي بلاد الراين الألمانية.

٤ـ ان الثورة المراكشية كانت في إبان فورانها وهي تشغل قسما غير قليل من الجيوش الافرنسية.

هذا من جهة فرنسا، أما سورية فانه كان يوجد فيها من الرجال الذين قضوا ردحا من الزمن في الخدمة العسكرية أيام الحكومة العثمانية وخاضوا غمار الحرب وتمرنوا عليها زهاء خمسين ألف جندي، لهم سلاحهم وعتادهم.

نعم إن الذخائر الحربية الموجودة لدى الجيش كانت ضئيلة لا تكفي للاستمرار على الحرب، ولكن البلاد وجبل الدروز والصحراء كلها كانت طافحة بالذخائر الحربية التي تقرر شراؤها واستجلابها بسهولة بواسطة سماسرة في الشام تعهدّوا بجلب الملايين منها تباعا.

هذا وان النظريات الحقوقية والسياسية السائدة في أوروبا وأميركا والدعايات العظيمة المنتشرة بين ظهرانينا جعلت وزراءنا يعتقدون اننا اذا قمنا بواجبنا نحو الوطن وتمكنا من ايقاف الافرنسيين ولو أياما معدودة لا بد من أن يساعدنا ويعاضدنا الرأي العام الأوروبي والأميركي ولا يدع فرنسا تسحقنا ونحن لا نروم الّا الحياة ولا ينصرنا سوى الله والحق. ولذلك رأى مجلس الوزراء عقيب المذاكرة في حضرة الملك أن يرجح فكرة الدفاع على الاستسلام للعوامل الآنف ذكرها وللاعتبارات الآتية:

١ـ ان الجنود الافرنسية التي كانت مرابطة يومئذ في سورية بما فيها المدد والذي استجلبه الجنرال غورو لم تكن أكثر من ثمانية آلاف جندي على وجه التأكيد، وكما أيده الاختبار[1] وهي كانت منتشرة من بيروت الى (قاتمه) على تخوم حلب وأكثريتها من عبيد السنغال الذين قيمتهم الحربية ضعيفة.

٢ـ ان الجيش السوري الذي تقارب في تلك الآونة العشرة آلاف يمكن مضاعفته بالمتطوعة من دروز وعربان وغيرهم، وليس المدافع كالمهاجم كما أن حرب العصابات تتطلب وتفني كثيرا من الجنود وماليتها تحتاج الى الألف كما هو معلوم لدى المتخصصين من رجال الحرب.

وافق جلالة الملك على هذا القرار، وأمر بتنفيذه حالا.

المؤثرات

بذل الافرنسيون في سبيل دعايتهم في سورية خلال تلك المدّة زهاء ثلاثة ملايين من الفرنكات أي مئة وخمسين ألف ليرة ذهبية اشتروا بها ضمائر البعض من ذوي المقامات كما استمالوا غيرهم بالوعود الخلابة، وكانت لهم لجنة في دمشق تعمل تحت إشراف معتمدهم الكولونيل (كوس) لتامين مطالب الافرنسيين ـ كما كانت تعمل فيما مضى لحساب البريطانيين أيضا ـ وكانت هذه اللجنة مكلفة بتثبيط العزائم وتحويل الرأي العام عن المقاومة، وتمكنت من اقناع عدد غير قليل من وجهاء ذلك العهد وأقطابه وبعض المقربين من الملك وحاشيته، واستجلبتهم بدورهم الى حظيرتها، كما انها استمالت الكثير من كبار الموظفين وكان لها أنصار في داخل الجيش أيضا، وكان هنالك شيخ من أرباب العمائم نصب نفسه لنشر الدعاية الافرنسية وخداع بعض المرتزقة من الخلق.

ولما سار الجيش العربي الى ميسلون أرسل الافرنسيون عصابة من انصارهم وأذنابهم برياسة رجل مسلم من وجهاء بيروت يدعى هاشم الطياني وسلحوها بالمسدسات والقنابل اليدوية، وكانت هذه العصابة تتظاهر بالتطوع في خدمة الجيش العربي ومهمتها الحقيقية القاء الذعر والرعب والاضطراب في أفراد الجند، واغتيال الضباط، وارشاد الافرنسيين الى مواقع المدفعية عند نشوب الحرب، وقد اعتقل بعض رجال هذه العصابة في حالة الجرم المشهود، وقبض على آخرين وهم يقطعون أسلاك البرق والهاتف بين دمشق وميسلون، وبينها وبين المناطق الأخرى يوم الزحف الافرنسي. واستمال الافرنسيون أيضا كثيرا من زعماء الدروز في حوران وشراكسة القنيطرة وحمص وبعض الصحفيين والضباط والنواب أيضا، وكان الكولونيل (كوس) يجتمع في أغلب الليالي الى بعض الوجهاء والرؤساء ويتحادث معهم فيما يسهّل له مهمته، ولا يضن ببذل الأموال الطائلة في هذا السبيل.

ثم أن الشعب كان هائجا، والحكومة ضعيفة، والملك متذبذبا، ولم يكن كل ذلك للتأثير على مجرى الأحوال، بل ان الخصام الذي تأصل بين الأحزاب السياسية أخذ يتسع ويتفاقم من يوم الى يوم، ويؤدّي الى احراج الموقف واضطرابه، وكان من جملة نتائجه ما نلخصه فيما يلي:

أخذ وزير الحربية يسعى جهده ليلا ونهارا لاكمال نواقص الجيش وإعداده للقيام بالمهمة التي انتدب لها، وأول شيء يجب عمله في هذا السبيل هو حشد الجنود الذين أخذوا يفدون على الثكنة بشوق وحماس. ولكن الدعاية الافرنسية التي عمّت المدن والقرى جعلت أغلب الرجال المكلفين بالدفاع عن الوطن يتوارون عن الأنظار، ثم ما لبثت أن تبعتهم الى داخل الثكنة أيضا حيث اذا دخلها في اليوم الواحد ألف جندي مثلا فلا يبقى منهم الى الغد أكثر من خمسمائة تقريبا، والباقون يفرّون منها بشتى الوسائل.

وكانت الدعايات تبثّ أولا في السّر ثم تحوّلت الى العلانية، وأخذ المنتمون الى الأحزاب المعارضة يأتون بأنفسهم الى أمام الثكنة ويصيحون بأعلى أصواتهم تجاه نساء الجنود وأطفالهم وعلى مسمع منهم قائلين: ما هذا الظلم؟ رجال يراد سوقهم الى الحرب ليموتوا ولا يعودوا! كيف يمنعون من وداع أهلهم وأولادهم.

اجتمعت كل هذه المؤثرات وكانت كافية لأن تجعل الثكنة فارغة في صباح كل يوم من أكثر من دخلها في اليوم الذي سبقه. مما أدى الى هبوط عدد الجنود العاملة في يوم واحد الى الستة آلاف بعد أن كان يقارب العشرة آلاف كما قدّمنا. وهلمّ جرّا.

الانذار

في ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ أرسل الجنرال غورو الى الملك فيصل إنذارا شفهيا مع أمير اللواء نوري باشا السعيد مرافق جلالة الملك وهو يتضمن المواد الآتية:

١ـ اعلان الانتداب الافرنسي عملا بقرار مؤتمر (سان ريمو).

٢ـ الغاء التجنيد الاجباري.

٣ـ حلّ الجيش السوري وتسليم سلاحه وعتاده الى الجيش الافرنسي.

٤- تسليم خط رياق - حلب الحديدي ليستعمل في نقل حاجيات الجيش الافرنسي!
٥- أن يقبل في سورية تبادل الأوراق النقدية التي أصدرها البنك الافرنسي كما هي متبادلة في لبنان.
٦- حل العصابات التي تعبث بالأمن.
٧- تسليم المشاغبين الذين يعارضون في ذلك الى ديوان الحرب الافرنسي ليحكم في امرهم فيما يراه.

استمهل الملك الجنرال غورو أربعا وعشرين ساعة، ثم شفعها بثمان واربعين ساعة أخرى لدراسة هذه المطاليب والاجابة عنها.

وفي غضون ذلك احتجّت الحكومة السورية لدى الدول المتحالفة على تصرفات الجنرال غورو المجحفة بحقوق البلاد وجاء وزير الحربية الى المؤتمر السوري وقال باسم الوزارة ما خلاصته: اننا لا نروم غير السلم والمحافظة على شرقنا واستقلالنا ولا نرفض المفاوضات بل نقبلها عن طيب خاطر وها أن جلالة الملك قد أزمع على السفر الى أوروبا لانهاء هذه القضية، ونحن نقبل بكل حلّ لا يمس استقلالنا وكرامتنا.

ثم طيّرت البرقيات بهذا المعنى الى الجنرال غورو والى الدول العظمى، فجاء الى دمشق القمندان (ماندر) من قبل الجنرال غورو يحمل الى جلالة الملك انذارا خطيا يؤكد مواد الانذار الأول ويبسط الأسباب الموجبة له على الوجه الآتي:

سادت السكينة في سورية إبان الاحتلال الانكليزي ولم يعكّر صفو الأمن الاّ عُندما حلت الجنود الافرنسية محل الجنود الانكليزية، حيث اخذت الاضطرابات تزداد وتتفاقم من يوم الى آخر.

ان سموكم[٢] كان قد بيّن لفرنسا أن لسورية مصلحة عظيمة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبرى وطلب هذه المساعدة من فرنسا وحدها.

وبعد أن سرد الانذار وأعمال الوصايات قال - ان سياسة حكومة دمشق العدائية نحو فرنسا لم تقف عند حدّ رفض المساعدة الافرنسية فقط بل تعدّتها الى الاعتراض على المجلس الاعلى الذي منح فرنسا حق الانتداب على سورية.

وانـه لا يمكن بعـد الآن قبـول تعهد حكومة جاهرت فرنسا بالعداء، ولذلك ترى فرنسا نفسها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة سكان البلاد التي نالت من مؤتمر السلم مهمة الانتداب عليها.

ثم ختم الانذار قوله بأن هذه الشروط يجب ان تقبل جملة في خلال اربعة أيام وقبل انتهائها يجب أن تصدر الأوامر الى المراجع اللازمة بعدم معارضة الجنود الافرنسية الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة لها.

وان سموّ الأمير اذا لم ينبىء بقبول هذه الشروط قبل فوات الوقت المعيّن فالحكومة الافرنسية تكون مطلقة اليد في أعمالها ولا تكون تبعتها على فرنسا التي برهنت على تساهلها زمنا طويل.

- انتهى الانذار-

على أثر هذا الإنذار عقد المؤتمر السوري اجتماعا في حضرة الملك بحث فيه الموقف وخطورته، وكانت الأكثرية تقول برفض الإنذار ورده، وقد أرسلت الوزارة السورية معتمدين من قبلها الى بيروت لمفاوضة الجنرال غورو بتعديل هذه الشروط، فأصدر المؤتمر السوري بياناً أذاعه على الأمة ذكر فيه ما يلي:-

إنـه لا يحق لأي حكـومـة كانت أن تقبل باسم الأمة السورية اي شرط من الشروط التي تخالف قرار المؤتمر التاريخي[٣] وان الحكومة الحاضرة اذا لم تقم بواجبها نحو البلاد وارادت ان توقّع على صك يخالف قرار المؤتمر التاريخي فالمؤتمر يعتبرها بتوقيعها غير شرعية والصك غير صحيح، ويحمّل اشخاص الوزارة كل تبعته ومسؤوليته تجاه الوطن ويعتبر البلاد مستقلة استقلالا تاما كما جاء في قرار المؤتمر التاريخي، وان كل مداخلة اجنبية في البلاد هي غير مشروعة، سواء وقعت بالقوة أو بموافقة أشخاص لا نيابة لهم عن الأمة تخوّلهم هذا الحق. ويحق للأمة السورية ان ترفضها في كل وقت وهو يشهّد العالم المتمدن على بيانه هذا فيذيعه على الأمة ويرفعه الى معتمدي الدولة. (انتهى)

على أثر هذا القرار استقالت الوزارة، فلم يقبل الملك استقالتها، وحلّ المؤتمر السوري بأمر أصدره من لدنه ولبثت الوزارة تنتظر عودة معتمديها من بيروت لترى رأيها الأخير. عاد معتمدو الوزارة من لدن الجنرال غورو حاملين الشروط الآتية إضافة على شروط الإنذار السابقين - الشفاهي والخطي - واشترط الجنرال غورو قبول هذه الشروط أيضا مع الشروط التي سبقتها بتمامها وهي هذه:-

أ- ان تنشر حكومة دمشق منشورا كتب الافرنسيون مسودته وبيّنوا فيه السبب الذي حملهم على إصدار الاوامر للجند بالزحف على دمشق [٤] والسبب الذي توقف الزحف من اجله [٥].
ب - ان توافق الحكومة السورية على إبقاء الجنود الافرنسية حتى نهاية الخط الذي بلغته وقتئذ.
جـ - أن تسلم السكة الحديدية من رياق الى التكية ايضا وتبقيها في أيدي الافرنسيين.
د - أن تسحب جميع الفصائل السورية الى شرقي هذا الخط وتجعل الدرك السوري فيه تحت نظر الافرنسيين.
هـ - أن تمتنع عن إرسال المساعدات إلى العصابات التي تعمل في المنطقة الافرنسية.
و- أن تنزع السلاح من أهل الشام ومن الجنود المسرّحين.
ز- ان تقبل بعثة افرنسية في دمشق تشرف على كيفية تنفيذ شروط الانتداب وترسم خطته للمباشرة بتطبيق الانتداب الافرنسي على سورية.

(انتهى)

هذه هي الشروط الأخيرة، وكان من أمرها ما نذكره بعد هذا الباب.

فضّ الجيش

تذاكر الوزراء وبعض رجال الجيش في حضرة الملك بمطالب الجنرال غورو، ودار حولها حوار شديد بينهم وبين وزير الحربية الذي كان يرى في جيشه المتحمس الكفاءة للدفاع المقصود، وأبان لهم أنه إذا سرّح الجيش لا يعود في الإمكان جمعه ثانية.

ولكن الملك والوزراء أظهروا رغبتهم في المسالمة دفعاً لخطر الاستيلاء [٦] وقرروا قبول مطالب الجنرال غورو برمتها، فخالفهم بذلك وزير الحربية ورفض الاشتراك بتوقيع هذا القرار وانسحب من المجلس، فدعوه الى حضرة الملك واضطرّوه الى التوقيع معهم مكرهاً. وفي الحال صدرت ارادة الملك بفض الجيش وتسريحه وتوقيف الاستحضارات التي كانت قائمة على قدم وساق، وكتب الملك برقية الى الجنرال غورو يخبره بقبول مطاليبه.

وعندما بوشر بتنفيذ هذا القرار هاج المتحمسون من الجيش والأهلين واتهموا وزير الحربية بالجبن والخيانة، وتعرّضوا لسيارته في شارع السنجقدار والقوا عليها المدمرات، وحاولوا دخول القلعة وأخذ السلاح، فمنعهم الأمير زيد بالرشاشات التي استحضرها من الثكنة واستعملها ضدهم.

أما البرقية التي ارسلها الملك الى الجنرال غورو بقبول مطاليبه فانها (على ما قيل) لم تصله في خلال الأجل المضروب لانقطاع الأسلاك البرقية في تلك الآونة ولذلك أمر الجنرال غورو حملته بالتقدم نحو الشام، مع الجنرال غوابيه ولما بلغت طلائعها روابي قرية (مجدل عنجر) المشرفة على سهل البقاع، وكان فيها فوجان سوريان قد أنشئا الأخاديد والاستحكامات واتخذا ما يلزم من الاحتياطات، للدفاع وصدّ كل هجوم يقع عليهما ثم تلقيا أمر الملك بالانسحاب واضطرا لترك مواقعهما المستحكمة والتخلي عنها. وكانا على أهبة الرحيل ففاجأهما الجيش الافرنسي وأسرهما، قباطاً وافتروا عن بكرة أبيهم دون أن يطلقوا رصاصة واحدة.

كارثة ميسلون

أجاب الجنرال غورو على برقية الملك المنبئة بقبوله مطالبه بأنها وصلته بعد فوات الوقت وأن الحملة زحفت ولم يعد في الإمكان رجوعها عن عزمها لعدم وجود الماء الكافي في الطريق، وتعذر استمارة الجنود عند إيابهم من القرى الحقيرة الواقعة على جانبي الطريق [٧] وهذا الجواب جعل الملك والوزراء تجاه أمرين فإمّا القبول بدخول الجيش الافرنسي العاصمة وإمّا الدفاع عنها وتذاكروا ثانية في حضرة الملك وعادوا فرجحوا فكرة الدفاع بعد ثلاثة أيام من فض الجيش وتسريحه وإخلاء الكتائب من معظم جنودها [٨] ورفضوا مطاليب الجنرال غورو بأجمعها مؤملين سدّ الفراغ الذي أحدثه التسريح بما تعهّد به زعماء البلاد من الوف المتطوعين [٩].

أما وزير الحربية الذي اعترض قبلا على تسريح الجيش فقد اعترض الآن على هذا التقرير أيضا لأن ضيق الوقت لا يسمح بجبر النواقص التي أحدثها القرار الأول، وقال انه يستحيل جمع الجنود من متطوعة وغيرها في

خلال هذه المدة والعدو على الأبواب، غير أن تعهد الزعماء والرؤساء بجلب الوف المتطوعين في غضون هذه المدة جعل الملك ووزراءه يعتقدون بامكان ذلك ويضغطون على وزير الحربية بدعوى ان الوقت وقت حميّة ينبغي لها التضحية والمفاداة، فاضطر لمجاراتهم على أن يفادي بنفسه، وهكذا كان.

أما جلالة الملك الذي قبل بادىء ذي بدء بالوصاية، ثم عدل الى المقاومة، ثم عاد الى المسالمة، فقد ظهر الآن بمظهر المجاهد المفادي، وذهب بنفسه الى الجامع الأموي، وخطب في الناس حاثًا على الجهاد، وقال: ها انني ذاهب أمامكم فاذا قضيت نحبي يمكنكم أن تجدوا من يقوم مقامي أما الوطن فانه اذا دخل تحت نير الاستيلاء لا تستطيعون انقاذه ولا بشقّ الأنفس.

انتشرت كلمة التطوّع في جميع البلاد السورية وظهر الحماس وأخذ القوم يطوفون الأسواق والشوارع مدججين بالسلاح والذخائر ينشدون أهازيج ويتهوسون للطعن والضرب [10] بينما قادتهم كانوا يضلونهم السبيل بدلا من أن يأخذوهم الى الثكنة أو يرسلوهم الى مقر الجيش في ميسلون كانوا يقتصرون على الطواف والمظاهرة في الأسواق فقط، وبعد أن يتجاوزوا شارع النصر يعيدونهم من حيث أتوا بحجة وداع اهلهم وذويهم.

ذهب وزير الحربية الى صحراء ميسلون المشرفة على وادي القرن وأخذ يعدّ المعدّات وينتظر ما وعد به من النجدات، وثابر على عمله بثبات وعزم ورباطة جأش الى ان أزفت الساعة. ولم تكن القوة الموجودة لديه تبلغ الألفي رجل، ولم يصل اليه من النجدات التي وعد بها سوى نحو ثلاثمائة فارس من حي الميدان وبضعة رجال من متطوعة دمشق، بينهم الشهيدان المحترمان الشيخ عبد القادر كيوان والشيخ كمال الخطيب اللذان وقعا في أيدي الافرنسيين وأكرهوهما على حفر قبريهما بأيديهما وأنزلوهما فيهما وهما حيان ثم أطلقوا عليهما النار وقتلوهما رحمهما الله.

وقبل أن تقع الواقعة أرسل جلالة الملك مرافقه قائم المقام جميل الالشي [11] (ومن التصادف ان الالشي معناها الرسول) الى ميسلون ليستطلع أحوال الجيش ويرى ما يحتاجه من المساعدة وأمره فيما اذا اقتضى الأمر أن يذهب الى الجنرال غوابه قائد الحملة الافرنسية القادمة ويطلب منه الهدنة مقدمة للصلح.

جاء الألشي الى ميسلون، واجتمع مع وزير الحربية، وعلم أن الجيش قد فرّ معظمه وأصبح ضعيفا يحتاج الى المدد فعزم الألشي حسب امر الملك الى الذهاب الى الجنرال غوابيه والتشبث لديه بهدنة ثلاثة أيام على الأقل واخذ معه الرئيس يسين الجابي مرافق الوزير وقصدا معا مخيم الجنرال واختلى به الألشي دون الجابي ـ الذي رفض الجنرال قبوله ـ وخان الرسول أمانته واخبر الجنرال غوابيه ان دعاية الكولونيل كوس بدمشق قد نجحت وأصبحت أكثرية السكان قائلة بدخول الجيش الافرنسي الى مدينتهم بدون معارضة ولا مقاومة، وانه لم يبق من تأثير يغزهم تجاه اجماعهم، وأبان له مواطن الضعف من الجيش العربي وأكد له انه أصبح لا يتجاوز الأربعمائة جندي جلّهم من المتطوعين الأغراب الذين لم يتم تسريحهم قبلا كما تبجّح بخلاصة هذا الحديث ذلك الرسول نفسه في حفلة وداع الجنرال غوابيه في نزل (خوام) ونشرته الصحف المحلية في حينه.

سرّ الجنرال لهذه الأخبار والافشاءات، وقال للرسول: «فاذن غداً مساء في دمشق»، فكرر الرسول هذه العبارة جهارا، وبعدما وعده الجنرال بأن يحفظ له هذه الخدمة أعاده الى المدينة ليتمم عمله، وكان من أمره ما نراه فيما يلي:

كان قائم مقام الزبداني كتب الى جلالة الملك مخبرا أن ألفا وخمسمئة متطوّع بقيادة ملحم قاسم يضاف اليهم عدد كبير من متطوعة الزبداني على اهبة الزحف الى ميسلون للالتحاق بالجيش وبناء على هذا الخبر الرسمي ارسل الوزير قسما من جنوده ليعضدوا هؤلاء المتطوعين ويقوموا معهم بوظيفة الدفاع والكفاح. ولما وصل الجند الى الزبداني لم يجد أحدا من المتطوعة، ولدى السؤال أجاب القائم مقام بأن رجال ملحم قاسم لم تصل بعد، وأن متطوعة الزبداني غادروها الى الجرود خوفا على قريتهم من أن يحتلها الافرنسيون فيما اذا اشتركوا في الحرب.

وفي اليوم التالي وهو يوم ٢٤ تموز المشؤوم تبادل الفريقان المدافع فعطلت المدفعية العربية دبابة إفرنسية وأصابت إحدى الطائرات فاردتها ثم أخذ جنود السنغال الافرنسيون يحملون على ميسرة الجيش العربي

المؤلف معظمها من المتطوعين، وسقطت اذ ذاك قذيفة من إحدى الطائرات على المتطوعة وأولدت فيهم الذعر والهياج فراحوا يفرّون بأسلحتهم وتذرع فرسان محلة الميدان بذعر خيولهم الأصيلة وحاذروا عليها من الهلاك فولّوا بها مدبرين.

وعند ذلك تقدم رجل درزي من المتطوّعة مع بعض الفرسان وعرض على قائد الميسرة خدمته، وما إن تقدمت الميسرة نحو العدوّ الّا ووثب عليها ذلك اللئيم من خلفها وجعلها بين نارين وقتل منها عددا ونهب سلاحها وعتادها.

وحضر حسين الشماط رئيس عصابة سرغاية الى الزبداني وطلب من قائد الميمنة أن يسلّمه المدافع والرشاشات ليحفظها له فدفعه القائد بالتي هي أحسن.

لم يبال يوسف بهذه النوائب التي أخذ بعضها برقاب بعض، بل لبث يحاول القيام بعمله وكان من جملة ما اتخذه من التدابير أن بثّ ألغاماً على عقبة الطين الواقعة على رأس وادي القرن، وهو الممّر الوحيد للجيش القادم أملا بأنه عندما تقترب الدبابات تنفجر الألغام وتقلبها على بعضها، فتحدث ارتباكا في العدو ترجى الاستفادة منه، وانما عصابة هاشم القباني البيروتي (التي ذكرناها في باب المؤثرات) سبقت وقطعت أسلاك الألغام أيضا، فلما اقتربت الدبابات أمر الوزير باشعال الألغام، فصوّبوا عليها الآلة والماكنة، فلم تؤثّر فيها، واضطّر لأن يتقدّم ويفحصها بنفسه، فوجد الأسلاك مقطوعة والآلة معطلة، ثم سمع ضجّة من الوراء، والتفت فرأى ان السواد الأعظم من البقية التي كانت باقية من الجيش والمتطوعين قد ولت الأدبار لا تلوي على شيء، على أثر سقوط قنبلة من احدى الطائرات، والأصح بتأثير ما ملأ أسماعهم من الدعايات والتهويلات، وعند ذلك أصابته قذيفة من احدى الدبابات فأردته صريعا يوم الأربعاء في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ للهجرة، الموافق ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ للميلاد، تغمّده الله برحمته.

وعلى أثر سقوط القائد أخذت فلول الحملة تتراجع نحو دمشق فاعترضها في الطريق نوّاف الشعلان بمن معه من الخيالة وسلب سلاح المتراجعين وعتادهم.

وقد سطا بعض أشقياء الأكراد على اصطبل الثكنة ونهبوا ما وجدوه فيها من خيول الجيش.

هذا ما كان في ميسلون، أما في غيرها فانّ القوة التي كانت مرابطة في حمص زحفت نحو الغرب للقاء الخصم مع الزعيم زكي بك العظمة شقيق الوزير المشار اليه، وما بلغت جسر الميماس الذي يبعد زهاء نصف ساعة عن مدينة حمص الّا وقد فر معظم جنودها ولم يبق منها سوى الضباط وقليل من الجنود، أما الباقون فقد ارتكبوا عار الفرار واضطّروا قائدهم الى تسليم نفسه الى كتيبة جزائرية كانت أقل منه عددا وعُددا. وقد جرى ما يقارب ذلك في فرقة حلب أيضا.

تلك هي نتيجة الحكم الفيصلي الذي انتهى بهذه المأساة المؤلمة وأدخل البلاد تحت نير الاستعباد، والأمر لله وحده.

الاحتلال الافرنسي

في اليوم الثاني من واقعة ميسلون وهو يوم ٢٥ تموز سنة ١٩٣٠ دخلت فرقة من الجيش الافرنسي السنغالي التي يقودها الجنرال غوابيه الى مدينة دمشق واحتلتها بدون حرب ولا مقاومة ودخل معها أحد الوجهاء الذي كان متصلاِ بجلالة الملك ثم فارقه عند النفس الأخير واتصل بالافرنسيين ودوام السير على عجلته التي كانت تجري وراء عجلة الجنرال حتى بلغ دار البعثة على طريق الصالحية وبعد أن اختلى بالجنرال ذهب الى داره مطمئنا.

قبل الاحتلال انسحب الملك ووزراؤه الى قرية الكسوة في جنوب دمشق ولما تمّ الاحتلال عادوا الى المدينة أمل التفاهم مع الافرنسيين، ولكن الافرنسيين كانوا منذ بدء المسألة مصرّين على رفض فيصل رفضا باتا فلما عاد أعدوا قطارا خاصا من قطر السكة الحديدية الحجازية لينقله الى خارج سورية وابلغوه بواسطة الكولونيل

مرآة الشام

(تولا) رئيس البعثة الافرنسية بأن يغادر الشام مسرعا مع عائلته وبطانته فصدع حالا بالأمر وقبل رحيله قلّد مستشاره علاء الدين الدروبي رئاسة الوزارة لتقوم مقام الوزارة الأتاسية المستقيلة، وأعطاه تقليداً جعل فيه محل الأسماء فارغا وفوّضه بأن يملأه بأسماء من يختارهم هو للوزارات، وغبّ رحيل الملك انتقى السيد الدروبي زملاءه من أصدقاء فرنسا على الوجه الآتي:

السيد علاء الدين الدروبي	رئيس الوزراء ووزير الخارجية
السيد عطا الله الأيوبي	وزير الداخلية
السيد جميل الألشي	وزير الحربية
السيد عبد الرحمن اليوسف	رئيس مجلس الشورى
السيد بديع المؤيد	وزير المعارف
السيد جلال زهدي	وزير العدلية
السيد فارس الخوري	وزير المالية
السيد يوسف الحكيم	وزير النافعة.

الغرامة

عقيب الاحتلال فرض الجنرال غورو على مدينة دمشق الغرامات الآتية:

١ـ عشرة ملايين (١٠,٠٠٠,٠٠٠) فرنك غرامة حربية.

٢ـ فض الجيش ونزع سلاحه وعتاده وتسليمها الى الافرنسيين كغرامة حربية.

٣ـ تسليم كبار المشاغبين ليحاكموا أمام المحاكم العسكرية.

٤ـ إنهاء حكم الأمير فيصل.

٥ـ نزع سلاح الأهلين وتسليم عشرة آلاف بندقية الى الجيش الافرنسي.

امتثلت الوزارة الدروبية لهذه الأوامر وتعهدت بتنفيذها، وأدّت الغرامة بتمامها وسرّحت الجيش وسلمت سلاحه ونقلت جميع معداته الى المقر الفرنسي، وقد فرض الافرنسيون ما يقارب ذلك مال وسلاح على حمص وحماه وحلب والمدن السورية الداخلية، فأدت هذه البلاد أيضا ما أصابها من الغرامة، وسلمت مقادير وافرة من السلاح.

حكم الاعدام

أخذت البعثة الافرنسية تسيطر على أعمال الحكومة كلها، جليلها وحقيرها، وقبل كل شيء رامت الخلاص من المعارضين والمعارضة فرجعت الى تقارير جواسيسها، واستخلصت منها أسماء مائة وخمسين رجلا من دعاة الاستقلال وألّفت مجلساً عسكرياً (ديوان حرب) من ضباطها وحدهم وأعطته تلك الأسماء فتلاها في جلسة واحدة ودون سؤال ولا جواب عدّ أقوال الجواسيس كافية للحكم فحكم في الحال باعدامهم جميعا، وهذه أسماؤهم مرتبة على حروف الهجاء:

إحسان الجابري	رئيس ديوان الملك
الدكتور أحمد قدري	طبيب الملك وعضو المؤتمر السوري
أحمد مريود	عضو المؤتمر السوري
ادهم خنجر	من دعاة الاستقلال
أسعد الابراهيم	زعيم عامل من دعاة الاستقلال

أسعد الفياق	كذا
الأمير بهجت الشهابي	مدير شرطة دمشق
توفيق مفرج	عضو المؤتمر السوري
حسن الابراهيم	زعيم عامل
حسين رمضان	من دعاة الاستقلال
خالد الحكيم	عضو المؤتمر السوري
خالد الرستم	زعيم دندش
خليل ظاظا	ضابط في الجيش العربي
رشيد طليع	والي حلب
رباح الأحمد	زعيم دندش
رفيق التميمي	عضو المؤتمر السوري
رياض فرحات	زعيم عامل
رياض الصلح	من دعاة الاستقلال
سامي السراج	صاحب جريدة العرب في حلب
سعيد تامر	زعيم عامل
سعيد حيدر	عضو المؤتمر السوري
سليم عبد الرحمن	كذا
شكري الطباع	من دعاة الاستقلال
شكري القوتلي	كذا
صادق حمزه	كذا
صبحي بركات	رئيس عصابة
صبحي الخضراء	ضابط في الجيش
طراف حيدر	زعيم بقاعي
طرفه شراره	زعيم عامل
الأمير عادل أرسلان	مستشار الملك
عبد المحسن سرور	زعيم عامل
عبد الله عز الدين	كذا
عبد الله الكيخ	زعيم دندش
عبد الحميد بزعي	زعيم عامل
عبد القادر سكر	من دعاة الاستقلال
عثمان قاسم	صحافي
علي حرب	زعيم عامل
علي خلقي	ضابط في الجيش
عمر البهلوان	من دعاة الاستقلال
عوني عبد الهادي	أمين الخارجية
فؤاد سليم	ضابط ورئيس عصابة
محمد تامر	زعيم عامل
محمد علي التميمي	مدير شرطة دمشق سابقا
محمود أحمد بزعر	زعيم عامل

الأمير محمود الفاعور	أمير عشيرة الفضل
محمود فرج	زعيم عامل
محمود قاسم	كذا
مصطفى العبد الله	كذا
منح هرون	عضو المؤتمر السوري
منيب الناطور	صاحب جريدة الراية في حلب
موسى بوزفلي	زعيم عامل
نبيه العظمه	مدير شرطة حلب
نمر بليوز	زعيم عامل
الحاج يسين دياب	تاجر دمشقي

هؤلاء هم الذين حكم عليهم الافرنسيون بالاعدام ولكن الحكم لم ينفذ ولا بواحد منهم لأنهم تواروا جميعا عن الأنظار، وتشردّوا تحت كل كوكب، وهذا ما كان يرجوه الافرنسيون، فتمّ لهم ما أرادوا.

واقعة حوران

لما بلغ الملك فيصل أرض حوران أقام في درعا يوما أو بعض يوم قيل إنه كان في خلالها يبث في الناس فكرة القيام ضد الافرنسيين، فأوعزت السلطة الافرنسية الى علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة السورية بأن ينذره بالرحيل عن درعا مسرعا والاّ فالطيارات الافرنسية ستضربه بقنابلها. وقد بلّغه رئيس الوزارة أمر السلطة على لسان البرق فخف الى الرحيل وذهب مسرعاً الى حيفا.

على أثر رحيل الملك أخذ الحورانيون يتهمون أهل الشام بالخيانة وخفّ الزمام وازداد الهياج فيما بينهم، فرأى السيد الدروبي أن يذهب بنفسه الى حوران لنصح الأهلين وكفهم عن مثل هذه المشاغبات، فذهب وأخذ معه إثنين من زملائه الوزراء وهما عبد الرحمن بك اليوسف وعطا بك الايوبي. وعند وصول القطار الذي اقلّهم الى محطة خربة الغزالة قام أهل القرية وأوقفوا القطار وأنزلوا منه الوزراء قسراً وقتلوا الدروبي واليوسف مع لفيف من الركاب ظناً بأنهم من حاشية الوزراء وذلك يوم ٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ و ٢٠ آب سنة ١٩٢٠ وساعد الأجل عطا بك الأيوبي الذي لجأ الى رجل حوراني يعرفه من قبل، فأنقذه هذا من قتل محقق.

وعقيب ذلك عهد الجنرال غورو المفوض السامي الافرنسي في سورية الى قائم المقام جميل بك الألشي برئاسة الوزارة السورية جزاء خدماته القيّمة، وجعل السيد حقي العظم[١٢] رئيساً لمجلس الشورى ولبث سائر اعضاء الوزارة الدروبية في مراكزهم.

التجزئة

عمد الافرنسيون الى إضعاف الشام وإفقارها كيلا تستطيع القيام في وجههم مرة أخرى، فاخذ الجنرال غورو قائدهم ومفوضهم يستند الى قوته التي اجتاز بها ميسلون ولم تجد من يعارضها ويقاومها، ويقوم بأعمال التفرقة وتقطيع أوصال البلاد، فيجزؤها تجزئة تحول دون اتصالها بشقيقاتها المدن السورية الأخرى، وتؤخّر تجارتها وعمرانها، وتبيد ثروتها، وتمنعها من التقدم والرقي، فأعلن أولا انفصال جبل لبنان عن سورية، وجعله حكومة لوحدها اعتبارا من أول أيلول سنة ١٩٢٠. وأضاف الى لبنان لوائي بيروت وطرابلس، وقضائي وادي التيم وهما حاصبيا، وراشيّا، ثم قضائي بعلبك والبقاع من لواء الشام، وبذلك جعل لبنان كبيرا.

ثم أخذ من لواء حماه قضاء العمرانية (جبل الكلبة)، ومن لواء طرابلس قضاء صافيتا، وأضافهما الى لواء اللاذقية وجعلهما دولة ثالثة دعاها دولة العلويين (النصيرية)، ثم فصل حلب عن دمشق وجعلها مع لواء دير الزور دولة رابعة.

كما أنه جعل من جبل دروز حوران دولة خاصة.
وسلخ لواء الاسكندرون مع قضائي بيلان وانطاكية عن ولاية حلب وجعل منها لواء ممتازا يستعمل التركية في معاملاته ومخابراته.
وفي ايام الجنرال غورو فصلت أقضية عجلون والسلط ولواء الكرك وناحية الرقاء عن سورية لوقوعها في المنطقة السمراء التي رسمها الحلفاء على المصور الملحق بمعاهدة سايكس ـ بيكو وجعلت حكومة وحدها خاضعة للحكم الانكليزي، ودعيت إمارة شرق الأردن أو الشرق العربي فاتخذت قصبة عمان [١٣] مركزا لها. ورضي جلالة الشريف حسين بجعل ثاني انجاله الشريف عبد الله اميرا على هذه الامارة آملا توحيدها بعدئذ مع القدس وجعلهما مملكة واحدة يكون هو مليكها. كل ذلك جرى وتمّ دون استفتاء الأهلين واستطلاع آرائهم كما نصّ على ذلك عهد جمعية الأمم، بل كان مجرد قرار تلو قرار أصدره المفوضون السامون في سورية الشمالية والجنوبية (الشام وفلسطين) وفقا لاتفاقية (سايكس بيكو) المتضمنة تقسيم البلاد بين الدولتين فقط.
على أن تعدد الدويلات والحكومات وابلاغها الى الثمانية في هذه البقعة الصغيرة التي كانت فيما مضى ولاية عثمانية واحدة يديرها والٍ فرد [١٤] لا يقصد منه سوى التفرقة التي تؤدّي حتما الى الخلاف فتقوم عندئذ الدولة المنتدبة بوظيفة الحكم بين المتخالفين في الاختلافات التي لا يبعد أن تكون هي التي أثارتها واوقعتها لتؤمّن بذلك بقاءها في هذه البلاد الى ما شاء الله. وكذلك خالف الجنرال غورو نص المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم وأنشأ على جبل المزة بدمشق قلعة دعيت باسمه، وهي تشرف على المدينة وضواحيها، فتمّ له ما أراد حيث احرقت بقنابلها (التي ادّعى الجنرال سارى في لجنة الأمور الخارجية بمجلس النواب الافرنسي انها كانت طائشة) ودمرت القسم المهم من مدينة دمشق أيام الثورة وجعلت أطلالها شاهدة على أعماله الى الأبد.

المستقبل

قال الجنرال غورو المفوض السامي الافرنسي في سورية في خطاب ألقاه في بيروت سنة ١٩٢٠ ما تعريبه:
«انني سليل الصليبيين الذين دوّخوا هذه البلاد في غابر الزمن، وقد أتيت الى هنا لاتمم ما تركه أولئك الأبطال».
اننا نشكر حضرة الجنرال على صراحته المفصحة عمّا يكنّه ضميره وتنويه حكومته عن المضيّ على سياسة الصليبيين، وما سياسة الصليبيين الا احتلال البلاد والقضاء على اهلها قتلاً وتشريداً، كما ذكره لنا التاريخ عن حملاتهم العشر التي أثاروها في الأندلس وصقلية وغيرها.
وطالما قال قائلهم إن تلك الأعمال البربرية مضت مع القرون الغابرة، وقضى عليها عصر النور الذي ابتدأ منذ الثورة الافرنسية الكبرى في مستهل القرن التاسع عشر للميلاد، حيث أصبحت الحرية والمساواة والاخاء هي الشعار الوحيد لكل البشر الذي رأى من الحكمة وأصالة الرأي خدمة الانسانية عامة دون أن تنظر الى دين أو مذهب.
فهل تمّ ذلك يا ترى؟
نحن لا ننكر حصول فكرة التعاون بين بعض الأفراد في كثير من المواطن والمواقف، ولكن الطبيعة البشرية المبنية على أساس حب الإثرة والجشع ما زالت تسود المجتمعات عامة، وخصوصا في بلاد الغرب الذي لم يتح له الانتباه مما أراق معه كثيرا من الدماء بسبب اختلاف الأديان والمذاهب في القرون الخالية ولبث يناصر الصليب على طول الخط، مخالفاً بذلك الأصول والنظريات التي أعدتها مجامعه وأعلنتها محافله.
فقد رأينا بعد تلك الأماني الذهبية أن الانكليز والافرنسيين يضغطون على المسلمين الأتراك والمصريين في الموره ويحرقون أسطولهم في مرفأ (ناورين) لمصلحة الثوار الأروام ويكرهونهم على الجلاء عن بلاد أخضعوها بسيوفهم سنة ١٢٤٤هـ ١٨٢٨م. ثم يقوم الامبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسا الذي كاد وفاخر بكونه نصير الانسانية وامبراطور فرنسا ويخطب في جنود الحملة التي أعدها لسورية سنة ١٢٧٧هـ ١٨٦١م قائلا:
«انتم أبناء أولئك الأبطال الذين حملوا علم المسيح في تلك الأديار بعز وشرف».

ثم يقوم الامبراطور نيقولا الثاني قيصر روسيا عندما تضعضع جيشه أمام جيش عثمان باشا الغازي بطل (بلونه) في حرب ١٢٩٣هـ ١٨٧٦م. ويستعين بالأمير (شارل كارول) أمير رومانية باسم الدين لانقاذ المسيحية من الاسلام.

ثم يُنادي اللورد ساليسبوري رئيس وزراء انكلترا في مجلس العموم البريطاني عن غلبة العثمانيين على اليونان سنة ١٣١٤هـ ١٨٩٨ ويقول: «ان البلاد التي دخلت راية الصليب لا يمكن أن يعود اليها الهلال» ويتبعه الامبراطور اسكندر الثالث قيصر الروس ويضغط على السلطان عبد الحميد ملك الدولة العثمانية ويضطّره الى عقد الصلح مع اليونان بعد أن كانت جنوده قد استولت عليها وكادت تستأصلها.

ثم يقول الجنرال اللنبي قائد الجيش الانكليزي الشرقيّ في الحرب العالمية حينما احتل مدينة القدس: «ان الحروب الصليبية تنتهي اليوم باسترداد الجنود الانكليزية للمدينة المقدسة»، فتكافؤه حكومته برتبة الماريشالية ولقب اللوردية.

ثم يجيء الجنرال غورو المفوّض الافرنسي في سورية ويقتطع البلاد التي يقطنها المسلمون ويضيفها قوة واقتدارا الى المقاطعات المسيحية ويفاخر بكونه من سلالة الصليبيين وانه جاء الى هذه البلاد للمضيّ على آثارهم.

ثم يقول الكونت دي مارتيل المفوّض السامي الافرنسي في سورية الى المستر «جوزيف ليفي» مراسل جريدة نيويورك تيمس الأميركية في يوم السبت ٢٢ شباط ١٩٣٦ «ان مهمة فرنسا في الشرق هي المحافظة على العناصر المسيحية»، ثم يجيء المفوض السامي الافرنسي الجنرال (دانتز) ويخاطب السوريين واللبنانيين بالراديو في ٣٠كانون الأول سنة ١٩٤٠ ويقول خلال خطابه ان مهمة فرنسا في سورية هي المحافظة على الأقليات.

فهل هذه الأقوال والأفعال تتفق في شيء مع تلك المبادىء النبيلة؟

ثم هل يتـأتى في أن تكون تلك الأقوال التي صدرت من أفواه رجال رسميين هي معتقدهم الخاص، وأن حكوماتهم على خلاف تلك الفكرة؟

لو كان الأمر كذلك لبادرت الحكومة الافرنسية الى تصحيح أغلاط مفوّضيها وأرجعتهم الى جادة الصواب على الأقل.

أليست هذه التجـزئة، ثم جلب الأرمن والشراكسة واليهود والآثوريين والسريان وغيرهم من شذاذ الآفاق وإسكـانهم في مختلف انحاء بلادنا هو مقدمات لتلك السياسة التي توالي الحكومات الافرنسية اتباعها على اختلاف أحزابها، وفي مختلف أوقاتها. واذا نظرنا الى أن جمعية الأمم هي التي تسهّل وتساعد هجرة الأرمن والنسـاطرة الذين أجـلاهم الأتراك والعراقيون عن بلادهم، وتنقلهم على نفقتها الى بلادنا، وأن الافرنسيين المنتدبين على سورية يبذلون كل مساعدة لهجرة أبناء سورية الى تركيا على نفقتهم، ويستجلبون الأغراب من أقاصي البلاد ويقيمونهم بين ظهرانينا... الا نستدل من ذلك آن الأمر مدبر ومقرر من قبل، وأننا إن لبثنا على الحـالة الراهنـة فمصيرنا الاشراف على شافة الانقراض والتشرد في زمن أم الحرية والديمقراطية لا في أيام الأتراك، كما كان يقول الدعاة المضللون.

استطراد

حدثني أحد أفاضل تونس قال: احتل الافرنسيون القطر التونسي سنة ١٢٩٧ للهجرة، ولبثوا نحو سنتين يعدلون فينا عدل عمر (كذا) فقد بطشوا بلصوص البلاد وأشقيائها الذين كان رأيهم التسلط على ضعاف الناس وأبـادوهم ووطدوا الأمن توطيدا ادى الى أن أصبح كل امرىء حرّا في أعماله، يجوب البلاد من أقصاها الى أقصاها بماله ومتاعه ولا يلقى معترضا ما، واذا رقد في داره وترك بابها مفتوحا طيلة الليل لا يلتفت اليها أحد.

وغب تصرّم السنتين دعا المقيم العام (وهو عنوان المفوّض الافرنسي عندهم) علماء العاصمة واعيانها الى اجتمـاع خيريّ يعقـد لديـه، فلبى الجميـع دعوته بارتياح، ولما انتظم عقدهم انتصب فيهم خطيبا وقال: إن التونسيين أولاد كرم ومجد وهذه مدينتهم الزاهرة لا يشوب محاسنها سوى بعض الطفيليين الذين يطوفون الشوارع من الصباح الى منتصف الليالي ويزعجون الناس بسؤالهم ويكونون عبئاً ثقيلاً على كاهل السكان

الذين يبذلون لهم أموال الزكاة والصدقات فلا تشبع نهمهم، ولو أديرت هذه الأموال بانتظام لكفتهم ذل السؤال وأراحت الناس من إزعاجهم، ولذلك يرى حضرته أن تؤلف جمعية خيرية تسعى لجمع الفقراء والمعوزين وتختار لهم أعمالا مشروعة يتعاطونها بأنفسهم ويؤمنون معيشتهم بها بعرق جبينهم، ويكفّون عن ازعاج الناس.

لم يسـع الحاضرين سوى تحبيذ هذه الفكرة المستوعبة شفقة على بني الانسان وقبلوا بتأليف الجمعية المقترحة، واكتتبوا لها في نفس الجلسة بنحو ألفي دينار إعانة لهذه الغاية النبيلة. وطلبوا من حضرة المقيم أن يترأس الجمعية بنفسه،فاعتذر لأن أعماله لا تساعده على ذلك، واكتفى بإقامة مندوب من قبله يشرف على الجمعية، ويرشدها في أعمالها.

ولما بلغ محدّثي هذه النقطة، تنفّس الصعداء وقال هذا هو الفصل الأول من هذه الرواية المفجعة فهل تكتفي به أم أقص عليك الفصل الثاني. فسألته الدوام وقال: لم تر تلك الجمعية لأولئك الشحاذين من عمل سوى الفلاحة والزراعة، واخذت تبتاع لهم الأرض التي كانت يومئذ في منتهى الرخص فاشترتها بأبخس الأثمان وملّكت كل شخص من أولئك الفقراء فدانا واحداً من الأرض، وأعطته الأبقار والبزار مجانا، لوجه الله تعالى، وكانت كلما قاربت الانتهاء من إسكان ثلّة منهم يقذف اليها البحر بغيرها من متشردي الجزر والبلاد الأوروبية الذين أخذوا يهرولون الى تونس ويقتطعون أرضها، بدون ثمن بواسطة تلك الجمعية التي دأبت على أعمالها، بهمة لا تعرف الكلل، وهكذا دام الحال الى أن أصبح اليوم (سنة ١٣٢٩هـ) ٧٠٪ من ارض المملكة التونسية ملكا للأغراب وغدا الأهلون صفر الأيدي من تراث آبائهم وأجدادهم، وقد حاول بعضهم استرداد ما فقده، أو قسما منه على الأقل، وهيهات ذلك، لأن الفدّان الذي بيع أولا بخمسين ديناراً مثلا، أصبحت قيمته خمسمائة دينار ولا من يبيع.

وعندها انتبه الناس الى غفلتهم وعلموا بالأشراك التي نصبت لهم، ولكن بعد فوات الأوان.

ذيل

ذكرنا في هذا الكتاب بعض أعمال الافرنسيين في الجزائر، وكيف أنهم يميتون الناس جوعا، فاذا قسنا هذه الامور بما يجري اليوم بين العرب واليهود في فلسطين، وبما تجريه السلطة الافرنسية في سورية من الضغط على الأهلين وارهاقهم بتضعيف رسوم المكس وتزييد الضرائب مما يخنق التجارة ويؤخر الزراعة ويضطر الناس الى الهجرة - يظهر لنا جليا أن الحالة وان اختلفت بالوسائط والمواقع فهي واحدة باعتبار النتائج، وان الدنيا عبر والعافية لمن يعتبر.

وقد روى الجنرال غورو أيضا انه قال ذات يوم لأحد محدّثيه ان أهل سورية يقسمون الى ثلاثة أقسام:

١- قسم الشيوخ المحافظين طبعا على عاداتهم فهؤلاء يقضي عليهم الدهر في مدة وجيزة.
٢- قسم الشبان المتطلعين للرقي والتمدن فهؤلاء نسعى للتفاهم معهم ومن شذّ منهم يذهب في أثر الشيوخ.
٣- أما القسم الثالث وهم الأولاد فانهم يشبّون إفرنسيين ويكونون لنا خير معوان في المستقبل.

ونحن نظن إن حضرة الجنرال قد استعجل في حكمه، وربما كان خيراً له أن يتريث قليلا لأن الدهر أبو العجائب، وقد قال الشاعر العربي:

والليالي من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كلّ عجيب

رجاء

ما زال بعض الكتاب ينعتون الشريف حسيناً بالمنقذ الأعظم. فهل يسمح لنا هؤلاء السادة أن نسالهم ممن انقذنا؟ وفيمن اوقعنا؟ وهل يعتقدون أن الحالة التي أوصلنا اليها الشريف حسين هي أفضل من حالتنا أيام العثمانيين؟ وهل يمكنهم الادعاء بأن الحسين هو أصلح حالاً مما كان عليه أيام إمارته في مكة وله ذلك النفوذ العظيم والحرمة العامة؟

في زمن العثمـانيـين كانت بلادنـا لنا، حقوقنا محفوظة، وطرقنا ومرافقنا مفتوحة، وتجارتنا حرّة، وضرائبنا

ومكوسنا طفيفة، ولا أحد يعترضنا في الغدوّ والرواح يمنة أو يسرة بدون جواز ولا تفتيش ولا مكس ولا شيء سواها. الى غير ذلك مما لم يبق له أثر في هذه الأيام التي أوصلنا اليها جلالة الحسين.

ان الفجائع التي تجري اليوم في فلسطين من قبل الانكليز واليهود لم تكن لتحدث لو بقيت البلاد تحت راية واحدة وحكم واحد.

اتّقوا الله معشر الكتّاب وارجعوا الى ضمائركم، ودعوا هذا البحث العقيم الذي انقضت أيامه وذهبت (موضته) فهو خير لكم وللبلاد.

صك الانتداب

تعريب صكّ الانتداب على سورية ولبنان منقولا ومترجما عن نشرة جمعية الأمم المؤرخة في ٢٠ آب سنة ١٩٢٢:

ـ ان مجلس جمعية الأمم ـ

لما كانت الدول الحلفاء العظمى متفقة على ان سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءا من اجزاء السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعينها الدول المشار اليها الى دولة منتدبة موكول اليها نصح الأهلين ومعاونتهم وارشادهم في إدارتهم وفقا لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسية قررت ان الانتداب على البلاد آنفة الذكر يعطى الى حكومة الجمهورية الافرنسية التي قبلته.

ولما كان نصّ هذا الانتداب المبيّن في المواد المذكورة فيما يأتي قد وافقت عليه الجمهورية الافرنسية وعرض على التصديق في مجلس جمعية الأمم.

ولما كانت حكومة الجمهورية الافرنسية تتعهد باجراء هذا الانتداب باسم جمعية الأمم طبقا لأحكام المواد المذكورة.

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين المار ذكرها (الفقرة الثانية) تقضي بانه إذا كانت درجة السلطة والمراقبة والادارة التي تجريها الدول المنتدبة لم يتفق عليها سابقا بين اعضاء جمعية الأمم، فالمجلس هو الذي ينظم ذلك.

توضع نصوص الانتداب كما يلي موافقا عليها:ـ

المادة الأولى

على الدولة المنتدبة ان تضع في خلال ثلاث سنوات من تاريخ تنفيذ الانتداب نظاما اساسيا لسورية ولبنان.

يجب أن يوضع هذا النظام بالاتفاق مع السلطات المحلية، وأن تؤخذ في وضعه بعين الاعتبار حقوق ومصالح وأماني كل الشعوب القاطنة في البلاد المذكورة وان ينص فيه على الوسائل اللازمة لتسهيل ارتقاء سورية ولبنان ارتقاء مطردا بصفتهما دولتين مستقلتين. والى ان يوضع هذا النظام الأساسي موضع التطبيق يجب أن يسار في إدارة سورية ولبنان على نهج يتفق مع روح صك الانتداب الحالي.

تقوم الدولة المنتدبة بتنشيط الاستقلالات الادارية المحلية بقدر ما تسمح الظروف بذلك.

المادة الثانية

للدولة المنتدبة أن تحتفظ بجيوشها في البلاد الواقعة تحت الانتداب بقصد الدفاع عن هذه البلاد وأن تستعملها لهذا القصد والمحافظة على الأمن وذلك الى أن يوضع النظام الأساسي موضع التنفيذ ويعود الأمن الى نصابه.

ويشترط في ذلك ان لا تؤلف القوى المحلية (ميليس) الاّ من سكان البلاد التي يشملها الانتداب وتكون هذه القوى المحلية فيما بعد تابعة للحكومات المحلية فيما يخرج عن حدود السلطة والمراقبة التي يجب ان تحتفظ بهما عليها الدولة المنتدبة. ولا تستعمل هذه القوى لغير الأغراض المنصوص عليها آنفا الاّ باذن الدولة المنتدبة وليس ثمة ما يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات جيش الدولة المنتدبة المرابط في البلاد.

وللدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل الموانىء والسكك الحديدية وجميع وسائط المناقلات في سورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن والمهمات عليها.

المادة الثالثة

إن ادارة علاقات سورية ولبنان الخارجية وقبول اعتماد قناصل الدول الأجنبية فيها من حقوق الدولة المنتدبة وحدها، كما ان السوريين واللبنانيين المقيمين في خارج سورية ولبنان يكونون تابعين لحماية الدولة المنتدبة السياسية والقنصلية.

المادة الرابعة

ان الدولة المنتدبة تضمن ارض سورية ولبنان من كل فقدان أو استثمار يقع عليها أو على قسم منها ومن وضع اي مراقبة أجنبية عليها.

المادة الخامسة

الامتيازات والحقوق التي كان يتمتع بها الاجانب في زمن الدولة العثمانية وفقا للتقاليد والامتيازات الأجنبية المعلومة ومنها حق القضاء القنصلي والحماية تعتبر غير نافذة ولا معمول بها.

على أن المحاكم القنصلية الأجنبية تظل نافذة الأحكام كما في السابق الى ان يوضع النظام القضائي المنصوص عنه في المادة السادسة من هذا الصك موضع التنفيذ. واذا كانت الدولة التي كان رعاياها يتمتعون في آب ١٩١٤[١٤] بالامتيازات والحقوق المذكورة لم تعدل عن إعادة تلك الامتيازات والحقوق او عن تطبيقها لمدة معينة فالامتيازات والحقوق آنفة الذكر تعود بدون مماطلة بعد انقضاء الانتداب امّا بتمامها او بالتعديل الذي يكون قد تم الاتفاق عليه بين الدول ذات الشأن.

المادة السادسة

تضع الدولة المنتدبة في سورية ولبنان نظاما قضائيا يضمن للوطنيين والاجانب على السواء حقوقهم كاملة ويضمن للشعوب والجماعات المختلفة في سورية ولبنان نظام الأحوال الشخصية والمصالح ذات الصبغة الدينية. وتقوم الدولة المنتدبة على الأخص بمراقبة الأوقاف طبقا للشرائع الدينية وارادة الواقفين.

المادة السابعة

تكون معاهدات استرداد المجرمين النافذة في الوقت الحاضر بين الدول الأجنبية ودولة الانتداب مرعيّة الى حين عقد اتفاقيات استرداد خاصة.

المادة الثامنة

تضمن الدولة المنتدبة لكل انسان حريّة العقيدة بأوسع معانيها، كما تضمن ايضا حريّة القيام بالفروض الدينية على اختلاف أنواعها فيما لا يخالف شروط الانتداب والأمن العام، ولا يكون اختلاف العناصر واللغة والدين سببا في عدم المساواة في معاملة أهل سورية ولبنان، وتنشط الدولة المنتدبة التعليم باللغات الوطنية المستعملة في سورية ولبنان. وتحترم حقوق الطوائف في الاحتفاظ بمدارسها لتهذيب وتعليم ابنائها لغتها الخاصة بشرط أن تتقيد هذه المدارس بالتعليمات التي تضعها الادارة للتعليم العام.

المادة التاسعة

تمتنع الدولة المنتدبة عن التدخل في ادارة مجالس المعابد او في ادارة الفرق الدينية ومعابد الطوائف المختلفة التي تظل حرمتها مضمونة ضمانا مطلقا.

المادة العاشرة

ان المراقبة التي تقوم بها الدولة المنتدبة على البعثات الدينية في سورية ولبنان تكون مقصورة على المحافظة على الأمن العام وحسن الادارة ويكون نشاط هذه البعثات الدينية حراً ولا تكون جنسية اعضاء هذه البعثات سبباً في تقييدهم بشروط خاصة بشرط أن لا تخرج أعمالهم عن دائرة الدين.

وفي استطاعة هذه البعثات الدينية ان تشتغل بأعمال التعليم والاسعاف العام بشرط أن تكون خاضعة في ذلك لاحكام المراقبة التي تضعها الدولة المنتدبة او الدول المشمولة بانتدابها للتعليم والتربية والاسعاف.

المادة الحادية عشرة

من خصائص الدولة المنتدبة ان تمنع في سورية ولبنان كل ما من شانه ان يجعل رعايا احدى الدول الداخلة في جمعية الأمم او الجمعيات والشركات التابعة لها في موقع عدم المساواة مع رعايا الدولة المنتدبة والشركات والجمعيات التابعة لها، أو لأي دولة اخرى غيرها سواء كان ذلك في أمور الضرائب والتجارة والصناعة أو الحرف والمهن الأخرى أو الملاحة والمعاملة المقررة للسفن والطيارات وكذلك تكون المساواة في سورية ولبنان تامة فيما يتعلق بالبضائع الواردة من بلاد إحدى الدول أو الصادرة اليها، ويكون مرور البضائع وانتقالها حرا في البلاد الواقعة تحت الانتداب بشروط عادلة.

وللدولة المنتدبة أن تفرض أو تحمل الحكومات المحلية على فرض كل ما تراه ضروريا من الرسوم والعوائد الجمركية بشرط ان لا يكون ذلك مخالفا للأحكام الآنفة الذكر. وللدولة المنتدبة أو الحكومة العاملة بمشورتها أن تعقد اتفاقات كمركية خاصة مع بلاد متاخمة لها بسبب الجوار.

وللدولة المنتدبة ان تقوم أو تحمل على القيام بما تراه واجباً لانماء الموارد الطبيعية في الأرض المذكورة وان تصون مصالح الشعوب الوطنية على أن لا يكون في عملها هذا ما يناقض الفقرة الأولى من هذه المادة.

ان الامتيازات الخاصة بإنماء هذه الموارد الطبيعية تعطى بدون تمييز بسبب الجنسية بين رعايا الدول الداخلة في جمعية الأمم بشرط ان لا تمس بقاء سلطة الحكومة المحلية التامة ولا يعطى امتياز له صفة احتكار عام.

ولا تعارض هذه الفقرة حق الدولة المنتدبة في ايجاد احتكارات ذات صفة مالية بحتة لمصلحة ارض سورية ولبنان لايجاد الموارد المالية الاكثر انطباقا على الحاجات المحلية لهذه الأرض او في بعض الظروف لترقية الموارد الطبيعية سواء بواسطة الحكومة راساً أو بواسطة هيئة خاضعة لمراقبتها بشرط ان لا ينجم عن ذلك بالذات او بالتبع اي احتكار للموارد الطبيعية يعود بفائدة على الدولة المنتدبة وعلى رعاياها أو في ميزة قنصلية لا تنطبق على المساواة الاقتصادية او التجارية او الصناعية المضمونة فيما سبق ذكره.

المادة الثانية عشرة

على الدولة المنتدبة ان توافق لحساب سورية ولبنان على الاتفاقات الدولية العامة المعقودة او التي ستعقد بمصادقة جمعية الأمم بشأن المواد الآتية:

الرقيق، تجارة المخدرات، تجارة الاسلحة والذخائر، المساواة التجارية، حرية مرور البضائع، حرية الملاحة البحرية والجوية، المواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية والسلكية، حماية الحقوق الفنية والأدبية والصناعية.

المادة الثالثة عشرة

تضمن الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح به الظروف الاجتماعية والدينية وسواها من انضمام سورية ولبنان الى الأنظمة ذات الفائدة العامة التي ستضعها جمعية الأمم للوقاية من الأمراض الوافدة او لمحاربتها وتشمل ذلك أمراض الحيوان والنبات.

المادة الرابعة عشرة

تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ الانتداب قانونا خاصا للآثار والعاديات ينطبق على الأحكام الآتية ويكون هذا القانون خاضعاً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الأثرية.

١- يجب أن يفهم من لفظ العاديات ما ينتج عن عمل البشر أو وضعه قبل سنة ١٧٠٠ للميلاد.
٢- ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون أجدر بالتشجيع منه بالتهديد، ويجب على كل شخص يكتشف اثراً بدون الحصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه فينال مكافأة تتناسب مع قيمة ما اكتشف.
٣- لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشان ما لم تعدل هذه السلطة عن استحواذه، ولا يمكن إخراج شيء من العاديات الا باذن من تلك السلطة.
٤- كل شخص يتلف او يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو إهمالاً يجب ان يجازى جزاء معيناً.
٥- ممنوع كل حفر او تنقيب لايجاد العاديات الا باذن من السلطة ذات الشأن والا غرم المخالف غرامة مالية.
٦- توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية موقتاً أو بصورة موقتة أو دائمية في الأرض التي تحتوي على مواد تاريخية او اثرية.
٧- لا تعطى الرخصة لاجراء الحفريات الا لأشخاص يقدّمون ادلة كافية على خبرتهم الآثارية، وعلى الدولة المنتدبة عند إعطاء هذه الرخص ان لا تستثني علماء أمة ما.
٨- يكون إقتسام محصول التنقيب بين الأشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي، واذا تعذر الاقتسام لأسباب علمية يعطى المكتشف تعويض عادل مقابل نصيبه من محصول التعديل.

المادة الخامسة عشرة

متى وضع النظام الأساسي المنصوص عنه في المادة الأولى من هذا الصك موضع التنفيذ تتفق الدولة المنتدبة مع الحكومات المحلية على طرق تسديد هذه الحكومات لكل النفقات التي انفقتها الدولة المنتدبة على تنظيم الادارة وانماء الموارد الطبيعية وعلى إنشاء الأعمال النافعة ذات الصفة الدائمة التي تبقى فائدتها للبلاد ويبلغ هذا الاتفاق الى جمعية الامم.

المادة السادسة عشرة

تكون اللغة العربية واللغة الافرنسية اللغتين الرسميتين في سورية ولبنان.

المادة السابعة عشرة

تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً في الشكل الذي تطلبه عن الاجراءات التي اتخذتها في خلال السنة لتنفيذ هذا الانتداب ويضاف الى هذا التقرير كل الانظمة والقوانين التي تكون قد سنت في ذلك العام.

المادة الثامنة عشرة

كل تعديل يرى اجراؤه في هذا الصك يجب ان يعرض على مجلس الأمم للنظر فيه والتصديق عليه.

المادة التاسعة عشرة

من خصائص مجلس جمعية الأمم عند انتهاء الانتداب ان يبذل كل ما في نفوذه لضمان قيام حكومة سورية ولبنان بالواجبات الحالية ومنها المخصصات او رواتب التقاعد التي تكون الادارة السورية تعهدت بها في مدة الانتداب.

المادة العشرون

تقبل الدولة المنتدبة ان كل خلاف يقع بينها وبين احد اعضاء جمعية الامم على تفسير او تطبيق احكام الانتداب ولا يمكن حله بالمفاوضات يعرض على محكمة العدل الدولية الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشر من عهد جمعية الامم.

يوضع أصل هذه الوثيقة في أوراق جمعية الأمم ويقدم السكرتير العام لجميع اعضاء جمعية الأمم نسخة منها بعد تصديق مطابقتها على الأصل.

صدر في لندن ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢
طبق الاصل
السكرتير العام

تعليقات

ان هذا الصك ينص نصاً بسيطاً على سورية ولبنان فقط، دون ان يعيّن لكل منهما حدوده، ولا يقول بتكبير لبنان وتصغير سورية، والظواهر تدلّ على أن الداعي لذلك هو ان هذا الصك أملته الدولة المنتدبة على جمعية الامم ولم تشأ في ذلك الحين التعرض لتلك الحدود التي توالي سبل الاعتراض عليها كيلا تستلفت الأنظار وتدعو الى مناقشة قد لا تكون في جانب التكبير الذي أجراه الجنرال غورو بقوة جيشه ظلماً واستبداداً.

وإذا رجعنا الى الحق والعدل نرى أن الحدود الواجب الاعتراف بها لسورية ولبنان هي التي عيّنها المؤتمر الدولي سنة ١٨٦٦ وأقرها الشعب ودامت الى ما بعد الحرب العالمية الكبرى بدون جدل ولا اعتراض من أحد واعترفت بها واستقرت عليها المعاهدة الثلاثية المنعقدة بين دول فرنسا وانكلترة وروسية عام ١٩١٦، وان كل البلاد التي اقتطعت من سورية بأية وسيلة كانت هي ولا ريب بلاد سورية بحتة يجب إعادتها الى أصلها.

والغريب أنه بعد أن نص صك الانتداب على سورية ولبنان فقط، أخذت الدول المنتدبة تذكر في مخابراتها وعقـودهـا صيغة لبنان الكبير التي لم يسبق لها ذكر لا في صك الانتداب ولا في غيره من الوثائق والمخابرات السياسية التي جرت بشأنها، وأخذت الحكومة اللبنانية تجري على اثرها وتتعمد ذكر لبنان الكبير في أوراقها

النقدية وسكّتها وطوابعها وسائر معاملاتها ومخابراتها الرسمية مما لم يكن له مسوغ قانوني سوى الزعم بتثبيت التكبير وجعله أمراً واقعاً. وهذا يعدّ افتراء وخروجاً على الحق والقانون ليس الاّ.

ثم ان جمعية الأمم اقرّت الانتداب ونشرته دون ان تستطلع راي الأمة المنتدب عليها بشأنه وحجتها في ذلك - كما جاء في صك الانتداب نفسه - ان دول التحالف المعظمة اتفقت على وضع سورية ولبنان تحت الانتداب الافرنسي ولذلك لم يبق من حاجة لاستطلاع رأي الشعوب الراضخة تجاه عظمة وجبروت تلك الدول الشامخة.

أفلا يخالف هذا العمل أيضا نصّ المادة الثانية والعشرين من عهد جمعية الأمم التي تعترف بأن أهل سورية ولبنان هم شعوب مستقلة وانما يحتاجون الى مساعد ومرشد. **وانه يجب اعتبار رغباتهم في انتخاب الحكومة التي تنتدب عليهم.**

فلماذا أهملت جمعية الأمم الاستفتاء الذي قام به معتمدوها في سورية؟ لنفرض جدلاً ان الاستفتاء جرى في جو غير هادىء وتشوشت نتائجه، ألم يكن من الواجب إعادته مرة أخرى لتتضح لها آمال السوريين ورغائبهم الحقيقية. واذا كانت الدول العظمى تقرر ما تشاء والشعوب الضعيفة مكرهة على قبول مقرراتها فما الفائدة من وجود جمعية الأمم وهذه الشنشنات كلها.

ثم هل يجوز العمل بصكّ يقرّه الفريق الأول دون علم وموافقة الفريق الثاني الذي يكره على الخضوع إكراهاً ولا يسمع اعتراضه وصراخه مهما تعاليا ولو بلغا عنان السماء.

ومما ينبغي امعان النظر فيه في هذا الصك هو ان جميع الأمور ذكرت مجملة الا فيما يتعلق بالعاديات، فان بحثها تناول كل ما يبنى على الاستئثار بتلك الكنوز بدون ان يكون للبلاد شيء منها، وهو كنظام خاص أدرج في ذلك الصك العام ليكون تحت إقرار جمعية الأمم وتصديقها، ويكمّ أفواه الأبناء الذين ربما تحدثهم انفسهم بطلب ميراث الآباء يوماً من الأيام. وهذه مأثرة من الانتداب تجاه أمة تهمل حقوقها اهمالاً. ومع الاحتفاظ بكل ما ذكر نورد هنا أيضا بعض ما جال في البال من الملاحظات الأخرى تجاه نصوص صك الانتداب الذي مضى عليه اثنا عشر عاما وما زال على حاله فنقول:

المادة ١

أين دستور البلاد الذي وضعه نوابها في الجمعية التأسيسية؟ وهل ان تنشيط الاستقلال هو ذلك الضغط الشديد الذي يجعل من فروع الادارة لا تأتي بحركة كلية كانت او جزئية الا بارادة السلطة وايعاز مندوبيها فقط.

يقول المسيو «روبير دي كيه» مندوب فرنسا عن بلاد الانتداب في جمعية الأمم خلال ايضاحاته عن أعمال سنة ١٩٣٢ إن عبارة تنشيط الاستقلال معناها إيجاد استقلالات وضعية، لحماية الأقليات حالة كون الصك باجمعه وخصوصاً مادته الأولى لم تذكر سوى سورية ولبنان فقط وليس لغيرها ذكر أو اشارة، في أي جملة من جمل الصك كله. وتلك العبارة معطوفة طبعاً على سورية ولبنان وحدهما اللذين نص الصك في الفقرة الثالثة من مادته الأولى على وجوب تسهيل ارتقائهما بصفتهما دولتين مستقلتين، ولم يذكر سواهما، فمن أين أتى هذا التفسير الغريب. واذا قلنا ان جمعية الأمم قبلت بهذا الاستنتاج وصادقت عليه يظهر لك مبلغ تدقيقات مجلس الجمعية ودرجة حكمه وعدله.

المادة ٢

تقضي المادة الثانية من الصك بأن الدولة المنتدبة تحتفظ بجيوشها في البلاد الواقعة تحت الانتداب للمحافظة على الأمن وذلك الى ان يوضع النظام الاساسي موضع التنفيذ ويعود الأمن الى نصابه.

ان هذا القول نفسه سبق للانكليز ان قالوه حينما احتلوا مصر قبل خمسين عاما، وحتى الآن لم يعترفوا

باستتباب الأمن فيها، وما زالت جيوشهم تحتل القطر المصري رغم وجود حكومة قانونية لها مليكها ونوابها ووزراؤها بجيشها الى غير ذلك من وسائل القوة والتنفيذ وغيرها، فهل تشبه الليلة البارحة، ويسير الافرنسيون في سورية كما سار حلفاؤهم الانكليز في مصر، وبعد الانتداب ايضا يبقون جيوشهم في بلادنا بحجة المحافظة على الأمن حذراً من ان نكشر عن أنيابنا وناكل بعضنا بعضا؟

ثم تقول المادة ذاتها انه يشترط في تاليف القوى المحلية (الميليس) أن تكون من سكان البلاد دون سواهم فكيف أتى هؤلاء الأرمن والشراكسة من أقاصي بلاد القفقاس وارمينيا وألفوا الاكثرية الساحقة من تلك القوى وهلاّ يجب تسريحهم غبّ انقضاء العمل الذي جيء بهم من أجله، واستبدالهم بأبناء البلاد وحدهم؟ وإذا قال قائل إن هؤلاء مهاجرون اكتسبوا الجنسية السورية وأصبحوا كابنائها، فنجيبه ان القوانين العامة في جميع بلاد الدنيا لا تسمح بمنح جنسية البلاد الا لمن يقطنها مدة معينة وينطق بلغتها، نعم ان القوانين في مثل هذه الأحوال يجعل اتجاهها نحو تأمين الغاية المقصودة منها ولذلك جعل في قانون المهاجرة الذي وضع خصيصاً لسورية مدة إقامة المهاجرين في البلاد الى ان يستحقون التجنس بجنسيتها، طفيفة للغاية، ولا من يعترض عليها وشرع في تطبيق أحكام هذا القانون فوراً بقصد إدخال أولئك الأشخاص في جنسية البلاد وجنديتها وإنما اللغة ظلت مهملة فالأكثرية الساحقة من أولئك المهاجرين المجندين ما زالوا لا يتكلمون الا بلغتهم الأصلية، ولا يعرفون من لغة البلاد أكثر من معرفتهم بلغة الصين، فكيف نمنحهم الجنسية السورية وهم يجهلون سورية ولغتها، ولا ناقة لهم فيها ولا جمل؟[١٦].

ثم تقول المادة «إن هذه القوى المحلية تكون بعد وضع الدستور تابعة للحكومة المحلية فيما يخرج عن حدود السلطة والمراقبة التي يجب ان تحتفظ بهما عليها الدولة المنتدبة»، ومعنى ذلك ان الدولة المنتدبة التي انتقت هي وحدها تلك القوى وخصصت لها رواتب تفوق الحد المتعارف ووضعتها تحت أمر وقيادة الضباط والقواد الافرنسيين وجعلتها لا تعترف لغيرهم بسلطة ما عليها وهي تستخدمها كيفما شاءت ولا رابطة لها بالحكومة المحلية الا بالاسم الذي أوجب أداء تلك الرواتب والمخصصات الطائلة مهما بلغت وقد دابت على ذلك الى الآن. فهل تلبث تلك القوى بعد الانتداب أيضا تحت سلطة الافرنسيين ومراقبتهم ويكون الجيش السوري سورياً بالاسم افرنسيا بالقيادة والفعل، ولا يقصد من نسبه الى سورية سوى أداء رواتبه ونفقاته فقط؟ ام يحال اذ ذاك قيادة وإدارة الى الحكومة السورية المستقلة لتستخدمه حسبما ترى شأن سائر الدول المستقلة؟

ثم أن هذه المادة تنصّ ايضا على انه ليس ثمة مانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات جيش الدولة المنتدبة المرابط في البلاد.

على ان الكونت دي مارتيل، المفوّض السامي الافرنسي في سورية ولبنان، يقول لمراسل شركة (سوسيايندرس) الاميركية يوم ٢٦ شباط سنة ١٩٣٦ خلال البحث عن نفقات الانتداب ان هذه النفقات كانت في السنين الاولى زهاء ثمانمائة مليون (٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من الفرنكات سنويا ثم تنازلت فبلغت المائتين وخمسين مليون (٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠) في السنين الأخيرة وان نعلم جيدا انه ليس في وسع سورية تحمل هذه النفقات، ثم ان الموظفين الافرنسيين في سورية ولبنان سواء كانوا عسكريين او مدنيين لا يشتركون مع الأهلين في اداء الرسوم المترتبة على ما يملكونه من سيارات خصوصية ودراجات نارية أو عادية وغير ذلك من الأشياء الذاتية التي تخضع لرسوم معينة ومصدقة من قبل المفوضية السامية الافرنسية حتى انهم لا يؤدون عنها رسم المكس (الكمرك) ايضا عند وصولها الى المرافىء السورية، ولا عن زيت البانزين المختص بها، أي أنهم يتمتّعون باستثناآت واعفاءات من كل تكليف يقوم به أهل البلاد عامة، ولذلك رأت بلدية دمشق ان تساوي بين الفريقين باستيفاء هذه الرسوم الشخصية من الافرنسيين أيضاً، وعند المراسلة أجاب الكونت «دي مارتيل» المفوض السامي الافرنسي في كتاب الى رئيس مجلس الوزراء السوري بتاريخ نيسان سنة ١٩٣٤ **إن فرنسا قائمة بالانتداب على سورية مجانا**، فلا يمكن إجبار أحد مأموريها على امداد خزينة الدولة بشيء، ولا يجوز استيفاء الرسوم البلدية من الجنود والموظفين الافرنسيين كافة. وقد نفذ هذا الأمر بحذافيره.

فاذا كانت الدولة المنتدبة قائمة بالانتداب مجاناً كما صرّح مفوضها السامي أفلا يجب بعد هذا التصريح

وذاك التعامل ان تعدّ الفقرة المختصة بنفقات الانتداب لاغية ايضا. ويطوى هذا البحث من صك الانتداب ذاته.

المادة ٤

تقضي المادة الرابعة على الدولة المنتدبة بأن تضمن أرض سورية ولبنان من كل فقدان أو استثمار أو مراقبة تقع عليها أو على قسم منها، حالة كون الدولة الافرنسية عقدت عام ١٩٢١ معاهدة مع تركيا بواسطة معتمدها (فرانقلين بويون) تسامحت بها في كثير من الامور الماسة بحقوق سورية ومنافعها وسمحت لها بتصحيح الحدود التركية الجنوبية واضافة بعض الأراضي السورية كقطعة (بياس) وما جاورها الى تركيا، ثم وافقت على جعل اللغة التركية لغة رسمية في لواء اسكندرون مخالفة بذلك نصوص المادتين الرابعة والسادسة عشر من صك الانتداب. مما جعل الأتراك يطمعون بالمزيد ولا يجدون من يعترضهم ويردهم، فبعد خمسة عشر عاما من تلك المعاهدة قاموا الآن وطالبوا بضمّ كل ذلك اللواء اليهم، وأخذت فرنسا الضامنة لبلادنا تداريهم وتسايرهم وتمنحهم كل ما يطلبون خوفاً من ان يؤدي رفضهم الى اتفاقهم مع خصومهم الألمان، وهكذا افتدت فرنسا - غير المسلمة - في سبيل أغراضها ومنافعها، وراح الضمان المنصوص عليه في صك الانتداب بدون قيمة البتة، شأن كل معاهدة تعقد بين القوي والضعيف. والنتيجة علمها عند ربي.

المادة ٥

كان الأجانب المتعاهدون مع الدولة العثمانية فقط يتمتعون بامتيازات منحتهم اياها تلك الدولة وكانت البلاد تئن من وطأة هذه الامتيازات الأجنبية التي أضرت بتجارتها ومصالحها كل الضرر وتنتظر ازالتها والغائها كما فعلت جارتها تركيا نفسها، وفعلت سائر الحكومات المجاورة لها كفلسطين وشرق الاردن والعراق وغيرها، فكانت النتيجة ان تعممت تلك الامتيازات من لم يكن له تعلق بها ولا وجود في ايامها كالايرانيين والأفغانيين والعراقيين والنجديين حتى والفلسطينيين والاردنيين أيضا فهل هذا هو العدل الذي كنا نامله من الدولة المنتدبة وجمعية الأمم.

المادة ٦

أين النظام القضائي الذي يصون حقوق الوطنيين والأجانب على السواء وما معنى صدور قرار المفوض السامي من حين الى آخر بتعطيل وتوقيف او تعديل بعض الأحكام الشرعية والقانونية التي اكتسبت الدرجة النهائية، واصبحت قطعية بحكم شرائع البلاد المعمول بها الى الآن. أين المحافظة على الأوقاف وريعها وفقا لاحكام الشرائع وارادة الواقفين من أداء هذه الى جهات لا علاقة لها بالأوقاف السورية كجامع باريز مثلا[١٧]، أموالاً طائلة، وترك المعابد والمدارس السورية صاحبة الحق في تلك الأموال في حالتي الخراب و الاندراس.

المادة ١١

ما الداعي لاستئثار الدولة المنتدبة بفرض الضرائب والرسوم الكمركية وزيادتها من حين لآخر، ثم حجزها لدى المفوضية دون ان تعلم البلاد بمقاديرها ولا بمصيرها؟ الم تتعهد الدولتان الحليفتان (انكلترا وفرنسا) بابقاء تعريفة المكس العثمانية الى عشرين سنة كما كانت عليه وهل يجوز للوصي ان يستأثر بأموال الموصى عليه ويديرها كما شاء.

المادة ١١

يمكن ان يقال ان زيادة ضريبة المكس كانت بسبب الثورة السورية التي نشبت عام ١٩٢٤ بغية تسديد نفقات إخمادها فما الداعي للدوام على هذه الزيادة الى الآن؟

ما معنى الفقرة الخامسة من المادة ١١ المتعلقة بمنح الامتيازات وجعلها من الدولة المنتدبة وحدها. وهل يقصد منها منح الامتياز لكل من يراجع المفوضية مباشرة ويتفق معها على شروط ولو كانت مجحفة بحقوق البلاد أكثر من ان تكون نافعة لها وبدون اعلان ولا اطلاع أحد عليها قبل ابرامها. (كامتياز مرفأ طرابلس الذي أثار ضجة عظيمة في مجلس نواب لبنان وتعديل امتياز شركة الكهرباء بدمشق وامتياز الكهرباء في حمص وحماة وامتياز الماء في حلب وغيرها) وهل التصديق على هذه الامتيازات والاتفاقيات بالضغط والشدة يكفي لشرعيتها.

كيف تكون سلطة الدولة المنتدبة في ايجاد الاحتكارات المالية. هل يمنح البنك السوري ـ اللبناني حق اصدار تلك الوريقات بدون ضمانة البتة، ويسمح له بان يسحب ثروة البلاد الذهبية كلها، ويجعل أوراقها مربوطة بمقدّرات الفرنك الافرنسي الذي ما زال يهبط ويصعد الى ان قضى على ثروة البلاد وأبادها وبالرغم عن الصراحة القاضية بأن هذه الامتيازات لا يجوز ان توجد إحتكارا خاصاً بالدولة المنتدبة وبرعاياها اما منحت لشركات اكثريتها افرنسية بحتة.

المادة ١٢

هل بلغ من عجـز سوريـة ولبنـان ان تكـونا مكتوفتي اليدين مغمضتي العينين تجاه ما يعقد باسمهما ولحسابهما من الاتفاقيات. وتجبرا على أداء نفقاتها، وهلا يجب استشارتهما أولا بأمر هذه الاتفاقيات ليبديا رايهما الموافق لصالح البلاد وتقاليدها بشأنها؟

المادة ١٤

كيف تستأثر الدولة المنتدبة بعاديات البلاد وتحرم أهلها من كنوز آبائهم، وكيف تنتقل تلك العاديات الى عاصمتها حالة كون وجودها هي في بلادنا وقتياً، وهل تعيد ما اخذته منها حينما ينتهي أجل انتدابها؟

المادة ١٥

ما هي التنظيمات الادارية التي اتخذتها الدولة المنتدبة الى الآن لأجل ترقية الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العامة التي تفيد البلاد فاستوجبت ان تؤدي نفقاتها مهما بلغت؟

المادة ١٧

الا يجب إطلاع الحكومة المحلية على التقرير الذي تنظمه الدولة المنتدبة في كل سنة وترفعه الى جمعية الأمم واخذ رايها وملحوظاتها بشأنه؟

هذا قليل من كثير والبقية لا تخفى على الناقد البصير.

الانتداب عملياً

قضت المادة الثانية والعشرون من عهد جمعية الأمم بأن تساعدنا الدولة المنتدبة في أعمالنا، وأن نعتبر

نصائحها دليلا لنا في إدارة شؤون بلادنا ريثما نصبح قادرين على إدارة انفسنا بأنفسنا وقد فسر ذلك صك الانتداب في أول مادة من مواده التي تنص على وجود سلطة محلية في البلاد لها رايها المسموع في تنظيم القانون الأساسي.

هذا هو روح الانتداب وأساسه. فماذا فعلت الدولة المنتدبة لقاء ذلك؟ انها لم تر مخالفة هذه النصوص وإدارة البلاد مباشرة بل عمدت الى إدارتها بالواسطة وحصرت الكلمة العليا في أمور البلاد بشخص مفوضها السامي الذي جمع بين السلطتين التشريعية والتنفيذية واستحلت له حق انتقاء وتعيين رئيس الحكومة ووزرائها بدون استشارة من أحد. فهل يوافق هذا روح الانتداب وهلا يجب استشارة الشعب ونوابه في هذا الانتقاء والتعيين.

انها جعلت في كل دائرة من دوائر الحكومة وفروعها الرئيسية موظفاً افرنسيا يحمل اسم مستشار، وهو يشير دون ان يستشار، له الحول والطول في كل ما يرتئيه أو يوعز اليه من قبل البعثة، فيأمر به وينفذه بقوة سلطانه وليس لأحد مهما علت منزلته، رئيساً كان أو مرؤوساً، الا الخضوع لارادة المستشار التي يبنيها على أمر المفوضية فيمضيها مكرهاً أو مختاراً باسم الأمة ولحسابها.

وقد اتسعت سلطة هؤلاء المستشارين وأصبحوا المرجع الوحيد في الكليات والجزئيات، وغدت هيأة الحكومة لا تستطيع تعيين أو تبديل خادم من خدمها او أي فرد من أفراد موظفيها وكتابها، صغيراً كان أم كبيراً الا بأمر المستشار وموافقته، وثبوت كونه من أصدقاء فرنسا غبّ التحقيق الدقيق عنه في دوائر الأمن العام والشرطة.

زد على ذلك ان ميزانيات الدوائر تنظم باطلاع المستشارين وموافقتهم طبعاً، ثم تعرض على المفوضية التي تعيد فيها النظر وتجري ما شاءت من التعديلات وتعيدها مصدقة الى الحكومة، وبالرغم عن كل هذا فان من يدعونه وزير المالية لا يستطيع صرف «بارة» واحدة من أي فصل او مادة من فصول الميزانية المصدقة وموادها الا بأمر المستشار وتصديقه على حدة، وهكذا أصبح الوزير كشبح من الأشباح لا واجب عليه سوى الاقرار والتوقيع ليس الا.

وهنالك مسألة ثالثة وهي ان المفوضية الافرنسية توعز من حين لآخر الى تلك الهيأة المسماة (حكومة) وتطلب منها ان تقترح عليها بعض الامور التي لا تفيد البلاد بشيء فتلبي الحكومة الأمر في الحال وتكتب قرار الاقتراح كأنه من بنات أفكارها أو بادرة من بوادر الاصلاح لاحت لها خدمة للأمة ومصالحها وترفع الاقتراح الى المفوضية التي تقره وتأمر بتنفيذه في الحال حسب طلب الحكومة التي تحمل تبعته وتؤدي نفقته فقط.

ولا تستغرب أيها القارىء الكريم اذا روينا لك ما سمعناه من هذا القبيل من ان ضرب مدينة دمشق واحراقها وتدميرها بالمدافع والقنابل الافرنسية إبّان الثورة، ثم التعهد بأداء مائة ألف دينار التي فرضتها السلطة الافرنسية على مدينة دمشق كغرامة خاصة جزاء تعرض الثوار على الأماكن العسكرية - كان بطلب الحكومة التي يرأسها صبحي بك بركات غب الايعاز اليها من قبل البعثة بواسطة أشخاص مثلوا دورهم أحسن تمثيل، وصعدوا على أثره الى أسمى درجة في الحكومة. وبعض الناس يميل الى القول بأن المفوضية العليا عدلت مؤخراً عن هذه الضريبة ولم تستوفها، لا من خزينة الحكومة ولا من صندوق البلدية. ونحن نسأل من يقول ذلك هل له علم بحساب الالوف المؤلفة من الدنانير التي تجبيها المفوضية مباشرة من رسوم المصالح المشتركة و(المكس) (الكمرك) والبريد والبرق والغازات وغيرها من أموال الأمة، وتتصرف بها كما تشاء. وهل يمكن الادعاء بأن السلطة الافرنسية لم تستوف تلك الغرامة من أصل هذه الرسوم الموجودة لديها وتحت تصرفها.

ثم ان المفوضية تمنّ على الحكومات المحلية من حين الى آخر ببضع وريقات من أصل هذه الرسوم التي لا يعلم حسابها عندنا حتى الراسخون في العلم، وتجعلها لقاء ما تستحسنه من المشاريع التي تعود بالنفع على الافرنسيين وحدهم (كالمطارات والطرق العسكرية وغيرها) وأغلب من يقوم بهذه المشاريع هم الملتزمون الأغراب، والعمال الأرمن والروس ومن يدعونهم الآشوريين، وهم نصارى الأكراد وأمثالهم. وهؤلاء هم الذين يتمتعون بنعم البلاد دون أهلها الذين شحّت عليهم السماء بغيثها في السنوات الأخيرة وأصبح السواد الأعظم منهم لا يجد لقمة من العيش فيتضوّرون جوعاً ويضطرون الى الرحيل الى بلاد الغير مهما كانت قصيّة، سعياً وراء تلك

اللقمة.

هذا هو الانتـداب الجاري عملياً في سورية شرحناه باختصار. فأين اذن ما نتخيله ونعلل النفس به من الاستقلال؟ ولماذا وجود مثل هذه الحكومات التي تمتصّ دماء الأمة بالرواتب الضخمة ولا تفيدها بشيء؟

ان للاستعمار في بلاد الغرب طرقاً يتمشى عليها ولا يحيد عنها. وطريقة الافرنسيين هي جعل كل شيء من لا شيء حيث يأتـون بالرجل الذي لا قيمة علمية ولا عملية له، ويصعدون به دفعة واحدة الى مقعد الوزارة او الرئـاسـة، ويـدرون عليه من أموال الأمة رواتب عظيمة لم يكن ليحلم بجزء منها فيما سبق، ثم ينقدوه من التخصيصات المستورة والمكشوفة أموالاً طائلة ـ من مال الأمة طبعاً ـ يتصرف بها كما يراد منه لا كما يريد، ثم يمتطي السيارة الفخمة يحف به الحرس الخاص ويأتي بها الى دائرة ربما كان لا يجرأ على الدنوّ من ساحتها فيما سبق. فيدخلها وهو الآمر الناهي ولكن كالببغاء، ويستولي عليه الغش والدهشة فلا يستطيع ادلاء كلمة الا بما يوحي به اليه رجال الغرب، ويلبث على هذه الفخفخة ردحاً من الزمن يهشون في خلاله بوجه من يظهر معايبه وينشر مثالبه ويحتفظون لأنفسهم بمركز المراجعات الوحيد لجميع طبقات الأمة حتى اذا ما احترق الرجل وسقط في أعين الناس بعد ان قضى الافرنسيون منه وبواسطته لبانتهم، ينبذونه من حالق ولا يعودون يذكرون اسمه الا بازدراء، ويقيمون مقامه من يتعهد بان يكون أمضى منه في خدمتهم وحدهم.

كل هؤلاء يقال إنهم من أصدقاء فرنسا كالجواسيس الذين يبيعون ضمائرهم وأوطانهم لقاء دراهم معدودة، ولم يكونوا فيها من الزاهدين.

الافرنسيون غير الأكفاء

ان الموظفين الافرنسيين التي تكرهنا المفوضية على استخدامهم في مختلف وظائف الحكومة وجد بينهم من لم يكن كفوءا لما عهد به اليه من الوظائف، كما نرى فيما يلي:

يظهر ان فرنسا ما زالت تخال سورية كمستعمرات أفريقية، بعيدة عن العلوم والفنون العصرية، وليس فيها من يستطيع القيام بالأعمال الفنية والنافعة، وربما صحّ ذلك بعد مضي بضع سنوات أخرى بحيث لا يبقى ممن تلقوا العلوم العالية في مدارس الدولة العثمانية أحد، وتصبح اذ ذاك سورية ولا فرق بينها وبين المستعمرات الافريقية بشيء سوى الذكرى المؤلمة فقط. ومع غض النظر عما تكنه الدولة المنتدبة من وراء ذلك من النفع المادي والسياسي، فهي تتظاهر مساعدة سورية وتدريبها لتحصل على المقدرة على إدارة نفسها بنفسها كما جاء في صك الانتـداب ولأجل الوصول الى هذه الغاية جاءتنا منذ الاحتلال ببضعة أشخاص يحملون أسماء مهندسين، واكرهتنا على استخدامهم في أعمال البلدية والطرق والري برواتب تفوق الحد المتعارف.

١ـ قام من هؤلاء الأشخاص من دعوه مهندس البلدية، وشرع بانشاء مجرى المياه القذرة في الأحياء الحديثة المشادة على طريق الصالحية، كشارع بغداد وغيره، وبعد ان استهلك المبالغ الطائلة في سبيلها، وتقارب مجرى شارع بغداد من المجرى العام السائل من طريق الصالحية، ظهر ان مجرى شارع بغداد الخاص الذي انشأه ذلك المهندس هو احط واوطأ من مجرى طريق الصالحية العام المقرر انصبابه عليه، وأنه اذا اتصـل المجـريـان تعكس القضية ويطفو ماء المجرى العام على مجرى شارع بغداد الخاص ويغمره، فاضطروا الى تعديل مستوى المجريين وانفق مبلغ غير قليل لاصلاحهما.

٢ـ جاء رجل افرنسي اسمه (سيرينو) وهو نسيب المسيو (فيير) مندوب المفوض السامي الافرنسي بدمشق وتولى هندسة البلدية سنة ١٩٢٩ وحاول إنشاء سوق (هال) للفواكه والخضار واللحوم وغيرها من المواد الغضة المعرضة للتفسخ والتعفن دائم الأوقات بأمل بيعها في محل واحد منعاً لما ينجم عن تعدّد أماكن بيعها في جهات مختلفة من الاضرار بالصحة العامة، وانفق في سبيل ذلك من مال الأمة زهاء مائة الف ليرة، ولمّا قارب البناء التمام أخذت أعمدته التي يستند عليها تتنحى وتميل ذات اليمين وذات الشمال مما أدى الى فحصها واختبارها بالطرق الفنية من قبل مهندسين اخصائيين وطنيين وأجانب، فتحقق انها أنشئت على خلاف ما

يقتضيه الفن، وأنها غير متينة وقريبة السقوط، وغب السؤال من المهندس الذي أنشأها، اقر واعترف بأنه كان مخطئا في حساباته، وتنحى عن العمل، ثم رحل الى بلاده دون ان يحمّل أدنى تبعة ومسؤولية من أحد. وراحت الأموال التي أنفقها هدراً وهباء منثوراً.

(٣) قامت المصلحة التي أوجدوها باسم مصلحة الري، وألفوها من رجال ذوي خبرة ومهارة على ما يقولون، ورامت وصل بحيرة العتيبة الواقعة شرقي دمشق ببحيرة الهيجانية التي في جنوبها وبعدما انفقت عليها ما يقارب من المائة الف دينار تحقق ان المجرى الذي حفرته من العتيبه وأوصلته الى قرب الهيجانة هو أحط وأوطأ من سطح الهيجانية فاذا اتصلت البحيرتان ببعضهما يفيض ماء الهيجانية على العتيبة بخلاف المقصود منه، فاضطرت لتعديل ذلك المجرى الطويل العريض وتعليته وانفاق الاموال الطائلة عليه من جديد، وقد بلغنا ان عملها هذا أيضاً لا يأتها بالنتيجة المبتغاة، وأن كل النفقات التي تكبدتها خزينة الدولة في هذا السبيل ذهبت سدى.

هذه ثلاثة مشاريع من أعمال من دعوهم مهندسين في سورية التي يوجد فيها من أبنائها البررة من درس واتقن فنون الهندسة العالية بفروعها وتخرج من مدارس الهندسة والحربية والمدفعية في الاستانة وغيرها، ولو أحيلت لهم هذه الأعمال التي هي من اختصاصهم لأنشأوها كما يجب ويقتضيه الفن بأقصر من الوقت الذي أضاعه أولنك الافرنسيون غير الأكفاء في سبيلها، وبأقل من النفقات التي استنفذوها لأجلها. وهذا ماء الفيجة الذي لم تكن للافرنسيين يد فيه قط، جره مهندسان وطنيان لا ثالث لهما، وجلباه الى المدينة ووزّعاه على أحيائها ودورها بمدة قصيرة وكلفة قليلة ـ لأكبر برهان على ذكاء السوريين ومقدرتهم، حيث تفاخرت به الحكومة الافرنسية نفسها تجاه جمعية الامم، ودسته في جدول الأعمال التي تمت في أيامها كأنه أثر من آثار مهندسيها الافرنسيين لا سواهم.

نحن لا ننكر أنه يوجد في دولة فرنسا العظيمة أساتذة بارعون ذوو باع طويل في كل علم من العلوم والفنون المتخصصين بها بل نستدل من آثارهم الخالدة على أنهم أرباب ملكة تامة وقدرة بليغة في فنونهم، ولكننا نعلم أيضا ان هؤلاء الأساتذة لا يغادرون فرنسا لأن أعمالهم لا تمكنهم من مبارحتها وهم يرسلون الى سوريا وغيرها من البلاد التي وقعت تحت انتدابهم ـ وهم ما زالوا يجهلونها ويجهلون صفات اهلها ـ من التلامذة القليلي العلم والعديمي التجارب بل من المتمرنين على أعمال الطرق وحدها تمريناً بسيطا مما يسمونهم (فوندوقوز) في بلادهم ويمنحوهم عنوان مهندس في بلادنا كما ثبت ان من ولجوا أعمال الهندسة في البلدية هم من هذا القبيل ولا يعلم من الهندسة الا اسمها فقط.

وعلى الرغم من كل ذلك فانهم ما زالوا يعتقدون بأنهم اكفاء لنا ولأعمالنا ولا يلبث جهلهم ان يظهر دون ان تندى له الوجوه خجلا.

أما الأموال التي يهدرها هؤلاء الجهلة فحسابها عند الله.

اصدقاء فرنسا

عثرنا في الكتاب المطبوع في باريس بعنوان (الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان: حقائق لا أوهام)

LE MANDAT D'APRES LES FAITS

LA FRANCE EN SYRIE ET AU LIBAN

على صورة برقية ورسالة أرسلتا من دمشق الى باريز سنة ١٩٢١ أيام حكومة حقي بك العظم من قبل أصدقاء فرنسا فرأينا تعريبها واثباتها بالحرف.

البرقية المرسلة في خريف سنة ١٩٢١ من قبل الشخصيات البارزة في دولة دمشق الى المسيو بريان رئيس الوزارة الافرنسية والى المسيو «ليون بورجوا» رئيس جمعية الأمم ويقول الكتاب إنها برهان ساطع على محبة السوريين واخلاصهم لفرنسا:

نحن الموقعين أدناه السوريين القاطنين منذ أمد طويل وبدون فاصلة في دمشق:

اتصـل بنـا بمزيد التعجب أن جماعة اجتمعوا في جنيف تحت اسم المؤتمر السوري الفلسطيني وانتحلوا لأنفسهم صيغة لم يعهد بها اليهم قط، وادعوا أنهم يعبرون عن امل واميال الأمة السورية السياسية وتشبثوا بان يكونوا ترجماناً لهذه الأميال لدى جمعيتكم العليا. بما ان هؤلاء الاشخاص تركوا بلادهم الأصلية وتوطنوا في مصر او غيرها حتى ان البعض منهم ولد في خارج بلاده الأصلية ونظراً لعدم اختلاطهم بالشعوب السورية وجهلهم شروط حياتها الحاضرة واميالها لا يحق لهم ان يتكلموا باسمها قط.

بناء على هذه الأسباب، ولاهتمامنا بمنافع بلادنا العالية التي اعتمدنا للعناية بها على الحكومة المنتدبة. نحتج على المؤتمر السوري الفلسطيني بادعائه تمثيلنا ونعلن ان لا علاقة لنا به ولن نشاطره افكاره.

التواقيع على الرسالة المنشورة اعلاه.

مدير الداخلية	مدير العدلية	مدير المعارف	مدير النافعه	مدير المالية
عطا الايوبي	بديع المؤيد	محمد كرد علي	شاكر القيم	حمدي النصر
مدير الامور العسكرية	رئيس العلماء	رئيس الشورى	قاضي دمشق	مفتي دمشق
نصوحي البخاري	سليم البخاري	عبد المحسن الاسطواني	محمد المحاسني	عطا الكسم
نقيب الاشراف	رئيس المجمع العلمي	امام الاموي	امام الاموي	مفتي الشافعية
محمد علي الحسيبي	سعيد الكرمي	توفيق المتنبي	عبد الحميد العطار	توفيق القزي
رئيس البلدية	مطران الروم الارثوذكس	مطران الكاثوليك	عضو مجلس الشورى	عضو الشورى
يحيى الصواف	زخريا	نقولا قاضي	فريد اليافي	نعمان ابي شعر
عضو الشورى	عضو الشورى	عضو الشورى	عضو الشورى	عضو محكمة التمييز
الامير طاهر الجزائري	نجم الدين الدروبي	سليم عنحوري	عثمان العظم	اسكندر شحلان
عصمت العظم	ابراهيم العجلاني	نصوح المؤيد	سعيد اليافي	حسن الخطيب
رئيس المستشفى الوطني	صفوح المؤيد العظم	خليل معتوق	خليل الهابل	شكري تتنجي
الدكتور رضا سعيد	اسكندر قبوات	انطوان سيوفي	نقولا شاغوري	بول تشيشو
ميشيل مرقده	يوسف صباغ	ابراهيم طويل	محمد سعيد اليوسف	

صورة الكتاب المرفوع من أعيان السوريين الى الجنرال غورو المفوض السامي الافرنسي في سورية ولبنان

يا صاحب الفخامة.

نحن الموقعون أدناه ممثلو جميع الطوائف وجميع طبقات الشعب في دولة دمشق نقدم صورة عن البرقية التي رفعناها الى المسيو بريان والمسيو ليون بورجوا والى المسيو اريك دروموند سكرتير جمعية الأمم.

اننا لا نقبل ان بعض السوريين الذين هاجروا من بلادنا ان يدّعوا تمثيلنا ويتكلموا باسمنا بدون أدنى تفويض منا، واننا مستعدون لأن نعبر عن آمال واميال شعوبنا ونرفض مداخلة هؤلاء الذين لا يعلمون شيئاً منها. ولا نستطيع ان نراهم يعقبون منافعهم وينتحلون زورا وبهتاناً وكالة الشعب السوري بدون ان نحتج عليهم بكل قوانا.

اننا بايداعنا الى فخامتكم البرقية التي رفعناها ونودّ ان نبين لكم اننا بفضل الانتداب الفرنسي وحده نؤمل الوصول الى الرقي الذي سيقوّي استقلالنا ويجعله معتبراً في المستقبل.

اننا نترك الدفاع عن منافعنا لدى الحكومة الافرنسية وجمعية الأمم الى فخامتكم انتم ممثل فرنسا صديقنا وحامي شعوبنا ونرسل لكم كتابنا هذا بالنيابة عمن وقعوا البرقية التي ارسلناها الى جمعية الأمم والى المسيو بريان والى المسيو ليون بورجوا.

مدير العدلية			
بديع المؤيد	سليم البخاري	عطا الايوبي	المطران زخريا
رئيس الشورى	مدير النافعة	مدير المالية	وكيل بطريرك الروم الكاثوليك
عبد المحسن الاسطواني	شاكر القيم	حمدي النصر	الارشمندريت دهان
مدير المعارف	مدير مدرسة الحقوق	وكيل بطريرك الارمن والارثوذوكس	
محمد كرد علي	عبد القادر العظم		
رئيس العلماء	مدير الداخلية		

حاشية

ان هذه البرقية لم تقتصر على دمشق وحدها بل تبعتها في الوقت ذاته برقيات متعددة من حمص وحماة وحلب وغيرها من سائر البلاد السورية بمعناها ومغزاها نفسه. فهل كان ذلك من قبل توارد الخواطر أم هو نتيجة وحي هبط من جانب الطور فخر له الأصدقاء طائعين؟

اننا اذا كنا نميل مع الهوى فنكون تارة عرباً اقحاحا لا نرى غير الاستقلال التام الناجز ونؤلف لذلك أحزابا ونعلن للملأ أننا نسعى وراء خدمته بواسطتها ( )، وطوراً ننقلب الى إفرنسيين ولا نرى غير فرنسا صديقة وحامية لنا ونفوض لمندوبيها أمر الدفاع عن حقوقنا، فماذا تكون عاقبتنا وقيمتنا ليس في بلادنا فحسب بل لدى اصدقائنا الافرنسيين انفسهم.

لما جاء المسيو (جورج بيكو) الى دمشق في اول ايام الأمير فيصل واجتمع مع الشباب المتحمّس من السوريين في نزل خوام رحب به الشباب وجاهروا بقولهم إنهم يحبون فرنسا حباً جماً، فشكرهم جورج بيكو على شعورهم ونصحهم ان يحبوا بلادهم قبل كل شيء، ثم اصدقاءهم، لأن هذا هو الواجب الوطني لا غيره. فهل نحن بهذا الواجب عاملون؟

المضابط

كن على ثقة أيها القارىء الكريم ان هذه البرقية وهذه الرسالة وامثالهما من البرقيات والمضابط التي تكتب وتوقّع في مدن الشام لا علم ولا رأي لكثير من موقّعيها بمحتوياتها.

لقد جرت العادة عندنا انه اذا خطر لأحد ان يكتب مثل هذه المضابط ليستعين بها على قضاء حوائجه ومآربه الخاصة، أو رات الحكومة او السلطة لزوماً لذلك، فانها تكتب سلفا كما يراد منها، ويأخذها منظمها أو أحد ذوي الوجاهة من مواليه ويعرضها على الناس الذين يكونون في شأنها تجاه ثلاثة أمور، وهي:

١ـ توقيعها بقناعة أو بدون قناعة، رعاية للخطر، أو املا بالنفع وتثبيتا للمركز.

٢ـ الامتناع عن توقيعها، واذ ذاك يحسبون من المعارضين المعادين لأولي الأمر، ويفتح أمامهم باب الوشاية على مصراعيه للجواسيس الذين ينتظرون مثل هذه الفرص للايقاع بزيد أو عمرو لا بغضاً بهما ولا كراهة لهما، بل استجزاء للأجور التي يتقاضونها.

٣ـ يدعوهم حبّ الظهور والحسبان في عداد الشخصيات البارزة الى توقيعها في الحال حتى بدون قراءتها أو فهم مراميها لتكون تواقيعهم متوافقة مع تواقيع الوزراء والرؤساء ليس الا.

واذا سأل سائل أحد الموقعين عنها انكر علمه بها، ولربما صحّ ذلك لأن الأصل براءة الذمّة، أليس كذلك.

ورحم الله القائل:

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويلسون

الدكتور ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة الاميركية الذي حمّسه قومه وكادوا يوصلوه الى درجة القديسين، حتى ساقوه الى دخول الحرب العالمية لكي يتسنى لهم بيع سلعهم الكاسدة واستجلاب ذهب العالم الى بلادهم بسببها، يظهر انه كان من أنصار المذهب القائل

بتوحيد الأديان والشعوب، ولوعا بالنظريات الفلسفية والاجتماعية، يفكر باصلاح العالم وابطال الحروب. فقد تصوّر ان تكون هذه الحرب الكبرى آخر الحروب العالمية وان لا يسمح لأية دولة من الدول الغالبة بامتلاك اية بقعة من بقاع الدول المغلوبة لكيلا يبقى محل للانتقام وتجديد الحروب مرة اخرى، وان تؤسس جمعية عامة تؤلف من ممثلي أمم العالم كلها للاشراف على ذلك، والسعي لتأمين السلم الدائم والسعادة الخالدة في المعمور كله.

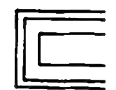
ولما كان من مصلحة انكلترا وفرنسا ان تشركا اميركا معهما في الحرب لتؤثر في كفة الميزان بين المتحاربين وتؤدي الى انهائها عاجلاً، جعل حضرة الرئيس فكرته المذكورة شرطاً اساسياً لدخول الحرب، وأبلغ ذلك الى اللورد كورزن والمسيو بريان، وزيرا خارجية الدولتين الانكليزية والافرنسية اللتين كانتا متفقتين على اقتسام ميراث السلطنة العثمانية والمستعمرات الألمانية في الشرق، فحبّذ الوزيران فكرة الرئيس هذه، ولكن لأجل اعداد بلاد الشرق الأدنى التي هي، على زعمهم، لم تبلغ من الرقيّ درجة تؤهلها لأن تحكم نفسها بنفسها، رأيا ان تشمل هذه البلاد برعاية العالم المتمدن مؤقتا، فتساعد كلا منها دولة من الدول الراقية الى ان تبلغ أشدها وتملك رشدها تحت اشراف الجمعية التي تصورها حضرة الرئيس، واقنعاه بقبول هذه الفكرة.

وهكذا ولدت جمعية الامم، وأملى الدكتور ويلسون على مؤتمر الصلح معظم بنودها التي كانت تجول في مخيلته، ثم عدّلتها الدولتان ما ترغبان، ومنها المادة الثانية والعشرين التي قضت على هذا الشرق بالخضوع والعبودية الى ما شاء الله، كما أوضحنا ذلك خلال التعليق على المادة المذكورة في بابها.

ومن الغريب ان الولايات المتحدة صاحبة هذا الاقتراح رفضت بعدئذ الاشتراك في تلك الجمعية لسببين: الأول كون الدولة الانكليزية جعلت لنفسها أصواتاً متعددة في نفس الجمعية لا صوتاً واحداً كسائر الدول مما يؤدي الى رجحان كفّتها في كل آن. والسبب الثاني هو احتمال تدخل أوروبا في يوم من الأيام في أمور اميركا خلافا لقاعدة (مونرو) القاضية بأن تكون اميركا للأميركيين وحدهم والتي تعطي الولايات المتحدة حق الاشراف على هذه القاعدة دون ان يكون لها تدخل في شؤون البلاد الداخلية. ويكفي القول بأن جمعية الأمم أصبحت في أيدي دول اوروبا العظمى (انكلترا وفرنسا وايطاليا) التي هي صاحبة الرأي المسموع والقول الفصل في هذه الجمعية ايضاً.

أما ظلامات الأمم المستضعفة التي تأسست الجمعية لأجلها فلا يصغى لها مهما تعاظمت، لأنها ربما تمسّ بكرامة الدولة المشتكى عليها. واذا أرادت هذه الدولة عطفاً من بعض أعضاء الجمعية نحو الضعيف تبرق وترعد، وتهدد تهديداً يكمّ الأفواه (كما فعلت ايطاليا في اختلافها مع اليونان والحبشة) وتضطر الجمعية الى ابداء النصح للأمة الشاكية بأن تتفق مع الدولة المشتكى عليها ليس غير.

وهذا كل ما تستطيع عمله جمعية الأمم، ولكل بداية نهاية، ولا يدوم غير الله وحده.



هوامش الفصل الثاني عشر

(١) نشر الجنرال غورو بلاغاً رسمياً جاء فيه ـ انه على أثر انسحاب الافرنسيين من كليكيا وانتقال القوى الافرنسية التي كانت مرابطة فيها الى سورية بلغت الجنود التي سيقت الى ميسلون العدد الآتي بالآي المشاة ٤٢٥ وآلاي رماة الجزائريين الثاني، ولواء سنغالي، وآلاي من السباهي المغربي. وخمس بطاريات سهلية، ومثلها جبلية، وبطاريتان من عيار ١٥،٥ مجموعها يناهز التسعة آلاف جندي تعززها طيارات ودبابات ورشاشات وكلها بقيادة الجنرال غوابه وقد تطوع في هذه الحملة عدد كبير من الموارنة اللبنانيين بينهم بعض المتعلمين للقيام بأعمال الاستطلاع والترجمة.

(٢) هو جلالة الملك الذي لم يعترف بملكيته.

(٣) هو اعلان استقلال البلاد عند اعلان البيعة لفيصل.

(٤) هو ما جاء في مقدمة الانذار الخطي.

(٥) هو طلب الحكومة نفسها.

(٦) في خلال ذلك شكا جلالة الملك الى اللورد اللنبي من ضغط الافرنسيين وتكاليفهم الشديدة. فأجابه اللورد ناصحاً بقبول هذه التكاليف كيلا يطلبوا وينالوا أعظم منها.

(٧) سبق لفرنسا نفسها ان ارسلت حملة عسكرية على دمشق عقيب الحادثة الشامية سنة ١٨٦١. ثم استرجعتها من سهل البقاع وهي النقطة التي بلغتها حملة الجنرال غوابه في هذه المرة، ولم تبد فرنسا وقتئذ اي اعتراض على سحب جنودها ولكن سياسة الأمس لا تشبه سياسة اليوم. و لكل اجل كتاب.

(٨) كان الجيش العربي يؤلف من قسمين من الجنود القسم الأول اهل البلاد الذين عندما بلغهم امر التسريح هبوا بأسلحتهم وذخائرهم ورحلوا بها عائدين الى بلادهم والقسم الثاني هم المتطوعون القدماء من اهل اليمن وغيرهم وهم قليلون لبثوا في الكتائب لبينما يتقاضون رواتبهم.

(٩) في خلال ذلك تعهد بعض رجال دمشق ومتزعمي الضواحي الى جلالة الملك بجلب الوف ومئات من الفرسان والمشاة والحاقهم بالجيش العربي ليذبوا عن حياض الوطن وتبعهم ملحم قاسم من بعلبك وحسين الشماط من سرغايا ونواف بن نوري الشعلان شيخ قبيلة الرولة (الذي كان هو وابوه أيام الحرب الكبرى يلازم الكولونيل لورانس الانكليزي ويستكتب له المتطوعة من الأعراب كما ذكرنا ذلك في بابه) ولقاء هذا التعهد تناولوا عطايا نقدية وافرة، على انه حينما وقعت الواقعة لم يحضرها احد منهم ولا من ذويهم. كما نشرحه فيما يأتي.

(١٠) بلغ الحماس بهؤلاء المتطوعين درجة ساقتهم الى اطلاق الرصاص في الهواء وجعل سقوف الأسواق الحديدية كالمصفاة من كثرة ما أصابها من الرصاص، فأضاعوا بذلك ايضاً قسماً غير قليل من ذخيرتهم الحربية.

(١١) جميل الالشي من الضباط السوريين الذين كانوا في معية فيصل. رافق شكري باشا الأيوبي ورستم حيدر الى بيروت موفدين من فيصل لاعلان قيام الحكومة العربية، ولما أمره اللنبي بانزال العلم العربي وانسحاب الايوبي بقي الألشي في بيروت ضابطاً للارتباط. وبعد اعلان فيصل ملكاً على سورية عيّن كبيراً لمرافقيه. ثم اصبح بعد معركة ميسلون وخروج فيصل من سورية وزيراً للدفاع في الوزارة التي الفها الفرنسيون برئاسة علاء الدين الدروبي (انظر: ما ذكره عنه ساطع الحصري في كتابه «يوم ميسلون» ص ١١٦ وما بعدها).

(١٢) لما انتخب كامل باشا الصدر الأعظم صديقه خليل باشا حماده البيروتي ثم المصري وجعله وزيراً للاوقاف في الدولة العثمانية لجأ اليه حقي بك العظم الذي كان يقيم لدى خاله في القاهرة، وجاء معه الى الآستانة، فعينه خليل باشا مفتشاً للاوقاف، وما لبث خليل باشا ان ادركه الأجل فعاد حقي بك الى مصر بدون وظيفة، ولما جاء الأمير فيصل الى الشام رام حقي بك ان يتصل به ويكون كاتم أسراره، فرفضه الأمير لانتسابه الى الافرنسيين وافراطه في مدحهم وخدمتهم على صفحات الجرائد، وأعاده خائباً، فاتصل وقتئذ بالحزب الماروني الافرنسي الذي يرأسه عبد الله باشا صفير اللبناني، وكان هذا الحزب دائباً على السعي وراء فصل جبل لبنان عن سورية فأعانه حقي بك بقلمه، ولما احتل الافرنسيون سورية كافؤوه وجعلوه رئيساً لمجلس الشورى ثم حاكما لدولة دمشق.

(١٣) عمان هي بلدية عمون القديمة.

(١٤) اليك مقدار نفوس سورية بحسب الاحصاءات الرسمية الأخيرة وهي مجموعها لا تعادل نصف سكان مدينة لوندره وحدها التي تعم (٨،٢٠٢،٨١٨) نفسا من البشر.

النفوس	المنطقة
١٨٢٤٦١٤	سورية
٧٩٣٠٠٠	جبل لبنان
٣٤١٥٩٦	العلويون
٠٦٤٥٤٠	جبل الدروز
٣٠٢٣٧٥٠	مجموع الانتداب الفرنسي
١٠٣٥١٥٣	مجموع فلسطين وشرق الاردن تحت الانتداب الانكليزي
٤٠٥٨٩٠٣	

(١٥) تاريخ اعلان الحرب العالمية، والقصد منه دولتا المانيا والنمسا اللتين تخلتا باختيارهما عن الامتيازات الأجنبية قبل ذلك التاريخ.

(١٦) على أثر هجرة الارمن الى بلادنا عمدت الحكومة المحلية المتحركة بأمر الدولة المنتدبة وإيعازها الى استخدام الأغراب في اعمالها العامة. واخذت ترجحهم على ابناء الوطن وتسد في وجوه الوطنيين ابواب الأرزاق. فالاغراب احتكروا معظم الخدمات العامة من أعلاها الى أدناها. وتوصلوا حتى الى الوظائف الصغرى كبوابي المدارس وحراس القبور وما شاكلها. وأصبح أهل البلاد بمعزل عن ذلك المجتمع وما عليهم سوى الغرم ولغيرهم الغنم فقط.

(١٧) السي قدور بن غبريط الوزير المراكشي السابق المشرف على انشاء جامع باريز جاء دمشق مرتين ايام الحكومة التاجية واخذ من ريع أوقافها بأمر معاونة الحكومة الافرنسية مبلغاً قيل انه خمسة آلاف دينار ذهباً باسم اكمال الجامع المذكور. ان هذا الرجل الذي رأيناه كلما زار دمشق يبالغ في اكرامه والاحتفاء به. وتزدان له دار الحكومة ومنزل رئيسها كما تزدان للملوك. ساقتنا الصدف على العثور في العدد ٦٩٤ من الألف باء الدمشقية نقلا عن الصحف الافرنسية على هذه الفقرة الدالة على اخلاقه ومبلغ تمسكه بأحكام الدين الاسلامي فنقلناها هنا بالحرف:

أهدى السي قدور بن غبريط الى المسيو مارياتي الخمار الافرنسي الشهير صورته الشمسية وكتب تحتها هذه العبارة: «ان كتابنا الكريم القرآن يقول ان الخمرة فيها إثم ومنافع للناس وان إثمها اكبر من نفعها ولو وجد شراب مارياتي المنعش للحياة والمجدد للصحة في عصر الهجرة، لكان مفسرو شريعتنا الحريصون على صحة أجسام المؤمنين فتوا بجواز استعماله».



فهرس عام بأسماء الأشخاص والأماكن وسائر الاعلام

أ

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ز

س

ض

غ

ف

م

و

ي

£14.00 net
in UK only

مرآة الشام
تاريخ دمشق وأهلها

كتاب تاريخي قيّم، يشكّل مرجعاً مهماً وحافلاً عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سورية من العهد العثماني الى الحرب العالمية الأولى وفترة الاستقلال القصيرة في عهد الملك فيصل، الى عهد الانتداب الفرنسي حتى أواسط الثلاثينات.

وعبد العزيز العظمة ـ شقيق شهيد ميسلون يوسف العظمة ـ سجّل في كتابه هذا كثيراً من المعلومات والتفاصيل الدقيقة عن الحياة الاجتماعية في سورية مما لم يسبق تسجيله في كتاب آخر.

ISBN 1- 869844- 37- 8